مدن الملح

التيه

* في الرواية نفس ملحمي لا أعرف مثله في أي روائي. إنه يذكرني بالروايات الكبرى التي كتبت في الغرب في النصف الأول من هذا القرن.

جبرا ابراهيم جبرا

* مدن الملح وثيقة اجتماعية تاريخية ترصد فترة من أخطر الفترات في التاريخ العربي المعاصر.

فيصل دراج

* يدهشنا منيف بمقدرته على صياغة رقعة النسيج الواسعة بتفاصيلها الدقيقة، وفي تعدد مظاهرها، بحيث تراها العين ـ الذاكرة مشتعلة في زمن واحد.

يمنى العيد

* إن فكرة منع تداول مدن الملح في (. . .) فكرة غريبة إلى درجة تثير السخرية شأن منع تدخين النرجيلة في مينابوليس.

جون ابدايك ـ نيو يوركر

* لو طلب إلي أن اختار خمسة أفضل كتب صدرت (بالإنكليزية) في عام ١٩٨٨ لاخترت مدن الملح واحداً منها.

ميشيل ابشيرسن ـ روائي أميركي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هاتف ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الخطوط: قنوع
صمم الغلاف: نذير نبعة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عبد الرحمن مُنيف

مدن الملح



التيه

عبد الرحمن مُنيف

رواية

مدن الملح

التّيه

طبعة جديدة منقحة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الى

علي منيف ..

الذي رحل قبل الأوان

انه وادي العيون . . .

فجأة ، وسط الصحراء القاسية العنيدة ، تنبثق هذه البقعة الخضراء ، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء ، فهي تختلف عن كل ما حولها ، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة ، حتى ليحار الانسان وينبهر ، فيندفع الى التساؤل ثم العجب « كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا ؟ » لكن هذا العجب يزول تدريجياً ليحل مكانه نوع من الاكبار الغامض ثم التأمل . إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبّر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها ، وتبقى هكذا عصيّة على أي تفسير .

وادي العيون قد يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفاً ، وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة ، لأن هؤلاء تعودوا ان يروا أشجار النخيل تملأ الوادي ، وتعودوا ان يروا الينابيع تتفجر في أمكنة عديدة خلال فصل الشتاء ثم بداية الربيع ، الا أنهم . رغم العادة ، يحسون ان قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة . أما إذا جاءت القوافل ، وقد جللتها أكوام الغبار وهدها التعب والعطش ، وأخذت تجدّ في السير ، خاصة في المرحلة الأخيرة ، لتصل الى وادي العيون بأسرع وقت ، فكانت

القافلة كلها تمتلىء نشوة اقرب الى الرعونة ، لكنها لا تلبث أن تسيطر على اندفاعها حين ترى الماء ، متدرعة بحجة ان الذي خلق الدنيا والبشر خلق في نفس الوقت وادي العيون في هذا المكان بالذات ، ليكون إنقاذاً من الموت في هذه الصحراء الغادرة الملعونة . فاذا استقرت القافلة ، وفكت أحمالها ، وارتوى الرجال والدواب ، فإن نوعا من الخدر اللذيذ ، لا يلبث أن يتحول الى رضى عارم ، يسيطر على كل شيء ، ولا يُعرف ما إذا كان ذلك يتولد من المناخ ام من عذوبة الماء ، او ربما نتيجة الشعور بزوال الخطر ، لأنه لا يقتصر على البشر وحدهم ، اذ يتجاوزهم ليصيب الحيوانات ايضاً ، فتصبح اقل طاعة وأقل رغبة على الاستجابة للأحمال الثقيلة او على مواصلة السفر بعد ذلك .

وادي العيون بالنسبة للقوافل شيء خارق ، اعجوبة لا يصدقها من يراها لأول مرة ، ومن يراها لا ينساها بعد ذلك ، حتى ليتردد اسم الوادي في جميع مراحل الطريق ، في الذهاب والعودة : « كم بقي لنصل الى وادي العيون ؟ » « إذا وصلنا وادي العيون وأمرحنا هناك سوف نستريح اياماً قبل أن نواصل السفر » « أين أنت يا وادي العيون يا جنة الدنيا » .

هذا الإلحاح على ذكر وادي العيون يعني الكثير ، اذ إضافة الى الانقاذ الذي يشكّله للقوافل والمسافرين ، فانه في هذا الموقع بالذات ، يمكّن رجال القوافل من التأكد من اشياء كثيرة : متى مرت القوافل الأخرى والى أين ذهبت . ماذا تحمل هذه القوافل وكم تحمل .... هذا زيادة على معرفة الأسعار وأصحاب الأحمال وغير ذلك من المعلومات ، وعلى ضوئها يقرر رجال القافلة ان كان عليهم أن يبيعوا في هذا المكان أو ذاك ، ان يسرعوا في السفر او يؤخروه اياماً ، ثم ما يجب تداركه في الطريق من أعمال ومواد ... أو معاودة السؤال .

لو ترك لمتعب الهذال ان يتحدث عن وادي العيون لقال كلاماً لا يصدقه أحد ، لأنه لا يقتصر على طيب الهواء وعذوبة الماء الذي لا يتوقف يوماً واحداً في السنة ، ولا عن روعة الليل ، انه يضيف أشياء أخرى كثيرة خارقة ، ويروي قصصاً يعود بعضها الى أيام نوح ، كما تؤكد العجائز ! بين متعب الهذال ووادي العيون علاقة خاصة ، عشق من نوع لا يتكرر كثيراً . أما الذين عاشوا خلال فترتين ، الفترة

التي كان فيها وادي العيون كما يراه متعب الهذال ، ثم الفترة التي تلت ذلك ، فسوف يتحدثون بطريقة مختلفة . سوف يقولون ان هذا الوادي ، بالنخيل الذي يملؤه ، بالمياه التي تروي الناس الذين يعيشون حوله ، والتي توقف المسافرين أياماً لكي يستريحوا ويتزودوا بما يحتاجون اليه ثم يواصلون رحيلهم بعد ذلك ، ربما الى أماكن افضل ... إن هذا الوادي في هذا المكان من الأرض لا غنى عنه ، ولو لم يكن موجوداً لما كان هناك بشر أو حياة ، ولما كانت هناك طريق ايضاً ، ولما جاءت اليه القبائل ، وما كان لمتعب الهذال وقبيلة العتوم ان يعيشوا في هذا المكان من الأرض .

يمتد الوادي مسافة ثلاثة أميال او تزيد قليلاً . وهذا الامتداد العريض في البداية ، لا يلبث ان يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصبح في نهايته مجرد شريط رفيع تتناثر فيه أشجار قليلة من النخيل ، وهذه الأشجار تعيش على ما يتسرب اليها من بقايا الماء ، وربما من بقايا البشر والحيوانات ، ولذلك فهي في نهاية الوادي أقل نمواً وتتباعد بطريقة لافتة للنظر . فاذا وقف الانسان عند شجرة النخيل الأخيرة فان الأرض الرملية المملوحة تبدأ هناك ، وهذه الأرض الخاصة المتميزة هي جزء من الوادي وجزء من الصحراء ، لأنها ، بعد ذلك ، تنهض بسرعة لترتفع قليلاً قليلاً الى أن تصبح هي والصحراء التي تليها شيئاً واحداً . وحين تهب الرياح فإن الرمال تتراكم على هذا الجزء المنحني ، لكن شجيرات الأثل ثم السدر والشيح القصيرة المستدقة ، والتي تتكاثر عند نهاية الوادي ، تمنع تقدم الرمال وتجعل الأرض داكنة بعض الشيء وتجعلها اكثر تماسكاً ايضاً ، مما يساعدها على أن توقف حركة الرمال ، أو على الأقل تحد من حركتها وامتدادها .

بعد الوادي وحوله تقوم بعض الهضاب . وهي هضاب رملية متحركة ، لكن اتجاه الرياح ثم طبيعة التربة تجعلها أكثر ثباتاً من غيرها . وتجعلها مشرفة على مساحات واسعة من الأرض المحيطة بها ، ولذلك يستدل بها الناس ويطلقون عليها أسماء لتمييزها . فمن جهة الشرق تقوم الظهرة . أما من جهة الشمال فالوطفة وأم الأثل ، ومن ناحيتي الغرب والجنوب تقوم هضاب أقل اهمية ولا تعني الكثير بالنسبة للوادي أو المسافرين ، ومع ذلك اطلقت عليها الأسماء ، لأن طبيعة الصحراء تجعل للأسماء اهمية تفوق غيرها . وهذه لم تخلق نتيجة الرغبة أو في لحظة من لحظات

الجنون ، وإنما خلقتها الطبيعة ذاتها وأعطتها من الأسماء ما يوازي اهميتها أو الصفات التي تحملها .

الذين سافروا وعرفوا الأمكنة ، يعرفون ان البحر ليس بعيداً عن وادي العيون ، إنه على مسيرة سبعة أو ثمانية أيام . لكن طريق القوافل لا تصل البحر ، وان كانت تقترب منه أو تبتعد عنه تبعاً لوجود الماء والواحات . أما نهاية الصحراء ، من الناحية الثانية ، فلا أحد أبداً يقدّر نهايتها ، قد تكون بعيدة وقد لا تكون ، لكنها بنظر الجميع سر لا يعرف أحد الوصول الى حقيقته .

في سنوات الخير يظهر الخير ، اول ما يظهر ، في وادي العيون ، إذ إضافة الى غزارة المياه التي تملأ الأحواض الثلاثة المحيطة بالنبع ، فان مياه العيون تنحدر الى أماكن لم يكن متوقعا ان تصلها . وفي تلك السنين تزرع الخضرة ، وتظهر النباتات المختلفة ، خاصة التي تأتي مع الأمطار المبكرة ، ويتصرف الناس في الوادي بطريقة لا يصدقها المسافرون الذين تعودوا المرور على محطات كثيرة مشابهة ، اذ يسرف أهل الوادي في الإلحاح على المسافرين للبقاء فترة اطول ، ويظهرون تعففاً زائداً في ان يأخذوا مقابل ما يعطون ، وتصطنع المناسبات لكي تجعل الكثيرين يمسكون عن الرحيل ؛ وفي مثل هذه السنين يتبدى الكرم حتى يبلغ حدّ الاسراف فيستغرب المسافرون ويقولون إن أهل وادي العيون أقرب الى السفه والرعونة ، وانهم لا يفكرون في الغد ، ولا يتذكرون الأيام الصعبة التي مرت عليهم في السنين السابقة .

أما في سنوات الجفاف ، وهي أكثر السنوات ، فان أهل وادي العيون يتصرفون بطريقة مختلفة ، إذ يبدون اكثر حزناً ، وأقرب الى الانطواء ، ويتركون المسافرين يتصرفون بالطريقة التي تروق لهم ، دون الحاح منهم ودون إزعاج ايضاً . أما اذا عرضت عليهم بعض السلع مقابل ما يقدّمون من تمر وماء وخدمات أخرى ، فانهم يتقبلونها شاكرين ، وبأقل الكلمات . وإذا الحف اهل الوادي بطلب شيء فانهم يلحفون بأن توافق القافلة على أن تحمل معها بعض المسافرين الجدد ، وهؤلاء يكونون قد استعدوا منذ وقت طويل وانتظروا وقتاً أطول ، وبرحيلهم يشعر الوادي ببعض الراحة وببعض الأمل ، لأنه تخلص من أعباء كانت تثقله ، ولأنه، اكثر من ذلك، ينتظر آمالاً سوف تأتي ذات يوم مع الذين رحلوا ،ولا بد ان يعودوا . وما بين

الراحة والأمل ، وباستمرار الماء والقوافل يستمر الوادي عزيزاً قوياً ، لا يخاف ولا يتردد ، لأنه سيجد طريقته ، ـ ودائماً يكتشف هذه الطريقة ـ لمواجهة المصاعب والتغلب عليها .

بشر وادي العيون ، اذن ، مثل مياهه : اذا زادوا عن حد معين فلا بد ان يفيضوا ، ان يتدفقوا الى الخارج ،وهذه الزيادة، فالهجرة، لازمتهم منذ امد بعيد . فجأة يحسون انهم تكاثروا ، وأن الوادي لم يعد قادراً على احتمالهم ، ولا بد للشباب القادرين على السفر من اكتشاف اماكن جديدة ، ليشدوا الرحال اليها من أجل الاقامة والرزق . ان حالة مثل هذه تبدو خفية غامضة ، وقد لا تتعلق دائماً بالأمطار او المواسم ، كما هي الحال في أماكن اخرى ، اذ رغم المطر الذي قد يأتي في سنة من السنين ، ورغم المراعي التي تحيط بالوادي ، والمياه التي تفيض وتمتد الى مسافات لم تكن تصلها في أوقات أخرى ، فان هاجساً ملعوناً ينمو بخفاء وبطء في القلوب . وهذا الهاجس الذي يحسه الكبار ، لكن يتكتمون عليه ويقاومونه ، ينام وينهض في قلوب الشباب والأمهات ، فيأخذ شكلاً حاداً عصبياً عند الشباب ، وشكلاً حزيناً يائساً عند الأمهات . لكن رغبة اكتشاف العالم ، وحلم الغنى ، وذلك الحنين الى شيء ما ، يلح على الشباب الى درجة لا يستطيعون معه الصبر أو احتمال نصائح المسنين ، ولذلك يقررون وحدهم ، مهما كانت هذه القرارات قاسية .

لا يوجد واحد من الرجال في الوادي ، خاصة في سن معينة ، لم تستول عليه رغبة السفر ، وقلما يوجد واحد من المسنين لم يسافر الى مكان من الأمكنة . صحيح ان هذه الرغبات والسفرات تتفاوت من حيث المدة والنتائج ، اذ قد تستمر سنوات طويلة ، وقد تمتد فتشمل العمر كله ، وبعضها قد لا يدوم أكثر من شهور ، يعود بعدها المسافر خائباً أو ظافراً ، لكنه يعود ايضاً مملوءاً بالحنين في الحالتين ، ومثقلاً بالأفكار والذكريات وحلم السفر مرة أخرى . أما النتائج التي جناها المسافرون من أهل وادي العيون فلا يمكن أن تلخص بكلمات قليلة ، لأن لكل مسافر مقاييسه وتصوراته ، وأغلب الأحيان لا يتفق معه الآخرون في هذه المقاييس والتصورات، فالنجاح والفشل، الغنى والفقر، لا يعني مفهوماً واحداً بالنسبة للجميع . فقد صادف ، في حالات كثيرة ، ان عاد بعض المسافرين من أهل الوادي ، ورافق عودتهم الكثير الكثير من الأحاديث والأفكار والقصص ، ثم

الليالي الطويلة من الأحلام . لكن ظل هؤلاء المسافرون فقراء ، أو أقرب الى الفقر . ومع ذلك لا يكفّون ، ولايكفّ غيرهم ، عن تذكر عشرات القصص حول الأعمال التي قاموا بها والمبالغ التي وصلت لأيديهم ، ثم كيف ذهبت . وان الحياة لا تدوم لأحد .

هذه القصص وغيرها تتردد كثيراً في وادي العيون ، وهي تثير الخيال وتخلق تحريضاً لا يمكن مقاومته ، والأبناء الذين يقدمون الوعود القاطعة أن سفراتهم لن تطول ، وأن عودتهم ستكون في الربيع أو الخريف ، يدركون أن المسنين لا يصدقونهم ، لكن شعوراً أقرب الى اليأس والتسليم يدفعهم الى الموافقة والتصديق . أما إذا جاء ذكر الموت ، وسقطت دمعة أم ، أو صدرت عن الأب كلمة من نوع معين ، وأحس الأبناء بقرب الأجل ، فإنهم يحسون أيضاً بروح شيطانية تسيطر عليهم وتجعلهم أكثر قسوة وأكثر استخفافاً ، لكنهم في اللحظة الأخيرة يهدأون ويتراجعون .

حديث وادي العيون والسفر له بداية بالنسبة لأي شخص ، لكن ليس له نهاية . وهذه الحالة يعرفها الكبار والصغار ، وتعودوا عليها وألفوها الى درجة لم تعد تثير احداً او تخلق أحزاناً لا يمكن مقاومتها . حتى الأمهات اللواتي يردن ان يبقى أولادهن في الوادي ، وان يستمروا فيه الى النهاية ، لأنهن يخفن الأمكنة الأخرى ، ولا يتصورن وجود أمكنة افضل ، لا بد أن يسلمن في فترة من الفترات ، لكنه تسليم العاجز اليائس ، مع أمل ان يعود هؤلاء في وقت من الأوقات ، لكن بعد أن يكونوا قد شبعوا من السفر !

* * * *

. . وتصرفات الناس أيضاً في وادي العيون خليط عجيب من الوداعة والجنون ، اذ بمقدار ما يبدون مسالمين ممتلئين رضا ، فيندفعون الى المساعدة بهمة كبيرة ، دون انتظار مقابل من أي نوع ، فانهم في أوقات اخرى أميل الى الكسل والأحلام ، حتى رجال القوافل الذين لا يقيمون في الوادي إلا فترات قصيرة ، عرفوا في الناس هذه الصفات ، واحتملوا كثيراً من التصرفات التي لا تبدو مقبولة في أماكن أخرى . كانوا يقولون : اهل الوادي اطفال كبار ، الكلمة تحييهم وتقتلهم ، وعلى الانسان ان يعرف كيف يتكلم معهم وكيف يعاملهم . لذلك يجب أن يكون التصرف مع

أهل الوادي بطريقة خاصة ، وهذه الطريقة قد تعبر عن نفسها دون كلمات بعض الأحيان لأن الناس هنا ينظرون الى الآخرين ، ويرقبون الحركات والتصرفات بانتباه شديد . فاذا كوّنوا قناعة أو وصلوا الى رأي اصبحوا اسرى لهذه القناعة وهذا الرأي ، وقلما غيرّ احد من اهل الوادي نظرته او تصرف وفقاً لقناعة مغايرة ، وحتى لو اختلفوا فيما بينهم حول اشخاص معينين أو حول بعض المواقف . كان ينبري من يقول : « لا تتعجلوا! لقد رأيت آلاف البشر ، وعلمتني الحياة الكثير ، فانتظروا » . ان كلمة من هذا النوع تضع حداً لمناقشات كثيرة ، لأن رهاناً ضمنياً يقوم في تلك اللحظة ، والأيام وحدها ستثبت من يكون مصيباً ومن هو المخطىء .

وكثيراً ما يؤكد المسافرون ويوصي بعضهم بعضاً أن يكون التعامل مع اهل الوادي بطريقة مختلفة عما تعودوا ، لأن خطأ بسيطاً او تصرفاً يتسم بالحماقة ينعكس على القافلة كلها ، ويؤثر على العلاقة لأمد طويل . فالذين كانوا يحرصون على أن يناموا الى جانب احمالهم وبضائعهم ، لا يتركونها ولا يسهون عنها لحظة واحدة ، ولا يثقون بالآخرين اذا أبدوا رغبتهم في حراستها . ان هؤلاء يتخلون بثقة ورضا عن هذه المهمة اذا وصلوا الوادي ، لأنهم يعرفون مدى الأمانة والحرص اللذين يميزان الناس هنا . أما اذا جرت عمليات البيع والشراء ، فان أهل الوادي يفضلون أن تجري بسرعة ودون مساومات أو إكراه ، لأن المساومات اذا جرت ينظرون اليها باستغراب مشوب بعدم الثقة وعدم التصديق ، خاصة إذا التقى رجال قافلتين وبدأت تلك المفاوضات القاسية الطويلة والتي يتخللها الكثير من مظاهر عدم الرغبة في الشراء ، أو الاختلاف الكبير فيما يعرضه المشترون وما يطلبه البائعون ، حتى اذا انتهت تلك المفاوضات بشكل مفاجىء ، وبالأثمان والشروط التي حددها المشترون ووافق عليها البائعون ، بدت مظاهر الاستغراب ، وبعض الأحيان صرخات عدم التصديق أو الاستنكار ، لكن الضحكات التي تملأ وجوه الطرفين ، والتي تدل على الرضا ، تدفع بعض رجال الوادي لأن يقول :

- هؤلاء التجار شياطين في ثياب بشر . لأنهم لا يعرفون الحلال ولا يخافون من الحرام .

فاذا تصدى من يقول ان التجارة تعتمد على المساومة وعلى المفاوضة ، ثم الرضا

في النهاية ، وان مال التجارة حلال مثل مطر السماء ، كان أهل الوادي ينظرون اليه بنوع من الشفقة الممزوجة بالسخرية ، ويقولون له أو في انفسهم « وكيف يتساوى من يعمل طوال العام لكي يكسب رزقه بمن يربح اكثر المال في لحظة ؟ » .

ما يميز اهل الوادي ويجعلهم نمطاً خاصاً من الناس يظهر أكثر ما يظهر في العتوم ، لأنهم في المكان الذي اختاروه سكناً لهم ، في الظهرة ، ثم العلاقة التي تربطهم بالعشيرة الكبيرة المنتشرة على مدى الصحراء ، كوّنت لهم نظرة للحياة والعلاقات والسلوك قد تختلف عن الآخرين ، فهم ليسوا مضطرين لاستقبال القوافل لحظة وصولها ، لأن القوافل اول ما تتجه الى الماء والى الخان القريب ، والعتوم في أعلى الظهرة يرون ويعرفون لكنهم لا ينزلون الا بتروٍ وبعد وقت من وصول هذه القوافل . أما انهم جزء من العشيرة الكبيرة فيعطيهم قوة وشعوراً بالثقة ، لذلك ينظرون الى الأشياء والمال نظرة فيها ذلك الترفع ، وبعض الأحيان فيها الاستهتار ، لأنهم على ثقة ان الحياة مهما قست عليهم لا يمكن ان تطحنهم ، وهذا يدفعهم في حالات كثيرة الى نوع من السلوك فيه فظاظة وشيء من الخشونة ، لكنهم اذا وثقوا ، اذا أحبوا ، اعطوا كل شيء دون تردد ، ورضوا بأي شيء دون شعور بالمرارة .

والعتوم في وادي العيون اكثر الناس فقراً ، لكنهم أكثر الناس ترفعاً ، وربما كان هذا الترفع ناشئاً عن الفقر ذاته ، لأن أي واحد من العتوم لا يمكن ان يصبح غنياً حتى لو أراد ، اذ في ساعة من تلك الساعات التي لا يعرف احد متى تأتي يبدّد كل ما جمعه دون شعور بالأسف ودون ندم أيضاً ، ويبدأ من جديد ، لكن بهمّة لا تعرف التعب أو التوقف ، حتى اذا جمع شيئاً زائداً بدأ اللعبة ذاتها مرة أخرى !

والناس في وادي العيون ، أيضاً ، فقراء ، لكنهم يبدون الرضا عن الحياة التي يعيشونها ، وقد يسرفون بعض الأحيان الى درجة المبالغة . ومع ذلك فانهم في أوقات معينة يبدون السخط ، لأن التمر الجاف واللبن ، وهذا الخبز القاسي الذي يضطرون لأكله اياماً متوالية ، يجعلهم في حالة من العصبية نظراً للآلام التي تتولد في امعائهم ، ثم ذلك الجفاف الذي يصيب الوجوه والأطراف ، وما يعقبه من الضعف، حتى إن الرجل إذا قام من مكانه أصابه الدوار وسقط. والأطفال الذين تظهر عليهم آثار ذلك من النحول والصفرة ، وبعض الأحيان من القيء والاسهال اللذين يتواليان في أيام الصيف بأوقات متقاربة .. هذه المظاهر حين

تتكرر وتزداد تولد المخاوف وتشعر الناس انهم بحاجة الى الأدام والى قليل من اللحم لكي تقوى أجسادهم على المقاومة . وفي مثل هذه الحالات ينتظر الوادي وصول قافلة ، لأن مجيء القافلة يعني تغييراً في طبيعة الحياة ، وإمكانية أكبر على ذبح عدد من رؤوس الغنم ، مقابل ما يحصل عليه أهل الوادي . فاذا تأخرت القوافل كثيراً ، فلا بد أن تصطنع مناسبة ما لكي يذبح جمل ويأكل الوادي كله . . وعند ذاك تتغير الحياة .

إذا تغيرت الحياة تتغير طبائع الناس وتصرفاتهم . يصبحون اكثر رغبة في الحديث ، وأكثر استعداداً للسهر ، وفي ليالي الصيف لا يكتفون بالجلوس حول دلال القهوة او تبادل الأحاديث . اذ تصيبهم حمى الغناء وبعض الأحيان الرقص . وفي هذه الليالي تتفجر الأفكار والاحزان والذكريات ، وتطغى على الرجال الرغبة في المضاجعة ، وبعض الأحيان الرغبة في العراك ، كل ذلك يتم لأسباب غامضة ، وفي حالات أخرى دون أسباب ، اذ ما يكاد الجوع يفتك بالأمعاء ، وما تكاد اواني اللبن تدور حتى يصرخ احد الرجال :

ـ الشواء . . . نعم الشواء ما يجب ان يؤكل في هذه الليلة . . .

ولقد صدف مراراً انه خلال الليل ، بشكل سريع ومفاجيء ، ربما نتيجة رهانات قديمة ، يتم الاتفاق على أن يذبح جمل في الفجر . وحين يبدأ الاعداد لذلك تظهر البراعة والخفة ، وتظهر انواع لا حصر لها من المساعدة والتعاون ، اذ تهيّء جماعات الحطب وتهيء غيرها القدور ، وثالثة تعد خبزاً جديداً ، أما الذين يبدون استعدادهم للذبح والسلخ والتقطيع فكثيرون ، وخلال فترة قصيرة يتحول الوادي الى خلية من النشاط والحركة . انها حركة من نوع خاص ، فيها القدرة على البقاء والتحدي واصطناع الأسباب لمقاومة الفقر والأحزان .

نتيجة لهذه الحياة اكتسب الناس في وادي العيون صفات في الجسد . . . شديدة الظهور ، فهم أميل الى الطول ، مع اتساق في العظام أما الأطراف فمستقيمة ناحلة وكذلك الخصور والأكتاف حتى ليظن من ينظر اليهم وكأنهم مجموعة من الخيول التي طال ترويضها وإتعابها ، فضمرت اكثر مما ينبغي ، لكن ظلت قوية مفتولة وجميلة ايضاً . أما الوجوه فانها أميل الى الطول لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها

وانسجامها ، حيث تظهر الشفاه الرقيقة ، مع الوجنات المنسكبة دون بروز او نتوءات من أي نوع ، عكس المناطق الأخرى ، والتي كثيراً ما تظهر عيوباً حادة في مكان من الوجه او الجسد .

ولأن الناس متشابهون في وادي العيون ، سواء بالملامح وطبيعة الحياة ، فانه لا يمكن التمييز بين واحد وآخر الا بحكم السن او رجاحة العقل ، او ربما بالقرابة مع العون الجد ، والذي يعتبر جد الوادي كله وأقوى شخصية فيه ، رغم انه قضى منذ سنين طويلة ، لكن القصص التي تروى عن شجاعته وكرمه ، ثم ذلك التفاني الذي ميّز كل حركاته وسكناته ، جعلته بنظر الجميع خارقاً ومهيمناً .

وإذا كان ابراهيم العون وقبيلة العتوم قد جاءوا من الصحراء البعيدة واستقروا في وادي العيون ، فان للطبيعة والأمكنة ايضاً قوانينها التي قد تبدو غير مفهومة .

وآل العون ، ومنهم جازي الهذال ، وقبله ابوه متعب ، انزرعوا في هذا المكان كأشجار النخيل . كان يتنازعهم حنين العودة من حيث أتوا ، وحنين السفر الى الأماكن الأخرى ، لكنهم كانوا يحسون أيضاً ان قضية غامضة مناطة بهم . وإذا كان الناس لا يزالون يتذكرون جازي الهذال قبل أربعين أو خمسين سنة ، وما فعله ضد الأتراك ، وكيف جعل حياتهم في وادي العيون جحيماً لا يطاق ، كيف كان يختفي فترة حتى يظن الكثيرون أنه قد قُتل او قد مات ، ولم يعد له أثر ويكاد ينساه الناس ، بمن فيهم الأتراك انفسهم ، حتى ينفجر مرة أخرى فيقتل ويدمر ويحرق ويأخذ ما يستطيع أخذه ويغيب في الصحراء فترة من الزمن يعتبرها كافية للنسيان ، فاذا عاد مرة ثانية حوّل الوادي الى جحيم .

لقد فعل جازي ذلك مرات عديدة ، حتى قبل ان يصبح الأتراك أعداء بنظر الناس ، واستمر كذلك الى ان تركوا . أما محاولات القيادة التركية ملاحقته والقبض عليه فقد انتهت بأن قتل قواد الحملتين اللتين سيرّتا عليه ، وحوّل الأفراد الى جزء من جماعة يغزو بهم ويقطع الطريق ، وقيل إنهم ظلوا معه الى النهاية .

هذه القضية التي سيطرت على آل الهذال وعذبتهم كانت تعرض لهم بأشكال وصور تتغير فترة بعد أخرى ، وربما هي السبب الذي دفعهم لاختيار هذا المكان

المتوسط ، محطة للذين يسافرون ويرجعون . وليكونوا ايضاً شهوداً على فترة من الحياة والتاريخ لا تقع الا مرة واحدة ثم لا تتكرر ، وليقولوا بعد ذلك للناس ما رأوا من اعاجيب وغرائب !

في ذلك اليوم البعيد ، الذي يشبه آلاف الأيام قبله ، ولد لمتعب الهذال آخر اولاده الذكور . حدث ذلك أواخر الربيع ، عند العصر . كانت الحرارة قد اشتدت ذلك اليوم والأيام التي سبقته ، وثمار النخيل برعمت وتكورت ، وكان على متعب الهذال ان ينتهي بسرعة من وضع العصيّ تحت عتوق « أم الخشب » ويربطها بقوة ، لكي ينصرف إلى بيته في الظهرة ، وليعرف وليطمئن ماذاحصل ،كما يجب ان يعّد القهوة مبكراً ، لكن لما رأى ابنه فواز راكضاً نحوه ، وقد امتلأ وجهه بالفرح ، فقد ادرك ان زوجته وضعت ، وأنه جاءه ولد ذكر ، فظل نصف معلق على النخلة ينتظر وصول فواز ويتوقع ان يسمع البشارة . تلفت حواليه اكثر من مرة ، بدا له وادي العيون تلك اللحظات اكثر خضرة . قال في نفسه : « امطار السنة كانت كثيرة » قال فواز وكان لا يزال بعيداً :

- يوبه .. يا يوبه .. البشارة

قال متعب الهذال لنفسه : اذا اقبلت .. اقبلت .

ولم يتردد ، مثلما حصل في المرات السابقة ، في تسمية الغلام ، وكأنه هيأ نفسه لذلك منذ وقت طويل ، فما كادت قدماه تلمسان الأرض ، وينظر بإمعان في عيني

الصبي ، وقد امتلأ وجهه بالفرح والغبار وحبات العرق ، حتى سأله بطريقة تقريرية صلبة :

- قلت ، يا وليدي ان « مقبل » جاء ؟

تطلع الصبي إلى ابيه بارتباك ، تصور للحظات ان اباه لم يفهم ما قاله له . قال وقد هدأت انفاسه :

- جاءنا اخ .. يوبه ...

قال متعب الهذال وهو يضع يده الكبيرة على رأس الصغير :

- قلت لي جاء مقبل .. ها ؟

وضحك بصوت عال ثم اضاف :

- الله يبّشرك بالخير .. يا وليدي .

وبعد ان فك حزامه وارخى ثوبه ونفض يديه سارا بهدوء متجهين الى البيت في الظهرة . سارا بصمت ، لكن توهجاً داخلياً اقرب الى الصخب كان يدفع متعب الهذال . بدت له الظهرة بعيدة اكثر من مرات سابقة ، وكاد ان يسرع ، وفكر ان يهرول ، لكنه تراجع ، قال في نفسه « لوكان الولد الأول ، اولوكان الوقت غير هذا الوقت ! » وضحك بصوت عالٍ . التفت فواز حواليه اكثر من مرة ، ثم تطلع اليه . قال متعب الهذال :

- « شقرة مبارك » الصغيرة لمقبل .

وفي المساء اولم متعب الهذال وليمة كبيرة ، ذبح خروفاً ودعا الكثيرين . وفي الليل المتقدم ، بعد ان غادر الرجال ، جلس وحيداً في ضوء القمر . مرت أمام عينيه حياته كلها مثل شريط طويل . كان يرى أيامه ولياليه . تذكر نفسه حين كان صغيراً ، وتذكر اول اسفاره ، أما حين تذكر وضحة لما جاءته بأول ولد فقد ابتسم . كانت خائفة ، وفي الليل المتأخر بكت فرحاً وهي تتطلع اليه . في هذه الليلة ، لما تطلع اليها كانت متعبة ، لم تضحك ولم تبك . ولا يعرف متعب الهذال لماذا اراد ان يحفر باظافره الأرض القاسية تحت البساط ، وكأنه يعلّمها ، يريد ان يترك فيها اثراً قوياً . أما حين دخل البيت في هذا الوقت المتأخر فقد كان مصمماً على أن يخرج العصملية وان يطلق بضع رصاصات . خطرت له الفكرة بسرعة ، مثل التماع البرق . انه

يفعل ذلك بعد مجيء كل ولد . المرة الأولى حين جاءه ثويني . ثويني كان ولده الأول ، الذي مات منذ وقت طويل . اخرج العصملية تلك الليلة أمام الرجال ، وفي جو من الفرح والانفعال اطلق مشطاً كاملا ، وقد شاركه الذين كانوا يحملون مسدساتهم . يتذكر ان ابن مبرك والخويزي وشعلان اطلقوا رصاصا غزيرا . ويتذكر ايضا ان الخويزي اطلق كل ما يحمله من رصاص يوم جاء شعلان ، وكذلك حول القحطاني ، الا ان مسدسه بعد الرصاصة الأولى استعصى . كان الرجال في كل المرات فرحين منفعلين . اكلوا وضحكوا واطلقوا رصاصا غزيرا . هذه المرة لم يكونوا مثل المرات السابقة . كان الفرح في تلك الليالي باهرا كبيرا ، ومع ذلك فان ثويني مات صغيراً . هذه الليلة اكلوا وشربوا وفرحوا ، وقال القحطاني نفرح ان ايام الخير اقبلت تمقبل ، لكنهم لم يطلقوا نارا ، حتى هو لم يفكر بذلك ، قال لنفسه بنوع من الحزن « كانت الأيام الماضية ايام خير . . احسن من هذه الأيام » .

تعمّد ان يحدث بعض الضجة ، لكي لا يخلق رعباً او مفاجأة ، وهو يستخرج العصملية . وقف الى جانب فراش وضحة ، وكانت اخته سارة تهدهد الطفل الصغير ، ويبدو انها فرغت لتوها من اعطائه لحسة العسل .

تطلعت اليه المرأتان . كانت وضحة متعبة ، نصف نائمة ، أما حين رأت العصملية فقد تحركت بتحفز ، وكأن شعوراً بالخوف او الفرح سرى في جسدها فغيّرها . تطلعت اليه بانتباه وهي ترتفع قليلاً . داخله شعور بالاعتزاز ، دق العصملية على الأرض ، وكأنه اعلان عن امر ما . سارة كانت تكلم الطفل الذي ظل يبكي . كانت كلماتها اقرب الى التوضيح « تفيدك يا وليدي ، تقوّيك ، وباكر تصير رجّال . الرجال لازم يصيروا رجال » أما حين سمعت دقة البندقية على الأرض فقد التفتت . تطلعت الى متعب بتساؤل ، ثم تطلعت الى وضحة . قال متعب :

ـ يا جماعة الخير . .

قال هذه الكلمات بطريقة بطيئة وكأنه يمهّد لحديث طويل . لما رأى المرأتين تنظران إليه ، تنظران الى البندقية بتساؤل ، تابع بلهجة مرحة :

ـ صحيح من قال : من خلف ما مات . . .

توقف لحظة ، ابتسم ، هزّ رأسه اكثر من مرة وخرج صوته حزيناً :

ـ الله يرحم والدينا ووالد والدينا .

وبهدوء شديد رفع البندقية . شد الترباس وأدخل طلقة في بيت النار ، ثم استدار وخرج .

كان الصمت ، وكان القمر . كان متعب الهذال في الفلاة الكبيرة وحيداً . تأمل السماء والنجوم واستنشق الهواء بقوة . شعر أنه يريد ان يفعل شيئاً غير عادي . قال بصوت أقرب الى الانفعال والحدة :

ـ دوّك يا جوف الليل .

رفع البندقية باتجاه السماء ، باتجاه القمر واطلق . دوت الطلقة ، فخدشت الصمت ، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال . جر الترباس فخرجت الطلقة الفارغة بقوة وعبقت في انفه رائحة البارود أكثر من قبل . تذكر أياماً بعيدة . قال في نفسه « اللهم اجعلها أيام خير ، واجعلنا اقوى واكثر صبراً ! » ولما جر الترباس مرة اخرى ودخلت الطلقة الثانية بيت النار سمع حركة داخل البيت . قدّر انها ليست حركة وضحة او سارة ، أما لما سمع الصوت فقد ادرك ان واحداً من اولاده قد استيقظ على صوت الطلقة . التفت قليلاً ، لم ير احداً اول الأمر ، ارتمى على البساط . بعد لحظات جاءه شعلان . كان وجهه متسائلاً واقرب الى الخوف . قال متعب الهذال ، وهو يسند البندقية الى الأرض بوضع مائل :

ـ ها ، يا وليدي ، تراك خفت ؟!

ابتسم شعلان وتطلع الى ابيه بتساؤل . لما رآه هادئاً مستقراً هزّ رأسه دلالة النفي . قال متعب الهذال وقد اشتعل وجهه بالفرح في ضوء القمر :

ـ لما جيت للدنيا شعلناها بارود للصبح . . .

هزّ الشاب رأسه وقد امتلأ بالاعتزاز . تابع متعب الهذال :

ـ واليوم ، يا وليدي ، جاءك أخ .

ضحك شعلان دلالة المعرفة والموافقة . اضاف متعب الهذال :

ـ ويلزم اخوك ان يشمّ ريحة البارود . . حتى اذا كبر ما يخرع

قالت سارة من الداخل ، وكأنها كانت تنصت للحديث :

ـ ولّم قهوتك يا ابو ثويني . . ترى رجال وادي العيون يصمدون لك هالحين نوبة ثانية .

ـ القهوة حاضرة يا سارة . . ويا مرحبا بهم . . .

ـ اذا جاءوا تشتعل للصبح .

رد شعلان بانفعال :

ـ يوبه . . عطيني البندق

دفع متعب الهذال بندقيته الى ولده بزهو . كان يريد احداً يشاركه هذه اللعبة الغامضة والمثيرة . كان يفيض في تلك اللحظة بمشاعر حادة سريعة ، وبخفة أقرب الى الانفعال ، رفع شعلان البندقية ودوت الطلقة فملأت وادي العيون كله . كان صوتها ، هذه المرة ، قوياً مجلجلاً اكثر من الطلقة الأولى في اذني متعب الهذال ، أما رائحة البارود فقد عبقت وملأت الجو بلذة موحشة . لما خيم الصمت من جديد ، جاء صوت سارة من الداخل :

ـ الخير بالجايات ، والجايات اكثر من الرايحات . . يا ابو ثويني . .

قال متعب :

ـ وكّلـني الله يا سارة . . الزمان طويل !

وحين دوّت الطلقة الثالثة قال متعب الهذال لابنه :

ـ يكفي . . يا وليدي . . .

توقف لحظة ، ثم أضاف وهو يضحك بصوت عالٍ :

ـ جماعتنا وحنا ادرى بهم ، اما سراجين او ظلمة . . طلقة ثانية وكلهم بالظهرة .

وضحك من جديد . كان متعب الهذال يكـلّـم نفسه ، يكلم الآخرين ، وكان يحس ان كل شيء حوله يتحرك بقوة ، حتى القمر والنجوم بدت له مختلفة عن أيام كثيرة سبقت ، واحس ان لسعة البرد التي عبرت الدنيا في تلك اللحظة تعطيه قوة ونوعا من الثقة فتمطى يريد ان يدفع جسده كله لكي يستجيب الى التفجر الذي يملأ روحه ، وان يقول كلمات تنحفر ليس في الذاكرة وحدها ، وانما تنزل الى القلب لتستقر هناك . قال وهو يتطلع الى القمر ، الى وجه شعلان ، الى الباب المفتوح داخله ، وقد وقفت هناك سارة :

ـ اذا كبر ولدك فخاوه

قالت سارة وقد اخذها جو الانفعال والفرح :

ـ اذا اقبل البخت ، يا ابو ثويني ، باضت الدجاجة على الوتد .

رد عليها [illegible]

ـ واذا ادبرت ، يا سارة ، بال الحمار على الاسد

صرخت وضحة من الداخل ، وجاء صوتها متعباً مديداً :

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير .

مقبل بن متعب الهذال ولد في وادي العيون ، هذه واقعة مؤكدة تماماً ، أما الواقعة غير المؤكدة فسنة ولادته . وهذا الخلاف ناشيء عن النسيان او لاختلاط الوقائع وتشابهها ، فخالته وسمة ، تؤكد انه ولد في سنة الجراد . كانت تلك السنة سوداء قاسية . ولما ولد قال متعب الهذال : انتهت ايام الجوع وأقبلت ايام الخير . وفي محاولة لأن يؤكد هذه الرغبة سماه « مقبل » . وتضيف وسمة ان اخاها سعد ، جاء تلك السنة بعد غياب طويل ، وان ما حمله معه من سكر وطحين واقمشة كان السبب في بقاء العائلة في وادي العيون فلم تغادره كما فعل الكثيرون . وزيادة في التأكيد تقول انها لبست ثوباً من الأثواب التي حملها اليها سعد ، وانها وضعت مقبل على كتفها ، فبال على الثوب الجديد ، ورغم ذلك فقد استبشرت وقالت ان الأيام الصعبة سوف تنتهي قريبا .

سارة ، ام ثنيان ، تقول انه ولد في سنة فاضت فيها الغدران ، أما سنة الجراد التي تتحدث عنها وسمة فكانت قبل هذه السنة بثلاث سنوات . وتتذكر ان البدوان تلك السنة لم يصلوا وادي العيون الا في وقت متأخر ، لأن الخير في البادية كان كثيراً والمياه ملأت الغدران . وزيادة في التأكيد تقول ان الفقع والعكّوب والخبّيز تلك السنة كانت من الكثرة الى درجة لا تتذكر انها رأت شيئاً مشابهاً في اية سنة اخرى . أما تسميته

بهذا الاسم فقد كان باقتراح منها ، هي التي اقترحت الاسم وهي لتي اصرّت عليه ، « لأن متعب كان يريد تسميته ثويني او ذياب ، ثويني على اسم المرحوم ، وذياب بعد حادثة الغنم التي جرت في الوادي » .

الخلاف بين وسمة وسارة حول السنة التي ولد فيها مقبل لم يحسم ، لأن كل واحدة تصرّ على رأيها ، ولأن الشواهد لدى كل واحدة منهما لا يمكن ان تخدع الانسان الى الدرجة التي تفترض ما تدعيه الاخرى ، كما لا يمكن أن تخون الذاكرة الى هذه الدرجة .

واذا كانت ولادة احد في وادي العيون لا تحمل امتيازاً من اي نوع ، ولا تثير اي مقدار من الخلاف ، فان ما زاد في تعقيد الأمور في تلك الفترة ان الحكومة ارسلت لجنة من ثلاثة اشخاص لكي تسجّل اسماء الذكور والمواليد الاحياء ، وقد مرت اللجنة على مناطق كثيرة في البادية ، وكانت تحمل اوراقاً ودفاتر كبيرة ، ولم يعرف الناس لماذا جاءت او الغاية الحقيقية من التسجيل . وهذا الخوف دفع الناس في وادي العيون الى التعامل معها بتحفظ شديد : اخفوا الكثير من المعلومات ، ولم يذكروا شيئاً عن المسافرين ، كذلك لم يسجلوا الاناث ولم يشيروا اليهن . أما الذكور فقد سجلوا قسماً منهم ولم يسجلوا القسم الآخر ، وزيادة في الحيطة فقد طُلب من الصبية ، بين الثامنة والرابعة عشرة ، ان يغيبوا ، ان يذهبوا الى البساتين خلال النهار ، وتعمد الآباء ان يذكروا وقائع مبهمة للغاية حول سنة ولادة ابنائهم .

هذا ما فعله الجميع ، تقريباً ، في وادي العيون ، لأن الجندية كانت تنتظر الشبان ، كما راجت الاشاعة قبل وصول اللجنة بأسابيع ، لكن هذا لم يمنع ثلاثة أو اربعة في الوادي من عمل شيء مناقض تماماً ، اذ سجلوا الذكور كلهم ، وسجلوا المسافرين ، ولم يتردد بعضهم من اضافة اسماء بعض الذين ماتوا خلال السنوات الأخيرة . فعلوا ذلك لأنهم سمعوا من أحد رجال اللجنة ، إذ قال لهم ذلك بحذر شديد ، وطلب ان لا يذكر شيء عن الأمر ، قال لهم ان كميات من الطحين والسكر والقماش سوف توزع في الوادي وفي الأماكن الأخرى ، تبعاً لعدد الافراد . سخر الناس كثيراً من هذه الأخبار ، وأكدوا انها مجرد اكاذيب للايقاع بهم ، لأن الحكومة لم تفعل ذلك من قبل ، حتى في السنوات التي مات خلالها الناس عطشاً .

في وقت لاحق لما ذكر لسليمان الهديب سنة ولادة مقبل تمهّل قبل ان يؤكد أو ينفي ، وحين اكدوا له ان سجلات الحكومة لا تخطىء ولا تعتمد على الذاكرة ، فقد ابتسم بسخرية ، وبعد ان هز رأسه عدة مرات قال :

ـ اذا كان دليلهم كتابهم فخطاهم اكثر من صوابهم .

وتذكر هو كيف تعامل الناس في الخدرة مع اللجنة التي جاءت تلك السنة .

أما الخالة ودعة ، خالة الوادي كما كان يطلق عليها ، فتقول شيئاً مختلفاً تماماً عن سنة ولادة مقبل ، تقول انه اكبر من عنود بثماني او تسع سنوات . تتذكر ذلك لأن مقبل بعمر حليمة التي ماتت وعمرها سنة واحدة ، وبين حليمة وعنود بطنان ، ولذلك يجب أن يكون مقبل قد ولد سنة « الحرب العمومي » ، لأن هزاع ، زوجها ، سجن أيام تلك الحرب في مصر ، بعد ان رفض بيع الغنم التي كانت معه ، وهرّبها ، او حاول تهريبها ، لكن القي القبض عليه وسجن . ويتذكر هزاع ، كما تؤكد الخالة ، ودعة ، ان « الحرب العمومي » بين الألمان والطليان والانكليز والهنود والسنغال كادت تسوقه إلى طرابلس الغرب لولا رحمة الله ، وان هذه الحرب استمرت سنوات وسنوات ، وان حليمة ولدت بعد سفر ابيها بخمسة شهور .

كانت الخالة ودعة في وقت من الأوقات تؤكد هذه المعلومات بقوة ، لأن مقبل كان أقوى المرشحين للزواج بعنود ، لكن بعد ان انتظرت فترة طويلة ، ولما ظل مقبل متردداً ويتهرب من اعطاء جواب نهائي ، ثم لما جاء واحد من جماعة هزاع وطلب ان يتزوج عنوداً ووافق ابوها وتزوجت ، فقد اصبحت الخالة ودعة اقل حماسة في تأكيد المعلومات السابقة ، بل وادعت انها لا تتذكر جيداً . لكنها لا تتردد ايضاً في الموافقة على رأي اختها وسمة ، مؤكدة في نفس الوقت ان ما تقوله سارة ليس صحيحاً ، وانه مجرد تلفيقات بقصد ترتيب زواج مقبل من احدى قريباتها .

اذن لا حاجة ابداً لأن يرهق احد ذاكرته في تقصي سنة ولادة مقبل ، لأمر من التعقيد الى درجة كبيرة ، يضاف الى هذا ان لا فائدة ترجى من وراء ذلك ، ولا أهمية لأن يكون ولد في سنة الجراد ، أو في سنة الطوفان ، وربما ولد قبل ذلك او بعده ، لكن الشيء المؤكد ان هذه الولادة كانت قبل الفترة الشديدة الاضطراب العاصفة ، لأن

الوادي ، وطريق القوافل ، والناس جميعاً اصبحوا بعد ذلك في حالة من الصعوبة والفقر والانتظار . وكانت اصداء العالم البعيد تصل بين فترة واخرى مع القوافل او مع الأقرباء الذين غابوا سنوات طويلة ، وقد اضطر الكثيرون منهم الى العودة في هذه الفترة ، خوفاً من ان يساقوا الى الحرب ، اضافة الى أن ابواب رزقهم قد ضاقت .

كانت اصداء العالم واخباره تختلط وتتداخل ، وفي تلك الفترة كان فواز صبياً أقرب إلى سن الشباب ، لأنه اصبح يجلس في مضافة الرجال . هذا ما تؤكده سارة ايضاً حين تتذكر ، لأنه في الليل ، مع القصيد والسوالف وعواء الذئاب البعيدة ، سمعت ، لأول مرة ، ان فواز يريد ان يسافر .

واذا كان وصول قافلة يعني الكثير للصغار والكبار ، ولا يترك احداً الا ويحرّك فيه رغبة من نوع او آخر ، فان الرجال الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الهدوء والاتزان ، ويتأخرون في الوصول الى العين او الى الخان ، يعرفون اشياء كثيرة قبل ان يروا القافلة وقبل ان يصلوها ، لأن الصغار الذين يتراكضون مثل القطط يحملون الاخبار بسرعة : كم عدد رجال القافلة وعدد جمالها ، ماذا تحمل ، ومتى جاءت وإلى اين هي ذاهبة ؟ ان الصغار لفرط شغفهم وحب الاستطلاع لديهم يندفعون بسرعة لكي يعرفوا كل شيء ويتأكدوا بأنفسهم ، ثم لا يلبثون ان ينقلوا للكبار ما رأوا ! هذا ما حصل بالنسبة لجميع القوافل التي مرت ؛ والكبار الذين يستمعون باهتمام ، لكن دون ان يظهر عليهم ذلك ، لأنهم قد سمعوا شيئاً من القوافل الأخرى ، من طارش مرّ قبل أيام ، او من حساب الأوقات بين رحلة واخرى ، بين مكان وآخر . فاذا وصل الكبار الى العين ثم الى الخان نظروا بإمعان الى كل شيء ، حتى الى روث الدواب ، لكي يقدروا ويعرفوا .

في هذه الفترة بالذات توقف فواز عن مشاركة الصغار الركض ، واخذ يتعمد مثل رجال العتوم التأخر في الوصول الى العين ، لكنه كان يضيق مع ذلك من تأخر أبيه في الوصول ، فيسبقه ؛ فاذا بدأت القوافل تستعد للرحيل ومواصلة السفر ، بعد استراحة يومين او ثلاثة ، فلا بدّ ان يحاول شيئاً ، اذ اضافة الى مساعدة المسافرين ، كان يحاول اقناع ابيه والآخرين . فمع كل حمل يُرفع ويشدّ على ناقة او بعير ، ومع كل حمل يدور من جهة الى اخرى اثناء حزم الامتعة ، كان يبدي براعة وقوة ، ولا

يتوقف عن محاولة الاقناع بطريقة او أخرى . فاذا جاءت ساعة الرحيل الحقيقية، وكانت الايدي المعروقة السمراء تمتد بقوة ، لكن بخفة ايضاً ، للسلام والوداع، كان فواز يمتلىء غيظاً ومرارة لأنه لم يكن في هذه القافلة . لكن كان يقنع نفسه ان هذا سيتاح له في المرة القادمة ، مع قافلة اخرى .

قال متعب الهذال لابنه ، بعد ان سافرت قافلة جديدة :

ـ بعد سنتين او ثلاث تكبر وتسافر . . يا وليدي

وحين الحّ عليه فواز واتخذ موقفاً اقرب الى العناد ، وتصرف تصرف الرجال اثناء رحيل القافلة ، قال متعب الهذال :

ـ يا وليدي . . هذه الديرة احسن من غيرها . .

يصمت قليلاً ، يتذكر ، ثم يضيف :

ـ ما وراء السفر غير التعب .

وحين يؤكد له فواز ان في القافلة التي رحلت اليوم ، وفي القافلة التي رحلت قبل اسبوعين ، فتياناً في مثل عمره ، او اصغر قليلاً ، كان متعب يقول مخاطباً زوجته :

ـ يا وضحة ، شعلان بعده ما رجع ، وفواز يريد يسافر . . حضري له الزهاب وتوكلي على الله .

في هذا الوقت ، عند هذا الحد، ينسحب متعب الهذال ليبدأ دور زوجته ، فاذا كان هو مستعداً للمناقشة ، ثم التنازل الظاهري ، ارضاء لغرور الشاب ، فان رفض وضحة مؤكد ولا يقبل التراجع ، لأنها بغريزتها ، بما تملكه من قوة خفية ، وبعض الاحيان بنظرة حزن وانكسار ، تجعله يتراجع ويترك الفكرة بعض الوقت . كانت تؤكد له انه بعد سنوات قليلة سيصبح اكثر قوة وقدرة على تحمل اعباء سفرة قد تمتد عشر سنين ، أما الآن ، وقبل ان ينبت شاربه ، فيجب ان تبقى فكرة السفر املاً . وتأتي له بأمثلة كثيرة عن ابيه ، عن اقربائه الذين سافروا : متى بدأوا وكم تحملوا من المتاعب والآلام ، وما تزال تحدثه ، تحاول معه . الى ان يقتنع او يتظاهر بالاقتناع . فاذا حان موعد ورود الماء كان ابوه يقول له بلهجة تحدٍ :

ـ اذا كبرت واصبحت قوياً فورد الدواب . . وعد سالماً .

ومعنى ان يأخذ فتى في مثل عمره عدداً من الدواب بمفرده ، ان يكون قوياً

وماهراً ، لأن وقت الغروب في وادي العيون ، حيث تأتي الدواب لتستقي ، من اصعب الأوقات واكثرها مشقة وخطورة ، اذ اضافة الى ضرورة الوصول الى العين في وقت مناسب ، فان السيطرة على الحيوانات وعدم اختلاطها ، وما يرافق ذلك من مناقشات ، وبعض الاحيان من نزاع ، لا يقوى عليها الا الرجال او الفتيان الأقوياء ، وكثيرا ما تطلب الأمر وجود اكثر من شخص واحد لكي تجري السقاية بسرعة وبدون ضرر .

لذلك حين طلب متعب الهذال من ابنه الذهاب بمفرده ، شعر فواز بالزهو والتحدي ، أما حين اشارت امه الى اخيه ابراهيم ، والذي يصغره بسنة ، ان يذهب معه ، فقد رفض فواز باصرار ، قال بما يشبه التحدي :

ـ وحدي ، ما اريد احداً ، وارجع قبل الجميع .

ذهب فواز بمفرده ، لكنه لم يرجع مبكراً كما وعد . رجع متأخراً ، متأخراً جداً !

وحين يتذكر اليوم الأول الذي ذهب فيه بمفرده للسقاية، وانه عاد متأخراً ، يتذكر ان هذا لم يحدث نتيجة عدم القدرة ، وانما نتيجة سبب آخر ، اكثر أهمية ، وهو الذي أخره . . وهذا السبب نفسه هو الذي منعه من السفر . . بعد ذلك

فبعد ان غابت الشمس وبدأت الظلمة الخفيفة تغطي كل شيء ، وكانت الجمال والغنم تولد في مدى النور المتراجع المتداخل الألوان حركة واصواتاً لا حصر لها ، ومع الحركة الثقيلة والاحتكاك ، ثم الاصوات المبعثرة ، كان فواز يحس بالرهبة والثقة في وقت واحد ، وكان يحس ايضاً بالحصار . ورغم الاصوات العمياء التي كان يدفعها أمامه ، حاثاً الدواب على ان تسرع ، فقد بقيت الحركة رتيبة وأقرب الى البطء ، وفي وقت متأخر شعر بالندم انه استسلم لهذا الاغراء الخفيّ ، وبقي ساعة او اكثر يتنقل بين الدواب وحلقة الرجال الصغيرة قرب مضافة ابن الراشد . أما حين وصل الى الظهرة ، ووجد العجوز جالسة في مكان متقدم ، وكأنها بجلستها تلك ، قريباً من الأرض ، تحاول ان تخترق الظلمة والمسافة ، كما يفعل الانسان اثناء النهار ، حين يقف منتصباً او يجلس على ربوة عالية ، واضعاً يده فوق عينيه ، لكي يمعن النظر في البعيد ويتأكد من الاطياف والحركات . . . كانت العجوز في الظلمة تجلس بتلك الطريقة ، وقد انتابها القلق الذي اصبح خوفاً . أما ابراهيم فقد اخذ يدور حوله بطريقة ماكرة ، دون ان يقول كلمة ، لكن ليشعره ايضاً بأهميته والفائدة

التي كان يمكن ان يجنيها لو كان معه .

تابع فواز طريقه دون ان يتوقف او يقول كلمة ليفسر تأخره ، لكن شيئاً عصبياً سيطر على حركاته وجعله يصرخ على الغنم بقسوة لكي تدخل الحظيرة بسرعة ، وعلى الجمال لكي تتوقف تمهيداً لاناختها وعقلها ، وبعد قليل صرخ في وجه ابراهيم ، الذي كان لا يزال يدور حوله ، طالباً منه انجاز ما تبقى من أعمال .

لم يكن في تلك اللحظة مستعداً للتبرير ، كان يريد ان ينقل لابيه ما شاهده وما سمعه . لكن ما كاد ينظر الى وجهه ، على ضوء النور الخفيف المنبعث من بقايا الحطب الذي ما زال مشتعلاً ، حتى التمعت عينا متعب الهذال بابتسامة هي بين السخرية والشفقة ، وكأنه يريد ان يقول له دون كلمات « يجب ان تكف عن العناد وطلب السفر . . ما زلت صغيراً ويجب ان تنتظر ! » أما حين انزل عينيه واستمر في تقليب الجمر ، فقد شعر فواز ان اباه لا يريد تفسيراً او تبريراً لما وقع ، اذ استمر بحركته الخفيفة المتقنة في تقليب الجمر تمهيداً لصنع القهوة .

شعر فواز بالخيبة واسقط في يده . فجلسة العجوز على مسافة من البيت ، وبتلك الطريقة ، ثم حركة ابراهيم المليئة بالرعونة والتحدي ، وهذه النظرة السريعة المثقلة بالعتاب من ابيه ، وبما يشبه عدم الثقة ، ثم الصمت الذي ميّز هذه المواقف جميعها ، كل ذلك اشعره بالخيبة تماماً ، ثم بالخطأ الفادح . تصور ان الساعة التي قضاها متنقلاً بين مضافة ابن الراشد والدواب ، وبين وجوه هؤلاء الضيوف الغرباء الغامضين ، والركض السريع لكي يتأكد ان الجمال والغنم رويت ولم تؤذ احداً ، جعله يتساءل مرة بعد اخرى ان كان عليه ان يعود بسرعة او ان يشهد هذا الشيء الغريب الذي يراه لأول مرة . قال لابيه الذي ظل واثقاً من حركاته وانشغاله :

ـ عند ابن الراشد ضيوف غرباء . . .

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال ، وظل ابوه يواصل عمله ، كأنه لم يسمع ولا يريد تبريراً للتأخر . شعر بالتحدي ، قال بصوت حادّ وعصبي :

ـ من الفرنج ويتكلمون العربي

لما قال هذه الكلمات رفع ابوه اليه عينين متسائلتين ، وانتظر ان يسمع شيئاً جديداً . اضاف وهو يجلس مقابله والنار ودلال القهوة بينهما :

ـ ثلاثة اجانب ، ومعهم اثنان من عرب الزور ، ويتكلمون العربية .

وتغيرت لهجة فواز ليخلق تأثيراً قوياً :

ـ يتكلمون بطريقة مختلفة عن طريقتنا ، بطريقة مضحكة ، لكن يمكن ان نفهم ما يقولون .

وفجأة رأى اباه يتغير ، تتجمع حواسه في عينيه ، ينظر اليه بامعان وحدة ، وكأنه يريد ان يقرأ في وجهه وعينيه ما رأى ، واية انطباعات ترسبت في نفسه ، لكي يقدر اي نوع من الرجال اولئك الذين رآهم . سأل ببطء :

ـ وعرفت منين هم ويش يريدون ؟

ـ الناس حول المضيف قالوا انهم نصارى .

ـ ويش يريدون ؟

ـ سمعت ابن الراشد يقول لواحد منهم : قل لا إله إلا الله محمد رسول الله وقال الرجل وراءه : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ وما يبغون ؟

ـ الناس يقولون انهم جاءوا ليبحثوا عن الماء

ـ وانتْ . . انتْ ويش سمعتهم يقولون ؟

ـ كان الناس حولهم كثيرين . . ولم اسمع الا كلمات من هنا ومن هنا .

وبنفس التحفز الذي بدا في عينيه حين قال له انهم اجانب ، واخرجه من جو العتاب واللوم الذي بدا عليه اول الأمر ، تجمع جسده بحركة سريعة وخفيفة . قال وهو ينهض :

ـ لازم اشوف بنفسي

وخلال فترة قصيرة اسرج هو وفواز الحصانين . أما محاولات مقبل في ان يتشبث به ، ان يأخذه معه ، فقد انتهت بسرعة وحزم . قال لزوجته :

ـ امسكي الزغير ، خذيه عنا

وبعد ان امتطى حصانه اضاف وهو يتهيأ للانطلاق :

ـ الله اعليم انّا نتأخر ويجوز ننام عند ابن الراشد .

وفي فترة قصيرة تحركا وسارا ، ظلا غارقين في الصمت ، فلا يسمع الا الوقع

الهش لحوافر الخيل . أما حين وصلا مضافة ابن الراشد ، فقد جلس متعب الهذال قريباً من الضيوف . وجلس فواز مع الفتيان الذين كانوا في مثل عمره ، غير بعيد عن باب المضيف .

متعب الهذال ، وهو يوافق بسرعة على قضاء الليل عند ابن الراشد ، ويقضي النهار التالي حتى الغروب ، يرقب الأجانب الثلاثة ، ويتحدث معهم ، ويسأل نفسه ويسأل الآخرين عن الأسباب التي دعت هؤلاء إلى المجيء ، ثم تلك العودة البطيئة الحزينة ، وما تخللها من وقفات وأحاديث ، والطريقة التي عامل بها ابنه ، سواء في التصرف أو الحديث ، كل هذا جعل فواز الهذال رجلاً قبل الأوان ، وترك في نفسه هذه الذكرى التي لا تمحى .

خلال رحلة العودة إلى الظهرة ، اختار متعب الهذال طريقاً طويلاً ، طريقاً لا يسلكه إلا النادر ، وبدا رجلاً جديداً لكل من رآه ولكل من عرفه . كان شديد الحيرة والحزن ، تكلم بطريقة مختلفة عن أية مرة سابقة ، بنبرة الصوت ، بنوع الأحاديث ، بالأسئلة الكثيرة التي يطرحها على ابنه ، وكان في الحقيقة يطرحها على نفسه وعلى الآخرين . وفواز الذي حرص طوال رحلة العودة على أن يبقى صامتاً ، كانت كلمات أبيه من الغرابة إلى درجة لا يمكن أن تنسى : « أكيد هؤلاء لم يأتوا من أجل الماء ، إنهم يريدون شيئاً آخر . ولكن ما عساهم يريدون ؟ وأية أشياء في هذه الفلاة غير الجوع والرمل والعجاج ؟ ويقولون إنهم سيقضون هنا وقتاً طويلاً ؟ كيف سيعيشون ؟ كانوا وهم يأكلون أشبه بالدجاج . والأسئلة التي يسألونها خبيثة ،

ملعونة . وتؤكد انهم ليسوا مثل الذين جاؤا من قبل : « هل جاء اجانب غيرنا ؟ » « هل سمعتم عن اجانب ، عن انكليز وفرنسيين ، جاءوا الى هنا ؟ » « هل بقوا فترة طويلة ؟ هل فعلوا شيئاً ؟ » انهم خائفون . عندهم ما يخافون منه . وانت تعرف ان الذي يعمل عملاً خبيثاً يخاف من الآخرين . لو كانوا صادقين وجاءوا من اجل الماء ، فالماء معروف مكانه . لا يريدون ان يبقوا في هذا المكان . يريدون ان يتجولوا ، ان يذهبوا ويرجعوا . وبعدهم سيأتي غيرهم . هكذا قالوا . وقالوا « انتظروا ، اصبروا ، سوف يصبح كل واحد منكم غنياً ! » ولكن ماذا يريدون منا وما همهم اذا اصبحنا اغنياء او بقينا على حالنا ؟ انظر الى عيونهم ، الى افواههم وتصرفاتهم ، انهم شياطين ، ولا يمكن لاحد ان يثق بهم . انهم ألعن من اليهود .. ويحفظون القرآن اولاد الحرام . . . عجايب » .

فاذا توقف وتطلع الى ابنه ليسأله الرأي فيما يقوله . كان فواز يبقى صامتاً ، لان هذا الذي يجري لا يفهم منه الا القليل . صحيح انه سمع الفتيان يقولون عنهم كلمات قاسية ، ويشيرون اليهم ويضحكون ، ورآهم كيف يأكلون وكيف يتكلمون ، لكن لم يستطع ان يدرك ما يدور حوله . حتى اذا وصلا الى الظهرة ، وروى متعب الهذال للرجال الآخرين بعض ما رأى وبعض ما سمع ، كان يتطلع الى ابنه يريده ان يتحدث ، ان يؤكد ، بطريقة ما ، ما كان يقوله هو ، في الوقت الذي علمه طوال السنوات السابقة ان يبقى صامتاً اذا تكلم الكبار ، وان يبقى واقفاً حين يكون الضيوف ، وان يتصرف ويتحرك بطريقة لا تخطىء ابداً . هذه المرة يتصرف متعب الهذال بطريقة مختلفة : « يا جماعة الخير ، الواحد لا يصدق : واحد منهم ، الله اعلم . . . شيخهم ، يعرف العربية ، لكنه لا يريد ان يتكلم بها . انا متأكد . لاحظته ، كان مثل الصقر يراقب ويتنصت . سألته ان كان يعرف العربي ام لا قال : « شويه . . شويه » ابن الملعونة يعرف احسن من الجميع ، لكنه خبيث ، وحين يريد شيئاً يتكلم بلغته ويطلب من الآخرين ان يسألوا . والماء ؟ وادي العيون ماؤه يكفيه ، لا نريد اكثر من هذا الماء . لو ارادوا الماء ، لو ارادوا مساعدة الناس لذهبوا الى اماكن اخرى » .

خلال الأيام التالية حرص متعب الهذال ان يقوم بالسقاية بنفسه ، ولكي يمتحن شكوكه طلب من جميع الرجال ان يذهبوا ويشاهدوا هؤلاء الاجانب بانفسهم .

اكثر من ذلك كان يطلب من ابنه ، فواز ، ان يعود بالدواب لكي يتعلل هو عند ابن الراشد . وفي كل مرة يعود بافكار جديدة كلها تؤكد شكوكه السابقة وتزيده اقتناعاً ان « هؤلاء الشياطين لا يمكن ان يفعلوا خيراً لوجه الله » .

انهم يقضون النهار كله في حركة دائمة ، يذهبون الى اماكن لا احد يفكر بالذهاب اليها . يجمعون اشياء لا تخطر ببال . معهم قطع حديدية لا يعرف الانسان ما هي او ماذا يفعلون بها ، حتى اذا رجعوا عند المساء رجعوا ومعهم اكياس من الرمل وقطع من الحجارة ، وقد جلبوا معهم مرة اغصاناً من الاثل والقيصوم والشيح . كسروا الاغصان بطريقة عجيبة ولصقوا عليها اوراقاً كتبوا عليها اشياء غريبة . لم يكونوا يكتفون بذلك ، كانوا يضعون علامات من الخشب او قضبان الحديد في جميع الاماكن التي يمرون بها ، وكانوا يكتبون عليها ويكتبون على قراطيس يحملونها اشياء لم تفهم ابداً . لكن هذه العلامات لا تلبث ان تختفي او تُغيّر اماكنها حالما يغيبون . كان صبية الوادي يفعلون ذلك ، والكبار لا يعترضون ، وقد جمع الصبية عددا من هذه العلامات . ولما جاء فواز ببعض القضبان الحديدية ، حين كان يسرح بالغنم ، قلّبها ابوه باهتمام وببعض الخوف . دقها على حجر ، دقها ببعضها ، وتنصت اليها مدة طويلة ثم اكد على ضرورة عدم تقريبها من النار .

والماء . . اين الماء وكيف سيجدونه ؟ والحكومة . . هل تعرف اين هم وماذا يفعلون ؟ حين سأل متعب الهذال ابن الراشد ، اكد هذا الأخير ان معهم تفويضاً من الامير ، وانهم قضوا اسبوعاً في ضيافته . وحين سأل الدليلين اكدا ان الامير ارسلهم ، وانهما جاءا معهم لهذا السبب .

ومع كل يوم جديد يزداد تشاؤم متعب الهذال ، وتزداد شتائمه ومخاوفه ، حتى اصبح لا يتحدث الا في هذا الموضوع . واذا كان الرجال من حوله يشتركون معه في الحديث فإنهم لم يكونوا جميعاً يشاركونه في الرأي ، لكن بحكم المنزلة والسن كانوا يتركونه يتحدث كما يريد ، ويشتم كما يريد .

كان يحس ان شيئاً خطيراً يوشك ان يقع ، لم يكن يدري ما هو أومتى ، ولم تفده التوضيحات التي قدمها الكثيرون ، اذ بمجرد ان رأى هؤلاء ، بحركتهم اليومية الدائمة ، بالادوات التي يحملونها ، ثم وهم ينقلون اكياس الرمل والحجارة

ويكدسونها بعد ان يكتبوا في دفاترهم ، ويضعوا عليها علامات ، ثم تلك المناقشات التي تمتد من الغروب الى ما بعد العشاء بقليل ، وما يعقبها من الكتابة ، وهذه الاسئلة الملعونة التي يسألونها ، عن القبائل ولهجاتها ونزاعاتها ، ثم عن الدين والمذاهب ، وعن الطرق والرياح ومواعيد المطر ، هذه الاشياء كلها ولدت لديه مخاوف تزيد يوماً بعد يوم ان هؤلاء يريدون شراً بالوادي وبالناس. وأهل وادي العيون الذين نظروا باستخفاف ، اول الامر ، لما يفعله الاجانب الثلاثة وضحكوا كثيراً حين رأوهم يحملون الرمال والحجارة ، بدؤوا اكثر دهشة وحيرة وهم يكتشفون يوماً بعد آخر ان هؤلاء يعرفون الكثير عن حياة البدو والصحراء والعشائر والدين. أما كلمة الشهادة التي يرددونها حين يطلب منهم ذلك ، ثم الاحاديث التاريخية الطويلة ، فقد دفعت الكثيرين من أهل الوادي الى سؤال انفسهم ثم التساؤل فيما بينهم ان كان هؤلاء مسلمين ام انهم جن ، لان بشراً مثلهم يعرفون كل ذلك ، ويتكلمون العربية ، ولا يصلون وليسوا مسلمين ، لا يمكن ان يكون امرهم طبيعياً .

وابن الراشد الذي بدا شخصاً مختلفاً منذ ان وصل هؤلاء الاجانب ، وبالغ بالكرم والعناية ، واظهار هذا الكرم وهذه العناية ، وكأنه كان على علم سابق بوصولهم ، او ربما نتيجة تعليمات مشددة من قبل الامير ، نقلها اليه الرجال الذين جاءوا معهم ، فقد كان في دخيلته يحس ان مغانم كبيرة يمكن ان تجنى من هؤلاء ، ولذلك بالغ في كل شيء ، حتى في الحديث والتصرف ، وكان هذا اكثر مما يطيق الوادي واكثر مما يحتمل الناس . واذا كان الكثيرون داخلهم شعور الكبرياء في الأيام الاولى ، وكأن الوادي يعيش في بحبوحة ورخاء ، ويعرف كيف يحتفي بالضيوف ، فقد بدأ الشك يخامرهم وتساءلوا ما اذا كانوا قادرين على الاستمرار ، خاصة وان اقامة هؤلاء الاجانب قد طالت ، ويبدو انها ستطول اكثر .

هذا السلوك من ابن الراشد لشدّ ما اثار متعب الهذال وأدخل الغضب الى قلبه . صحيح انه يحب الكرم ، ويعرف كيف يكون كريماً ، فيقدم للضيوف احسن ما عنده ، حتى لو ترك أهل بيته جياعاً ، لكنه لا يعرف لماذا بدا ابن الراشد خائفاً مستسلماً اكثر مما ينبغي امام هؤلاء . قال له بعد مرور ايام على وصول الاميركان :

- اسمع يا ابن الراشد : نأكل التراب ، ونقدّم للضيوف اولادنا ، لكن لا نرضى

ان نهز رؤوسنا مثل العبيد لكل كلمة يقولونها .

ولما ابتسم ابن الراشد في محاولة للتغلب على غضب متعب الهذال قال الأخير :

- حتى الطريقة التي تبتسم بها وتنظر اليهم لا يحبها أهل الوادي . انهم رجال مثلنا ، ولولا ان الأمير ارسلهم لارجعتهم من حيث جاءوا ، لان الماء في الوادي يكفي ولا نريد مساعدة من احد . . .

توقف ابن هذال لحظات . بان على وجهه الاسى . هز رأسه عدة مرات ثم تابع :

- تكلم معهم مثل الرجال . تعامل معهم مثل الرجال يا ابن الراشد .

- الله يصلحك يا ابو تويني . . ثقّلت كلامك .

- والله من يوم ما جاءوا ما لك شغلة الا تضحك مثل العجيان .

رد ابن الراشد بمكر :

- يا ابو تويني الجماعة ما هم مثل جماعتنا ، لازم نكون معهم كرماء حتى يقولوا اننا عرب .

رد متعب الهذال بعصبية :

- نحن عرب يا ابن الراشد وما نبغي شهادة من احد . . .

وتغيرت لهجته :

- اذبح لهم ، اضحك ، سولف . . لكن مثل الرجال .

واذا كانت القوافل قد استمرت تمر بوادي العيون ، فقد كان يلذ لمتعب الهذال ان يقصر الحديث - بعد ان يسأل المسافرين الاسئلة الضرورية والتقليدية - على هؤلاء الاجانب الخبثاء الغدارين ، إنهم جاءوا لا يعرف لاي سبب ، او ماذا سيفعلون ، ثم ماذا ستكون النتائج في النهاية . لم يكن يكتفي بذلك ، كان يريد من جميع رجال القافلة ان يروا الاميركان الثلاثة لكي يتأكدوا ، وان يساعدوه على اكتشاف السر وراء مجيئهم . والمسافرون الذين يسمعون حديث متعب الهذال ، كانوا يتصرفون بطريقة تؤكد شكوكه الى اقصى حد « رأينا في الطريق الى وادي العيون عدداً منهم : كانوا يبدون مثل الخراف المسلوخة من حرارة الشمس ، كانوا يتراكضون في الفلاة ، أما حين امرحنا ورأينا الأمير قبل خمسة أيام فقد قال لنا « من يعترض طريقهم سيلقى جزاءه . . . انهم خويا ، وجاءوا لمساعدتنا ! » وحين يستوضح متعب الهذال عن المساعدة التي يمكن ان يقدمها هؤلاء ، ويؤكد ان حالنا بخير ولا

نريد مساعدتهم ، كان الرجال يتبادلون النظرات فيما بينهم ولا يتكلمون .

فاذا رأى رجال القوافل الاجانب الثلاثة وتحدثوا اليهم ، كانت شكوكهم تزيد ومخاوفهم تكبر ، لانهم يتساءلون ويتحدثون عن امور واماكن لا يتوقعها ولا يصلها احد ، ولذلك لا يمكن ان يُصدّق انهم جاءوا من اجل الماء .

هذا ما حصل في تلك الفترة ، أما لماذا كان متعب الهذال بهذا الشكل ولماذا نظر الى هؤلاء الاجانب تلك النظرة القاسية المليئة بالمخاوف ، فان حالة من الالهام ، أقرب الى النبوة ملأت نفسه وحياته في السنوات الأخيرة !

على غير انتظار او توقع وصل هديب وشعلان مع احدى القوافل ، وصلا بعد غياب عن الوادي استمر ثلاث سنين . لا زال الكثيرون يتذكرون ذلك اليوم ، لان خبر وصولهما ، حين نقله الصبية الذين استقبلوا القافلة على طريق الخبرة الشرقية ، جاء مشوشاً مضطرباً ؛ قال بعض الصبية ان الذي وصل هو الخوش ، وقد وقع هذا الخطأ نتيجة اختلاط الصور والاسماء في اذهان الصغار ، وما كاد هذا الخبر يصل الى وادي العيون ، والى ام الخوش بالذات حتى بدأت ترقص وتبكي وتضحك وتزغرد في آن واحد . كانت لا تعرف هل تندفع لملاقاة القافلة ام تذهب الى البيت لتحضره وتستعد ، كانت تتراكض في كل الاتجاهات وتتراجع كالمذهولة ، أما حين وصلت القافلة وتبين ان اللذين وصلا هما هديب وشعلان فقد تغير كل شيء : خيّم الصمت والهبوط ثم جاء الحزن ، خاصة لما ملأت ولولة ام الخوش الوادي ، وزاد حزنها اكثر من اية مرة سابقة . ومتعب الهذال الذي حاول ان يفرح لم يستطع ، فقد غلبه الحزن تماماً ، وودّ في اعماقه لو لم يصل هذان المسافران .

في الليل ، وأمام عدد من الرجال ، ذكر متعب الهذال انه لم يتوقع عودة المسافرين ، بل وذهبت به الظنون ، في فترة معينة ، الى انهما لن يعودا ابداً . أما الآن وقد عادا فقد تذكر كيف انه وهديب بذلا جهوداً كبيرة حتى جمعا ما يكفي لشراء ثلاثة جمال حملت مجموعة من البضائع كانت في وادي العيون لرجل انفصل عن

القافلة التي كان فيها .

قال متعب الهذال هذا والتفت الى ابنه شعلان ، الذي كان يتابع بلهفة قصته كأنه ليس طرفاً فيها :

ـ شعلان كان يسرح بالحلال ، لا شاف ولا سمع ، لكن ما ان جاء وشاف خاله يستعد حتى جن وسافر معه .

وضحك متعب بصوت عال ، ثم ذكر كيف انه لم يستطع شيئاً لمنع شعلان ، قال وهو يستعيد قصة قديمة :

ـ قلت لأمه : يا ام ثويني . . هذا ابنك وهذا اخوك ، وقريشاتنا وقريشات الناس أمانة بين أيديهم ، فاذا جعنا ، وإذا شتمنا الناس فلا تسأليني ، اسألي الرجال . . .

وأشار الى هديب والى شعلان ثم تابع بتهديد :

ـ قلت لها : اذا كانوا مثل أهل وادي العيون ، يزرعون بكل ديرة شجرة وينتظرون ثمرها ، ما كانوا ولا كان يومهم ، أما اذا رحمونا ورجعوا بعد سنة سنتين عشنا وخلصنا من حلوق الناس .

وضحك ضحكة فرحة ، مليئة بالثقة . وتذكر كيف ان وضحة تولت بعد ذلك كل الامور ، كيف أعدّت لشعلان وهديب ما يحتاجان اليه ، وكانت في كل خطوة ، مع كل حركة تلح على ابنها ان يعود ، وان يعود بسرعة ، وشعلان الذي كان يؤكد لأمه انه سيفعل ، ويريد من ابيه ان يسمع ، كان أغلب الوقت مشغولاً باعداد لوازم السفر ، حسب ما يتصور وحسب ما رأى المسافرين الآخرين يفعلون . أما الساعات الأخيرة قبل السفر فقد اتسمت بذلك الحزن القاسي ، فبدت الكلمات عديمة الجدوى ، وتتلاشى قبل ان تُسمع ، ولذلك قرر متعب الهذال ان يترك الظهرة الى الوادي . حرص على النزول مبكراً ، وقد تعمد قبل ان يترك الظهرة ان يقول لزوجته :

ـ البلاد طلبت أهلها ، وهديب وشعلان مثل الخوش ، قد لا يعودان قبل سنين .

وحين اكدت له ان أخاها وعدها ان يعود سريعاً ، وانه لن يغيب الا فترة قصيرة ، بمقدار ما يحتاجه الطريق ، رد بسخرية :

ـ اذا شفت اولاد شعلان يا وضحة فاحمدي ربك .

وسقطت دموع وضحة بصمت . كانت في اعماقها تشارك زوجها رأيه تماماً ، وربما كانت لديها مخاوف اكثر منه .

لأن . . وهديب وشعلان يعودان بهذا الشكل المفاجىء اثارا من الفرح بمقدار ما اثار من المفاجأة . وإذا كانت وضحة قد اختلطت دموعها بابتسامتها ، وهي تقبل ابنها واخاها ، فانها لا تعرف هل تضحك ام تبكي ام تتذكر .

كان متعب الهذال يحكي اشياء كثيرة متعمداً . كان يحكيها وينظر الى ابنه فواز ، وكأنه يريده ان يتعلم درساً ، او على الأقل ان يستوعب هذا الدرس .

وبطريقة بارعة وجه الامور نحو احاديث معينة ، يريد ان يتفرغ ، في اسرع وقت ، الى المسافرين ليسألهما ، وكأنه مدفوع بقوة خفية ، عن هؤلاء العفاريت الذين وصلوا في الأيام الأخيرة ، اي شيء يمكن ان يعملوا ، وماذا يقول الناس في الاماكن الاخرى .

ان العلاقة بين متعب الهذال ونسيبه هديب الحمد علاقة خاصة ، اذ بمقدار ما فيها من مودة ، فيها من التحدي والمشاكسة الشيء الكثير . كان متعب الهذال يعتبر ان العمر وحده الذي يعلّم الانسان ، وينظر الى الصغار بقليل من الثقة ، وبعض الاحيان بشك ، وكان لا يخفي ذلك . أما هديب الحمد فانه يرى ان السفر ، الانتقال من مكان الى آخر ، الالتقاء بالبشر ، ما يعلّم الانسان ويجعله اكثر معرفة ودراية .

وتلك الليلة حين جرى الحديث مرة اخرى عن السفر وانه وحده الذي يعلّم ويغير علّق متعب وهو يضحك بصخب ، لانه تذكر ما كان يقوله هديب :

ـ العمر وحده يا ابن اخي يعلّم من يريد أن يتعلم . . .

وبعد ان هدأت الضحكات سأل :

ـ ما قولك بالدريبي ؟

ـ الدريبي ؟

ـ اي نعم الدريبي . . هذا اللي يقول انه راح للهند والسند ، واللي يحكي مصري كأنه ولد بمصر . . تعرفه . . .

وحين هز هديب رأسه دلالة انه يعرفه تابع متعب :

ـ اول امس ، قبل كم يوم ، راح مع الجماعة الى الخبرة الشرقية ، ولما التفتوا ما

وجدوا له اثرا . . ضاع الدريبي ، ملح وذاب ، ولولا رحمة الله وفطنة حمار من حمير الوادي لظل بمكانه ومات . . .

ابتسم هديب ابتسامة ساخرة . وحرك كتفيه ، قال متعب :

ـ اتعرف من رجعّه لوادي العيون ؟

لم يجب هديب ، قال متعب وهو يضحك :

ـ حمار ابن المدور هو اللي قاده وهو اللي رجعه !

وأضاف بعد قليل وقد اخذت لهجته نبرة جديدة :

ـ الصخرة ، يا ابن اخي ، تعلم ولا تتعلم . . البشر هم الي يعلّمون ويتعلمون . . والبني آدم كل شيء يعلّمه وكل يوم يطلع له قلب جديد .

كان متعب الهذال يتحين الفرصة لكي يسأل ويعرف ، كان يريد ان يرى اثر السفر في هذين الرجلين اللذين يعودان الآن . كان يسترق النظر ، بين فترة واخرى ، الى ابنه شعلان يقرأ في وجهه وعينيه آثار ذلك السفر الطويل . واذ اخذ الرجلان يتحدثان عن البشر والاماكن ، عن المشاق والصعوبات ، عن الجوّ والليالي الباردة ، ثم عن القوافل التي ضاعت وهلكت ، وعن المرض الذي حلّ بمصر وكيف انهما وُضعا مع المئات في اماكن خاصة محاطة بالاسلاك ، وكان الجنود ، والاسلحة بايديهم ، يمنعون الدخول والخروج ، حتى اذا انقضت فترة ، وكانوا قبلها أصحّاء معافين ، خرجوا من الكرنتينا وقد هدهم التعب والمرض والجوع . وبعد ذلك تحدثا عن الطعام والفاكهة ، عن المياه الباردة التي تتدفق في شوارع الشام في كل وقت . ومتعب الذي سمع بانتباه وابدى اعجابه وسأل عن الكثير من التفاصيل ، وكان يستعيد في لحظات معينة بعض الوقائع والاسماء ، ويبدي دهشته لضياع القافلة التي كان فيها فلان وفلان ، ويبدي اسفه لموت فلان الذي يعرفه وسافر معه في وقت من الأوقات ، كان يريد أن يصل الى الأمور التي تهمه أكثر من غيرها . ان يعرف لماذا جاء هؤلاء الاجانب وماذا سيفعلون . وهديب الذي ابدى معرفة تفوق معرفة شعلان ، قال وهو يؤكد على الكلمات التي يقولها :

ـ بلا يا ابو تويني . لقيناهم في كل مكان . والناس يقولون انهم سيحفرون الارض ويقلبون عاليها سافلها ، ولا احد يعرف . . .

توقف قليلاً وتوالت هزّات رأسه حزناً واسفاً ثم تابع :

ـ قبل ايام ، عند المديرج ، رأينا عشرة أو اكثر منهم ، كانوا في اربع خيام ، ومعهم عدد من جماعتنا ، ولما طلبنا ان نمرح عندهم قالوا : « تشربون وتمشون ، تمرحون بمكان ثانٍ » ، وشربنا ومشينا . ولما جئنا الاميرقال : « هذا بعلمنا وما لكم لازم » .

تركت هذه الكلمات علامات الدهشة والغضب على وجه متعب الهذال ، قال بحدة :

ـ والله اذا تركناهم ، يقلبون الوادي فوق رؤوسنا ، كفار ولا يرحمون .

قال شعلان ، وكان يتكلم وينظر الى ابيه بما يشبه اللوم :

ـ هذا عمل حكومة يوبه . . وما دامت الحكومة تعرف والامير قال مالكم لازم ، الاعتراض ما يفيد .

تطلع متعب الهذال الى ابنه شعلان وكأنه فوجيء بوجوده وكلامه ، حتى انه لم يصدق اذنيه اول الأمر ، فلما استقرت الكلمات في عقله ، قال بسخرية :

ـ يا وليدي . . خالك يقول السفر يعلّم . اراك ما تعلمت شي !

سقطت الكلمات على رأس شعلان كما تسقط الصخور الثقيلة الحادة ، او كما يسقط الزيت الغالي . واذا كان قد تعود ، منذ وقت طويل ، ان يكون فظاً قاسياً مع الآخرين ، وفي حالات معينة اقرب الى الحماقة ، فانه تجاه ابيه شديد الضعف . شعر في تلك اللحظة انه عاجز عن الاجابة ، وشعر انه لا يحتمل الكلمات الساخرة التي قالها ابوه ، واذا كان الصمت قد امتد ثقيلاً فوق رؤوس الرجال فقد احس شعلان بالاختناق وانه لا يقوى على البقاء فخرج .

كان متعب الهذال في حالة من الغضب والانفعال الى درجة قد يفعل شيئاً غير عادي ، احس هديب بذلك اكثر من الآخرين ، قال في محاولة لان يغير الجو :

ـ يا ابو تويني ، اردت أو لا العفاريت ستصل ديرتنا ، والقضية ما منها حيلة .

رد متعب بعصبية :

ـ العفاريت وصلت يا هديب . وصلت . . وصلت .

ـ وما قولك يا ابو تويني ؟

ـ قولي نشوف الامير ، نشوف الجماعة . . هناك ، وبعدها الله كريم

قال هديب بخبث :

- ظني ما منها فائدة . . يا ابو ثويني .
- وين الفايدة يا مبارك ؟
- الفايدة باللي يقسمه الله .

استراح قليلاً واردف بصوت مخنوق :

- يا ابو ثويني ، يا ولد العم . الناس غيري وغيرك . الناس مع الامير وابن الراشد ، الواحد منهم خايف او طمعان ، وانت اكثر مني تعرف : تسعين ابرة ما يجن مخرز ، وهذه الحكومة يا متعب ما ترحم .
- ما لنا وهذه البلية ؟ ما لنا والحكومة ؟

اجاب هذيب بحزن :

- هذا رأي الحكومة يا ولد العم .
- اسمع يا هذيب ، الحكومة ما هي حكومة ابن الراشد وامثاله ، الحكومة تعرف اكثر الناس ان وادي العيون لاهله ، وتعرف كم صار من البلايا على الماء ، واذا كانت ذيك المشاكل انتهت والناس عاشت فابن الراشد اليوم حوّاس ويلعب .
- ابن الراشد ما هو بشي يا ولد العم ، ابن الراشد ذويل ويقول ما يسمع .
- لكنه هذه الأيام هو والامير شي واحد ، وانت تعرف انه اذا تصادق الرعيان ضاعت الغنم .
- يا ابو ثويني ، ابن الراشد ما هو بشي ، الجماعة هناك هم اساس المشكلة .
- ابن الراشد اساس البلية ، كل يوم والثاني عند الأمير : وادي العيون يبغـي ماء ، البدوان اخذوا الماء ، وادي العيون مات من العطش ولازم تحفرون لنا بيار جديدة ، وادي العيون ما يمر فيه احد . . وادي العيون . . وادي العيون . لو فكّ شره ابن الراشد عن وادي العيون ترانا بخير وسلامة .
- يا ولد العم ، حتى الامير ما له يد ، وسوالف ابن الراشد سوالف ليل . المشكلة اكبر من الاثنين .
- ما قولك لو بعثنا طارش للجماعة هناك ؟
- ام البيض مصيودة يا ابو ثويني . والجماعة هناك موكدين وادي العيون وما هم تاركيه ولو بعثنا طارش والف طارش ، اللي بروسهم لا بد نراه ولا بد يصير .

بعد ذلك تشعّب الحديث . لم يبق احد من الرجال الا وتحدث . وشعلان الذي حدد به . خجولاً مطعوناً ، لكن ما كاد يمر بعض الوقت حتى قال اشياء كثيرة لكي يوضح موقفه ويفسر الكلمات التي قالها من قبل . لم يتحدث الى ابيه مباشرة ، لكن صوته ، طريقته في الحديث ، وبعض الاحيان النظرات الحذرة الخفية نحوه ، كانت تهدف الى ان يسمع ابوه ، ان لا يخطىء في فهمه . ومتعب الهذال الذي لم يترك شتيمة لم يقلها ، ولم يترك فرصة من اجل توضيح الشرور التي ستواجه وادي العيون المدينة كلها ، كان يشعر بحزن شديد ، وتمنى لو ان شعلان لم يأت او لم يقل الكلمات التي قالها .

قال احد المسنين ينهي الحديث ، ويخفف من حدة متعب الهذال :

- طولوا بالكم يا جماعة الخير .

ولما تطلعت اليه العيون تابع :

- ديرتنا وحنا نعرفها : تبلع الف عفريت .

وضحك الرجل المسن بصوت خشن اقرب الى الحشرجة ثم أضاف :

- وحرام عليكم ان تتعاركوا وتختلفوا قبل ما تصل العفاريت ، واذا تعاركتم واختلفتم العفاريت تخرب بينكم . وتنام على صدوركم .

قال متعب الهذال وكأنه يحدث نفسه :

- لازم نعرف كيف نمنعهم من الوصول ، وإذا وصلوا ندفنهم أو نهججهم ونلعن والديهم .

بعد سبعة عشر يوماً رحل الاميركيون ومعهم الدليلان ، لكن رحيلهم هذه المرة كان الى الداخل وليس من حيث اتوا . ومتعب الهذال الذي لم يقتنع بهذا الرحيل ، وانما اعتبره دليلاً اكبر على الشؤم ، قال في مضافة ابن الراشد في ذات الليلة التي رحلوا فيها ، وامام عدد من رجال وادي العيون :

ـ الجماعة عندهم سالفة ، والماء حجة . . .

ضحك بسخرية وتابع :

ـ يدورون عن جن ، عن عفاريت ما يندرى ، لكن ابشروا يا اهل الوادي ، اذا طلع الشيء اللي يدورون عليه ما ظل منكم احد حياً .

لم يكن هذا الحديث ، والذي جاء على هذه الصورة من الحدة والغرابة ، مفاجئاً للرجال ، لان المفاجأة التي وقعت في الأيام الاولى زالت وحلّت مكانها اسئلة غامضة ، حتى اصبح الحديث الوحيد الذي يجري بين اي اثنين ، في اي مكان وفي كل وقت ، عن هؤلاء ، ولم يعد احد بحاجة الى مقدمات من اي نوع لكي يتحدث عنهم ؛ وفي وقت لاحق اصبح الحديث موصولاً ، بحيث يستطيع الانسان ان يبدأ كلاماً مع جماعة ويواصله مع آخرين ، لان كل شيء يقع يُعرف وينتشر بسرعة ،

ولان التصرفات التي بدرت من هؤلاء خلقت شكوكاً لا نهاية لها . فليرات الذهب الانكليزية والرشادية التي كانت توزع بسخاء ، لقاء ابسط الخدمات ، ثم الاثمان المرتفعة التي اعطيت مقابل الصناديق الخشبية والاكياس التي استعملت لخزن كميات من الرمال والحجارة ، واخيراً ما دفع لابن الراشد مقابل الناقتين اللتين اشتراهما هؤلاء ، هذه التصرفات وغيرها جعلت اهل وادي العيون في حيرة كبيرة ، وحتى الذين ابدوا تسامحاً ، وقالوا ننتظر قبل ان نحكم ، ساورهم الشك في ان يكون اولئك الاميركيون قد جاءوا من اجل الماء .

ووادي العيون الذي تعود على مرور القوافل . ورأى بشراً من أنماط كثيرة ، كان الاميركيون الثلاثة بالنسبة له بشراً من نوع غير مألوف ، نوع مختلف تماماً ، بطريقة حياتهم وتصرفاتهم والاسئلة التي يسألونها . ثم ذلك السخاء الذي لا يظهر ابداً من المسافرين الآخرين .

وابن الراشد الذي بدا مستعداً ، اول الامر ، لان يدافع عن هؤلاء ، ويؤكد بطرق شتى ان الامير ارسلهم ، وانهم اصدقاء جاءوا للمساعدة ، لم يعد متحمساً للدفاع . اكثر من ذلك اكدّ للذين سألوه عن هؤلاء الاجانب ، كيف ينامون وكيف يتصرفون حين يكونون وحيدين ، اكدّ ان لهم تصرفات عجيبة للغاية ، وان لهم رائحة خاصة . وما الاسراف باستعمال العطور واشعال البخور إلا لكي تغيب هذه الرائحة . كما اكد انهم لا ينامون في ليلة من الليالي قبل ان يكتبوا اشياء كثيرة وربما كانوا يسحرون . وفي حالات عديدة كانوا يتوقفون عن الكتابة ، يتبادلون بعض الكلمات ثم يعاودون مرة اخرى ، خاصة ذلك الذي لا يتكلم العربية ، اذ كان اكثرهم اهتماماً ، كان يشرف على خزن الرمال التي يأتون بها ، ويكتب على الصناديق ، ويضع علامات بالوان واشكال غريبة للغاية . أما في الصباح فإنهم يصلّون بطريقة عجيبة . اذ يبدأون برفع ايديهم وارجلهم في الهواء ، ويحركون اجسامهم كلها ذات اليمين وذات اليسار ، ولا يتوقفون الا بعد ان يزخّهم العرق ويبدأون باللهاث .

قال احد الرجال مخاطباً ابن الراشد :

ـ دوّر تحت الفراش ، تحت الرمل ، يا ابو محمد ، يمكن تركوا وراءهم بلايا مسحورة .

ومتعب الهذال الذي كان يسمع وتتوالى هزات رأسه علّق بلهجة ساخرة :

ابن الراشد لازم ينقل المضافة من المكان كله ، لان الجن سكنها من يوم وصلها الكفار ودخلوها .

ولما وجد نوعاً من الاهتمام والموافقه لما قاله تغيرت نبرة صوته :

ـ حتى لو ما بها جن رائحتهم تقتل الطير .

قال احد الرجال وهو ينهض :

ـ يا جماعة الخير . . الفلاة ، تحت السماء ، اخير من هذا المكان .

بدا ابن الراشد محرجاً ، اذ لا يستطيع ان يدافع عنهم كما فعل في البداية ، كما لا يستطيع ان يتنكر لقيم الضيافة ، قال لينهي الموضوع :

ـ القول قولكم : الفلاة اطيب ، والله يلعنهم ويلعن ساعتهم ، والحمد لله خلصنا منهم .

قال متعب الهذال الذي كان يسير الى جانب ابن الراشد :

ـ ولّف نفسك من جديد يا ابن الراشد ، تراهم راجعين نوبة ثانية .

رد ابن الراشد بعصبية :

ـ ذكر الشيطان ولا ذكرهم يا رجل .

لم تمض عشرة ايام الا وعاد الرجل الذي يتظاهر انه لا يعرف العربية ، ومعه معظم الاحمال التي حملوها ؛ قضى ليلة واحدة في وادي العيون مع دليله ، وفي فجر اليوم التالي واصل سفره ، أما الاثنان الآخران فلم يعرف عنهما شيء لفترة طويلة .

ويوماً بعد آخر بدأت الحياة الطبيعية تعود الى وادي العيون وأخذت صور الأميركان تبتعد وتُنسى ، إلا في ذاكرة متعب الهذال ، الذي أخذ يراقب كل شيء بنفسه . واذا كان قد تعوّد الا يسأل احداً عن الكثير من الامور ، فقد اصبح حريصاً اشد الحرص على ان يستقبل اية قافلة تأتي ، ومن اية جهة تأتي ، فان جاءت من ناحية البحر والشام كان يسأل بشكل مبهم ان رأى المسافرون احداً او شيئاً غير مألوف . أما اذا جاءت القوافل من الداخل فكان يسأل عن رجلين من الجن دخلا الصحراء قبل فترة ثم انقطعت اخبارهما ، وكان يود في اعماقه لو يأتي من يخبره انهما ماتا عطشاً او أكلتهما الذئاب . كان يريد ان يعرف اي شيء عن هذين الغولين ، فاذا جاءت الاخبار من هذه الناحية او تلك غامضة مشوشة ، فلا يكتفي بواحد يسأله ،

اذ كان يتعمد سؤال الكثيرين ، ويتعمد السؤال عن اشياء كثيرة ، حتى اذا سمع كل ما قيل يطيل التأمل والتفكير . أما وضحة التي كانت تشغلها امور اخرى في هذه الدنيا فما لبثت ان دخلت في الجحيم الذي اراده متعب الهذال ، فاذا ضاقت بأسئلته ، بالعصبية المفاجئة التي اتسمت بها حركاته وتصرفاته ، تقول له بيأس يصل درجة التوسل :

ـ اترك هذه السوالف يا رجل . . الحكومة تعرف اكثر من الجميع .

فيرد عليها بسخرية :

ـ اي والله الحكومة تعرف اكثر من . . .

ولا يكمل عبارته لانه لا زال متردداً . ربما كانت الحكومة لا تعرف ماذا يفعل هؤلاء الشياطين .

* * * *

مرّ الصيف كله وجاء بعده الخريف . وغابت نهائياً صورة اولئك الاجانب الذين مروا في الوادي قبل شهور طويلة ، ولم يعد احد يسأل عنهم او يتذكرهم . ومتعب الهذال الذي ظل خائفاً مترقباً ، وجد ان استمرار الحديث عنهم او السؤال يضاعف همومه ومخاوفه ، خاصة وان الآخرين بدأوا يضيقون من أسئلته وهواجسه ، ويعتبرون مجرد ذكرهم شؤماً يجب ان يبتعدوا عنه . ولذلك طوى متعب الهذال هذا الموضوع او كاد ، لكنه مع ذلك لم يستطع ان ينجو من الاحلام والهواجس التي تطارده في الليل . اصبح ليله ثقيلاً صعباً ، فاخذ يهرب من النوم ، او يكتفي بنوم ساعات قليلة ، وغالباً ما تكون خلال النهار وبشكل متقطع ايضاً . واذا كانت وضحة وآخرون قد لاحظوا ذلك فقد خافوا عليه ، وتوقعوا ان تنهار صحته ، فاخذت احاديثهم معه تنحو منحى معيّنا لعله ينسى ، واخذت تصرفاتهم تتسم بمقدار كبير من العناية والشفقة ، لكن هذا اللون من الاحاديث ، وهذه الطريقة في التصرف ، بدل ان تخفف عنه وتشغله او تنسيه بدأت تثيره وتجعله اكثر حدة وتطرفاً .

ولما وصل خبر الحالة التي ألمّت بمتعب الهذال الى ابن الراشد قال لاثنين او ثلاثة حوله ، وقد بدا صوته حزيناً :

ـ العتوم دائماً بهذا الشكل ، اذا كبر الواحد منهم ينهبل او يذبح .

وخفض صوته كثيراً ، حتى اصبح همساً :

ـ لازم يسرح بالغنم او يلعب الاولاد . . متعب الهذال .

اشفق الكثيرون على الرجل واخذوا يراقبون حركاته وتصرفاته ، أمّا هديب فكان اكثر الناس خوفاً وقلقاً ، كان يتصور ان متعب الهذال اذا ترك اولم يشغل نفسه بعمل من الاعمال فان كلام ابن الراشد عنه سوف يتحقق . قال له في غروب يوم من ايام الخريف ، وقد هبت نسمة عذبة بعد نهار قائظ :

ـ أظنها تكون سنة خير هذه السنة . . يا ابو ثويني . . .

التفت اليه متعب ، وقدفوجىء،فلما وجده يعّب الهواء بقوة ، ادار رأسه في الافق وكأنه يستطلع الجو ، ثم تابع :

ـ واذا جاء الوسمي وكانت الامطار كثيرة تتغير حياة الناس ويتغير الوادي

ـ الله يسمع منك . . يا ابن أخي .

ـ واشوف بيتك تضعضع يا ابو ثويني ، وخاف يشيله المطر والريح .

وبكثير من البراعة والهمة والتعاون ، وبعد أن تجند عدد من الشبان ، أصدقاء شعلان وأقرباؤه ، بدأت على الظهرة عمليات بناء دائبة ، رافقها الكثير من المزاح والتحديات ، وقد اشترك فيها متعب الهذال نفسه بحماسة كبيرة ، وبهمة لا تعرف التعب : رممت الأسوار الطينية ، أضيفت الى الحظيرة أجزاء جديدة ، أما الأسطحة فقد ذحمت عدة مرات وأصلحت الجوانب ، كما جددت بعض الأعمدة الخشبية ، ونظفت مساقط المياه . وفي غمرة العمل بدا لمتعب الهذال أنه بالإمكان إقامة غرفة جديدة ، خاصة وان وضحة أشارت في الليلة قبل الفائتة الى ان شعلان أصبح في سن ووضع يجب معهما التفكير باختيار امرأة له . ولذلك لم يتردد في ان يشرع فوراً بالبناء ، ورافق العمل بعض الاشارات الخفية التي تدل على أن أمور جديدة وهامة يمكن أن تحصل في بيت متعب الهذال خلال فترة من الزمن ، وهذه الاشارات لم تكن تحتاج الى فراسة كبيرة لكي تستنتج ، خاصة وأن الشبان أثناء جبل الطين أو نقل الحجارة كانوا يتصرفون ويبتسمون بطريقة توحي أنهم يعرفون كل شيء . وكان متعب الهذال يقابل كل ذلك برضى واعتزاز .

ومثلما تغيرت حالته كثيرا في الفترة السابقة ، فقد تغيرت من جديد : اصبح يأكل بشهية وينام نوماً عميقاً متصلاً . كما استعاد قوته وثقته ، وان كانت الاحلام لم

تتوقف عن ملاحقته وإتعابه ، لكنه في غمرة التعب والانشغال الكامل كان ينسى كل شيء .

قبل ان ينتهي البناء والترميم بيومين او ثلاثة ، ومثل عادتها كل صباح وكل مساء جاءت وضحة تحمل ابريق الشاي ، لكي « يشرب النشامة الذين تعبوا وعطشوا » ، قال لها هديب وهو يتناول الابريق والكؤوس :

ـ ابو ثويني رجع اكثر شباباً مما كان .

ـ اولاد الحرام اللي جاءوا طوّشوا رأسه . . والا كان اقوى من الشباب .

ـ راحوا وعسى انهم ما يرّدون .

ـ لا كانوا ولا كان يومهم .

وفي اليوم الأخير ، ذبح متعب الهذال خروفاً عند عتبة الغرفة الجديدة ، وتعالت صيحات الشباب وصخبهم وهم ينقّلون نظراتهم بين شعلان وأبيه ، ويتطلع بعضهم الى بعض ، قال أحد الشباب :

ـ ولّما المعلف ، ما بقي الا الفرس

رد متعب الهذال وهو يضحك بصوت عالٍ .

ـ يقلوا الله . ما يحول الحول الا ويعرّس .

سأل هديب بمكر :

ـ شعلان او ابوه ؟

ـ شعلان وابو شعلان يا ابن الحلال .

هكذا رد متعب الهذال ، وقد طغت على الجميع موجة من الفرح والرضا ، وكانت ليلة كبيرة من ليالي وادي العيون .

واذا كان البيت قد رمم تحسباً من الامطار التي قد تأتي ، فلم يكن متعب الهذال بحاجة الى من يقنعه بضرورة تحضير ارض البستان في الوادي وتهيئة بعض البذور . انطلق بنشاط ، قلب الارض مرتين ، فتح فيها أثلاماً ، رفع النباتات الطفيلية والاشواك ، ثم وضع كميات من الزبل وخلطها خلطاً جيداً مع التربة . نظف القناة الشمالية ، التي طمرتها الاتربة والرمال ، استعداداً للامطار وتوقعاً انها ستكون اكثر من سنوات غيرها . قال في نفسه وهو يحفر برغبة وهمة : « هذه الارض مثل الكنز لا

يُعرف ما بداخلهم حتى تأتي الامطار . . فاذا جاءت الامطار مبكرة وكثيرة جاء معها العجب ، وتذكر سنوات معينة ، سنوات الخير ، فابتسم ورفع رأسه الى السماء وتنشق الهواء بقوة .

وفي هذه الفترة شعر متعب الهذال انه اكثر قوة ، ولام نفسه انه انشغل بقصة اولاد الحرام الذين مروا بالوادي قبل شهور . قال في نفسه « سالفة وانقضت ، وهذا الوادي ياما شاف وياما سمع . . واللي مروا بالوادي اكثر من التراب ، لكن ما بقى منهم اثر وعسى اولاد الحرام اللي مروا يغيب اثرهم ويغيب ذكرهم » . وأحس اكثر من اية فترة سابقة بروابط تشده الى الارض والنخيل واشجار التين والى الناس في الوادي ايضاً . قال لمقبل ابنه الصغير الذي كان يدور حوله ، وينظر باعجاب الى كل حركة من حركاته :

ـ ذيك النخلة ، الرابعة على اليسار ، بعمرك يا وليدي ؛ وكل ما تكبر انت يوماً تكبر معك ، وباكر انت تزرع نخلة لابنك وابنك يزرع نخلة لابنه ، وسنة بعد سنة ويظل وادي العيون اخضر ، ويظل الناس يمرون بالوادي ويشربون من ماء الوادي ، ويترحمون على الاموات . ويقولون ، وهم بظل الشجر ، الله يرحم كل من زرع نخلة وعرق اخضر .

وظل مقبل ، مثل كلب صغير ، يدور حول ابيه ، يداعبه ، يقفز على ظهره اذا انحنى ، فاذا انقضى النهار واقبلت الظلمة التصق به ، امسك ثوبه بقوة لا يريد ان يتركه او ان يبتعد عنه ، فاذا وصلا الى العين ، وكان الاولاد قد انتهوا من السقاية ، وساروا بالدواب الى الظهرة كان متعب الهذال يتمهل قليلاً ، يغسل وجهه ويديه من ماء العين ، يترنم فتصدر عنه اصوات فرحة تعبيراً عن الارتياح والشكر . ثم يواصل طريقه مصعّداً بالتل ، لكنه لا يتوقف عن الحديث الى ابنه ، وهو يدرك ان الصغير لا يفهم اكثر الاشياء التي يقولها ، ومع ذلك يستمر .

قالت وضحة مخاطبة هديب ، وكانا يلمحان طيف متعب يقترب :

ـ سبحان الرب المعبود ، ترى الرجل راح وردّ

رد هديب بصوت خفيض ، لا يكاد يسمع :

ـ العمل يحيي الرجال ، يا ام ذويني .

وبدا ان كل شيء في الوادي عاد الى حالته الطبيعية ، لكن المخاوف ، ثم تلك الاحلام التي ملأت ليالي متعب الهذال ، لم تنته !

كانت من الامور المألوفة انه اذا جاءت قافلة او سافرت قافلة . . او حتى الرسائل التي قد تأتي من المسافرين ، ان تدفع سؤالاً الى الاذهان او الشفاه : « ما هي اخبار الخوش وما هي علومه ؟ » ان هذا السؤال ، لفرط ما تكرر ووجه الى الكثيرين ، اصبح له معنى خاص ووقع مختلف عن عشرات الاسئلة المماثلة التي تطرح للسؤال عن المسافرين . فالخوش اصبح معروفاً حتى للذين لا يعرفونه . صحيح ان له ملامح تختلف من واحد لآخر ، ولاسْمه وقعاً متفاوتاً اشد التفاوت ، لكن لا احد يعيش في وادي العيون او يمر فيه الا ويجب ان تكون له صلة بهذا الانسان بشكل او آخر .

لماذا اصبحت للخوش هذه الصورة ؟ وهل هو انسان حقيقي من لحم ودم او مجرد شخصية من نسج الخيال ؟ واذا كان رجلاً حقيقياً فلماذا تحيط به هذه الهالة من الغموض ويثير هذا المقدار من الاسئلة ؟ هل لانه مسافر ؟ الانه لم يعد ولم تسمع اخباره ؟ ولكن المسافرين من وادي العيون اكثر عدداً من المقيمين فيه ، حتى لا يخلو بيت او مضرب في الوادي والظهرة والمنطقة القريبة من مسافر او اكثر . بعض هؤلاء امتد بهم الزمن وطالت غيبتهم ، انقطعت اخبار بعضهم فترات طويلة لكنهم عادوا في النهاية ، او على الاقل بدأت تأتي اخبارهم ثم رسائلهم ومعها تلك الاقمشة الملونة

التي لا ينسى احد من المسافرين ان يرسلها .

هناك اذن شيء يميز الخوش ويجعل له وضعاً مختلفاً عن الآخرين . يمكن لكل واحد من اهل الوادي ان يقول شيئاً ، وقد يكون ما يقوله مختلفاً عن قول الآخرين ، لكن يبقى صحيحاً مع ذلك . فالذين يقولون انه شجاع وان شجاعته مضرب المثل صادقون . . والذين يقولون انه كان اقدر الناس على العدو ، ويستطيع ان يأتي بالجمل الهائج حتى لو كان على مسيرة نصف يوم ، وان كثيرين رأوه متعلقاً بذيل جمل ، والجمل يمرجحه كما لو انه مجرد ثوب او كأنه بلا وزن ، ان هؤلاء صادقون ايضاً . . أما اذا وصل الحديث الى مدى تحمل البشر ، خاصة للجوع والعطش ، وذكرت بعض القصص عن رجال تحملوا ، فان اكثر القصص اثارة تلك المتعلقة بالخوش . هذه امور لفرط ما تكررت واستعيدت اصبحت مألوفة الى درجة كبيرة ، ومع الأيام فقدت اثارتها وبريقها ، الا في لحظات التحدي او امام الغرباء . لكن ما ظل مثيراً في امر الخوش طريقة اختفائه .

فبعد ان سافر في قافلة السالمي ، واستمر معها حتى الجوف ، لم يره احد بعد ذلك . اختفى دون انذار وبلا مبررات واضحة ، ولولا ان المسافرين الذين كانوا في القافلة اكدوا انه استمر معهم ، ثم تركهم في الجوف ، بعد مسيرة سبعة ايام من العيون ، لولا هذه التأكيدات القوية الجازمة لقال الناس ان الارض ابتلعته ، او ان حيواناً افترسه . طبيعي لم يسلّم احد باختفائه ، لكن الرجال الذين نقلوا تلك الاخبار كانوا من الثقاة المعروفين ، ثم التواتر الذي حصل بعد ذلك من قبل آخرين . أما القوافل التي جاءت من الجوف فقد ذكرت اشياء متناقضة مضطربة ، وهذه بدورها عززت الشكوك وزادتها ، ورغم ان عدداً من المسافرين ألحّ في السؤال عنه، وتبرع آخرون باستقصاء اخباره ، فان اياً منهم لم يصل الى جواب قطعي ، او الى مجرد جواب يمكن الاطمئنان اليه ، ولذلك انقطعت اخباره دفعة واحدة .

ما كان اختفاء الخوش او انقطاع اخباره ليثير هذا المقدار من الاهتمام والتساؤل ، ثم الشفقة ، لولا تلك الام ، امه . كان ابنها الوحيد ، ومنذ ان مات ابوه - وقد حصل هذا قبل سنوات طويلة - اكتسبت الام من صفات الرجال ومظهرهم الشيء الكثير ، اذ اضافة الى العناية ببضع نخلات ، وهي ما تبقى لها من مال الدنيا بعد رحيل زوجها ، فقد ربّت ثلاثة او اربعة رؤوس من الماعز وبضع

دجاجات ، وكانت تبيع للمسافرين الحليب والبيض ، وتقدم بعض الخدمات التي يحتاجها هؤلاء ، كأن تصنع حبالاً او ترفو الثياب الممزقة او تجمع بقايا الاشياء التي يتركها المسافرون ، وتظل تعالجها بصبر ودأب حتى تصنع منها شيئاً نافعاً . بهذه الطريقة الصعبة المكابرة ربت الخوش . والخوش الذي لم يحس بفقد ابيه اول الامر لصغر سنه ، لم يحس بالغضاضة بعد ذلك ، لان كثيراً من الاطفال حوله كانوا بلا آباء ، إما لان هؤلاء مسافرون او لانهم ماتوا .

ظلت الامور تسير بشكل طبيعي ، رغم المصاعب ، حتى كبر الخوش واصبح اقرب الى الرجال . والأم التي صبرت واحتملت وجدت في الرجل الجديد ، الشجاع القوي ، والذي ينظر اليه اهل الوادي باكبار ، سلوتها ، حتى قال الكثيرون ، بمن فيهم متعب الهذال ، ان الام بعد ان كبر الخوش اصبحت اكثر فتوة وشباباً . لكن ام الخوش التي تسمع مثل هذا الكلام ، دون ان يعني لها شيئاً ، تتصرف بطريقة لا تترك لاحد ان يتجاوز حدوداً معينة ، والناس الذين تعودوا عليها بهذا الشكل واحبوها ، ثم ما اكتسبته من صفات نتيجة العمر والتجربة جعلتها محبوبة اكثر من قبل وموضع احترام وتقدير .

كل هذا جزء من تاريخ الوادي الاقرب الى النسيان ، لان ما تلا ذلك كان هو الذي يحفر في وجدان الناس وذاكرتهم ، تماماً كما تفعل المياه في المنحدرات ، خاصة اذا جاءت سخية مفاجئة . اذ ما كاد الخوش يختفي بتلك الطريقة الغامضة حتى انتهى الفرح وجاءت احزان لا نهاية لها . فالمرأة التي بدأت تسأل المسافرين ولا تجد جواباً ، ما لبثت ان اخذت تنتظر في فم الوادي اكثر ساعات النهار، لعل قافلة تأتي وتحمل اليها خبراً عن الخوش . واذا كانت قد تعودت ان تظهر الحزم والصرامة ، وهي تسأل ، وكأن الامر عادي جداً ، تحولت يوماً بعد يوم الى امرأة من نوع آخر : اصبحت تلحف في السؤال ولا تترك احداً في القافلة الا وتسأله ، والذين لا يعرفون الخوش ولم يسمعوا باسمه تتحدث لهم عنه ، كان يلذ لها ان تتحدث الساعات الطويلة .

واهل الوادي الذين عرفوا الخوش وامه حزنوا اشد الحزن ان تنقطع اخباره بهذا الشكل ، وكانوا ، في البداية ، مثل امه حماسة للسؤال عنه ، وتكليف المسافرين ان يسألوا . كتبوا الرسائل الى الاقرباء والمعارف ليوافوهم باية اخبار عنه ، لكن الأيام

تنقضي ولا يأتي خبر ، مجرد خبر . والناس الذين يكادون ينسون الخوش في غمرة العذاب اليومي من اجل البحث عن الرزق ، يطالعهم كل يوم وجه العجوز ، فلا يستطيعون نسيانه يوماً واحداً . كان اكثر وجوداً من الناس الأحياء الموجودين ، وكان وجوده يزداد كثافة ما دام الحزن يغرق العجوز اول الأمر ثم يغيرها فتصبح امرأة لا يدري الانسان كيف ينظر اليها او كيف يتعامل معها . فالحديث الذي لا ينتهي عن الخوش ، بمقدار ما يثير من الابتسامات ، لما يتخلله من حوار واسئلة ، يثير الحزن ، لان العجوز في غمرة الاسئلة والحديث لا تلبث ان تنتحب ، وقد تتكلم بطريقة شديدة الانفعال ، وتختار كلمات بعينها ، وبعض الاحيان تردد ابياتاً من الشعر ، وقد تغنيها .

كانت تفعل ذلك دون ادنى شعور بالخوف او الحرج ، وبحماسة كبيرة وصوت عال ، كأنها تخاطب عدداً كبيراً من الناس . وفي احيان اخرى تخاطب الدجاج والماعز وتتحدث اليها ساعات متواصلة ، وكأنها تروي قصة بلا نهاية .

من يسمع ام الخوش تتحدث لاول مرة يظنها امرأة شديدة الاتزان ، وحين تبدأ برواية قصة سفر ابنها ، ترويها وكأنها تعني امرأة اخرى ، أما التفاصيل الصغيرة الغارقة في ظلام الوادي البعيد المنسي ، والتي تطفو بشكل مفاجىء ، فكأنها حدثت في الليلة الفائتة . تستمر كذلك فترة من الزمن ، ثم فجأة تتغير لهجتها ونبرة صوتها ، تتلفت حولها بفزع ، تتلمس الارض كأنها تخاف ان تنفتح فتصرخ بانفعال :

ـ اسمعوا يا اهل الوادي : المنام ما يكذب . جاءني ثلاثة ملائكة . كانوا في ثياب بيضاء وقالوا لي : الخوش يكون هنا يوم الخميس . الملاك الكبير له وجه مثل وجه الخوش ويضحك مثله . وكان الصغير بقوة الخوش . والثالث ما شفته لانه كان يعطيني ظهره .

وحين يطلب منها ان تكف عن هذا وان تصبر وتنتظر ترد باستهزاء :

ـ يا اهل وادي العيون انتم ظلّام وما عندكم رحم ، انتم تتركون اولادكم مثل ما تتركون الدواب ، وبعد مدة الدابة اللي تنذبح تجرونها وتذبحونها ، والدابه اللي ما تنذبح ترمونها بالحجارة الى ان تبتعد عن الوادي وتموت ، وانا ما اريد اصير مثل اهل الوادي .

وتظل العجوز تردد وتنغّم : « الخميس . . يوم الخميس . . هذا الخميس » والناس ينظرون إلى بعضهم وينظرون إليها ، وتختلط ابتسامات الشفقة بالتساؤل ، ويقولون في انفسهم : « الدنيا عذبت العجوز ، واكبر العذاب انتظار من لن يأتي » ، لكن احداً لا يستطيع أن يقول كلمة من هذا النوع للعجوز ، لانها قد تقتلها . ولذلك كانوا يتركونها تنتظر . . . وكانوا ينتظرون معها لعل شيئاً ما يقع .

الرسائل والدراهم وتلك الأقمشة الملونة التي يبعث بها المسافرون كانت مثل حبال خفية تربط المقيمين بالغائبين ، وتجعل المسافرين موجودين باصواتهم وملامح وجوههم ، وتجعل الحياة ممكنة لهؤلاء الذين لا يتعبون من الانتظار في وادي العيون . كانت ام الخوش تتمنى انتظاراً من هذا النوع . ان ما تريده رسالة تأتيها ، قطعة من القماش الملون ، وليبق الخوش بعد ذلك حيث يريد . أما أن تظل هكذا ، لا تعرف شيئاً ، ولا يقول لها احد كلمة واحدة فإن ذلك اقسى عليها من الموت ، ومع ذلك فإنها شديدة الثقة والتأكد أنه سيأتي ، وهي اذ تبالغ في اكرام القادمين الجدد ، وفي الحوم حول القافلة منذ لحظة الوصول وحتى لحظة المغادرة ، فلانها تتوقع ان تسمع كلمة تؤكد لها ان الخوش لا يزال حياً ، وانه في مكان ما يتاجر ، يبيع ويشتري ، وصار عنده عدد لا حصر له من الابل والغنم .

كانت ام الخوش تفعل ذلك حين تأتي القوافل ، أما إذا رحلت القوافل فكانت تدور في الوادي منذ الفجر وحتى الغروب او بعده قليلاً ، وفي ذلك الطواف الذي لا ينتهي تخاطب الكبار والصغار ، تتحدث مع الاشجار والحيوانات ، وتسأل كل من يصادفها ان رأى الخوش او سمع شيئاً من اخباره . واذا كانت العادة ، في اغلب الأماكن ، ان يصبح هذا النوع من الناس مجالاً للسخرية والتندر ، وبعض الاحيان هدفاً لاعتداء الصبية وتسليتهم ، فان وادي العيون لم يفعل ذلك ؛ لان احداً لم يقل عن هذه المرأة شيئاً رديئاً ، وانما كانت موضع عطف واهتمام الجميع . كانت تدخل البيوت والخيام في الوادي والظهرة وكأنها تدخل بيتها ، وفي تلك البيوت تستقبل استقبالاً كريماً ، ويستمع اليها الرجال والنسوة ويتكلمون معها كلاماً عاقلاً موزوناً .

كان ذلك يجري دون اتفاق او تدبير سابق وانما نتيجة لتلك العلاقات التي تطبع الحياة في الوادي ، وتجعل الناس وكأنهم اسرة واحدة . صحيح ان قرابات من نوع او آخر تجمع الناس هنا ، لكن العلاقات التي تتحكم اقوى من تلك القرابات ، فاذا

سافر الازواج والاخوة كان اصدقاؤهم يهتمون بالنخيل وبزراعة بعض المحاصيل نيابة عنهم . انها عادة من عادات الوادي ، وهذا ما حصل بالنسبة للبستان الصغير الذي كان لام الخوش ، اذ بعد ان انشغلت بهذه القضية لم تعد قادرة على العناية بالنخيل ، أو بزرع القليل من الخضرة ، فتولى عنها ذلك عدد من الرجال . كانوا يقومون به دون ان يكلفهم احد ، وبصمت ، كأنهم يفعلون ذلك لانفسهم ، حتى اذا جاءت بعض النقود ثمناً للثمر الذي يباع للمسافرين اعطوها ما تستحق ، فتنظر الى النقود التي توضع في يدها بفرح وتسأل بلهفة الاطفال :

ـ ها الخوش هو اللي ارسل القريشات ؟

وحين يصمت الذي اعطاها ، خوف ان تجرحها او تبكيها كلمات النفي ، كانت تعابير وجهها تمتلىء بالحزن ويخيم عليها الصمت ، لكن تصرخ فجأة :
ـ هذه الفلوس ، فوق اللي عندي ، تكفي لزواج الخوش !

وتستسلم فترة قصيرة لهذه النشوة ، تضحك ، تزغرد ، تسافر ، تحلم ، ثم فجأة تجهش بالبكاء . كان بكاؤها حاداً مكتوماً في البداية ، ثم ما يلبث أن يصبح اقرب الى الاستغاثة ، حتى ان الانسان لا يطيق ان يسمعه ، فيترك الرجال المكان ، أما النسوة والصبية فانهم ينظرون اليها بدهشة ثم بحزن ، وكثيراً ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم ، حتى اذا هدأت ران صمت ثقيل موجع . واذا كان البدو ، ووادي العيون بشكل خاص ، لا يعرفون البكاء ولا يحبونه ، ويستغربون كيف يبكي الناس او لماذا ، فانهم حين يرون ذلك يصبحون اقرب الى الضعف والحيرة ويغرقون في التشاؤم .

ان ارتباطاً غامضاً حدث ما بين حالة مثل هذه ونوع من البلاء حلّ بوادي العيون بعد ذلك ، حتى ليصعب على الانسان ان يفسر الأمر . واذا كان متعب الهذال قد حضر ذلك اللقاء بين ام الخوش وذاك الذي زرع البستان ورعى النخيل ، ثم ما تلا ذلك من النشوة والضحك فالبكاء ، فقد سمعه اكثر من شخص يقول :

ـ يا رب ، يا صاحب الخيمة الزرقاء ، انت العالي وتعرف ما بالقلوب ، احرس الوادي وجنبه البلاء .

وتذكر هو ، وتذكر آخرون المرة السابقة ، حين جاء احد البدو من الداخل ، من مكان بعيد ، وقد لفت نظر متعب الهذال الحول في عينيه وافتراق اسنانه العليا .

هذا البدوي الذي حمل لام الخوش مبلغاً من المال ، وهي بين سؤالها عن الخوش ، وفرحتها بان امراً جديداً يحصل ، رفض الرجل ان يقول شيئاً قبل ان يحضر بعض الناس ، فلما جاء عدد منهم ، وكان متعب الهذال من بينهم ، اوضح الرجل ان عبد الله المكتوم ، والد الخوش ، كان قد بضعه في يوم من الأيام ، وقد جرى هذا قبل عشرين عاماً او اكثر ، وانه الآن جاء ليرد ما بذمته من مال ، ويريد ان يكون الموجودون شهوداً .

هذه الحادثة ، وما تخللها ثم ما تلاها من فرح وبكاء ، لم تمض عليها الا بضعة اسابيع حتى حلّ بالوادي مرض غريب قضى على عدد كبير من البشر والماشية ، وقال بعض الناس انه اصاب الاشجار ايضاً .

تذكر متعب الهذال هذا الحادث وما تلاه حين وصل الاجانب الثلاثة ، وتأكد ان امراً مشؤوماً لا بد ان يقع . لم يكن متأكداً من افكاره وهواجسه ، لكن شعوراً قوياً ملأه وسيطر عليه ، وظل تحت وطأة هذا الشعور فترة من الزمن يردد :

ـ اذا كان بدوي واحد اسنانه فرقاء وعينه حولاء جاب كل البلاء فهذه المرة ، وبعد ان جاء اصحاب العيون الزرق والاسنان الفرق لا بد ان يفنى الوادي ويهلك البشر !

صحيح ان الكثيرين لم يشاركوا متعب الهذال افكاره وقناعاته اول الامر ، ولم تملأهم الهواجس التي ملأت رأسه ، لكن ما كان لاحد ايضاً القدرة على اقناعه بعكس ذلك ، وهو نفسه إذا كان عاجزاً عن تفسير هذه الرؤى والهواجس ، لا يستطيع أن يقتنع بغيرها . واهل الوادي الذين استقبلوا الاجانب بنوع من الترقب والحذر ، وكان حب الاستطلاع لديهم اقوى من الشك ، فان حالة متعب الهذال اختلفت عن ذلك كثيراً ، وهذا يفسر جزءاً من الافكار والسلوك الذي ملأ عقله ووجدانه في تلك المرحلة .

ما كاد متعب الهذال يتخذ تلك المواقف التي بدت غريبة لبعض الناس حتى سرت الهمسات ثم التساؤلات : « لم يكن الرجل بهذا الشكل ، وهؤلاء الشياطين الذين جؤوا لا بد أن يرحلوا غداً أو بعد غد ، لكن « السودا » التي اصابت متعب الهذال لا احد يعرف متى تخرج منه » ويصمتون قليلاً ثم يضيفون : « اصبح مثل ام

الخوش لا يمكن التفاهم معه » .

ام الخوش تذرع الوادي من اقصاه الى اقصاه ، وقد بدت ، اكثر من اية مرة سابقة ، مشعثة الشعر ، شديدة الحزن والانفعال ، وكانت تردد كلمات بدت غريبة لكل من سمعها : « قبل حلول الحول القيمة تقوم والوادي يحترق » .

يتذكر الرجال هذا حين وصل الاجانب الثلاثة ، لان ام الخوش التي رابطت عند مضافة ابن الراشد لا تتركها لحظة واحدة في اليوم الأول ، تريد ان تسأل هؤلاء الاجانب عن الخوش ، هل رأوه او سمعوا عنه شيئاً ، والاجانب في انشغال كامل عنها ، يسألون عن مواسم الامطار وايام الحرارة ، واماكن المياه ، وعن الرمال كيف تتحرك وفي اي الاتجاهات ، والقوافل متى تأتي وكم تبقى ثم اين تذهب ، وغير ذلك من الاسئلة التي تهمهم ، وهي التي تنظر بعيون مدهوشة وتتابع كل حركة تصرخ بين فترة واخرى :

ـ يا جماعة الخير .. من منكم سمع علوم الخوش ؟

وحين لا تجد جواباً تصرخ بصوت اعلى :

ـ يا جماعة اللي سمع منكم علوم الخوش يعلمني .. وما يخاف .

ورجال الوادي الذين سمعوا هذا السؤال آلاف المرات ، وليس لديهم جواب عنه ، لا يعرفون كيف يداورون هذه المرأة وكيف يصرفونها . أما الاجانب الذين كان يخرجهم السؤال ، بين فترة واخرى ، عما هم فيه ، فلا يفهمون ما تقوله العجوز ، ولا يعرفون ان كان الكلام موجهاً اليهم ام الى غيرهم ، خاصة وان النظرة الاولى لوجه المرأة توحي بالحذر وما يشبه الخوف ، حتى اذا صرخ في وجهها ابن الراشد :

ـ يا بنية كفي شرك ـ الجماعة ما يعرفون الخوش وما عندهم علومه .

قدمت ام الخوش ، اقتربت من ابن الراشد ، نظرت اليه باستهزاء ، ثم نظرت الى الضيوف الثلاثة الذين تحركوا الى الوراء حركة لا شعورية نتيجة الخوف والذي يشبه الدفاع عن النفس . كانت نظرتها اليهم متفحصة متهمة ، ولقد استمرت فترة غير قصيرة ، والسكون يمتد ثقيلاً منذراً فوق الجميع . حتى اذا ضاق ابن الراشد ذرعاً وتوقع شراً صرخ باحد رجاله :

ـ حدها .. نبية من وجوههم .

وبحركة عصبية ازاحت ام الخوش يديها الى الخلف ، كأنها تحاول ان تفلت من ايدٍ وهمية تصورت انها ستطوقها ، ونظرت بنصف وجهها الى اليمين ثم الى اليسار ، وبهدوء تراجعت بظهرها الى الخلف بخطوات صغيرة ، لكن ظلت تصوب عينيها بحقد واستهزاء الى ابن الراشد ، وما كادت تبتعد بضع خطوات اخرى حتى بصقت على الارض وقالت :

ـ سيحترق هذا الوادي . . وانت اصل البلاء .

ولكي يبقى ابن الراشد مسيطراً ، وفي محاولة لان يكتم انفعالاته ، قال وهو يضحك بعصبية :

ـ خذوا الحريمة . . خذوها .

يتذكر الرجال الذين كانوا في المضيف هذا الذي وقع ، ثم يتذكرون ام الخوش كيف بدأت تذرع الوادي ، وتتكلم بتلك الطريقة الصاخبة ، وحين تتعب من ذلك تختار مكاناً قريباً من مضافة ابن الراشد ، لكن دون ان تقترب الى الدرجة التي تعرّضها للاهانة او الطرد ، لعلها تظفر بسؤال هؤلاء الاجانب ان كانوا قد رأوا الخوش او سمعوا عنه شيئاً ، لكن ابن الراشد الذي داخله الخوف ان تتصرف ام الخوش تصرفاً قد يسّبب اذى لهؤلاء ، ثم الحذر الذي بدا من الاجانب انفسهم ، وابتعادهم قدر ما يستطيعون عن هذه المرأة « الشرّيرة » . منعاها تماماً من طرح ذلك السؤال او الظفر بجواب عنه !

بعد ان انشغل الوادي اياماً بالاجانب الثلاثة ، وظلت الاسئلة والهواجس تدور مثل زوبعة الصحراء ، ما دام هؤلاء موجودين ، ثم بعد رحيلهم بفترة قصيرة ، بدأت الحياة تعود الى سابق عهدها ، اذ اخذ الوادي يتطلع الى هذه الجهة ويتطلع الى الجهة الاخرى منتظراً وصول القوافل والمطر والمسافرين ، لكن الهاجس الملعون الذي توارى في قلوب اكثر الناس برحيل الاجانب ، ظل يرفع رأسه ويلحّ على اثنين : ام الخوش ومتعب الهذال .

لقد تأكدت ام الخوش بعد رحيل الاجانب انهم ما جاءوا الّا ليبلغوا الوادي امراً متعلقاً بالخوش ، ولهذا السبب ابعدوها عنهم ، لم يتركوا لها فرصة لكي تسأْلهم وتعرف ، والا لماذا بدا الفزع على وجوههم عندما اقتربت منهم في مضافة ابن الراشد وصمتوا حين سألتهم ؟ هل قتلوه وجاءوا لكي يصالحوا على دمه ؟ واذا كان هناك من

يصالح بعد رحيل عبد الله المكتوم فليس غيرها ، لكن لم يسألها احد ، لم يتكلم معها احد ، وحتى لو لم يكونوا هم القتلة فلا بد ان يعرفوا الشيء الكثير عنه ! ثم الا يحتمل ان يكون الخوش قد اصبح غنياً ويملك الشيء الكثير وارسل هؤلاء لكي يبلغوا وادي العيون اين هو وكيف اصبح ؟ ولو قال هؤلاء شيئاً عن الثروة التي يملكها الخوش الا يجب ان تعرف ؟ اليست امه وارضعته من صدرها ؟ وهم ، من يعرفه مثلها ومن يحبه مثلها ؟ ولماذا يتقاسمونه وهو حيّ وهي لا تدري ؟ .

كانت متأكدة ان شيئاً ما قد اصاب الخوش . كان ابن الراشد والسحيمي وعبد لله المعيوف يمازحونها من قبل . كانوا يقولون لها « اصبري . . الصبر مفتاح لفرج ، باكر يجي الخوش ويعرّس وتفرحين ، وكل وادي العيون يفرح . . بس وكلي الله ! » كانوا يقولون هذا ويقولون اكثر منه . وفي احيان اخرى كانوا يمزحون ويسألون ، اذا كانت تنوي الزواج بعد عودة الخوش . فاذا قلبت شفتيها دلالة لسخرية والاستنكار كانوا يقولون بتأكيد « سوف تحنين يديك ورجليك ، وسوف ترقصين سبعة ايام وسبع ليالٍ ، وحتى لو جاء الخوش ومعه حريمة راح تظلين وراه حتى تزوجيه مرة ثانية ! » وحين تسمع مثل هذه الكلمات تطوف في رأسها الصور والخيالات فتفرح ، تبتسم ، تتطلع الى البعيد ، تحس بنشوة ، لكن فجأة ترتعش وتعود بسرعة ، تتطلع الى وجوه الذين يكلمونها ، تتطلع اليهم بتلك الطريقة الوحشية ، وكأنها تريد ان تكتشف ما وراء الكلمات التي تسمعها . والرجال الذين يديرون وجوههم بسرعة ، خشية ان تلتقي نظراتها بنظراتهم ، كانوا يخافون تلك العيون .

اما الآن ، في مضافة ابن الراشد كان السحيمي والمعيوف وآخرون ، لم يتحرك احد منهم حين حاولت ان تسأل الاجانب الثلاثة ، تركوا ابن الراشد يطردها كما نطرد الكلاب . نسوا الكلمات التي كانوا يقولونها لها . نسوا ايام كان عبد الله المكتوم حياً ، ونسوا الخوش تماماً . لا . . . انهم لم ينسوا شيئاً ، لكن الشياطين الثلاثة جاءوا ليقولوا لهم ان الخوش مات ، او انه لا يريد ان يعود . لو انهم ابلغوهم بشيء آخر لقالوه لها ، يمكن ان توافق على ان يبقى حيث هو ، وان يتزوج ، أما اذا بقي فقيراً فقد كان ابوه قبله فقيراً ، الفقر لا يشين احداً . تحملت الكثير ، ولا تزال قوية وقادرة على التحمل . واذا كان قد مات فمن دفنه ؟ واين دفن ؟ ولماذا لا

تعرف ؟ هل يبدو هؤلاء الشياطين انهم هم الذين قتلوه او يعرفون من قتله . . ؟ كانوا يدفعون الليرات الرشادية والانكليزية ثمناً لقطع صغيرة من القماش وبعض الصناديق المصنوعة من سعف النخيل . . هل هم مجانين ليدفعوا كل هذه الفلوس لو لم يكونوا قد قتلوه ؟

قال الكثيرون من اهل الوادي « المرأة ودّعت . كان فيها رجاء قبل فترة . . أما اليوم . . . »

ويمد احد الرجال يده الى فمه حين يسمع هذا الكلام ، يضع الابهام على الاسنان الامامية العليا ثم يسحبه بسرعة دلالة على انه لم يبق شيء .

وام الخوش التي اصبح ينظر اليها هذه النظرة اخذ يتجنبها الكثيرون ، يديرون وجوههم اذا مرت ، يصمتون اذا جلست في مكان قريب . ولم يتردد البعض في ان يطلب من الصبية ، وقد جرى ذلك بشكل خفي ، ان « يسرحوا » بها ! والصبية الذين كانوا يبدون التردد ، وبعض الاحيان الخوف في ان يسيئوا اليها خلال الفترات السابقة ، خشية تأنيب الكبار وعقابهم ، اصبحوا الآن شديدي الحماس لتنفيذ ما يُطلب اليهم . كانوا يتفننون في اختراع عشرات القصص والحيل ، لكي يبعدوها عن الرجال . وبعد ذلك لا يتركون طريقة او كلمة لاثارتها : « الخوش رجع . . رأيناه عند العين » « جاءت قافلة والرجال هناك يسألون عن ام الخوش » .

ان ما جرى في هذه الفترة بمقدار ما يثير من الضحك ، والذي لا يمكن مقاومته ، خلّف حزناً لا نهاية له ، لان المرأة التي تركض مثل كلبة لاية كلمة تتعلق بالخوش ، تصدق كل ما يقال لها . وتبدو في حالات كثيرة اقرب الى الاطفال في ابتساماتها وركضها ، حتى اذا اصطدمت بالفراغ ، بوحشة الامكنة ، باللاشيء ، افتعدت الارض وبدأت تبكي . كان بكاؤها يقطع القلوب ، يسحقها ، والاطفال الذين تسببوا في كل ذلك ، وكانوا يركضونها ويركضون معها ، وهم يضحكون ويصرخون ، حتى هؤلاء او بعضهم يصاب بحالة من الالم والانفعال حين يرونها قد انهارت وأصبحت كومة من النشيج .

الرجل الوحيد ، او من الناس القلائل ، الذي استمر على نظرته وموقفه ، لا بل ازداد عطفاً عليها هو متعب الهذال . اصبح يتعمد ان يكون قريباً منها اغلب الاحيان .

لكي يمنع عنها الاذى ، ويطرد الاطفال ، ولكي ينقذها من حالة الانهيار التي تهدّدها اذا سقطت في موجة البكاء والنحيب .

كان يقول لها كلمات طيبة لكي يعيدها الى حالة من التوازن ، وبعض الاحيان يربت على ظهرها طالباً منها ان تكُف عن هذا البكاء الذي لا يليق بها ، وكان يقول لها ان الخوش نفسه لو رآها على هذه الحال لا بد ان يستبد به الغضب . وشيئاً فشيئاً تكف وتهدأ . ثم لا تلبث ان تعود الى حالة من الصفاء فتتكلم كلام العقلاء وتستمع الى ما يقال ، وقد تتذكر الاشياء القديمة وبعض الاشعار فلا تتردد في ان تقولها .

لم تخطىء توقعات هديب ولم يخب أمل متعب الهذال ، اذ سقطت على وادي العيون وعلى المناطق المجاورة امطار مبكرة وغزيرة ، فتفاءل الناس وفرحوا ، وتوقعوا ان تكون هذه السنة من سنين الخير . وقد زاد في التفاؤل ان القوافل التي وصلت الوادي في أواخر أيام الخريف ، ثم بعد ذلك ، أكدت ان الأمطار وقعت على مسيرة أيام ، وان الأودية سالت والغدران امتلأت ، وقد عزّز التفاؤل ان أسعار بعض المواد التي حملتها القوافل لم ترتفع ، كما هي العادة كل سنة في مثل هذا الوقت . أما الجو فقد أصبح اقرب الى البرودة المنعشة ، امتلأ الهواء بالرطوبة ، وأصبحت الريح الخفيفة التي تهب من جهة الغرب والشمال ، في بعض الليالي ، تحمل معها رائحة الخصوبة ، وتخلق في الجسد والروح معاً حالة من العنفوان . كان هذا يظهر واضحاً في كل شيء ، في الانسان والحيوان وحتى في الطبيعة القاسية الجامدة . وتتذكر وضحة ان شعلان ، لأول مرة ، قال لها انه يريد أن يتزوج ، لكنه لم يلحّ ولم يتشبث . ورغم انها لم تجبه بوضوح ، فقد ضحكت من الفرح ، واكدت انها حالما تفرغ من هديب ، الذي اتعبها ولم يقتنع ولم يوافق بعد ، سوف تتفرغ له ، سوف تختار له أجمل فتاة في وادي العيون ، فاذا لم تعجبه اية واحدة منهن فلن تتردد في الذهاب الى عجرة ، وسوف تستعين هناك بقريباتها .

أما متعب الهذال الذي تغيّر كثيراً ، خاصة بعد الأمطار الغزيرة ، فقد اصبح يقضي يومه كله في البستان الصغير الذي يملكه ، رغم أن لا عمل له فيه ، ورغم ان وجوده او غيابه لا يغيّر شيئاً ، لكن كان يروق له ان يرقب قطرات الماء وهي تنحدر الى باطن الأرض ، حتى اذا استقرت هناك ، بدأت بجنون تفعل اشياء لا يصدقها العقل ولا يستوعبها الانسان . فبعد أيام قليلة من وقوع الأمطار ، وكما قال متعب الهذال نفسه ، اهتزت الأرض اهتزازاً طويلاً موصولاً ، أقرب الى الارتجاف ، وبدأ باطن الأرض يندفق الى خارجها . قال هذا بحمى وهو يتحدث الى هديب ، بعد ان رأى كثيراً من البذور التي نثرها قبل اسابيع ، وقد بدأت تندفع من داخل الأرض بقوة وترفع رؤوسها الصغيرة ، بل وكانت تكبر في كل لحظة . وفي محاولة لأن يقنع هديب ، ويعبر له عن الأحاسيس التي شعر بها في أوقات عديدة ، خاصة ارتجاف الأرض ، قال ان ذلك يشبه الالتحام بين رجل وامرأة ، ويشبه لحظة النشوة التي يحس بها الانسان .

ورغم ان متعب الهذال كان يعبر بصدق عما أحس به ، فقد تعمّد ان يستعمل هذه الطريقة وهذه الأوصاف ، في محاولة ماكرة منه ليحرض هديب على الزواج ، كما اتفق مع وضحة على ان يفعل . أما عندما اسرّت في أذنه ان شعلان يريد ان يعرّس ايضاً ، وقد حدثها في الأمر ، فقد ضحك متعب بصوت عالٍ ، وقال ان بناء الغرفة الجديدة فأل حسن ويدل ايضاً على بعد النظر .

في هذه الفترة خيّمت حالة من الرضى على أهل وادي العيون كلهم حتى ام الخوش اصبحت اكثر هدوءاً ، وقد أحس رجال القوافل بالأمر قبل غيرهم ، وقبل ان يدرك اهل الوادي ذلك . وابن الراشد الذي كان لا يوفّر احداً من تعليقاته ولسانه اللاذع ، والذي قال في أكثر من مكان ان متعب الهذال انتهى ، ولم يبق أمامه الا أن يسرح بالغنم ، ما لبث ان قام بزيارته في البستان اولاً ثم في الظهرة بعد ذلك ، وقد بدا خلال الزيارتين ودوداً طيباً ، فلم تخرج منه أية كلمة يمكن ان تفسر على أنها تعريض ، بل وبدا لكثيرين ان العلاقة بين الاثنين اقوى وأمتن مما تصوروا او افترضوا . أما عندما جاء ذكر الاميركان عرضاً فقد قال بنوع من الضيق :

- أيام وراحت يا ابو ثويني ، تنذكر ما تنعاد .

وأشار بعد ذلك ، بأكثر من طريقة ، الى انه لو تُرك وادي العيون وشأنه لعاش بسلام ورضا ، ولظل محطة أساسية في الطريق لا غنى عنها لأكثر القوافل .

وفي هذه الفترة ايضاً وافق هديب على أن يتزوج . لقد عبّر عن هذه الموافقة بطريقة غير مباشرة ، قال أمام متعب ووضحة انه لا يعترض على فكرة الزواج ، ويمكن ان يتزوج غداً أو بعد غد ، اذا وجد بنت الحلال التي تناسبه . ووضحة التي اعتبرت هذه الموافقة كافية ، قالت لتحسم الأمر :
- اترك بنت الحلال عليّ .

وضحكوا ثلاثتهم وبدأت هي تستعرض في ذاكرتها المرشحات واحدة بعد واحدة ، وما زالت توافق وتستبعد وتتردد ، الى ان تقدم الليل ، فتركت الأمر للغد لكي تتابعه .

حتى متعب الهذال الذي قضى فترات طويلة يرقب الأشجار والزرع ، وانقطع عن القوافل ومضافة ابن الراشد ، احس أنه لم يعد بحاجة الى الأخبار . وإن الأخبار لو تأخرت عليه يوماً او اثنين فلن يغيّر ذلك شيئاً . أما حين بعث ابن الراشد يعاتبه ، ويذكّره انه زاره مرتين ، وان انقطاعه الطويل عن المضافة لا يمكن ان يفسر او يفهم من الآخرين على أنه موقف ودي ، فقد رد عليه مع شعلان ان الذي يؤخره هو الزرع فاذا نما واستوى فسوف يزوره .

استمرت الأمور هكذا من مطلع الخريف الى منتصف المربعانية ، وقد تأكد تماماً خلال هذه الفترة ان المياه ستكون كثيرة ، وستصل الى نهاية الوادي ، فالقنوات الشمالية سالت من الأمطار ، والعشب ملأ الفلاة كلها . أما الخبواسات فقد انتفخت وتوقع الكثيرون ان تلد الشياه اثنين اثنين . أما الكلاب فقد أصبحت تسلية للكبار والصغار معاً وهي تتعارك وتتهارش ثم تتجمع فتستعصي ! وفواز الذي ذكر اباه بوعده ، طالباً منه بأن يسمح له بالسفر في فترة قريبة ، فقد رد عليه في احدى الليالي وكان المطر كثيفاً متواصلاً ، قال وهو يملأ القهوة في محماسه
- يا وليدي تنتظر الى أن يعرّس خوك ، ونحصد الشعير وبعدها الله كريم .
ولما أراد فواز أن يعترض ، وقد بدا ذلك من نظرته ، رد أبوه وهو يضحك :
- الخان ضاق باللي فيه ، والجماعة فرق بعضهم من أيام ، يخافون من السفر والسيل ، وانت تريد تسافر ؟

وباشارة خفية ، لكن شديدة التأثير ، رغم أنها دون كلمات ، غمز هديب بعينه ، طالباً من فواز ان يؤجل الموضوع ، وانه سيتولى عنه ترتيب كل شيء ، فأخذ الحديث مجرى آخر وتأجل السفر وتأجلت أمور أخرى كثيرة .

* * * *

في الأيام العشرة الأخيرة من المربعانية ، وعلى حين فجأة ، دون توقع أو انتظار ، وصل الى وادي العيون ذلك الأميركي الذي سافر قبل شهور طويلة ، وصل ومعه اربعة آخرون وعدد من رجال الأمير . كان متعب الهذال قد سماه النحس ، وسماه آخرون الغراب. أما هذه المرة فقد جاء باسم جديد : عبد الله . لا أحد يعرف من أعطاه هذا الاسم أو لماذا . كان رجال الأمير يسمونه بهذا الاسم ، وكان هو اذا تحدث الى أحد او سأله أحد أي سؤال يدق على صدره مرة أو مرتين ويقول : « عبد الله . . عبد الله ! » .

خلال أيام قليلة تغير كل شيء في وادي العيون : البشر والطبيعة والحيوانات . . فما كاد هذا الأميركي ورفاقه ومرافقوه يمضون بضعة أيام حتى وصل الى الوادي عدد كبير من الناس . بشر بأشكال وألوان لا تخطر على بال ، فيهم القصير المليء الأحمر الشعر ، والطويل الذي يستطيع ان يمد يده ويقطف الثمر . فيهم الأسود الذي يشبه الليل ، وفيهم الأشقر والأحمر ، أجسامهم تشبه الخراف المذبوحة ، عيونهم زرق ، وأشكالهم تدعو الى الخوف والتساؤل . جاءوا على الجمال والخيل ، وجلبوا معهم اشياء لا حصر لها من الصناديق والأحمال والخيام ، وخلال فترة قصيرة ، غير بعيد عن نبع الماء ، انزلوا الصناديق والأحمال ونصبوا الخيام . بدا المنظر الذي تكون خلال ساعات قليلة أشبه ما يكون بالحلم ، ومتعب الهذال الذي لم يفطن للأمر بسرعة ، لأنه كان في البستان ، انتفض وهو يسمع ما يقوله الآخرون ، ثم اصفر لونه ، وفي لمح البصر هرول الى العين ، الى مضافة ابن الراشد ، ليعرف اي شيء حصل في وادي العيون .

كثيرون يتذكرون لحظة وصوله ، يتذكرون كيف كان يرتجف مثل سعفة ، وكيف كان ينظر كذئب ، أما وهو يرقب إقامة المعسكر فقد كانت الشتائم تتساقط

على رؤوس الناس كما يتساقط المطر . كان يريد أن يحطم وان يدمر ، لكن الكثيرين منعوه . . وقال الكثيرون في وقت لاحق :

ـ كان متعب الهذال على حق . . . نعم كان على حق !

* * * *

ما كاد المعسكر يقام ، والأعمال تنزل وتنظم ، والرجال يخططون الأرض ، ويقيمون سياجاً من أسلاك ، وراءه أخشاب بيضاء قصيرة ، ثم ينثرون مواد غريبة حول الخيام ، ويرشون الأرض بماء له رائحة نافذة ، حتى بدأوا يفتحون صندوقاً خشبياً كبيراً ويخرجون منه قطعاً حديدية سوداء ، وخلال فترة قصيرة أخذ صوت يشبه الرعد ، يهدر من هذه الآلة ، ففزع البشر والحيوانات والطيور ، وبعد عدة دقائق من الهدير والدويّ رفع أحد الأميركان يده مشيراً الى آخر فهمد صوت الآلة ، وخلّف في الآذان دوياً قوياً ظل يطن فترة طويلة من الزمن .

ما كاد هذا يتم ، وبطريقة سريعة تشبه لعبة يؤديها بعض السحرة ، والناس يراقبون كل ما يجري بصمت وخوف ، حتى بدأت الشمس تميل نحو الغروب ، وبدا أن وادي العيون يعيش ليلة لم يعش مثلها من قبل . لكن ما إن بدأت أصوات الحيوانات تملأ ساعة الغروب ، حتى هدرت تلك الآلة من جديد ، وبصوت افزع الجميع ، ورافق هديرها هذه المرة أضواء قوية تخطف الأبصار ، وخلال فترة قصيرة اشتعلت عشرات الشموس الصغيرة القوية ، وامتلأ المكان بنور ، لا يمكن للانسان ان يتصوره او يتحمله . تراجع الرجال والصبية ونظروا الى الأضواء مجدداً ليتأكدوا انهم لا يزالون يرونها، نظر بعضهم إلى بعض بخوف وتساؤل . أما الحيوانات التي كانت تقترب تلك الأثناء فقد تراجعت بذعر ، فهجّت الجمال ، واضطربت الغنم . قال متعب الهذال الذي كان يقف غير بعيد عن المكان ، قال بصوت قوي ليتغلب على الخوف وعلى صوت الآلة :

ـ ارجعوا يا أهل وادي العيون . . إذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقى منكم أثر .

هذه الذكرى التي تبدو باهرة ، غير ممكنة التصديق ، في بداية الأمر ، تحولت مع الأيام الى شيء عادي ، لأن الرجال الذين ظلوا فترة من الزمن صامتين يرقبون كل شيء بذعر ممزوج بالترقب ، ما لبثوا أن تعودوا ، وتجرأ ابن الراشد وسأل

الغراب ليشرح له كيف تولدت هذه الأضواء وهذا الصوت ، ورغم ان الشرح طال وتخللته تفاصيل كثيرة ، لم يستطع احد ان يفهم شيئاً .

توقع الناس وانتظروا حصول أشياء كثيرة في الليلة الأولى ، مثلما يتوقع الانسان الرعد بعد البرق ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وانقضت هذه الليلة ، وانقضت ليالٍ بعدها والخوف لا يزال قوياً في القلوب ، الا أن الحركة الغامضة التي بدأت في كل مكان لم تترك مجالاً لسؤال بعينه ، لأن كل حركة ، وكل سكنة لا بد أن يعقبها شيء ما . وهؤلاء الأجانب الذين يتحركون ويصخبون ، ويرفعون أيديهم باشارات كثيرة ، ويتصرفون بغرابة غير مألوفة ، لم يحسوا بوجود الناس حولهم او باستغرابهم ، كانوا في انشغال كامل عنهم ، وفي اللحظات القليلة ، خلال الحركة والانتقال من مكان لآخر ، وحين يصطدمون بالرجال والأطفال ، يمدون أيديهم الى الأكتاف يربتون عليها أو الى الخدود يداعبونها . كانوا بهذه التصرفات وكأنهم يداعبون حيوانات أو مخلوقات غريبة .

كل الذين رأوا متعب الهذال في الليلة الأولى لاحظوا اصراره على الجميع ان يبتعدوا عن المكان ، وان يظلوا منتبهين طوال الليل . إذ لا بد ان يحصل شيء ما قبل أن يطلع فجر اليوم التالي ، كما أصر ايضاً على ان يُبعد الأطفال والنسوة ، ويخرجوا الى الظهرة . أما هو فقد ظل متوقعاً في كل لحظة ان يتفجر المكان ، ويخرج منه هؤلاء ، بعد أن يسدوا المنافذ ، شاهرين اسلحتهم في محاولة لأن يقتلوا جميع الناس .

لقد رأى متعب الهذال رأي العين اشياء عديدة غامضة حصلت وراء الأسلاك ، ونبه عدداً من الرجال الى ذلك ، وظل طوال الوقت شديد الانتباه والحذر ، لأن شخصاً طويلاً أسود كان يترقب وينتظر اللحظة المناسبة لكي ينقضّ ويقتل ويفتك ، الا أن عيني متعب الهذال اللتين لم تعرفا النوم ولم تغمضا لحظة واحدة ، فوتت على ذلك الشخص ان يفعل شيئاً ،لكن في غبش الصباح لم يعد يرى الشخص نفسه ، وانما رأى مكانه ، أو الى جانب المكان الذي كان فيه ، عموداً !

كيف استقبل الرجال في وادي العيون هذا الذي حصل وكيف كان رد فعلهم ؟ اية مخاوف وأية أوهام استبدت بهم ؟ والناس في الظهرة هل كان وضعهم افضل من

الذين كانوا في الوادي ؟

إن هذه الأمور وعشرات غيرها لا يمكن ان تروى بكلمات ، لأن الكلمات تضعفها أو ربما تغيرها .فالخوف يزيد لحظة بعد أخرى ، والتوقع يسيطر على الناس ويشلهم . والمفاجأة هي الشيء الوحيد الذي يتكرر بلا انتهاء .

بعد ثلاثة أيام من السهر والمراقبة . في الليل والنهار ، دون نوم حقيقي ، وبأقل قدر من الأكل والماء ، رجع متعب الهذال الى الظهرة إنساناً آخر . كان شخصاً جديداً تماماً : اذ بعد أن نزل عن فرسه ، وبدا مترنحاً زائغ النظرات ، وفي حالة من الأعياء الشديد او ربما المرض ، سقط عند باب البيت ، ولم تجد محاولات زوجته في أن تقيمه من مكانه . فأتت له بفراش ومساند ، لكي ينام ويرتاح أما محاولاتها اقناعه بأن يغسل وجهه ويتناول فنجاناً او اثنين من القهوة فقد انتهت دون جدوى ، لأنه بمقدار ما كان رافضاً مصراً كان خائر القوى ضعيفاً ، وبدا في أشد حالات الحزن والأعياء ، وكأن الدنيا في نهايتها . أما حين بدأ يتكلم فقد كان أشد ما يكون وعياً ويأساً « يقولون : يوم القيامة ؟ اليوم هو يوم القيامة . يقولون : إذا مشى الحديد على الحديد ؟ اليوم رأيت الحديد يمشي على الحديد ! » وبعد ان يتوقف ليفكر يتابع بنبرة اشد : « كان علينا أن نفعل شيئاً منذ وقت طويل يا وضحة ، منذ أن جاءوا اول مرة . عرفت أنهم سيرجعون ، وانهم سيفعلون اشياء لا يفكر بها إنس أو جان . جاءوا . رأيتهم بعيني . في مثل لمح البصر اطلقوا عشرات الجن والعفاريت . وهذه العفاريت تتوقد وتهدر في الليل والنهار ،إنها أشياء مثل رحى الطاحون نظل تدور وتدور دون ان تتعب ودون أن يديرها أحد . ماذا سيحصل في هذه الدنيا ؟ وكيف سنقضي عليهم قبل أن يقضوا علينا ؟ » .

بدا موقفه اقرب الى العناد والبلاهة ، وبدا انه لا يليق بعمره ومنزلته ، فاذا كان الأمر أمر قوة فان أهل وادي العيون والظهرة من الكثرة والشراسة الى درجة أن أحداً لا يفكر بالاعتداء عليهم او غزوهم . أما اذا كان الأمر متعلقاً بالذكاء ورجاحة العقل فان مضارب العتوم والسحيمي والمرزوق والروضان لا تخلو بين اسبوع وآخر من متقاضين جاءوا من أماكن بعيدة ، راضين مختارين ، أن يكون واحد من أهل العيون حكماً بينهم . واذا كان الأمر متعلقاً بهؤلاء الغرباء ، الذين جاءوا الى الوادي ، ونصبوا الخيام يريدون الاقامة ، فلا بد أن توجد طريقة ما لاجلائهم او

التفاهم معهم على الماء ، خاصة وان رجال الأمير معهم هذه المرة . وليس الحال كما كان حين جاءوا اول مرة .

في الهزيع الأخير من الليل . سيطر حلم ملعون على متعب الهذال وأرقه فاستيقظ مرعوباً ، ودون ان يكلم أحداً التقط بندقيته وبخفة ركب فرسه ونزل الى الوادي .

لم تحدث جريمة قتل في تلك الليلة ، او في الليالي القليلة التي تلتها ، لأن حالة الذهول في البداية ، ثم حالة الانتظار بعد ذلك ، جعلت كل شيء مؤجلاً . ومتعب الهذال الذي لم يتعود ان يحمل بندقيته إلا نادراً ، اذا كان على أهبة السفر او اذا سمع صوت ذئب قريب من الغنم ، وفي لحظات التحدي ، والتي قليلاً ما تقع ، جعل وضحة شديدة الخوف حين رأته يحمل البندقية ويخرج ، ليس لأنها بطبيعتها تخاف من هذه المشاهد شأن أغلبية النساء ، وتؤثر السلامة على اي مكسب ، وإنما لأن الحالة التي كان عليها متعب الهذال جعلتها شديدة الحذر ثم الخوف ، قالت لفواز الذي استيقظ على ضجة ابيه ، بحزم أقرب الى الأمر :

- اذهب وراءه . لا تتركه ، ولا تجعله يراك او يحس بك . . .

وتغيرت نبرتها :

- قد يحتاج إليك .

كانت وضحة قدرة على اتخاذ القرارات الضرورية في اوقاتها ، وان بدت امرأة مسالمة ، حتى ليظن من يراها انها لا تستطيع شيئاً . وكلماتها القصيرة الواضحة في عتمة الليل الأخيرة ، جعلت فواز قوياً ، لكن عصبياً ايضاً ، ودون اية كلمة وبلا انتظار تبع اباه .

على غير عادته نزل متعب الهذال الى الوادي سالكاً اطول الطرق واصعبها ، وكأنه باختياره ذلك الطريق اراد ان يرى المشهد كله . فبعد ان رأى المعسكر من ناحية الظهرة ، امعن النظر بالوادي والتلال المحيطة به يريد ان يراه من الناحية المقابلة ، او ربما كان يخشى امراً ، ويضمر شراً . قال فواز لنفسه « اذا اطلق النار يشتعل الوادي كله ، لن نكون وحدنا ، لأن اهل الوادي لا يتركون الانسان يحارب وحده ، انهم يحاربون معه حتى النهاية ، وبعد ان تنتهي الحرب يسألون لماذا حاربوا ». لقد سمع مثل هذا الكلام مرات كثيرة ، روى ذلك المسنون والشباب . والصغار الذين لم يروا حرباً ولم يعيشوا في تلك الزوابع التي يتحدث عنها الكبار ، كانوا في شوق لأن يروا شيئاً من ذلك . أما حين افلتت كلمات من أفواه الفتيان والصغار عن هؤلاء الكفرة وضرورة قتلهم ، فقد نظر الكبار الى الصغار نظرة مستغربة اقرب الى التأنيب ، مؤكدين انهم لا يخافون ، لكنهم لا يستطيعون ان يرفعوا سلاحهم في وجوه الاصدقاء ، وما دام الامير قد ارسل هؤلاء فهم اصدقاء اذن . صحيح ان احداً لم يشعر بالراحة لمجيئهم ، ودخلت الوساوس والظنون الى كل عقل وكل قلب ، لكن لم يفكر احد ايضا ان يرفع السلاح . أما الآن ومتعب الهذال يخب في الظلمة والبندقية على كتفه فلا بد ان يقع امر غير عادي .

لم يكن متأكداً من شيء ، ولأنه بدا متردداً مأخوذاً ، وكأنه لا يصدق ، فان الدروس الأولى التي يتعلمها الانسان في الصحراء ، ان لا يهدد بالسلاح ، ان لا يمزح به ، ليس لأنه يخاف السلاح وانما لأنه يحبه الى درجة لا يقبل ان يكون وسيلة للتهديد او المزاح ، هذه الدروس تتبدد وتضيع ، وكأنه لا يعرفها . كان متعب الهذال ينهر اولاده ، او أي انسان آخر في وادي العيون ، حين يراه يحمل سلاحاً ويوجهه في هذا الاتجاه او ذاك وهو يمزح . قال لشعلان مرة : « لا تلعب بالسلاح ابداً . لان من يلعب به مرة يلعب به كل مرة . والناس الذين يهابون السلاح الذي يقتل ، والرجل الذي يقتل ، لا يهابون ولا يحترمون الرجل الذي يلعب بالسلاح » . وقال له مرة ثانية « اذا رفعت السلاح فاضرب . . او لا ترفعه ابداً » .

في ظلمة الفجر ، وهو يخب حاملاً سلاحه ، ثم بعد ذلك الانتظار الطويل ، عند نهاية الوادي ، وهو يربض في مكان وابنه يربض في مكان آخر ، والمكانان لا يبعدان عن بعضهما اكثر من مائة متر ، وحصانه الى جانبه ، وبين فترة واخرى يرفع

سلاحه ، يصوبه الى المعسكر ، ثم ينزل السلاح ، ويبدو في نزوله منكسراً ذليلاً . حتى اذا رفعه في المرة التالية ، ربما بتصميم اكبر ، كان بعد ذلك ينزله بذل اكبر . وما زال يرفع بندقيته وينزلها ، يجلس ثم ينهض ، يغير من وضعية الرمي مرة بعد اخرى . ولا يفعل شيئاً ، حتى اذا ارتفعت الشمس وملأت الدنيا ، لم يعد فواز يتوقع ان يفعل ابوه شيئاً ، كما لم يعد قادراً على ان يظل مختبئاً ، فما كاد ينهض من مخبئه ويصرخ منادياً على ابيه ، وما كاد يلتفت ويراه حتى اصابته حالة من الفزع والارتباك . كان يود ، في تلك اللحظة ، لو تنشق الأرض وتبتلعه ، لو يموت، اولو يطلق النار على نفسه او على حصانه او على المعسكر . أما حين تقدم فواز من ابيه فقد رآه مصفر الوجه، زائغ النظرات ، وكانت شفته السفلى ترتجف من العصبية والانفعال . وكانت يده ترتجف بسرعة على ماسورة البندقية صعوداً وهبوطاً ، وهي اقرب الى التشنج . لم يكن في تلك اللحظة مستعداً لأي حديث ، حتى عندما سأله فواز ان كان رأى ذئباً أو عدواً ، فقد حرك رأسه دلالة النفي ، دون ان يتكلم ، لكن قالت عيناه اكثر من اللوم واقسى من العتاب . قالت عيناه « باطن الأرض خير من ظاهرها ، ولا اريدك ان ترى ضعفي .. ان تراني هكذا » .

بعد وقت غير قصير والصمت يقف قوياً قاسياً بين الاثنين ، عدا حركات متعب العصبية في رحلة يائسة على ماسورة البندقية ، خرج صوته متعباً :

- هل وردت الخلال ؟

لم ينظر الى ابنه حين سأله وهو يسمع اجابته ، قال الشاب :

- اليوم دور شعلان وابراهيم .

رفع متعب ، لأول مرة الى ابنه ، عينين حزينتين مليئتين باسئلة خرساء: منذ اي وقت انت هنا تراقبني ؟ من الذي طلب اليك ان تأتي وما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟

ومن جديد تراجعت نظراته وهو يخفض رأسه . كان حائراًمتعباً. كان يريد ان يقول اشياء كثيرة ، وكان يريد ان يبقى صامتاً .

واذا كانت ثمة لحظات يشعر الانسان فيها انه عارٍ ، او انه يرتكب اثماً ، ولا يريد احداً ان يرى عريه او يراه وهو يرتكب الاثم ، في مثل هذه اللحظات يكون الانسان قاسياً ومجنوناً تجاه نفسه وتجاه الآخرين . قال لفواز بقسوة اقرب الى الجرح والاهانة :

- خذ البندقية وارجع الى الظهرة .

وبغطاظة ، ودون انتظار ، اخرج الطلقة وسحب المشط ، ثم رمى اليه البندقية ، كما يرمي عصا . سقطت البندقية بين ساقيه . تركها برهة قبل ان يلتقطها ، تابع متعب الهذال وهو يستدير :

- يله .. خذها واغرب من وجهي .

أحس فواز ، تلك اللحظة ، ان اباه انتهى ، انه سقط في بئر عميقة لا قرارة لها ، وانه لا يريد ان يرى بشراً او يسمع صوتاً ، حتى فرسه التي كانت في الظل الى جنبه ، وبدت وديعة مستأنسة ، وكأنها لا تريد مفارقته ابداً ، بدا وكأنه يضيق بها، ولا يريدها ان تبقى الى جانبه . اذ ما كاد فواز يلتقط البندقية ويهم بالمسير حتى قال له بحدة :

- اربط الدهماء تحت ذيك النخلة .

وأشار دون ان يلتفت الى نخلة بعيدة ، ثم انقلب على جنبه ، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيبوبة وربما الموت

* * * *

لم يعد متعب الهذال الى الظهرة في اليوم الاول ولا في اليوم الذي يليه ، وقد سبب غيابه مزيداً من الشعور بالاثم والخطأ لدى فواز ، اذ لو لم يره هكذا ، ضعيفاً يائساً ، لاتخذت الامور مجرى آخر . لو فعل ما كان يدور في رأسه ربما اشتعل وادي العيون وتغيرت امور كثيرة . اما الآن ، وهو يغيب ، لا يعرف اين او الى متى ، فان هذا الجرح في روح متعب الهذال لن يشفى ابداً .

ذكر بعض الناس انهم رأوه مرتين يمر قريباً من المعسكر . كان شديد الغضب ، حانقاً ، ولم يتردد في الوقوف وتوجيه الشتائم للاميركان يريد ان يستفزهم ، لكن الناس سمعوا شتائمه رفعوا رؤوسهم لحظة ، التفتوا اليه التفاتة سريعة ثم عادوا الى ما كانوا به مشتغلين . أما في المساء ، وفي مضافة ابن الراشد فلم يترك شتيمة ، ولم يدع احداً . قال ان الحريق بدأ في وادي العيون منذ ان جاء ابن الملعونة النحس اول مرة . كان على الناس ان يفعلوا شيئاً منذ ذلك الوقت . قبل ان يؤكل الأخضر واليابس ، أما اذا ظلوا كذلك ، اذا صمتوا وانتظروا فسوف يهلك الجميع . وقال

للرجال ايضاً انهم اذا لم يفعلوا شيئاً فسوف يتولى الأمر وحده . أما حين اقترح احد المسنين ان يذهب وفد لمقابلة الامير ، فقد هز متعب الهذال رأسه دلالة السخرية ، وقال :

ـ إلحق العيار لباب الدار . الامير قـريّب ، لكن ما منه فائدة .

جرى مثل هذا الحوار مرات عديدة ، وكان اغلب المرات حواراً يائساً ، اذ لا ينتهي الى نتيجة . فالحركة في وادي العيون وحوله لا تهدأ ولا تتوقف ، وابن الراشد يبقى اياماً في الوادي ثم لا يلبث ان يغيب غيبات طويلة غامضة . واذا كان متعب الهذال يشتم ، يتحدى ، يغلظ في القول لابن الراشد ، فانه كان يخاف من غيباته اكثر مما يخاف من وجوده ومحاولاته اقناع اهل الوادي ان يرحلوا . كان لا يعرف ماذا يدبر في هذه السفرات ، وأية مصائب يمكن ان تحل بالوادي نتيجة زياراته للامير او غيره .

ظلت الأمور تراوح بين الأمل واليأس ، بين الخوف والرجاء ، اذا جاء طارش من هذه الجهة وانفرد به متعب الهذال ، وسأله عما رأى وعما سمع ،ينتهي الى نوع من القناعة ينقلها بأسلوبه الخاص الى اهل وادي العيون . واذا جاء طارش من الجهة الاخرى ونقل اخباراً من نوع مختلف يحاول متعب الهذال ان يرى فيها املاً ، فان وجده ،عاش أياماً وقد تحول الى انسان لا يعرف كيف يستقر ، كيف ينقل احاسيسه الى الآخرين . فاذا رجع بعد ذلك ابن الراشد ، واراد ان ينقل لأهل الوادي اخبار الشياطين الذين سيبدأون العمل بعد أيام أو أسابيع ، هب في وجهه متعب الهذال ، فلا يتركه حتى يفرغ ما في جوفه من شتائم وتهديد . وابن الراشد الذي يقابل متعب الهذال بموقف ضاحك ومليء بالمزاح والمداعبة ، لا يلبث ان ينقل للناس اخباره واقتراحاته ، مشيراً عليهم ان يكونوا حكماء وعاقلين فلا يضروا انفسهم بانفسهم ، وعليهم ان يكفوا عن سماع هذا الشايب الخرف . فاذا نقل لمتعب ما قاله ابن الراشد ، مع بعض التعريض ، كان يهـدّ عليه في الليل او النهار ، ضارباً عرض الحائط بكل المجاملات التي تعودها الوادي سنين طويلة ، وبطريقة مليئة بالخشونة والتحدي تبدأ تلك المبارزة التي يتابعها اهل الوادي بشوق بين الاثنين .

كان ابن الراشد يصمت ، يكتفي بكلمة هنا وبكلمة هناك ، رداً على ما يقوله

متعب الهذال . فاذا زادت الأمور عن حد معين ، كان يعـرّض بمتعب ، لكن بطريقة ساخرة ، مع بعض التهديد الضمني . كان يقول له :

ـ يا ابن هذال ، لا تخف ، وكّـل الله ، حقك يصلك ، وانت تعرف : اللي عند الأجاويد ما يضيع .

فاذا رفض متعب الهذال ان يسمع ، اذا سخر ، كان ابن الراشد يغـيّـر لهجته :

ـ يا ابن هذال ، انت شيخ الوادي ، انت اعقل من فيه ، ولازم تعرف ان الحكومة تتعامل مع الناس بالناموس أو الدبوس .

ـ وتهددني يا ابن الراشد ؟

ـ يا ابن هذال ، قلنا لك : الرأي رأيهم ، ونحن عبيد مأمورين ، وانت بلشتنا بلشة حضران : ركوع وتسليم . ما خلصنا من سالفة ، من قضية ، الا بدأت من جديد . يا ولد العم اترك هذه البلشة واترك الحكومة بهمها .

ـ واذا ما تركتها يا ابن الراشد ؟

ـ اول الغضب جنون وآخره ندم . . يا ابن هذال

ـ هذه ديرتنا ، يا ابن الراشد ، نعرفها ، نعرف رجالها وحزومها ، نعرف خبرها ومطاويها ، وانت أدرى من غيرك ، والاحسن ان تعـلّـم الجماعة . . . هناك .

ـ يا ابن هذال ، يا ولد العم ، ان بغيت الفراق فاطلب ما لا يطاق .

ـ والله يا ابن الراشد كل بني آدم اخرته خرقة ، وانت تعرف ابن هذال .

وبطريقة ساخرة وخفية يضع ابن الراشد نهاية لهذا الحوار الذي لا يمكن ان ينتهي الى نتيجة :

ـ الرسول مبلغ وغير ملوم يا ابو تويني ، وانت تعرف : منك الصبر وعلينا الوفاء .

ظلت الامور مضطربة قلقة لبضعة اسابيع ، بعد أن اقيم المعسكر ، واصبح الاميركان يقضون وقت الظهيرة من كل يوم في الشمس مبطوحين على وجوههم ، لا تستر اجسادهم سوى سراويل قصيرة . كانوا يفعلون ذلك غير مبالين بالناس حولهم من صبية ورجال ، وكأن الواحد منهم داخل خيمة .

بدا الأمر شديد الغرابة ، وقد اثار من الحنق والغضب السيء الكثير ، حتى ابن الراشد الذي كان يدافع عن عبد الله ، ويبذل محاولات متعددة معه ، ويؤكد له ان الناس لا يقبلون ان يروا الرجال على هذا الشكل ، انتهت محاولاته الى الفشل . واذا

كان الرجال قد استمروا بالمرور قرب المعسكر ، وكذلك الصبية ، فان النسوة اللواتي تعودن الذهاب الى العين ، وجلب الماء ، توقفن تماماً ، واعتراهن ذعر حقيقي . وبدا متعب الهذال بنظر الناس حكيماً واكثر معرفة بما ستؤول اليه الأمور .

بدأت الهمسات ثم التحديات ، ثم التفكير بذهاب وفد الى الامير « يا طويل العمر : نوافق على ان يأخذوا ماءهم من العين ، لكن نموت ولا نوافق على ان ينزلوا على الماء . نساءنا يا طويل العمر ، اعراضنا يا طويل العمر ، واذا اردتم ان تحلوا المشكلة حلوها . . واذا ما اردتم نحلها بايدينا » .

هكذا كان يجري الحديث في المضافات وبيوت الشعر ، والرجال الذين شعروا بالجرح وما يشبه الخوف مما يرون ، توجسوا شراً ومنعوا النساء من ورود الماء نهائياً ، وكلفوا الصغار بذلك ، لكن نبه عليهم ايضاً ان لا يتوقفوا وان لا ينظروا جهة المعسكر .

كان متعب الهذال في الظهرة . كان بعيداً عن العين . وحتى لو كان قريباً لم يكن ليغير اقواله وقناعاته . اما الرجال الآخرون الذين كانوا يسكنون قريباً من العين ، في بطن الوادي ، وحول البساتين ، فقد شعروا ان الامر اكثر خطورة مما قدروا في البداية ، وانه لا يحتمل تأجيلاً او انتظاراً . خاصة وان الذين جاءوا من طرف الامير مع هؤلاء كانوا اعجز من ان يفعلوا شيئاً ، كل ما يملكون ان ينقلوا ما يقوله الناس الى المترجم ، وكان المترجم اشد كبرياء وخشونة من الاميركان انفسهم .

سيطرت حالة من الخوف على الوادي كله . اصبح الرجال اقرب الى العصبية والنزق ، واصبح متعب الهذال شخصاً لا غنى عنه ، فاذا غاب عن الوادي يوماً واحداً ، لكي ينام في الظهرة ، شعر الناس انهم بحاجة اليه ، وانه وحده القادر على ان يقول كل شيء ، وان يعبر عن افكارهم وما يدور في عقولهم ونفوسهم .

كانت الحيرة ، في هذا الجو المضطرب الغامض هي السيد ، فرغم كلمات الليل الكبيرة والتحديات ، ثم الاتفاق والوعود ، فان للنهار سلوكه ومخاوفه وطريقته في التصرف ، اذ ما يكاد اليوم الجديد يبدأ حتى يسيطر اتفاق ضمني بين الرجال على تأجيل الذهاب الى يوم آخر ، لعل شيئاً يحصل في ذلك اليوم وينهي هذا الكرب الذي يخيم على الوادي . اما اذا وصلت قافلة ، فقد كان يرافق وصولها اخبار واحداث تشغل الناس عما هم فيه ، ثم تبدأ عمليات البيع والشراء والتبادل ، حتى

اذا جاء المساء انعقدت السهرات وبدأت الاحاديث والاخبار ، لكن تظل قضية هؤلاء الاجانب الحديث الذي يطغى على كل الأحاديث . وكان يثير من الاهتمام بقدر ما كان يثير من التساؤل والخوف . ورغم ان المسافرين هم الذين كانوا يتولون الحديث ، اغلب الاحيان ، لأنهم سافروا ورأوا ، ويمكن ان ينقلوا للاخرين شيئاً ، فان الرجال في وادي العيون يملكون الكثير ليقولوه ، خاصة عن هؤلاء الشياطين الذين جاءوا فجأة ولا يعرف الى متى سيبقون وماذا سيفعلون ! وكان المسافرون يبدون اهتماماً كبيراً لأنهم سينقلون ما يسمعون الى الامكنة الاخرى والى الناس الآخرين الذين لم تصلهم بعد اخبار هؤلاء الشياطين .

كانت الاحاديث عن هذه المجموعة من الشياطين تبدأ محايدة عامة ، ثم لا تلبث ان تصبح ذات الوان واضحة شديدة القسوة ، ويشترك فيها كثير من الرجال ، فتعطى لكل واحد من هؤلاء صفة تصبح اسماً ، وهذه الصفات والاسماء التصقت بهم بسرعة فائقة . واذا كانت العادة في وادي العيون ان تطلق الصفات على الكثيرين ، وتأتي بالمعايشة الطويلة ، وبعض الاحيان دون ان يقصد اليها احد او يتعمدها ، فقد كان اطلاق الصفات امراً ضرورياً لمواجهة الحالة الجديدة ، وتمييز هذه المخلوقات التي بدت في الأيام الأولى شديدة الشبه ، حتى ليصعب التفريق بين واحد وآخر ، الا ان المراقبة المستمرة والتدقيق الذي لا يتوقف ولا يتعب بهؤلاء وتصرفاتهم جعلت اطلاق الاسماء والصفات امراً في غاية اليسر . « فالغراب » او « ابن الملعونة » هو الاسم الذي سقط على ذاك الذي جاء اول الأمر ، والذي تسمى فيما بعد باسم عبد الله . أما الآخرون فالاكحل والبطين والجربوع والأفصع والمغزل والدجاجة وابو الخصين ، وغير ذلك من الاسماء . أما كيف تم اختيارها ومن اطلقها فلم يكلف احد نفسه عناء البحث ، حتى الصفات التي لا تنطبق بدقة على بعض هؤلاء ، ما لبثت ان اصبحت شديدة الانطباق وتكاد تكون وحدها الملائمة !

بهذه الطريقة كانت تجري الأحاديث وتروى القصص عن هذه المجموعة التي وصلت ، رغم ان معظم أفرادها بعدما استراحوا فترة من الوقت اخذوا يقضون الجزء الأكبر من نهاراتهم في اعمال غامضة وبعيدة عن الانظار والمراقبة ، اذ كانوا منهمكين في داخل الخيام يرسمون ويكتبون ، وكانوا بين ساعة واخرى يحملون اوراقاً كبيرة من خيمة الى اخرى ، وبعض الاحيان يفرشونها على الأرض ويدققون

فيها وقتاً طويلا ، ثم يسكون بعصي صغيرة ويقيسون . كانوا يفعلون هذا غير آبهين بنظرات الناس الذين كانوا يقفون وراء السياج يرقبون كل حركة وكل سكنة . وكان الاطفال والصبية اكثر الذين يتابعون ، ومع كل حركة يصرخون ويشيرون متوقعين ان يحصل شيء ما بعد ذلك .

كانت هذه الأحاديث تدور وتنتقل بسرعة من بيت لآخر ، ومن خيمة لأخرى . والمسافرون في القوافل يستمعون باهتمام ويستولي عليهم حب الاستطلاع في أن يروا بأنفسهم هذا الذي يتحدث عنه اهل وادي العيون . فاذا انقضت الليلة وجاء اليوم التالي ، اقترب المسافرون من المعسكر ، وبدأوا يراقبون ، فاذا ما استعادوا في مخيلاتهم القصص التي سمعوها في الليلة الفائتة بدوا شديدي الرغبة لمعرفة من يكون الافصع ومن يكون الجربوع ، وكثيراً ما داخل بعضهم الفرح حين يشير الى احد هؤلاء ويقول بلهجة هي بين التأكيد والتساؤل : « هذا هو البطين » او « هذا هو الافصع .. اقطع يدي اذا لم يكن هذا هو الافصع ! » فاذا انطبقت الصفة على الموصوف ، كان الرجل ينظر الى الآخرين بزهو يصل حدود الفرح الطفولي ، وقد يتصرف بهياج ويصرخ . أما اذا كانت الاصوات عالية والمراهنة ارتبطت بأن يعرف صاحب الاسم او الصفة انه المقصود ، ونظر مستطلعاً ، فعندئذٍ كان يبلغ الفرح درجة لا يتصورها احد ، اذ تعلو الصيحات وترافقها اشارات من ايدي الصغار والكبار ، وكلمات الاستحسان ، وغير ذلك من التصرفات غير المتوقعة .

كان هذا بعض ما يحصل في محاولة للتغلب على الكرب والمخاوف ، أو لنسيان هذا الهمّ الذي يكبر ويزداد كل يوم ، فاذا سافرت القافلة ، وعاد اهل الوادي الى مواجهة الحقيقة القاسية ، بكل ما فيها من هموم ومخاوف ، بدأوا يفكرون ويبحثون عن طريقة لمواجهة هذا البلاء الذي يحاصرهم ويقترب منهم .

الأيام تمر ثقيلة متباطئة . حرارة الجو تزداد وتدفع باعداد جديدة من البدو الذين تركوا الوادي في اول الشتاء، طلباً للمرعى ، الى العودة والاقتراب من الماء ، لان الصحراء تصبح يوماً بعد آخر ، ابتداء من نهاية الربيع ، جحيماً لا يطاق . والذين تعودوا على ان يتابعوا الغيوم ، وينزلوا عند كل ماء ، من اجل ان يطعموا حيواناتهم ، ويبقوا على قيد الحياة ، والذين عرفوا لكل مكان اياماً في السنة يقيمون فيه خلالها ، يعرفون متى يتركون هذه الاماكن والى اين يجب ان يتوجهوا . وأهل الوادي الذين تعودوا على هذه الرحلات وعرفوا مواعيدها ، يعرفون ان نهاية الربيع والصيف كله ، ثم جزءاً من الخريف ، الاوقات التي يضيق الوادي ويتزايد البشر فيه . حتى قوافل المسافرين التي تدفعها السرعة ويدفعها الحنين لان تواصل رحيلها بعد يوم او يومين من الراحة في وادي العيون ، اذا كان الفصل شتاء او ربيعاً ، فانها في الاوقات الاخرى تطيل الاقامة وتطيل السؤال ، وتنتظر ان يكبر القمر ويساعدها على سير الليل بدل سير النهار الشاق . ومعنى الاقامة الطويلة في الوادي ، خاصة في مثل هذا الوقت من السنة ، ان الافواه التي تستقي من العين والآبار تتضاعف ، وتزدحم حول الماء ليل نهار ، وما يولده ذلك من نزاعات ومصاعب واختلاف . ورغم الطيبة التي تميز أهل الوادي ، فانهم في مثل هذا الوقت يصبحون بشراً من

طبيعة مختلفة ، يصبحون اكثر حدة واكثر شراسة ، ولا يخفون ضيقهم باشياء كثيرة ، كما تزول الابتسامات عن وجوههم وتفارقهم الرغبة في ان يتحدثوا او ان يطيلوا الحديث .

إنها اذن ايام الانتظار قبل ان يهجم الصيف بحرارته وعذابه . وهو انتظار اكثر صعوبة من اية ايام سابقة ، خاصة بعد ان جاء هؤلاء الشياطين واقاموا معسكرهم قريبا من العين ، ولا يعرف ماذا سيفعلون وكيف ستكون حال المياه اذا استمروا مثلما يفعلون الان ، ينقلون عشرات الاحمال كل يوم الى المعسكر ، ويسرفون في استعمالها ، كما لو انها شيء مبذول لا يعني اي انسان .

انقضت ايام عديدة ، وطلائع الذين رحلوا بدأت بالوصول ، والموعد الذي تعود ان يجيء فيه الأمير ينقضي دون خبر او اشارة من اي نوع ينبيء عن وقت وصوله ، والمسنون الذين تداروا بهذا الرأي بدوا اكثر قلقاً وخوفاً ، فلما عاد متعب الهذال الى جنونه ، وبدأ يلح كل يوم على ان يذهب وفد الى الأمير ، لم يجد اعتراضاً في البداية ، ثم وجد تأييداً وموافقة في نهاية الامر . وفي مضافة ابن الراشد اتفق الرجال ان ينتدبوا عدداً منهم لمواجهة الأمير وان يعرضوا عليه كل شيء .

كان المكان الذي يقيم فيه الأمير على مسيرة ثلاثة ايام من وادي العيون . واذا كانت من عادة الأمير الخروج الى القنص في مثل هذا الوقت من السنة ، والمرور بالوادي في طريق الذهاب والعودة ، فقد فكر بعض المسنين بالانتظار الى ان تحين هذه الفرصة ، لان سفر عدد منهم الى هناك لا يغني عن ان يشاهد الأمير بنفسه هذا الذي يشكون منه ويخافونه . فالمعسكر بالمكان الذي اقيم فيه ، وهؤلاء الاجانب بالاجساد العارية ، اغلب ساعات النهار ، يتنقلون دون تردد او حرج ، ثم هذه الآلات الملعونة التي تخيف الحلال بهديرها الذي لا يتوقف ، والتي تسببت مرات كثيرة بهياج الابل وهربها ، ثم العناء الذي لحق اصحابها نتيجة ذلك . هذه الامور لا يمكن ان تتلخص بكلمات ، او تصوّر لانسان بعيد . يجب ان تشاهد ، ان ترى بكل تفاصيلها وجنونها لكي يُدرك مدى الهمّ الذي تولده . لكن مع ذلك قرروا ان يذهب وفد منهم .

كان الرجال يوصون بعضهم ، ويلحّون في التوصية ، ان يكون الحديث مع الأمير هادئاً متزناً ، وان يتولاه ابن الراشد ، باعتباره اكثرهم معرفة بالحديث ومن

لكبار فيهم ، اضافة الى ما يتصف به من معرفة قوية بالأمير ودالة عليه ، ثم هو الذي استقبل هؤلاء الاميركيين وعرف كل شيء عنهم . والرجال حين يلحون في مثل هذا الامر انما يقصدون ، بالدرجة الاولى ، ان لا يتركوا لمتعب الهذال حرية الكلام والتصرف ، لان العصبية التي ميزت سلوكه ، والشتائم التي يكيلها للاميركيين ليل نهار ، ثم هذا التحريض الدائم لاهل الوادي ان يفعلوا شيئاً للوقوف في وجه الشياطين ، حتى لو اضطروا الى حمل السلاح او الذهاب الى العاصمة ومقابلة السلطان . . . ان هذه الحالة التي ميزت متعب جعلت الرجال يتخوفون ويتحسبون ، ولو كان الامر يحتمل ان يمنع ابن هذال من الذهاب ، او يطلب اليه البقاء الى ان يأتي الأمير ، لما تردد بعض المسنين في ان يقول ذلك ، لكن الجميع احسوا ان متعب الهذال لن يهدأ له بال ، ولن يكف عن الهياج والتحريض ، وحتى اللجوء الى الاهانة ، لو ظل بعيداً . ثم ماذا لو ذهب وحاول مع الأمير؟ انه برغم هذه الصفات يملك مقداراً كبيراً من رجاحة العقل وحسن التصرف . يعرف المجالس وما يمكن ان يقال وما لا يقال ، لذلك فان التخوف الزائد او التحفظ المبالغ فيه قد يعطي نتيجة معاكسة . فان كان متعب الهذال في الوفد فهو خير الف مرة من ان لا يكون ، وان يتحدث مع الامير خير من ان يمنع . أما هذه التوصيات الأخيرة ، التي يؤكد عليها الرجال الآن ، وقبل ان يصلوا دار الامارة ، فانها نوع من التحسب والتحفظ قد يفيد وقد لايفيد .

بدا الأمير ، قبل ان يتكلم ابن الراشد ، وكأنه يعرف لماذا جاء الرجال وماذا يريدون ، اذ ما كاد يجري الحديث عن القنص والجو ثم وادي العيون ، حتى بدأ الأمير :

- ستكونون يا أهل وادي العيون اغنى الناس واسعدهم ، وكأن الله لا يرى غيركم . . .

وتغيرت لهجته :

- لقد صبرتم وتحملتم كثيراً . . . الشهادة لله ، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم ، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سالفة من السوالف . . .

وعاد الى لهجته الاولى :

- والخير ، يا جماعة الخير ، اذ عمّ عمّ .

كان ابن الراشد قد هيأ الكلمات التي يريد ان يقولها ، كيف يبدأ وكيف يسوق الحديث حتى يصل الى النقاط الحساسة ، وكان يريد ان يثير الشك في نفس الأمير اذا لم يقنعه ، ثم كان يريد ان يطلب اليه المجيء ، وبسرعة ، لكي يرى بنفسه ، ويتأكد من كل كلمة يقولها له الآن . أما وان الأمير قد بدأ هذه البداية وساق الحديث في هذا الاتجاه ، فقد اسقط في يد ابن الراشد ولم يعرف كيف يستطيع البدء ليصل الى ما كان يريده . قال في محاولة يائسة :

ـ انت تعرف ، يا طويل العمر : المال ما هو كل شيء في هذه الدنيا ، قبل المال : العرض ، الاخلاق ، العادات التي تعودنا عليها . . .

كان يريد ان يتابع في هذا الاتجاه ، لكن الضحكة المجلجلة التي انطلقت من فم الأمير ، غيّرت الجو مرة اخرى ، وجعلت الرجال في حيرة من امرهم . قال ابن الراشد بارتباك :

ـ مهما قلنا ، يا طويل العمر ، العين غير الاذن ، والتجربة غير السالفة .

اعتدل الأمير في جلسته ، رسم على وجهه سمات الحزم والقسوة :

ـ اذا تكلمت ، يا ابن الراشد ، عن الاخلاق فانت تعرف اننا اكثر الناس حرصاً على الاخلاق ، واذا اردت الدين فالدين عندنا ما هو عند غيرنا .

ـ ولكن يجب ان تأتي وتشوف كل شيء بنفسك .

ـ لا تخف اصلكم ، لكن ما نريده منكم ان تقدموا للجماعة كل المساعدة ، لانهم جاءوا من تلفات الدنيا ليساعدونا .

قال متعب الهذال بعصبية :

ـ الله يخزيهم . . ما نريدهم ولا نريد مساعدتهم .

التفت اليه الأمير وقال بسخرية :

ـ ولكن حنا نريد مساعدتهم ، وانت اذا كنت لا تريد فأرض الله واسعة .

ـ اي والله . . . ارض الله واسعة .

قال ابن الراشد في محاولة لتهدئة الموقف :

ـ ولكن ماذا يريدون يا طويل العمر ؟

قال الأمير بنفس السخرية :

ـ هم ما يريدون اي شيء ، حنا طلبناهم وجاءوا لمساعدتنا

ـ واية مساعدة . . يا طويل العمر ؟

هكذا ، ببراءة ، سأل ابن الراشد ، فاجابه الأمير :

ـ تحت ارجلنا ، يا ابن الراشد بحار من النفط . بحار من الذهب ، والخويا جاءوا ليخرجوا النفط والذهب .

تطلع ابن الراشد الى الأمير وهز رأسه دلالة الدهشة والثقة ، ثم تطلع الى الرجال الآخرين ليرى وقع كلمات الأمير عليهم ، قال بنفس البراءة مخاطباً الأمير :

ـ وكيف عرفتم يا طويل العمر ؟

رد الأمير بثقة وعصبية :

ـ من يدرينا لولا مساعدتهم ؟ هم قالوا لنا : تحت هذه الارض بحار من الخير ، ولانهم يحبون الخير ، ولانهم اصدقاء قالوا : الجماعة يستاهلون المساعدة وجاءوا .

ـ وهذا الذهب في وادي العيون يا طويل العمر ؟

ـ في وادي العيون ، هنا ، وفي كل مكان من هذي الارض المباركة ، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الارض بحد السيف ، وحارب الاعداء والكفار ، كان يعرف من اجل اي شيء يحارب .

قال متعب الهذال ببرود وتحدٍ :

ـ حنا اللي حاربنا ، بسيوفنا اخذنا هذي الارض شبراً وراء شبر .

تضايق الأمير من هذا التعريض وبتلك اللهجة ، قال متجاهلاً كلام متعب الهذال :

ـ بعد ما منّ الله علينا بالنعمة لازم نشكره ، لا ان نخلق المشاكل ، ونقول : فلاني وفركاني .

وتغيرت لهجته وتابع :

ـ انتم كبار وعقل أهل وادي العيون ، وواجبكم ان تسهّلوا عمل الاصدقاء وتخدموهم بعيونكم . . وان شاء الله ما تحل السنة الجديدة الا والفلوس لآذانكم .

قال متعب ساخراً :

ـ والله ، يا طويل العمر ، قبل ما تجي هذي العفاريت كانت حالنا على احسن حال ، لكن من يوم ما حلوا بهذه الديرة اشوف الدنيا مثل بول البعير : كل يوم الى ورا .

رد الأمير بحدة :

- اسمع يا ابن هذال ، وهذا الكلام لك ولغيرك . والحاضر يبلغ الغايب : اي واحد يخلق مشاكل ما له عندنا الا دواء واحد : هذا .

وأشار الى سيف كان معلقاً على الجدار . وهز سبابته تهديداً في نفس الوقت وسأل من جديد :

- ما قولك يا ابن هذال ؟

ضحك متعب الهذال ضحكة صغيرة ، وكأنه يريد من خلالها ان يستمد قوة اضافية ترقد في اعماقه . ران صمت ثقيل على الغرفة ، سأل الأمير بعصبية :

- ها . . ما تقول يا ابن هذال ؟

- انتم الحكومة ، عندكم العسكر والسلاح ، واللي تريدونه يصير ، ويجوز باكر ، بعد ما يطلّع لكم النصارى الذهب من تحت القاع ، تصيرون اقوى ، لكن اعلم ، يا طويل العمر ، ان الاميركان ما يعملون شي لله

كان يريد ان يتابع لكن الأمير قاطعه بعصبية :

- اتركنا من هذا الكلام واجب عن سؤالي : فهمت ما قلته لك ام لا ؟

رد متعب الهذال بحدة :

- اسمع يا ابو رضوان ، انا شيبة بعمر والدك ، وصوتك لا تتركه يفلت ، وما بيننا اصلي حتى تسمّعه ، واذا اردت تحمر عينك فما كل الناس تخاف العين الحمرا ، وحنّا جينا نقول لك ما شافت عيوننا .

كان لهذه الكلمات تأثير قوي لم يقتصر على الأمير والرجال الذين حوله ، اذ امتد الى ابن هذال نفسه ، فشعر انه قوي الى درجة لا يخاف شيئاً او احداً ، وانه مستعد لقول كل ما يريد ، مهما كلفه ذلك ، وهذه الطريقة في الحديث تنقل عدواها بسرعة ، وتترك نتائجها دون ما خطأ . اذ ما لبث ان تابع :

- . . . وديرتنا يا ابو رضوان صغيرة ونعرف بعضنا ، الكريم حنّا مثله كرام واللئيم ما له عندنا الا العصا ، والكفار من يوم ما حوّلوا بديرتنا ، وقبلهم الثلاثة اللي جاءوا في الشتاء ، ما شفنا الا المصايب . . .

وتغيرت نبرة الصوت مرة اخرى :

- حنّا اليوم بآخر الربيع . العربان تركت البدية وطلايعها وصلت لوادي العيون ، وما اظن ان في البيار ما يكفي البشر ، فكيف تريدنا ان نترك الكفار يرفعون من البيار

نل مطلع شمس مئة حمل وحمل ويرمونها في الارض ونسكت عليهم ؟

ضحك الأمير في محاولة لان يسيطر على الجو من جديد . وقال وهو يمسح انفه :

- اسمع يا ابن هذال . . اذا كان ما يشغلك الماء فابشر ، بدل البيار الثلاثة الموجودة نحفر لك مية بير ، واذا ما كان بهذا المكان بمكان غيره . وفيك حيل وشيل . هذه مسألة بسيطة . لا تخف ، وبعد اليوم ما احد يعطش ، وحنّا ما نريد ان يبقى وادي العيون مربط الابل والدواب . الخويا يريدون ان يحفروا في الوادي ، وعندها ياتيكم خير .

قال ابن الراشد :

- الله ، يا طويل العمر ، اللي يهمنا هو الماء .

قال متعب الهذال بحدة ليقطع الطريق على هذه الروح المستسلمة :

- اسمع يا ابن الراشد ، ما يهمنا الماء وغير الماء ، وانت تعرف : انا بالظهرة ، وحرثي ما ينزل للعين ، وكل ما عندي بستين صغيّر ، يمكن ان اتركه وامشي ، الناس في الوادي يهمها الماء وغير الماء ، يهمها العرض ، الناموس ، وما نريد احد يوقف ، وما نريد ان نكثر الخنازير صبح وعشية ، واليوم بهذا الشكل ، بعد كم يوم ما نعرف وش يصير .

قال الأمير وقد ادرك نقاط القوة والضعف :

- يا جماعة الخير ، الحكومة اعلم واقدر منكم ، ومثل ما قلت لكم : الاخلاق والدين حنا احرص منكم على الاخلاق والدين . . . والماء ابشروا .

قال متعب الهذال بيأس :

- القضية ، يا طويل العمر ، من اولها الى تاليها ، اننا ما نقدر نعيش معهم . لو كانت القضية يوم او اثنين تهون ، لكن ان نعيش جميع ، ما نحتمل . واذا كنا ، حتى اليوم ، ما حملنا سلاح في وجوه بعض لا احد يدري باكر ويش يحصل .

قال الأمير بلهجة هجوم جديد :

- تركناك تقول كل اللي ببطنك يا ابن هذال ، خلنا نسمع رأي الرجال .

قال ابن الراشد ، وكأنه يستعيد درساً حفظه من قبل :

- حنا مع الحكومة ، يا طويل العمر . اللي تختاره الحكومة فيه خيرة الله ، ونوافق عليه . فاذا كنتم ناويين تأمين الماء وحفر بيار جديدة وتوفرون للبدو والمسافرين والبساتين الماء ، نسد عيوننا عن النصارى وما لنا شغل بهم ولا بينا شي .

قال سالم المكتوم :
ـ المسألة بسيطة يا طويل العمر ، لما شفنا انك بطيت علينا وما تريد القنص قلنا من كل بد نصل الأمير نسلم ونطمئن ، وانت يا طويل العمر قلت ما يكفي وزود .

قال عبّيد السويلمي : ·
ـ اذا كان الذهب تحت وادي العيون فباطن الارض خير من ظاهرها ، وما علينا الا ان ندعو لصاحب الجلالة بطول العمر .

رد متعب الهذال بسخرية :
ـ اي والله باطن الارض اخير من ظاهرها ، اهل الوادي لازم يختارون : الماء او الذهب .

صمت لحظة ثم اضاف :
ـ والظاهر ان أهل الوادي يعرفون . . واختاروا الذهب .

ونتيجة كلمات السويلمي وابن هذال ، وبهذه التورية الطريفة وقع ما يشبه الاتفاق الضمني ، ان ما اراد الرجال ان ينقلوه للامير قد قالوه ، وان كان بهذا الشكل الذي ترك مرارة لا تمحي من قلب متعب الهذال ، وظل يتذكر هذه الحادثة ويسخر من الرجال والأمير حتى وقت متأخر ، لان ما اتفق عليه الرجال خالفوه تماماً .

قبل ان ينقضي ذلك اللقاء ، وباستغلال الجو المرح الذي ولدته الكلمات الأخيرة ، قال الأمير :
ـ الليلة عشاكم عندنا .

كانت هذه الكلمات ايذاناً بانتهاء المقابلة ، ودعوة العشاء تعبيراً عن الرضى الذي احس به الأمير ، ولكي يزيل اية مرارة من نفس ابن هذال قال له بدعابة :
ـ واذا كان عندك شي جديد ، يا ابن هذال ، عن الخويا ، فاجله الى العشاء .

رد متعب بسخرية :
ـ اللي عندي ، يا طويل العمر ، ما يرضيك ، لكن ما عندك وما عندهم يرضي ويزيد . . وهذا يكفي :
ـ عدت يا ابن هذال ؟
ـ انت اللي طلبت مني العود ، واذا كنت ما تريدني اعود اريحّك فارضى وترضى .

ـ انا راضٍ ، اريدك انت ان ترضى .
ـ الرضا نسيناه ، يا طويل العمر ، كل ما نريده الستر والسلامة ، واظن ان الستر ضيعناه من يوم ما جاء الخويا ، وما بقيت الا السلامة ، وانت تعرف ان الانسان لا يدري متى يموت وفي اية ارض يموت .
ـ وكل الله يا رجل .
ـ وعليه توكلت واليه انيب .

كان من الممكن لهذه المناقشة ان تستمر وتطول ثم تتشعب ، لكن والأمير يقف ، ثم هذه العبارات التي تتردد دون معنى او ضرورة ، اغلب الاحيان ، وضعت حداً ، اذ استأذن الرجال وخرجوا .

كانت مشاعر الحرج والدهشة والفرح والانتظار تسيطر على الرجال الا متعب هذال .فقد احس ان الدنيا تضيق حتى تكاد تطبق عليه ،ورغم الضجة التي حوله كان الصمت يملؤه والفراغ يحيط به من كل جانب . لاول مرة في حياته يشعر انه وحيد ، انه ذرة من الرمل لا تعني شيئاً ، ولا يعني احداً . أما الكلمات التي قالها فهي بمقدار ما اغضبت الآخرين ، خاصة الأمير ، فانها تغضبه وتجعله يحس بالتفاهة واللاجدوى . كان يود ان يتكلم مثلما تعود دائماً . ان يصرخ ، ان يقول كل ما يدور في عقله . فجأة اصابه الخوف ثم الخرس . ما قاله لا يعني شيئاً مهماً ، مجرد اصوات عمياء . لو لم يكن كذلك لما اندفع المكتوم والسويلمي والآخرون لان يتكلموا مع الأمير بتلك الطريقة . لماذا جاء معهم ؟ وماذايربطه بهم الآن ؟ الذهب ؟ انه لا يريد مثقالاً واحداً من الذهب . وهؤلاء الكفرة هل يمكن ان يعطوا الذهب دون مقابل ؟ واذا كان لا بد من دفع المقابل . . . فماذا يكون ؟

عبرت في رأسه هذه الافكار والتساؤلات والمشاعر ، وعبرت اخرى غيرها ، واذا كان الرجال الذين معه قد شعروا بالحرج وفضلوا الصمت او الاحاديث الجانبية العابرة ، فانه لم يكن يرى اياً منهم او يسمع كلمة من كلماتهم . كان بعيداً مشغولاً ، وكان ضائعاً متعباً ، أما حين اقترح ابن الراشد ان يذهبوا الى السوق ، ان يزوروا بعض الاصدقاء ، فقد رد متعب بعصبية ، وكأنه يواصل حديثاً :
ـ . . . لا اريدكم ولا اروح معكم . . . وهالحين اركب ناقتي وامشي لوادي العيون .

ولم يأبه لنظرات الرجال وإلحاحهم عليه ان يبقى ، لان سفره المفاجىء وعدم تلبية دعوة العشاء سيتركان مرارة وغيظاً في نفس الأمير . واذا كانت الامور قد سارت بسلام حتى الآن . وانتهى اللقاء بان خرج الجميع راضين او متظاهرين بالرضا ، فان غياب متعب الهذال بهذا الشكل ، دون اعتذار او تفسير ، سيعقّد الموقف من جديد ، لكن متعب الهذال لم يكن مستعداً للمناقشة ، اذ ركب ناقته العمانية البيضاء . وانطلق دون ان يلتفت ، دون ان يسمع نداءات الرجال . . . او كلماتهم .

ية أحزان استبدت بمتعب الهذال في الصحراء الملعونة خلال يومين وليلتين حين كان عائداً الى وادي العيون ؟ أية لحظات أسى سيطرت عليه وربما دفعته الى الغناء او البكاء ؟ لا أحد يدري . لأن متعب الهذال حمل سره معه ورحل . لم يتكلم عن ذلك لانسان . ولم يطلع أحداً على أفكاره ، حتى بعد أن عاد الى وادي العيون . لقد استبدت به حالة من الصمت اقرب الى الذهول . وبمقدار البراعة التي كان يتميز بها حين كان يتكلم من قبل . فانه أصبح اكثر قدرة وبراعة على الصمت ! كان الرجال حوله يتكلمون ويسألونه او يتساءلون . لكنه في غياب كامل عن الاصوات والحركات ، لا يسمع ولا يجيب . حتى التعابير التي يمكن ان يلمسها الانسان في وجوه الآخرين ، مهما حاولوا اخفاءها ، أو لو كانوا لا يفهمون ما يقال لهم ، غابت تماماً عن وجه متعب الهذال . كان حجراً او اقرب الى الحجر : وجه شاحب . متخشب . جامد الملامح . ولولا رفة العينين ، تظهر بين فترة واخرى . لظن من ينظر الى وجه ابن هذال ان وجه ميت يرى . أما محاولات الناس . حتى فيهم وضحة . في حمله على الكلام . فقد كانت تنتهي الى الفشل الكامل . وكان اذا ضاق بكلام الذين حوله . وهذا ما تكرر كثيراً بعد عودته . بعد لقاء الأمير . ينسحب بهدوء . ويتصرف كما لو كان وحيداً . اذ يذهب الى مكان

منعزل او يذهب لكي ينام .

كان وادي العيون ينتظر عودة الرجال ليعرف ماذا جرى ، أما الآن ، وبعد ان عاد متعب الهذال وحيداً ، ثم موقف الصمت التام الذي اتخذه ، فقد ترسب في أعماق كل انسان في الوادي شعور حاد بالمرارة ثم الخوف . وإذا كان الناس تجاه المصائب التي يتوقعون ، ينتظرون بارقة امل ، ويتشبثون بها ، حتى لو كانت كاذبة واهية ، ولا تقوى على منع وقوع تلك المصائب ، فان وجه ابن هذال بدّد كل أمل ، وقضى على كل بارقة . حتى فكرة انتظار الرجال الآخرين التي راودت اذهان بعض الناس ، ما لبثت أن انهارت وتلاشت ، وسيطرت بدلاً عنها حالة من الحزن اقرب الى اليأس « ماذا يمكن ان تضيف كلمات ابن هذال لو تكلم ؟ ان وجهه وعينيه اقوى من الكلمات وأقسى منها » « اذا تكلم سوف تكون كلماته قاتلة ، لقد رأى اشياء كثيرة في هذه الحياة ، ولا بد أن تقتله علته » . « ولو تكلم الرجال بغير ما تكلمت عينا ابن هذال فلا بد أن يكونوا كاذبين ، ومتعب الهذال لا يكذب ، لأنه لا يعرف الخوف . . . وهم يخافون » .

بعد أن عاد متعب الهذال ، وبعد ذلك الغرق المهول في الصمت ، شعر كل من في الوادي ان نهاية ملعونة مدمرة تتربص بالجميع ، وتنتظرهم كل لحظة . ومثل هذه النهاية يقف الانسان تجاهها عاجزاً منتظراً ، حتى الحزن الذي يبدو متدفقاً كثيفاً في بعض اللحظات ، يعجز عنه الانسان في لحظات أخرى ، بل ويتمناه ، لأن يأساً مروعاً متشبثاً يربض على الحواس فيشلها ، ويجعل الحركة ميتة والزمن عذاباً .

قالت وضحة ، وهي ترمي الدثار السميك فوقه ، رغم الحر الذي اخذ يملأ ذرات الهواء :

ـ اذا مرت هذه الحمى دون ان تقتله يمكن ان يعيش ويبلغ المائة .

وهزت رأسها دلالة الشك والخوف .

وحين سألها هديب ، وحين سألها أولادها ، عما جرى ، هزت كتفيها دلالة انها لا تعرف شيئاً ، وانها لا تهتم بما يجري ، وبعد فترة صمت قالت كأنها تخاطب نفسها :

ـ من يوم ما جاء اولاد الحرام الثلاثة دخله عفريت ، وبدل ان يخرج العفريت من

رأسه حضنه كما تحضن الدجاجة بيضها ، والآن الحمى تقتله ، وهذي هي حمى العفاريت .

لم يفهم أحد بوضوح ما قالته وضحة ولم يجرؤ على معاودة السؤال . كانت عصبية شديدة الهم ، تركض من مكان لآخر ، وعلامات الخوف ظاهرة على حركاتها وتصرفاتها . أما الاجابة التي كانت ترددها لكل من يسألها عن حال ابو نويني ، فقد بدت لفرط ما كررتها تثير الفزع ، كانت تردد :

ـ الرجل خلص . . راح ، الا إذا كان رب العالمين يريد يسويه مثل أيوب .

حين عاد الرجال ، بعد خمسة ايام ، كان اللغط يعمّ وادي العيون ، وكانت الحمى تفتك بمتعب الهذال ، ولم يكن احد من الناس الذين اجتمعوا في مضافة ابن الراشد مستعداً لتصديق أية كلمة من الكلمات الكثيرة التي قيلت . تبددت كلمات الغنى والذهب كما يتبدد الدخان في الهواء ، وارتفعت راية سوداء مثل سؤال كبير : « اذن . . جاء هؤلاء ليبقوا ؟! » وتحولت حركات ابن المكتوم والسويلمي وابن الراشد الى حركات عمياء وكلمات كاذبة « الذهب ؟ من أين لهذه الأرض الذهب اذا لم يشتغل الناس ولم يركضوا من مكان لآخر ؟ النفط ؟ ما يأتينا يكفينا لنوقد هذه الفوانيس التي تخنق برائحتها أكثر مما تضيء » .

تذوي التفاصيل ، تتراجع ثم تغيب . وحتى تلك التي لا تزال عالقة بالذاكرة ، ربما ولدتها الرغبة أو ولدها الخيال الجامح ، لأن أية محاولة لاستعادة صور الأشياء ، والأماكن والملامح تصطدم بالنسيان الذي يتمدد كالهواء الساخن ، يجعل كل ما جرى اقرب الى الحلم .

انها مأساة من نوع خاص ، تشبه حالة فقدان الذاكرة ثم استعادتها في وقت متأخر ، فتظهر فوضى الأشياء وتداخلها ولعنتها ايضاً . ومع ذلك ، واذا كانت حياة متعب الهذال تهم احداً ، واذا كان وادي العيون قد وجد في وقت من الأوقات ثم تلاشى تحت وطأة الزمن الآخر ، فان اللحظات الأخيرة هي وحدها الباقية ، وقد تكون وحدها التي وقعت فعلاً .

ففي اواخر تلك الليلة ، من ليالي الصيف المتأخر أو بداية الخريف . وعلى غير انتظار ، سمع دوي مجنون يملأ الوادي . كان دوياً يشبه الرعد البعيد ، أو يشبه سقوط اعداد كبيرة وهائلة من قرب الماء الممتلئة على أرض سبخة ، فيرتج الهواء وتصطخب الآذان حتى يصعب تمييز الصوت أو مكانه . واذا كان متعب الهذال قد قرر ان يبقى في الظهرة طوال الفترة التي امتدت بين عودته وأواخر الصيف ، رافضاً باصرار لا يقاوم كل المحاولات التي جرت لحمله على النزول الى الوادي ، بعد هذا

الرفض والعزلة ، ونتيجة مرض لم يفارقه يوماً واحداً ، حصل ما يشبه الاتفاق الضمني : أن يُنسى الرجل ، ان يعتبر ميتاً أو كأنه لم يعد موجوداً ، ولذلك عاد الوادي الى حياته السابقة . صحيح ان بعض الصعوبات قد نشأت في ذلك الصيف ، لكن أمكن التغلب عليها ، وبدا أن هذه المجموعة التي جاءت تبحث عن النفط ، وبعد ان انتهت من إعداد متطلبات المرحلة الأولى ، قررت البدء .

ليس مهماً كيف كانت البداية ، لأن الدوي الذي ملأ تلك الليلة ، أواخر الصيف ، يعتبر البداية الأكثر رسوخاً في الذاكرة ، وهي وحدها التي حملت متعب الهذال على أن يكسر أطواق العزلة وينزل الى الوادي .

قد تكون هناك تفاصيل كثيرة من نوع أو آخر سبقت هذه البداية ، وقد تعتبر ذات اهمية خاصة ، لكن لم تكن كذلك لمتعب الهذال . فالمحاولات العديدة ، والتي تدخل فيها أقرباء ومعارف كثيرون ، في أن يبيع البستان الصغير الذي يملكه في وادي العيون ، وبمبلغ بدا كبيراً في ذلك الوقت ، هذه المحاولات باءت بالفشل .

كل ما كان يقوى عليه متعب الهذال هو أن يهز رأسه دلالة الرفض ، وفي الحالات التي لجأ فيها بعض الاقرباء الى الضغط عليه كان يضحك بسخرية ويغادر المجلس . أما ما نقل عن لسان الأمير أن ابن هذال يبيع رضي أم لم يرض ، فقد قابله بهز رأس دلالة ان ننتظر ونرى . ولذلك فإن الدويّ الذي سمعه في تلك الليلة ولد في نفسه انفعالات كثيرة ، إذ لا بد أن يكون قد فكر أو حلم بحدوث انفجار في المعسكر قضى على كل شيء ، وقد يكون تصور أن امراً خطيراً قد حدث في تلك الساعة ، ونتيجة لذلك كان الدوي ولا بد أن يراه بنفسه ، وقد تكون هناك تصورات أخرى خطرت في باله ، وإلا كيف يفسر ذلك الحماس الذي دفعه لأن ينسى عزلته وينزل الى الوادي ؟

مع أضواء الفجر الأولى كانت كائنات حديدية ضخمة تتحرك . كان دويها يصم الآذان ويملأ الصحراء كلها . كانت هذه الكائنات غريبة الشكل كبيرة الحجم الى درجة ان أحداً لم يتصور وجود مثل هذه الأشياء . أما الأضواء التي كانت تنبعث منها فهي تشبه النيازك . كانت تتحرك في رتل سالكة نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل ، وخلال وقت قصير ، والدوي يزداد ويقترب ، وصلت هذه الكائنات الى الوادي .

لا يمكن لأحد أن يصف اللحظات التي وصلت فيها هذه الآلات ، كما لا يُعرف أبداً الشعور الذي سيطر على الناس وهم يراقبون هذه الكتل الصفراء الضخمة تتحرك وتدوّي ثم تتوقف عند حدود المعسكر . ليس بمقدور احد أن يصف او يحدد . ومتعب الهذال الذي وصل الوادي بخفة قط ، والذي راقب كل شيء بانتباه ، وظل على مسافة من هذه المخلوقات العجيبة ، لا يقترب منها خوف ان تفعل شيئاً لا يمكن مقاومته او التغلب على شروره ، أحس في أعماقه ، حين توقف الدوي ، ان الدنيا انتهت .

إذ ما كادت الآلات تتوقف وتتفتح منها كوى ومصاريع ، ويخرج رجال معفرون ، وينظرون الى ما حولهم ، حتى خيم الذهول والصمت : أين كان هؤلاء الرجال ؟ كيف استطاعوا الدخول الى هذه الآلات والخروج منها ؟ وهل هم رجال حقيقيون أم عفاريت ؟ ولماذا كانوا هناك وماذا سيفعلون ؟ وهذه الكتل الحديدية الصفراء هل يمكن لانسان ان يقترب منها ويظل سالماً ؟ وماذا تفعل وكيف تتصرف وهل تأكل مثل الحيوانات أم لا تأكل ابداً ؟

كان الصبية أسرع من غيرهم في الاقتراب من الآلات ، ثم لم يترددوا في أن يضعوا أصابعهم فأيديهم كلها عليها . مدوا ، أول الأمر ، اصابع خائفة ، بهدف لمسها . وحين احسوا بقسوة الحديد مدوا أيديهم ، ثم لم يترددوا في أن يدقوا دقاً خفيفاً ، وكأنهم يدقون أبواباً لا بد أن تنفتح ، حتى إذا اطمأنوا قليلاً بدأوا يدورون حولها ويتحسسونها في أماكن عديدة بالأيدي او بعصيّ صغيرة ، وتجرأ احد الصبية وقذفها بحجر .والرجال الذين كانوا يراقبون الأطفال بعصبية في البداية ، خوف ان يقع لهم مكروه نتيجة هذا العبث ، لم يلبثوا أن أصبحوا راغبين في أن يفعل الصبية ما يفعلون ، لأن ذلك قد يمكنهم من معرفة الغاية التي جاءت من أجلها هذه الآلات وماذا ستفعل .

إنها لحظات من المراقبة الدقيقة الحادة ، تخللتها المخاوف والدهشة . أما حين خرج بعض العاملين في المعسكر ، مع أولئك الذين كانوا داخل هذه الآلات ، ليلقوا نظرة ، فقد تراجع رجال وادي العيون والصبية بضع خطوات ، ووقفوا منتظرين خائفين . وبطريقة مليئة بالزهو والثقة كان الرجال الجدد يدورون حول الآلات ، ويفتحون مصاريعها ويرفعون اغطيتها ، والآخرون ينظرون باهتمام .

في إحدى اللحظات قفز واحد من الرجال ودخل في الآلة ، وخلال لحظة خاطفة انطلق الهدير ، ثم بدأت الحركة . كانت تلك الآلة تدور بطريقة شيطانية ، كانت ترتفع وتنخفض وتهدر وتئز . وأهل وادي العيون الذين ابتعدوا مسافة كبيرة ، كانوا ينظرون بعيون خائفة مدهوشة ، وقد عقد الصمت ألسنتهم ، ولا يعرفون متى تنفتح ابواب الجحيم وتبتلع كل ما هو فوق الأرض .

ولأول مرة ، منذ شهور طويلة ، يسمع أهل الوادي من جديد صوت متعب الهذال :

. وصلت العفاريت ولازم نصرهم . وإذا بقينا مثل الخشب رح تاكلنا وما تخلي

لم يكن يريد ان يتكلم أكثر من ذلك أو غير ذلك . لكن الصمت الذي خيم ، بعد أن توقفت الآلات ، والنظرات المتسائلة الخائفة التي انصبت عليه من الذين حوله ، جعلته يشعر باللاجدوى . لا احد يفهمه . لا احد يقف الى جانبه ، ولن تجدي أية كلمات يمكن ان يتفوه . وبطريقة عصبية ، عبرت عنها هزات رأسه البائسة المعذبة ، تراجع الى الوراء ، وكأنه شعر بالندم ، لأن هذه الكلمات فلتت منه دون ارادة . وحين أمسك به بعض من كان حوله ، وطلب منه ان يفسر طبيعة هذه المخلوقات العجيبة ، وماذا ستفعل ، نحّى الأيدي بخشونة ، وكأنه لا يطيق ان تمسه يد أو ان يسمع كلمة . والرجال الذين تعوّدوا ان يكون متعب الهذال على هذه الصورة ، لم يستغربوا تصرفاته ، ولم يتوقعوا شيئاً هاماً يمكن أن يقوله لهم ، لذلك انصرفوا عنه ، وانطلق هو الى رابية قريبة وجلس . كان في موقعه القريب البعيد ، وبجلسته المتوترة ، يرقب كل شيء ويفكر . وكأنه يشهد نهاية حقبة طويلة من الحياة والزمن .

إنها نهاية عالم ، او ربما نهاية مرحلة من المراحل الطويلة التي سيطرت على الحياة في هذه الصحراء البعيدة المنسية . لم يقل هذا احد بصراحة سوى متعب الهذال ، لكن الآخرون ، في وادي العيون وما حوله ، فقد أحسوا بذلك وان لم يعبروا بكلمات أو أفكار . كانت تتملكهم مشاعر الضغينة والنزق والخوف ، وكانوا ينظرون حولهم بتساؤل ، لكنهم لم يدركوا ولم يقدروا بوضوح اي شيء يمكن أن

يحدث . او ربما كانوا يأملون ان يقع في اللحظة الأخيرة امر قد يغيّر كل ما يدبّر ويخطط فتعود الأمور الى ما كانت عليه في الوادي وينتهي هذا الحلم القاسي الطويل .

رغم مرور الساعات الطويلة ، والناس ينتظرون ، فان الأميركيين ظلوا قابعين داخل المعسكر في حالة من الصمت والتحفز . كان يتخلل هذه الساعات خروج مجموعة من خيمة لأخرى ، ان ترتفع النداءات، وبعض الأحيان ترتفع اغانٍ او أصوات مترنحة ، لكن هذا لا يدوم طويلاً ، ويغرق المعسكر مرة أخرى في الصمت . والناس حول المعسكر اقتعدوا الارض في جماعات صغيرة ، تحت ظلال النخيل والتين ، وكأنهم ينتظرون شيئاً ما . كان كل واحد على يقين راسخ ان امراً ما لا بد أن يقع ، وهذا التيقن دفع بالكثيرين لأن يرسلوا أولادهم لاحضار بعض الأكل ، وتحمس بعضهم لأن يعد القهوة في الهواء ، بعيداً عن المضارب والبيوت ، لأن الرغبة بالمتابعة وعدم ترك أي أمر يحدث دون أن يكون الانسان موجوداً ، سيفوّت فرصة لا يمكن تكرارها .

ومتعب الهذال الذي ظل على الرابيةالبعيدة المطلة، يراقب ويفكر ، لم يستجب للنداءات في أن ينزل ويأكل ، أو ليشارك في قهوة الصباح ثم قهوة قبل الظهر ، فقد ظل صامتاً مهموماً ، وظلت حواسه مستفزة مليئة بالانتظار ، وكان اكثر الجميع توقعاً . أما حين ارسلت اليه بضع حبات من التين والتمر ورغيف من الخبز ، فقد وضعها جانباً ، اذ لم يكن جائعاً أو راغباً في الأكل ،لكن هاجساً ما دفعه لعدم رفضها ، لأن الانتظار قد يطول ، ولا يريد ان يترك المكان .

إنها إحدى المرات النادرة التي تسيطر فيها تلك الحالة على جميع الناس في الوادي ومن حوله ، لأن هؤلاء العفاريت ، منذ أن وصلوا ، قبل بضعة شهور ، يزدادون غموضاً ، وتصبح معرفة نواياهم اكثر صعوبة ، انهم طوال ساعات النهار داخل الخيام ، خاصة الخيمة الكبيرة في الوسط ، ثم في البيوت الخشبية التي بنيت باتقان ، يكتبون ويرسمون ، في جو من الخفاء يغلف حياتهم كلها . وأهل الوادي الذين تميزوا منذ وقت طويل بالفراسة ومعرفة الحاجات والبشر، خاصة وانهم تعودوا على ذلك من المراهنات الكثيرة التي كانوا يجرونها فيما بينهم لمعرفة ما يحمله المسافرون ، وما تحمله القوافل ، فانهم تجاه هؤلاء الشياطين كانوا حائرين ،

وخافوا من أية تحديات او مراهنات فيما بينهم ، كل ما عرفوه ان الأميركيين سوف يخرجون النفط والذهب من الأرض ، أما كيف سيفعلون ذلك ، فلم يكن احد قادراً على معرفة او تحديد اي شيء . وفي المرات التي حاول ابن الراشد ، مستغلاً علاقاته مع « الغراب » ثم مع المترجم ، لم يظفر بأكثر من إجابات عامة ، وحين حاول ان يزيد الأمور وضوحاً بمعلومات من عنده ، لم يستطع اختراع سوى كلمات أضافت غموضاً على الغموض الذي كان يغرق فيه .

والآن ، وبعد أن وصلت مجموعة من هذه الآلات الجهنمية الصفراء ، فقد توقع الجميع ان نهاية ما أصبحت وشيكة ، وكل واحد يريد رؤية هذه النهاية بنفسه ، وأن يعرف كل التفاصيل ، حتى أصغرها وأكثرها خفاءً .

الساعات تمر طويلة ثقيلة ، وساعات بعد ظهر هذا اليوم تبدو أطول وأثقل ساعات تمر على الوادي ، منذ ان وجد الوادي ، ومنذ ان وجدت تلك الأعمال الصغيرة التي تشغل الناس . وحتى العادات التي تعودها بعض الرجال ، كأن يشرفوا على عقل الجمال ، أو أن يعدوا القهوة بأنفسهم ، لكي تطيب وتكون بالمذاق الذي يشتهون ، حتى هذه العادات ما لبثت أن تراجعت وتأجلت ، دون شعور بالضيق ، وكُلف الشبان الصغار بالأعمال التي لم يتعودوا القيام بها ، فأقبل عليها هؤلاء بحماس كبير .

كان الرجال ينتظرون حدوث شيء ما خلال النهار ، لكن معظم الساعات انقضت والحياة عادية رتيبة ، وكأن هذا اليوم سينقضي كغيره دون مفاجآت ، أما والشمس تنزلق نحو المغيب ، فقد أقبلت الدواب وملأت الوادي بأصواتها وضجيجها وجاء الرعاة والبدو الذين يرِدُون الماء في هذا الوقت ، وبالحركات المليئة بالمبالغة والصخب ، خلقوا دوياً اضافياً ملأ الوادي كله ، ثم جاء الأميركيون واضافوا الى ذلك الضجيج دوي الآلات التي جلبوها معهم منذ البداية ، والتي تولّد النور والصخب والخوف في نفوس الكثيرين ، فأصبح الوادي عند ذاك اقرب ما يكون الى عواء ذئاب ضالة أو الى صرخات بنات آوى الجائعة الخارجة في أول المساء باحثة عن شيء تأكله أو عن إلف تستأنس به .

هكذا كان الوادي في تلك الساعة اول المساء . ورغم أن شيئاً من الملل او ما يشبه

الحزن قد سيطر على معظم الرجال . وظنوا ليلة اخرى قاسية مملولة سوف تنقضي كما انقضت الليالي كلها منذ ثلاثة شهور او اكثر . فقد خرج فجأة ، وعلى شكل موكب او تجمع كبير معظم الذين كانوا في المعسكر . كان « الغراب » يقود هذا الجمع . وبدا أن حديثاً طويلاً قد جرى من قبل ، اذ ما كادوا يتركون باب المعسكر حتى أشار « الغراب » بيده أول الأمر ناحية اليسار ، ثم ناحية اليمين ، مع كلمات كثيرة والتفات نحو هذه الناحية ثم نحو تلك ، وحين بدأ الأميركيون بالحركة ثم بالسير انخضّ الوادي كله ، وتولدت ضجة تشبه الصخب ، لأن الأطفال والصبية الذين كانوا يراقبون ، والذين كانوا يوردون الدواب ويساعدون في السقاية ، ما لبثوا ان صرخوا وتحركوا بشكل أقرب الى الفوضى . أما الرجال الذين بدوا اكثر اتزاناً واستقراراً فقد التفتوا ، ثم تحركوا مبتعدين قليلاً عن طريق الأميركيين ، فلما شق هؤلاء طريقهم ، متوقفين أول الأمر عند العين والآبار ، ثم سائرين في الوادي ، تابعهم الرجال بأعينهم ، ثم تحركوا ببطء وراءهم . أما متعب الهذال فقد انتفض منذ اللحظة التي غادر فيها الأميركيون المعسكر . وقف على الرابية مثل ذئب متحفز ، حتى اذا تحركوا تحرك بموازاتهم ، محتفظاً بنفس المسافة والسرعة ، لكن كانت عيناه ترقبان كل حركة ، وأذناه تلتقطان كل صوت ، وبدا شديد الاهتمام دقيق الملاحظة ، وراغباً في معرفة كل شيء . أخذ يفسر ويقدر كل حركة وكل إشارة ، أما حين تكلم « الغراب » مشيراً الى كثبان الرمل والساقية والأشجار ، فكان شعور الحقد يتزايد ويقوى في قلب ابن هذال ، الى درجة ان حركته بدت عصبية ، واعترى وجهه الشحوب . أما الكلمات التي كان يرددها فقد فهم بعض الصبية القليل منها ، ونقلوا انهم سمعوه يقول « يا أولاد الزواني يا أحجار القراني ، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهّار » وقالوا ايضاً انه شتم الحكومة والسلطان والأمير وكل الذين يساعدون الكفار .

لم يترك متعب الهذال حركة دون ان يراقبها باهتمام ، اذ ظل يمشي ويقف ويشتم وينظر الى كل شيء كما لو أنه لن يرى المكان مرة أخرى ، ورغم ان احداً من الأميركيين لم يلتفت اليه ، الا أنه حفل اكثر من مرة حين كان يشار باتجاهه ، اذ ظن في البداية انهم يقصدونه ، لكن تأكد في وقت لاحق انهم يقصدون الأرض التي يمشي عليها ، وانه لا يعدو ان يكون علامة من العلامات في هذا المدى الفسيح !

ولولا ان « الغراب » تقدم باتجاهه ، لكن دون ان يلتفت اليه أو يهتم بوجوده ، ويضع برجله علامة على التراب ، ثم يبدأ يقيس المسافة حتى منتصف الوادي ، لولا هذه الحركة لظل متعب الهذال انهم يعنونه بالاشارة ، وكاد ان يتصرف بحمق . إذ ماذا يريدون منه ما دام يسير بعيداً عنهم بعشر خطوات او تزيد قليلاً ؟ أليس من حقه أن يذهب الى بستانه في النصف الاخير في الوادي ويجلس هناك ويغني ويتذكر ويشتم كما يريد ؟ ان من حقه ان يفعل ما دام لا يؤذي احداً ، أولم يفعل ذلك طوال السنين الماضية ؟

هكذا فكر ابن هذال وهو يرى « الغراب » يتحرك بحماس ويشير بيديه ويعلو صوته ، والاخرون الذين كانوا يرافقونه ابدوا من الأسئلة والملاحظات الكثير ، وقد ولّد هذا خوفاً حقيقياً لديه ، وظن ان ليلته تلك لن تمر على خير . ولا يعرف لماذا قرر ان يرجع قبل الأميركيين الى عين الماء . هبط الى العين مسرعاً ، شمر عن ساعديه ، وغرف بيديه الاثنتين غمراً كبيراً وسفحه على وجهه . تنشق الماء وتركه يسقط على لحيته . ثم أخذ غمراً ثانياً وشرب ، وبعصبية انتزع سترته ودلّى رأسه في الماء ، هزه عدة مرات وظلت عيناه مفتوحتين . شعر بالبرودة واللذة والخوف ، ظل كذلك وقتاً ، حتى إذا أحس أن أنفاسه تتكاثف في صدره وتثقل عليه رفع رأسه ، ترك قطرات الماء تتساقط بغزارة ثم تتراجع شيئاً فشيئاً بعد ذلك ، وأخيراً وبجماع كفه ملأ راحته وشرب ، وبهدوء ، وكأنه وحده في هذاالعالم ، اتجه الى الرابية ، اتخذ مكاناً عالياً مطلاً على الماء مباشرة . ربما اعتبر أن الوادي لا يعني شيئاً لو أن الماء توقف ، وربما اعتبر أن بستانه والأرض التي قبله ثم التي تليه الى آخر الوادي لا تعني شيئاً خاصاً إذا أراد الأميركيون ان يوقفوا الماء . بل وفكر ايضاً ان الأرض في الوادي كله متساوية الى درجة لا يمكن ان يعتبر أرضه ذات قيمة أو اهمية مختلفة عن الأراضي الأخرى في الوادي . لو أنه فكر بشكل مختلف لظل في البستان ، ولنام تحت شجرة من أشجار النخيل . ولو أنه اراد ان يدافع عن بستانه واشجاره وحدها لما اختار هذا المكان المكشوف حيث يراه الجميع . ان شيئاً ما دفعه لاختيار هذا المكان ، وحين رجع الاميركيون ، وظهرت وجوههم وظلالهم تحت الأنوار القوية ، كان قد سهل الأرض عند تلك الرابية .. وقرر ان يبقى ساهراً منتظراً حدوث تلك المعجزة التي طالما انتظرها !

بعد الفجر بقليل ، وحين كانت اضواء النهار الاولى تتمدد وتنفصل عن الظلمة ثم تنفرد بهدوء فوق الاشياء ، كان الوادي لا يزال يلتف بغلالة خفيفة تركها الليل والرطوبة المتسربة من الهواء والاشجار ومياه العين ، ومن انفاس الناس الذين كانوا ينتفضون بهدوء تلك الساعة ليبدأوا يوماً آخر . كان متعب الهذال ، بعينيه الواسعتين الحزينتين ، واللتين لم تغمضا لحظة واحدة ، يرقب وينصت ويفكر ويتابع حركة الحياة في ولادتها الجديدة ، في ذلك اليوم الخريفي البعيد . كانت الاشياء والاماكن والحياة ، حتى تلك اللحظة ، تتململ في الصمت الحزين الهادىء ، وكأنها ستبقى هكذا الى الابد ، لكن صرخة قوية انفجرت في المعسكر ، وبانفجارها غير المتوقع ، والذي ولّد تحفزاً لدى متعب الهذال ، بدأت الحياة تتغير ، وما هي الا لحظات قليلة حتى هب الاميركان ، وبعد وقت لم يطل خرجوا .

كان خروجهم خروج الشياطين ، ففي لمح البصر توجهوا الى الآلات بتلك العصبية وذلك الاندفاع انذاراً اخيراً ان كل شيء قد انتهى . لم يقل احد ذلك لمتعب الهذال ، لكن احساساً قوياً طغى عليه وملأه تماماً ، اذ رغم انه لم يعرف ماذا سيحصل ، الا ان تلك الحركة الموزونة الحافلة جعلته يحس ذلك . نهض على مهله ، تنشق هواء الوادي برئتيه وجسده كله . نظر الى كل ما حوله وكأنه يودع

الاماكن والاشياء . رأى سرباً من طيور القطا يحوم . نظر الى الرجال في المعسكر ، امتلأ احساساً قوياً بالنهاية ، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ الحركة حتى صرخ صرخة حادة موجعة :

ـ حسافا . . حسافا . . . يا وادي العيون !

كانت تلك الحركة إيذاناً حقيقياً ملعوناً حافلاً مجنوناً بالنهاية ، واذا كان هناك احد يتذكر تلك الأيام البعيدة ، الأيام التي كان يوجد خلالها مكان يسمى وادي العيون ، ورجل يدعى متعب الهذال ، وعين من الماء واشجار ، وبشر من طبيعة معينة . . . اذا كان لا يزال هناك من يتذكر ، فان اقوى ثلاث ذكريات لا تزال تخبط القلب كلما عاد الانسان الى تلك الأيام وتذكر : التراكتوارت وهي تهجم مثل ذئاب جائعة على الاشجار وتبدأ تمزقها وترميها ارضاً الواحدة بعد الاخرى ، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وثانية ، بين الساقية والارض التي حولها ، حتى اذا انتهت من مجموعة من الاشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها . كانت الاشجار،وهي تميل وتترنح ، قبل ان تسقط ، تصرخ، تستغيث ، تولول ، تحن ، تنادي نداء اخيراً موجعاً ، حتى اذا اقتربت من الارض هوت بتضرع ، وكأنها تحتج او تريد ان تلتحم بالتراب من جديد ، في محاولة لأن تنبثق ، لأن تنفجر مرة اخرى .

هكذا بدأت مجزرة وادي العيون ، وهكذا استمرت حتى اتت على كل شيء ؛ ومتعب الهذال الذي شهد بداية المجزرة لم يشهد نهايتها ، لان الرجال الذين وصلوا على صوت الآلات المجنونة ، ووقفوا يرقبون ما يجري امامهم ، وبعد ان أفاقوا من الذهول الذي سيطر عليهم خلال الفترة الاولى ، والتفتوا ورأوا ابن هذال ، قال هؤلاء الرجال اشياء كثيرة شديدة الحزن . قالوا انهم لاول مرة في حياتهم يشهدون رجلاً مثل متعب الهذال يبكي . كانت دموعه تتساقط بغزارة ، لكن وبصمت بصمت كان صامتاً تماماً . لم يفه بكلمة واحدة . لم يشتم . لم تخرج من حنجرته اية آه او نأمة ، فقط كانت دموعه تنهمر ، ولم يكن خجولاً او خائفاً ، ولم يكن فخوراً بصمت كان ينظر من خلال الدموع الى الوادي كله ، كان ينظر بصمت ويهز رأسه .

في وقت ما ، ولم يعرف ذلك الوقت ابداً ، والرجال يتابعون ويتحركون ، والآباء يشددون على ابنائهم لكي يجمعوا الحطب معهم ، لكي يساعدوهم. انسحب ،

بهدوء ، متعب الهذال ، ترك الرابية باتجاه الظهرة . وخلال فترة قصيرة ، رغم توسلات وضحة التي هوت على قدميه تقبلهما ، ورغم محاولات الاقرباء ، كان قد اتخذ قراراً . اخذ يعمل بهدوء ، حضر كل ما يحتاجه ، دون ان يلتفت الى احد ، دون ان يسمع كلمة واحدة من الكلمات الكثيرة التي كانت تقال . كانت في عينيه بقايا دموع ، لكنه لم يبك ، أما حين انتهى من تهيئة كل شيء فلم ينس التقاط بندقيته وقربة الماء ، وحين اعتلى ظهر ناقته العمانية ، نظر الى الجميع ، نقّل نظراته من وجه لآخر ، وبدا انه يتمعن ، كأنه لا يريد ان ينسى ، حتى اذا نظر الى كل الوجوه لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض ، وبدا متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة ، ثم بدا مثل غيمة ، أما حين بدأ حركته السريعة فقد اصبح مثل طير ابيض . . . وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى . . . واختفى !

لم يره الا القليلون وهو يرحل . كان الناس في الوادي مشغولين خائفين وهم يراقبون تلك الآلات المجنونة تقتلع الاشجار وتدك الارض وتقلب كل ما فوقها ، ولما تعبوا من المراقبة ، ورأوا كل شيء بعيونهم يتهدم وينتهي ، تلفتوا ، نظر بعضهم في وجوه بعض مستغربين ، أما عندما سألوا عن متعب الهذال فقد وُجد من قال انه رحل . بدت الكلمة غريبة ، غير مألوفة ، بل ومعادية ايضاً « متعب الهذال يرحل ؟ كيف يرحل ويترك الوادي . . والى اين يمكن ان يرحل ؟ » .

بدا كل شيء غير قابل للتصديق . قال احد الرجال :

- متعب لا يترك الوادي ، متعب يموت ولا يرحل .
- رحل منذ زمن طويل . رحل حين قطعوا اول شجرة .
- متعب لا يرحل . . . اراهن .
- الظهرة قريبة ، والوادي الآن مثل ما تراه ، لا يخفي ابرة .
- من ناقة الى ناقة .
- ولكنه رحل منذ ثلاثة ايام . شعلان قال انه رحل . وانا رأيته بعيني على ناقته مشرّقاً .

- اريد ان اخسر راسي واخسر الناقة . متعب لا يرحل .
- وكّل الله يا ابن الحلال ، خلي راسك بين اكتافك وخلي ناقتك عندك ، واسمع كلامي : متعب رحل !

قال الكثيرون : متعب الهذال مثل عادته دائماً : اذا جاءته « السودا » يغيب يوماً او يومين ثم يعود ، ولذلك فاذا شرّق او غرّب لا بد ان يرجع .

كان اهل الوادي جميعاً على يقين راسخ ان متعب لا يتخلى عن الوادي ، وانه ليس مثل الآخرين يمكن ان يحمل امتعته ويمشي . أما اذا كان قد دخل الصحراء غاضباً مهدداً كما فعل ابوه وجده ، فلا بد عند ئذٍ ان يفعل مثلما فعلوا . كانوا اشرس اهل الوادي في محاربة الاتراك ، كانوا لا ينامون في مكان واحد مرتين ، وقد حولوا الطريق السلطاني كله الى جحيم ، حتى ان الاتراك وضعوا جائزة « مائة ليرة رشادية » لمن يقتل جازي الهذال او يأتي به حياً . وقبل جازي كان ابوه ، متعب ، قبض الاتراك عليه مرة . لكن قبل أن يصبح الصباح هرب . رُوي انه وضع في القهوة مادة دوخت الحراس . وقيل انه رشاهم فتركوه يهرب ، وقد عوقب رجال حامية وادي العيون كلهم ، ونقلوا لانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمتعب الهذال وان يرسلوه الى حامية الكرك .

تذكر الناس هذه القصص وتوقعوا ان متعب الهذال سيعود مرة اخرى . الذين شعروا بالخوف قالوا ان هذا الزمان يختلف عن زمن الاتراك ، ولذلك لا يمكن لمتعب ان يرفع بندقية او ان يقتل احداً . أما الذين كانوا اكثر شجاعة وتفاؤلاً فقد وافقوا على ان متعب سيعود ، لكن اضافوا انه اذا عاد سيشعل الدنيا ، قد يقتل وقد يخرب ويمكن ان يحرق ايضاً . أما ان يترك الاميركان ، خاصة بعد ان فعلوا ما فعلوا في وادي العيون ، فامر مستحيل . قال نزال المعاني ، وهو يتطلع الى مكان بعيد :

- العتوم مثل حيات الشتا ، يختفون ، ينامون ، لكن اذا دِفت . . الله يستر .

رد محمد المدور وهو يهز رأسه ويبتسم :

- كيف تخلص وين تروح يا ابن الراشد ؟

وبنزق قال عبد الله المسعود الذي كان يسمع ولا يرغب في المشاركة :

- والله يا اهل العيون ما عندكم غير السوالف ، والزلة حتى يكفّ شره ، حتى يخلّص

روحه ترك الوادي وهجّ ، ما ظل بنفسه شي . وانتم تقولون فلاني وتركاني ، وكأنه ما عندكم سالفة غير ابن هذال .

وتطلع الرجال من جديد أحدهم في وجه الآخر . وهزوا رؤوسهم أسفاً وحزناً وانتظاراً .

وبدا بالنسبة لكل واحد ان سفر ابن هذال مهما طال ، وغيابه مهما امتد فلا بد ان ينتهي ولا بد ان يعود .

ورغم ان الكثيرين تصوروا ، اثناء ما كانوا يرقبون المشهد الغريب ، ان ما يشهدونه حلماً او ما يشبه الحلم ، الا ان توقف التراكتورات واحداً بعد آخر ، وذلك الصمت القاسي الذي خيم على هذه الارض « الجديدة » ، فبدا الوادي وكأنه جزء من الصحراء التي تليه ، عدا بعض التلال ، ثم تلك الاكوام من بقايا الشجر ، عند ذاك تأكد الجميع أن ما يرونه شيء حقيقي ، شيء قاس لئيم معادٍ ، وأقرب ما يكون الى الموت .

الى جانب هذه البقايا في السهل الفسيح ، ظلّ اولئك الذين اصروا على البقاء وتفاءلوا وتوقعوا وانتظروا . كانت حركاتهم بطيئة حزينة واقرب ما تكون الى اهتزاز الفزّاعات المصنوعة من الخرق وسعف النخيل اذا ضربتها الريح ، كانت تتحرك ثم تسكن تدريجياً حتى تصبح جزءاً من المدى الصلب المغبر اللامتناهي . وتعود مرة اخرى الى الحركة ثم الى السكون .

وابن الراشد الذي بذل جهوداً خارقة في الأيام الأخيرة ، بالتعاون مع قوات البادية ، على ترحيل اهل الوادي ، واختار الرجال العشرين الذين سيعملون في المعسكر ، كان مرتبكاً خائفاً من تشبث بعض الناس او تأخرهم في الرحيل ، أما عند عصر اليوم الثالث ، ومع سقوط الاشجار الأخيرة ، فقد صرخ في الرجال المتجمعين ، واخذ وجهه سمات الحدة والحزم :

- يا جماعة الخير . . ارحلوا برضاكم مثل ما رحل الجماعة قبلكم احسن ما ترحلكم العصا . كل واحد اخذ حقه المقسوم ، والامير يقول اللي يريد ديرته وعشيرته فالف سلامة ، واللي يريد مكان ، الحكومة حضّرت المكان .

بعد ذلك لم ير الناس ابن الراشد ، ولم يعد اليهم . ظل مرابطاً في المعسكر ،

وبدلاً منه جاء رجال البادية .

ابلغ رجال البادية من تبقى من اهل الوادي بضرورة الرحيل . رفضوا اية مناقشة . وبعد ان نادوا على الذين سيبقون ، ووضعوهم قريباً من المعسكر ، قال احد الجنود ، وكان ينظر الى الارض :

ـ معكم هذه الليلة ، وباكر قبل الغروب انتم بديرة ثانية . . . ونتلاقى .

في جو من الغيظ والتحدي والحزن والغضب وعشرات المشاعر الاخرى التي سيطرت على الناس في الوادي ، كانت أم الخوش الانسان الوحيد الذي لا يخضع لاية اوامر ، ولا يوافق على كل ما يجري . اذ بعد ان جمعت حاجاتها في كومة صغيرة ، ووضعت الى جانب الذين سيرحلون ، تبرع بعض الناس فحزم هذه الحاجات . كانت اشياء لقلتها وتنافرها ، تثير الضحك والحزن في نفس الوقت : ثياب قديمة ، تنكات فارغة متفاوتة الاشكال والاحجام ، قطع خشبية ، مجموعة من الحبال وعصا خيزران معقوفة الرأس . وام الخوش التي كانت ، ذلك الوقت ، قريباً من الظهرة ، تنتظر ، مثل عادتها كل يوم ، قافلة جديدة ، لعلها تسمع خبراً او ترى احداً . حين جاءت ووجدت كومتها ، وقيل لها انها سترحل مع الراحلين ، نظرت بسخرية ، ابتسمت اكثر مما تفعل في العادة ، وبهدوء جرت اشياءها وفصلتها عن الكوم الكبير الذي كان على شكل دائرة . جرتها الى مسافة اعتبرتها كافية وانفصلت عن الراحلين واشيائهم . فكت الحزمة ، فكتها بعناية . اخرجت بعض ملابس الخوش ، نفضتها في الهواء ، تشممتها ، ابعدتها عن عينيها قليلاً ونظرت اليها من هذه المسافة ، كما لو انها تتأكد من مظهرها وجمالها ، ثم قرّبتها الى وجهها مرة اخرى ، نظرت اليها بعناية لتطمئن الى سلامة القماش وحسن صنعه . تشممتها مرة ثانية ، حتى اذا ملأت روحها منها جمعتها ، وضعتها بعضها فوق بعض . ربتت عليها ، تكلمت معها ، قالت اشياء احزنتها وافرحتها ، اضحكتها ثم ابكتها . قامت بكل هذه الاعمال الصغيرة ، كما لو انها وحدها في الفلاة ، والناس الذين كانوا يتابعون ، وكأنهم يرونها لاول مرة ، رأوا في وجهها وجوههم ، واحسوا ان حياتهم مليئة بالحزن والانكسار . كانوا يتابعون تلك الحركات بصمت ، ولم يفطن الكثيرون الى الدموع تسيل من عيونهم . تذوقوا ملوحتها واحسوا بها كاوية فنظروا الى الأرض ولم يجرؤوا على أن ينظر الواحد في وجه الآخر . أما عندما ناموا ، وقد

فعلوا ذلك في وقت مبكر ، وكانوا مثل القطط في ليالي الشتاء فوق أمتعتهم وأشيائهم . وبعد ان بدأ الخدر ثم النوم ، سمع صوت أم الخوش . ظن من كان مستيقظاً ، او من أفاق على صوتها ، أنه في حلم ، أو في عالم آخر . فقد كان الصوت مرتجفاً وفيه لوعة . سألت بصوت عالٍ وهي في مكانها :

ـ يا جماعة الخير . يا اهل الوادي ، نسيت اسألكم عن متعب ، ابو ثويني . وين متعب ؟

لم يجرؤ احد على ان يجيب . امتد الصمت ثقيلاً كثيفاً ، سألت من جديد :

ـ يا جماعة . . اللي يعرف علوم ابو ثويني يعلمني .

واستمر الصمت . وقد رافقه ذلك التوتر الذي ينبيء بالخوف . لان اللحظة التالية يمكن ان تفجّر كل شيء . قال صوت خشن ، لا يعرف ان كان صوت رجل ام صوت امرأة عجوز :

ـ نامي يا بنت الحلال ، نامي والصباح رباح .

علت ضحكة مختنقة جافة ثم صوت .

ـ لا تخافوا يا جماعة الخير ، اللي يعرف علوم ابو ثويني يعلمني .

أما عندما استمر الصمت شديداً قاسياً ، واكثر حزناً من قبل ، فقد سألت بلهجة تعريض هازئة :

ـ الصباح رباح ؟ باكر تعلموني باخبار ابو ثويني ؟

وظل الصمت مثلما كان قاسياً مرتاباً ، واقرب ما يكون الى الخوف . تابعت بنفس السخرية :

ـ يا جماعة الخير ، البارحة . . لا قبل يومين او ثلاثة ايام . . . انا شفته ، سولفنا وقال لي : لا تخافي ، الخوش يرجع . وانتم تعرفون . انا صار لي سنين تني الخوش وانشد ، وانتم ، انشدكم عن ابو ثويني ولا احد يجيب ولا احد يسمع . . .

توقفت قليلاً ثم اضافت بمرارة :

ـ الله منكم يا اهل الوادي .

وانكفأت ام الخوش على نفسها .

الذين ظلوا ساهرين كانوا يسمعونها تحدث نفسها . لم يفهموا شيئاً مما كانت

بقوله ، ولم تعد الى توجيه الاسئلة او انتظار اجابة احد . والذين دخلوا في ملكوت النوم او اقتربوا منه ، كانت تصلهم اصوات رتيبة تتكرر باستمرار ، في لحظات تعلو الاصوات قليلا ، وفي لحظات اخرى تتوارى لكن لا تغيب ولا تتلاشى ، انها تشبه ولولة ريح مقبلة او استغاثة بعيدة ، أما عندما بدأ الصوت يتداخل ويتثنى ويغيب حتى التلاشي ثم يهب مذعورا ، فكان الذين غادرهم النوم . والذين لم يغادر عينيه منذ البداية ، يحسون في ذلك الصوت ندبا موصولا بالقلب او كأنه الشوكة في باطن العين . كانوا يغمضون اعينهم في رحلة طويلة مع الذكريات الحزينة ، وكأن تلك الرتابة الموجعة تجعل للاشياء نكهة مختلفة وطعم كطعم الجرح المفتوح

في وقت لا يدرى متى ، في صراع النور والظلمة ، هدأ صوت العجوز . لم يهدأ دفعة واحدة او بشكل مفاجىء ، وانما تباطأ وارتخى ، ثم اشتبك باللهاة تماما ، فاصبح مجرد نبرة تشبه قطعة من الدهن تذوب شيئا بعد شيء ، فلما غاب نهائيا ، ظن الذين لا يزالون يساهرون النجوم ان النوم راحة . . وقد نامت العجوز » .

* * *

مع غياب نجمة الصبح بدأت الحياة تدب في هذه الكومة من البشر مرة اخرى . بدأت رخوة مترددة ، لكن مع اتساع رقعة السماء وانفصال الارض عن الفضاء ، في هذا المدى المترامي الى ما لا نهاية ، اخذت الاجساد حركة اكثر وضوحا ثم اكثر قوة . الذين انتفضوا مع ذرات النور المتقدمة ، وكأن يدا خفية هزتهم وايقظتهم ، انفتحت عيونهم فذعروا او لم يصدقوا ، لان النوم اذا كان قد سرقهم وانساهم في اي مكان هم ، وفي اي وضع كانوا ، فان اليقظة الاولى لم تساعدهم على ان يعرفوا او على ان يستوعبوا ، لذلك هزوا رؤوسهم مرة بعد اخرى ، لكي يطردوا النوم ، ونظروا من جديد ليتأكدوا ، فلما تذكروا من جديد اغمضوا اعينهم في محاولة للغرق او النسيان ، لكن ذلك كان متأخرا او ربما مستحيلا .

قبل شروق الشمس استيقظ الجميع ، عدا ام الخوش . كانت تنام واضعة جبهتها على كومة الملابس ، في جلسة اشبه ما تكون بالصلاة ، كانت راكعة نصف ركوع ، وكأنها مترددة ولم تصل بعد . وكان شكلها مثل نصف الكرة . نظر اليها الكثيرون بحذر وكأنهم يخشون ايقاظها او يريدون لها ان تنام وقتا اطول لتعوض ما فاتها من نوم الليل . ظلت حركتهم حذرة واصواتهم بطيئة خافتة ، وظلت في نومها

المتحجر او في صلاتها غير المنتهية ، حتى بعد ان عوت الكلاب على اثنين من رجال البادية كانا يتجهان نحو المعسكر ، أما حين بدأ الصبية يتراكضون ، واقترب احدهم من أم الخوش ، فقد نقفه عبد الله المسعود بحصاة ، واشار عليه باصبعه مهدداً ، طالباً منه ان يبتعد . وقد سمع اقرب الناس اليه يقول بصوت منخفض :

- للفجر . . العجوز مانامت . . .

واضاف بعد قليل وهو يهز رأسه لوعة :

- الله يساعدها . . . ويساعدنا .

حين ارتفعت الشمس مقدار ذراع لم يبق شيء في مكانه . اعيد حزم الامتعة ، اشعلت النار ، تحرك الرجال من مكان الى آخر ليلقوا نظرة ، أما النسوة فقد كانت حركتهن بطيئة مترددة ، خلافاً للأيام السابقة ، وكأنهن لا يعرفن ماذا يجب ان يفعلن او كيف . أما الصبية الذين زادت حركتهم وعلت اصواتهم فلم يعودوا مبالين ان تحركوا في هذا المكان او في اي مكان آخر . حتى عبد الله المسعود الذي كان لا يبعد نظراته عن ام الخوش ، فقد اعتبر ان الوقت الذي مر ، منذ ان نقف الصبي بحصاة ، وطلب منه ان يبتعد ، كافياً ، فلم يعاود زجر الصبية او التكلم بصوت منخفض .

وظلت ام الخوش في جلستها تلك ، غير مبالية بكل ما يجري حولها ، لا تسمع ولا تتململ . كانت هادئة مستقرة في صلاتها او في غفوتها . ولئن كان رجلا البادية قد عادا من معسكر الاميركان ، فقد اقتربا كثيراً من هذه الكتلة البشرية . قال احد الرجلين بصوت حمّله مقداراً كبيراً من الود :

- يا جماعة الخير . . مشي السرى احسن لكم ، والا الشمس ذبحتكم

رد عبد الله المسعود بسخرية :

- لا تخف ، نمشي ، نمشي ، بس وكل الله يا ابن الحلال .

- لو مشيتم مع الفجر كان صرتم هالحين بالخبرة الشرقية او بعدها .

ابتعد الرجلان . نظر الصبية الى آبائهم متسائلين ما اذا حان وقت الرحيل . قال محمد المدور يخاطب نفسه بصوت عالٍ :

- اذا مشينا هالحين نمرح بالخبرة ، وبعد ما تكسر الشمس نعاود ونشيل .

سأل عبد الله المسعود ، وهو يشير الى ام الخوش :

ـ والعجوز ؟

ـ تمشي معنا .

هكذا رد اكثر من واحد . فسأل من جديد :

ـ واذا ما رضيت ؟

قال محمد المدور :

ـ رضيت او لم ترض ، نشيلها ونمشي .

ـ طيب . . شوفوها . اسألوها .

تقدم محمد المدور بخطوات قوية ، لكن حذرة ايضاً ، وضع يده على كتفها :

ـ ام الخوش . . . يا ام الخوش .

لم تجب ولم تتحرك .

ـ الدنيا صارت الظهر . . . يا ام الخوش .

لم تجب .

أمسك محمد المدور برمانة الكتف وهزها .

ـ يا ام الخوش . . .

تحركت قليلاً ، لكن لم تجب . هزها اكثر من قبل . مالت بعض الشيء نحو الجانب الايسر ، لكن لم تغير من اصرارها على ان تبقى كما هي : غافية ، معاندة . . . او ربما تواصل صلاتها . رفع كتفها قليلاً ، كانت حركته بين الشدة والحزم . ارتفع الوجه بمقدار شبر وتغير وضع الجسد ؛ أما حين ارتخت يده فقد عادت ام الخوش الى وضعها السابق : هوت على كومة الملابس وكأنها تقبلها ولا تقوى على مفارقتها .

قال رجل من بعيد :

ـ خلصونا يا جماعة الخير . .

تقدم عبد الله المسعود ، جثا على ركبتيه ، الى جانب ام الخوش . وضع يده على كتفها ، تطلع الى محمد المدور ، وتطلع الى الذين حوله ، وبكثير من الحنان الخائف همس :

ـ يا ام الخوش . . يا ام الخوش .

ولم تجب ، ظلت على حالها ، قال محمد المدور بنفاد صبر .

ـ نشيلها ونمشي ، وافقت ، ما وافقت . . هذا هو .

رد عبد الله المسعود :

ـ خف ربك ، يا ابن الحلال ، شلون نشيلها ؟ نعجة ؟ ما هي بنعجة !

قال رجل من بعيد ، وربما كان هو نفسه الذي صرخ من قبل :

ـ خلصونا يا جماعة .

تقدم محمد المدور اكثر من قبل ، صار فوقها تماماً ، وضع يديه تحت ابطيها ورفعها ، ارتفعت مثل كومة من الثياب بدت بين يديه كطفلة كبيرة . هزها هزاً قوياً موصولاً لعله يخرجها من هذا السبات القوي . كان الصبية يتابعون هذه الحركة بفضول وهم يصرخون ويضحكون ، أما الرجال والنسوة فقد ابتسموا . عبد الله المسعود الذي ظل جاثياً رفع رأسه . ليتابع هذه اللعبة التي تصرّ عليها ام الخوش في لحظات الرحيل الأخيرة . حين وقعت عيناه على وجهها انتفض كمن يفيق من نوم بشكل مفاجىء ، واحس بقلبه ينتفض خارج صدره . صرخ بألم :

ـ حرام عليكم يا جماعة .

وانتفض واقفاً ، امسك بام الخوش وأنزلها بهدوء . كبت على وجهها بنفس الوضعية السابقة ، جثا الى جانبها ، وقد بدا مرتجفاً خائفاً . امسك وجهها ، تطلع اليه بامعان ، ثم اداره قليلاً نحو الآخرين الذين اقتربوا . كان الوجه مصفراً جافاً باردا ، وقد فارق الحياة ، لما تأكد من ذلك اعاده ببطء فوق كومة الثياب .

قال بهدوء ، أقرب الى الاستسلام . مشى بخطوات قصيرة متعبة حتى آخر حلقة الرجال :

ـ الله ، سبحانه وتعالى ، اراحها وخلصت .

لم يصدق أحد ، أما حين اقتربت منها وضحة وقلبتها ذعرت وتراجعت فقد صرخت بصوت حاد يشبه صوت طفل :

ـ وينك يا ابو ثويني ، وين عينك تشوف .

وفي اقل من ساعة حُفر القبر ودفنت . أما الاشياء التي بقيت فلم يرض انسان ان تمسها يده ، فبعثرتها الريح ، ثم جاءت الرمال ودفنت ما تبقى منها .

واذا كان قد تقرر ان تغادر القافلة وادي العيون قبل الظهر ، فقد اصبح موت العجوز سببا كافيا لان تبقى ، وبقاء لقافلة يوما اضافيا ، كان الامل يراود الجميع ان يحصل في ذلك اليوم ما يغير هذا القرار ، ويجعل كل شيء قابلاً لاعادة النظر . أما جنود البادية فقد ظلوا بعيدين ، ورفضوا الدخول في اية مناقشة ، او الاجابة عن اية اسئلة تطرح . تظاهروا انهم لم يروا شيئا ، لكن كانوا مصممين ايضا ان لا يسمحوا بالبقاء سوى ذلك اليوم .

في الظلمة الزرقاء الناصلة ، ومع هبات ريح خفيفة منعشة ، كانوا ، بصمت ، قد انتهوا من استعدادهم للرحيل . أما حين تركوا وادي العيون ، او بكلمات ادق ، حين أجبروا على تركه ، بعد شروق الشمس بقليل ، فقد كانت بين الراحلين عائلة متعب الهذال . وكان فواز الكبير بين إخوته . شعلان وحده بقي في الوادي ، لكي يتابع تحصيل ما يستحق للعائلة من تعويض ، ثمناً للبستان الصغير الذي كان لهم ، وللأرض التي كانت عليها دارهم .

كان هديب قد سبقهم الى عجرة ، المحطة الأساسية على الطريق السلطاني ، وكان يفترض بفواز أن يتحمل مسؤولية الرحلة ، وان يتولى اموراً كثيرة ، إذ بعد أن ترك متعب الهذال وادي العيون بتلك الطريقة الغاضبة ، وخلف وراءه غباراً كثيراً وكلاماً أكثر ، بدأ رجال الامير ينظرون الى « بقايا » متعب الهذال نظرة مليئة بالحقد والتعصب ، وبدأت الاشاعات تسري ان العائلة لن تنال تعويضاً من أي نوع ، وانها سوف ترحّل بالقوة اذا لم ترحل باختيارها ، فاذا وصلت الى عجرة لتتدبر امرها بنفسها ، وهذا ، مع أمور اخرى ، ما اضطر هديب الى صرف النظر عن التعويض الذي تشبث به الكثيرون ، وانتظروا حول وادي العيون ، تاركاً الأمر لشعلان يتابعه . وسافر بسرعة الى عجرة لكي ينتظرهم هناك ، لينطلقوا بعد ذلك في

رحلة الى الداخل ، الى حيث لهم علاقات وقرابات ، سواء من ناحية الأب أو من ناحية الأم ، يمكن ان تحميهم وتؤمن لهم حياة فيها بعض الاستقرار الى حين عودة متعب الهذال .

فواز كان « الكبير » بين الاخوة . يمكن لهذا الوصف ان يثير الضحك والسخرية حين يذكر ، لأن عمره آنذاك لم يكن يزيد على أربع عشرة سنة . كان ضامراً شديداً مثل خيزرانة ، وقوياً كحبل مبلول ، أو هكذا كان يتظاهر وهكذا يريد أن يكون . كان يتعلق بذيل الناقة وهي مسرعة كالبرق ، ويزحف مثل قرادة حتى يعتليها ، لكي يثبت لكل انسان انه بلغ مبلغ الرجال .هذه الصورة تبدو بعيدة الآن ، متداخلة الى درجة لا يمكن للانسان ان يكون متأكداً ، فالأشياء والأشكال بعد وادي العيون اختلطت الى درجة كبيرة ، ومع ذلك فما تزال في الذاكرة طرية حاضرة بملامحها وروائحها ، حتى الكلمات التي ترددت همساً بين اثنين ، وتلك الأسئلة العارضة التي يتبادلها الذين يستعدون للرحيل ، عن الجبال والماء والطحين ، لا تزال ترنّ قوية حادة في آذان الباقين والراحلين .

قال هذيب ، حين وصلت القافلة الى عجرة :

ـ خفت كثيراً ان تجدوا صعوبة . . . أو ان تتعطلوا في الطريق . . .

قال هذه الكلمات وفي عينيه ذلك الاعجاب الذي لا يستطيع ان يخفيه ، وحين بدأ فواز بفك الأحمال تابع هذيب يحدث اخته :

ـ فكرت اكثر من مرة ان أرجع الى وادي العيون ، او ألاقيكم على الطريق .

قالت رضية :

ـ لقينا أكثر من ذيب على الطريق .

رد هذيب وهو يضحك :

ـ الذياب ما تخوف . . .

توقف لحظة ثم أضاف :

ـ ومعكم رجال .

هل كان فواز شجاعاً كما تصوره خاله أو الى الدرجة التي افترضتها اخته ؟ هل كان خائفاً او ظهر عليه الخوف خلال الرحلة ، والتي استمرت ثلاثة أيام ؟ كان شديد الحذر ، [illegible] انهم كانوا في قافلة من [illegible] أن توقف الكثيرون في

الخبرة وبعدها أو ذهبوا في طرق أخرى ، لكن وضحة الحمد كانت قوية الى درجة ان أية شجاعة ظهرت عليه أو حكمة ميزت تصرفاته تعود اليها . كان في عينيها ذلك الحزن النبيل بعد رحيل متعب . لم تدرك سبباً معقولاً لثورته وهياجه ثم رحيله . أطبقت شفتيها بحزم ورفضت ان تقدم سبباً او تفسيراً لما فعله . كانت تدرك في أعماقها ان روحاً خطرة حلت في قلبه وعقله وحملته على اتخاذ ذلك القرار . واذا كانت قد شهدت في أوقات سابقة ثوراته التي تصل حدود العزلة ثم السفر المفاجيء والغياب الطويل ، ففي هذه المرة لم تكن متأكدة انه سيعود مثلما فعل في المرات السابقة ، وان ظلت على يقين ان أمراً ما لا بد ان يقع في اللحظة الأخيرة ويغير كل شيء ، اذ لا يمكن لمتعب الهذال ان يتخلى دفعة واحدة ، خاصة في هذا الوقت بالذات الذي يغيب فيه وادي العيون الى الأبد . لا يمكن ان يرحل دون أن يفعل شيئاً ، دون ان يحرق أو يقتل ويدمر لكن لما رأت قراره الحازم القاسي ، وبذلك الشكل المفاجيء أيضاً ، ثم رحيله ، ظلت تنتظر لحظة بعد أخرى ، أن يظهر من جديد ، ان يدور مرة أو مرتين حول الوادي ، حتى اذا تعب ، حمل معه الحزن والحمى وعاد . أما ان تنقضي الأيام ولا يظهر او يبعث باشارة ، ثم يمضون ويرحلون فعلاً فقد أحست بحالة من الحزن بلغت حد اللوعة . هل يمكن ان يمضوا ويخلفوا كل شيء وراءهم ؟ هل يحتملون الذهاب الى مكان آخر وقد خسروا الدار والأرض والنخيل . . . وقبل ذلك كله خسروا الذي كان اهم ما في حياتهم : متعب الهذال ؟

لم يجرؤ احد على ان يسأل مثل هذه الأسئلة ، لكن ذلك الحزم القاسي الذي ظهر في تصرفات وضحة ، ثم صمتها ، اغلب وقت الرحلة ، وذلك الحزن الذي ظهر جلياً قوياً في عينيها ، والذي ما لبث أن أعدى الآخرين ، جعل كل شيء نهائياً ولا يمكن الوقوف في وجهه .

ومع ذلك فان تلك المرأة الرائعة الكبيرة ، وضحة الحمد ، هي التي قادت القافلة ، هي التي ساهمت بشد الأحمال على الركائب ، وهي التي فكتها . وإذا كان فواز قد امتلأ بالحذر طوال الرحلة ، وكان ، في كل لحظة ، يتوقع امراً خطيراً ، وهذا ما جعله عصبياً ، لا ينام الا قليلاً ، ولا يأكل الا كما يأكل الطير الخائف ، فلم تشأ وضحة ان ترى ذلك . ظلت بصمتها وجبروتها تعدي وتؤثر عليه

حتى وصلوا الى عجرة . أما حين التقوا بهديب ، وأراد أن يخفف عنهم ، ان يخلق جواً من المرح ، فقد اصطدم بصمتها ، وما لبث ان شاركها الصمت ثم الحزن .

الأيام الأربعة التي قضوها في عجرة ، عند إحدى القريبات ، لا يمكن ان تغيب من الذاكرة ابداً . لم يحصل خلالها شيء غير عادي ، ولم تصل أخبار جديدة من متعب الهذال أو عنه ، رغم أن قوافل الحج في تلك الفترة لم تكن لتنقطع يوماً واحداً .

في هذه الأيام الأربعة احس الجميع أن رحيلهم عن وادي العيون كان قاسياً عنيفاً ، مثل لطمة مفاجئة ، وقد ملأهم هذا الرحيل بشعور قاهر منذ الليلة الأولى في عجرة ، انهم وحيدون ، وانهم لا يستطيعون احتمال الحياة الجديدة . إذ بعد أن آوى الجميع الى الفراش ، وكان الصمت ، في تلك الليلة ، ثقيلاً مسيطراً ، عدا نباح الكلاب ، وبعض النداءات البعيدة المتفرقة ، في ظل ذلك الصمت ، سمع ، لأول مرة ، وربما منذ سنوات طويلة ، بكاء امه ، وضحة الحمد . كان بكاء مكتوماً متقطعاً ، لا تريد لأحد ان يسمعه ، أو أن ينتبه اليه . بكت مثل طفلة صغيرة ، لكن خفية عن الآخرين . كانت تعض على اللحاف ، تدفن وجهها في الوسادة . . . وتبكي .

في تلك الليلة أدرك فواز ، بشكل خاص ، ان ما حصل لهم ليس مجرد الرحيل عن مكان اسمه وادي العيون ، وليس خسارة من النوع الذي يستطيع الانسان ان يألفه او ان يتعود عليه . أدرك ان ما وقع فراق ، يشبه الموت ، وان لا شيء ، لا أحد ، يمكن ان يعيدهم الى ما كانوا عليه . ورغم الغضب الذي كان يملأ صدورهم على أبيهم ، لأنه تركهم يواجهون هذه المصيبة وحدهم ، فقد اختلطت كلماته الغاضبة مع بكاء وضحة تلك الليلة ، وبدا مفهوماً اكثر من الأيام السابقة ، وربما بدا أقل قسوة .

بعد تلك الليلة وحتى وقت متأخر ، لم ينم هذا الذي ترك الصبا مبكراً ، ودخل الرجولة قبل الأوان ، ظلت الأشباح تطارده ، وامتلأت تلك الليلة ، كما امتلأت الليالي التالية ، بذلك الانتظار الموجع .

في عجرة ، النقطة التي كانت تمر فيها القوافل عبر آلاف السنين ، حيث يلتقي الطريق السلطاني بطرق أخرى ، ثم يفترق عنها ، اختلطت قافلتهم بغيرها من القوافل ، وخلال الأيام الأربعة التي قضوها في عجرة ، اشتروا ما يحتاجون اليه من مواد تكفي للطريق وللفترة الأولى من اقامتهم في منازلهم الجديدة ، في الحدرة . دفعوا ، ثمناً لذلك ، كل ما حملوه معهم من دراهم . ولأول مرة يكتشفون ان الاماكن الأخرى ، والناس ايضاً ، يختلفون كثيراً عن وادي العيون . كانت كلمات الباعة قصيرة ، سريعة ، باترة . وكانت نظراتهم مليئة بالارتياب . أما محاولات هديب الحمد في تخفيض أسعار الطحين والسكر ، ومروره على عدد كبير من الباعة للمساومة والتأكد ، فقد انتهت الى نوع من التسليم الأقرب الى اليأس . قال لوضحة وأكياس الطحين ملقاة في ظل الجدار :

- لو كنا في غير هذا الوقت من السنة لحصلنا على أسعار ارخص وكميات أكبر من الطحين .

هزت وضحة رأسها بنوع من الموافقة ، تابع بصوت مليء بالمرارة :

- يقولون ان الدين المعاملة . . . لكن التجار لا يعرفون الا المال ، هذا هو دينهم .

وبصمت أقرب الى الحزن ربطت الأحمال في فجر اليوم الخامس ومشوا .

صغرت القافلة عندما تركوا الطريق السلطاني واتجهوا شمالاً . كانوا هيأوا انفسهم لرحلة طويلة ، وكان يفترض ان يصلوا بسرعة الى روضة المشتى ، لكي يلتحقوا بقافلة ذكر انها وصلت قبلهم الى هناك ببضعة أيام ، وقيل انها ستمكث أياماً اخرى بانتظار رعيتين او ثلاث من الابل ، ثم تواصل رحيلها بعد ذلك الى الحدرة وما وراءها .

إنها المرة الأولى التي تبدو لهم الأماكن معادية ، وفيها ذلك المقدار الهائل من القسوة ، واذا كانوا قد شعروا بثقة كبيرة حين التقوا بالخال في عجرة ، وتولى عنهم الامور كلها ، بما في ذلك قيادة القافلة . فقد بدت لهم وجوه البشر في الأماكن التي مروا بها ، قاسية صماء ، وأحسوا ان طعم الماء الذي شربوه مالحاً وأقرب الى المرارة . أما الأماكن التي توقفوا فيها فقد بدت لهم غير مألوفة ولا يمكن للانسان ان يتعود عليها . ووضحة ، التي كانت قوية متماسكة طوال الطريق من وادي العيون الى عجرة ، أصبحت الآن كالناقة المسنة ، كانت تنظر الى كل شيء نظرة بطيئة ، لكن خالية من التأمل . ولم تتكلم طوال الطريق ابداً ، حتى عندما كان يتعمد الخال سؤالها عن أمر من الأمور كانت تكتفي بأن تهزّ رأسها دلالة الموافقة او عدم المعرفة . وحين يجلسون الى الأكل تمتد يدها المعروقة في رحلة طويلة بين فمها وصحن الطعام ، وتظل تلوك اللقمة كأنها تتلهى بها او لا تريد ان تبتلعها ، أو ربما لا تجد في نفسها القدرة على ذلك . كانوا ، اغلب الأحيان ، يقومون عن الطعام قبلها ، تاركين لها شيئاً تأكله ، وكانوا يتحاشون النظر اليها أو ان يطلبوا منها ان تأكل المزيد ، لأن المرة الوحيدة التي فعلت رضية ذلك ، وكانت منفعلة ، أقرب الى الغضب ، وهي تشهد أمها تغرق في هذه الحالة من الكآبة والصمت القاسي ، ثم في حالة من المرض الغامض ، حين طلبت منها رضية أن تأكل ، لكي تكون أقوى ، نظرت اليها بطريقة جعلتها تكف تماماً ، وجعلت الجميع لا يحاولون الضغط عليها بعد ذلك .

كانت رحلة مليئة بالحزن الصامت . الابل تخبّ في مشيها الرتيب ، والشمس بعد شروقها بوقت قصير،تصبح عذاباً لا يمكن ان يحتمل . أما محاولات الحديث والصخب ، حين يتوقفون لجمع الحطب ، لإيقاد النار ، لاعداد الطعام ، فقد كانت تعويضاً أخرق عن الكلام الذي يجب ان يدور بينهم . كان كل

واحد ،بطريقته الخاصة ، يحاول احترام صمت الأم ومشاركتها في الحزن الذي تغرق فيه . وفي المرات القليلة التي حاولوا ان يتكلموا ، ان يقولوا شيئاً ، كان كلامهم قصيراً مبهماً ، وفي أحيان أخرى لا يعني شيئاً ، ولكن كان دوماً خافتاً لا يكاد يسمع ثم يبتر فجأة ، مخلفاً لدى كل واحد منهم شعوراً قوياً بالذنب . ورغم ان عادة الخال منذ عرفوه المزاح والغناء وبعض الأحيان المبالغة في إظهار الفرح او الغضب ، وكان هكذا الى فترة قريبة في وادي العيون ،ثم في عجرة. أما الآن فقد بدا انساناً مختلفاً . ومحاولات ابراهيم معه في أن يحمله على الغناء او الحدو ، او ان يقص عليهم بعض القصص من رحلاته ، انتهت هذه المحاولات الى الفشل ، رغم أن وضحة ، في حالات كثيرة ، كانت بعيدة أو لا تسمع .

وصلوا الى روضة المشتى ، كانت القافلة التي يفترض أن ينضموا اليها ويسافروا معها قد غادرت ، ومعنى ذلك ان ينتظروا اياماً ، وقد تمتد هذه الأيام لتصبح أسابيع ، خاصة وان الطريق التي تقود الى الداخل لا تمر فيها القوافل الا بأوقات متباعدة ، وتنقطع او تكاد في فترة الصيف .

لا يمكن تذكر تلك الرحلة وتلك الأيام بتفاصيلها الكاملة . لأن وضحة الحمد الصامتة ، المملوءة بكبرياء من نوع نادر ، بدت،خاصة في روضة المشتى ، اكثر جنوناً وتطرفاً من متعب الهذال .

هل الحمى التي أصابتها هي التي انقذت متعب الهذال ، أعادت تكوينه بنظر اولاده وجسّدت فيه براءة مطلقة ؟ هل هي الحمى التي تكلمت وأسرفت في الكلام ؟ لا تزال الكلمات أو بعضها قوية مشرئبة وأقوى من أية كلمات غيرها ، إذ بعد ان وقعت وضحة الحمد فريسة للمرض ، وتملكتها حمى قوية كثيفة جعلت تهذي في احدى الأمسيات ، قالت أشياء كثيرة ، لكن أوضح ما قالت : « يا أبو تويني انت السالم والدايم وين ما كنت وين ما طبّيت انت أحسن الرجال وزينة وادي العيون اللي قلته صار انت الصادق وهم ما صدقوا وادي العيون راح يا أبو تويني بعد ما رحت ما ظل فيه شي صار تواريخ وأمثال لا ترجع ولا تنول المربى قتّال الى حين ما يكبر العيال وبرجعتكم تكونون الغانمين ويكونون مكسورين وتأكلهم الندامة وأولادك هم النشامة يا أبو تويني وتجيك العلوم ! » .

بعد أسبوعين مليئين بالعذاب والانتظار والمرض بدأوا رحلتهم ، مرة ثانية ، من روضة المشتى الى الخدرة . كانت رحلة قاسية ، أقسى ما فيها الصمت الذي ملأها .

كانوا في القسم الأخير من القافلة ، هكذا ارادت وضحة . لم تقل كلمة واحدة منذ ان غادرتها الحمى وحتى وصولهم الى الحدرة ، لكن كل نظرة منها ، كل حركة كانت طوفانا من الاوامر الحازمة القصيرة ، الشديدة الوضوح . وكان الخال ، مثل طفل كبير ، يركض في كل الاتجاهات لعله يستطيع في النهاية ان يصل الى ما تريده اخته ، او لعله يدخل الرضا الى قلبها .

فبعد عدة ايام من المرض الحاد في روضة المشتى قدّر الجميع ان في هذا المكان ستكون النهاية ، فقد عافت الأم الأكل والشراب ، وغابت في عالم من الحمى والهذيان ، وبدأت نظرات هديب وحيرته تفضحه ، بل وكاد يصرف النظر عن مواصلة الرحلة ، خاصة وان اخبار القوافل انقطعت ، مما جعله يفكر ويقترح العودة الى عجرة مرة اخرى ، وهناك يمكن ان يفكر بهدوء وتتخذ القرارات المناسبة ، الا ان الصحوة المفاجئة لوضحة وبداية استعادتها لوعيها ولقواها ، ثم وصول قافلة صغيرة

متجهة الى الخدرة ، غيّر كل شيء ، جعل وضحة تتغلب على المرض ، ربما بدافع انها لا تريد الموت في هذا المكان . ودون كلمات كثيرة او مناقشة من اي نوع ، هزت رأسها ، دلالة الموافقة ، حين عرض عليها هديب مواصلة السفر ، اتُّخذت كل الترتيبات ليكونوا جزءا من هذه القافلة ، الصغيرة اليائسة ، وساروا .

كانت القافلة صغيرة ، عبارة عن ثلاثة من رعاة الابل ، مع ابلهم ، وعائلة سليم الهزاع وعائلة متعب الهذال ، وكان على هذه القافلة ان تقطع المسافة بين روضة المشتى والخدرة في خمسة ايام .

ما كادوا يصلون مشارف الخدرة حتى ارسل فواز مع احد الرعاة ليبلغ الاهل بوصولهم ، وحين جاء ثلاثة من العتوم ، اقرباء متعب الهذال ليلتقوا بالقافلة وليساعدوا ، وكان اثنان منهم يعرفان عائلة متعب الهذال معرفة قريبة مباشرة ، وقد مرّا قبل سنة او اثنتين في وادي العيون ، ومكثا هناك فترة من الزمن ، ما كاد الرجال الثلاثة يصلون ويسلمون حتى فوجئوا ان متعب الهذال لم يكن موجوداً . أما حين سألوا عنه ، وهل سيلحق بهم واين تركوه ، ما ان طرحت هذه الأسئلة ، وكان الجميع يستريحون عند البئر شرقي الحدرة ، حتى اكتشف الجميع ان وضحة دخلت في مرحلة جديدة ، فالصمت الذي بدأ في وادي العيون ، وكان نتيجة الحزن او ربما الارادة ، أصبح الآن شيئا مختلفاً ، إنه الآن أكبر من الحزن وأقوى من الرغبة أو الارادة .

فما كاد سليمان الهذيب ، وهو من اخوال متعب المباشرين ، يسأل ، وعيناه تدوران في هذه القافلة الصغيرة الحزينة ، عن سفرهم ومتى تركوا وادي العيون ولماذا واين تركوا متعب حتى طفرت الدموع من عيني وضحة . لم يكن السؤال بذاته يستوجب البكاء ، خاصة بالنسبة لامرأة بقوة وضحة وجبروتها . وسليمان الهذيب الذي بدا خائفاً عصبياً ، وادار نظره مرة اخرى في الوجوه باهتمام ، ثم ركز نظراته على هديب يريده ان يتكلم ، ان يقول شيئاً ، وهديب بنظراته الحائرة ، وكلماته المرتبكة زاد الأمر غموضاً . صرخ سليمان بحدة :

- يا جماعة الخير ، ندري ان الدنيا حياة وموت ، إذا كان متعب حياً قولوا ، وإذا كان قد مات قولوا .

رد هديب بارتباك ، وقد خرج صوته من حنجرته .

ـ وكّل الله يا رجل ، متعب حيّ وما عليه خلاف .

نظر سليمان الهديب الى وضحة وقال بقسوة :

ـ ما قولك يا ام ثويني ؟

هزت رأسها دلالة الموافقة ، مؤكدة ما قاله اخوها ، لكن سليمان الهديب لم يقتنع ، وجد ان في الامر ما يفوق طاقته على الاستيعاب ، صرخ :

ـ اذا كان الرجل حياً فالبكاء ما له حاجة .

هزت ام ثويني رأسها ، مرة اخرى ، دلالة الموافقة . قال سليمان الهديب بنزق :

ـ وانتِ ، يا ام ثويني ، اخت الرجال . . .

ومرة اخرى هزت رأسها ، ونتيجة هذا الغموض قال بنفاد صبر :

ـ يرحم والديك علمينا .

ومن جديد طفرت الدموع من عينيها .

ذلك الضحى ، ولا يُعرف ان كان أواخر الصيف او اوائل الخريف ، عند بئر المسبلة ، قبل الوصول الى الحدرة بمسافة قصيرة ، ذلك اليوم البعيد الذي لا يشبه اي يوم سواه ، والرجال الذين جاءوا بفرح من الحدرة لكي يستقبلوا عائلة متعب الهذال ، وكانوا ينظرون في وجوه هذه القبيلة التي جاءت من مكان بعيد ، وبشكل مفاجىء ، ومتعب الهذال نفسه ، رب العائلة ، لا يُعرف ما اذا كان حياً او قد مات ، وحين يُسال عنه يكون الرد هذه الكلمات غير الواضحة والدموع . . . فاي حزن يتولد في القلب واي حيرة تملأ النفس نتيجة ذلك كله ؟ ولماذا يكون المشهد ساخراً ومعقداً بهذا المقدار ؟

هكذا سأل كل واحد نفسه . وفي ظل هذا الحزن الاسود حاولت وضحة الحمد مرة اخرى ، حاولت ان تتكلم ، ان توضح ، ان تقول شيئاً ، ولكن تلك الاصوات التي خرجت من فمها كانت اقرب الى اصوات الحيوانات ، او الى الصراخ الساخر الحزين ، وتشبه تماماً ارتطام الاواني او رجع الصدى في وادٍ ضيق .

حاولت مثل قطة مخنوقة ان تتكلم . حاولت مثل طفل صغير ان تتكلم . صمتت فترة ليست قصيرة . استجمعت ارادتها كلها . جمّعت الكلمات في حلقها تريد ان تقذفها الى الخارج . غيّرت جلستها اكثر من مرة . وسليمان الهديب الذي كان ينقل نظراته في هذه القبيلة التائهة ، ويبتسم ابتسامات صغيرة ، دلالة الترحيب واكتشاف

شبه من نوع ما بين افراد القبيلة ومتعب الهذال ووضحة الحمد وتلك السلالة العريقة الموغلة في القدم ، والتي تمثل امتداداً ما لهذه العشيرة التي ضربت في كل الانحاء ، والتي تاهت في كل الاماكن ، واحساس يراوده ان الدماء لا يمكن ان تتغير ، وان الذين شربوا من وادي العيون ومن مياه الحدرة ، ومن عيون اخرى ، اياً كان مكانها ، فان هناك مياهاً خفية . مياه العتوم ، هي التي أمدّت كل تلك العيون بهذه المقدرة الفائقة على التجوال والضياع ثم العودة ، وان الحياة في هذه الصحراء ، مهما تنوعت وتغيرت وامتدت ، فانها ، كالموت ، لا بد ان تنتهي الى مكان بعينه ، الى نتيجة بعينها .

في هذا الجو العابق بالحزن والحرارة وانتظار اللحظة التالية ، وبعد الدموع التي انهمرت فجأة ، ثم اقتراب رضية ودعجة من امهما ومحاولتهما معرفة سبب هذه الدموع وهذا الحزن ، شدت وضحة الحمد وجهها فبدا قاسياً اقرب الى العداء . وحين حاولت ان تهمس مرة اخرى ، ان تقول شيئاً ، تبين لها ، للجميع ، انها لم تعد قادرة على ان تقول كلمة واحدة ، وان تلك الاصوات التي تعلمتها خلال فترة تزيد على الخمسين سنة قد غادرتها الى الابد ! لقد فقدت قدرة الكلام ، فقدت الكلمات والاصوات التي يعرفها الآخرون وغرقت في الصمت .

* * *

في الأيام الاولى قالت عجائز الحدرة اللواتي تحلقن حول وضحة الحمد ان الحمى ربطت لسانها ، وهذه حالة مؤقتة لا تلبث ان تنتهي . بعد ذلك بشهور قالت العجائز ان جنياً اسود دخل الى جسد وضحة ، بين المعدة واعلى الصدر ، دخل مع ماء روضة المشتى ، فاذا جاء الشتاء وانقضى فلا بد ان يخرج ، لان عليه ان يعود ويظل مرابطاً قرب ماء الروضة بانتظار القوافل التي ستأتي ! أما بعد ان انقضت السنة ، وانقضى معها الشتاء ، ثم بعده الربيع ووضحة كما هي ، فقد قالت زوجة سليمان الهديب ان حزن وضحة امتزج بالخوف ، ولا يمكن ان تعود الى حالتها الاولى ، الا اذا رجع متعب الهذال ، او اذا وقعت مصيبة اكبر من غيابه . . . ولم تقل زوجة سليمان الهديب اكثر من ذلك .

كان كل من حول وضحة يسمع بعض ما يقال . أما هي فكانت تسمع كل ما يقال . الذين حولها يسمعون ويمتلئون خوفاً وتساؤلاً ، وهي تسمع وتمتلىء سخرية

ومرارة في وقت واحد . كانت تنظر في وجوه النساء ، تسمع كلماتهن ، تتابع ما يجري ، حتى اذا اقترحت احدى العجائز نوعاً من العلاج هزت وضحة رأسها دلالة الرفض ، ولم تتردد في ان تقوم بخشونة وتخرج الى الفلاة تاركة النساء اللواتي جئن من اجلها .

نجمة المثقال ، عرافة حذرة وما حولها . قالت لما سئلت عن متعب الهذال انه لا بد عائد وقالت انه يتجول في الصحراء ، ينتقل من مكان الى آخر ، لكنه ينام في مكان بعيد ، وهذا المكان قريب من البحر ، وسيبقى هكذا سنين لكنه سيعود ، وحين يعود ستكون عودته كريح السموم ، قوية كاسحة . لا يمكن لاحد ان يردها او يقف في وجهها .

هكذا قالت نجمة المثقال . رغم ان الجميع قد يئسوا من عودة متعب الهذال وانقطعت اخباره تماماً ، وكف الناس في الحدرة وغيرها عن السؤال . فاي شيء كانت تنتظر هذه العائلة او ماذا تفعل ؟ هديب الذي بقي فترة ثم سافر في الصيف الكبير ، رغم ان الكثيرين ألحوا عليه بالبقاء ، عدا وضحة ، التي هزت رأسها بموافقة كبيرة حين سألها ان يسافر ، هل يعود هديب بعد فترة قريبة ام راح كما فعل متعب ولن يعود قبل سنوات مثل عادة الكثيرين من اهل هذه المنطقة ؟ وشعلان الا يزال في وادي العيون ام ذهب يبحث عن ابيه ؟ وابن الراشد هل اكتفى بالسخرية مثلما كان يفعل من قبل ام جاءت فرصته الآن لكي ينتقم من متعب الهذال وذريته كلها ؟

كان على فواز ، باعتباره اكبر اولاد متعب الهذال الذكور ، ان يسمع ويفكر واخيراً ان يتدبر امر العائلة . كان يترجم نظرات أمّه وتصرفاتها، وكان يحس بالعذاب الذي يفيض من هاتين العينين ولا يعرف ماذا يجب عليه ان يفعل .

اما الاقرباء الذين رحبوا بعائلة متعب الهذال ، واصبح ترحيبهم شفقة بعد ان عرفوا ما حلّ بوادي العيون ، فكانوا ينظرون الى هذه العائلة نظرة يمتزج فيها العطف بالتساؤل والحزن . وكانوا يعتبرون ان اولاد متعب لا يزالون صغاراً ، وما عليهم في هذه الفترة الا ان يأكلوا ويشربوا وينتظروا . لعل شيئاً ما بعد ذلك يقع ، ولم يقلوا حزن وضحة بعد ان اضطروا لقبول صمتها . أما الحذر الذي كان يبديه الأولاد ، خاصة فواز ، فلم يفهموا له سبباً ابداً . كانوا ينظرون اليه باستغراب ويتساءلون

شعلان ظل في وادي العيون . لا احد يستطيع ان يجزم هل ظل من اجل التعويض ام من اجل العمل في الشركة ، حسب وعد ابن الراشد ، في محاولة لاسترضاء عائلة متعب الهذال وكسبها ، لان الامرين اختلطا الى درجة ان شعلان ، لما سئل بعد ذلك بسنوات ، لا يتذكر ايهما حدث قبل الآخر : التعويض ام العمل في الشركة . ولانه ظل في وادي العيون ، الوادي الجديد الذي لا يمتُّ باية صلة الى ذاك الذي كان في يوم من الأيام ، عدا الاسم ، فقد افترض ، بعد غياب ابيه ، انه يؤسس قبيلة جديدة بدل تلك التي كانت ، ولان كل واحد من الاثنين عمل بطريقة تختلف عن الآخر ، فان القبيلة الجديدة التي أسسّها شعلان ، والتي امتدت وانتشرت ، ولا تزال لها بقايا حتى الآن ، بدأت من وادي العيون ايضاً ، لكن لم تترك مكاناً الا ووصلت اليه ، وان يكن ضمن نسق مختلف ، وظلت تدور في ذلك الفلك الذي يجعل كل الاشياء ، مهما ابتعدت عن المركز متصلة به ومحكومة بقواعد قاسية لافكاك منها . . هذه القبيلة الجديدة تمثل امتداداً ملعوناً لمتعب الهذال ، للعتوم ! للحياة التي كانت .

انزرع شعلان في وادي العيون ليس كالنخيل الذي كان يملأ الوادي فيما مضى من الأيام ، وانما مثل الاعمدة الحديدية التي تنغرس في كل مكان ، وخلال فترة قصيرة

تغير شعلان ، تغير كثيراً ، حتى اسمه في المرحلة الجديدة تغير ، اصبح « شعلان الشركة » . وفي احيان اخرى « شعلان الاميركاني » ، بدل شعلان بن متعب الهذال ، لتمييزه عن شعلان ابو الطبيخ ، متعهد التموين في وادي العيون وشعلان الاعور حارس البوابة الخلفية في المعسكر ، اضافة الى ان شعلان بن متعب تعلّم اللغة الانكليزية اسرع من الآخرين وقبلهم ! ظل الكثيرون ، لفترة طويلة ، يضحكون من التسمية الجديدة ، ويعتبرونها مزاحاً لا بد ان ينتهي كما بدأ ، لكن والأيام تمر ، وشعلان يستمر في عمله في الشركة وينتقل من مكان الى آخر ، من قسم الى آخر ، فقد زال تقريباً اسم متعب الهذال ، عدا المعاملات الرسمية ، واحتل مكانه الاسم الجديد . واذا ظلت هذه التسمية تثير التساؤل والاستغراب لمن يسمعها لاول مرة ، وبعض الاحيان تثير شعلان نفسه ، او اي واحد من ابناء متعب الهذال واقربائهم ، فما لبث ان تعوّد عليها ، وتعود عليها الآخرون ايضاً . . . الآ اذا استعملت للتعريض او السخرية .

كيف يمكن للاشخاص والاماكن ان يتغيروا الى الدرجة التي يفقدون صلتهم بما كانوا عليه ،وهل يستطيع الانسان ان يتكيف مع الاشياء الجديدة او الاماكن الجديدة دون ان يفقد جزءاً من ذاته ؟

ما كادت الرسالة الشفوية التي بعث بها شعلان الى الحدرة ، طالباً فيها مجيء فواز ، وأيّ من الاقارب الآخرين ، الى وادي العيون « لان العمل في الشركة مضمون » حتى انفجرت زوبعة في رؤوس اثنين من العتوم ، وملأتهما بالحاح لم يستطيعا مقاومته أو التغلب عليه .

ففواز الذي قضى في الحدرة سنة وبضعة شهور ، ما كادت تصله رسالة شعلان حتى دوت في رأسه تلك الاغنية القديمة : السفر . أما عندما تمثل له وادي العيون فلم يعد قادراً على الاحتمال او الانتظار . تدبر الأمر بسرعة ، وقرر ان يسافر مع اول قافلة . وصويلح ، الابن الاوسط لسليمان الهذيب ، لم يتردد ولم يطل استعداده ليكون جاهزاً . أما وضحة التي وافقت اسرع مما كان يتوقع الكثيرون ، فقد جعلت سليمان الهذيب يشفق على هذا الصغير الذي « يضيع كما ضاع ابوه » واذ حاول معه ليؤخر سفره ، في ان يذهب صويلح قبله ، حتى اذا وجد له عملاً بعث وراءه . لكن ازاء إصرار فواز ، الذي بلغ حدود العناد ، وفي محاولة غامضة لاقامة رمز من نوع ما

لهذه العائلة التي بدأت تتآكل وتضيع ، لم يطل الأمر . . . وهكذا تأهب هذان الشابان للسفر على ان « يعودا في اقرب وقت ، والا يتجاوزا وادي العيون » كما أكّد عليهما سليمان الهذيب وكرر مرات كثيرة .

لما وصلا الى وادي العيون بدا المكان لفواز وكأنه لم يره من قبل . لم تعد له صلة بالوادي الذي تركه ، لم يبق فيه شيء من الاشياء القديمة . حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طرية منعشة ، اصبحت الآن لفحاً قاسياً خلال ساعات النهار كلها ، وبرداً ينفذ الى العظم في ساعات الليل المتأخرة . أما الرجال الذين تجمعوا ، لا يعرف من اين ، في البيوت الخشبية والخيام ، فقد كانوا خليطاً عجيباً من البشر ، ولا يشبهون اياً من الذين يمكن ان يلتقي بهم الانسان . حتى القوافل التي التقى بها فواز في عجرة خلال رحلته الاولى ، او في رحلته الثانية ، واثارت استغرابه وحيرته ، تبدو له الآن مخلوقات متجانسة لها ملامحها ونكهتها . هنا ، في وادي العيون ، هذه المرة ، يشهد مخلوقات غريبة متنافرة مملوءة بالصمت والحزن ، وبدا له كل واحد من العمال اشبه بطير من الطيور ضل سربه وطريقه فلا يستطيع البقاء ولا يقوى على متابعة الرحيل .

كاد فواز ان يرجع خلال الساعات الاولى لوصوله ، فبعد ان بقي مثل كلب الى جانب الاسلاك الشائكة ، بانتظار عودة شعلان ، لا يعرف من اين ، طلب منه ومن الآخرين الذين وصلوا معه او بعده ان يبقوا بعيدين عن بوابة المعسكر ، دون اي توضيح ، ودون اية نظرة تحمل معنى من معاني الفهم او التعاطف ، وقد نُحّوا اكثر من مرة لما اقتربوا ، وفي مكانهم ذاك سفّت عليهم الرمال وغطاهم الغبار ، حين بدأت تلك الآلات الكبيرة المجنونة تدخل او تخرج من المعسكر .

ساعات من العذاب والمعاناة تفوق عذاب الرحلة كلها . لا لم تكن الرحلة ، هذه المرة ، تشبه رحلتهم الاولى ، حتى مياه روضة المشتى كانت اطيب مذاقاً ، وكان الناس اكثر رغبة في الحديث . أما هنا ، خلال الساعات الواقعة بين الظهر والغروب ، فقد شعر ان وادي العيون الذي كان ، والذي عاش فيه سنين عديدة واستقبل القوافل والرعايا والطيور ، لم يعد مثلما كان . وشعلان الذي وصل ساعة الغروب ، بدا غريباً بشكله وملابسه : الخط الاسود الذي كان على شكل زغب خفيف فوق شفته ، طفح بقوة اعلاناً عن شارب تكوّن واكتمل ، اضافة الى لحية

اقرب ما تكون الى شعرات متفرقة نبتت بشكل غير منتظم وكانت شديدة الاثارة ، خاصة وان الغبار وبقع الزيت ملأ وجهه فبدا مضحكاً ، تحت ظلال تلك الطاسة الحديدية البيضاء ، التي وضعها على رأسه .

بعد ان تعانقوا وتحدثوا وصمتوا عند بوابة المعسكر ، لم يستطع شعلان ان يدخلهما الى الخيمة التي كان يعيش فيها الا بصعوبة . استغل علاقات كانت له بحارس البوابة ، ولجأ الى الاحتيال والمزاح ، اضافة الى اساليب شيطانية . فوضع الطاسة الحديدية على راس صويلح ، فوق الغترة ، وفي مهرجان من الصخب والضحك دخلوا جميعاً الخيمة الكبيرة .

في الخيمة كان عدد من الرجال . كان بعضهم نائماً ، وآخرون يهيئون الطعام ، وكان غيرهم يلعبون الورق ويتصايحون . تطلع اليهم فواز بعجب يصل حدود الدهشة . أما الخيمة الكبيرة فقد بدت اكبر من اية خيمة رآها ، اكبر من مضافة ابن الراشد ، واكبر من مضافة ابن هذيب ، لكن بدت صغيرة ايضاً الى درجة لا يمكن ان تستقبل زائراً جديداً . أما الرجال فقد ظلوا بنفس الوضعية ، حين دخل هؤلاء الغرباء . بعد ان القوا عليهم نظرات عابرة لا تعني شيئاً ، ورغم ان شعلان ، بدخوله الصاخب ، حاول ان يخلق جواً جديداً ، ثم حين همس في اذن فواز ان احد الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق قريب لهم إلاّ ان كل شيء بقي على حاله .

في كل المرات ، في كل الاماكن ، لم يحس فواز بالخوف كما احس في هذه المرة وفي هذا المكان . كيف ينام هؤلاء الناس وأين ؟ كيف يأكلون ؟ لماذا يختلفون عن الناس في وادي العيون ايام كانوا فيه ، وعن الناس في عجرة والمشتى وحدرة ؟ بدا له ان كل واحد من هؤلاء يعيش بمفرده ، وليس له صلة ، من اي نوع ، بالآخرين .

كان يريد ان يتحدث الى شعلان عن كل شيء . لكن الكلمات التي حضرها طوال الرحلة ، والتي تضمنت تفاصيل كثيرة منذ ان غادروا وادي العيون ، وحتى الآن ، غابت من رأسه تماماً . لم يجد عنده القدرة او الرغبة في الحديث . ابتسم اكثر من مرة حين التقت نظراته بنظرات شعلان ، أما حين سأله عن امه واخوته ، عن الحدرة ، وما اذا كانت تشبه وادي العيون ، فقد كانت اجابات فواز مضطربة غير واضحة ، وحين التمعت صورة متعب الهذال قال فواز انهم لم يسمعوا شيئاً عنه منذ ان تركوا الوادي ، وكان يريد ان يسأل شعلان ، تمنى لو كانا وحيدين . لو كانا في

مكان آخر . قال شعلان ليتغلب على هذا الجو :

- تعالوا نغسل ايدينا ونحضّر عشانا .

بصمت مشوا . اقتربوا من براميل المياه . كانت الارض هناك زلقة ، مليئة بالمياه الراكدة . وكانت رائحة المكان كريهة . أما حين لامست المياه وجوههم فقد احسوا ان لها طعماً غير مستساغ ، ربما نتيجة الصدأ ، او نتيجة اضافة مواد غريبة . سأل صويلح ما اذا كانوا يشربون من هذه المياه ام لا . وحين هز شعلان رأسه بالايجاب تطلع الى فواز وقال بحزن :

- كانت مياه وادي العيون اطيب .

قال فواز ، وكأنه تذكر شيئاً زاهياً ، او يريد ان يخلق مشكلة :

- لو كان ابي هنا الآن لما شرب من هذا الماء .

نظر اليه شعلان نظرة مليئة بالتساؤل والمرارة ، وربما كان يقاوم شيئاً في داخله ، بعد لحظات من الصمت الحزين ، قال كأنه يكلم نفسه :

- احمد ربك ان الماء موجود .

- ما هي علوم ابوي يا شعلان ؟ .

وبطريقة بارعة ، وكأن اسبابها ولدت في تلك اللحظة ، صرخ شعلان على احد الرجال ، كان يمر قريباً من البراميل باتجاه خيمة بعيدة . وحين التفت سأله عن أشياء لم يفهم صويلح وفواز منها شيئاً أو ماذا تعني ، ولما فرغ من ذلك قال ، وقد بدا على وجهه الحماس :

- نلحق على السوالف ، هالحين لازم نحضر عشانا .

وانصرفوا الى تحضير العشاء .

في الفضاء الخارجي ، بعيداً عن الخيام ، وسط الصحراء ، جلس الثلاثة . كان القمر صغيرا، وقد ظهر مبكراً هذه الليلة ، لكن دون ان يحس به أحد . كانوا كالخائفين أو كالمتآمرين ينظرون حواليهم إذا سمعوا صوتاً ، إذا رأوا شبحاً . لم يرفعوا رؤوسهم نحو السماء ولا أحسوا بالبرودة التي بدأت تملأ الجو ، فقد طغت عليهم أحاديث من نمط غريب : كيف كان وادي العيون ، وكيف هو الآن . وهؤلاء الأميركان الشياطين الذين جاءوا من أجل الماء ، لماذا يحفرون الأرض دون هوادة ، دون توقف ولا يخرج منها شيء ؟ ومياه وادي العيون ومياه الصبحة ومياه الآبار الكثيرة التي حفرت لماذا كلها تُصب في ثقب داخل الأرض ، ولا تعطى للناس ؟ هل إن في باطن الأرض اعداداً هائلة من الجن تحس بالعطش وتصرخ ليل نهار ولا يسمعها الا هؤلاء فجاءوا لكي يسقوها ؟ هل احترق الجن في باطن الأرض ويريد الأميركيون ان يطفئوا هذا الحريق ، ولذلك يصبون الماء ؟ هل توجد حياة ثانية تحت الأرض ، وفيها بساتين وأشجار وبشر وكلهم يحتاجون الماء ويطلبونه ؟

كان الشبان الثلاثة يفكرون بهذه الطريقة ، ويطرحون على أنفسهم ، على بعضهم بعضاً ، أسئلة يعرفون أن لا أحد يستطيع أن يجيب عنها ، وكانت هذه الأسئلة تتوالد بسرعة ومعها الخوف والحيرة . وإذا كان شعلان يعتبر نفسه أكثر خبرة وأكثر

صلة ، فقد كان أيضا أكثرهم خوفاً . لقد نشأ هذا الخوف فجأة قبل عدة أسابيع ، حين بدأ يظهر له أبوه . كان يظهر فجأة في أطراف المعسكر خلال الليل . لم يقل له أحد ذلك وإنما رآه بنفسه . لم يستطع أن يبوح بهذا السر لأحد ، كتمه في نفسه وظل يترقب وينتظر منذ تلك الليلة وحتى الآن .

رآه أول مرة قريباً من بوابة المعسكر ، لكن ما أن تأكد منه وركض نحوه حتى ركب ناقته وسار . صرخ يناديه ، لكنه أسرع ثم اختفى . ورآه بعد ذلك مرات عديدة ، لكن في كل هذه المرات لم يستطع أن يدركه ، كان يسرع راكضاً ثم يختفي ، ونتيجة لذلك ولد الخوف في قلبه ، لم يعد قادراً على كتمان هذا الخوف أو تحمله . كان متأكداً أن أباه هو الذي يتجول حول المعسكر ، وبعض الأحيان يدخل الى داخله . لم يشكّ في ذلك مرة واحدة . القامة هي قامة متعب الهذال والمشية هي مشيته ، خاصة حين ينحني أو حين يركض . أما الناقة فهي ناقته العمانية البيضاء ذاتها . ولا يمكن أن يخطىء في ذلك أبداً .

تعمد شعلان بعد أن رآه أول مرة قريباً من البوابة ، أن يذهب في نفس الوقت الى نفس المكان ، لكن لم يأت . بعد عدة أيام رآه قريباً من براميل المياه ، في الليل المتأخر ، كان تحت الضوء مباشرة ، وبدا وجهه مضيئاً وحركاته خصبة ، وكانت تصدر منه أصوات فرحة ، أشبه ما تكون بالصهيل ، لكن ما كاد يتقدم نحوه بضع خطوات ، وكانت المسافة بينه وبين البراميل لا تزال كبيرة ، حتى التفت قليلاً ثم نهض بسرعة واختفى ، تلاشى تماماً . . . أما في المرات التالية فقد رآه في أماكن أخرى ، قرب نقطة الحراسة الخلفية ، في ظل الخيمة الكبيرة ، وقد تأكد من ذلك حين وجد آثار الناقة أيضاً .

ومنذ الليلة الأولى أصاب شعلان شيء يشبه المرض . انه يتعدى الخوف ويتعدى الوهم ، لأنه متأكد من وجود أبيه ، ولأنه يراه . صحيح أنه لم يستطع أن يتحدث معه ، أن يوقفه أو أن يسأله ، ربما لأن أباه لا يزال غاضباً منه ، لكنه مع ذلك لا يشك ولا يتوهم ، وإذا كان أبوه لا يزال يهيم في المناطق القريبة من وادي العيون ، رافضاً العودة ورافضاً أن يتكلم مع أحد ، فسوف يستطيع أن يقنعه ، بطريقة ما ، في وقت ما ، أن يعود .

الآن ، حين اختار شعلان هذا المكان ، وبوجود اثنين من أقربائه المباشرين ، يمكن أن يفصح عما يعذبه ، عما يدور في رأسه ، ويمكن أن يسألهما دون خوف ما إذا كان هذا الذي يراه هو متعب الهذال ذاته ، أباه ذاته أم شخصاً آخر . ما إذا كان طيفاً أم حقيقة . وهو حين بعث يريد أخاه فواز ان يوافيه مرة أخرى ، وفي وادي العيون بالذات ، كان يحترق رغبة لكي يتأكد ، كي يشاركه الأقربون ،ولكي يعرف أيضاً ما إذا كان أبوه قد رجع ، إذا جاءت منه أخبار أو رآه أحد .

في الظلمة التي كانت تتكاثف لتصبح مثل سياج سميك ، كانت أصوات العمال في الخيام وضحكاتهم تتناهى الى الثلاثة ، وإن بدت بعيدة متقطعة ؛ وكان المصباح اليدوي الذي يستعمله الحارس بين فترة وأخرى يخط شبحاً طويلاً باهتاً ، وهو يمر برخاوة على الرمال قريباً من الأسلاك الشائكة ، دون أن ينير شيئاً . كان الحارس يفعل ذلك ، أحياناً ، لكي يتغلب على ضجره ووحدته أكثر مما يستعين به على الرؤية .

وشعلان الذي اختار هذا المكان بالذات ، وبدأ هذه البداية عن وادي العيون والجن ، كان يهيىء الاثنين الى اللحظة المناسبة ، فاذا جاء أبوه ، إذا رأى أباه ، مهما كان بعيداً أو رافضاً . . أو حتى لو كان طيفاً ، فلا يمكن أن يتركه يفلت منه هذه المرة ، لا بد أن يصرخ عليه ، أن يركض وراءه ، أن يقول له إن فواز معه . المهم أن يصل الى نتيجة ، أن يقتنع بشيء وأن يقتنع معه الآخرون .

كانت عينا شعلان تدوران بنظرة تتجوز نصف الدائرة . بدأ الأمر غريباً لصويلح . سأل وهو يتلفت :

ـ اتنتظر أحداً ؟

هز شعلان رأسه بطريقة لا يمكن أن تفهم ما إذا كانت نفياً أو تأكيداً ، وترافقت هزة الرأس مع حركة خائفة ، وبعد صمت طويل قال كأنه يهذي :

ـ الله يلعن هذي الأيام . . كل شيء يحيّر في وادي العيون .

قال فواز بانفعال :

ـ كان وادي العيون أفضل الف مرة .

ـ لو سمع الناس كلام الشايب كان وادي العيون مثل ما تركته ، لكن ما أدري ويش دهى الناس .

هكذا رد شعلان ، وكان لا يزال يتلفت .

بدأ القمر يميل نحو الغرب . كان لدى الثلاثة أشياء كثيرة يمكن أن يقولوها ، لكن الخوف الذي كان يسيطر على شعلان جعلهم جميعاً خائفين أيضاً . انهم في هذا المكان ، ضمن الأسلاك الشائكة ، غرباء الى درجة لا يستطيعون أن يتصوروا أنهم كانوا هكذا في وقت من الأوقات ، أو في مكان من الأمكنة ، وكانت تدور في صدورهم وعقولهم رغبات وافكار ومخاوف لا نهاية لها . قال شعلان بنوع من اليأس :

ـ الله يلعن الشيطان اللي يفرّق الناس . . .

سكت قليلاً ثم زفر وسأل من جديد :

ـ ما سمعتم أخبار أبوي . . يا فواز ؟

نظر إليه فواز نظرة متسائلة حزينة . كان قد أخبره ، منذ اللحظات الأولى لوصوله ، وبسرعة ، أن أخبار أبيه انقطعت قبل أن يتركوا وادي العيون ، وأن لا أحد سمع شيئاً أو جاء بخبر منذ ذلك الوقت . قال شعلان بحزم :

ـ وين يروح ؟ يغيب سنة ، سنتين ، لكن لازم يرجع .

قال صويلح وقد أحس بالحزن الذي استبد بالأخوين :

ـ وكّلوا الله ، يا جماعة الخير ، الغايب علومه معه ، ولازم يرجع .

قال شعلان بشكل مفاجيء :

ـ أول أمس شفت أبوي !

نظر إليه الاثنان نظرة فرحة ومتسائلة ، دهش فواز ، كان يريده أن يتكلم ، أن يتابع ، لكن حين سحب وجهه الى الناحية الثانية ، وكأنه لا يريدهما أن يتطلعا إليه ، وحين غرق في الصمت ، دون أن يوضح أو يضيف كلمة واحدة ، سأل فواز ، وخرجت كلماته خائفة سريعة :

ـ متى رجع ؟ وين هو ؟

رد شعلان وهو يستدير تماماً ، وينظر في عيني فواز :

ـ هذه الساعة ساعته ، وكَد ، وكَد زين وتشوفه !

تلفتوا جميعهم الى أكثر من جهة لعلهم يرونه آتياً ، لكن حين لم يروا شيئاً سأل

فواز بلهفة :

ـ وينه ؟ متى تركته ؟

وبدأ شعلان يقصّ عليهما كيف رآه ، أين رآه ، أما حين حاول أن يكلمه ، أن يناديه ، فكان يختفي فوراً . كان كالبرق يظهر ثم يغيب ، لا يريد من أحد أن يقترب منه ، أو أن يزعجه . كان يدور في المعسكر طوال الليل ، مرة راكباً ومرة راجلاً ، وكان يشرب ويغسل يديه من مياه البراميل .

روى ذلك بانفعال ممزوج بالخوف ، وكان بين كلمة وأخرى يتلفت لعله يراه آتياً ، وما كاد يصل الى هذا الحد حتى قال بما يشبه الرجاء :

ـ انتبهوا يا جماعة . . هذه الليلة إذا جاء عرّتنا به وما تركناه لو انقلبت السماء على الأرض !

. . . أيام طويلة من الانتظار القاسي القلق . لم ينم الثلاثة خلالها إلا كما تنام الذئاب ، لم يعرفوا طعم الراحة ولم يهدأوا في الليل والنهار . انتظروا الى جانب براميل المياه ، عند بوابة المعسكر ، عند الأسلاك الشائكة ، قرب نقطة الحراسة الخلفية . انتظروا في ساعات الليل الأولى ، وفي ساعات الليل المتأخرة . انتظروا عندما اكتمل القمر وصار بدراً ثم بعد أن اخذ يتأخر في الظهور أو لم يعد يظهر . . . ولم يأت متعب الهذال !

حتى في ساعات النهار ، حين يذهب شعلان الى العمل ، لا يعرف أين أو ماذا يعمل ، ويبقى فواز وصويلح وبعض العمال الآخرين الذين عملوا في الليل ، كان فواز يتعمد الخروج والقاء نظرة طويلة متأنية على المعسكر كله . كان يتفرس في الوجوه ، يتطلع باهتمام الى الزوايا الظليلة قرب الخيام أو قرب البيوت الخشبية لعله يراه ، لكنه لم يظهر .

في إحدى المرات ، وكانوا قد فرغوا لتوهم من تناول عشائهم ، وقد تمددوا على الرمل ، زعق شعلان برعب :

ـ هذا هو . . . هذا هو ، ناظروا ، بحّروا زين .

التفتا الى حيث أشار ، انقطعت أنفاسهما وانعقدت ألسنتهما من الخوف . نظرا

بإمعان . نظرا في أكثر من جهة . كانت الظلمة الخفيفة ، ظلمة أول المساء ، قد هبطت ، والرؤية لا تزال ممكنة ، وإن تكن غائمة ، مظللة ، تحدد الخطوط لكن لا تبرز الملامح . نظرا بإمعان ! تطلعا الى حيث كانت يد شعلان ممدودة ، تطلعا إليه . كانت الدهشة الممزوجة بالخوف تملأ وجهه . هز رأسه مرتين أو ثلاث مرات . وكأنه يزيل عن عينيه غشاوة . امسك بيد فواز فوق الساعد وضغط بقوة وخرجت كلماته من بين أسنانه :

ـ ـ مرّ من هناك ، كان على ناقته ومسرعاً كأنه الطير .

وعبق وجه شعلان حتى بدا أقرب الى السواد . تطلع إليهما بغيظ وألم . كان يريدهما أن يلتفتا بسرعة أكبر ، أن يكونا أكثر انتباهاً .

ومن جديد حين تطلعا الى حيث أشار شعلان ، كان على البعد اثنان يسيران . خرجا لتوهما من خيمة تقابلهم . كان الاثنان واضحين مرئيين حين خرجا ، ولما سارا ، وهما الآن يتوجهان الى بوابة المعسكر . هل يحتمل أن يكون ما رآه شعلان طيفاً أو مجرد وهم ؟ وهل يمكن أن يمر الانسان بهذه السرعة وبهذه الخفية دون أن يراه أحد ؟

لم يتكلموا خلال فترة بدت طويلة وثقيلة . كان الصمت مثل خيمة حديدية فوق رؤوسهم . وكانت النسمات اللينة الصغيرة وهي تعبر تحمل رائحة الرطوبة وربما المطر . قال شعلان موضحاً :

ـ هذه المرة كان أبعد المرات وأسرعها .

قال صويلح متسائلاً :

ـ يا ولد عمّي . . خاف شفت غيره !

نظر إليه شعلان بعذاب . كان في عينيه رجاء أقرب الى التوسل ، كان يريد أن يوافقه ، أن يصدقه . اقترب من فواز ، صبّ نظرات حزينة في عينيه . كانت نظرات متسائلة : « وأنت . . شفته مثل ما أنا شفته ؟ » ظل فواز صامتاً وقد اجتاحته حالة من الخوف ، وبكثير من اليأس قام شعلان واتجه الى الخيمة .

بقي فواز وصويلح فترة طويلة في مكانهما . كانا صامتين كالحجارة ، وكانا مسلوبي الارادة كمياه تهبط منحدراً ، لا يعرفان ماذا يفعلان ، وليس لديهما أية رغبة

لأن يتحدثا ، لأن يتحركا . وإذا كان فواز مقتنعاً أن شعلان قد رأى شيئاً ، طيفاً أو شبحاً ، أو ربما يكون قد رأى أباهما ، فقد كان صويلح في شك مما قاله شعلان ، أكثر من ذلك بدا مستغرباً !

في إحدى اللحظات قال صويلح وكأنه يحدّث نفسه :

ـ أخاف يكون شعلان مسبوع .

توقف لحظة ثم أضاف بتساؤل :

ـ وعسى ما يكون مريض ؟

رد فواز بحدة :

ـ ما به شيء أبداً

وبنوع من اليأس قال وهو يمشي :

ـ ولازم نشوفه .

هذه الليلة ، الليالي التي قبلها ثم الليالي التي تلتها ، وطوال أسبوعين وبضعة أيام لم يناموا ولم يعرفوا طعم الراحة . صحيح أن صويلح شاركهما هذه الليالي ، كان قريباً منهما ، كان معهما ، لكنهما ، هما ، ولدا متعب الهذال . كانا شيئاً مختلفاً ، وعاشا حالة مختلفة .

هل قال صويلح لأحد شيئاً ؟ هل تحدث عن الموضوع بطريقة أو أخرى ؟

إن شيئاً من هذا قد حصل ، إذ ما مر يومان إلا وجاء ابن الراشد . لما رآهم في زاوية الخيمة عند الغروب أبدى دهشة لفتت نظر الموجودين كلهم . سأل بطريقة ساخرة :

ـ ها . . ما خلصنا من متعب الهذال وبلاياه ؟

وحين أبدى شعلان استغرابه ، ونظر إليه بطريقة قاسية ، سأل من جديد وهو يشير الى فواز :

ـ أنت . . ولد من ؟

رد شعلان بحزم واختصار :

ـ تراك نسيت الناس يا أبو محمد . . .

ومن جديد نظر إلى فواز يتأمله ويهز رأسه ، تابع شعلان :

- أولاد متعب الهذال ، يا أبو محمد ، ما وراءهم بلاء !

ضحك ابن الراشد ليتغلب على الحرج ، إذ أحس أن الهجوم الذي بدأه لا مبرر له ، قال شعلان مواصلاً تعريضه :

- وطويل العمر ، متعب الهذال ، له ردّة .

التفت ابن الراشد الى الناحية الثانية ، وقال مخاطباً رجلاً كان يتبع الحديث باهتمام :

- إذا بغيت صاحبك يدوم فحاسبه كل يوم .

رد شعلان وقد بدا منفعلاً :

- إذا كان بيننا حساب ، يا أبو محمد ، فهذا شليلنا ، ويا مائة مرحباً ، حنا جاهزين !

ضحك ابن الراشد ضحكة صاخبة وتقدم من شعلان ، وبعد أن هدأت ضحكته قال بطريقة مختلفة عن السابق :

- يا ابن أخي ، أنتم العتوم بكم خصلة ما تخلصوا منها . . .

قال هذا وهو ينقل نظراته من وجه لآخر ، وقد خيّم الصمت ، حتى اذا خلق رغبة لدى الجميع سكت . سأل شعلان بغضب وحدة :

- وما هي الخصلة اللي تقول عليها يا أبو محمد ؟

رد ابن الراشد وهو يقهقه :

- هذه هي : الحمق ، تغضبون وتثورون من كلمة !

وجلس ابن الراشد على الأرض قريباً منهم وبدأ يتحدث بلهجة أبويّة :

- الله يذكره بالخير ، أبوك ، يا شعلان ، قلنا له اصبر ، قال لا ، قلنا له الذلول الطيبة تردف اثنين يا متعب ،قال لا ؛ قلنا له الدنيا اليوم بحال وباكر تصير بحال ثانية ، قال لا . . . وراح . . .

توقف لحظة ، بدا أن كلامه غير واضح ، أضاف :

- العتوم كلهم لا يعرفون إلا طريقاً واحداً ، ولا يميزون بين اللي ينفعهم واللي يضرهم ، لا يميزون بين الصديق والعدو .

رد شعلان بنفاد صبر :

- إذا كان بينك وبينه سالفة يرجع بالسلامة وتسولفه بها .

- يا وليدي ما بيننا شيء ، وإذا رجع نسولف . . لا تخف .

وانتظروا أياماً ، أياماً طويلة قاسية . كانوا ينتظرون متعب الهذال وينتظرون العمل . لم يظهر متعب مرة أخرى . لم يره شعلان بعد تلك الليلة ، وقد ظل صامتاً أقرب الى المرض في اليوم التالي لتلك الليلة ، ثم في الأيام التي بعده ، لكنه بدأ يتحسّن تدريجياً بعد ذلك ، وإن لم يزايله السهوم ولم ينم نوماً طبيعياً عميقاً . أما فواز فقد ظل خائفاً شديد التنبه لأية حركة ، لأي صوت ، وكذلك لم يستطع أن ينام نوماً متصلاً . وإذا كان شعلان قد تعود أن يخرج الى الفلاة في بعض الليالي ، ربما لانتظار أبيه ، أو للبحث عنه ، فقد كان فواز يتقلب على فراشه ليشعر أخاه ، بطريقة ما ، أنه لا يزال بين النوم واليقظة وأنه مستعد لمرافقته في رحلته الغامضة ، ومع ذلك ظل متردداً في أن يقول له ، في أن يشعره ، ولم يعد أيضاً إلى طرح الموضوع بشكل مباشر ، ربما تجنباً لأي سوء فهم .

بعد أسبوعين من الانتظار جاء ابن الراشد ، وبعد جولة قصيرة ، وقبل أن يترك المعسكر قال لفواز وصويلح ان الشركة لم توافق على استخدامهما ، ويجب أن يتركا . كان مسرعاً وكأن وراءه أشياء كثيرة تنتظره . قال ان فواز لا يزال صغيراً ، وعليه أن ينتظر سنة أو سنتين قبل أن يتقدم بطلب العمل مرة أخرى ، وقال ان صويلح عينه كريمة ولا يصلح للعمل في الشركة ، قال ذلك بسرعة وأدار ظهره ومشى .

حين رجع شعلان من العمل ونقلا اليه ما ابلغهما ابن الراشد هز رأسه ، وخرجت الكلمات بطيئة نازفة من بين شفتيه :

- كنت أعرف . . .

بصق على الأرض وتابع :

- منة الله ولا منة ابن الراشد .

تطلع إليهما بحزن ، كأنه يعتذر . هز رأسه عدة مرات ثم أضاف يخاطب نفسه :

- لما قلت له قال : « أهل العيون أولى من غيرهم » .

وأشاح بوجهه الى الناحية الثانية ، وقال بسخرية :

- قبل كم يوم قال لي واحد من جماعته : « ابن الراشد يقول . واحد من العتوم عتم عينا ، وشعلان بن متعب تعب الدنيا . . . وهذا يكفينا ! » .

وخيم الصمت .

في نفس الليلة ، وبإلحاح خفي ، غير جارح ، غادرا وادي العيون الى عجرة في طريقهما مرة أخرى الى الحدرة .

هل هو ماء روضة المشتى يصيب بلعنته واحداً آخر من عائلة هذال ام ان هناك قوة خفية غامضة ، قاسية وشديدة العتو ، هي التي تلاحقهم واحداً بعد آخر حتى تمحقهم ، فلا تترك احداً او اثراً منهم ؟

في طريقهما الى الحدرة من وادي العيون ، بعد ان مكثا اسابيع عند شعلان ، واضطرا الى قضاء عشرة ايام في روضة المشتى ، بانتظار ان يواصلا الرحلة ، وفي اليوم الثالث لوصولهما الى الروضة ، جنّت الدنيا : خلال ساعات قليلة لم تبق قطرة ماء واحدة في السماء ، او في الامكنة الاخرى ، من وادي الجناح حتى الضالع ، الا ووصلت الى روضة المشتى . امتلأت الاودية بماء لا يعرف من اين اتى . وروضة المشتى المتربصة ، المطلة ، امتلأت بالخوف والفرح معاً . كان الناس ينظرون باستغراب الى السماء ، الى المطر ينهمر بجنون كما لم يفعل هكذا من قبل ، لكن سرعان ما يركزون انظارهم على الوادي الذي تهدر فيه المياه ، وتزداد لحظة بعد اخرى . كان الاطفال الى جانب الشيوخ ، والنسوة على بعد خطوات ، وقد اصابت الجميع حالة من الذهول . كان الشيوخ هم الاكثر فرحاً . كانت وجوههم التي عذّبها الزمن الطويل وملأها بالغضون والذكريات ترى شيئاً لم تره من قبل ، وكانت

الاصوات تترافق مع حركة الايدي ، مع حركة الاجساد ، وكأن حياة جديدة تتسرب اليهم مع كل قطرة مطر ، مع كل دفقة تهدر في الوادي .

هل يمكن ان تُنسى تلك الساعات والأيام الحافلة البراقة ؟ وهل تمحي تلك الاصوات التي تشبه الأدعية الغريبة المفاجئة ، او ربما تشبه الأناشيد ، وهي تخرج صاخبة قوية من فم الوادي ، من افواه القرب التي انفتحت من السماء ؟ وهل الاصوات التي تسمع ، خاصة اصوات الشيوخ والاطفال ، بنغم يشبه صوت الريح ، هي اصوات بشر ام اصوات تهبط من السماء او ترتفع من اعماق المياه ؟ كان صوت « لا اله الا الله ، لا اله الا الله ، لا اله الا الله » الذي يتفجر من كل مكان يولّد الرهبة ، ويخلق حالة من الخوف والقشعريرة . الصغار أخذوا وانفعلوا فامتلأت حركتهم بالرهبة والحرص ، وكانت تساؤلاتهم تجد إجاباتها السريعة الواضحة في تصرفات الرجال وادعيتهم . وحتى النسوة اللواتي كن بعيدات اول الأمر ، ما لبثن ان اقتربن واقتربن ، وتداخلت اجسادهن باجساد الرجال ، لكي يلقين نظرات مباشرة واكثر قرباً من الوادي على المياه القوية الهادرة ، وكن اكثر فرحاً واقرب الى النشوة ، وهن يرددن اصواتاً تشبه الاغاني او الأناشيد ، وكانت تصدر عنهن دون خوف ودون تحفظ .

كان يمكن لهذه الذكرى ان تغيب ، ان تتراجع ، لو ان متعب الهذال لم يظهر .

كان المطر يملأ الأرض والسماء . كان الوادي الضيق عند بداية روضة المشتى يدفق بجنون ، وكان الناس يقفون مذهولين يتطلعون .

في اللحظة الكبيرة ، حين وقف الرجال بخوف وقد جاءت الامواج القوية العاتية ، فتراجعوا الى الخلف خطوات ، وطلبوا بانفعال غريزي ان يبتعد الجميع ، ان يتراجعوا ، في تلك اللحظة وصوت واحد ردده الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، ربما دون وعي « لا اله الا الله . . لا اله الا الله » ، في تلك اللحظة بالذات ، ومع التماعة البرق التي شقّت السماء ، وخلقت خوفاً فوق الخوف ، ظهر متعب الهذال . بدا كبيراً شامخاً ، واقرب الى البياض . كان يحمل عصاه بيمناه ويشير الى الناس من الضفة الثانية للوادي . كانت هيئته شديدة القوة والوضوح ، حتى لبدا اقرب من الضفة الثانية ، او كأنه في وسط الماء . كان صوته ناصعاً واقوى من صوت الرعد وتدفق المياه وصراخ الاطفال والنسوة .

قال لكل الذين اجتمعوا في روضة المشتى : « لا تخافوا . . . لا تخافوا من اللي تشوفوه هالحين » .

وحين خيم الصمت ، وقد امتلأ الناس كلهم بالخوف والانتظار جاء صوته مرة اخرى : « هذا هو آخر الخير » .

تراجع قليلاً الى الوراء . بدا تماماً على الضفة الثانية للوادي . دق الأرض بعصاه ، نظر الى الجميع نظرة قاسية ، وهز رأسه ثلاث مرات ، وقبل ان يلتفت الى الوراء هدر صوته من جديد : « الخوف من الجايات » .

وحين تراجع الناس مرة اخرى الى الوراء خوفاً من مداهمة السيل ، وحين هدرت موجة كبيرة داخلة فم الوادي بقوة جمل هائج ، تقدم فواز ، اندفع كما يندفع السهم ، كما تندفع الطلقة يريد ان يصل اباه .

اثناء حديثه الى الناس ، حين تراجع الى الوراء ، لما دق عصاه بالارض ، نظر الى فواز ، نظر ولم يبتسم مرة واحدة ، كان اقرب الى الغضب ، وكان فواز خائفاً من غضبه . تمنى في تلك اللحظة لو يرضى عنه ، لو يمتلىء في عباءته . كان يريد ان يمسك عصاه ، ان يهزها ، ان يقول له : « بعد غيابك يا ابي تركنا وادي العيون ، هم الذين اجبرونا على ان نتركه . شعلان وحده الذي بقي . ذهبنا يا ابي الى الحدرة . انت تعرف الحدرة وتعرف الناس هناك . وامي ، يا ابي ، لم تعد تتكلم . منذ رحلت يا ابي لم تتكلم ، ونحن ، كلنا ، مرضنا ، وانتظرنا ان تعود ، كل يوم نقول اليوم . لم ننم ليلة واحدة كما ينام الناس في الاماكن الاخرى . وانت يا ابي لماذا لا تأتي ، لماذا لا تزورنا ؟ الا تحبنا يا ابي ؟ الا تريد ان ترانا ؟ من اغضبك يا ابي ؟ واذا كان الكبار قد اذنبوا فنحن الصغار ما ذنبنا ؟ انا كبرت يا ابي ، اكبر مما كنت تعرفني . كنت عند شعلان يا ابي . انتظرناك في وادي العيون . انتظرنا عند البراميل ، وعند الأسلاك » .

وكان يريد ان يقول ايضاً اشياء اخرى كثيرة غيرها . لكن كلمات متعب الهذال القوية ، وجهه القاسي الملامح ، ثم خوف الناس وتراجعهم ، وتلك الاصوات التي هدرت في لحظة غطت الظلمة فيها كل شيء ، جعلت فواز حائراً عاجزاً ومملوءاً بالخوف . أما حين تراجع متعب الهذال الى الضفة الثانية من الوادي ، حين ابتعد

قليلاً ، فقد احس فواز ان قوة تدفعه ، ولولا ان صويلح ، ولولا ان ثلاثة كانوا يقفون بجانبه لاستطاع ان يعبر الوادي ، ان يصل الى ابيه ، لكن ما كاد يندفع ، ما كاد يصيح بأعلى صوته « يوبه يا يوبه » وينتبه صويلح حتى امسك به ، عقله تماماً كما تُعقل الابل ، حدّده كما تحدد الخيل . اراد ان يفلت منه ، صاح بأعلى صوته ، رفس ، شتم ، حاول من جديد ان يفلت ، ان يتحرر من القبضات القوية ، لكن فجأة وجد صويلح يبطحه ارضاً ويقف فوق صدره .

كان متعب الهذال هناك . كان اولاً وسط الماء ، وسط الوادي ، وبعد ان قال ما قاله ، بصوت منادٍ ، واقوى من صوت مؤذن ، تراجع الى الخلف ، تراجع بضع خطوات ، لكن كانت ملامحه واضحة قوية ، وكانت نظراته تدور في الوجوه . دق عصاه ثلاث مرات ، كانت الأرض قوية تحت العصا ، سمع فواز الدقات رنانة حادة ، احس العصا تنغرز في جنبه . أما حين امسك به صويلح ، كما يمسك السخل ، وادار رأسه كما يدار رأس الخروف وقت الذبح ، فقد التقت عيناه بعيني ابيه . انه متأكد من ذلك . كانت نظراته هذه المرة اكثر رأفة ، وقد ابتسم له ابتسامة صغيرة . أما عندما حاول ان ينهض ويندفع بقوة مرة اخرى ، ليلحق به ، فقد امسك به صويلح ، امسك به من قدمه واوقعه ، لامس وجهه الارض ، ولما وقع ، لم يعد يستطيع الرؤية ، ولم يسمع الاصوات ، ولم ير الا الارض الموحلة المالحة الاقرب الى المزرعة . عندما نهض مرة ثانية رأى أهل روضة المشتى جميعهم ينظرون اليه . كانوا كلهم فوقه او قربه مثل كتلة النار . كانوا يطوقونه وقد بدوا شديدي الخوف . حتى وهم يفسحون له طريقاً واسعاً . تلفت حوله . نظر الى الضفة الثانية من الوادي ، قبل ان ينظر اليهم ، بدت له الضفة خالية تماماً . لقد غادر ابوه مكانه . تطلع الى الوادي كله ، من بدايته حتى النهاية ، لكن لم يره . تطلع الى الوجوه حوله لعله يكون قد جاء لنجدته . لمساعدته . ليدفع عنه هؤلاء الذين يريدون منعه من الوصول اليه . تطلع الى الوجوه بمعدل . تطلع الى كل وجه . لكنه لم يره .

التفت الى صويلح . كانت نظرات صويلح غاضبة وخائفة . كره تلك النظرات . احس انه وحيد ، وحيد تماماً . جثا على الارض ، ورفع وجهاً حزيناً الى صويلح .

ـ الم تره ؟ اين هو ؟ كان هناك . . . كان هناك .

تطلع اليه صويلح ، وتطلع الى الرجال والاطفال والنسوة ، وحين رأى الجميع ينظرون اليه هكذا نهض بسرعة وركض .

بعد ان ابتعد فواز ، وصويلح وراءه يتبعه راكضاً ، شق برق غاضب لماع السماء كلها ، واختلطت اصوات الناس باصوات الرعد ، نظر فواز الى السماء ومع الامطار التي كانت تتساقط كانت دموعه تتساقط ، وكان يصل اليه صوت كثيف متداخل « لا اله الا الله . . لا اله الا الله » .

وبعد ذلك هطلت الامطار بقوة اكبر .

ما كاد السيل ينتهي وتشرق الشمس ، حتى ظهرت البادية كأنها طير من طيور القطا : لامعة ، طرية ، نزقة ، وكأنها لم تستقبل بشراهة لا تعرف الانتهاء هذا المطر كله . والفرح الزاهي الذي بدا في وجوه الناس وتصرفاتهم ، انتقل الى الحيوانات فبدت اكثر حدة ، ربما تعبيراً عما تحس به في داخلها من قوة جديدة ، لكن مقابل هذا الفرح فان حزناً ممزوجاً بالخوف سرى في جسدي هذين الشابين اللذين كانا في تلك القافلة الصغيرة التي تقطع البادية من روضة المشتى الى الحدرة . الرعاة وبعض المسافرين اندفعوا دون مبالاة ، وبخفة ايضاً ، يبحثون عن النباتات المبكرة بعد مطر الأيام السابقة ، أما هذان الشابان فكانا يغرقان في الحزن والتأمل . صحيح ان هموماً مشتركة تجمعهما ، لكن لكل واحد منهما ايضاً همومه الخاصة . ان يكون فواز بن متعب الهذال فيجب ان يدفع ضريبة ذلك ، لان ابن الراشد لا ينسى ، والثأر هو الثأر ، سواء أكان هو صغيراً ام لا . حين يطلب العمل يمكن ان يكون صغيراً ، أما حين يأتي وقت الثأر فان لديه من السنوات ما يكفي لكي يُقتل ، لكي يدفع الثمن . ابن الراشد يرى ما يلائمُه ، انه الآن السيد ، يرفض ويقبل ، لا احد يستطيع ان يجبره . واذا كان متعب الهذال قد أسمع ابن الراشد وغيره ما يجب ان يسمعوا ، وكان قوياً كالحصان ، لا يخاف ولا يتردد ، فمتعب الهذال الآن في جوف الظلمة

يظهر ويغيب ، لكن دون ان يحس به احد ، وكأنه غير موجود ، او لم يعد حياً . بكلمة اخرى واضحة : لم يعد يخيف احداً .

أما حزن صويلح الهديب فكان مختلفاً ، حتى الصمت الذي يثقل عليه إنه من نوع آخر . حين ترك الحدرة كان متأكداً أنه سيجد عملاً ، هكذا أكد شعلان في رسالته الشفوية القصيرة . قال صويلح لأبيه ، لنجمة المثقال ، ولآخرين كانوا موجودين ، انه سيغيب فترة في وادي العيون ، سنة او سنتين . حتى اذا عاد تزوج فوراً . أما اذا شرّق ، كما فعل الكثيرون من أهل الحدرة والضالع ، فقد تمر سنوات قبل ان يعود . لا يستطيع ان يحتمل سنوات او ان ينتظر ، لان خلال هذي السنين قد تتزوج وطفة ؛ بالاضافة الى ذلك وادي العيون قريب ، رمية حجر ، كما يقولون . سيعود سريعاً وقد جمع مبلغاً من المال . هكذا فعل عدد من معارفه واقاربه ، وهكذا يتكلم الجميع . انه مثلهم ، اقوى منهم ، حتى العين التي قال عنها ابن الراشد انها كريمة يرى فيها اكثر من الاخرى ، يرى كل شيء ، أما هذه النقطة البيضاء في وسطها فكانت نجمة المثقال ذاتها تؤكد انها « نقطة حسد ولا بد ان تغيب مع الأيام » ثم ماذا يفيد ابن الراشد او غيره ان تكون هذه النقطة او لا تكون ؟ انه يعمل بيديه ، بجسده كله ، لا بعينه . واذا كان بعض اطفال الحدرة قد ذهبوا الى الجامع وقضوا سنوات يتعلمون القرآن عند عبد العزيز الحوقلي ، فانه لم يفعل مثلهم ، يرفض منذ كان صغيراً ان يتعلم ، وابوه لم يلح عليه كثيراً ، ولذلك لم يفكر كما فكر غيره ان يشغل نفسه بقراءة رسائل المسافرين او ان يكتب لأهل الحدرة !

ابن الراشد يقول له ان لا عمل له في الشركة لانه كريم العين ، ذبحه تماماً بهذه الكلمة ، لو قال اي شيء آخر لفهمه وتقبله . كان يجب ان يرد عليه ، ان يناقشه ، لكن المفاجأة ، ثم سرعة ابن الراشد في مغادرة الخيمة ، لم تمكناه من ان يقول كلمة واحدة . قال في نفسه بنوع من الاسى : « شعلان لا يفوّت كلمة لابن الراشد ، لو كنت مثله لما تجرأ على ان يقول ما قاله » .

في هذا الجو الشتائي الرائع ، والقافلة تخبّ مسرعة حيناً ، ورخية متمهلة حيناً آخر ، كانت الهواجس والافكار ومشاعر الانكسار تملأ هذين الشابين ، ورغم الاضطراب الذي يحسان به ، ورغبة الكلام ، وحتى العراك ، فان قوة اخرى كانت تشدهما الى الخلف ، كانا يشعران انهما مثقلان بذنوب لا يقويان على حملها ، وانهما ،

بالتجربة ، لم يكونا بمستوى الثقة التي وضعها الآخرون فيهما ، وها هما يعودان الى الحدرة ، ليس كما خرجا منها ، وانما ذليلان خائبان . كيف سيواجهان اسئلة الناس وعيونهم ؟ واذا كانت هناك اشياء يمكن ان تقال وتفهم ، فان اشياء اخرى لا يمكن ان تقال ، حتى لو رآها الآخرون او عرفوا بها . ماذا يستطيع فواز ان يقول اذا سئل ؟ اليس هو كبير العائلة بعد شعلان ، او هكذا اصبح منذ ان غاب متعب الهذال ؟ الا ينظر اليه الآخرون هكذا ؟ هل يجرؤ على القول انه رفض لصغر سنه ؟ وابن الراشد اذا عرفه بعض الناس وفهموا لماذا يمكن ان يرفض فهل يفهم الآخرون ؟

وصويلح . . . اقوى شباب الحدرة ، اكثرهم صخباً في المناسبات وليالي القمر ، وأجرؤهم على التحدي ، هل يتصور احد ان يرفض لهذا السبب بالذات ؟ وماذا تظن وماذا تقول وطفة ؟ وفي الاماكن الاخرى الا يفرّقون بين الحسد والعين المطفأة ؟ وهل يمكن ان يرفض الانسان في العمل نتيجة سبب تافه كهذا ؟

طوال خمسة ايام لم يتبادلا الا كلمات قليلة . لا لم تكن كلمات واضحة وانما اصوات اقرب الى الريح او هدير المياه ، حتى ان فواز نفسه خاف ان تكون مياه روضة المشتى قد ضربته فأصيب بالخرس كما فعلت بأمه . تراءى له ان عفريتاً سكن جسده ، وهذا العفريت هو الذي يمنعه من الكلام ، وفي محاولة لان يحارب هذه الهواجس ، لان يتغلب عليها كان يحرّك لسانه ، يتكلم مع نفسه ، وبعض الاحيان يصرخ على ذلوله دون حاجة او ضرورة . فعل ذلك عدة مرات ، وفي كل المرات كان صويلح يلتفت اليه مستغرباً متسائلاً ، أما اذا تكلم فان صوته يبدو غريباً وكأنه يصدر عن انسان آخر ، ولذلك ما لبث ان وجد نفسه يغرق في الصمت .

حتى الفلاة التي امتلأت بغناء صويلح وصخبه حين كانا ذاهبين الى وادي العيون ، غرقت في سكون رصاصي ثقيل ، وبدت السماء في الليل بعيدة والنجوم مطفأة ؛ أما صويلح الذي كان مملوءاً بالحيوية والنشاط في الذهاب فقد اصبح شخصاً آخر في العودة . كان اغلب الوقت في نهاية القافلة ، بعيداً ، متوحداً ، وبدا هزيلاً اقرب الى المرض . وفي اليوم الأخير ، في روضة المشتى ، كاد يرجع الى عجرة ويشرّق ، لكن عدل في اللحظة الأخيرة .

قبل ان تنتهي الرحلة بيوم واحد ، قبل ان يصلا الى الحدرة ، وحين نظر احدهم

في وجه الآخر بطريقة معينة ، بدا انهما متفقان على المؤامرة . قال صويلح بيأس كامل :

ـ اسمع يا فواز . . اذا وصلنا الحدرة نقول لاهلنا اننا بعد شهر نرجع الى وادي العيون . . ابن الراشد قال لنا غيبوا شهراً وارجعوا .

ويتذكر فواز ان صوتاً قوياً مفاجئاً يشبه التماع البرق وبداية الرعد ملأ الفلاة عندما بدت الحدرة . أما عندما واصل صويلح الغناء فقد استغرب كل الذين كانوا في القافلة ، ونظروا الى هذين الشابين من العتوم نظرة فيها تساؤل واعجاب .

مثلما كان يحدث في وادي العيون حين وصول القوافل حصل هذه المرة ايضاً رهما يصلان الى الخدرة : تجمع الناس ، خاصة الرجال والاطفال ، حتى الذين يسكنون في اماكن بعيدة ، في الساحة ، قرب الآبار ، وسيطر ذلك الفرح والانفعال على المقيمين والقادمين. الاسئلة نفسها يوجهها كل واحد لكل قادم من القادمين . اسئلة عن المطر والعشب والغدران والقوافل ، حتى اذا تأكدوا تماماً ، ودققوا في الاجابات مرة بعد اخرى ، سألوا عن اسعار الطحين والسكر والخام في روضة المثنى وفي عجرة ، وما اذا كان الناس يتوقعون هنالك استمرار هذه الأسعار أم ارتفاعها . فلما فرغوا من ذلك بدأت الأسئلة تأخذ منحى آخر : أسئلة عن الأقرباء والمعارف ، عن الناس في الأماكن البعيدة ، خاصة في وادي العيون وما حولها .

في الليل ، في مضافة ابن هذيب ، قال صويلح لأبيه ، للجميع ، بكلمات حازمة انهما سيعودان الى وادي العيون مرة اخرى بعد فترة قصيرة ، وانهما سيعملان كما يعمل شعلان ، وحين سئل عن عمل شعلان لم يستطع ان يقول شيئاً واضحاً ، قال انه يحفر الارض ولا شيء غير ذلك ! لم يشأ ان يقول لهم ان هؤلاء العفاريت يصبون ماء وادي العيون وماء الصبحة ومياهاً اخرى يجلبونها ببيوت حديدية ، يصبّونها كلها في ثقوب يحفرونها في الأرض ، لا يعرف لماذا او الى متى . وبدأت تلك

الدوامة عن الجن وباطن الارض تدور في رأسه .

كان صويلح يود لو يتحدث عن كل ما رأى وكل ما سمع ، الا ان الآلام التي كانت تسيطر عليه ، منذ ان سمع ابن الراشد يقول ما قاله ، ويرجع هكذا خائباً مهزوماً ، ثم حين وجد نجمة المثقال قد دخلت في حالة من المرض والهلوسة ، وان امه واخته وبعض النسوة القريبات انشغلن بها ، وبالتالي فان وطفة اصبحت الآن في وضع لا يمكن معه التفكير او البحث في الحلم الذي يقذفه من مكان الى آخر من اجل ان يظفر بها ، فقد بدا شديد التشاؤم وغير راغب في ان يقول اي شيء ، ولذلك اكتفى بتلك الاجابات القصيرة الغامضة ولاذ بالصمت يدفن نفسه فيه .

واذا كان الناس في هذه الفلاة الكبيرة القاسية يولدون ويعيشون ثم يموتون في دورة طبيعية صارمة ، كما هو حال توالي الليل والنهار ، او تعاقب الفصول ، فان موت بعض الناس ، خاصة الذين يبعدون الموت عن الآخرين ، واولئك الذين يكشفون خبايا المستقبل ، يرتبط موتهم بالذاكرة بطريقة غير عادية ، وكأنه خروج على الدورة لكن لتأكيدها ايضاً . فاذا ارتبط هذا الموت بمرض حافل بالآلام والصحو المشرق والنبوءات الخارقة فعندئذٍ يتذكره الناس لفترات طويلة ، او ربما لا ينسونه ابداً ، وقد يتناقلونه جيلاً بعد جيل .

لو تركوا وضحة الحمد تتصرف وحدها في المعالجة لعاشت نجمة المثقال سنوات وسنوات . لو تركوا نجمة المثقال دون ان يقترب منها اي انسان لما ماتت بهذه السرعة . ولو انهم منعوا صبحة ، ام الحميدي ، زوجة عبد العزيز الحوقلي ، من الاقتراب منها لظلت نجمة المثقال الى فترة طويلة تدبّ على الارض وتضرب بعصاها الدجاج والكلاب ، حتى اذا فرغت من ذلك رفعت تلك العصا في وجوه الصبية والشباب بتوعد مرغوب تحذّر من الأيام القادمة ! لكن ام الحميدي ، تلك المرأة القوية المتجبرة ، لم تترك لاحد غيرها ان يقترب . كانت وحدها التي تقرر ، ووحدها تولت علاج نجمة المثقال ، ورفضت اية مساعدة عرضت عليها .

لقد جرى العلاج على مرحلتين ؛ في المرحلة الاولى اكتفت ام الحميدي بأن اعطت المريضة انواعاً من الاعشاب المرة ، قالت انها حضرتها بنفسها ، ولم توضح ما هي هذه الاعشاب ، لكنها اكدت انها مجربة ومفعولها سريع . ونجمة المثقال التي وافقت ، تحت تأثير الآلام التي مزقت احشاءها ، على ان تلتهم السفوف الذي

حضرته أم الحميدي ، ثم على أن تتجرع السوائل المرة التي أرغمتها على شربها ، كانت في وضع تريد ان تخلص من الالام ليس الا . أما المرحلة الثانية من العلاج ، والتي بدأت بعد الصحوة الأخيرة بيومين ، فقد ادت الى القضاء على نجمة المثقال تماماً .

ووضحة الحمد التي كانت تدور في انحاء بيت شتيوي العازم ، وهي تبحث عن بعض الاعشاب التي خبأتها بنفسها ولا تجدها ، كانت تغمغم بأصوات مبهمة ، اقرب ما تكون الى الشتائم ، وترفض ايضاً مساعدة احد ، بدت في لحظات معينة شديدة الانفعال واقرب الى الغضب . أما لما رأت فواز عائداً ، وبدل ان تفرح امتلأ وجهها وعيناها بتساؤل يشبه التأنيب « لماذا عدت ! » وحين اكد لها ان ابن الراشد طلب اليه ان يغيب شهراً او شهرين ثم يعود ليعمل ، هزت رأسها بنوع من المرارة ، وربما تذكرت كل ما يعنيه ابن الراشد . تذكرت الأيام الماضية في وادي العيون ، خاصة الأيام الأخيرة . وما كاد فواز ينتهي من توضيح كل هذه الامور حتى هبّت واقفة واشارت الى رضية ان ترافقها لتفعل شيئاً من اجل نجمة المثقال .

لما وصلت وضحة الحمد كانت ام الحميدي قد فرغت لتوها من تدليك بطن نجمة المثقال وظهرها بالزيت الساخن ، كان العرق يتصبب من المرأتين معاً ، وقد استبد بهما تعب شديد ، وبدا ان المريضة قد استراحت بعض الشيء او تخدرت ، لانها اغمضت عينيها وكادت تنزلق الى النوم ، لولا ان شيئاً افزعها او ألماً مزق احشاءها فهبت مثل قطة .

قالت رضية ان نجمة المثقال في الأيام الأخيرة قالت اشياء لا يقولها انسان ، لم تكتف بما قالته عما جرى من وقائع واحداث ، قالت اشياء كثيرة عن الأيام الآتية . طلبت من بعض النسوة ان يقتربن منها ، ضحكت في الوجوه ، ثم غنت وبكت ، لكن في لحظة معينة استبدت بها حالة من الضحك ، ضحكت مثل طفلة صغيرة في البداية ، وكأن انساناً يداعبها او يدغدغها ، ثم سيطرت عليها موجة من القهقهة ، لم تستطع ان توقفها او ان تتحكم بها . ظلت كذلك فترة طويلة من الزمن ، والنسوة اللواتي كن حولها استغربن ضحكها ثم قهقتها ، لكن ما لبثن ، شيئاً فشيئاً ، ان شاركنها الابتسام ثم انخرطن معها في الضحك فالقهقهة ، فعلن ذلك لا شعورياً ودون ارادة او رغبة . كن اول الامر ينظرن اليها برثاء ، لكن ما كادت تغرق بهذه

الحالة حتى جارينها ثم اصبحن مثلها . ووضحة الحمد التي نظرت باستغراب وصل حد الاستنكار لم تستطع ان تمنع ذلك او ان توقفه . كانت حازمة قاسية ، اشاحت بوجهها في البداية ، ثم نظرت الى نجمة بخشونة اقرب الى التأنيب ، وهزت بعض النسوة وصرخت في وجوههن ، واخيراً وجدت نفسها تبتسم ثم انخرطت في موجة من الضحك والبكاء معاً . كانت دموعها اسرع من صوتها وربما اقوى ، وما لبثت ان خرجت الى الحوش ، ولما طاردتها الاصوات خرجت الى الفلاة ، وتبعتها رضية . كانت تجهش وتضحك في وقت واحد ، وكانت تحمل حفنات من الرمل وتعفر رأسها .

لا يمكن لاحد في الحدرة وما جاورها ان ينسى ذلك ، لان نسوة كثيرات اكدن ان الذي قتل نجمة المثقال لم يكن دواء ام الحميدي الذي اخذته سفوفاً او سائلاً ، كما تحاول وطفة تأكيد ذلك بحزم . ولم يقتلها الزيت الساخن الذي دعكت به ام الحميدي بطن نجمة وظهرها . وفركت كما لا يمكن ان تفعل خبّازة او غاسلة صوف ، وانما الذي قتلها تلك الموجة من القهقهة ، لان كل امرأة من النسوة اللواتي كن ضحكن ذلك اليوم ، اكدت ان حالة المرض التي اصابتها لم تقتصر على وجع الاحناك او بداية الرقبة ، وانما امتد هذا الوجع الى الظهر والكتفين ثم الاحشاء ، ولا بد ان تكون هذه الآلام مميتة ، خاصة لامرأة مريضة ، وفي مثل السن المتقدمة التي كانت عليها نجمة المثقال .

فبعد وصول صويلح وفواز الى الحدرة ماتت نجمة المثقال . كان الأمل خلال هذه الأيام يعقبه اليأس ، وكانت السخرية تترافق مع الحزم القاهر ، أما اليوم الذي ماتت فيه فقد بدأ بالضحك الهستيري ثم أعقبته الدموع الساخنة واخيراً . . جاء الموت .

سيطرت على الناس حالة من الحزن والتشاؤم ، ومما زاد في هذه المشاعر الكلمات التي قالتها نجمة قبل ان تموت بأيام قليلة ، وقبل ان توافيها تلك الآلام الحادة ، والتي بعدها لجأت ام الحميدي الى ذلك العلاج .

يتذكر الكثيرون ان من جملة ما قالته نجمة ، وتناقله الناس ، وان داخله التحريف ، يتذكر الكثيرون انها قالت :

« من وادي الجناح حتى الضالع ، ومن السارحة حتى المطالق ، النار تلهم النار ، والصغير يموت قبل الكبير . اولها عدّ وآخرها مد ، الولد لا يعرف ابوه والاخ لا يعرف أخوه » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق كل يوم من الأيام التالية بسنة من هذي الأيام . اولها خير يعم البلاد وآخرها العباد تلهم الجراد . اولها امطار وسيول وآخرها حاكم جهول . اولها قمح ودبياج وآخرها زوان وعجاج . الناس رايحة دايحة ربها الفضة والذهب وحجها للفرج والذنب . الغني يأكل الفقير ، والكبير يظلم الصغير وكل يصيح يا نفسي » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق تصير الدنيا غير الدنيا ، الناس في الفلاة يدوّرون النجم والنجم ما يطلع ، ينتظرون القافلة والقافلة ما ترجع ، ينشدون وما احد يجيب ولا احد يسمع ، وهذه علامة الساعة ، والساعة ما هي بعيدة ، ما دام عاليها انقلب سافلها ، وانذالها تتحكم باشرافها ، وما دامت الدروب صامّة مثل القلوب ما بها حس ولاخبر » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ، ومن السارحة حتى المطالق وابعد وابعد ، الناس على وجوهها هايمة ، ما يندري قايمة او نايمة ، اولها سلاطين بعدّ التراب وآخرها يوم يبشر بالخراب ، اولها السوط وآخرها اللوط ، اولها النبي المختار وآخرها الاعور الدجال ، والناس بطبول وزمور ، برايات وبيارق ، لكن ما تعرف وين رايحة ومنين جايه . الغريب يتحكم بابن الديرة ، والاجنبي يتحكم بابن العشيرة » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ، ومن السارحة حتى المطالق وابعد منها بكثير ، الشريف من الناس ضعيف وحقه ضايع ، وابن الحرام يأكل ماله ومال غيره وما هو جايع . اللي يقول الصدق مهبول ومن الكثيرين مرذول ، والكذوب صوته يملأ الدروب واخباره من ديرة لديرة تجوب ، ويقول : جيت يا زماني . وبذاك الزمان عنتر بن شداد يسرح بالغنم ويأكل اصابعه ندم ، لانه قال اعرف ضرب السيف وقلبي ما يعرف الخوف » .

« وبآخر ذاك الزمان لا بد وان الناس تقوم والظلم ما يدوم وتحصل سوالف وسوالف يحكيها الناس لولد الولد » .

في الحدرة ، هذا المكان النائي ، وكأنه نهاية العالم ، لا ينتظر الناس المطر . لفرط ما خابت آمالهم ، لقد اصبحوا اقرب الى التسليم ، فاذا جاء المطر في سنة من السنين فانه لا يطول ولا يترك في الحدرة الا آثاراً قليلة ، انه يتابع انحداره الى وادي الباشق فالأرض التي وراءه ثم البادية ، ومع ذلك فان المطر ، رائحة المطر ، تغير حياة الناس وتصرفاتهم .

كانت تلك هي الحال في الأيام الاولى لعودتهما الى الحدرة ، بعد تلك الرحلة الخائبة ، فالناس لا ينفكون يتحدثون عن المطر ، ولا يكتفون ان تحدثهم مرة او اثنتين عن السيل في روضة المشتى ، ثم العشب على مسيرة يومين من الحدرة ، والغدران التي امتلأت بالماء ، اذ يريدون اكثر من ذلك ، لأن حزناً مفاجئاً بعد كل ما يقال يهجم كعدو ، فلا تطول الاحاديث ولا تتنوع ، وانما تمتلىء بمقدار كبير من الترقب ، وكأن مصيبة تترصد الحدرة ، ولا بد ان تأتي في اللحظة التالية .

الشتاء في وادي العيون كان شيئاً مختلفاً ، فالمطر ، او انتظار المطر ، يحمل فرحاً من نوع نادر . حتى لو تأخر في سنة من السنين فان الناس لا يكفون يوماً واحداً عن الانتظار . يسألون القوافل ، يسألون الرعيان ، يتطلعون الى السماء ، يملأون

صدورهم بالهواء يتشممون فيه رائحة المطر ، حتى اذا جاء تهللت الوجوه ونظرت العيون الى العيون بطريقة تحمل معنى صدق الوعد . ومع المطر تخضرّ الارض لمسافة كبيرة حول وادي العيون ، وتمتلىء الغدران القريبة ، أما العيون فانها تفيض وينسرح الماء لمسافات ومسافات ، ومع المطر ايضاً تتغير الحياة ويتغير الناس .

والليالي ، خاصة ليالي الشتاء ، في وادي العيون غيرها في الحدرة . تهبط الظلمة في الحدرة مبكرة ، ومع تلك الظلمة برودة قاسية تولد حالة من الانقباض . ولأن الحطب قليل في هذه المنطقة ، فان الناس يقتصدون في استعماله ، تحسباً للأيام التالية او لحاجة قد تجـدّ دون توقع او دون انتظار ، كمجيء قافلة او موت احد . ولأن ليالي الحدرة هكذا فان الناس تعـوّدوا ان يأووا الى فراشهم مبكرين ، وان تكون احاديثهم قصيرة ولا تأخذ ذلك التألق الذي يلهب الخيال ويفـجّـر العواطف ، كما كان يحصل في وادي العيون .

انه شتاء آخر في الحدرة . شتاء السنة الماضية انقضى وحالة من الخوف والتشاؤم تسيطر على الكثيرين ، خاصة عائلة متعب الهذال . أما هذه السنة فانه يحمل الى جانب الخوف حزناً قاتماً ، نتيجة موت نجمة المثقال بهذه الطريقة ، وما نقلته النسوة من كلمات ونبوءات قالتها المرأة في ايامها الأخيرة . لقد ولّـدت تلك النبوءات خشية اقرب الى الحذر ، واختلفت النسوة في نقلها ، اذ كانت تتغير من امرأة لاخرى ، وقد فُسّـرت باشكال لا حصر لها ، فلما وصلت الى آذان الرجال ضحكوا بسخرية ، واعتبروا ان ما قيل اقرب الى الهذيان ، ولا يمكن ان يحمل على محمل الجد او حتى مجرد الاهتمام ، ولئن استمرت النسوة يرددن ما قالته نجمة المثقال مع اضافات تزداد يوماً بعد يوم ، ولأن نجمة المثقال قالت سابقاً اشياء وتحققت ، فقد اعمل الرجال عقولهم ليستخرجوا احتمالات وتقديرات تكون اكثر اقناعاً واكثر امكانية من غيرها . ولانهم لم يتوصلوا الى شيء فقد تناسوا الأمر بعض الوقت ، لكن حالة من الترقب دخلت الى قلوبهم وبدأت تقلقهم .

الحدرة ومن تلاها ، وما قبلها ايضاً ، ولمسيرة أيام من كل ناحية ، موجودة هكذا منذ ان خلق الله الارض . ولأن حياة الناس تتسم بمقدار كبير من الصعوبة والخشونة ، نتيجة انقطاع المطر ، او عدم وصول القوافل ، وبالتالي ارتفاع اسعار الطحين والسكر والخام ، فقد تعـوّد الناس على هذه الحياة الى درجة انهم لا يتوقعون

افضل منها . فاذا ضاقت الأرض بالذين فوقها فلا بد ان يقع شيء ما . كان الموت يتكفل ، اغلب الأحيان ، بحل هذه المشكلة . الموت اما على شكل غزوات ونزاعات ، وكانت كثيراً ما تقع ، نتيجة الاختلاف على المراعي والمياه ، او على شكل مرض يفتك بالناس والحيوانات . كان الموت هو الذي يخلق توازناً يجعل الناس قادرين على العيش والاستمرار ، فاذا ضاق بعض الرجال بالموت ، ولم يعودوا قادرين او راغبين ان يقتل بعضهم بعضاً ، ومع وصول القوافل ، فان نداء قوياً ملحاً الى السفر يدفعهم دون استعداد كبير ودون تفكير سابق . وبرحيلهم تتسع الأرض بعض الشيء للذين بقوا فيواصلون الحياة .

أما ما تقوله نجمة المثقال ، وما نقلته النسوة باشكال عديدة ، فانه يثير التساؤل اكثر مما يثير الخوف ، لكن التساؤل هو بداية الخوف ايضاً ، ولهذا فان القتام الذي ينبعث من بعض الكلمات والنبوءات التي بشـرّت بها هذه المرأة المتجبرة العارفة ، والتي ترى ما لا يراه الآخرون ، آثار صخباً ازداد واتسع بموتها على تلك الطريقة .

قال سليمان الهذيب حين رأى ابنه يـلـح في ان تفعل امه شيئاً ، لكي يكون ارتباطه بوضحة اكيداً . قال بنفاذ صبر :

- يا وليدي بعد اللي قالته العجيّزة ، نجمة المثقال ، يلزم ان الواحد يحضر زهابه ليوم القيامة .

احس انه تورط بهذه الكلمات ، فقد كان الى وقت قريب يسخر اذا ذكرت امامه كلماتها ، أما ان يرددها بنفسه ، وان تكون قد ترسبت في وجدانه كقناعة خفية فقد احس انه اخطأ . تابع في محاولة لتدارك الخطأ :

- اصبر يا وليدي . . امس ماتت العجوز

توقف قليلاً ثم تابع بلهجة جديدة :

- وكل شيء بوقته زين .

طوي الموضوع مؤقتاً ، واشتعلت رغبة السفر من جديد . قال صويلح لأمه :

- مع اول قافلة امشي ، وما يحيل الحول الا وتشوفوني عندكم واعـرّس .

قالت العجوز وهي تبتسم :

- ابشر يا وليدي . . ووكل الله .

وبدا من جديد يغزلان فكرة السفر ويستعدان . كان صويلح يلتهب حركة وحماسة من اجل ان يسافر بسرعة ، لكي يؤمن مبلغاً من المال يكفي السياق ، وكان اكثر حرصا وخوفا بعد وفاة نجمة المثقال . اذ قد تستجدّ امور في الخدرة او غيرها تمنع زواجه او تؤخره ، وقد يأتي احد اقارب وطفة ويخطفها منه ، لكن بعد ان انتقلت الى بيت خالتها ، قالت لأمه « يا عمتي مالي احد بهذه الدنيا إلا الله وانتم ! » وفهمت هذه العبارة على انها موافقة كاملة . فقط اذا مرت مدة كافية وعاد صويلح من سفرته .. عند ذاك لا بد ان تحتفل الخدرة بهذا الزواج الذي طال انتظاره .

ولأن الشابين بدآ الكذبة معاً فلا بد ان يواصلاها معاً . بذل صويلح جهودا كبيرة لاقناع فواز بالسفر معه . صحيح ان فواز كان شديد الضيق بالخدرة ، ويريد الخلاص منها باسرع وقت ، لكنه شعر بعد الخيبة التي واجهها في وادي العيون انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً في مواجهة هذا العالم القاسي ، ولا بد ان ينتظر سنة او اثنتين قبل ان يحزم امتعته مرة اخرى ويذهب الى وادي العيون ، عند شعلان ، لكي يعمل هناك ، كما وعده ابن الراشد . لكن إلحاح صويلح ، وتلك الصور الزاهية التي رسمها للعالم بعد وادي العيون ، الاماكن الجديدة والمدن الكبيرة ، اضافة الى الاموال التي يمكن ان يحصلا عليها ، اضعفت مقاومة فواز وجعلته حائراً .

كان صويلح لا يتردد في ان يعيد على مسامعه كل يوم القصة اياها . وفواز يسمع ولا يجيب ، ينظر اليه ويسافر بعيداً . واذا كان مقتنعاً في اعماقه بالسفر والرحيل ، فان احد الاسباب الحقيقية وراء ذلك هو متعب الهذال نفسه . فالمرض الذي رآه في عيني شعلان ، ثم ذلك الخوف الذي لاحقه منذ الليلة الاولى في وادي العيون ، الى ان رآه متجسداً قوياً في روضة المشتى ، والذي جعله لا ينام ولا يهدأ ليل نهار ، ولّد عنده رغبة جامحة لان يتبعه ، لان يصل اليه . لم يستطع ان يتحدث عن ذلك لاحد . حتى امه او رضية لم تسمعا منه كلمة واحدة عن ابيه .

هل يمكن ان يخطىء هو وشعلان معاً ؟ قال لنفسه « يجوز اخطأ ، ويجوز حظيت ، اما ان نخطىء انا وهو فلا ! » اصبح متعب الهذال بالنسبة له اكثر من مجرد اب ، ولا يمكن ان يغيب هكذا الى الابد . لو ان الامر اقتصر على الغياب لوجد الانسان تفسيرا واستراح . لكنه كان اكبر من ذلك واقوى . . .

كل محاولات صويلح لم تكن لتجدي لو انه لم يره في روضة المشتى ، ومع ذلك كان خائفا لا يعرف اين يذهب او ماذا يفعل .

ظل متردداً صامتاً في معظم المرات التي طلب منه صويلح ان يوافق . وكان من الممكن ان يظل متردداً ولا يسافر لو ان الخوش لم يأت .

عندما يستعيد فواز الآن تلك اللحظات يحس ان قوة خفية هي التي تصنع اقدار البشر وتدفعهم من مكان الى مكان ، وهي التي تحدد حياتهم وموتهم .

فهذا الذي غاب سنين طويلة ، دون رسالة او خبر ، والذي ادى الى جنون تلك العجوز ثم موتها في اليوم الأخير بوادي العيون ، واعتبر انه انتهى في مكان ما ، ولم يبق احد الا وطوى صفحة هذا الذي كان اسمه الخوش ، واصبح مجرد ذكرى ، وملامح قديمة تتآكل وتتلاشى يوما بعد آخر .. هذا الانسان الذي غاب كل هذه السنين ، ومع قافلة ابن الاعسر التي تأتي في مثل هذا الوقت من كل سنة ، لكي تبقى شهراً او اكثر بقليل في الخدرة ، تبيع لاهلها ومن جاورهم ما تحمله من الاماكن البعيدة ، من الطحين والسكر والشاي والمنسوجات ، اضافة الى اشياء اخرى لا تخطر ببال ، ثم تحمل من هذه المناطق ، في طريق العودة ، السمن والصوف وبعض رؤوس الخيل ؛ في قافلة ابن الاعسر ، وعلى غير توقع من احد جاء الخوش .

لقد بدّلته الأيام كثيراً ، الشاب الصغير ، ابن السبعة عشر عاماً ، الذي راح في قافلة السالمي ، يرجع الآن مكتمل الرجولة ، بل واقرب الى الكهولة ، او هكذا بدا في نظر الذين رأوه .

التجاعيد الصغيرة تظهر بوضوح حين يبتسم ، وحين يغرق في التفكير والذكرى . السمرة القاسية تغطي الاماكن المكشوفة من جسده . فاذا شمّر ثيابه او نزع عمرته ، برزت الألوان متناقضة ومثيرة للتساؤل والعجب . أما الملامح فقد ظلت هي نفسها او ربما تغيرت تغيراً طفيفاً .

كان مجيء الخوش مفاجئاً حافلاً واقرب الى عدم التصديق . وبمقدار الفرح الذي رافق مجيئه فقد ولد ذكريات واحزاناً وتساؤلات لا نهاية لها . انفجرت الحياة الماضية كلها دون رغبة من احد ، وبدأت تتوالى القصص والذكريات . كيف كان الحاحه قوياً الى درجة ان امه هي التي اقنعت الكثير من الرجال ، بمن فيهم متعب الهذال بأن

يوافقوا على سفره . كيف كان يتفوق على جميع شبان وادي العيون . . . ثم ليلة سفره ، كيف صنعت له امه زوادة تكفيه ، كما قال متعب الهذال ، لأن يصل الى مصر ويرجع منها !

أما حين جاء ذكر وادي العيون ، وقال انه مرّ هناك فلم يعرف احداً ، ولولا وجود شعلان وابن الراشد لأنكر كل شيء ، وحين جاء ذكر العجوز اطرق وصمت تماماً ، وكأنه لا يريد ان يتذكر او ان يقول كلمة واحدة . بدا حزيناً ومقتولاً ، حتى لكأنه شخص آخر ، كان يتمنى لو انه جاء قبل هذا الوقت ، لو انه رأى امه قبل ان تموت . وشعلان الذي الحّ عليه ان يبقى في وادي العيون ، وان يعمل معه في الشركة ، لم يستطع ان يقنعه او يستبقيه ، بعد ان ابلغه بوفاة امه في الأيام الأخيرة ، قبل الرحيل عن الوادي ، ثم كيف هجّ متعب الهذال لا احد يعرف الى اين او الى متى .

مع كل يوم كان الفرح بالخوش يزداد ، حتى وضحة التي غرقت في الصمت منذ ان تركوا روضة المشتى ، بدت امرأة اخرى ، اخذت تصدر عنها اصوات تشبه اصوات الاطفال في بداية تعلمهم الكلام ، واضاءت عيناها بفرح اقرب الى الرضا ، كما اصبحت اكثر حركة ونشاطاً . أما حين استخرج الخوش من تحت ثيابه المغْبرة القديمة تلك المحفظة الجلدية التي كان يعلقها برقبته ، وكانت مربوطة بخيط قوي احسن اختياره وتثبيته ، حين استخرج الخوش المحفظة ، وكانت تلتصق على اللحم ، قريباً من القلب ، ووضحة مقابلة تنظر اليه تتابعه ولا تدري ماذا سيفعل ، ثم يفك المحفظة بهدوء ويمد كل ما فيها ، بيديه الاثنتين ، ويضعه كله في حضنها ، عند ذاك تتساقط دموع غزيرة من عينيها . انها المرة الوحيدة التي تبكي فرحاً وحزناً والماً في وقت واحد ، وبطريقة تختلف عن بكائها في عجرة في الليلة الأولى لوصولهم قادمين من وادي العيون .

لقد فعل الخوش ذلك بهدوء مبالغ فيه ، وحين رأى الدموع اطرق ، لكنْ دون حزن ، وظل كذلك بعض الوقت ، ولما رفع رأسه مرة اخرى كانت ابتسامة صغيرة تظهر على زاويتي الفم ، وفي العينين ، ودون كلمات من اي نوع فهم الاثنان .

كان فواز يتابع هذا المشهد صامتاً مذهولاً ، أما رضية التي دخلت وخرجت اكثر من مرة ، وبدت شديدة الانفعال ، مرتبكة ، فقد ادركت بحس الانثى ان شيئاً

خطيراً يجري في تلك اللحظات ، وان الامر الذي انتظرته سنين طويلة ، وحلمت به اكثر مما حلمت باي شيء آخر ، قد تحقق دون كلمة .

بعد ذلك بأسبوعين تزوج الخوش من رضية .

وبعد أسبوع من الزواج قال فواز لصويلح ، وكان شديد الثقة :

ـ اذا تهيأت لنا قافلة قبل سفر قافلة ابن الاعسر نسافر معها ، والا يجب ان نبقى الى حين سفرها .

أما حين ابلغ امه انه انتوى السفر ، عائداً الى وادي العيون ، عند شعلان ، للعمل في الشركة ، وانه لن يكف يوماً واحداً عن البحث عن ابيه ، ولا بد ان يجده ، وان يرجعا معاً ، فقد بدت الام فرحة حزينة في وقت واحد ، اشتعلت في قلبها الآمال والمخاوف دفعة واحدة ، فبان وجهها اقرب الى القسوة ، لكنها نهضت مسرعة وبدأت تهيّيء ما يحتاجه الى السفر ، وحين تساءلت عيناها ، وخرجت من فمها تمتمات غير مفهومة تستفسر عن موعد سفره ، وما اذا كان عليها ان تهيء له زوادة للطريق ابتسم وقال :

ـ الى حين ما يسافر ابن الأعسر .

ولما استعدت قافلة ابن الاعسر للرحيل كانت وضحة قد هيأت له كمية كبيرة من الأكل ، وحين رآها الخوش ضحك وقال نفس الكلمة التي قالها متعب الهذال قبل سنين طويلة :

ـ هذه تكفيه لأن يصل الى مصر ويرجع منها !

بدت الحدرة وهما يغادرانها اكثر حزناً واكثر شيخوخة ، حتى الاطفال وهم يتجمعون حول القافلة بدوا حزينين متسائلين . كانوا اقل حركة مما تعودوا في مثل هذه الحالات أما الرجال فقد اظهروا حكمة زائدة ، وبالغوا في احكام ربط الاحمال ، وبدا بعضهم غير مكترث . والنسوة ، كما هي العادة دائماً ، ظللن بعيدات ، لكن لم تفتهن اية حركة ، ولم تغب عنهن اية كلمة او اشارة . أما وضحة الحمد ، التي اظهرت مقداراً هائلاً من الصلابة ، وحضّرت كل شيء بعناية بالغت فيها الى درجة لفتت نظر الكثيرين ، فقد كانت في اعماقها تدرك ان رحلة ابنها ، هذه المرة ، ستطول . كانت تفعل اشياء لم تفعلها في رحلته السابقة ، وكانت تراقب حركاته وتنظر اليه بطريقة لم يرتح اليها ، وقد شعر نتيجة ذلك بالاضطراب وما يشبه الحرج ، حتى اذا ودع اخوته واخواته ، وتقدم اليها ، امسكت بكتفيه الاثنين وهزته بطريقة معينة ، كأنها تختبر قواه ، توصيه ، تضع ما تبقى من قوة جسدها في جسده ، فلما وجدته شديداً قاسي ملامح الوجه ، هزت رأسها بصلابة الفرس ثم غمرت وجهها في صدره . فعلت ذلك بقوة وظلت كذلك بعض الوقت ، فلما رفعت اليه وجهها كانت دمعتان تجولان في العينين دون ان تقويا على السقوط . كانت الدمعتان تتحركان بطريقة متحدية وحزينة ، وفي اللحظة الأخيرة

رتبت على صدره وكتفيه وتراجعت خطوة الى الخلف لتقول له دون كلمات : « يمكن ان تذهب الآن ! » .

أما الخوش الذي كان فرحاً منفعلاً كثير الحركة ، فقد رافق فواز وصويلح وظل معهما الى ان تحركت القافلة ، وقد قال اشياء كثيرة ، وان بدت غير مترابطة وليست في سياق واحد ، وكأنه يودعهما تجربته في الحياة كلها ، ويريدهما ان يفهما ويستوعبا اكثر مما تدل عليه حركاتها وهزات رأسيهما .

في الطريق الى روضة المشتى ، والتي استغرقت سبعة أيام ، لأن ريحاً قوية عطلت مسيرتهم ، واضطرتهم لأن يأخذوا الطريق الشمالي للوصول الى الروضة ، بدأت تعود الصور والذكريات ، وعادت معها الساعات واللحظات الأخيرة ؛ وفواز الذي تمالك نفسه ، واصرّ على ان يكون اقوى من الصخر ، خاصة في مواجهة تلك العجوز التي تركها في الحدرة ، كان يحس بحزن ثقيل ، الأمر الذي أربك صويلح ، فتساءلت عيناه مرات كثيرة ما اذا كان خائفاً او عادت اليه تلك الهواجس التي ملأته في رحلة العودة من وادي العيون الى الحدرة ، ورغم انه بذل جهوداً كبيرة من اجل ان يخفف عنه ، ان يشغله بأمور كثيرة ، فقد ظل بادي الحزن . أما حين اخذ يغني ، وفعل ذلك عدة مرات ، وابدى رجال القافلة سرورهم بغنائه ، فقد شعر ان غناءه في هذه المرة حزين واقرب الى اللوعة .

هل كان يغني فراقه الابدي لاماكن لن يراها ولاشخاص لن تتاح له الفرصة ، مرة اخرى ، لان يلتقي بهم ؟ هل كان يغني فراقه لوطفة وهذه الرحلة المجهولة التي لا يعرف الى اين يمكن ان تحمله . . ثم هل يعود منها ومتى ؟ هل كان يغني حياة وذكريات بدأت تغيب وتتلاشى ما ابتعدت القافلة عن الحدرة ؟

ان فراقاً من نوع ما كان يرفرف فوق الرؤوس ، كان يصرخ في الظلمة ، في ساعات الليل الأخيرة او في ساعات الفجر . ان هذا المجهول الذي بدآ يغرقان فيه ، خطوة بعد اخرى ما ابتعدا عن الحدرة ، لن يستطيعا النجاة منه ولن يفارقهما حتى النهاية .

ومع هبات الريح القوية التي تعفّر وجوه الرجال ، وتجعل الجمال عصبية سريعة الإثارة ، والتي تمنع الرؤية وتحد من السير ، مع هبات الريح كانت وجوه تنبعث

ونضيء ، وهذه الوجوه بمقدار ما تظهر تفجرُ قوى داخلية عاتية في داخلهم ، وتدفعهم اكثر واكثر على السير ونسيان التعب .

قال صويلح ، وقد بدت روضة المشتى تظهر :

ـ نمرح في الروضة يوماً واحداً ثم نتابع سفرنا الى عجرة .

قال هذه الكلمات وهو يتطلع الى عيني فواز تماماً ، وكأنه يمتحن تلك النوايا العاتية التي ملأته في رحلتها السابقة . ولما ظل فواز صامتاً تابع :

ـ انت تعرف انه من عجرة يمكن ان نسافر الى الاماكن التي نقصدها ، يمكن ان نسافر الى بغداد او الشام ، ويمكن ان نسافر الى عمان .. واذا اردنا نقدر ان نصل الى مصر .

* * * *

الخطأ الآخر الذي ارتكبه فواز انه وافق صويلح على البقاء فترة قصيرة في روضة المشتى ، ثم تابعا سفرهما الى عجرة .

كان صويلح شديد الخوف من أن يتشبث فواز بروضة المشتى ، ان يهيم على وجهه بحثاً عن ابيه ، خاصة وهما يعبران الوادي ، وبعد ذلك الصوت القاسي المفاجيء الذي انطلق من فمه دون ارادة : « هنا .. هنا يا صويلح » ومثل قطٍّ قفز عن ذلوله وهي تـخـب به وأشار بخيزرانته الى مكان بذاته .

وبصبر كبير هـزّ صويلح رأسه دلالة الفهم والموافقة ، او ربما بـيّـت في نفسه امراً آخر ، اذ ما كاد يراه هكذا حتى نزل . امسك بناقته واناخها ، ثم اناخ ناقة فواز ايضاً ، وسأل بطريقة قاسية ، وربما مؤذية :

ـ ما تقول ، يا فواز ، لو امرحنا نهارنا كله هنا ؟

هل كان يريد ان يتحداه ؟ ان يقول له ، بطريقة غير مباشرة ، ان ما رآه في رحلتهم السابقة مجرد وهم من الاوهام ؟ هل يريد ان يثبت له ان اباه الذي رآه في هذا المكان ، على فرض انه كان هنا فعلاً ، قد رحل الى مكان آخر ، ولذلك لا جدوى من البقاء او البحث عنه في هذا المكان ؟

لا بد ان يكون قد توصل الى قرار نهائي ، ويريد الآن ان يجبره على السير معه ، بالطريقة التي يشاء . كان فواز متهيجاً خائفاً ، وربما كان بحاجة الى من يفكر ويتخذ

القرار نيابة عنه ، اذ ما كاد صويلح يقترح ذلك الاقتراح ، بان ينفصلا عن القافلة ويقضيا اليوم في هذا المكان ، حتى شعر فواز انه يسخر منه ، رد عليه بحدة :

ـ قلت لك بهذا المكان شفته ، وانه بهذا المكان كان ، ما قلت لك نمرح هنا .

ـ هذا المكان زين وقـريّب ، وما به شي لو امرحنا .

ـ لا .. نمرح مع الجماعة عند البيار .

ـ القول قولك ، يا ابن عمتي ، واللي تشوفه .

هذا هو الخطأ الأول في الرحلة ؛ لو ان صويلح لم يقل ما قاله بتلك الطريقة لقضيا يومها في هذا المكان ، المكان الذي اطل منه متعب الهذال وتحدث الى اهل روضة المشتى ، وسمعه الرجال والنساء والاطفال ، وطغى صوته على الرعد وهدير السيل ، فاذا لم يأت الى هذا المكان في النهار فلا بد ان يأتي في الليل . واذا لم يأت فلا بد ان يكون في مكان قريب . أما ان يوافق صويلح ويتابعا الرحلة فيقطعا الوادي ويصلا الى نهاية روضة المشتى ، من ناحية الشرق ، على طريق عجرة ، قرب الآبار ، ان يوافق معه على ذلك ، ان يطلبه بنفسه ، فقد ارتكب الخطأ .

في روضة المشتى اصبح انساناً آخر . انها المياه الملعونة التي ان دخلت الى الجسد تشله ، تجعله عاجزاً . اذ ما كادا يقضيان يومهما الأول ، وكان من المقرر ان تبقى قافلة ابن الاعسر ثلاثة أو اربعة ايام ، حتى قال له صويلح :

ـ الجماعة يبغون البيع والشراء ، وحنا ما عندنا ما نشري وما نبيع ، ما قولك لو مشينا؟

وبنفس الطريقة السحرية الفتاكة ، وربما نتيجة الخوف من المياه الملعونة ، وافق فواز على ان يواصلا سفرهما الى عجرة في اليوم التالي .

وبمقدار الفرح الذي كان يحرك صويلح ويدفعه لان يواصلا السير بسرعة في قافلة صغيرة الى عجرة ، كانت الهواجس وحالة من الخوف تسيطر على فواز وتشل تفكيره وتجعله يغرق في الصمت .

ظن صويلح ان المرض او حالة مشابهة لا بد وان تمنع فواز من مواصلة الرحلة ، ولا بد ان تولد مشاكل لم يكن مستعداً لها ، لذلك بذل اقصى ما يستطيع من اجل ان يخفف عنه بدأ يحدثه عن العالم الذي يقودهما اليه الطريق السلطاني ، بعيداً عن

البادية الميتة القاسية ، وهناك سيجدان كل ما يشتهي الانسان . لن تطول سفرتهما وسوف يرجعان اغنياء . لم يكتف بذلك ، اعاد كل القصص التي سمعها عن رجال فقراء ركبوا الطريق السلطاني وسافروا الى امكنة بعيدة ، وخلال فترات قصيرة اصبحوا مضرب المثل لغناهم واهميتهم ، منهم من عاد ومنهم من بقي الى الآن . تزوجوا وخلفوا ، وبدل المرأة الواحدة تزوج الواحد منهم زوجتين او ثلاثا ، ويبعثون الى اهلهم في الحدرة ، في الرحبة ، او عجرة ، يبعثون اليهم بالمال والثياب ، وهم لا بد عائدون في يوم من الأيام .

لم يترك صويلح قصة سمعها عن الرجال الذين سافروا الى الاماكن البعيدة الا واعادها عليه ، وحين وجده صامتاً بعيداً بدأ يغني .

وصويلح حين يغني ينتزع الاحشاء . لقد سمعه مرات كثيرة ، لكن هذه المرة ، وهما في طريقهما من روضة المشتى الى عجرة ، غنى بطريقة لم يعهدها فيه . كان يصعد وينزل كما لو ان حمامة وصقراً يتحاوران . كان صوته يغيب حتى يتلاشى ، ثم فجأة يصرخ ويعلو حتى يصل السماء .

ما كادا يصلان الى الطريق السلطاني ، وعلى مسافة ساعة او ساعتين من عجرة ، حتى شاهدا خيمة ، وما كادا يقتربان اكثر حتى شاهدا جمعاً من الرجال ، ووسطهم كان ابن الراشد .

لما رآهما ابن الراشد تشبث بهما ، لم يتركهما يصلان الى عجرة الا في اليوم الثالث ، فقط لكي يشتريا ما يحتاجان إليه ، لأن « العمل يبدأ من اليوم . . والمعاش يبدأ من اليوم . . ولا يمكن ان ننتظر » .

وبهذه الطريقة ، ومن حيث لم يقدر احد ، ولم ينتظر ، اصطادهما ابن الراشد وذهبا معه الى : حران .

ما كاد ابن الراشد يلتقي بهما في عجرة ، او قبلها بقليل ، حتى قبض عليهما : « حيتوا والله جابكم . انتم قرابتنا ، والواحد ما له الا قرابته وجماعته ، فاذا ما شغّل جماعته ما يصير براسه خير . لازم تروحوا معي الى حران ، رجلي على رجلكم » . نسي كل الكلمات التي قالها قبل شهرين في وادي العيون ، أما حين حاول فواز أن يذكره ، ان يقول شيئاً ، فقد رد لكي ينهي الموضوع :

الله يلعن الشيطان ، والبني آدم دائما عجول .

ثم راح يؤكد لهما ان العمل في وادي العيون شاق ولا يلائمهما ، أما في حران ، وخلال سنة أو سنتين « الواحد يصير عنده كوم من ذهب » . اتبع أساليب شيطانية من أجل اقناعهما ، ورغم الكراهية العميقة والمرارة التي تولدت من رفضه السابق ، وميل فواز الى عدم الموافقة ، الا أن صويلح كان رخواً في امتناعه ، ثم بدا متردداً ، واخيراً وافق اذا ذهب معه فواز ، ولذلك لجأ ابن الراشد الى الاغراء والضغط ، مع الكثير من الوعود ، حتى اضطره للموافقة .

بعد بضعة أيام في عجرة ، وبعد أن جمّع ابن الراشد العدد الذي يحتاج اليه ، بدأوا رحلتهم الى حران ، الى ذلك المكان المجهول الذي لم يسمع به إلا

القليلون ، ولم يصله اي واحد منهم من قبل . توقفوا في الطريق عدة مرات ، سألوا بعض رعاة الابل وشيخاً وجدوه قرب أحد الغدران ، ليتأكدوا انهم يسيرون في الاتجاه الصحيح ، وبعد مسيرة خمسة أيام اشرفوا على البحر .

حيث توقفوا ونظروا ، فوجئوا الى درجة عدم التصديق : مياه . . . مياه لا نهاية لها، مياه على مدى البصر، انه البحر ! البحر كالصحراء بامتداده واتساعه ، ومجرد النظر الى هذه الكمية الهائلة من المياه يُصاب الانسان بالفرح والخوف معاً .

لم يكن أحد ليفكر أو ليحلم أن في مكان من العالم هذا المقدار الهائل المخيف من المياه . من اين أتت ؟ هل جاء بها السيل أو نبعت من باطن الأرض ؟ وأهل الحدرة والروضة وعشرات الأماكن الأخرى، وراء هذه التلال ، هل يعرفون بوجود هذه الكميات من المياه ؟ والى متى تبقى والى أين تذهب أو تصل ؟

لم يكن اي من الرجال العشرين قد رأى البحر من قبل . لقد ظهرت الدهشة والاستغراب على وجوههم وهم ينظرون ، وفاتهم ان يروا ، من هذا المكان ، قرية صغيرة لا يمكن للعين ان تميزها من هذا البعد . أما حين قال ابن الراشد « حسب وصف الشايب اللي لقيناه امس لازم تكون هذه هي حران »، وأشار بإصبعه، التفت الجميع الى حيث اشار ، كانت كتلة من البيوت الطينية الواطئة تبدو من بعيد ، وكانت هناك مجموعة من التلال على يمين البيوت وعلى يسارها ، والى مسافات كبيرة ، كما ظهرت بضع أشجار ، لم يستطع احد أن يميز نوعها من هذا البعد .

بصمت أقرب الى الخفاء أو التآمر بدأوا يهبطون التل متجهين الى حيث أشار ابن الراشد .

لأول مرة سمع الرجال باسم حران في عجرة ، والآن ، بعد أن وصلوا ، يرون حران ويعرفون ماذا تكون .

سأل فواز صويلح بتهكم وهما ينيخان ناقتيهما :

ـ هذه هي الشام اللي قلت لي عليها يا ابن خالي ؟

قهقه صويلح وأجاب بسرعة :

ـ اسكت . . الأماكن كلها مثل بعضها . .

وبعد قليل اضاف كأنه يخاطب نفسه :

ـ وهذا المكان أقرب من الشام بكثير .

لم يستغرب اهل حران وصول القافلة ، وكأنهم كانوا على علم سابق بقدومها ، خاصة وان اثنين من رجال ابن الراشد كانا قد سبقا الجميع الى هناك ، وربما زيارات سابقة لآخرين قد تمت قبل وصول هذه القافلة . كان اهل حران مثل أهل وادي العيون ، كرماء ، يحبون المساعدة ، وكانوا يفعلون كل ما يطلب منهم ، الفرق الوحيد أن أهل حران كانوا شديدي الصمت لا يتكلمون الا القليل . . . وحين يسألون فقط .

ومثلما فعل ابن الراشد في وادي العيون فانه جمع رجال حران وبدأ :

ـ ابشروا يا جماعة الخير ، الخير جاءكم ، والله سبحانه وتعالى فتح عليكم أبواب السماء وإن شاء الله بعد تعبكم وشقاكم ترتاحون . طويل العمر وصى بكم وقال اهل حران ما مثلهم رجال . شامة وأجاويد . وهذه الشركة شركتكم ، جاءت لمصلحتكم ولخدمتكم وهي تريد مساعدتكم ولازم تساعدوها . أما بخصوص التعويض المستحق لكل منكم فابشروا ان شاء الله ما تكونون الا راضين، الواحد يأخذ حقه و زود . . .

استراح قليلاً ، نظر في الوجوه بامعان ثم أضاف بصوت خفيض :

ـ الخويا يصلون بعد كم يوم ويريدكم تبيضون الوجه وتكونون بالشغل مثل النار وبالطاعة مثل المحبس باليد .

بعد ذلك تشعبت الأحاديث والأسئلة ، وابن الراشد الذي كان في وادي العيون ... يسحر ، ويتصرف كأب ، ولا يتردد في مناقشة اي انسان ، بصبر ، اصبح في حران انساناً آخر ، كان شديد الثقة بنفسه ، وقد خلت أحاديثه من المزاح ، وبدا جاداً ، بعض الأحيان قاسياً . كان يوجه أوامر قصيرة حازمة ، ويتحدث بطريقة يحار الانسان في تفسيرها ، هل هي نتيجة عداء تجاه الآخرين أم نتيجة عدم ثقة . أما حين قال أحد المسنين ان الحياة التي يعيشونها ترضيهم ولا يريدون ان تتغير كما لا يريدون شيئاً آخر ، فقد تطلع ابن الراشد الى الوجوه باهتمام وكأنه يبحث عن ابن

متعب الهذال ، وبعد أن التقت اعينهم للحظة خاطفة قال للرجل المسن :

ـ يا عم بعد كم سنة تقول لنفسك : علواه لو كنت أصغر وأقوى ، لأن الخير الجاي يغرق الدنيا ، وكل واحد لازم يغرف منه نصيبه .

قال الشيخ بيأس وعيناه تطرفان :

ـ أخذنا نصيبنا من هذه الدنيا ، يا ابن أخي ، وانشاء الله حسن الختام !

وبطريقة حازمة لا تتيح أية امكانية لمزيد من النقاش اكد ابن الراشد على ضرورة التعاون مع الشركة ومساعدتها ، وأفهمهم ان البيوت التي يسكنون فيها ستهدم ، لأن المنطقة ستتغير خلال فترة قصيرة ، ثم غرق في اسئلة تفصيلية حول الأماكن المجاورة ، اسمائها والمسافات بينها والطرق اليها ، وما اذا كان يوجد فيها ماء كثير أو قليل .

بعد بضعة أيام وصلت مجموعة من الأميركيين عن طريق البحر ، وبدا انهم كانوا في هذا المكان عدة مرات من قبل ، لأن معرفتهم بالرجل المسن وببعض الآخرين من أهل حران كانت واضحة ، اذ اخذوا يمازحون الرجال ، ويربتون على الأكتاف ، ثم انصرفوا الى أوراق استخرجوها من صناديق كانت معهم ، وبدأوا يكتبون ويخططون ، وقالوا لابن الراشد ، عن طريق المترجم ، ان باخرة ستصل بعد أيام ، وطلبوا اليه ان يستعد العمال للمساعدة في نقل أشياء كثيرة ستصل على الباخرة .

بعد أن وصلت تلك الآلات الجهنمية عن طريق البحر ، ولم تكد بضعة أيام تمرّ ، حتى بدأ هدم البيوت في حران . واذا كان اهل وادي العيون قد أبدوا استغرابا وصل حدود الدهشة ثم الذهول ، وهم يراقبون وصول تلك الآلات ، ثم عملها ، فان أهل حران كانوا اقل انفعالاً . صحيح أن الباخرة التي وقفت بعيداً عن الشاطىء أفزعت الجميع ، حتى ابن الراشد نفسه بدا عليه القلق الشديد ، وكان واضح الارتباك عندما سئل عن هذه « البلية » التي تقترب من حران ، وقال لجماعته أو للذين سألوه ، كلمات غير واضحة ولم يكن متأكداً منها . أما الحديث الهامس الذي جرى بينه وبين المترجم ، والذي تخلله الكثير من الاشارات والحركات ، فقد جعله في النهاية موافقاً ، لكن لم تزايله ابداً الدهشة ، وكذلك الرجال الآخرون كانوا شديدي القلق والخوف ، اذ ابتعدوا مسافات كبيرة عن الشاطىء وتركوا المساعدة في انزال الآلات من المراكب الصغيرة التي انزلت بدورها من الباخرة لأهل حران . وحين أراد ابن الراشد ان يحثهم ، ان يقنعهم بضرورة الاقتراب والمساعدة ، وقد حاول شرح كل ذلك بطريقته ، لم يستجب اليه الرجال ، قالوا : « كل شيء

نفعله الا الاقتراب من الماء . . الماء غدار » وقد فهم ما قصدوا اليه ، فلم يلحّ عليهم بعد ذلك ، اذ انشغل بمراقبة كل شيء باهتمام المستطلع الخائف .

شعر اكثر الرجال بألم وحزن وهم يهدمون البيوت الصغيرة الفقيرة ، أما أهل حران الذين رحلوا الى التلال الغربية ، فقد وزعت عليهم الخيام واعطوا مبالغ من المال ، لكي يتدبروا امرهم ، على أن يجري التعويض عليهم في وقت لاحق .

قال صويلح في ذلك المساء ، بعد أن سويت حران مع الأرض :

ـ لو لم نأت نحن لوجد ابن الراشد غيرنا وقاموا بنفس العمل .

وبكثير من البراعة ، وبهدف أن يقنع نفسه قبل أن يقنع أحداً ، اكد ان العمل هو العمل ، سواء في هدم البيوت أو باستخراج الملح أو في اي مجال آخر ، لا فرق ، أما ما ذكره فواز عن رطوبة الجو في حران ، وعدم قدرته على التحمل ، فقد رد عليه برجاء حزين :

ـ الانسان يتعود يا ابن عمتي . إصبر شهر شهرين وبعدها تتعود .

خلال الأيام الأولى فكر عدد من العمال ان يتركوا حران ، ان يعودوا من حيث أتوا ، حالما يتسلمون أجورهم ، لكن الراتب الأول الذي دفعه ابن الراشد غيّر قناعاتهم ومواقفهم ، اذ لم يحلم أحد باستلام مثل هذا الراتب ، ولم يدخل جيب أي منهم مبلغ مثله ، وقد جرى ذلك بطقوس من الصمت والاهتمام كانت أقرب الى الجلال .

ففي عصر الخميس الثالث ، وبشكل مفاجيء ، طلب ابن الراشد من الجميع ان يقفوا صفّاً . كان يقف مزهواً والى جانبه دحام المزعل ، وما كاد الرجال ينتظمون حتى بدأ ينادي عليهم واحداً بعد آخر ، ومن كيس خيش صغير ، كان ينتزع كمية من النقود الفضية ، وبعد أن يتركها تكرج كالسيل من يد الى أخرى ، مع ذلك النغم المنتظم الرنان ، يعدها بمهارة وسرعة ، لفرط ما تعود على ذلك ، ويناولها طالباً من كل واحد أن يعدها مرة أخرى ، بعد أن ينتحي جانباً ، ويشير اليه ان يذهب ، ثم يلتفت الى دحام ويطلب اليه أن يتأكد من شطب الاسم ، حتى اذا هز دحام رأسه اكثر من مرة ، دلالة انه فعل ذلك ، يطلب اليه المناداة على الاسم الذي يليه ، وهكذا الى أن انتهى .

لما أتم ابن الراشد توزيع الرواتب ، وتأكد ان الجميع قاموا بعدّها ، قال ان الراتب سوف يرتفع في الشهور القادمة ، لأن الحسومات التي تقتطع الآن ثمناً للأكل ، سيعاد فيها النظر ، ويترك الخيار لكل واحد ما اذا كان يفضل أكل الشركة أو أن يحضّر اكله بنفسه ، بعد أن يشتري ما يشاء من الدكاكين التي ستقام خلال فترة قريبة .

أوضح ابن الراشد هذه الأمور بأساليب عديدة . ثم قال وهو يتطلع في الوجوه :

ـ عندنا سالفة ثانية معكم يا جماعة الخير . . .

تطلع اليه الجميع باهتمام :

ـ الاباعر . . من اليوم مالها فائدة هنا .

وخيرّهم بين أن يبيعوها اليه مباشرة أو أن يكلّف واحد منهم فيأخذها الى عجرة ، وهناك ، في السوق ، يمكن ان تباع ، مع تأكيده ان السعر الذي سيدفعه لن يحصل عليه احد في عجرة او في غيرها .

إنها المرة الأولى التي يشعر فيها الرجال انهم يواجهون موقفاً صعباً وخياراً حاسماً ، اذ يطلب منهم ان يتخلوا عن أعز شيء يملكونه . واذا كان كل واحد منهم قد تعب وركض كثيراً من أجل أن يشتري ناقة أو جملاً ، فانه يعرف انه اذا باع اليوم فقد لا تتاح له فرصة قريبة لأن يشتري بديلاً ، ومعنى ذلك أن يرتبط هنا ، ان يظل وقتاً طويلاً ، وربما الى الأبد .

وفواز الذي حارب وتعب حتى حصل من أبيه على تلك الناقة التي رافقته خلال السنتين الماضيتين ، وكانت شديدة الطاعة والفهم والاستجابة ، وقد بنى عليها آمالاً كباراً ، لا يمكن ان يتركها تذهب لا يعرف لمن أو الى أين ، كان مستعداً لترك العمل والعودة من حيث أتى على ان يستغني عن ناقته . أدرك صويلح ذلك دون ان يقول له أحد ، ودون ان يشير اليه فواز ، فبدا حزيناً ضائعاً ، وفي الليل المتأخر ، بعد أن نام أغلب العمال ، طلب من فواز ان يخرجا الى الفلاة ، لأن النوم لا يأتيه ، ولأنه يريد أن يتحدث معه .

في هدوء الليل ، في هذا المكان الذي لم يعد له اسم ، بعد أن هدمت البيوت

وزالت كل المعالـم ، كان صويلـح يريد أن يقول أشياء كثـيرة ، ان يتكلـم دون توقف ، لكن بدا مرتبكاً متردداً ، وفجأة استعاض عن الكلمات التي كانت تمـلأ صدره بالغناء .

غنى غناء حزيناً اقرب الى النجوى ، كان يغني وطفة ، يريد أن يطير اليها ، ان يراها ولو لثانية واحدة ، ان يسمع منها كلمة ، ومن أجل ذلك يمكن ان يتحمل كل شيء ، يمكن أن يتعذب ويسافر ، ويعمل في أي مكان ، حتى إذا جمع المبلغ اللازم فلن يبقيه شيء او أحد ، ولا بد ان يعود الى الحدرة .

بعد ان غنى قال كأنه يحدث نفسه :

ـ كبدي محروق، والله بلاني ، ولازم ، يا ابن عمتي ، تساعدني !

كانت كلماته أقرب الى التوسل ، كان يريد من فواز ان يبقى ، ان يتحمل كل شيء ، حتى اذا كانا قادرين على العودة عادا فوراً ، ولذلك ، لا يمكن ان يربط الانسان مصيره بناقة ، عليهما ان يوافقا على عرض ابن الراشد .ان يبيعا الناقتين دون تردد ، فاذا حان وقت عودتهما الى الحدرة يمكن ان يشتريا مطايا جديدة من أي مكان .

لما تكلم صويلح بهذه الطريقة أحس فواز أنه ذهب بعيداً ، وانه من أجل وطفة ، من أجل تأمين مبلغ معين ، مستعد ان يفعل اي شيء ، ان يتخلى عن كل شيء . رد في لحظة من لحظات الغضب والانفعال :

ـ هذا المكان ما يفيدني ولازم امشي .

هل نظر اليه صويلح في الظلمة ؟ هل أطلق زفرة او اثنتين ؟ هل تصرف بطريقة أوحت اليه أنه يتخلى عن إنسان او انه يقتل انسانا ؟ لا بد أنه فعل شيئاً من ذلك ، لأنه وجد نفسه فجأة اكثر استعداداً لكي يقف معه . صحيح أنه لم يقل ذلك مباشرة ، ولم يصدر عنه أي تصرف يوحي بهذه الموافقة ، لكن شعر بانقباض وقهر ، وشعر اكثر من ذلك انه وحيد في هذا المكان الغريب النائي . حتى صويلح ، أقرب الناس اليه ، أكثر الناس فهماً له لا يهمه سوى تأمين مبلغ من المال لكي يعود ويتزوج . فاذا كان كذلك فيمكن لابن الراشد ان يفعل أي شيء .

في اليوم التالي ، ودون نقاش أو مساومات ، سلما ، مع الآخرين ، جمليهما

لابن الراشد ، فدفع لهم اثمانها ، وقال وهو يتطلع في وجوههم

ـ . . . وهالحين ما عاد عندكم همّ ، خلصناكم من المطايا وهمها .

ولم يتكلم احد ، اذ انصرفوا الى التفكير في كيفية حفظ النقود الفضية في أمكنة امينة لكي لا تسرق ولا تضيع ، وبعد تفكير طويل وتردد رأى الكثيرون ان افضل الأمكنة وأكثرها امناً ان يودعوها مرة أخرى عند ابن الراشد !

وادي العيون ، عجرة ، الرحبة ، روضة المشتي ، الخدرة ، وغيرها الكثير من القرى والمدن والدساكر هذه طرق تأتي منها القوافل والأخبار ، الناس يعرفون هذه الطرق ، يراقبونها ، ينتظرون أن يأتي القادمون منها ؛ حتى أم الخوش حين كانت تنتظر ، وبعد أن تتعب من السؤال والبحث ، كانت تنتظر في الظهرة ، على كثيب لا تغيره أبداً ، لأنه يشرف على الطريق ويكشفها لمسافات بعيدة ، وفي الروضة كانت الآبار في محل مرتفع قليلا ، وهناك كانت القوافل تصل ، وكان الناس ينتظرون . حتى عجرة التي تصب فيها الطرق من أنحاء متعددة كان الطريق السلطاني هو « الطريق » نظر الناس إذا سئلوا ، إذا انتظروا ، وما عداه ليس إلا مسالك تعود اليه بالضرورة .

هكذا هو الحال بالنسبة لمعظم الأماكن في الدنيا ، ما أن تتعلق العيون بهذه المياه الرجراجة ، أن لا تتوقف عن النظر باتجاه البحر ، إذ من هناك سيأتي الرجال والقوافل والأخبار ، فأمر لم يألفه الكثيرون ، لكن هكذا كان الحال في حران .

البادية من الجهة الثانية أصبحت أغلب الأحيان صماء مقفرة ، لا يأتي منها شيء أو أحد إلا نادرا . حتى الطعام الذي يقدمه ابن الراشد للعمال ، بعد أن يبعث من

يأتي به من عجرة ، أوصى عليه وبدأت تأتي به المراكب من أماكن عديدة . أما البدو الذين رفضوا في الأيام الأولى الاقتراب من البحر أو المشاركة في إنزال الأشياء من المراكب الصغيرة ، فما لبثوا أن أُخذوا باللعبة ، بدت لهم طريفة مثيرة وفيها مقدار من المجازفة ، ولذلك لم يترددوا طويلاً حتى اقتربوا من البحر . فعلوا ذلك على مراحل متعددة وبنوع من الاختبار الأقرب الى السرية . كان الواحد منهم يقترب اقتراباً حذراً بطيئاً ، يمشي بموازاة الماء مدة طويلة ، محافظاً على مسافة لا يغيرها ، حتى إذا اطمأن بعض الشيء خطا بسرعة وبخفة قط راسماً خطاً منكسراً مقترباً من الماء الى أقصى حد ثم مبتعداً مرة أخرى وبنفس السرعة . فعل الكثيرون ذلك مرات لا حصر لها . جلسوا على الشاطىء ، تأملوا المياه بامعان وغرقوا في التفكير ، وحين رأوا أهل حران ، الصغار منهم والكبار ، وهم يخوضون في الماء ، يركبونه بتلك السهولة كما لو أنهم يمشون على الأرض ، عجبوا أشد العجب ، حسدوهم لأنهم قادرون على ذلك ، تمنوا في أعماقهم لو كانوا يستطيعون مثلهم ، لكن الخوف لم يزايلهم أبداً لأن « الماء غدار يبلع ولا يشبع » .

في وقت متأخر بدأوا يخوضون في المياه الضحلة . بدت شديدة الاغراء وهي تداعب أرجلهم ببرودتها وكثافتها ، واصبحوا ، مع مرور الوقت . لا يترددون في أن يستحموا في البحر ؛ كانوا يقرفصون على الشاطىء تماماً. المياه تغمر أرجلهم وترتفع حتى منتصف الساق ، وبأيديهم أو بطاسات معدنية يغرفون ويسفحون الماء على رؤوسهم وأجسادهم ، فاذا جاءت موجة صغيرة فزعوا ، نهضوا بخوف وتراكضوا متطلعين حولهم خشية أن تفترسهم هذه الوحوش الماكرة .

بين هذه المجموعة من البدو أخوان : مزبان وهاجم ، وحدهما كانا يعرفان السباحة ، تعلما في بئر في قريتهما . كانا أكثر الجميع فرحاً بالماء ، ولم يترددا في أن يساعدا أهل حران ، وينزلا الى البحر بمجرد أن طلب منهما ابن الراشد ، بل وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في مرح طفولي وهما يتسابقان ، وهذان الأخوان أبديا استعداداً وحماسة لأن يعلما الآخرين السباحة ، وكانا يؤكدان أن السباحة عملية سهلة يمكن للانسان أن يتعلمها في يوم واحد . . إذا أراد ، لكن لم يستطيعا إقناع أحد .

والآخرون يسمعون ، يراقبون ، يبدون إعجابهم ، وبعض الأحيان يتظاهرون بالتصديق ، لكنهم لم يكونوا مستعدين لأن يدخلوا في هذه التجربة الخطيرة ، لأن

البحر الذي يرونه أمامهم بلا نهاية ، والذي يحمل هذه « البلايا » ويحركها رغم ضخامتها ، ثم القصص التي بدأت تروى عن مراكب كبيرة ، وعلى ظهرها مئات الناس ، كيف ابتلعها البحر في لمح البصر ولم يبق منها أي أثر ، خلق في نفوسهم نوعاً من التهيب يصل حدود الفزع .

وإذا كانت الأشياء الجديدة ، من ظواهر أو أماكن ، تثير في الانسان الرغبة في الاكتشاف ، وتخلق لديه تحريضاً لا يمكن أن يقاومه طويلاً ، فإن البحر ، خاصة لمن لم يره من قبل ، يثير تساؤلاً مستمراً ويولد مخاوف لا يمكن التغلب عليها ، فاذا ترافق ذلك مع القصص التي تروى وتلك التي يخترعها الخيال فان التساؤل عندئذٍ يصبح دون أجابة . إذ رغم الساعات الطويلة التي يقضيها كل واحد متأملاً غارقاً في افكار لا نهاية لها ، فإن الغموض يزداد يوماً بعد آخر : من أين أتت هذه المياه كلها ؟ ولماذا تكون في هذا المكان ولا تكون في الأماكن الأخرى حيث يحتاجها الناس ؟ وإذا كانت مياه المطر والغدران والآبار حلوة مستساغة ، أو حتى لو كانت مالحة بعض الشيء يمكن أن تشرب ، فكيف أصبحت مياه البحر شديدة الملوحة والمرار ولا يمكن لأحد أن يشربها ؟

الذين جاءوا من الداخل ، من أعماق الصحراء ، تاهوا في دوامة التفكير والحيرة . بدوا شديدي القلق والخوف ، وزاد الخوف وتعاظم حين اشترى ابن الراشد الجمال كلها . شعروا أنهم يواجهون حالة من العجز الكامل ، وأنهم في هذا المكان المعزول عن العالم ، والذي فقد حتى اسمه ، مجموعة من الرجال المحاصرين لا يعرفون ماذا يجب أن يعملوا وماذا ستكون عليه الحياة في الأيام التالية ، ولذلك استبدّ بهم القلق وانتابتهم الوساوس ، حتى الرغبة في الأكل لم يعودوا يشعرون بها . عزوا ذلك الى نوعية الطعام الذي يقدمه ابن الراشد ، وأكد آخرون أن رائحة البحر ، والتي تملأ الانسان بالضيق ، تجعله غير قادر على الأكل . وفسر غيرهم الأمر بأن الاميركان وروائحهم ورائحة البلايا التي جاءوا بها تقطع نَفَس الكلب ، ولذلك لا يجدون في أنفسهم حتى مجرد الرغبة في الاقتراب من الطعام .

حين بلغت الحالة بالرجال هذا الحد لم يستطع ابن الراشد ان يتهرب أو أن يؤجل ، فقد مرض بعض الرجال ، وجاءه آخرون طالبين استعادة جمالهم ، لأنهم ينوون الرحيل والعودة من حيث أتوا . بدا غاضباً عصبياً أول الأمر ، ثم ما لبث أن

طلب من الجميع التحمل والصبر ، وأن يمهلوه بعض الوقت ، فقط ليصل الى عجرة ويعود ، فإذا عاد فسوف يستجيب لكل ما يطلبون : أن يطبخوا بأنفسهم ، أن يطبخ واحد منهم ويأكل الجميع . . فقط ليمهلوه ريثما يذهب ويعود ، أو مسافة الطريق كما قال ، وحتى ذلك الوقت أمر أن تزاد كمية اللحم والرز .

المراكب لا تهدأ ولا تنقطع ، مراكب صغيرة وأخرى بحجم الجبال ، ومن هذه المراكب تنزل أشياء وأشياء لا يدري أحد ما هي أو لماذا ! ومع الاحمال التي تتراكم وتزداد كل يوم يأتي رجال لا يعرف أحد من أين أتوا أو ماذا سيفعلون . كانوا يشتغلون ساعات في إنزال الاحمال الثقيلة ، كانوا يشدونها بحبال قوية ثم يرفعونها حتى تصبح أعلى من المراكب . من يرفعها ؟ كيف ترفع ؟ كانت الدهشة تستبدّ بكل الناس وهم يراقبون بخوف هذه الصناديق الضخمة ترتفع في الهواء ، دون أن يروا أحداً يرفعها ، وحتى الرجل الذي كان على ظهر المركب ، وبيد واحدة يدفع هذه الصناديق الهائلة ويحركها من جهة الى اخرى ، بدا للواقفين على الشاطىء ، إنساناً أقرب الى العفاريت . أما حين سماه دحام المزعل بالعفريت فقد وجد الجميع أن هذه التسمية تلائمه تماماً ! كانت العيون تتابعه باهتمام ، تراقب كل حركة من حركاته وكل تصرف من تصرفاته ، فلما نزل الى الشاطىء كانت العيون لا تترك خطوة واحدة ، كيف وقف ، كيف حرك يديه ، وكيف نظر الى الذين كانوا حوله . أما حين نزع ثيابه ولم يبق الا قطعة صغيرة تستر عورته ، ثم رمى نفسه في الماء ، فقد تراجع الكثيرون . خافوا أن يكون لنزوله قوة خارقة تشابه قوته حين كان على ظهر الباخرة ، بل وتأكدوا ، وهو يرفع يداً ويضرب الماء ، أن الماء لا بد وأن يرتفع ويرتفع حتى يغطي اليابسة والى مسافة كبيرة ، وقد حمدوا الله كثيراً لما اتجه من الشاطىء الى داخل البحر ، إذ لو فعل العكس فلا بد ان تقع المصيبة ، ولما اقترب من الباخرة التي كان عليها قال دحام المزعل .

- ابن الحرام حرك البابور كله ويمكن يقلبه .

ظل بجانب الباخرة وقتاً ليس قصيراً ، ولما بدأ من جديد يتجه الى الشاطىء طلب دحام من الجميع أن يبتعدوا وأن يظلوا شديدي الانتباه والحذر « لأن من يقدر على تحريك بلية مثل الجبل لا يمكن لاحد ان يقف في وجهه » . وحين وصل الى الشاطىء ، وتمدد على الرمل راقبه الجميع بانتباه وظلوا بعيدين أيضا ، إذ يمكن أن

ينهض هذا الوحش في أية لحظة ، وقد يتصرف كالوحوش أيضاً ، إذا لم تعجبه النظرات أو حتى أشكال البشر ؛ أما حين اقترب منه نعيم ، المترجم ، وبدآ يتحدثان ويضحكان ، ثم كيف نزل نعيم الى البحر وبدأ يغرف الماء بيديه الاثنتين ويلقي به على هذا العفريت ، وهو في مكانه يتقي ويصرخ ، إلى أن بلغ احتماله حداً معيناً فقام راكضاً نحو نعيم ، وما كاد يخوض في الماء مسافة أربعة أو خمسة أمتار حتى سقط ، قام من جديد ، وبغضب حاول اللحاق بنعيم ، لكن الأخير كان قد ابتعد ، وظلت المحاولة مستمرة والجمع يراقب مقطوع الأنفاس منتظراً ، إلى أن اختفى الاثنان وراء الباخرة من الناحية الثانية .

كان كل شيء عجيباً في هذا المكان النائي ، وإذا كان وصول البواخر وعليها عشرات الاشياء يشغل الناس ويدفعهم الى العمل ، فان دحام ، وهو يحث الرجال ، لم يكن يكتفي بالصراخ والالحاح ، كان فمه يمتلىء بالشتائم ، يوجهها الى أولئك الذين يبدون أكثر فقراً أو أصغر سناً ، أو أولئك الغرباء الذين جاءوا من أمكنة بعيدة ، في محاولة لأن يجبر الجميع على العمل بهمة لا تعرف التوقف أو التردد .

رغم وصول البواخر وما يخلقه من اهتمام ورغبة في الاستطلاع، ثم ما يتبع ذلك من تعب يهد الرجال ، ويجعلهم غير قادرين على الحركة أو حتى مجرد الحديث النشيط ، فإن حالة من الحزن كانت تطغى على الجميع من هبوط الليل ، وكانت هذه الحالة تزداد وتتكاثف مع تناقص حركة البشر ثم انقطاعها ، ومع ارتفاع صوت البحر وتلك الرياح التي تهب فجأة . كان الرجال يغرقون في الصمت وشعور المرارة يخيم عليهم تماماً ، خاصة وأن كثيراً من الأسئلة التي يستطيع الانسان الاجابة عنها في أماكن أخرى ، لا تجد هنا جواباً ، إذ لا يعرفون الى متى سيبقون وكيف ستكون حياتهم في الأيام القادمة ، في هذا المكان النائي الذي وجدوا أنفسهم فيه .

ففي هذا المنخفض من الأرض ، حيث كانت مجموعة بيوت طينية فقيرة ، قريباً من البحر ، تتشكل الطبيعة على نحو لا تماثله أمكنة أخرى ، ففي جانب يمتد رأس صخري طويل داخل البحر ، وفي جانب آخر يتكون خليج ضحل المياه شديد التعرج ، حتى إذا امتد الى مسافة معينة انفتح البحر واتسع ، وبدل الصخور الكبيرة القاسية يصبح الشاطىء رملياً . وخلف هذا مجموعة من التلال ، متفاوتة

الارتفاع ، وبعد ذلك تبدأ الصحراء .

في هذا المنخفض ، والذي يشبه حضن الأم ، وفي نقطة التقاء المياه باليابسة ، وعلى مسافة كافية من البحر ، لتجنب المد والجزر أو غضب الطبيعة الذي يهب فجأة ودون توقع ، تكونت في يوم من الأيام تلك القرية الصغيرة ، والتي سمّت نفسها ، أو سماها أحد الغرباء العابرين : « حران » . كانت أكثر حرارة وأكثر رطوبة من الأمكنة الأخرى ، ربما لأن الرياح الشرقية ، التي كثيراً ما تصل الى الأماكن الأخرى ، لا تصلها بنفس القوة أو بنفس المقدار ، إذ تتكسر هذه الرياح حين تصطدم بالرأس الناتىء أو حين تلتف حوله . ورياح الصحراء ، التي تكون طرية ناعمة في أوقات معينة من السنة ، تجتاز حران مارة فوقها دون أن تتوقف . أما حين تهب العواصف وتحمل الغبار فان نصيب حران من هذا الغبار الكثير ، إذ تسفّ التلال التي حولها كميات هائلة من الرمال ، وقبل أن تصل البحر وتصطدم بالمياه يتساقط القسم الأكبر على أطراف الخليج .

حران في الصيف هي الجحيم بذاته : يسكن الهواء تماماً ، وتبدو السماء قريبة ثقيلة وكأنها قبة من رصاص ، كما يتشبع الجو برطوبة كثيفة ، فيصبح التنفس صعباً وتصبح الأجسام ثقيلة لزجة ، فتنزّ عرقاً دون توقف . أما الملابس فانها تتحول الى عبء لفرط البلل وتلك الرائحة التي تولدها الأجسام . وفي مثل هذا الجو يصاب الانسان بالعجز والتعب ، حتى الجسد يصبح الاحساس بكل عضو منه إحساساً منفصلاً . كما لو أنه رُكّب من مجموعة أعضاء دون تناسق ودون لحمة تشدها بعضها إلى بعض .

وإذا كانت الأماكن الأخرى المشابهة تصبح مقبولة في الليل ، فان ليل حران لا يختلف عن نهارها ؛ فما تكاد الشمس تغيب حتى تنعقد في الجو كتلة هائلة من غيوم خفيفة ، وهذه الغيوم تجعل الرؤية محدودة والتنفس عسيراً ، أما تلك البرودة التي تأتي من غياب الشمس فانها هنا تصبح مثل الالحفة الرطبة الثقيلة ، لا يعرف الانسان هل الأفضل أن يحتمي بها أو ان ينزعها ، وتظل الحرارة الممزوجة بالملوحة هكذا الى ما قبل شروق الشمس بساعة أو ساعتين ، وفي هذه الفترة القصيرة فقط يمكن للانسان أن يتنفس ملء رئتيه ويشعر ببعض الراحة انتظاراً ليوم قاسٍ آخر .

هكذا تكون الطبيعة وهكذا يكون الطقس معظم أيام السنة ، عدا فصل

الشتاء ، ففي هذا الفصل ، والذي يمتد ثلاثة شهور تقريباً ، ترقّ الطبيعة حتى لتصبح خفيّة متوارية وأشبه ما تكون بالطيف ، فلا يحس الانسان بالحرارة أو البرودة ، وتنعدم الرطوبة أو تكاد ، ويصفو الجو عدا أيام قليلة حين يتساقط المطر غزيراً قوياً ، لكن هذا لا يدوم الا ساعات قليلة ، وبعد ذلك تهب على حران من الصحراء رياح مفعمة بالطيب ورائحة الأرض ، والأعشاب النادرة ، فتخلق في الأجسام قوة وتذكراً حاداً .

من أجل هذه الأيام أو لانتظارها عاشت مجموعة منسية من البشر ، عاشت من الصيد ومن المساعدات التي تأتيها من المسافرين ، معتمدة على مراكب صغيرة لا تذهب مسافات بعيدة داخل البحر . كانت صلة حران بالعالم محدودة ، لكنها غريبة ومتفجرة ايضاً ، إذ رغم أنها لا تعرف الا طريقين أو ثلاثاً في رحلاتها القصيرة المتباعدة من أجل تأمين حاجاتها القليلة ، فكثيراً ما يستبد الهوس ببعض الرجال وتغريهم نداءات البحر الغامضة المثيرة ، وعندئذٍ يجرون بمراكبهم الصغيرة الى أن يصلوا ذلك الميناء الذي لا يبعد سوى يومين ، يصلون إلى « منال » ، فاذا عاكستهم الريح أو ضربتهم الأمواج القوية فانهم قد يتأخرون يوماً أو يومين في الوصول ، أما إذا كانت الريح أقوى من احتمالهم فلا بد عندئذٍ من أن يعودوا ، انتظاراً لوقت آخر . حين تواتي الريح ويصلون الى منال يتصرفون كالمجانين . أكثرهم يبيعون مراكبهم ويواصلون سفراً طويلاً مجهولاً على واحدة من تلك السفن التي تكون عادة في الميناء . وفي هذه الأسفار يعملون ويعيشون ويغنون ويتذكرون ، وقد تمر سنوات قبل أن يعود الكثيرون ، فاذا عادوا الى حران كانوا يحملون معهم من الأماكن الأخرى القصص والذكريات أكثر مما يحملون الأموال والأشياء ، ويعيشون على ما حملوا سنة أو اثنتين.، ويرجعون الى الصيد وحياة حران ، فاذا ملّوا أو لم يعودوا قادرين على التحمل عاودوا الرحلة مرة اخرى . لقد فعل ذلك عدد من الرجال ، وهذا التصرف الذي يحزن النسوة والصغار ، لم يكن موضع احتجاج المسنين ، لأن في حران شيئاً يجعل الانسان يتصرف بهذه الطريقة ، حتى المسنون الذين استقروا ، ولم تعد نداءات البحر تغريهم أو تحملهم على اتخاذ قرارات مجنونة ، فانهم عاشوا في أيام سابقة حالة ارغمتهم على السفر والإبحار باتجاه منال ثم ما بعدها .

ومثلما كانت نداءات البحر قوية مثيرة تحمل عدداً من الرجال باتجاه منال ،

كانت نداءات الأرض وراء حران لا تقل إغراء وجاذبية بالنسبة لآخرين ، فالرجال الذين دخلوا الصحراء ، فوصلوا عجرة ، ثم أخذوا الطريق السلطاني وسافروا بعيداً ، انقطعت أخبار بعضهم فترات طويلة ، لكن ما لبثت الأخبار أن جاءت ورجع بعض الذين سافروا . وإذا كان مسافرو البحر يعودون بالقصص اغلب الأحيان ، فان الذين اخذوا الطريق السلطاني كانوا يعودون بقصص أقل ، وتشبه تلك التي يصادفها المسافرون في كل مكان ، ويستعيضون عنها بأشياء كثيرة حملوها معهم ، وبدا أن الطريق السلطاني أكثر خيراً وخصباً بالنسبة لأغلب الذين سافروا . والذين لم يعودوا ، أو طالت أسفارهم أكثر مما قدروا لم ينسوا حران ، كانوا يبعثون لمن فيها كل ما يستطيعون ، كانت تصل الأرزاق والدراهم والرسائل ، مع تأكيدات لا تنقطع أنهم سيعودون في فترة قادمة .

لهذه الأسباب كانت تعيش حران وتنتظر . كانت تحتمل كل هذه القسوة انتظاراً لأيام الشتاء ، حتى الناس فيها اذا تذكروا أيام الشتاء بدوا أكثر قوة وأكثر تفاؤلاً ، ولا يتردد بعض المسنين في التأكيد أن جو حران أفضل من أماكن أخرى كثيرة !

فان زادت الرطوبة عن حد معين واثقلت الحرارة المصحوبة برياح غربية الجو بطبقة من الغبار الكثيف ، وأصبح الناس غير قادرين على الاحتمال ، فلا بد أن تكون صور أبنائهم المسافرين هي التي تثبتهم في هذا المكان النائي من العالم وتجعلهم يصبرون ويحتملون .. وينتظرون .

هذه هي حران منذ ان قامت في هذه البقعة من الارض ، وهكذا كانت حين وصلها ابن الراشد ورجاله ، أما رجال الشركة ، الذين زاروا اماكن كثيرة قبل حران ، فقد استقر رأيهم على اختيارها لتكون مدينة وميناء ومقراً للشركة ، ولتكون مدينة اللعنة والنهاية . . ايضاً !

اذ ما كادت البواخر تصل واحدة بعد اخرى ، وما كادت تتكدس الصناديق الكبيرة باعداد تتزايد مع وصول كل باخرة جديدة ، حتى سيّجت رقعة كبيرة من الارض بأسلاك شائكة ، وكانت هذه الارض تبدأ من وسط الخليج وتمتد باتجاه الشرق والشمال حتى تصل التلال البعيدة . وطُلب من ابن الراشد ورجاله ان يكونوا في الجهة الاخرى من حران ، وعلى مسافة لا تقل عن الف متر من الاسلاك . وخلال فترة قصيرة ، وبعد وصول عدد من الرجال الغرباء ، في مركب مختلف عن المراكب التي وصلت الى حران من قبل ، بدأت حركة لا تعرف التوقف او البطء ، حركة اقرب الى الجنون او السحر ، حيث يتراكض الرجال من مكان الى آخر ، وتتراكض معهم تلك الآلات الصفراء العاتية التي ترفع التلال ، وتردم البحر ، وتدك الارض ، تفعل ذلك دون توقف ودون رحمة ، ورجال ابن الراشد الذين جُمعوا بعد ايام من وصولهم وقسموا الى مجموعات صغيرة ، كل مجموعة من

ثلاثة الى اربعة رجال ، فانهم وسط الركض المجنون والآلات التي تهدر وتتحرك كالجمال الهائجة ، كانوا شديدي الحيرة والارتباك ، لا يعرفون على اي وجه يمكن ان يساعدوا وان يكونوا مفيدين . كانوا يحملون الالواح الخشبية ، قضبان الحديد ، العوارض الاسمنتية، كانوا يفعلون ذلك لكن بخوف وارتياب كثيراً ما ادى الى وقوعهم ، الى اصطدامهم بالصناديق ، او الى وقوع الاشياء .

كان الاميركيون ينظرون الى وجوه الرجال بتساؤل محايد ، حين كان نعيم يحدد لهم ما يجب ان يعملوا ، لكن هذا الحياد ما لبث ان تحول الى نوع من الدهشة حين بدأ هؤلاء الرجال يتحركون وينتقلون من مكان الى آخر حاملين الالواح والقضبان ، تحولت الدهشة الى قهقهة وإشارات لما اصطدم بعض العمال بالصناديق ، وحين وقع واحد منهم ؛ وهذه الضحكات العالية المصحوبة بالاشارات ولّدت خوفاً ومرارة في نفس الوقت ، وزادت في وقوع الاخطاء ، الامر الذي ادى باحد الاميركيين ، وكان ينتقل بين المجموعات ويراقب الجميع ، الى الطلب من نعيم ان يصرف العمال العرب في وقت مبكر .

كان العمال وهم يعودون الى المكان الذي خصص لهم في الجهة الغربية ، يمشون مثل قطيع ، ورغم الشمس التي كانت تنصبّ كشلال غزير من السماء ، الا ان حالة من السواد غشيت عيونهم وقلوبهم . كانت حلوقهم جافة وفيها تلك المرارة التي تجعل لكل شيء طعم العلقم ، كما انتابتهم حالة من التعب جعلت الخطوات قصيرة والصمت كاملاً . كانوا يريدون ان يصلوا باسرع وقت الى خيامهم ، ان يلقوا باجسادهم على الارض ، ان يغيبوا في نوم عميق لكي لا يعودوا الى تذكر او استعادة تلك الحركات البلهاء والابتسامات الساخرة والنظرات التي كانت تلاحقهم وتراقبهم في كل خطوة من خطواتهم .

ودحام الذي كان في الصباح الباكر مثل ديك ، وهو يمشي بين العمال، اذ كان يتحرك حركة نشيطة زائدة ، لم يستطع ان يفهم لماذا طُلب اليه ان يأخذ العمال ويعود في هذا الوقت بالذات ؟

انه الآن يسير باتجاه الخيام في الجهة الغربية مثل الآخرين : صامتاً حائراً ، بل وبدا مليئاً بالقهر . قال في نفسه « لو كان ابن الراشد موجوداً لما دخل لسانه الى حلقه ، والخلق لنا الف مشكلة ! »

واذا كانت عادة دحام ان يتدخل في كل الامور ، ان يتكلم كثيراً ، ولا يتردد في ان يشتم ، فقد كان يريد ان يصل قبل الرجال ، ان يتوارى ، لان الخطأ ، اذا كان هناك خطأ من نوع ما . لا بد ان يكون مسؤولًا عنه . لو استطاع ان ينقل الى الرجال التعليمات بدقة ، ان يفهمهم ما يجب ان يعملوا لسارت الامور بشكل افضل . « ونعيم لماذا صوته منخفض هكذا ويشبه صوت النساء ؟ لماذا لا يتكلم بطريقة اخرى ؟ » وشعر بحقد تجاهه . إنه المسؤول الوحيد عن الاخطاء ، إنه يقول الاشياء في اللحظة الأخيرة وبتلك الطريقة الرخوة غير المفهومة .

حين دخل صويلح وفواز الى الخيمة كان هاجم ومزبان قد سبقاهما ، لم يستطيعا ان يميزا شيئاً خلال اللحظات الاولى ، خاصة وان الصمت كان مخيماً . أما حين الفت عيونهم الظلمة الخفيفة ، بالمقارنة مع الوهج خارجها ، فقد قال مزبان كأنه يخاطب نفسه :

ـ الله كتب لي عمراً جديداً . . اليوم .

سكت قليلاً ثم أضاف :

ـ ولولا الأسْود اللي لجم البلية لطاحت بعظامي .

كان معظم العمال قد رأى كيف كادت تلك الآلة الجهنمية الصفراء تسحق مزبان ، خاصة بعد تلك الصرخة التي ندّت عن الاسود الذي كان يسوقها ، ولفتت نظر الموجودين كلهم ، فقد كان يروق لكل واحد منهم ان يسمع من جديد ، ان يستعيد تلك التجربة المريرة ويفهم لماذا حصلت وكيف .

ومزبان الذي روى من جديد « القصة » بصوت خافت ومتعب ، وبدا حزيناً وسعيداً في وقت واحد ، لم يستطع ان يفسر ما حدث . كان بعيداً عن تلك « البلية » . كان يحمل لوحاً من الخشب ، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه امامها . لماذا لم يسمع صوتها الذي كان يصم الآذان ؟ لماذا لم يرها تقترب منه وهي بهذا الحجم الذي لم ير مثله من قبل ؟

وبكثير من الحنق ، الذي تخللته الشتائم ، بدأ صوت صويلح يهدر :

ـ اولاد الحرام يتراكضون مثل العفاريت . الواحد منهم ظرف ويتدعبل من هنا من هنا ما تعرف وين رايح ومنين جاي . وهذه البلايا تتراكض ، تتناطح ، تشبّ

فوق بعضها ، فوق الناس وصوتها يهدر ويصمّ .

زفر بحرقة واضاف بصوت حزين :

ـ منين جاءت هذه البلايا وكيف نقدر عليها ؟

قال هاجم بحدة :

ـ الله يلعن اليوم اللي رافقنا ابن الراشد ووصلنا الى حران .

وضحك بسخرية . تطلع الى الوجوه وقال بلهجة مختلفة :

ـ هذه البلايا اذا ما قتلتنا اليوم تقتلنا باكر .

وغرقوا في الصمت من جديد، احسوا ان حالة من القهر تفتك بهم ، وان الأيام الصعبة ، الايام السوداء ، ليست تلك التي مرت ، وانما هي التي ستأتي . واحسوا أيضاً ان ابن الراشد لم يخدعهم فقط وإنما وضعهم في حالة لا يستطيعون معها أن يتحركوا ، ان يتصرفوا بحرية ، وها هو قد سافر وتركهم في هذا المكان الملعون ، ومع هؤلاء البشر الذين لا يفهمون شيئاً منهم ، ولا يعرفون كيف يتصرفون او ماذا يفعلون .

أما حين نادى حميدي داعياً الجميع الى الغداء فقد قال صويلح بسخرية :

ـ من له خبزة في هذي الدنيا لا بد ياكلها .

ولما ظل فواز في مكانه لا يتحرك ولا يجد في نفسه رغبة للاكل ، فقد قال صويلح مخاطباً الجميع :

ـ الله يلعن الاميركان وابو الاميركان . . . جاءوا وجاء معهم كل البلاء .

* * *

بين العصر والغروب من ذلك اليوم جاء نعيم، جاء على غير توقع ، رغم ان احساساً غامضاً راود الجميع بان شيئاً ما لا بد ان يحصل .

الرجال في ظلال الخيام او الى جانبها يجلسون في تلك العصرية . كانوا يفكرون ويسافرون ، ينظرون الى البحر والى التلال القريبة ، يحتسون الشاي ، بعد ان برد ، على غير عادتهم .

بدا من بعيد مثل شبح اسود لكنه لم يلفت نظر احد . انه واحد من المعسكر الآخر ، وبشر المعسكر الآخر ، كعادتهم كل يوم ، يفعلون اشياء غريبة : يهرولون ، يسبحون ، يتلاحقون كالكلاب ، يتهارشون كالاطفال ، بكلمة انهم

يفعلون كل شيء لا يخطر ببال ، أما وهو يتحرك ، وظله يمتد خلفه ، ويقترب خطوة بعد اخرى من معسكر العمال ، ومثلما كانوا يفعلون دائماً ، فقد تراهنوا : من يكون ؟ ودون تردد كبير خرج اكثر من صوت : الشعيرة . . الترجمان .

حتى لما وصل الى مسافة قريبة لم يرفع نعيم رأسه ، كان يمشي ونظره الى الارض ، وكأنه يفكر ، او لا يريد ان يتطلع الى وجوه الرجال ، او لا يريد ان يكتشف انهم يراقبونه ويتابعون خطواته .

ودون تردد ، بعد ان رفع وجهه مرة واحدة فقط ، وتأكد من خيمة دحام ، توجه مباشرة نحوها .

كان دحام قد خصص لنفسه الخيمة الأولى ، لانه يريد ان يكون الاول ، الاقرب في مواجهة معسكرهم ، واقرب ما يكون الى الطريق التي تنزل من جهة التلال الغربية ، طريق عجرة . قال الرجال في نفوسهم : « لدى الرجل سالفة ، وهي التي حملته الى هنا ! » كان كل واحد يفكر ويقدّر الاسباب التي حملت نعيم على المجيء في هذا الغروب ، وانه لا بد ان يكون لها علاقة بعمل اليوم ، خاصة وانه لم يصل الى هذا المعسكر الا مرتين او ثلاثاً ، وبعدما الحّ ابن الراشد عليه كثيراً ، وبعث اليه باكثر من رسول مؤكداً له ان لديه اشياء هامة يريد ان يبلغه بها .

الآن وهو يقطع المسافة مطرقاً مفكراً ، وبعد يوم عصيب ، لا بدّ ان يكون حاملاً رسالة . اذ ما كاد احد الرجال يراه آتياً ويبلغ دحام بالامر ، حتى خرج هذا الاخير لملاقاته ، خرج مرحباً بصوت عالٍ وبشكل استعراضي مبالغ فيه ، ولذلك ازدادت مخاوف الرجال وتساؤلاتهم ، أما حين دخل الخيمة بسرعة ، دون ان يلتفت ، دون ان يتوقف ، فقد تأكد الجميع ان في الامر خطورة غير عادية .

لما وقف دحام بباب الخيمة ونادى : « فواز . . يا فواز » شعر فواز ، للحظة خاطفة بالاضطراب ، لكن شعور التحدي كان اقوى وكان هو المسيطر ، بدا ذلك شديد الوضوح ، حتى ان صويلح ، الذي كان يجلس مقابله ووجهه نحو البحر ، التفت بانفعال لما سمع النداء ، وحين لاحظ علامات الغضب على وجه فواز قال بطريقة ابوية :

ـ احرص . . اذا غلطوا عليك لا تغلط عليهم .

كان فواز في تلك اللحظة مستعداً لكل شيء ، رغم صغر سنه ، واذا كان قد استطاع ان يفرض نفسه ، وان يتعامل مع الآخرين بطريقة تفرض الاحترام ، فان دحام يتعامل معه بطريقة لا يحظى الكثيرون بمثلها . ربما قال له ابن الراشد ان يتجنبه ، وربما بسبب تلك المسافة التي حرص هو عليها منذ ان كانوا في عجرة وحتى الآن . أما الكلمات التي تبادلها مع دحام خلال الاسابيع الماضية فلم تزد عن تحية او سؤال . . الآن في ظل هذا الغروب ، اي شيء يريد منه دحام بعد ان جاءه الترجمان ؟ ولماذا اختاره بالذات ؟ هل الامر متعلق بخطأ ارتكبه ام بالخطأ الذي وقع فيه مزبان ؟

ان في الامر شيئاً لا يريح ، لكنه رغم ذلك كان مستعداً لمعركة ، لمجابهة اي انسان . لم يلتفت لكلمات صويلح ولم يتطلع الى وجوه الرجال الذين كانوا يجلسون بالقرب من الخيام . وما كاد يصل الخيمة ويحيي دحام حتى قال هذا الأخير بصوت خافت كأنه لا يريد ان يسمعه نعيم :

ـ الترجمان يريدينا نقرأ على رؤوس الجماعة ، نفّهمهم كيف يشتغلون .

ظل نعيم جالساً حين دخل فواز ، وحتى التحية لم يكلف نفسه بالرد عليها . هز رأسه قليلاً ، ونظر الى فواز نظرة اقرب الى العداء ، وكأنه لا يثق به ، وبعد فترة صمت سأل :

ـ اتعرف القراءة والكتابة ؟

هز فواز رأسه دلالة الايجاب . لم يكن حتى هذه اللحظة متأكداً ، ومن جديد سأله :

ـ اين تعلمت ؟

ـ في وادي العيون .

ـ أتوجد مدرسة في وادي العيون ؟

ـ تعلمت عند الشيخ .

كانت عينا نعيم تتفرسان في وجه هذا الفتى ، ترافقان حركاته ، تكتشفان اي انسان يكون . واذا كان فواز قد تعلم الكثير من أبيه ، فان احد الدروس التي اتقنها ، وكثيراً ما كان يُختبر فيه حين كان في وادي العيون ، ان يتطلع الى وجوه الذين يتحدث اليهم ، لان الانسان اذا عجز لسانه تتكلم عيونه ، وربما لم ترق لنعيم

هذه النظرات المحددة الصلبة ، والتي تحمل عداء مقابلاً . او على الاقل عدم التقدير الذي كان يتوقعه ، سأل بسخرية :

ـ ما هو الشيخ ؟ وماذا تعلمت ؟

ـ الشيخ مناور امام مسجد وادي العيون هو الذي علم الاولاد القراءة والكتابة والحساب !

لا يعرف فواز لماذا شعر نحوه بعداء اكبر ، فالاسئلة لا تحمل اي مقدار من البراءة ، بل هي اقرب الى عدم الثقة والسخرية . أما طريقته ثم نظراته الرخوة ، وهذا الشكل من الرجال ، الاقرب الى صغر الحجم ، والذي تخرج كلماته من بين اسنانه ، وكأنها تخرج من جسد آخر ، فقد جعله يحس بالكراهية . قال دحام ينقذ الموقف وينهي هذا النقاش العقيم :

ـ فواز يكتب الرسائل للجميع .

رفع نعيم يده في الهواء دلالة عدم الاهتمام او عدم الثقة ، وقال بتعالٍ :

ـ المهم ، انتم ، الاثنين ، تقع عليكم المسؤولية . نحن كتبنا التعليمات التي يجب ان يتقيد بها العمال ، ويجب ان تفهموا هؤلاء البشر .

ومد الى دحام ورقة كبيرة مطبوعة فاستلمها منه بلهفة واحترام . تطلع اليها ، هز رأسه دلالة على الاهتمام الكبير ، تابع نعيم بنفس الطريقة الرخوة :

ـ اولها شرط آخرها سلامة .

قال هذه الكلمات غير الواضحة ، تطلع اليهما متسائلاً ، فظلا صامتين ، اضاف وهو يضحك بسخرية :

ـ غداً لا يأتون الى العمل . غداً تقرأون عليهم هذه التعليمات . تقرأونها مرة . . مائة مرة حتى اذا فهموا نبدأ العمل بعد غدٍ بدون مشاكل . .

وبعد قليل اردف بلهجة حازمة :

ـ غداً قبل الظهر ترسل لنا ثلاثة لاستلام الملابس الجديدة ليلبسها العمال بدل هذه الخرق والبهدلة .

وضرب الفراش ايذاناً ان مهمته اوشكت على الانتهاء ، وسأل :

ـ مفهوم ؟

وبكل الخنوع الذي تعرفه الحيوانات الذليلة الجائعة عبّر دحام عن فهمه المطلق ،

وعن استعداده غير المعهود لكي ينفذ التعليمات بدقة . عبر عن ذلك بالكلمات والحركات وهذا الانفعال المبالغ فيه ، وهو ينقّل نظراته بين الورقة التي ظلت مفتوحة وبين وجه الترجمان .

أما فواز فقد شعر بالانقباض وما يشبه الكراهية لهذا الرجل القصير ، لدحام ، وهو يتذلل بهذه الطريقة ، ثم لهذه المهمة التي لا يعرف كيف وجد انها مفروضة عليه . أما محاولات دحام في ان يستبقي نعيم على العشاء ، فقد قابلها الرجل بابتسامة تحمل معنى الرفض اكثر مما تحمل معنى الاعتذار قال وهو يهز فنجان القهوة دلالة أنه اكتفى ، وكان يقف في باب الخيمة ويتطلع بنظرة واسعة وكأنه يختبر نفسه ويختبر الآخرين . قال كلماته الأخيرة وهو يمشي :

ـ بعد غدٍ سنرى !

خلال اقل من شهر بدأت تنشأ مدينتان : حران العرب وحران الاميركان .

العمال الخائفون المرتبكون ، الذين اثاروا سخرية الاميركان ثم قهقهاتهم في البداية ، هم الذين بنوا المدينتين . هم الذين ثبتوا الالواح الخشبية البيضاء ببراغي قوية ، وهم الذين حملوا العوارض الحديدية الثقيلة ووضعوها فوق الالواح ثم شدوا بعضها الى بعض ، وهم الذين ثبتوا الزجاج وعاكسات الشمس ، ثم قاموا بالطلاء . كانوا بعد كل بضع ساعات ينفضون أيديهم ويتراجعون قليلاً الى الخلف لكي يلقوا نظرة على بيت آخر فرغوا منه . والمهندس الاميركي الذي يشرف ويراقب ، ما ان يفرغ العمال حتى يلقي نظرة ، ثم يختبر الجدران والسقوف باليدين ، بالآلات ، فاذا تأكد من كل شيء ، تطلع الى الوجوه السمراء باعجاب تمازجه الدهشة ، وبدأت الكلمات تتردد : OK .

لقد حصل هذا مرة بعد اخرى في حران الاميركان ، وخلال أقل من شهر كانت نواة مدينة كبيرة ومنظمة قد بدأت تتوضح وتتكامل : شوارع متصالبة عريضة واخرى ضيقة ، لكن باستقامة حادة ، وكلها دكتها الآلات المدحوية الثقيلة ، ثم فرشت بمواد سوداء لزجة . بيوت تشبه الاديرة التي تمر فوق وادي العيون ايام

الشتاء ، بيوت صغيرة واخرى لا يدري احد من سيسكنها لفرط كبرها واتساعها . عدد من برك السباحة في امكنة متعددة ومتباعدة ، والى جانبها تماماً بيوت من القش وسعف النخيل ، وطريق طويل يربط التل الشمالي الشرقي بالبحر . وقد وضعت مئات الأنابيب على الطريق وظلت مثل سر لا احد يعرف ماذا ستكون . .

وخلال هذه الفترة لم تتوقف البواخر عن الوصول . كانت تحمل مواد لا يمكن لاحد ان يحزر لاي امر ستُستعمل : حتى بعد ان تفك عنها الصناديق الخشبية وتخرج من الاوراق الخشنة او من العلب ، وينكب عليها واحد او اثنان من الاميركيين ، وتبدو مثل تلال حديدية متألقة ، لا يمكن لاحد ان يقول كلمة واحدة عن هذه « البلايا » الجديدة .

كان العمال العرب ، والذين بدوا مثل الدمى في الأيام الاولى ، بعد ان دكوا اجسادهم الناحلة في الاوفرهولات ووضعوا على رؤوسهم تلك القبعات البيضاء الصلبة، كان هؤلاء قد قسموا الى مجموعات ووزعوا في انحاء متعددة ومتباعدة من المعسكر ، ولم تمضِ اسابيع قليلة حتى اصبحوا مخلوقات اخرى . كلمات الاطراء تترافق مع ضربات خفيفة على الاكتاف دلالة الاعجاب والتقدير . كانوا لا يترددون عن القيام باي عمل او تقديم اية مساعدة اذا طلب منهم ذلك . انهم الآن مستفزون الى درجة يمكن معها أن يفعلوا أي شيء ، اذ بعد الأيام الاولى ، وبعد التهيب الذي وصل حدود الخوف ، خاصة بعد ان قرئت عليهم تلك التعليمات الميتة ، شعروا بتحدٍ وصل درجة القهر ، وبطريقة مكابرة ، ودون اتفاق ، بدأت الامور تأخذ شكلاً جديداً ، اذ اصبحت الايدي تتحرك بطريقة مختلفة عن السابق ، ومعها بعض الاسماء والكلمات ، ولفرط ما تكررت ترسخت في الذاكرة دون ان يعرف احد كيف ، وبدأت معها تتكون العلاقات ، وتترافق مع ابتسامات واشارات اكثر ، فزال الخوف او تراجع .

وعلى نفس البواخر التي حملت « البلايا » كان يأتي رجال يتزايد عددهم مع كل باخرة جديدة . رجال لا يُعرف من اين اتوا او ماذا سيعملون . كانوا يتدفقون كالجراد ، ينتشرون في جميع انحاء المعسكر . وخلال يوم واحد ترتب اقامتهم وسكنهم ، حتى الطعام الذي يقدم في تلك الغرفة الطويلة ، والتي لم يعرف احد لماذا اعدت حين اكتمل بناؤها ، كان جاهزاً لكل واحد منهم .

ومع كل بناء يكتمل يندفع العرب خطوة الى الوراء ، اذ بعد ان تبنى الجدران تركب السقوف ، وبعد ان يوضع الزجاج والعاكسات يبدأ الاميركان باعمال غامضة ، اذ يمدون حبالاً سوداء قوية داخل الجدران ، ويضعون في الشبابيك كتلاً حديدية وأشياء تنفث ريحا باردة ، حتى إذا جاء البشر على ظهور البواخر أعطيت لكل واحد منهم تجهيزات كاملة من الملابس والاغطية والادوات ، وخصص له مكان بذاته ينام فيه ، وبعد يوم أواثنين يختلط هؤلاء بعضهم ببعض ، وكأنهم على معرفة سابقة ، ويندفعون في اعمال لا نهاية لها . كانت مهمة بعضهم في البحر ، ومهمة آخرين ان يمدوا تلك الانابيب من مكان الى آخر ، وكانت مجموعة تنصب الآلات التي فكت من الصناديق . كان الجميع يتراكضون مثل القطط المذعورة من مكان الى آخر ، وهم عراة تقريباً ، اذ عدا السراويل القصيرة والقبعات البيضاء ، كانوا لا يضعون شيئاً على اجسامهم اغلب الوقت . كانت البقع السوداء تغطي الاجسام والوجوه ، وكانت بعض الجروح الصغيرة تظهر في الاصابع وفي اماكن اخرى من الجسم ، والعرق يسحّ كأنه المطر من الصدور والوجوه ، فاذا اختلطت هذه الاشياء معاً يبدو الانسان مضحكاً ، لكن لفرط ما تكرر مثل هذا المشهد لم يعد يثير احداً او يلفت نظر أحد .

* * *

وخلال اقل من شهر عاد ابن الراشد محاطاً بعدد من الرجال . لا احد يعرف من اين ، ما عدا سبعة من ابناء المنطقة ، من عجرة والروضة ، فان الآخرين جاءوا من اماكن بعيدة ومختلفة .

واذا كان ابن الراشد قد ترك حران ارضا عراء ، لا بيت فيها ولا علامة تدل عليها ، عدا مجموعة من الخيام في الجهة الغربية ، ومجموعة من الصناديق الخشبية الكبيرة التي جاءت بها « البلية » ، فقد ابدى دهشة بلغت حدود الاعجاب الشديد حين رأى من بُعد تلك الاشياء الخارقة التي قامت في فترة غيابه . عبّر عن ذلك بصوت عالٍ وامام المجموعة التي كانت معه . أما حين وصل ورأى الرجال ، وقد عادوا من حران الاميركان ، وهم يلبسون الاوفرهولات ويضعون على رؤوسهم تلك القبعات ، فقد رفع يديه الاثنين بدهشة اقرب الى الخوف وصرخ :

ـ يا سبحان الله . . ويش سويتم بارواحكم يا اولاد الحلال ؟

اغلب الرجال لم يفطن لحقيقة استغراب ابن الراشد في الوهلة الأولى ، نظر بعضهم الى بعض ، ثم نظروا الى ابن الراشد متسائلين ، أما هو فقد تابع وكان يقهقه :

ـ قلت لنفسي : الاميركان ما يُغيّرون اولاد العرب ولو طلعت بروسهم نخلة

واقترب من دحام الذي بدا مضحكاً بملابسه الضيقة ، بكرشه الكبير قليلاً ، ومؤخرته الناتئة ، وقال وهو يربت على كتفه :

ـ ابن آدم كل يوم يطلع له قلب .

ورغم ان الدهشة لم تزايل ابن الراشد ، فقد اثنى ، بصوت عالٍ ، وبمبالغة كبيرة ، على كل شيء رآه او سمع به . اثنى على دحام وعلى الرجال الآخرين ، اثنى على البيوت الجميلة التي اقامها الاميركان ، وقال ان العرب يجب ان يفعلوا مثلهم ، ثم بدأ يستفسر عن كل شيء بلهفة ، عن المنشآت متى اقيمت ، ومن اقامها ، وكم احتملت من الوقت ، وعن الملابس متى حصلوا عليها ، ثم امتدت يده الى احدى القبعات فتلمسها باهتمام دلالة الاعجاب ، ولم ينس ان يسأل ما اذا كان الرجال كلهم قد حصلوا على هذه الملابس والقبعات ، وما اذا كان يوجد منها اعداد اخرى . كان شديد الانفعال ، حتى ان الاسئلة كانت تتلاحق ، ولم يكن ينتظر ليستمع الى كل التفاصيل ، لان لهفته وانفعاله ، ثم رغبته في ان يعرف كل شيء فوّتت اكثر التفاصيل التي حرص دحام على ذكرها .

في غمرة الدهشة والانفعال فات ابن الراشد تقديم الرجال الذين جاءوا معه ، وهؤلاء الذين أُخذوا ايضاً بهذا الجو ، ظلوا في جهة ، قريباً من الجمال ، صامتين ، ثم لما غرق ابن الراشد بالاسئلة قام بعضهم باناخة الجمال والبدء بفك احمالها ، حتى اذا التفت واكتشف انهم لا يزالون بعيدين ، وفي محاولة لان يقدّم ادهاشاً موازياً لما رآه تحرك بسرعة وصخب طالباً من الجميع ان يعاونوا في انزال الاحمال وادخالها الى خيمته .

وبجو من الحماسة والمشاركة تمت العملية في فترة قصيرة ، وقد تخللتها اسئلة وكلمات مازحة ، ونظرات تبادلها الذين كانوا من قبل مع الذين جاءوا ، وفي لحظة من الحزم ، وكأنه تذكر شيئاً ، قال ابن الراشد مع الاحمال الأخيرة التي انزلت :

ـ ابشروا يا جماعة الخير . . كل شيء راح يصير مثل ما تريدون .

أما حين تجمع اغلب الرجال وجلسوا في تلك الفسحة بين الخيام ، في مواجهة البحر ، بعد ان انتزع اكثرهم الملابس الضيقة التي كانوا يلبسونها ، او فكوا ازرارها التي كانت تجعلهم مثل القوالب ، وانتزعوا ايضاً القبعات وتركوها في الخيام او وضعوها جانباً على الارض ، في لحظة من لحظات الصمت التي تعمدها وخلقها ابن الراشد ، ابلغ الرجال ان احد الذين جاءوا معه سيتولى القصابة ، وقال عنه انه قصاب اباً عن جد ، وسوف يبيع اللحم للذين يشاؤ ون . وقال إن آخر ، واشار الى رجل مربوع او اميل الى القصر ، وشديد السمرة ، سيتولى بيع الحاجات لجميع اهل حران ، وستكون هذه الحاجات كثيرة ومتنوعة ، مثلما هو الحال في عجرة او امكنة اخرى . ثم التفت الى اكثر من جهة حتى التقت عيناه بعيني ذلك الرجل الصغير الضامر ، قال وهو يضحك فتبين اسنانه الفارغة :

ـ انا اعرف البدوان . . تعودوا على خبز ما يغيرونه ، والخويا يعرف كيف يسويه . .

وضحك بصوت عال وهو يضيف :

ـ وكُلوا يا عربان وادعوا لطويل العمر !

ولم يفهم من يقصد بطويل العمر ، هل هو الخباز ام ابن الراشد ذاته ام احد غيرهما ! أما ذلك الشاب الخجول الذي كان يلبس بنطالاً وسترة ، وقد ظل بعيداً وصامتاً ، وكأنه في حلم او يشهد مسرحية غريبة ، فقد قال ابن الراشد انه « المهندز » الذي سيبني للعرب بيوتاً يغار منها الاميركان .

هكذا ابلغ ابن الراشد الرجال . واذا كان قد بدا عليه التعب من الرحلة الطويلة ، فقد كان شديد التوقد والحركة ، يريد ان يرى كل شيء ، ان يسمع عما حدث أثناء غيابه : عدد البوابير التي جاءت والأشياء التي حملتها ، والأشخاص الذين وصلوا خلال هذه الفترة . ودحام الذي تولى الاجابة ، وبعض الاحيان باستفاضة ، لاحظ ان الرجل تشغله امور اخرى ، وكان يفكر باشياء مختلفة ، اذ ما لبث ان رآه يقوم ويطلب منه ان يرافقه الى حران العرب .

مع اهل حران كان ابن الراشد انساناً مختلفاً . ابدى الكثير من اللطف والتبسط في الحديث . سأل كل واحد منهم . سأل ما اذا كانوا بصحة جيدة ، وسأل عن مساكنهم الجديدة وهل هم مرتاحون فيها ام بحاجة الى شيء آخر ، وقد ابدى

اهتماماً خاصاً « بالشايب » ، كما كان يسمي ابن نفاع تعبيراً عن الاحترام ، حتى اذا فرغ من هذه الاسئلة ، بدأ يسأل عن اراضي حران ، هل هي ارض مشاع ام مقسمة ، واذا كانت مقسمة من هم الذين يملكونها ، والاراضي التي بجوارها هل هي مراعٍ ام أراضٍ مملوكة ، وقد كان شديد الاهتمام والدقة بكل ما قالوه ، وطلب من دحام ان يسجل كل شيء ، ثم عاد واكد عليه مرة اخرى ، اثناء عودتهما ان « يضبط هذه الامور لانها مهمة » ولم يقل شيئاً آخر .

ابن الراشد وحده الذي يفكر ويقرر ، لا يعطي سره لاحد ولايستشيراحداً . لقد حرص على ان يذهب الى عجرة بشكل مفاجىء ، وكأنه يدبر مؤ امرة ، اذ لم يعرف بسفره الا الذين رأوه يركب ويمشي . طلب من الرجال ان يمهلوه « مسافة الطريق » كما قال واكد اكثر من مرة ، وبعد ان غاب شهراً ها هو يعود ، وبدل ان يحل مشكلة السابقين جاء برجال جدد ، وبمشاكل اخرى .

كل هذه اسراره الخاصة ، حتى عندما وصل سأل عن نعيم قبل ان يسأل عن اي انسان آخر ، ولما قال له دحام المزعل « الخويا وصل عدد كبير منهم ، ونعيم مشغول معهم » طلب ابن الراشد من أحد رجاله أن يذهب الى معسكر الأميركان ، وأن يبلغ نعيم بوصوله ، وأنه يريد أن يراه لأمور هامة . فلما ذهب الرجل وعاد ، دون أن يرى نعيم أو يعرف عنه أي شيء ، قال ابن الراشد يخاطب دحام :

ـ يلزم تشوفه باكر من كل لزوم وبد . . .

وابتسم وهو يضيف ، لكن بصوت خافت :

ـ هو المفتاح . . . ولازم ندبره .

ولم يفهم دحام شيئاً مما قاله ابن الراشد ، لكن هز رأسه دلالة الموافقة ! . .

حران الاميركان تنمو وتتسع كل يوم ، ومع نموها واتساعها تزداد غرابة وتغيراً ، أما في عصر ذلك اليوم الذي صُرف فيه العمال باكراً ، ولم يسمح لهم ان يقتربوا من بعض الاماكن ، رغم انهم لم ينجزوا العمل فيها ، خاصة البركة الكبيرة . . عصر ذلك اليوم بدت حران الاميركان غير عادية ، وكأنها تستعد لشيء ما ، واذا كان ابن الراشد قد قرر ان يخصص عصر اليوم نفسه ، واليوم الذي يليه ، وكان يوم عطلة ، من اجل الانتهاء من بناء الدكاكين الثلاثة التي ستخصص للمختبز والقصابة وبيع الحاجات ، الا ان السفينة الكبيرة التي بدأت تظهر في الافق غيّرت كل شيء في حران العرب وحران الاميركان معاً ، وغيرت كل ما كان فيه الكثيرون .

لما وصلت السفينة الكبيرة عند الغروب ادهشت الجميع . فشكلها يختلف كثيراً عن السفن التي وصلت من قبل ، اذ كانت تتلألأ بانوار ملونة ، وقد حوّلت البحر الى كتلة من اللهب ، أما حجمها الهائل وهي تتقدم فقد جعل الناس في ذهول شديد . لم ير اهل حران ولا العمال الذين جاءوا من الداخل شيئاً مثلها من قبل ، عجبوا وتساءلوا كيف يمكن لشيء مثل هذا الحجم ان يطفو فوق الماء . . وكيف يسير .

ما كادت الباخرة تقترب حتى بدأت الاغاني والطبول والاصوات تنبعث من كل مكان ، من على ظهر الباخرة ومن اليابسة ، حيث اصطف كل الاميركيين الذين كانوا في المعسكر . وباحتفال صاخب بدأت المراكب الصغيرة ، بعد ان توقفت الباخرة ، تنقل الذين كانوا على ظهرها . نقلت المراكب عشرات الناس ، مئات الناس . وكانت مع الرجال اعداد كبيرة من النسوة . كانت النسوة : طريات ، لامعات ، باسمات ، او كالخيول بعد شوط طويل من الركض . كل واحدة مغسولة ، قوية ، مستعدة وكأنها خارجة لتوها من حمام ساخن . كانت الاجساد لا تسترها الا قطع صغيرة من اقمشة ملونة . السيقان شامخة ظاهرة واقوى من الصخر . الوجوه والايدي والصدور والبطون . . كل شيء ، نعم كل شيءً ، كان يشتعل ، يرقص ، يطير . وكان الرجال يشتبكون مع النسوة على ظهر الباخرة ، ثم في المراكب الصغيرة ، أما على ظهر اليابسة فقد حصل شيء لا يمكن لاحد ان يصدقه .

انه منظر لا ينسى ، ولا يمكن ان يتكرر ايضاً . اصبح الناس كلهم كتلة واحدة ، واقرب ما يكونون الى جسم جمل عملاق ، لم يبق احد الا واشتبك بالآخرين ، التحم بهم .

واهل حران وهم يقتربون خطوة بعد خطوة ، دون شعور منهم ، وكأنهم منومون ، يزدادون دهشة وعجباً . كانوا لا يصدقون ما ترى اعينهم ، وما تسمع آذانهم . هل يوجد شيء مثل هذا ، سفينة مثل هذه ، بهذا الحجم ، بهذه الروعة؟ هل يوجد في العالم هذا النوع من النسوة اللواتي يشبهن الحليب والتمر معاً ببياضهن المحروق ؟ وهل يتصور احد ان يقمط الرجال النساء دون خجل ، دون خوف من الآخرين ؟ والنسوة . . هل هن زوجات ام عشيقات ام شيء آخر ؟

كان رجال حران يتطلعون ، يتابعون بانفاس لاهثة ، وكانوا اذا رأوا شيئاً لا يصدقونه ، ينظر بعضهم في وجوه بعض متسائلين ، ومع النظرات ابتسامات وشهوة ، وبعض الأحيان صرير حاد بالأسنان أو ضربات قوية على الأرض . والأطفال سبقوا الجميع ووصلوا في وقت مبكر . جلسوا قريبا من الماء ، ولم يتردد عدد منهم في النزول الى البحر والاقتراب من الباخرة . أما الكثيرون فقد فضلوا البقاء على اليابسة لكي يتحركوا بسرعة وسهولة ، ولئلا يفوتهم اي شيء . . حتى النسوة تابعن كل شيء

من بعيد ولم تجرؤ اية واحدة منهن على الاقتراب .

انه اليوم الذي يؤرخ لحران : متى قامت وكيف قامت ، لأن الكثيرين لا يتذكرون حران قبل هذا اليوم . حتى ابناء حران ذاتها الذين كانوا في هذا المكان منذ وقت بعيد ، والذين خافوا حين وصلت المجموعة الاولى من الاميركيين ، وخافوا اكثر حين رأوها تزرع الشاطىء والتلال ؛ اهل حران الذين ولدوا وعاشوا هنا ، والذين حزنوا كثيراً حين ابلغوا ان بيوتهم سوف تهدم ، فاستعادوا احزاناً قديمة ، كما تذكروا الموتى والمسافرين ، ان هؤلاء انفسهم يتذكرون يوم وصول تلك الباخرة اكثر من اية ايام اخرى ، بمزيج من العجب والخوف والدهشة ، حتى ليكاد يصبح التاريخ الوحيد الباقي في ذاكرتهم .

أما العمال الذين زحفوا مجموعة بعد اخرى ، والذين رأوا كل شيء باعينهم ، فقد كانوا في حالة من العصبية والقهر واللوعة اكثر مما كانوا فرحين . لأول مرة يتملكهم شعور ساحق موجع بانهم جاءوا الى هذا المكان بطريق الخطأ ، ويجب ان لا يبقوا طويلاً . وابن الراشد الذي تظاهر بعدم الاهتمام اول الأمر ، وطلب من واحد او اثنين ان يستطلعوا « البلية الآتية » ، وكان يهيّء العمال لكي يبدأ حملة ببناء حران الجديدة ، حتى ابن الراشد لم يستطع ان يصبر طويلاً او ان يظل بعيداً ، اذ ما كادت الباخرة تتقدم وتطلق دوي صفاراتها مرتين ، ثم وقوف الرجال والنساء على شرفاتها ، وكانوا يـلـوّحون بايديهم ويتحركون ، ومع الاضواء والموسيقى ، حتى هبّ ابن الراشد وهو يقول لدحام وآخر ظلا معه :

ـ اذا جن قومك عقلك ما ينفعك .

وضحك بصوت عالٍ ثم تابع :

ـ كل طارش بعثناه لا رجع ولا رجّـع خبر ، ولازم نشوف اللي صار بهذه الدنيا !

مشى مشياً بطيئاً هادئاً ، لكن كلما اقترب نحو البحر ، وكلما اخذت المعالم تبين والصورة تتكامل ، كان يحس ان قوة في داخله تدفعه لكي يسرع . أما حين جلس وسط العمال ، قريباً من الماء تماماً ، وبدأت تظهر النشوة وتسمع الضحكات ، وفي اللحظة التي اعقبت زفرة قوية كاوية من احد العمال ، وقد خيم الصمت ، فقد قال بنزق اقرب الى الانفعال :

ـ يا خويا . . هذا هو بلاط نبيّ الله سليمان . . اللي قالوا عليه .

علت الضحكات وترافقت مع تعليقات كثيرة صدرت عن اشخاص عديدين ، حتى بعض الصبية صدرت منهم تعليقات او اصوات معينة ، ولم يعترض عليها الكبار .

مقابل الصمت الذي كان يملأ حران العرب ، والمتابعة الدقيقة الملهوفة التي كانت تحكم كل واحد من الرجال الذين جلسوا على الشاطىء ، بلغت الضجة على الباخرة وعلى اليابسة ، في حران الاميركان ، حداً لا مثيل له . واذا كان العمال لم يروا ولم ينتبهوا ، حين وصول الاميركان السابقين لوجود آلات موسيقية من اي نوع ، فقد ابدوا دهشة كبيرة لما رأوا الطبول والمزامير وآلات اخرى ، وقد تجمعت على الشاطىء . وحالما وقفت الباخرة ، وهدأت اصوات الموسيقى التي تنبعث منها ، بدأت موسيقى الشاطىء اقوى وأوضح ، خاصة وقع الطبل الكبير ، والذي كان يقود حركات المحتفلين واصواتهم ، ويجعل لكل شيء لوناً وطعماً مميزاً .

قال احد العمال بحرقة :

ـ اولاد الحرام الاميركان . . اذا دخنوا عمونا واذا حسّوا ما اطعمونا .

رد هاجم :

ـ اكلهم اكل الشيوخ يا مبارك ، والمستريح اللي من « ذاك » خالي .

كان لدى الكثيرين كلمات او تعليقات يمكن ان يقولوها ، لكن الحركة النشيطة والموسيقى الصاخبة القوية . وهذه المشاهد التي تتوالى بسرعة لم تترك لاحد ان يكلمه ، حتى لو اراد . فالاخرون كانوا غارقين في متابعة هذا الحلم المستحيل .

كانوا ، اول الأمر ، يشيرون بخوف او بخجل الى بعض المشاهد التي يرونها تجري . ينبه بعضهم نظر بعض بكلمات قصيرة ، بوخزة كوع ، لكن مع تزايد المشاهد ، ومع الحركة السريع . ووقوف رجال ونساء ، عراة او اشبه بالعراة . على ظهر الباخرة ، وفي تلك المراكب الصغيرة ، وقيامهم بتلك الادوار المسرحية . ايدٍ ممدودة على صدور متلاصقة ، ثم هجوم سريع وعناق وقبل ، او يحمل احد الرجال امرأة او اثنتين على ظهره وصدره ، او ان تجلس امرأة في حضن احد الرجال . . حتى بلغت الأمور هذا الحد لم يعد احد يخشى او يتردد في ان يشير بيد ممدودة ، في ان يصدر اصواتاً او كلمات واضحة الدلالة . أما التعليقات فقد بلغت الذروة مع وصول المركب الاخير

قادماً من الباخرة . كان في المركب رجل واحد وسبع نساء . كان الرجل في وسط المركب بلحيته الكثيفة وصدره المليء بالشعر ، والنساء السبع حوله نصف مضطجعات ، وهو يدور دورة كاملة ، يداعب هذه ، يداعب تلك ، ينحني فوق واحدة ، ينحني فوق اخرى ، يمسك امرأة بيد ويمسك اخرى باليد الثانية ، يدور ، يضحك بصخب ، يقفز ، يهز المركب ، ترتفع اصوات الطبل ، يدور مرة اخرى ، ينحني ، يرفع واحدة حتى تقف امامه ، يدور معها ثلاث او اربع دورات ، يتوالى صوت الطبل قوياً منتظماً ، حتى اذا اقترب المركب من الشاطىء ، قفز الرجل قفزة قوية فاصبح في الماء ، واخذ بيده يدفع المركب حتى وصل . ومع وصوله ارتفعت اصوات البشر في غناء سريع مرح . قال عبد الله الزامل :

ـ جنات عدن تجري من تحتها الانهار ، الجواري والغلمان فيها مخلدون

رد حماد الزبن :

ـ والله مثل ما قال ابو محمد : نبي الله سليمان والف بلقيس . . وموتوا بغيظكم يا اولاد الكلب . . يا عربان .

لم يصدق احد شيئاً مما جرى أمامه او رآه رأي العين ، لان ما جرى يفوق الوصف ولا تكفيه اية كلمات ، ولا يمكن ان يحدث ايضاً . حتى الصبية والاطفال الصغار الذين كانوا كثيري الحركة ولا يتوقفون عن التعليق والضحك بصوت عالٍ ، بدأوا في لحظات معينة مأخوذين تماماً بما يشاهدون فصمتوا . والرجال الذين داروا نصف دورة ، والذين تحركوا قليلاً واخذوا مواقع وامكنة جديدة لكي يتابعوا هذا الموكب في رحلته الجديدة الى داخل حران الاميركان ، كانوا مأخوذين اكثر من الصبية والاطفال . صحيح انهم كانوا أميل الى الصمت ولم تصدر عنهم تعليقات كثيرة ، الا انهم شعروا بنوع من الدوار ، واحس اكثرهم بآلام حادة تمزق اجزاء معينة من اجسامهم . بل ووصل الأمر ببعضهم ان صدرت منهم اصوات حادة تعبيراً عن هذا الالم ، وتمنى آخرون لو انهم لم يأتوا ولم يشاهدوا هذا الذي يجري امامهم .

* * * *

اغلقت البوابة بعد دخول ركاب الباخرة الى حران الاميركان ، ووقف جمعة الاسود ، مثل ملك الموت ، الى جانب البوابة ، وبيده كرباج صنع من ذنب الفيل . واخذت الضجة والاصوات تبتعد وتتداخل الا انها لم تتلاش ابداً . وحتى

وقت متأخر من الليل ظلت اصوات الموسيقى تُسمع من أماكن بعيدة ، وفي اللحظات التي تنقطع كان الرجال المرابطون على الشاطىء يتوقعون شيئاً ما في اللحظة التالية ، لان كل مرة يخيم الصمت فيها ويمتد لدقائق قليلة ، كان ينفجر بعده الصخب والضحك عنيفاً قوياً ، ثم تتبعه موسيقى اقوى من المرات السابقة ، ولان هذه اللعبة تكررت فقد اصبح انتظارها ومراقبتها لذيذاً وقاسياً معاً .

لم يحس اي من الرجال الجالسين على الشاطىء بالبرودة التي اخذت تملأ الجو ، ولم يجد احد منهم الرغبة في ان يقول شيئاً محدداً او جدياً ، ورغم ان وقتاً طويلاً قد مضى على وصول الباخرة ودخول الاميركيين الى المعسكر ، الا ان الزمن في هذه الليلة كان مختلفاً عن الليالي السابقة . واهل حران الذين تعودوا النوم مبكراً ، ولا يشذ عنهم الا بعض العمال الذين يلعبون الورق ، فان احداً لم يحس بالزمن الذي مر ، او الرغبة بمغادرة المكان . حتى الاطفال والصبية الذين أُخذوا بما رأوا فان الأمر لم يستمر طويلاً ، اذ ما لبثوا ان تحركوا ، تراكضوا وتفوهوا ، بهمس مسموع ، بكلمات لم يتصور الكبار ان الصغار يعرفونها ! ووصل بعضهم الى الخيام ، وربما نقلوا للنسوة ما شاهدوه بتفاصيل دقيقة ، لأن النسوة اللواتي ظللن بعيدات طوال الفترة التي وصلت فيها الباخرة والتي أعقبتها ، عرفن اشياء كثيرة ، وكأنهن شاهدن كل شيء بانفسهن . حتى التيس ، كما اطلقن على الملتحي الذي وصل بالمركب الأخير ، روين بالتفصيل كيف كان يدور وينحني ، وكم امرأة كانت معه في المركب ، ثم لما قفز في البحر ؛ روين كل شيء بخجل اول الأمر ، ثم بوضوح بعد ذلك . واذا كانت النسوة قد طلبن من الصغار ان يذكّروا آباءهم لكي يأتوا لتناول العشاء ، فقد فعلن ذلك دون وضوح كافٍ ودون الحاح ، كما ان الاطفال والصبية في غمرة الانفعال والركض والانتظار نسوا او اهملوا نقل هذه الرسائل .

لو أنها ليلة من ليالي الصيف ، لو ان القمر كان يملأ السماء ، او لو انها ليلة من ليالي عودة المسافرين الذين طالت غيبتهم ، لأمكن تفسير هذا السهر الذي ملأ هذه الليلة في حران ، ولرافقت السهر احاديث لا تنتهي ، عن الأيام القديمة والاماكن البعيدة ، ولتخللت ذلك ضحكات صاخبة تعبيراً عن الفرح والشوق ، ثم ما يعقبها من الاسئلة عن المسافرين الآخرين والاماكن الاخرى ، وعن المطر والعشب . أما ان يمتد السهر والرجال اقرب الى الصمت ، عدا اسئلة عجولة ولا تنتظر اجابات ،

فقد تفجرت في الصدور احزان واسئلة لا نهاية لها .

كان يمكن لكل واحد ان يقول الكثير ، حتى الرجال الذين تعودوا الصمت فان لديهم اشياء يمكن ان يقولوها . ولربما غنى بعضهم ، لو ان قلوبهم لم تكن مثقلة بهذا الحزن كله . لكن حين هجم الحزن هكذا وسيطر على الحواس ، فقد اصبح العجز يربط الالسنة ، والالم يهد الاجساد ، وانتشرت حالة من المرارة مع جفاف الحلوق وتوتر الاعضاء ، فساد الصمت ، حتى ابن الزامل الذي كان سريع الحركة وصدرت منه تعليقات كثيرة ، وذهب عدة مرات الى البوابة ، ووقف الى جانب الاسلاك الشائكة لعله يدخل او يقترب ، وكان اذا سمع شيئاً ينقله بسرعة الى الآخرين ، حتى ابن الزامل ما لبث ان خمد شيئاً فشيئاً بعد ان تعذر عليه الوصول الى اية نتيجة ، فنهض بعصبية وقال وهو يمشي :

ـ اذكروا الله يا جماعة

توقف قليلاً ، حتى اذا انتبه اليه بعض الرجال تابع :

ـ الاميركان اولاد الحرام ما من وراهم الا التعب ووجع الرأس ، هم باللحم وجماعتنا على العظام ما تحصل .

وبعد ان مشى بضع خطوات التفت وقال :

ـ اتركوهم ، يا جماعة ، الله يخزيهم ويخزي اليوم اللي وصلوا فيه

كان يجب ان يفعل احد ذلك لأن حالة الخدر التي عـمّت الجميع ، والتي بدت من الصمت والانتظار ، ثم ذلك الرحيل الى أماكن مظلمة ، قريبة وبعيدة ، وهذا الخيال الذي اشتعل دفعة واحدة ، لم يترك لاحد ان يفكر او يتصرف . وابن الزامل الذي حاول مثل ذئب جائع ، والذي انتقل من مكان الى آخر ، ثم حـرّض الصبية على ان يذهبوا الى اقصى الناحية الشرقية ويقفزوا فوق الاسلاك ، لكي يروا وينقلوا الى الآخرين ، رغم محاولاته التي فشلت كلها ، ادرك بغريزته ان الاستمرار في هذا المكان ، وبهذا الوضع ، سيولد المزيد من التعب والعذاب لكل واحد ، ولذلك حين قرر ان يذهب وقال للرجال هذه الكلمات بدأت حركة غير عادية ، ترافقت مع مجموعة من الشتائم والزفرات والتحدي .

قال ابن الراشد وهو ينهض ويتنحنح :

ـ القول قولك يا ابن الزامل . الجماعة سالفتهم طويلة وهمهم اطول .

رد احد ابناء حران :

ـ ايام السرور قصار !

قال ابن الزامل الذي ابتعد قليلاً :

ـ ولياليه اقصر

قال احد الرجال ولم يبن وجهه في الظلمة كما لم يتميز من صوته :

ـ قولوا اللي تقولوه ، لكن أخاف اننا ضيعنا الدنيا والدين ، لا نحن مع الاميركان باللحم ولا مع غيرهم بالمرق !

وضج الجميع بالضحك ، لأنهم ادركوا ما يرمي اليه الرجل ، أما ابن حران الذي اشتعلت مخيلته بكل هذه الرؤى ، والذي سافر من قبل الى امكنة بعيدة ، وربما رأى وعاش اياماً تختلف عن ايام الناس في هذا المكان النائي المجهول من العالم ، فقد كان لا يرضى ان يعود هكذا . قال بعد ان هدأت ضحكات الرجال :

ـ آخر الليل تأتيك العلوم .

* * * *

ربما لم ينم احد في حران كلها تلك الليلة . الاميركان ظلوا يصخبون ويغنون طوال الليل ، وقد اكد عدد من الرجال ، في وقت لاحق ، ان الشمس أشرقت وكان صوت الغناء اقوى من بداية الليل ، كما اكد آخرون ان الباخرة صفرت صفيراً عالياً مع شروق الشمس ، وقد حـرّض هذا الصفير الناس فبدأوا من جديد .

والناس في حران العرب لم يناموا ايضاً ؛ حتى الصبية ، بعد ان عاد الرجال ، ظلوا يحـوّمون على الشاطىء مقابل السفينة ، وقريباً من الاسلاك الشائكة ، فلما تعبوا او مـلّوا اقتربوا من الخيام وبدأوا يغنون ويمزحون ويتبادلون النكات البذيئة . وقد صاح حماد الزبن اكثر من مرة على الكلاب والصبية طالباً السكوت « لأن الناس تريد ان تنام ! » لكن احداً لم يسمع ولم يستجب .

أما الرجال الذين عادوا متأخرين فقد شعروا بالجوع لكن لم يشعروا برغبة الأكل ، وحين قال عبد الله الزامل ان اباه كان دائماً يروي حديثاً للنبي يؤكد ان الطريقة الوحيدة لتجنب الفتنة والغواية هي الصيام ، ولذلك يقترح على الرجال ان يناموا دون عشاء ، فقد لاقى هذا الاقتراح هوى في نفوس الكثيرين ، او ان

الكثيرين لم يجدوا في انفسهم القوة ، في هذا الوقت المتأخر ، لاعداد الطعام ، فاكتفوا بالشاي ، اذ جلسوا في الفسحة بين الخيام واخذوا يرشفون من الاقداح وهم صامتون .

ومثلما كان الحال على الشاطىء فان حالة المرارة استمرت وزادت ، حتى الاحاديث التي تبدأ لا تلبث ان تخبو وتتراجع ، في الوقت الذي كانت الفلاة كلها تضج باصوات الموسيقى والضحكات العالية . لقد حصل هذا عدة مرات ، وحتى النكات البذيئة التي رواها هاجم وحماد ، وكان من الممكن ان تثير ضحكاً صاخباً لو رويت في وقت آخر ، او في ظروف اخرى ، فانها قوبلت بابتسامات شاحبة صغيرة متكلفة .

وكانت الحال نفسها ايضاً في منازل اهل حران ، اذ اكتفى الرجال بأكل خفيف ، وذهبوا الى النوم مباشرة ، لكنهم لم يناموا حتى وقت متأخر !

لقد انفجرت في هذه الليلة الاحزان والرغبات والاشباح والمخاوف . لم يبق احد الا ومرت في رأسه زوبعة من الرؤى ، وشعر الناس كلهم ان عصراً جديداً قد بدأ هذه الليلة . فحران التي كانت بعيدة منسية ، والتي لم تكن تستقبل الغرباء الا في اوقات متباعدة ، خاصة اولئك الذين يأتون حاملين معهم بعض البضائع والمواد لكي يبيعوها او يبادلوها ثم يقفلون راجعين ، ما عدا هؤلاء الغرباء ، لم يكن يأتي الا رسول بعث به احد ابناء حران المسافرين وتكلف بمصاريفه كلها من عجرة او ابعد منها لينقل بعض الارزاق والرسائل والدراهم للعديدين .

أما أن تتحول حران الى هذا الشكل وبهذه السرعة ، وان تصلها البواخر وهذه الاعداد المتزايدة من البشر ، وان تبنى فيها تلك الابنية في الجهة الشرقية ، فأمر لم يقدره احد ، ولم يخطر ببال . ومع ان الناس بدأوا يألفون الابنية الجديدة ، وتعودوا يوماً بعد آخر على الوجوه التي وصلت ، فان اقصى درجة من درجات الخيال لا تبلغ بانسان ان يتصور وصول مثل هذه الباخرة . واذا كان ابن الراشد قد سماها باخرة سليمان ، لأن النساء اللواتي جئن عليها يشبهن بلقيس او اجمل منها ، فلا يمكن لاحد من اهل حران ان يصف لآخرين ما وقعت عليه عيناه وما رآه .

اي عصر يبدأ الآن وماذا ينتظر حران في الأيام القادمة ؟ وماذا يستطيع الرجال ان

يتحملوا والى متى يمكن ان يصبروا ؟ وهذه الليلة اذا مرت ، فكيف ستكون الليالي القادمة ؟

الاسئلة التي لم يطرحها احد ، والتي مرت في كل الرؤوس ، حملتها الاشباح في الغفوات القصيرة القلقة حين ذهب الرجال الى النوم ؛ وحتى الرغبات المكتومة التي لا يصرح بها الانسان لنفسه انبعثت مرة اخرى في الليل المتأخر وعند الفجر . فالذين ذهبوا الى الفراش ، دون ان يشعروا بالنعاس ، والذين اخذتهم تلك الغفوات القصيرة ، ما لبثوا ان هبوا فزعين بعد ان طاردتهم الاطياف وملأتهم بالرغبة واللذة والخوف والانتظار !

لم يكن وصول باخرة نبي الله سليمان ، او باخرة الشيطان ، كما اطلق عليها ابن نفاع ، ثم مغادرتها بعد غروب اليوم التالي ، السبب الوحيد في ان يمتنع الرجال عن البدء بانشاء المدينة الجديدة . فابن الراشد الذي فكر اكثر من مرة في ان يعرض على الرجال البدء بالعمل ، تردد ثم اجلّ الامر ، لان الحالة التي كانوا عليها لم تتح امكانية من اي نوع لبحث الموضوع . فمن لا يشكو من سهر الليلة الفائتة ، لا بد أن يدعي مرضاً أو تعباً ، ومن كان أكثر جرأة او صراحة لا يتردد في أن يقول انه يريد البقاء على الشاطىء ، مقابل « البلية » لكي يرى كيف يبنا (. . .) الأميركان! أما أهل حران الذين يعرفون من اين تقطع الحجارة وعندهم الأدوات التي تساعدهم في ذلك ، فلا بد أن يعتبروا صلاة الجمعة سبباً كافياً لعدم تلبية أي طلب . ولذلك فضل ابن الراشد ان يطوي الموضوع ، خاصة بعد ان لاحظ في صباح وظهرة اليوم التالي أن الرجال في حالة عصبية شديدة الوضوح . كانت وجوههم صفراء ، وتصرفاتهم تتسم بذلك المقدار الكبير من الحدة ، ورغم ان الصمت لا زال مسيطراً ، قال ابن الراشد لنفسه بنوع من التسليم : « الانسان انسان ، واذا كان العمال قد تركوا أهلهم منذ وقت طويل وصبروا دون أن يصدر عنهم أي خطأ فإنهم بعدما رأوا هذه العجائب أمس لا بد أن يتحولوا الى وحوش ، ولذلك فالأفضل ان

يتركوا إلى أن يبردوا » .

كانت عادة اكثر الرجال ان يصلّوا الجمعة في المسجد ، المكان الذي تُرك دون ان يطرأ عليه ايّ تغيير ، كما طلب ذلك ابن الراشد من الأميركيين عن طريق المترجم ، خاصة بعد ان سوّت الآلات الارض . أما في هذا الصباح فقد بدوا شديدي الحرج ، وتنازعتهم الافكار والآلام والآثام معاً . فالذين كان يجب ان يذهبوا الى البحر لكي يغتسلوا وجدوا صعوبة وحرجا ، لان الناس انتشروا منذ الصباح الباكر على شاطىء البحر . كان بعضهم يراقب الباخرة ، وآخرون يمشون بعصبية ، قاطعين ـ مسافة كبيرة وهم ساهمون ، حتى اذا ابتعدوا عادوا مسرعين خوف ان يفوتهم شيء ، وغيرهم شغلته اسئلة وهموم جعلته لا يفكر بغيرها .

قال ابن الراشد لدحام ، حين سأله الأخير ، ما اذا كان قد حان وقت دعوة الرجال الى العمل :

ـ اترك السالفة يا ابن مزعل ، العربان بالها ما هو معها . . .

وحين تظاهر دحام بعدم الموافقة ضحك ابن الراشد وخرجت الكلمات مبعثرة من فمه :

ـ يا ابن مزعل . . انت تعرف ان من جامع المصلين صلى ومن جامع المغنين غنى .

توقف لحظة وهو ينظر في وجه دحام ، دون ان يراه :

ـ والخويا امس ما خلوا غناء في روسهم ، طلعوا الزايدة والناقصة .

وفهم دحام ولم يلح بعد ذلك .

وحران التي لم تنم في الليلة الفائتة لم ترف لها عين لحظة واحدة منذ ان اشرقت الشمس . انتشر الناس في كل مكان . حتى النسوة اللواتي ظللن بعيدات في اليوم السابق ، اصابتهن جرأة مفاجئة ، كانت تراودهن الرغبة في ان يتقدمن نحو البحر ، في ان يراقبن كل شيء بانفسهن . والصبية الذين اطالوا النوم في هذا الصباح ، افاقوا مذعورين حين لاحظوا شروق الشمس وتقدم النهار ، ودون ان ينتظروا ، ودون ان يسألوا ، انطلقوا مثل الطيور الخائفة نحو البحر لكي يروا اي شيء حصل خلال هذه الساعات . أما الرجال الذين ارقتهم الليلة الفائتة وملأت رؤوسهم بالاسئلة والمخاوف والرهبة ، اضافة الى عشرات الرغبات الخفية ، فأبدوا نوعاً من التردد في ان يذهبوا الى البحر مباشرة ، لكن ما لبثوا ان وجدوا اسباباً كثيرة تدعوهم

الى ذلك . وخلال فترة قصيرة انطلقوا .

كان أهل حران كلهم على الشاطىء ، عدا بعض المسنين او المتدينين ، اذ رابطوا في المسجد او ظلوا بعيدين . صحيح ان الذين كانوا على الشاطىء لم يتجمعوا في مكان واحد كالليلة السابقة ، لكنهم كانوا جميعاً هناك ، وكان من السهل ان يكونوا في اي مكان دون دعوة ودون تحريض ، لكي يشهدوا كل شيء بانفسهم . حتى ابن الراشد ودحام اللذان ظلا يتحدثان بطريقة مليئة بالحكمة والتعقل كانا مشغولين تماماً ، كانت آذانهم تتابع الاصوات البعيدة ، أما حين صفرت الباخرة فقد تظاهر ابن الراشد بالانتباه ، قال لدحام وهو ينهض :

- ترى الجماعة رحلوا .

وبنفس طريقة اليوم السابق سارا باتزان وبطء ، الا ان قوة داخلية كانت تدفعهما الى السرعة ، وحين وصلا الى الشاطىء كانت السفينة لا تزال في مكانها مثل جبل ابيض ، ومجموعة من البحارة يلمعون الحديد وينتقلون من مكان الى آخر . قال ابن الراشد موجهاً الحديث الى اكثر من ابن الزامل :

- ها . . اشوف الجماعة بمكانهم . . ما قولك عرسهم خلص أو بعده ؟

- اولاد الحرام عرسهم ما يخلص ، يعرسون في كل وقت ، في الليل والنهار ، وجماعتنا وصلت ارواحها لحلوقها .

- مثل ما قال الخويا أمس : ايام السرور قصار .

- ايامنا القصيرة ، يا ابو محمد ، وانت الصادق .

- اشوفك حنّيت واشتهيت .

- من هو اللي ما يحّن ويشتهي بعد شوفات البارحة ؟

توقف ابن الزامل لحظة ، زفر بحرقة وابتسم بحزن ثم تابع كأنه يحدث نفسه :

- طقّت خصاوي الرجال من شوفات الامس ، يا ابو محمد ؛ كل نتْية ولا حورية جنة ، كل فخذ كأنه تنور ، وهات صبارك واصبر ، وهات حبالك واعقل الرجال ، يا ابو محمد ، بعد هذا اليوم .

ضحك ابن الراشد ودحام ، ضحكا بصخب ، وكأنهما بحاجة الى هذه الكلمات ولم يجرؤ واحد منهما على ان يقولها بصوت عالٍ ، وفي محاولة من ابن الراشد لكي

يجعله يتابع قال باستفزاز :

- الحريمات ما هن بمزيونات ، الواحدة مثل النعجة : بياض ورخاوة وما بها شي خلافه .

- يا ابو محمد ، يا طويل العمر ، عطني النعجة واعطاك الله الجنة .

- النعجة ما هي واقعة بايدينا يا ابن الزامل ، لو وقعت لهانت مصيبتنا كلنا .

قال دحام وهو يصرّ على اسنانه :

- لو وقعت واحدة بين يدي . . والله لاخليها تتشاهد ، تقول : اشهد ان لا اله الا الله !

لما حانت صلاة الظهر لم يذهب الى المسجد الا عدد قليل من الرجال ، اقل من اية مرة سابقة ، وكان لدى الذين لم يذهبوا اسبابهم ! أما حين غادرت الباخرة عند الغروب ، وقد جرت اثناء المغادرة اشياء لا يمكن لاحد ان يذكرها ، ولا يمكن لاحد ان ينساها ، فقد ذهب الرجال تلك الليلة الى النوم مبكرين . لكن قبل ان يناموا سافروا بعيداً ، سافروا الى آفاق لم يروها من قبل . وحين ناموا التقوا في تلك الاماكن بنساء كثيرات . نساء بيضاوات مكتنزات ، مشدودات الاجساد ، والتقوا باخريات لا يعرفن للشبع معنى او حداً ، وقد فرح الرجال في نومهم وكانوا اقوياء ، وكانت النسوة اكثر فرحاً واكثر رغبة ، وظل هذا الفرح يتكرر مرة بعد اخرى ، الى ان طلع النهار ، وحين فتح الرجال اعينهم شعروا ان حلوقهم جافة واعضاءهم متوترة ، وان تعباً غير عادي يهدهم . أما حين تذكروا الاشياء التي مرت في الليلة الفائتة وفي اليوم الفائت ، وحين تذكروا الاحلام التي ملأت ليلتهم ثم تطلعوا حولهم فقد شعروا فجأة بالخيبة والحزن الشديد .

في صباح اليوم التالي ، وعلى غير العادة ، سمعت ضجة عالية وحركة مضطربة بين الخيام ، ترافقت مع نداءات واسئلة ، وما كاد العمال يخرجون لاستطلاع الخبر حتى احسوا ان شيئاً غير عادي قد حصل . ومن الاسئلة ، من الاجابات القصيرة والسريعة ، ثم من ركض دحام المضطرب ونظراته التي لا تستقر ، عرف ان ثلاثة من العمال قد غادروا المعسكر ، وقد كان اثنان منهم اخوين ، والثالث يمت لهما بصلة القرابة . ومما جعل الأمر خطيراً بنظر ابن الراشد انهم سرقوا اربعة رؤوس من الجمال ، ولم يكتشف ذلك الا بعد ساعات طويلة من مغادرتهم ، ومما يؤيد انهم غادروا في اول الليل ، وبمجرد ان ذهب الرجال الى خيامهم ، العثور على ملابس العمل ممزقة وقد تركوها في بداية طريق عجرة ، لكن الريح نثرتها ، كما تعمدوا ارسال « تحية » مباشرة الى الشركة والى ابن الراشد بالذات ، اذ خروا في القبعات الثلاث ، ويبدو ان واحداً منهم لم تساعده امعاؤه فملأ القبعة الخاصة به بالبعر !

ومن خلال المناقشة وبعد اختبار الاثر تبّين انهم غادروا حران مبكرين ، وقد اختاروا اطيب الابل واقدرها على المشي السريع ، ولذلك فان مسألة اللحاق بهم او ادراكهم بدت غير ممكنة ، ومع ذلك فان ابن الراشد لم يسلّم ، اذ اصطحب معه دحام وثلاثة آخرين من العمال ولحقوا بهم .

واذا كان العمال قد استغربوا وتساءلوا فان صور الرجال الثلاثة ، وهي تتراءى امامهم مرة اخرى ، تثير الاعجاب ، كان الثلاثة ، خاصة الأخوين ، يتمتعون بهمة عالية ولا يترددون في تقديم المساعدة للجميع ، وجوههم أنيسة وتصرفاتهم تتسم بذلك الحد الكبير من الاحترام للآخرين . وكان واحد منهم محدثاً بارعاً يحفظ قصصاً كثيرة يرويها باسلوب ساحر ، وكان الرجال ، اغلب الاحيان ، يبحثون عنه ، ويذهبون الى حيث يكون لكي يستمعوا الى احاديثه وقصصه .

الآن بعد ان تركوا بهذا الشكل ، بدا كل واحد من الرجال يستعيد تصرفات الثلاثة في اليومين الأخيرين ، واذا كانت الوقائع قد غابت او لم يتذكرها الكثيرون . لكن لم ينس الجميع ان محيسن هو الذي رتب بعض المقالب اثناء وصول الباخرة ، ثم عند مغادرتها ، ورغم ان بعض المقالب نفذها الاطفال فانه كان هو وراءها ايضاً ! فهزاع المجول ، الطفل اليتيم في حران ، والذي كان عمره تسع سنين ، هو الذي رمى قطة في المركب حين كان الاميركيون يغادرون ، وقد سببت ذعراً ، خاصة بالنسبة للنساء ، وكاد احد الرجال ان يرمي القطة في البحر للتخلص منها ، لكن اختباءها تحت المقاعد ، ثم الهرج الذي وقع بعد ذلك ، نتيجة ارتفاع دقات الطبل ، شغلت الجميع ، وقد عاد المركب بالقطة ، بعد ان وصل الركاب الى الباخرة ، وما كادت تقترب من الشاطىء حتى قفزت وسقطت في البحر ، لكنها استطاعت النجاة ، وكانت موضع قهقهات صاخبة من الذين كانوا يراقبون .

وهزاع المجول ، الذي بعص امرأة من الاميركيات ، حين كانت تهمّ بالصعود الى المركب ، فعل ذلك بتحريض من محيسن ، أما حين امسك جمعة حارس الباب ، باذن الصغير وشدها فقد احس هزاع ان اذنه طارت فصرخ ثم شتم الاميركين كلهم ، وما كاد يفلت حتى بدأ يشتم باعلى صوته ثم بدأ يقذف الحجارة .

وهزاع المجول هو نفسه الذي جمع الحصى وبدأ مع اطفال آخرين يرجمون البشر والمراكب ، وقد صرخ به حماد الزبن ، فلما لم يتوقف ركض وراءه ، وكاد يمسك به ، لولا أن حماد تعثر في اللحظة الأخيرة وسقط ، وقد سبب سقوطه ضحك الجميع ، وظل الكثيرون يتذكرون هذه الحادثة بعد وقوعها بفترة طويلة ؛ أما حماد فلم يأت على ذكرها أبداً ، رغم ان خنصر يده اليسرى قد انكسر وظل مربوطاً لمدة ثلاثة اسابيع .

هذه الوقائع التي جرت كان محيسن وراءها . واذا كانت قد فهمت على انها مداعبات ، وربما دون تدبير من احد ، فانها تبدو الآن شيئاً مختلفاً ، خاصة تلك التحية التي تركها للشركة ولابن الراشد . أما هروبه وهروب الاخوين ، دون ان يحس احد ، ودون ان ينبيء اي تصرف من تصرفاتهم عن ذلك ، فانه يكتسب معنى اضافياً ويدل على تدبير سابق ، وكأنهم كانوا يستعدون منذ وقت طويل . تمنى الرجال ان تضيع آثارهم،أن لايستطيع ابن الراشد اللحاق بهم ، اذ لو ادركهم فلا بد ان تقع معركة ، وابن الراشد الذي يعتز بالبارودة الانكليزية ، والتي كانت تنتقل ما بين كتفه وظهر الناقة بشكل مبالغ فيه ، وللتظاهر اغلب الاحيان ، اثناء الرحلة من عجرة الى حران ، واستعملها مرتين ، الاولى بعد ان طلب الى احد الرجال وضع نيشان في بداية الرحلة وبعد مغادرة عجرة مباشرة . والمرة الثانية حين جرها بانفعال وصوبها نحو حصيني لكنه اخطأه ، واختفى الحصيني تماماً ، في هاتين المرتين كان يريد ان يعطي الرجال درساً ، وان يدخل الخوف الى قلوبهم . الآن ، اذا ادرك الثلاثة فلا بد ان يستعمل بندقيته لكي يخلق الهيبة التي يريدها لنفسه ، خاصة وأن الثلاثة لن يسلموا ولن يرجعوا .

كان الرجال يستعيدون الوجوه والوقائع بانفعال ظاهر ، ويحسون في اعماقهم ان مجموعة من المصائب تنتظر الجميع . ويحسون ايضاً ان وصول باخرة الشيطان ، بما تحمله من غواية ، بداية لفترة من الشدة ، والا لماذا هرب الثلاثة في هذا الوقت بالذات ؟ وهل كانوا مضطرين لسرقة الجمال وتعريض انفسهم الى مخاطر لا احد يعرف الى اين ستصل ؟ قال ابن الراشد وهو يتسلم الجمال ، بعد ان اشتراها ، انه مستعد لاعادة اي جمل لصاحبه اذا اراد ، فلماذا يعرض الرجال الثلاثة انفسهم وحياتهم للخطر ؟ والهروب . . لماذا هربوا ؟ كان يكفي ان يحزم الواحد منهم امتعته ويقول لابن الراشد انه لم يعد راغباً او مستعداً للاستمرار ، وابن الراشد مهما حاول لن يستطيع ان يرغم احداً على البقاء او العمل . لقد كان شديد اللين حين سافر الى عجرة ، طلب من الرجال ان يمهلوه ريثما يذهب ويعود ، وبعد عودته سوف تتغير الامور . صحيح انه لم يف بوعده ، وقد مضى على وصوله فترة ، لكن الامور ستتغير بالتأكيد .

هكذا كانت الافكار والتساؤلات تملأ الرؤوس ، أما القناعة الحقيقية التي

سيطرت على الجميع ، وجعلتهم متأكدين ، فهي ان الباخرة ، النساء اللواتي في الباخرة ، كنَّ السبب الوحيد في هروب الرجال . . لم يحتملوا ، فاختاروا هذا الطريق الذي لم يجدوا غيره .

أما عندما وصل الرجال الى المعسكر الآخر ، الى حران الاميركان ، فقد بدأوا ينظرون الى كل شيء نظرة جديدة . كانوا يريدون ان يكتشفوا آثار تلك الليلة واليوم الذي تلاها . ماذا صنع الاميركيون وكيف هم الآن بعد ان افرغوا هذا العذاب الذي يملأ اجسادهم ؟ وتلك الباخرة اللعينة ، والنساء اللواتي وصلن عليها . . . هل رحلن جميعاً ام لا تزال مجموعات منهن باقيات ؟

بدا الاميركيون في هذا الصباح اكثر مرحاً واكثر نشاطاً ، وصدرت عن الكثيرين ابتسامات وتصرفات لم تكن مألوفة من قبل ، وحين تساءلوا عن العمال الآخرين ولم يجدوهم ابدوا استغرابهم ، ولما جاء نعيم لكي يستفسر ويترجم بدا نصف نائم ، كانت عيناه حمراوين ، وكان التعب ظاهراً عليه ، وبشفاه لا تكاد تنفتح سأل عن دحام ، ثم عن ابن الراشد ، ولما قدم العمال معلومات مشوشة صرخ :

- هؤلاء البدو لا تنفع معهم الا العصا .

وبعد ان تكلم مع الاميركيين ، ولا احد يعرف ماذا قال لهم ، التفت الى العمال مرة اخرى وقال بغضب :

- حسبنا انكم صرتم بشراً ، وتعرفون ان العمل هو العمل ، لكن الظاهر ان الخطأ ما هو خطأكم ، الخطأ على من يضع ثقته ببشر مثلكم !

ولما ظل العمال صامتين سأل بحدة :

- الخرا ابن الراشد والاخرا منه دحام . . وين صاروا ؟

ولما وجد العمال صامتين لا يجيبون ، ربما لانهم لا يدرون ماذا يجب ان يقولوا ، او احتجاجاً على الكلمات التي قالها وطريقته في التعامل ، قال بلهجة مختلفة :

- طيب . . طيب اذا جاءوا نتفاهم .

وتمتم بكلمات لم يفهمها احد . ثم وزع العمال من جديد وبدأوا يعملون ، لكن حالة من الغيظ وصلت حدود القهر سيطرت عليهم ، واذا كانوا يعتبرون انفسهم غير مخطئين فان مشاعرهم تجاه ابن الراشد ، وتجاه النصيّص ، الاسم الجديد الذي اطلقوه على نعيم ، كانت مزيجاً من الكراهية والاحتقار والحقد ، لكن مع هذه

المشاعر كان حقدهم على انفسهم يزداد ، لانهم قبلوا وجاءوا الى هنا ، وكانت تتردد في صدورهم رغبات كثيرة في ان يتركوا ، في ان يحطموا ، في ان ينقضوا على ابن الراشد بالذات الذي ورطهم في هذه الورطة .

في غروب اليوم التالي عاد ابن الراشد ، عاد خائباً ، أما محيسن والاثنان الآخران اللذان كانا معه فقد واصلوا سفرهم ، ولا أحد يعرف إلى أين .

لما عاد ابن الراشد عاد انساناً آخر ، حتى شكله تغير . المرح الذي كان يتظاهر به انتهى ، التبسط في الحديث الذي بدا منه في اليومين الماضيين والاستماع الى الجميع ، حل مكانهما التجهم والصمت ، كما اصبح يثور لاقل الاسباب ، ولا يتردد في استعمال كلمات قاسية اقرب الى الشتيمة ، واصبح ايضاً شديد الارتياب بكل من حوله . بدأ يراقب كل شيء بنفسه ، ويسأل عن ادق الامور ، أما حين نقل اليه العمال ما قاله نعيم ، وقد تعمدوا ان ينقلوا الكلمات التي استعملها ، فقد هزّ رأسه ولم يعلّق . كان العمال يتصورون انه سيثور ، وانه سيهدد ويشتم ، لكنه سمع كل شيء وصمت . قال الكثيرون ان الغيظ الذي يملأ صدره ، بعد ان فشل في العثور على الهاربين واعادتهم ، او على الاقل اعادة الجمال ، لا بد ان يفرغه في النصيّص . لا بد ان يرد على كل شتيمة باقسى منها ، وسوف يضع حداً لغرور هذا القزم الرخو ، ويفرض طريقة جديدة في التعامل .

في اليوم التالي ، والرجال يستعدون للذهاب الى العمل ، بدا دحام اكثر ارتباكاً وخوفاً . كانت نظراته زائغة وفكه مرتخياً ، وبدا اقرب الى الحيرة . أما ملابس العمل التي يرتديها فقد بدت غريبة اكثر من اي يوم سابق ، او كأنه يلبسها لاول مرة ،

وحين حانت لحظة انطلاقهم الى المعسكر ركض نحو ابن الراشد وتشاور معه ، وقد بدا من حديثهما انهما قلقان واقرب الى الخوف .

كان الجميع ينتظر اللحظة التي يلتقي بها دحام بنعيم ، سوف يقف الرجلان في مواجهة بعضهما مثل الديوك : كلمة من هذا ، كلمة من ذاك ثم يتماسكان ، يتضاربان ، ولا بد ان يشهد المعسكر اولى معاركه الكبرى ؛ سوف يقف الجميع مبهورين حين يلوي دحام رقبة نعيم ويلقي به الى الارض ، واذا لم يشترك العمال الآخرون في هذه المعركة فسوف يكوّنون سداً لحماية دحام من الاميركيين ، اذا تقدموا لمساعدة نعيم ، سوف يصفقون له ، سوف يشجعونه . والاميركيون ، ماذا سيفعلون ! وماذا يظنون ؟ اه لو يشترك احد منهم في المعركة ، سوف يكتشفون في هؤلاء الرجال الذين كانوا يسخرون منهم انهم اقوى واشد مما توحي به اجسامهم الضامرة . وسوف يقلبون المعسكر رأساً على عقب . انها الفرصة لكي توضع الامور في نصابها ، لكي يُعرف الرجال . لن تنتهي المعركة بسهولة ، وأياً كانت الاسلحة التي توجد لدى الاميركيين فسوف يدفعون ثمناً لتدخلهم . الافضل ان يبقوا على الحياد، ان لا يتدخلوا ، ولا بد ان يدفع النصيص ثمن الكلمات التي قالها بالامس ، فاذا كان شجاعاً وقوياً فقد حانت الساعة التي يتم فيها الحساب .

مرت هذه الخواطر والصور في رؤوس الرجال وهم يمشون نحو المعسكر ، وكان يمكن لهذه الخواطر والصور ان تتحول الى كلمات ، الى قبضات تشدّ على يدي دحام ، تدفعه وتحرضه ، لكن مشيته في مؤخرة الجماعة ، على غير عادته. وهذا الوجوم الذي سيطر عليه جعل الرجال يترددون ثم يصمتون .

مع الخطوات الاولى في حران الاميركان ، وما كاد دحام يشاهد نعيم من مسافة بعيدة ، وكان يقف مع احد الاميركيين ، قريباً من المطعم ، حتى اندفع نحوه . ركض بهرولة مضحكة ، وكاد يتعثر ويقع . أما حين اقترب واراد ان يتكلم معه ، فقد اشار اليه نعيم بيده اكثر من مرة ان يصمت وان ينتظر ، ومثل طفل صغير وقف على مسافة خطوتين او ثلاث خطوات . استمر نعيم يتكلم مع الاميركي ، حتى اذا ضحكا بقهقهة عالية وربت الاميركي على كتف نعيم ثم انصرف وهو يشير بيده ، التفت نعيم نحو دحام ، وتبادلا بعض الكلمات ، هز بعدها نعيم رأسه واقترب منه ، وظلا يتحدثان بعض الوقت ثم انصرف باتجاه الادارة .

اي شيء قاله دحام ولماذا ظل نعيم هادئاً بعد تهديدات الامس ؟ هل نقل اليه اخبار الرجال الذين هربوا وكيف انه ذهب وراءهم هو وابن الراشد وابلغه انهم فقدوا اثرهم وعادوا خائبين ؟ والرجال اذا اخذوا الجمال وسافروا هل يعني ذلك ، بنظر نعيم ، سرقة كبيرة وخطيرة ؟

لا بد ان يكون شيء خطير قد نقل الى نعيم ، استنتج الرجال ذلك من هزات رأسه ثم توجهه الى الادارة . كانت العادة ان يأتي كل صباح لكي يشرف على احصاء الرجال وتوزيعهم ، وكانت تترافق هذه العمليات مع نظرات مملوءة بالكراهية وعدم الثقة . ان يتخلى عن هذه العادة ، خاصة بعد ان جاء جميع الرجال ، عدا الثلاثة الذين تركوا المعسكر ، وما يتطلبه ذلك من اعادة توزيع العمال ، ثم وجه دحام الذي تغير خلال هذه الدقائق القليلة ، اذ زالت منه الحيرة وبدت نظراته اكثر ثباتاً ، ان هذه التغيرات تؤكد ان حديثاً خطيراً قد جرى . أما حين جاء نعيم مرة اخرى واشار من بعيد الى دحام ان يتبعه فقد تأكد الجميع ان الامر اكثر جدية وخطورة مما قدروا في البداية .

ابن الراشد جاء الى المعسكر قبل الظهر بقليل ، كان يمكن ان يأتي قبل هذا الوقت ، لكن اختياره لفترة الظهيرة معناه ان زمناً طويلاً قد انقضى على بداية العمل ، وان فترة الغداء لا بد ان تكون احسن الفترات لكي يوضح لنعيم جميع الملابسات ، ومعناه ايضاً ان الغيظ الذي يملأ صدر الرجل قد زال او تراجع كثيراً .

بإشارات اكثر من الكلمات اوضح دحام لابن الراشد كل شيء ، ويبدو ان ما نقله اليه كان خطيراً الى درجة انه هزّ رأسه عدة مرات دلالة الفهم والاهتمام . أما حين التقى الرجلان ، وقد وصل نعيم فجأة ، فقد فتح ابن الراشد يديه الاثنتين وبدأ الترحيب بصوت عالٍ وبكلمات حارة وودية للغاية وكأنه لم يره منذ وقت طويل ، والرجال الذين رأوا المشهد وسمعوا الكلمات ، لم يتمالكوا انفسهم من الابتسام وتبادلوا فيما بينهم نظرات ماكرة . . وتذكروا ايضاً الكلمات التي قالها نعيم امس الأول !

في ذلك اليوم ، بعد الغداء مباشرة ، أُخذت للعمال صور شمسية ، وقد كانت هذه الصور موضع اهتمامهم الى درجة اثارت الدهشة والاستغراب ، وظلت

موضوعاً لاحاديثهم حتى بعد انقضاء فترة من الزمن . أما حين اخذت بصمات الايدي فقد داخلهم الخوف وسيطرت عليهم الشكوك ، ورغم انهم وافقوا بنوع من التسليم ، الا ان احداً لم يستطع ان يفسر الأمر بشكل مرضٍ ، وقد تحدثوا في ذلك مع أهل حران ، ومع الذين وفدوا في الاسابيع الأخيرة ، الا ان احداً لم يستطع ان يقدم تفسيراً واضحاً او مقبولاً ، واظهر اثنان او اكثر من العمال رغبتهم في ترك العمل والعودة الى عجرة لان « اغنية الشيطان بدأت ،وهذه الاغنية حين تبتدىء لا تنتهي » الا ان محاولات دحام ، والتي اتسمت باللين والمكر ، وببعض التهديد ايضاً ، مشيراً الى ان تركهم العمل في هذا الوقت بالذات من شأنه ان يثير حولهم الشبهات . انتهت هذه المحاولات الى الموافقة على البقاء مؤقتاً ، لكن الخوف لم ينته والشكوك لم تتراجع ، واعتبر الجميع ان ابن الراشد هو المسؤول عن كل ذلك . وانه يرتب اموراً رديئة سوف تؤذي الجميع ، خاصة بعد ان اصبح شخصاً مختلفاً وشرساً ، وبعد ان وضع حاجزاً بينه وبين الآخرين .

قال هاجم لاخيه تلك الليلة قبل ان يناما :

ـ قلت لك : نبقى في ديرتنا ، قلت : لا ، نسافر ، سافرنا ووصلنا الى هنا . . وشفت . واذا كان اليوم مثل ما شفنا . . لا احد يعرف باكر ويش يصير .

رد مزبان وهو يشدّ الفروة ليغطي رأسه :

ـ نم . . نم يمكن تحلم بواحدة اميركانية !

ـ الاميركانيات سافرن ، وهذا الحين دور الاميركان ، فاذا ما كنت حصان طاحوا بك وشقوا طيزك !

قال فواز وهو يقهقه :

ـ يا جماعة الخير : ظني اليوم احسن من باكر ، وباكر احسن من اللي عقبه .

قال هاجم بمرارة :

ـ ابن الراشد مثل ما قال النصيّص : خرا .

توقف لحظة ثم اضاف :

ـ هذا النصيّص لعنة ويعرف الرجال . . وانتم شفتم ابن الراشد اليوم .

قال صويلح :

ـ اصبروا . . يا جماعة الخير . . الصبر طيب .

وظل الرجال فترة طويلة قبل ان يناموا ، أما حين غرقوا في النوم فقد رأوا اشياء كثيرة ، لكن لم يجرؤ اي واحد منهم ان يحدّث الآخرين في اليوم التالي بما رأى !

في الأسبوع التالي لوصول باخرة الشيطان ، وهرب الثلاثة ، بدأ تشييد حران العرب . فبعد ذلك الغيظ الذي استبد بالرجال ، والمصحوب بالمخاوف والشكوك ، إضافة الى عدة حوادث متعلقة برفض الأكل الذي قدمه ابن الراشد للعمال ، خاصة وإن الرجال الذين جاء بهم من أجل أن يقوموا بتحضير الخبز وبيع اللحم والحاجات الأخرى خلقوا جواً من التحريض ، تم الاتفاق على أن يقوم أهل حران بقطع الحجارة ، خلال أيام الأسبوع ، وأن تنقلها جمال ابن الراشد ، على أن يتم البناء عصر الخميس ويوم الجمعة ، حتى لو لم يشارك فيه أهل حران . وهذا ما حصل فعلاً .

فمن بقايا الصناديق الخشبية الكبيرة والواح الزنك ، إضافة الى مجموعة من الحجارة غير المنتظمة ، والمتفاوتة الحجم ، وقد جمعت على عجل ، أقيمت الدكاكين الأولى في حران العرب . أما السقوف فكانت خليطاً من الزنك وأقمشة الشوادر والكرتون وبقايا الأغصان التي تخلفت بعد قطع الأشجار التي كانت تميّز حران عن غيرها . أقيمت هذه الدكاكين على عجل ، وقد انشغل العمال كلهم باقامتها ، لأنهم كانوا يريدون أن يروا الفرق ، وأن يشتروا اللحم من القصاب مباشرة ، كي يعودوا الى تحضير الأكل الذي يلائمهم ، وكانوا يطمحون أيضاً . وإن ظل هذا الشعور غامضاً ولم يفصح عنه أحد ، في أن يقيموا شيئاً خاصاً بهم ، بعد أن أقام الأميركيون مدينتهم على التلال الشرقية وحتى البحر .

عند عصر الجمعة فرغ العمال من البناء ، وقد ذبح إبن الراشد بهذه المناسبة خروفين . ذبحهما أبو شايع ، وأثناء السلخ التهم قسماً كبيراً من الكبد ، أما الإلية فقد اقتطع بالشبرية أجزاء منها ، وبعد أن تذوقها عرض على الآخرين أن يشاركوه في هذه المتعة وأن يتذوقوا ، وحالما انتهى من تحضير الخروفين ، التفت الى أبي كامل وقال بلهجة المنتصر « هذا ذبح عربان ، وباكر نشوف ذبح أهل المدن ! » وابن الراشد الذي كان يدور من مكان الى آخر بحماس ، وقد علق طرف ثوبه بسرواله ، كي لا يعيقه عن الحركة ، قدم توجيهات كثيرة في كيفية انجاز البناء وأين يجب أن توضع بعض الأحجار ، ثم تأكد بنفسه أن الألواح الخشبية ثبتت بقوة ، فلما انتهى كل شيء تراجع الى الوراء وألقى نظرة أخيرة ليطمئن أن كل شيء في مكانه ، حتى إذا بدا راضياً نفض يديه وأنزل ثوبه ، وقال للرجال الذين كانوا حوله :

- هذا من فضل ربي !

ومع أقداح القهوة والشاي التي قدمت بعد الأكل تحدث الكثيرون عن كيفية بناء البيوت وعن المدن التي رأوها ، وكيف أن مفلح وصل الى مصر وهناك رأى بيوتاً لا يمكن للجن أن تصل الى أعاليها ، وأكد ان أهل مصر هم أحسن البنائين في العالم ، وأنه لم ير مثل بنائهم في الأماكن الأخرى التي مرّ فيها . وابن الراشد الذي كان بادي السرور ، على غير عادته ، وإن لم يتحدث كثيراً ، أعطى توجيهات للذين سيعملون في الدكاكين ، كيف يجب أن يحافظوا عليها ، وأن يبلغوه بكل شيء ، ووعدهم أيضاً أن يلبي جميع ما يحتاجون إليه وقال وهو يقوم إيذاناً بأن السهر قد انتهى وعلى الرجال أن يناموا لكي ينهضوا نشيطين :

- بعد سنة أهل حران لن تعرف حران .

عبده محمد فرّان حران الماهر، يدندن وهو يدخل الأرغفة الى بيت النار ، ويدندن أكثر وهو يخرجها . بالاضافة الى صنع الخبز يحضّر أشياء عديدة : اللحوم المشوية ، الصواني ، المعجنات ، وبعض الأكلات التي يخترعها في اللحظة وحسب توافر المواد . يحب الحياة والغناء ، ويهمسون أنه يحب « الكيف » . بعد أن ينتهي من العمل يصبح انساناً آخر : الوزرة الزرقاء التي يضعها على وسطه من الفجر وحتى بعد الظهر ، لا أحد يتصور أنه كان يلبسها حين يراه بعد العصر في تلك الملابس الباهية وكأنها ملابس حلاق ! الكلمات القصيرة ، وبعض الأحيان العصبية ، خلال ساعات العمل ، تتحول عند الغروب أو في أول الليل الى عذوبة فياضة ، وكثيراً ما يتخللها الغناء والمزاح . لكن هذا لا يدوم طويلاً ، لأن حجة عبده دائماً جاهزة : « الفجر لا ينتظر ولا يتأخر ! » يقولون انه يذهب مبكراً لكي يعمّر رأسه ، والدليل على ذلك أن عينيه دائمة الحمرة ! وهو رغم الطيبة التي تميز سلوكه وعلاقاته سريع الاثارة ، عصبي المزاج . كلمة واحدة تكفي لأن تغيّر عالمه وتجعل منه إنساناً آخر ، يؤكد عبد الله الأبيض ، صاحب الفرن الثاني الذي قام في حران بعد سبعة شهور ، أن « في رقبة عبده قتيلين » وهذا الذي جاء به من تهامة أو سومطرة ، ولهذا السبب أيضاً لم يرجع الى أهله منذ سنوات طويلة . وحين يُسأل عبده متى سيرجع الى

وطنه ويزور أهله لا يجيب اجابات واضحة ، وقد عزز هذا الشكوك حوله ، لكن مع ذلك لم تتغير علاقات الناس به .

لما أقام ابن الراشد الفرن كان عبده مجرد صانع يتقاضى أجراً ، وقد استمرت هذه الصيغة طيلة السنة الأولى ، لكن حين اتسعت مشاريع ابن الراشد وتكاثرت جاء من نصحه أن يشارك الذين يعملون معه « لأنه تصبح لهم مصلحة في أن تزداد الأعمال ، والأعمال إذا زادت تعطي أرباحاً أكبر » وقد وجد ابن الراشد في هذه النصيحة حكمة ، خاصة وان « دحام غير قادر على ضبط الدفاتر ، وابن هذال صغير ويمكن يورطنا ، والانسان انسان ، ينسى ، تفوته بعض الأمور ، لأن عقلة ما هو دفتر » وهكذا أصبح عبده محمد شريكاً بالثلث .

منذ اليوم الأول زيّن عبده الفرن بمجموعة من الصور انتزعها من المجلات الافرنجية التي حملها العمال من حران الأميركان ، وقد اختارها بعناية ، ثم اختار امكنة مناسبة فعلقها فيها ، مستعملا العجين في لصقها .

حين شاهد الكثيرون هذه الصور دهشوا أشد الدهشة ، وظلوا يتأملونها فترة طويلة ، وعلقوا على كل صورة . أما أهل حران ، خاصة بعض المتدينين ، فقد اعترضوا ، لأن الأطفال ، بمن فيهم البنات الصغيرات ، كثيراً ما يترددون على المخبز ، ومن شأن هذه الصور أن تفسدهم ، فطلب ابن الراشد من عبده أن يقتصر على « صور الخيول والقصور والمناظر المحتشمة » وقد استجاب له عبده في الفترة الأولى ، لكن استجابة شكلية ماكرة ، إذ علق فوق الصور التي اعترض عليها صوراً أخرى ، علقها من أعلى فقط ، بحيث يستطيع بنفخة من فمه ، أو بحركة من أصابعه الماهرة ، أن يجعل الصورة العليا « تطير » قليلاً وتظهر ما تحتها ، وقد أوحت له هذه الطريقة بفكرة جهنمية ، إذ ما كادت تقع في يده مجلة مليئة بصورة نساء أشبه بالعاريات حتى تفنن في لصقها ثم في ترتيبها وعرضها . كان يرفع ببطء وإثارة الصورة العليا ، فما تكاد الأجزاء السفلى من السيقان تظهر حتى يبدأ تدريجياً برفعها ، ومع كل حركة صغيرة ، بطيئة ، تزحف الكلمات والتأوهات ، كان يفعل ذلك حين يكون وحيداً ، لكن مع الأيام بدأ يتساهل ، وسمح لبعض الذين يعرفهم ويثق بهم أن يطلعوا عليها . كان يفعل ذلك بعد أن يغلق باب الفرن بإحكام ويتأكد أن لا أحد يراقب .

في وقت لاحق طوّر عبده هذه الطريقة ، بحيث وضع صور نساء ورجال بأوضاع وأشكال يمكن أن تعطي دلالات واضحة ، وأصبحت هذه القضية تشغله ، كما أصبح لا يكتفي بذلك ، بدأ يضع إضافات هنا وهناك بالفحم ، وأعطى النساء أسماء من عنده كما أعطى لوضعيات معينة تسميات خاصة . ثم بدأ يقص ويركب كما يوحي له خياله ، وكان في كل مرة يفعل شيئاً يرضى عنه يبدو شديد السرور والانفعال .

العمل يتزايد ويتسع كل يوم ، والبشر يتكاثرون . أبناء حران بدأوا ببناء بيوت خاصة بهم في أقصى مكان نحو الغرب ، قريباً من التلال . الدكاكين الثلاث التي قامت في الأيام الأول بدأت تتضاعف وتزداد كل شهر ، أما الطريق الى عجرة الذي كان يضيع فيه المرّي فقد أصبح سالكاً بحيث تصل منه قافلة أو أكثر كل أسبوع ، أما ابن الراشد الذي لا يُعرف ما اذا كان مقيماً أو مسافراً ، لأنه كثير الحركة سريع التنقل . ولا يبوح لأحد بما سيفعل ، فكان كل مرة يغيب فيها أسبوعين أو ثلاثة يرجع مصطحباً معه مجموعة من الرجال ، مجموعة متنوعة الى أقصى حد ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يقدر من أين جاءوا أو ماذا سيعملون ، إذ إضافة الى العمال الذين سيعملون في الشركة ، كان يأتي آخرون يقضون أياماً في حران وهم يذرعون الأرض من الشاطىء وحتى التلال البعيدة ، يقيسون بأرجلهم أو بحبال المسافات بين مكان وآخر ، ثم يضعون رجوماً صغيرة من الحجارة هنا وهناك لتعليم الأمكنة وتمييزها . حتى إذا فرغوا من ذلك أخذوا يطيلون التأمل وبعض الأحيان اعادة القياس . ولما تنتهي هذه العمليات ويسافر هؤلاء الناس يستريح أهل حران من أولئك الصامتين الغامضين الأقرب الى السحرة في حركاتهم وتصرفاتهم . لكن ما يكاد يمر شهر أو اثنان حتى يعودوا ، وبعودتهم تضجّ حران وتنقلب ، وخلال فترة قصيرة تقوم مجموعة من الدكاكين الجديدة ، واحدة تصبح مطعماً ، وثانية مخزناً للمواد ، وثالثة لبيع القماش والحبال وأشياء أخرى ، ورابعة تصبح مركزاً لابن الراشد وللذين جاءوا معه لكي يستقبل في هذا المركز المراجعين والذين يريدون أعمالاً ، وفيه توزع الرواتب ايضاً .

وعبده الذي يجد وقتاً ليغني ويمزح مع الأصدقاء أثناء العمل ، وكان يفرغ من العجين في وقت مبكر ، بدأ يواجه أفواهاً تزداد يوماً بعد آخر ، وكان عليه أن يطعم

هذه الأفواه ، فبدل الشوال الواحد من الطحين كان يكفي حران كلها ، بدأت الكمية تزداد اسبوعاً بعد آخر . أما صواني اللحمة التي كان يتفنن فيها أول الأمر ، وكذلك المعجنات ، فلم يعد مستعداً لأن يمد يده اليها الا بعد أن تنتهي اخر قرصة عجين ، وبعد أن يخرج آخر رغيف من بيت النار ، هكذا كان يقول بحدة . أما علاقاته مع أبو كامل اللحام ، رغم المودة في البداية ، فقد أصبحت أكثر برودة ودائمة التوتر ، لأنه وراء الاقتراحات التي يأتي بها الكثيرون من أجل تحضير غداء في الفرن ، وهو عبارة عن كمية من الخضر مع قطع من اللحم ، أو بعض رقائق العجين باللحم ، كان عبده يعرف أن اقتراحات من هذا النوع أوصى بها أبو كامل لكي يخلص من لحمته بسرعة ويستريح .

وإذا كان الكثيرون قد تعودوا على رفض عبده الصلب في البداية ، إلا أن نقاط الضعف التي يعرفونها فيه ، حين يسألونه عن « ولعة » و« راكبة السيف » و« الشقرة » . أو حين يبدأون بنفخ الصور فتطاير السيقان وتتساقط الأرداف . . عندها يحس عبده أن ذهنه تشتت ومقاومته ضعفت ، فاذا ذكّره أحد بحادثة أو نكتة فعندئذٍ يصبح أكثر استعداداً لأن يسمع وينتبه . وهكذا يتراجع خطوة بعد أخرى ، فبعد الرفض القاطع يصبح الأمر ممكناً « ليس الآن . . . بعد ساعة أو ساعتين ، إلى أن أفرغ من هذه الأقراص » فاذا وجد الحاحاً أو وجد في نفسه رغبة يتنازل عن كل اعتراضاته ويقول بصوتٍ حادٍ :

- أعرف . . أنتم في قلوبكم تقولون ان عبده مثل حمار العرس ، ظهره قوي ويحمل . . . لكن في يوم من الأيام تطلع برأس عبده . . . وعندها الله يستر

وبطريقة لا تخلو من المكر يقولون له إنه اعظم رجال حران وأكثرهم كرماً ، ولذلك هم يطمعون به ، يحبون الأكل الذي يخرج من بين يديه ، ثم ان ساعة معه ، وفي هذه الجنة : الأنهار والجبال والحور العين ، هي التي تجعل الحياة ممكنة في حران . وتبدأ أصابعهم الخشنة تمتد الى الصور تقلّبها ، فما يكاد يرى العبث وقلة الدراية بتقليب الصور حتى يصرخ :

- النار . . . النار . . . .

وحين يتطلعون نحوه مذعورين يضيف بلهجة ساخرة :

- يا جحاش أنت وهو . . هذا الرزق لازم الواحد يتعامل معه مثل ما يتعامل مع

الجفن والعين : رقة ونعومة . . . والاّ راح . . .

يتوقف لحظة يتطلع اليهم ، يهز رأسه ثم يضيف :

ـ الواحد منكم يتصور نفسه يعقل ناقة أو يقطع حجراً . اتقوا الله . قولوا الحمد لله ، ربنا أنت وحدك المعبود لأنك خلقت لنا مثل هذا الحسن . . إنك جميل وتحب الجمال .

وبعض الأحيان ، إذا رق مزاجه ، يسترسل ، يقول شعراً خالصاً ، وقد يغني . إن ذلك يتوقف على حالته النفسية ، على مدى التعب ، وبعض الأحيان يتوقف على ردود الأفعال التي تصدر عن الذين حوله .

هكذا كان عبده محمد . . . . وهكذا ظل لفترة طويلة .

واذا كانت حران قاسية خانقة حتى بالنسبة للذين كانوا فيها من قبل ، فانها بالنسبة للذين يأتون اليها أكثر قسوة ، إذ تولد في صدورهم حالة من الانقباض يشعرون بها منذ الساعات الأولى لوصولهم ، إلا إذا وصلوا في الشتاء ، وتظل هذه الحالة تزداد يوماً بعد آخر ، مع ما تجره من الضيق والحدة في الطبع ، وبعض الأحيان الهياج الذي يؤدي الى العراك .

ورغم أن الفرن باللهب الذي ينبعث من بيت النار شديد الحرارة في الصيف والشتاء ، في النهار ومعظم ساعات الليل ، ولا يقوى أحد على تحمله ، خاصة عندما يتوقف الهواء وتصبح السماء ثقيلة فوق حران ، فقد كان بالنسبة لعبده مكان العمل ومكان النوم ، والمكان الذي يقضي فيه أغلب الوقت ، حتى لو لم يكن يعمل أو لم يكن نائماً . فسر بعض الناس الأمر بأن عبده « يكيف » خلال هذه الساعات ولا يريد أحداً أن يراه أو يعرف ذلك . كان يغلق الباب بإحكام ولا يردّ على الطرقات التي قد يطرقها من يبحث عن الخبز ، إذا فاته الحصول عليه . وقد يطرقها بعض معارفه ، أو من يعتبرون أنفسهم أصدقاءه . فاذا توالى الطرق واستمر فترة طويلة فكان يخرج صوته كما لو أنه صادر من بئر عميقة :

ـ يفتح الله . . نفّقنا واغلقنا .

فاذا استمر الطرق أكثر من ذلك وترافق مع أصوات تطلب منه أن يفتح كان يتقدم حتى يصبح في مواجهة الباب من الداخل ويصرخ :

ـ يا عباد الله . . اتقوا الله ، اتركوا الناس بهمومها ومصائبها . . اتركونا نستريح .

لقد تكررت مثل هذه الحالة مرات ، وتكررت إجابات عبده وتكرر موقفه . ولذلك تأكد الكثيرون أن الأمر أمر « الكيف » لكن أحداً لم يقل ذلك بصوت عالٍ أو بقصد الاساءة أو الوشاية ، لأنهم يحبون عبده ، ولا يتصورون أنفسهم قادرين على العيش بدونه ، فقد أصبح جزءاً من حياة حران الجديدة .

وقال آخرون « لا كيف ولا حاجة من هذا الكلام الفاضي . . عبده عابد الصور ، يظل يقلبها ويتفرج عليها حتى يغفو فوق صدر واحدة . . . وينام ! » .

ولم يعرف أحد على وجه الحسم واليقين لماذا عبده هكذا . وحين يسأل يجيب بأسئلة من نوع آخر :

ـ لازم أعرف من هو إبن الجربة ، إبن الحكاكة اللي ما خلاني أنام . . .

ويتطلع بعيون متهمة لعل من يسأله يكون هو ذاته الذي طرق عليه هذا الطرق في الليلة الفائتة ، لكن أحداً لا يعترف ، فيهز عبده رأسه ويتابع :

ـ يمكن أحد دفع له قرشين وقال له عكّر مزاج الناس ، بعبص كيفها !

ويتباطأ كأنه يكلم نفسه :

ـ أولاد الحرام بالدنيا لا بد أن ينكشفوا ، لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .

وفي محاولة لأن يطيبوا مزاجه ، يوافقونه على ما قاله ، ثم يغيرون مجرى الحديث ، حتى إذا صار طبيعياً طلبوا منه أن يريهم آخر الصور التي حصل عليها ، وكيف رتبها وما هي الأسماء الجديدة التي اعطاها للحسان الجديدات . كان يستجيب بعض الأحيان ، وكان يرفض اغلب الأحيان . وكطريقة لقطع الطرق على الذين يسألون ولا يريد أن يجيبهم لطلبهم يقول ساخراً :

ـ إتركوا قصص الشيطان يا جماعة . . .

ويتطلع في وجوههم ويسأل :

ـ ما عندكم شغل ؟ ها . . احكوا . . .

ولا ينتظر اجابة ، يضيف وهو يضحك :

ـ مثل ما قالوا : اللي ما عنده شغل يلعب بخصيانه .

وبعد أن يستريح ويتنحنح ويذهب بعيداً في أفكار وذكريات كثيرة متداخلة يقول كأنه يحدّث أشباحاً :

- يا جماعة . . خلوا الناس تشتغل . . بعد ساعة كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده .

أما إذا راق مزاجه تماماً فكانت دائماً لديه صور جديدة ! فما يكاد يرى الجو قد أصبح مناسباً حتى يجرّ من مكان خفي مجموعة من الصور « يا دين النبي ، شوفوا . . شوفوا يا جماعة الخير : الشعر شعر فرس ، الجبين يضوّي ، العيون ولا عيون غزال والفم لوز ، أحلى من اللوز ، الخدود حمرا . . تفاحة ، يا صلاة النبي ، الصدر مرجوحة . سلامي عليك يا سيدنا الخضر ، وألف تحية لك يا من كنت في بطن الحوت . والبطن . . البطن يا جماعة . . آخ . . . آخ ! » ويتوقف ، يلتفت إلى الذين يسألون ، يتطلع اليهم لكن لا يراهم ، حتى إذا عاد من رحلته وتطلع في الصورة من جديد ، قال : « لو واحد شدّ على الخصر ينقطع » ويضرب على الدكة العالية حيث يضع العجين ويجيب نفسه : « ينقطع نَفَسه ، تنقطع رقبته قبل ما يقطعه ، يموت قبل ما يفعل فعلة اللئام . . . » .

فاذا سأله أحد أن يتابع وصفه ، أن يذهب أبعد وأعمق . ينظر بحزن ويقول « عند الخصر أدركت شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح » .

في مرات قليلة ، وأمام أصدقاء قليلين جداً تابع ، قال أشياء شديدة الجمال والرقة ، وكانت مع الكلمات تخرج من الأعماق زفرات حارة ، أشد حرارة من هب الفرن ، وكان الرجال يسافرون ، فاذا عادوا من أسفارهم شعروا بآلام حادة في أجزاء عديدة من أجسامهم ، ومع الآلام كانوا يشعرون بالتعب أيضاً .

استمرت الحال هكذا شهوراً طويلة . حران تكبر والبشر يتكاثرون . عبد الله الأبيض أقام فرناً جديداً بالتعاون مع الدباسي . التنافس بين الفرنين يزداد ، ومع التنافس الاشاعات والخصومة . لكن عبده لا يأبه كثيراً لما يقال ، يسمع وينسى . الحرب بين ابن الراشد والدباسي تتسع وتتشعب ، والفرن ليس إلا أحد الميادين ، وربما أصغر الميادين وأقلها أهمية . حران تغرق في الحرارة والرطوبة والوجوه الجديدة والمفاجآت . وعبده يروق مزاجه يوماً ويعتكر في يوم آخر . الناس تعودوا عليه وبدأوا يعرفون كيف يتعاملون معه بشكل أفضل . وإذا كان عبء الخبز لا يزال يقع القسم الأكبر منه على عاتق عبده ، فقد تخلص من عبء الأكل ، إذ قامت في حران مطاعم من مختلف الأنواع : صغيرة . . تقدم أنواعاً محدودة من الأكل ، تناسب العمال ،

وأخرى أكبر منها وأعلى سعراً ، ثم مجموعة من الدكاكين التي تبيع المعلبات وبعض الخضر والفواكه ، إضافة الى باعة الحلوى .

وعبده الذي شغل الكثيرين في بداية الأمر ، وكان الناس يتتبعون أخباره وأخبار الصور التي وصلت اليه ، بدأت امور أخرى تشغلهم ، ولم يعد أغلبهم يتذكر عبده وصوره الا اذا رآه ، إذا مر لشراء الخبز ، وخلال الدقائق القليلة التي يستغرقها الشراء . - فيما لو كان الجو ملائماً - فإن الأسئلة ذاتها تتكرر : « ما هي أخبار الصور الجديدة ؟ متى نراها ؟ » وعبده الذي لا يجيب ، أغلب الأحيان ، ويظل منهمكاً في العمل ، يعرف متى يظهر صوره ومتى يخفيها ، ويعرف أكثر من ذلك أمام من يفعل ذلك .

وفي دوامة الحياة اليومية ومشاغلها التي تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر يغرق الناس في همومهم . ورغم كثرة البشر وتزايدهم بلا حدود ، ولا توقف ، فإن كل انسان يصبح عالماً مغلقاً . والتعامل بين الناس الذين جاءوا من أماكن كثيرة ومتنوعة وربما متنافرة ، يصبح حذراً ومحفوفاً بالمخاوف . وفي خضم هذه الدوامة لا يحس الكثيرون بالتغير الذي يجري حولهم ، لأنهم يرافقونه يوماً بعد يوم ، ويصلهم دفعة بعد أخرى ، حتى إذا تراكم وتضخم فاجأ الكثيرين .

وعبده الذي ظل يمارس عمله في الفرن ، لم يلحظ الكثيرون ، وهم يتناولون الخبز من يديه ، التغيرات التي بدأت تنسحب على وجهه ، خاصة العينين ، وعلى جسده ثم على تصرفاته . فالوجه الساهم ، الأقرب الى الشحوب ، ثم العينان اللتان غارتا الى الداخل كثيراً ، واليدان المرتجفتان ، واللتان تزدادن ارتجافاً كل يوم ، بالاضافة الى الصمت والغرق في حالة من الذهول ، هذه التغيرات التي بدأت تزحف اليه لم تلاحظ فجأة ، أو دفعة واحدة ، حتى هو نفسه لم يفطن الى ذلك . صحيح أن رجفة اليد بدأت تضايقه ، خاصة عندما يكون مع آخرين ، لكن عزا الأمر الى التعب وكثرة العمل . أما الملابس التي كان يحرص على ارتدائها بعد العصر وفي أول المساء ، وكانت دائماً نظيفة ، أنيقة ، فقد بدأت تصبح أقل نظافة وأقل أناقة .

في وقت متأخر ، ربما نتيجة خطأ وقع فيه ، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون ، بدأ اللغز الذي كان أول الأمر شديد الغموض يتضح ، إذ بعد تردد طويل اعترف

للذين يثق بهم ، إعترف بأنه يحب ، ولم يضف كلمة أخرى ! من هي المرأة ؟ كيف تعرف بها وأين ؟ لم يعرف أحد شيئاً .

ويوماً بعد آخر يغرق عبده في العشق والعذاب ، ويغرق في الصمت والعزلة أكثر . . أيضاً . وإذا كان بعض الذين قالوا في بداية الأمر أن عبده « كَيِّف » ، وفي وكره لا يفعل شيئاً إلا أن يعمّر رأسه ، فقد تأكدوا الآن ، أكثر من قبل ، من صحة استنتاجهم . أما الخصومات التي نشأت بين ابن الراشد والدباسي ، وطول لسان عبد الله الأبيض،فقد ذهبت ببعض الناس الى تفسير العزلة ، أن عبده بدأ يخاف أن يؤخذ بثأر قتلاه ، إذ ربما جاء أحد أقربائهم ، ولا بد أن يصطاده بشكل أو آخر ، ولذلك أخذ كل الحيطة وابتعد لعله . . ينجو .

والذين افترضوا منذ البداية أن عبده عابد للصور ومشغول بها ، فقد ذهبوا بعيداً في سوء الظن ، خاصة بعد رجفة اليد ، التي اصبحت شديدة الوضوح ، قالوا إن عبده غارق في العادة السرية ، وأنه يمارسها عدة مرات في اليوم ، ولولا ذلك لما تدهورت صحته هكذا .

وعبده الذي تصله بعض الأقاويل ، ولا تصله أخرى ، في عالم آخر ، مشغول بقضية لا يعرفها الناس وإذا كان قد صمت وتحمل طويلاً وحده ، ومثلما وقع في الخطأ ، المرة الأولى ، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون . . . واعترف ، فإنه يواصل اعترافه مرة أخرى . . .

فبعد الكثير من الإلحاح ، وفي لحظة من الضعف لم يستطع أن يصمد ، أخرج صورة من جيبه ، أدارها في وجوه الذين كانوا حوله ، واعترف بخشوع أقرب الى الخوف ، وقد كان صوته باكياً :

ـ هذه هي . . .

ولما استغرب الرجال واستنكروا ثم بدأوا يسخرون قال بصوت متهدج :

ـ كانت في الباخرة التي وصلت الى حران . . ذاك اليوم !

وفهموا أنه يقصد باخرة الشيطان ، الباخرة التي وصلت في الأيام الأولى ، فلما تأكد انهم فهموا أية باخرة يعني تابع :

ـ أول ما وصلتْ تطلعتْ اليّ . تركت الجميع وتطلعت إليَّ . . ولم تتركني !

وبعد قليل أضاف وكأنه يحدّث نفسه :

ـ كانت تبتسم بفرح ، كانت تضحك . وفي اليوم الذي سافرت الباخرة تركت الجميع وظلت تتطلع اليَّ وتبتسم . . حتى لما ابتعد المركب ظلت تلوح وتبتسم .

سمع الرجال ولم يعلقوا .

وانتابت الجميع مشاعر الشفقة والخوف ، خاصة وهم يرونه في حالة من العذاب الشديد ، وبعد فترة ليست قصيرة قال :

ـ وجدت صورتها في مجلة ، وإذا جاء من يقرأ سوف يقرأ عنوانها ويكتب لي رسالة وأرسلها إليها . . وسوف تأتي . . .

الغرابة غير الواضحة التي تربط الدباسي بأهل حران تجعل الجميع ينادونه : يا عم . حتى من كانوا في مثل سنه أو اكبر قليلاً ، كانوا ينادونه بهذه الطريقة ، دلالة على الاحترام . جاء الى حران في الشهور الأولى ، وربما بعد وصول « باخرة السلطان » بأسبوعين أو ثلاثة . يقول ابن الراشد إن « اهل حران مهابيل ، قالوا الي ما عنده كبير لازم يدوّر على كبير ، لازم يشتري له كبير . بعثوا طارش ليبحث لهم عن عروة ، عن وتد فجاء لهم بعفريت ، جاء لهم بزاوية ومحراث » .

ويبدو أن خوفاً دخل الى قلوب الناس وهم يرون الغرباء يأتون افواجاً بعد افواج ، ورأوا الاميركيين ثم تلك الباخرة ـ اللعنة التي غيّرت حياة الكثيرين ، وكانت قبلها التراكتورات قد بدأت تحرث الأرض وتهدم البيوت وتطمر البحر . ولما بدأ ابن الراشد يلتقط الشباب ليبعث بهم الى حران الأميركان ، فقد وصل الخوف بأهل حران درجة لم يعرفوا معه كيف يتصرفون . كانوا يريدون لهم انساناً كبيراً وقوياً ، لعله يحميهم ويقف في وجه هذه الموجة التي تتقدم نحوهم يوماً بعد آخر ، وجاء الدباسي .

لا يدري أي شيء قبل الدباسي ، وما الذي حفزه على المجيء بهذه السرعة . فقد كان خلال فترة طويلة مقيماً في عجرة ، او بكلمات أدق كانت له دكان في عجرة ، وفيها يقضي وقتاً من السنة ، لكنه كان كثير الأسفار على الطريق السلطاني ، ولم يصل الى حران الا منذ مدة طويلة . وصلها مرتين ، الأولى في أول شبابه والمرة الثانية قبل خمس سنين . واذا كان بحكم اسفاره والدكان التي له في عجرة على صلة بأهل حران ، سواء بحمل الرسائل خاصة رسائل المسافرين او الدراهم التي يرسلونها ، فقد كان ايضاً يرسل قافلتين أو ثلاثاً سنويا الى حران لتأمين ما تحتاجه من مواد . وكان بحكم الغرابة ، أو ربما لأسباب أخرى ، كريماً بنظرهم ، وان ظل متشدداً في معظم عمليات البيع والشراء ، وقد تعوّد عليه أهل حران ، المقيمون منهم والمسافرون ، فكانوا يودعون لديه أموالهم ويستلفون منه ، وكان الواحد منهم أول وصوله الى عجرة يسأل عنه ويزوره .

لم يستغرب أهل حران ، اذن ، مجيء الدباسي بهذه السرعة ، بل فرحوا بذلك فرحاً شديداً ، لكن الأمر بدا غريباً لابن الراشد وفألا سيئاً . فما كادت ايام قليلة تمضي ، والدباسي باقٍ ، ويطيل التشاور مع أهل حران ، حتى دبّت بين الرجلين خصومة صامتة . وإن ظلا يحافظان على المودة الظاهرة والاحترام ، وبدا واضحاً تماماً أن كلا من الرجلين يرتب اموره ويهيّىء نفسه للمرحلة القادمة .

فأهل حران الذين اختاروا الجهة الغربية ، وبدأوا يبنون منازلهم هناك ، تراجعوا عن اكثر ما قالوه لابن الراشد حول الأراضي ، واخذوا يماطلون ويؤجلون ، وإذا كان بعضهم قد تصرف ببيع الأراضي التي كانت عليها بيوتهم ، فقد أخذوا يتشددون في أية عروض جديدة تقدم اليهم ، حتى الأرض التي قامت عليها حران الاميركان قالوا إنها كانت مراعي لماشيتهم ، ولأنهم حرموا من هذه المراعي فلا بد أن يتلقوا تعويضاً مقابل ذلك ، وأشاروا بغموض الى انهم بعثوا الى مسؤولين لكي ينصفوهم قبل ان تتطور الأمور .

والدباسي الذي قضى شهراً او يزيد في حران ، وأشرف بنفسه على تأسيس بعض البيوت في الجهة الغربية ، قفل عائداً الى عجرة ، على ان يعود مرة أخرى ، وفي أقرب فرصة ممكنة . واكد أنه سيطلب من جميع الحرانيين الذين سيلقاهم ، أو يستطيع الاتصال بهم أن يعودوا الى حران بأسرع وقت . وهو الذي أشار على أهل حران أن « يمسكوا الأرض بأسنانهم ، لأنها رأسمالهم الوحيد » . ولذلك ذهبت

محاولات ابن الراشد ، والاتفاقات الأولية التي أجراها معهم في متاهات جديدة ومعقده من المفاوضات والانتظار . لكن ابن الراشد لم يتوقف ولم يسلم ، اذ بدأ حزبا من نوع اخر ، فقد طلب من البعض ان يبلغوا اهل حران ان « الأرض كلها للحكومة ، والحكومة هي التي تعطي وتأخذ ، ثم ان الأرض لا تطعم ولا تسمن ، والافضل أن يأخذوا ما يعرض عليهم الان . . . لانه قد يأتي يوم تؤخذ منهم الأرض ولا يحصلون على أي شيء ويصبحون مثل معايد الفريتين » .

وأهل حران الذين سمعوا من الدباسي وهزوا رؤوسهم ، ثم سمعوا ما نقل اليهم عن ابن الراشد ، عاشوا في حيرة مريرة . فهم لا يعرفون هل يبيعون أم لا يبيعون . وإذا باعوا هل ما يعرضه عليهم ابن الراشد هو ثمن مجز أم لا ؟ واذا لم يشتر هو فمن سيشتري غيره ؟ من يملك المال ويشتري ارضاً لم يفكر احد من قبل ببيعها أو شرائها ؟ وهل الأراضي هي لهم فعلاً يستطيعون ان يتصرفوا بها دون أن تحاسبهم الحكومة ؟

إبن الراشد يذهب الى حران الأميركان ، يقضي هناك الساعات الطويلة . وبعض الأحيان يسهر ، او يعود ببعض الأميركيين لكي يسهروا عنده ، وهؤلاء الذين يأتون ، قبل ان يدخلوا خيمته يتمشون على الشاطىء ، يصلون الى التلال الغربية . يتأملون وجوه الناس. ولا يترددون في أن يتبسطوا مع الكبار والصغار . كان عدد منهم يعرف العربية ، لكنهم ينطقون الكلمات بطريقة مضحكة ، فاذا انتهت هذه الجولة ، مع ما يتخللها من أحداث تبدو بنظر الناس على جانب كبير من الأهمية والدلالة ، يدخلون خيمة ابن الراشد فيذبح لهم ويولم وليمة كبيرة ، حتى اذا انتهت السهرة ، لا ينتظر طويلاً لكي يبعث برسول او اثنين الى أهل حران ، عارضاً عليهم ان يشتري الأرض منهم ، ان يسعدهم اذا اعتمدوا عليه ، اذا وثقوا به ، ومع الوعود السخية تهديدات غير مباشرة .

وتزداد حيرة اهل حران ويزداد خوفهم . ماذا يفعلون والى متى ينتظرون ؟ والدباسي الذي سافر وتأخر في عجرة لا يعرف ما اذا كان سيعود ام لا . وحتى لو عاد فهل هو بقوة ابن الراشد او يستطيع مقاومته ؟

كانت الأفكار والشكوك تتكاثر وتزداد بزيادة الحركة وتكاثر البشر ، فاذا طال انتظار

اهل حران او استمر ترددهم يبعث ابن الراشد من يقول لهم :

- ابن الراشد لم يرسلني . . جئت وحدي . . .

وحين يظلون صامتين وعيونهم معلقة بفمه يضيف :

- لا بد انكم سمعتم ما صار بوادي العيون ، ما بقي فيها بيت ولا بقي فيها احد . رحل اهلها كلهم . صار كل واحد منهم تحت نجم : جماعة في الشرق وجماعة في الغرب . . وهنا ، في حران ، بين العمال ، عدد من اهل وادي العيون . . .

يتوقف قليلاً حتى يستوعب الجميع الدرس ، حتى يستعيدوه في ذاكرتهم وقلوبهم ، ويتذكروا معه أبناءهم المسافرين ، فيتابع كأنه يخاطب مجهولاً :

- العقل للانسان زينة ، والعاقل اللي يعرف كيف يتصرف ، يأخذ ويعطي ، يبيع ويشتري ، أما إذا عاند يضيّع الأول والتالي .

فاذا استقر هذا النغم في وجدان الناس تركهم هذا الرسول وأتى غيره في اليوم التالي ، وبطريقة تراوح بين الإغراء والتهديد يسأل :

- ها . . . ما قول النشامة ؟

وتتساءل عيونهم فيتابع :

- ابن الراشد يقول : الأرض من المقبرة حتى التل الغربي الأخير لأهل حران ، هم وحدهم ، لا يشاركهم فيها أحد ، ومن المقبرة حتى السوق تباع لمن يشتري ، بسعر سعر السوق ، وابن الراشد ، اذا بعتموه يدفع كوماً فوق سعر السوق .

وباع بعض أهل حران واشترى ابن الراشد . اشترى من عدة اشخاص . وأثناء عمليات البيع والشراء تعمد ان يحضر عدداً من الناس . وان يفتح كيسه [illegible] . كما كتب أوراقاً ، كتبها له دحام وابن هذال . وقد أخذ بصمات الذين باعوا وأشهد على ذلك عدداً من الناس الحاضرين . استغرب أهل حران هذه الطريقة في البيع ، اذ لم يتعودوا ان يكتبوا اوراقاً . أما البصمات التي أخذت فقد أثارت الكثير من الارتياب والخوف . ورفض احدهم ان يضع بصمة إبهامه على الورق . وقال ان لديه خاتماً كان قد صنعه في الشام قبل سنوات ، وابن الراشد [illegible] وافق على الختم وبصمات الشهود قال وهو يبتسم :

- جماعة الخير الرجل باع وانا اشتريت . وهذا القرطاس ما له قيمة . كلمة

الرجال فوق كل ورقة وكل مال ، لكن الدنيا حياة وموت ، والأرض التي باعها الخويا ، هي من شرق المقبرة حتى الجامع . . وانتم شهود .

وبطريقة بدائية مقصودة حددت الأراضي التي اشتراها ابن الراشد ، حددت برجوم من الحجارة في الزوايا ، بعد أن استعمل حبلاً في قياسها ، وقد أقام في بعضها مخزناً للأخشاب التي حملها من حران الأميركان ، ووضع في قطعة كبيرة اخرى اكواماً من الحجارة جلبها على الجمال من المحاجر الواقعة غرب حران ، كما نقل مربط الجمال من طريق عجرة الى مكان قريب من السوق .

كان ابن الراشد يتحرك بسرعة وثقة ، وهذه الحركة السريعة بمقدار ما كانت تثير الاعجاب كانت تثير الحسد والمخاوف ، خاصة وأن الأميركيين الذين يأتون الى حران العرب ، ويزورون ابن الراشد ، بدأوا يقضون وقتاً اطول بين الناس ، ووقتاً طويلاً مع ابن الراشد ذاته ، دون أن يرافقهم النصّيص ، كما كان يحصل من قبل ، كما أنهم لا يفعلون شيئاً سوى الحديث مع الناس وسؤالهم عن كل شيء .

قال الكثيرون ان هؤلاء الذين يتكلمون العربية مسنون ، ولذلك لا يستطيعون العمل . وقال آخرون انهم كفرة ويريدون ان يصبح الناس مثلهم . وهم مثل الشياطين يتحركون من مكان الى آخر ، وابن الراشد معرّف الشياطين .

ما كادت ثلاثة شهور وبضعة أيام تنقضي حتى عاد الدباسي . جاء ومعه إثنان من ابنائه وثلاثة من أقاربه . جاء هذه المرة لكي يبقى في حران ، ليسكن فيها ويستقر ، بعد أن ترك ابنه الأوسط في عجرة . وبمجيئه بدأت مرحلة جديدة في حران .

* * * *

بالرغم من تأخر الدباسي ، فقد كان شديد الثقة وهو يصل . كان ذلك واضحاً منذ الليلة الأولى ، ثم جاءت تصرفاته بعدئذ لتؤكده . فالأسفار التي حملته الى أمكنة بعيدة ، حتى انه وصل الى مصر، وركب البحر ثلاث مرات ، مرة من بور الاسكندرية الى حيفا اثناء الحرب ، ومرتين من بيروت الى غزة وبور سعيد بعد الحرب بسنوات قليلة . ثم أسفاره في الطريق السلطاني ، والتي كانت تتكرر مرتين الى ثلاث مرات كل سنة ، فيصل الى العراق والشام وشرق الأردن وفلسطين، إضافة

الى روح المغامرة التي كانت تميزه في عمليات البيع والشراء، هذه الأسفار وتلك الروح جعلته يقرر، دون تردد، اختيار حران موطناً جديداً، وقد استعد لذلك. وجاء مصحوباً بأولاده وأقربائه .

كان في أعماق نفسه قد قرر ان يعمل دون اعتبار لابن الراشد او غيره « الأرض كبيرة ، تسع الجميع ، الشاطر وذراعه . . والأيام بيننا ! » هكذا قال لمجبل الخرسا ، شريكه في عجرة ، والذي رفض أن تمتد الشراكة بينهما الى « هذه المقبرة التي لا تصلها حتى العفاريت » واعتبر الخرسا ان شريكه يغامر أكثر مما ينبغي ، وان هذه المغامرة تصل حدود المخاطرة . فاذا كانت مغامرات سابقة للدباسي قد نجحت ، حين اشترى رعية غنم ، ذات مرة ، دون أن يكون في جيبه ثمن رأس واحد ، وكيف انه باع الرعية في اليوم التالي وربح مبلغاً لم يحلم به ؛ وحين اشترى قافلة تموين كبيرة من الطحين والسكر والقماش ، ودفع ثمنها كل ما عنده ثم هبوط الأسعار في عجرة ، نظراً لوصول قوافل أخرى من أمكنة متعددة ، وكيف أصرّ على ان لا يبيع بخسارة ، متحملاً الانتظار ، مع ما يجره ذلك من احتمال ان يدوّد الطحين ، ثم السيل الذي جاء فجأة فأعاق القوافل وأدى الى ارتفاع الأسعار مرة ثانية ، والأرباح التي حققها الدباسي في تلك السنة ؛ هذه الحوادث وغيرها كثير تدلل على الروح التي يتمتع بها ، واستعداده لأن يغامر ويبدأ من جديد . لكن تلك المغامرات اذا كانت قد نجحت فليس معنى ذلك ان مغامرة من النوع الذي يقدم عليه الآن يمكن ان تنجح . ومع ذلك ، وابقاء للشراكة ، وتعبيراً عن الثقة واستمرار العلاقة بين الشريكين ابقى الدباسي ابنه ، جاسر ، في عجرة ، وجاء مع ابنيه الاخرين : صالح الكبير وحميدي الصغير .

وصل دون ضجة ، ودون مظاهر ، ونزل عند اهل حران ، مثلما فعل في المرة الماضية . وخلال الليلة الأولى فهم ما حصل منذ غيابه وحتى يوم وصوله . أبدى أسفه لأن بعض أهل حران باع أرضه ، لكن لم يلحّ كثيراً ولم يتوقف عند هذه النقطة . اعتبر أن ما حصل قد تم ولا حاجة للحسرة او الندم ، قال في نهاية السهرة :

ـ أهل حران أولى من الغرباء بهذا الرزق ، فاذا كان الغرباء فتحوا حلوقهم وبطونهم ووصلوا الى هنا ، مثل ابن الراشد وغيره ، فيلزم ان نكون أحرص من النمل وأخبث من أبو الحصيني !

ولم ينتظر . . . بدأ منذ اليوم التالي .

ركز على العقارات اولاً ، ثم على التجارة . وقال لابن الراشد في اليوم الثالث ، أثناء الدعوة التي أقامها له :

ـ نحن أبناء الطريق السلطاني لا نعرف غير التجارة . نبيع ونشتري . نخسر مرة ونربح مرتين ، ومرة نحمل مرة ، أما غير ذلك فأنت أولى به .

ارتاح ابن الراشد لهذه الكلمات ، لكن لم يفهم القسمة . ماذا يستطيع ان يعمل وماذا يعمل الدباسي ؟ واذا كان الدباسي يبدو متواضعا ودودا هكذا فالى متى يستمر كذلك ؟ وحران هل تحتمل اثنين ، مثله ومثل الدباسي ؟

قال الدباسي لأهل حران :

ـ يا جماعة الخير : أهل حران هم العصب ، هم عظم الرقبة . . لا تخافوا . . . .

وحين صمت أهل حران ، على عادتهم ، أضاف بنوع من النزق :

ـ انتم لا تحتاجون الى الناس ، الناس يحتاجون اليكم . صحيح انكم فقراء اليوم ، لكن كل الناس يقولون الذهب تحت أرجلكم . . . اصبروا . .

وظل اهل حران صامتين . نظروا اليه نظرات أقرب الى المسكنة ولم يتكلموا .

قال مثل أب :

ـ القصة سهلة وصعبة وما هي مثل قبل . امسكوا الأرض عضوا عليها بأسنانكم اعتبروا ان كل شيء مثل ما كان . لا تبيعوا حتى لو انطبقت السماء على الأرض . ظلوا في مكانكم .

وبعد كثير من الجهد فهم أهل حران ان الدباسي يريدهم ان يصبروا . ان ينتظروا ، وفهموا اكثر من ذلك ان يتركوا له حرية التصرف ، لكن مع ذلك ظلوا صامتين ، فقد شعروا انهم يدخلون معركة لا يعرفون الى ما ستنتهي . كان أمامهم هذان الرجلان فقط : ابن الراشد والدباسي . واذا كانوا قد عرفوا الدباسي من قبل ، من خلال المعاملات التجارية فقط ، من الرسائل والقوافل التي تأتي كل سنة ، فانهم منذ شهور وحتى الآن لا يرون أمامهم سوى ابن الراشد . يعرف

كيف يتكلم . كيف يبعث الرسل ، ويعرف أكثر من ذلك كيف يرغمهم على أن يقدموا له ما يريد . الآن ، والدباسي يتكلم بهذه الطريقة ، لا يعرفون ماذا يريد منهم . صحيح أنهم رحلوا من المكان الذي كانوا فيه ، وبدأوا مرة اخرى ، وأنهم يرون حولهم الحياة كيف تموج وتتغير ، وإن الغرباء يزدادون كل يوم ، ولم يعد أي شيء مثلما كان من قبل ، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون ، وأي شيء يطلبه الدباسي .

قال له أحد الرجال المسنين :

ـ يا عم صبرنا طويل . أولادنا سافروا ، رحلوا من سنين . قلنا الحركة بركة ويرجعون . إذا لم يرجعوا هذه السنة يرجعون السنة التالية ، نحن ولله الحمد ، أصبر من الجمال ، لكن من يوم ما جاءت العماريت الدنيا تغيرت . ومن يوم ما جاءت البلية حتى أولادنا تغيروا علينا ، وأنت تشوف ، ما ظل أحد الا وجاء . ما عسانا نفعل اليوم وباكر والدنيا صارت خراب ؟

هكذا قال الرجل المسن ، وقال غيره أشياء اخرى . والدباسي يسمع ، يهز رأسه ، يوافق ، حتى اذا انتهوا قال وهو يعبث بلحيته الصغيرة :

ـ حران القديمة ، التي تخبروها ، راحت ، اندرست ، ما بقي منها غير الجامع والمقبرة ، ويجوز باكر أو عقب باكر يجي ابن الراشد أو غيره وبدل الجامع يعمر تياترو ، وبدل المقبرة يسوي كرخانة ، لأن من كان من غير هذه الأرض ، من غير هذه الديرة كل أرض بالنسبة له ارض ، والبشر مثل بعضهم ، ابن الديرة مثل الغريب ، والمسلم مثل اليهودي . . .

كانوا يتابعون ، ينصتون اليه باهتمام ، وإن لم يفهموا بعض الكلمات التي استعملها ، وبدا له انه ذهب بعيداً ، غيّر جلسته وقال :

ـ هالحين اهم شيء اهل الديرة . كل واحد يأخذ حقه ونصيبه ، واذا الناس أكلت وشبعت وزاد شيء فأهل حران أكرم منهم ما تلقى ، وبعدها اهلاً بابن الراشد . وغير ابن الراشد .

وفهم أهل حران تلك الليلة ان حرباً قاسية ستقع ، وان الخصم سيكون ابن الراشد . لكن لم يفهموا تماماً هل هو خصمهم أم خصم الدباسي ، وناموا تلك الليلة حائرين ، وانتابتهم المخاوف .

من اوائل الاعمال التي اقدم عليها الدباسي ، دون تردد ، ولا بد ان يكون قد فكر في الامر منذ كان في حران المرة السابقة ، واتخذ قراراً بذلك : الزواج بحرانية !

اذ ما كاد الاسبوع الاول ينقضي ، والحياة تموج وتتغير كل يوم ، والدباسي يخلق نوعاً من التماسك والاستقرار بين الحرانيين ، وفي احدى الليالي التي ضمت اكثر الرجال ، وبين الجد والمزاح ، او كطريقة لخلق المزيد من الثقة والارتباط بين المقيمين وهذا الوافد الجديد ، قال الدباسي في لحظة هيأ لها جيداً :

ـ اسمعوا . . يا جماعة الخير . . .

انتبهوا ونظروا اليه . كان بوجهه المستدير ولحيته الصغيرة في لحظة من لحظات القوة والثقة ، عبّر عن ذلك بابتسامة واسعة وهو يشد لحيته ، فلما تأكد انهم يستمعون تابع :

ـ اذا كنتم تريدونّا اربطونا .

ولم يفهم احد من اهل حران . ضحك بصوت عالٍ ، وكانت ضحكته اقرب الى القهقهة :

ـ من يوم آدم . . الطريقة اللي تربط الرجل هي المرا . اذا تزوج الرجل يرتبط

بالارض والعشيرة ، يصير واحداً من الارض والعشيرة .

تطلع الرجال في وجوه بعضهم بعضاً وتطلعوا الى الدباسي . بدا الموقف واضحاً أو قريباً من الوضوح ، لكن لم يتكلم أحد منهم . فلما وجدهم صامتين سأل :

ـ ما قول الرجال . . . تريدوننا ام نرحل . . نرجع لاهلنا ؟

وفهمت ضحكات الرجال ونظرات التساؤ ل التي تبادلوها فيما بينهم على انهم موافقون ، لكن من سيكون نسيب الدباسي . وكيف سيتم الامر ؟

قال احد المسنين :

ـ انت منا . . يا ابو صالح . . والرجعة شيلها من بالك .

رد وهو يقهقه :

ـ خير البرّ عاجله . . اليوم قبل باكر .

وعلت ضحكات الرجال وهم يتبادلون نظرات التساؤ ل ، من سيكون المرشح ، واية فتاة هي المناسبة ؟

حتى تلك اللحظة ، وبعد ان تأكد الرجال مما قصده الدباسي ، لم يكن واضحاً ما اذا كانت الفتاة ستكون زوجة لصالح ام لاحد الرجال الثلاثة الآخرين الذين جاءوا مع الدباسي ، وهم جميعاً في سن الشباب تقريباً ، عدا واحد كان بين الاربعين والخمسين . والدباسي ، باعتباره الكبير الذي يقرّر ، يقوم بدور لا يمكن للآخرين ان يقوموا به مباشرة . قال احد الرجال وهو ينظر الى صالح ويبتسم :

ـ يا عم . يا ابو صالح ، وليدك وليدي . وعسى يكون اخوه ابني الثاني .

اعتدل الدباسي ، وقد تغير وجهه تماماً . اخذته الدهشة ، ولكي يضع حداً للخطأ غيّر جلسته اكثر من مرة ، تقدم بجسده كله رافعاً يده ، فلما بدا بتلك الهيئة اخذت المفاجأة الجميع ، حتى ظن الكثيرون ان الامر كله لا صلة له بالزواج ، أما الرجل الذي قال تلك الكلمات فقد بدا مذعوراً وانكمش تماماً . قال الدباسي :

ـ اسمع يا ولد العم ، صالح يلحق ، اذا ما كان اليوم اللي بعده ، هالحين ابو صالح هو اللي يريد يعرّس !

وضجّ الرجال في ضحك عالٍ اقرب الى القهقهة ، اذ لم يكن احد منهم يتوقع ان يكون الدباسي الاب هو الذي يريد الزواج . كانوا يظنون انه يريد زوجة لابنه صالح ، وظن آخرون انه جاء ليخطب لاحد الثلاثة الذين جاءوا معه ، أما ان يكون

هو الذي يريد ان يتزوج ، وقد بلغ الخامسة والخمسين او يزيد قليلاً ، فقد بدا الامر غريباً بعض الشيء ، او بالاحرى مفاجئاً .

بعد اسبوعين من تلك الليلة ، في يوم الخميس ، مساءً ، تزوج الدباسي . تزوج ابنة محمد الزمال ، الرجل الذي ذعر وانكمش في تلك الليلة ، وكان يتصور ان ابنته يمكن ان تكون من نصيب صالح ، ابن الدباسي .

انه اول زواج في حران الجديدة . . . ويبدو ان الامر كان هاماً ومثيراً بالنسبة لأولئك الاميركيين الذين كانوا يترددون على حران العرب ، اذ ما كادوا يسمعون ان زواجاً سيتم في يوم الخميس ، حتى ارسلوا منذ يوم الاثنين يطلبون ان يحضروا هذا الزواج ، وابدوا رغبتهم في ان يأتوا مبكرين .

كان فرح الدباسي بحضور الاميركيين يوازي فرحه بالزواج ، فقد بالغ بالاحتفاء بهم وتكريمهم ، وكان شديد الحرص على ان يبقى ابنه صالح الى جانبهم طوال الوقت ، وقد طلب من اهل حران ان يكرموهم ويهتموا بهم ، وان يلبوا جميع طلباتهم . وهؤلاء الاميركيون الذين كانوا كالاطفال الصغار ، في حركاتهم وتصرفاتهم ، ابدوا دهشة واعجاباً تجاوز التصور وفاق الحدود . سألوا عن كل شيء ، عن الاسماء والملابس والطعام ، كما سألوا عن اسم العريس والعروس ، وما اذا كان الاثنان يعرفان بعضهما من قبل ، وما اذا التقيا ام لا . وسألوا عن العمر وعدد الاولاد ، وابدوا استغراباً بلغ حد الدهشة حين قال لهم احد المسنين ان الذي يجلس الى جانبهم طوال الوقت ، والذي تحدث اليهم كثيراً هو ابن ابراهيم الدباسي . وقد استأذنوا الدباسي نفسه لالتقاط بعض الصور ، وتمنوا لو استطاعوا تصوير الدباسي مع عروسه ، وتصوير النساء ، لكن مثل هذه الافكار التي طرحوها ، دون ان يتشبثوا بها ، كانت بمثابة اختبار ليعرفوا ما اذا كانت افكار من هذا النوع يمكن ان تقبل ام لا .

كانت ليلة كبيرة في حران تلك الليلة . الخراف التي ذبحت كثيرة حتى ان العديدين اختلفوا وتراهنوا . أمام الأميركيين الخمسة وضعت خمسة رؤوس ، وامام ابن الراشد وضع رأس ، أما في المناسف الاخرى ، حيث جلس العمال واهل حران وعدد من الغرباء ، فقد اختلطت الرؤوس مع الاجزاء الاخرى من الذبائح ، وقد ابدى الكثيرون براعة فائقة امام الاميركيين في تقطيع اللحم ، وفي استخراج

الاجزاء الداخلية ، خاصة النخاع ، ثم في تكوير الرز باليد وقذفه في الفم دون ان تبقى بالكفّ حبة رز واحدة .

كانت دهشة الاميركيين تزداد وتقوى مع كل حركة ، وقد التقطوا عدداً كبيراً من الصور اثناء الاكل ، وحاولوا ان يتغلبوا على الحرج ، وعلى عجزهم في ان يأكلوا مثلما يأكل الآخرون ، رغم المساعدات الجمة والمبالغ فيها ، او ربما لعدم استساغتهم هذا النوع من الطعام ، حاولوا ان يتغلبوا على ذلك بالاسئلة الكثيرة التي يوجهونها ، بالمراقبة ، في تبادل الحديث فيما بينهم ، واخيراً بالتقاط الصور .

والدباسي الذي كان يلبس حلّة انيقة اول الليل ، وكانت اثقل من ان تحتمل في مثل هذا الوقت ، او في مثل هذا الجو ، ما لبث ان تخفف من الكثير من الملابس ، فعل ذلك بطريقة مسرحية ، وقبل ان يدعو الناس الى الطعام ، ومن اجل مساعدتهم ايضاً . أما ابن الراشد الذي حاول كثيراً أن يبدو طبيعياً ، بالابتسام والحديث ، فما لبث ان تراجع شيئاً فشيئاً ، فمال الى الصمت او الى احاديث جانبية هامسة مع الذين حوله ، وكان واضح الضيق .

حين انتهى العشاء قال مزبان بصوت عالٍ ، وربما بشكل مقصود :

- بيتك عامر وعزك دايم يا ابو صالح .

فهز الدباسي رأسه دون ان يتطلع في الوجوه ، ربما خجلاً او تواضعاً ، أما حين قال سليمان الزامل :

- اكل الرجال ، يا ابو صالح ، على الرجال دين . . وعلى اللئام صدقة .

فقد فهم كلامه على انه نوع من التأييد والتعاطف ، وربما ضد ابن الراشد بالذات ! هكذا فهم اهل حران الكلمات ، او هكذا فسروها ، اذ بدت الابتسامات واضحة على الوجوه ، ونظر الكثيرون نحو ابن الراشد ، وربما تذكروا الدعوة التي اقامها قبل فترة ليست طويلة ، حين انتهى من بناء الدكاكين .

لم يكن الدباسي وحده هو الذي اراد ان تبقى هذه الليلة محفورة في ذاكرة الناس ، فقد كان اهل حران كلهم كذلك ، وشاركهم العمال ايضاً . فالحلقات الصغيرة المتباعدة ، اول الليل ، والتي هي مزيج من الاحاديث والنكت وبعض الدندنات القصيرة المتفرقة ، ما لبثت ان انتظمت وتقاربت ، ثم احتدمت واصبحت أقرب الى

النزال . بدأت هكذا قبل العشاء ، أما بعده ، وبعد ان دارت فناجين القهوة واكواب الشاي ، وبدا بعض الناس يريدون الانصراف ، او كما قال ابن الراشد ضاحكاً وهو يتحرك في مجلسه وينظر في وجوه الرجال :

ـ ابو صالح بقلبه يقول : عشاء تعشيتم ، وقهوة تقهويتم ، ورحم الله من زار وخفف ، خاصة في هذه الليلة .

لما سمع ابو صالح هذه الكلمات انتفض مثل ذئب ، قال وهو يهدد بمودة :

ـ اللي ببالك ، يا ابو محمد ، نلحق عليه ، وانت تعرف ان في السنة عيدين واليوم هو الثالث !

وبطريقة بارعة فيها من العفوية بمقدار ما فيها من التدبير ، جنّت حران تلك الليلة . لم يبق احد الا وغنى ، حتى المسنون غنوا ! كانت الاغاني ، رغم محاولات الفرح التي يتعمدها كل واحد ، مليئة بالحزن ، وكأن حران تغني اياماً ماضية ، تغني حياة توشك ان تنتهي . أما حين بدأ صويلح ، ولم يكن احد قد توقع ذلك او قدره ، فقد خيم الصمت وامتلأ بتلك العذوبة الجارحة ، ولم تتردد بعض النسوة من الاقتراب . أما الاطفال الذين كانوا كثيري الحركة شديدي الصخب ، وكانوا ينتقلون من مكان الى آخر ، فقد جلسوا في الوسط وانتابتهم حالة من الدهشة سيطرت عليهم تماماً . وبمقدار ما غنى صويلح للآخرين غنى لنفسه . كان صوته يخفت بعض اللحظات الى درجة ان كثيرين كانت رؤوسهم تمتد وتتطاول ليتأكدوا ان هذا النغم الخافت ، الذي لا يكاد يسمع الا بصعوبة ، صادر عنه . وفجأة يدوي الصوت مرة اخرى ، كأنه الهدير او كأنه امواج البحر ، وبين الاوج والقرار كان الناس يتابعون ، يرددون ، يشاركون ، وكانت النشوة تستبد بهم الى درجة انهم يصرخون دون وعي ودون ارادة . أما تلك الاغاني التي تتطلب الترداد والمشاركة فقد كان انفعال الناس بها ومشاركتهم فيها تبلغ درجة من الحماسة لا تترك احداً . حتى ابن الراشد ، الذي وافق على البقاء مضطراً او مجاملاً ، لم يتصور ان يشهد ليلة مثل هذه في حران ، ولم يتصور ابداً ان « كريم العين » الذي طرده من وادي العيون ، لانه لا يصلح للعمل في الشركة ، والذي وافق على ان يأتي به الى حران ، لانه كان محتاجاً لاي عامل ؛ لم يتصور ابن الراشد ان صويلح يمتلك مثل هذا الصوت ، ويغني مثل هذا الغناء .

أية أشواق تثوي في قلوب الرجال في هذا المكان النائي من العالم ، وأية أفراح يمكن أن يفجرها الغناء ؟ وهذا الحزن كله من أين يأتي ولماذا هو كثيف طاغٍ هكذا ؟

مع كل صرخة كان الليل ينتفض ، يتمدد بلا انتهاء ثم يتجمع لكي يصبح جمرة سوداء ، ومع ارتفاع النغم او انحداره ، كانت القلوب تهتز حتى تكاد تنخلع ، وكانت تسافر اسرع من البرق الى امكنة بعيدة وتعود . والرجال الذين اتقنوا الحزن حتى ادمنوه ، كانوا يتقنون الصمت بنفس المقدار . كان النفس اذا تردد خشناً محزوناً يجرح الصمت ، يلونه بذلك اللون الاغبر المغبّش فيبدو نابياً ، وكان الذي يصدر عنه يدير عينيه في الآخرين مشفقاً معتذراً ، قائلاً، دون كلمات ، ان الالم وصل الى درجة الحرقة ، وان الحزن طغى على كل شيء !

لو ان الرجال كانوا في غير هذا المكان ، ولو كانوا اقل عدداً ، او لم يكن معهم هؤلاء الغرباء ، لعرفوا كيف يعبرون عن هذا الحزن كله ، عن هذه اللوعة كلها ، لكن شيئاً ما كان يشدهم ، يثقل عليهم ويمنعهم ، فكانت عيونهم وحدها تجول في المدى الضيق من العيون المحيطة ، تماماً كما يجول او يدور اسير في زنزانة ، او كما يفعل حيوان مربوط . كانت عيونهم وحدها تتكلم ، وفي لحظات معينة تصرخ صراخاً فاجعاً مدوياً . كانت حين تتقلص وتضيق ، او حين ترف رفيفاً مفاجئاً موصولاً تستنجد ، تتلوع ، تحس الالم كاوياً وتريد من الآخرين ان يقتربوا ، ان يمدوا يداً او حبلاً لكي ينقذهم . وصويلح الذي يغني لنفسه ، للآخرين ، يزيد العذاب ، يعمقه ، يجعله كثيفاً ، فيحس الرجال انهم يغرقون اكثر من قبل ، وانهم الآن اكثر حزناً مما كانوا في بداية الليل !

والدباسي الذي استبدت به النشوة ، وحملته الى اماكن بعيدة ، بدا مثل طفل ثقيل الحركة ، مرتبك ، وشديد الانفعال ، يردد بعض المقاطع ، يغني ، يطلب من الآخرين الغناء والمشاركة ! وفي احدى اللحظات ، وصويلح يستعد لصرخة تشق ليل حران ، وكان الصمت مسيطراً ، ارتفع صوت الدباسي قوياً متحشرجاً ، فبدا اقرب ما يكون الى صوت جمل هائج ، فأثار موجة عالية من الضحك وصلت حد الصخب ، وقد شارك هو نفسه الآخرين في هذا الصخب .

ومثلما كان صوت صويلح مفاجئاً غنياً كان صوت عبده محمد . اذ ما كاد صويلح يتوقف ، وقد استبد به التعب ، وبدأت قطرات العرق تتساقط بغزارة ويمسحها

بكمه ، اول الامر ، ثم براحتي يديه الاثنتين ، حتى صرخ عبده محمد . صرخ بطريقته وبانغام مختلفة فتغير الجو فجأة واصبح اكثر مرحاً .

المغنون هم الذين سيطروا على الجو وانتزعوا الاعجاب تلك الليلة ، لكن الاميركيين لم يقلّوا عنهم ابداً ، فقد استبدت بهم الدهشة ، دهشة الغناء ودهشة الناس الذين تحولوا فجأة الى مخلوقات من نوع آخر . واذا كانوا قد سألوا في بداية السهرة تلك الاسئلة الصغيرة التفصيلية عن الاشياء والاسماء ، ودونوا ذلك كله في دفاتر كانوايحملونها ، فقد اخذوا بالجو والانفعال اللذين سيطرا على الناس ، فاصبحت اسئلتهم قليلة متباعدة ، ولم تتعد الاستفسارعن الموضوع الذي تدور حوله الاغنية ، والمنطقة التي تغني هذا اللون من الغناء . كانوا كذلك عدا الفترة التي غنى فيها عبده محمد ، فنتيجة المرح الذي غيّر الجو بعد صويلح ، ولان الناس ، اخذوا يقهقهون بصوت عال ، قدروا ان الرجل لا يقتصر على الغناء في ادائه ، اذ يضمّن الاغاني بعض النكات او التوريات او اشياء اخرى مشابهة ، لكنهم لم يفهموا الا اقل الكلمات قال سنكلر لاحد رفاقه بصوت هامس :

ـ لا يمكن لاحد ان يفسر الحزن الذي يعيشه هؤلاء الا اذا عرف الصحراء وعاش فيها . هذه الصحراء الملعونة لا تلد الا مثل هؤلاء البشر ومثل تلك الحيوانات التي رأيناها ونحن آتون .

وحين هز ذلك الاميركي رأسه دلالة انه فهم تابع سنكلر :
ـ والبكاء يخفف عنهم ، لكنهم قساة ، عنيدون ، ولذلك يبكون في داخلهم ، تنزل دموعهم الى الداخل ، وهذه الدموع الحزينة تطفو مرة اخرى على شكل صرخات وتوجع يسمونه غناء ، وهم يفعلون ذلك في اعراسهم . . وهم يفرحون !
وبعد قليل اضاف بسخرية :
ـ هذا هو الغناء الوحيد الذي يتقنونه !

مط الاميركي الآخر شفته وقال وهو ينقّل نظراته في الوجوه التي حوله :
ـ ما اعجب هؤلاء الناس ، ولشد ما يبدون غامضين ، لا يعرف الانسان هل هم فرحون ام حزانى . كل شيء فيهم مغلف ، طبقات فوق طبقات ، تماماً مثل الصحراء التي يعيشون فوقها !
أما حين صرخ صويلح بنغم جديد ، وسرت همهمة بين الرجال مع حركة

واضحة في الاجساد والوجوه ، فقد وخز سنكلر زميله وقال بسرعة :
ـ انتبه . . انتبه ، الآن يريدون ان يعبروا عن فرحهم !
وبعد ان استمعا قليلاً علق من جديد :
ـ انهم مثل الحيوانات يدفع بعضهم بعضاً ، ويتحركون بهذه الطريقة البدائية تعبيراً عن الفرح . . . فتصور !

واستمر الاميركيون مدهوشين مأخوذين . . ولم يتوقفوا عن التقاط الصور !

وحتى وقت متأخر ظل الناس في حران يتذكرون هذه الليلة ، ليلة زواج الدباسي .

غافل السوّيد امير حران منذ زمن لا يتذكره احد ، امير وليس كالامراء . لا يزعج احدا ولا يحب لاحد أن يزعجه قليلون هم الذين رأوه ، واقل منهم الذين عرفوه عن قرب . لا يحب السلطة ولا يحب حران ، قدر ما يحب القصيد والبادية . يحفظ الكثير من الشعر ، يتذوقه وبعض الاحيان يغنيه ، ومن اجل قصيدة يذهب الى اقصى مكان في البادية ، ليرى قائلها او يسمعها من الثقاة . يذكر احد المسنين في حران انه حينما سُمّي غافل السويد اميراً لحران وما جاورها من البادية ، ووصلها في ظهيرة يوم من ايام الصيف ، انه امتنع عن الكلام تماماً ،حتى ظن الذين جاءوا للسلام عليه انه اخرس . أما لما بدأ يتكلم ، وقد حدث هذا بعد ايام ، فلم يجد شيئا يقوله « هؤلاء المهابيل الذين يجلسون مقابل البحر صافنين ولا يفعلون شيئاً آخر ! » اذ بعد ان سألهم اسئلة عديدة ولم يجد لديهم شيئاً مهماً ، روى لهم بعضاً من القصيد الذي يحب ، لكن احداً لم يتجاوب ، فترك خادمه الاسود ، ميمون ، ليحكم « هؤلاء العجز المساكين ويتبالش معهم فإما ان يقتلهم او ان يقتلوه . . » وسافر عائداً من حيث اتى ، وقد اصطحب معه عدداً من رجاله .

القصص التي تروى عنه قليلة ويناقض بعضها بعضاً . تقول احدى القصص انه يتوغل في البادية ، وينتقل من مكان الى آخر يسمع الشعر . وتؤكد اخرى انه يبحث

عن طير ابيض كبير خطف له امرأته الجميلة في الليلة السابقة لزواجه منها ، خطفها في الليل ، وكان القمر بدراً ، وقد رآه غافل السويد بنفسه وهو يضعها تحت جناحه الايسر . وتروي قصص غير هذه ان الامير احب امرأة وارادها ، لكن ابن عمها ، عندما احس برغبة الامير ومحاولاته ، حملها في ليلة ظلماء ودخل الصحراء ، ولم يسمع احد بعد ذلك عنهما خبراً ، وان الامير الآن في رحلاته الطويلة المجهولة داخل البادية لا يفعل شيئاً سوى البحث عن هذه المرأة .

هذه بعض القصص التي تروى ، ومما يؤيدها ويجعل الناس ميالين الى تصديقها ان الامير ، رغم تجاوزه الاربعين ، لم يتزوج ولم يفكر في الزواج ، وفي احدى المرات ، اثناء احدى زياراته الى حران ، وفي محاولة من ابن نفاع ان يتبسط معه ويقيم صلة سأله ما اذا كان يفكر او ينوي الزواج ، ابتسم الامير بسخرية حين سمع السؤال ولم يجب وظل وقتاً غير قصير يهز رأسه .

كانت العادة انه اذا انقضى شهران او ثلاثة جاء الامير في زيارة الى حران ، ومن اطراف شفاهه يسأل ميمون ما اذا حصل شيء هام أثناء غيابه . هل وصلت قوافل او جاء مسافرون . ويسأله عن اهل حران الا يزالون مثلما تركهم مهابيل ام رجعت اليهم عقولهم ، فاذا انتهى من سؤاله طلب القهوة والربابة معاً وبدأ القصيد . حين يروي يهز الرجال رؤوسهم ، يبدون اعجابهم ، وحين يسمع يستعيد ، يطرب ، يسافر بعيداً ، ويروي الكثيرون انه في ليالي القمر يكون شديد الحزن وقد يبكي بعض الاحيان .

اذا جاء اهل حران للسلام عليه لا يُسَرّ برؤيتهم ،ويظل اغلب الاحيان صامتاً ، كان يعتبرهم خصومه ، والا لما جاء الى هذا المكان « الذي لا يصله حتى الطير » . واهل حران الذين لا يجدون شيئاً يقولونه للامير ، وليست لهم مطالب او شكاوى ، ما ان يشربوا القهوة ويبتسموا مرتين او ثلاث مرات ويفركوا ايديهم حتى يستأذنوا ، ويأذن لهم الامير بسرعة ، ودون تردد ، وحالما تبتعد خطواتهم يطلب من جديد ان تبدأ الربابة ، وبعض الاحيان يُجلس الذي يعزف عليها مقابله وقريباً منه لكي يكون الاداء رقيقاً وجميلاً .

ظل غافل السويد هكذا سنين عديدة . لم يقض في حران من هذي السنين سوى بضعة شهور ، ولو طالت الفترة اكثر من ذلك لسمى ميمون اميراً بدلاً عنه ودخل

الصحراء دون عودة ؛ أما حين وصل الاميركيون فقد كان في سفرة من سفراته ، ولما عاد ورأى الدنيا وقد تغيرت وجوه تماماً ، وارتبك بعض الوقت . أما بعد الزيارة التي قام بها اثنان من الاميركيين ، وكان نعيم معهم يترجم لهم ، فقد قرر في نفسه قراراً خطيراً : ان يسافر ولا يعود .

قال امام عدد من رجال حران :

ـ كنا عصبية واحدة ، هالحين وقعت علينا كل المصايب .

والتفت الى ميمون وتابع وهو يضحك ساخراً :

ـ وكدتهم ؟ شفت وجوههم ؟ مثل الجرابيع او مثل الخبز الفطير : مبقعين وعيونهم خرز ، واذا تحملوا الشتاء ما اظنهم يتحملون الصيف .

وبعد قليل ، وفي جو الصمت والحيرة قال يخاطب نفسه ويريد الآخرين ان يسمعوا :

ـ باكر . . اذا شدّتْ عجاجهم يسابق ضراطهم !

وبعد بضعة ايام شُدّت على الرواحل الخيمة الكبيرة والخيام الاخرى التي ظلت منصوبة منذ فترة طويلة ورحل الامير وجماعته، بمن فيهم ميمون ، ولم يعرف ما اذا كانوا سيرجعون ام لا . . لكن ما ان مرت اسابيع حتى جاء امير جديد ، أما غافل السوّيد فلم يسمع عنه احد شيئاً بعد ذلك .

* * *

بعد عافل السويّد جاء خالد المشاري واصبح اميراً لحران .

كان الامير خالد متوسط العمر ، قوي البنية ، شديد السمرة ، وربما اقرب الى السواد . جاء بضجة كبيرة واحتفاء اكبر ، اذ بعث بعدد من رجاله قبل وصوله . وقد ابلغ هؤلاء الرجال الناس بكثير من الاهتمام ان الامير خالد ، امير حران الجديد ، سيصل بين يوم وآخر ، وبطريقة مليئة بالقسوة والتهديد ، اثناء الاحاديث التي جرت ، ذكر الذين جاءوا أشياء كثيرة عن الامير . ذكروا كيف انه يقتص لابسط الجرائم ، وانه لا يرحم احداً ، حتى لو كان اخاه ، وانه يأتي الى حران لكي يجعلها ساكنة كالمقبرة ، بعد ان سمع الكثيرون عما يجري فيها من تحديات واخطاء وفوضى ، واكدوا انه اذ تركت حران هكذا فسوف يقتل الناس بعضهم بعضاً

حين ذُكر كل هذا دخل الخوف في نفوس الكثيرين ، أما الذين لم يخافوا فقد شغلهم الترقب والانتظار . فحران التي عاشت سنين طويلة لم تعرف اميراً ولا تحتاج الى امير ، والتي رأت غافل السوّيد نصف النائم خلال الفترة القصيرة التي يقضيها في حران ، لا تتصور انها قادرة على احتمال امير . ماذا يريد وماذا تصنع به ؟ وهل ستتغير حياة حران اذا جاءها الاميركان واعداد كبيرة من الغرباء ، اضافة الى ابن الراشد والدباسي ، ولا يعرف من سيأتي غداً ايضاً ؟ وما دامت حران تتغير فهل اذا جاءها امير ستكون حالها افضل ام ستزداد مشاكلها ومصائبها ؟

الاميركان بعثوا بنعيم لكي يكون في استقبال الامير ، وربما تم هذا التدبير بالاتفاق مع ابن الراشد ، اذ ما كاد يُعرف اليوم الذي سيصل فيه حتى تهيأ ابن الراشد ودحام . فأخذا معهما عدداً من الرجال وبصحبة نعيم ذهبوا الى طريق عجرة ، ذهبوا منذ الصباح الباكر ، وقبل غروب ذلك اليوم وصل الامير . . ووصلوا معه الى حران .

كان الامير بشكله وتصرفاته وعدد الرجال الذين يرافقونه يختلف عن الامير السابق ، واهل حران الذين وصل تحسبهم حدود الخوف ، لانهم وقعوا في خطأ لم يكن مقصوداً ، بتخلفهم عن استقباله كما فعل ابن الراشد . احسوا ان شراً جديداً لا بد ان يقع ، لكن الدباسي قال في تلك الليلة كلمات خلقت نوعاً من الراحة في قلوب الرجال . قال : « الامير امير حران ، ونحن اهل حران من يوم ما خلق الله الدنيا . والامير يعرف ان كل واحد من اللي يركّضون حوله هذه الساعة يقول : انا تميمي ، لكن باكر اذا استراح يعرف الناس ولكل حادث حديث » .

لم يكتف الدباسي بذلك ، اتفق مع الرجال على أن يذهب عدد منهم في اليوم التالي للسلام على الامير ، وسوف يكون معهم ، ولانه لم يكن متأكداً ما اذا كان قد رأى الامير او سمع عنه ، فقد تريث في ان يقول شيئاً مؤكداً عن المستقبل ، لكنه مع ذلك كان واثقاً ان هذه المعركة الصغيرة التي كسبها ابن الراشد لن تغير في النتائج . . . وسوف يعرف كيف يرد عليه .

حين ذهب اهل حران في اليوم التالي ، كان ابن الراشد خارجاً لتوه من عند الامير ، وخلال اللحظات التي استغرقها الوقوف معه ، وتبادل بعض كلمات المجاملة ، بدا الرجل شديد الثقة واقرب الى الزهو ، وكأنه صاحب حظوة عند

الامير ، او يريد ان يقول لاهل حران انه سبقهم لزيارته ، وانه يعني شيئاً لديه . لم يشأ الدباسي ان يفوت الفرصة ، قال وهو يضحك :

ـ هذه السروة ما هي لله ، يا ابو محمد ، تراك بايت عند الامير ؟

وحين ضحك ابن الراشد وهز رأسه ، لكي يترك الامر غامضاً . اضاف الدباسي :

ـ خلي ببالك : سبوع الطفرة عقبه نفرة .

رد ابن الراشد :

ـ سلطان النهار اوله . . يا ابو صالح !

بدا الامير بعيون اهل حران اقرب الى النفور ، اذ بعد كلمات مجاملة قليلة عن الرحلة والطريق ، قال انه جاء الى حران لضبط النظام ومنع التعدي والسرقة ، وسألهم ، فجأة ، ما اذا كانوا يعرفون الثلاثة الذين سرقوا الابل ، وما اذا كانت لهم شكاوى او مطالب .

كان يمكن ان يأخذ الحديث هذا المجرى وحده ، وان تبقى العلاقات اقرب الى البرود ، لكن حين رأى الدباسي من بعيد احد رجال الامير حاملاً صقراً ويداعبه ، قدّر ان الامير من هواة الصيد ؛ وبطريقة بارعة مليئة بالمكر التفت الى احد المسنين من اهل حران وسأله عن طيور الحباري هل تصل الى اماكن قريبة ومتى . وفجأة ، وعلى غير توقع ، ظهرت على الامير علامات الاهتمام ! واذا كان رجال حران قد ذكروا بعض الاماكن ، فان المعلومات التي خزنها الدباسي في ذاكرته طوال السنين السابقة حول الصيد : اماكنه ومواسمه ، وكيف انه رأى في مصر طيوراً لا تقدّر بعدد . وانها كانت تملأ السماء كأنها الغيوم السوداء ، وكيف انه في احدى سفراته الى غزة كان يجمع الطيور قريباً من الشاطىء ، ثم تحدث عن القطا والغزلان والحباري . كانت المعلومات التي قدمها تثير الاعجاب والدهشة .

يتذكر اهل حران ان الدباسي كان شيطاناً في ثياب بشر ، لان الامير منذ اللحظة التي بدأ يتحدث الدباسي فيها عن الصيد ، تغير تماماً ، أصبح مثل الطفل الصغير وهو يستمع بدهشة الى الاحاديث التي تروى . فبعد الجفاء والقسوة اللذين ميزا نظراته وكلماته خلال الفترة الاولى رقّ وطلب من الدباسي ان يقترب منه ، وفي احدى اللحظات سأله الدباسي ما اذا كانا قد التقيا من قبل واين . وفي محاولة لان يعفي

نفسه من مشقة التذكر حول لقاء مثل هذا اكد له ان اسفاره الكثيرة ، والوجوه التي التقى بها في هذه الاسفار تجعله غير قادر على ان يتذكر بوضوح ، لكنه مع ذلك « اي وجه اراه لا يمكن ان انساه ابداً . . غير انني لا استطيع ان اتذكر متى واين ! » والامير الذي سرّ من ملاحظة الدباسي ، التفت اليه وتمعن في وجهه جيداً ، لعله يتذكر ويساعد في تحديد الزمان والمكان ، لكن اياً منهما لم يواصل هذه اللعبة ، لانهما لم يستطيعا ذلك .

بعد هذا تحدث اهل حران كيف انهم غادروا منازهم واقاموا بيوتاً بدلا عنها في الجهة الغربية ، من اجل مساعدة الشركة وبناء لاوامر الحكومة . وكيف انهم يخافون المستقبل ، خاصة بعدما جاءت تلك البلية وعليها النساء العاريات ،وان الشباب ، منذ ذلك اليوم ، اصبحوا شرسين حادّي الطبع . والامير الذي ابتسم اكثر من مرة ، واستفسر بدقة عن تلك السفينة التي وصلت الى حران ، وعن عدد النساء وماذا فعلن وكم بقين اكد ان شيئاً مثل هذا لن يتكرر ، وان المحافظة على الدين والاخلاق مهمته الاساسية ، ولن يتردد في اتخاذ الاجراءات الضرورية .

ومرة اخرى تسلم الدباسي الحديث ، فطلب من الامير « ان يشمل بعطفه اهل حران ، وان ليس لهم احد الا الله وهو » واشار الى ان بعض الغرباء الذين جاءوا في الأيام الأخيرة يهددونهم من اجل اجبارهم على بيع اراضيهم . وان هؤلاء الغرباء استأثروا بكل شيء ولم يحصل اهل حران على شيء . لم يذكر ابن الراشد بكلمة واحدة ، ولم يشر اليه بالاسم ، لكن كلامه فُهم من اهل حران تماماً . والامير الذي اكد مجدداً انه جاء للمحافظة على الدين والاخلاق اضاف : « الحق حق ، وابن الديرة اولى من الغريب » وقبل ان تنتهي تلك الجلسة طلب الدباسي باسم اهل حران ان يحدد لهم الامير يوماً لكي يعبروا عن سرورهم بدعوته . والامير الذي ضحك ولم يحدد يوماً ولم يعط وعداً ، قال للدباسي ولاثنين من المسنين اللذين كانا الى جانبه ، وهو يقف في وسط الخيمة الكبيرة ليودعهم :

ـ اذا دخل الشتاء وربّعت نروح للحباري . . وللاماكن اللي ذكرتم .

تبادل الأمير والأميركيون الزيارات خلال الأسابيع الأولى .

أثناء زيارة الأمير الى حران الأميركان ، والتي تمت في طقوس من الأبهة والاهتمام ، جرت مسابقة للرماية بين ثلاثة من الأميركيين بحضوره . وقد أبدى إعجابه الكبير بكل ما رأى ، وعبّر عن ذلك بكلمات لم يستطع نعيم ان يترجمها بدقة ، لأنه لم يفهمها تماما . أما بعد انتهاء المسابقة فقد طلب أن يطلع على بنادق الصيد ، فعرضت أمامه ، وفي جو من المرح والألفة طلب منه ابن الراشد أن يجرب واحدة منها . أبدى تردداً ، أول الأمر ، أما حين وضع دحّام إحدى خراطيش الصيد الفارغة نيشاناً ، على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً ، فقد أبعد الأمير بنادق الصيد وطلب من مرافقه مبرد الحويزي أن يناوله بندقيته الموزر . وبكثير من البراعة والدقة أصاب الخرطوشة ، فارتفعت صيحات الاعجاب مع التصفيق ، ودون أن يأبه انتزع الطلقة الفارغة من بندقيته وناولها لمبرد طالباً منه أن يضعها نشياناً مكان الأولى ، وبنفس البراعة والدقة ، مع شيء من التمهل ، إذ رفع رأسه أكثر من مرة ليتأكد من مكانها ، صوّب وأطلق . . فأصابها ، وهنا لم يكتف الأميركيون وغيرهم من الموجودين بالتصفيق او بترديد صيحات الاعجاب ، فقد صفّر عدد منهم ، وتقدم إثنان وربتا على كتف الأمير . وبعد ذلك ، وفي جو من المرح والاعجاب ، دُعي

الأمير الى نادي الأميركيين لتناول الطعام .

إنها المرة الأولى التي يدخل العرب الى هذا المكان ، لم يدخل الا عدد منهم ، فقد أبلغ دحام العمال « أن يظلوا بعيدين ومؤدبين لوجود الأمير والغرباء . . . وإن الغداء سيصلهم الى عندهم » . اقتصرت الدعوة على الأمير ومرافقيه ومعهم ابن الراشد ودحام وصالح الدباسي . أما الآخرون فقد هيئت لهم علب وضعت فيها أنواع من الأطعمة لم يستطع أي من العمال أن يعرف ما هي أو أن يعطيها اسماً محدداً . وقد أبدى الأمير اعجابه الكبير بكل ما رآه وما قدّم إليه . وحين تحدث عن اتساع المطعم وحسن ترتيبه ونظافته ، قال له ابن الراشد أن العمال الذين شاركوا في بنائه استغربوا هذه السعة ولم يعرفوا لأي أمر سوف يستعمل ، حتى هو نفسه ، رغم أنه اقترب منه عدة مرات لم يظن أنه بهذه السعة وبهذا الجمال . أما بعد انتهاء الغداء فقد جرت جولة للأمير ومرافقيه في الأماكن القريبة : برك السباحة ، نادي الاستراحة ، المكاتب ، ورغب الأمير أن يرى أحد البيوت السكنية ، فأجيب لطلبه . وفي كل هذه الأماكن كان شديد الاعجاب الى درجة الانفعال ، وقد عبّر عن ذلك بطريقته ، الأمر الذي اضطر نعيم عدة مرات للاستفسار من ابن الراشد عن كلمات معينة أو تعابير معينة .

أما حين عرض على الأمير أن يقوم بجولة بحرية فقد أبدى تردداً ظاهراً ، قال انه لم يركب البحر من قبل ، وإنه يخاف الماء كثيراً ، ولا يعرف السباحة . وحين أكد له الأميركيون أن الأمر في غاية البساطة والأمن لأن « المراكب التي يستعملونها مصممة بعناية كبيرة ، ويمكن أن تبحر الى أقصى مكان في العالم دون أن يُخشى وقوع حادث من أي نوع ، يضاف الى ذلك أن كل مركب من هذه المراكب مزود بزوارق للنجاة وبوسائل أخرى » بعد أن قام نعيم بترجمة عبارات رئيس المعسكر ، ولكي لا يظهر الأمير بمظهر الخائف أو الجبان وافق ، شرط أن « تكون الجولة قصيرة ، وأن لا نبتعد عن الشاطىء » وقد وافق الأميركيون على هذه الشروط .

إنها المرة الأولى التي يركب فيها هؤلاء الرجال البحر . كانت قلوبهم تضرب بعنف ، وقد اصفر وجه ابن الراشد ، وود الأمير في أعماقه لو أنه لا يتعرض لهذه التجربة . وتردد دحام في الصعود الى ظهر المركب ، لكن ابن الراشد جره بشدة وهو يضحك ، وقال له بعصبية : « إذا متنا ، يا ابن مزعل ، فأنت مثلنا » أما حين

جلسوا على تلك المقاعد الواسعة والمريحة فقد ظلوا صامتين ، ولم ينظروا حولهم ، حتى الابتسامات القليلة التي تبادلوها كانت شاحبة وتبعث في القلوب الخوف أكثر مما تولد الثقة . وحين دوى صوت الموتور وأقلع المركب بقوة سمع الجميع ابن الراشد وهو يقول « بسم الله والحمد لله ، قل لا يصيبكم الا ما كتب الله لكم » ورغم أن الأميركيين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر ، دون أن تظهر على أي واحد منهم مظاهر الخوف أو التهيب ، فقد ظل الآخرون مضطرين لأن يبقوا مسمرين في أماكنهم ، وكأنهم جزء من المقاعد ، حتى الحركات الصغيرة ، كانوا يقومون بها بكثير من الاقتصاد والحذر ؛ ولما التفت الأمير الى الشاطىء وراه يبتعد سأل بصوت خافت : « ما قولك يا ابن الراشد لو نرجع ونموت بديرتنا . . ما هو أخير ؟ » وهز ابن الراشد رأسه دون كلمة ، أما حين دار المركب متجاوزاً الخليج الى عرض البحر فقد أصبح الأمر أكبر من أن يحتمله الرجال ، قال الأمير ، مخاطباً نعيم ، بحزم :

ـ قل لجماعتك . . هذا الكثر يكفينا ، والأخْيَر أن نرجع .

لما أبلغ نعيم الأميركيين بطلب الأمير أبدوا استغرابهم ، وظنوا أن في الأمر خطأ من نوع ما ، وحين استفسر نعيم مرة ثانية أكد الأمير بحزم على ضرورة العودة ، فعاد المركب .

وبنفس الأبهة والاهتمام اللذين استقبل بهما الأمير جرى وداعه أيضاً قبل الغروب .

ظل موضوع الزيارة مجالاً للأحاديث والتعليقات في حران كلها فترة من الزمن . ومع مرور الوقت ، ومن خلال تناقل الأخبار والتعليقات جرت تحريفات كبيرة . فقد أكد بعض العمال أن الأمير أصاب في النيشان إبرة صغيرة وضعت على مسافة بعيدة ، لا تكاد تُرى ، في الوقت الذي عجز الأميركيون عن إصابة زجاجة كبيرة ! أما في المطعم وحول بركة السباحة ، فقد كان هناك عدد من النساء العاريات وقد تطلع الأمير نحوهن أكثر من مرة وابتسم! أما الرحلة البحرية فقد تخللها الكثير من المخاطر ، ولولا شجاعة الأمير بالذات لما تمت الأمور بسلام .

هكذا تحدث الكثيرون ، وهكذا نقلت بعض الوقائع ، أما حين وصلت الى الأمير في اليوم التالي لزيارته بندقية صيد ، وقد قام بنقلها نعيم وابن الراشد ، فقد تشاءم الدباسي وقال أمام الكثيرين :

ـ تالي اللعب أخْيَر من أوله ، وابن الراشد يأتيه الخبر .

* * * *

لما بدأ الأمير يعدّ من أجل دعوة الأميركيين طلب من ابن الراشد والدباسي أن يعاوناه ، طلب من كل منهما أولاً على انفراد ، ثم اجتمع بهما معاً . وإذا كان الرجلان قد أبديا استعداداً كبيراً ، فقد كانا يتباريان حين اجتمعا معاً ، وخلال فترة قصيرة تمت الاستعدادات ، وقد ارتأى الجميع أن تكون الدعوة عند الغروب ثم يعقبها العشاء .

اختار الأمير يوم الخميس ، وقد بذل ورجاله جهداً غير عادي من أجل أن يكون الاحتفال كبيراً والدعوة حدثاً مهماً ؛ أما ابن الراشد والدباسي فقد عاونا في التحضير بتفانٍ يفوق الوصف ،واستبقى كل منهما شيئاً حتى اللحظة الأخيرة .

جاء الأميركيون كلهم ، عدا ثلاثة ، قال رئيس المعسكر انه لا يستطيع أن يأتي بهم لوجود امور تقتضي بقاءهم هناك . كان لوصولهم بعد عصر الخميس الى حران العرب ـ وكان بعضهم يصل الى هذا المكان لأول مرة ـ رهجة كبيرة ، إذ رغم توقع وصولهم قبل الغروب ، وكان الجميع بانتظارهم ، إلا أن حالة من الصمت القاسي الأقرب الى الرهبة خيمت على أهل حران وهم يرونهم يتقدمون جماعات جماعات . كانوا يمشون بفوضى ، ويشيرون بأيديهم ، وحين اقتربوا بدأت تسمع اصواتهم . وعيون أهل حران ، وعيون العمال ، تتابع كل خطوة ، ترقب الضيوف . حتى النسوة خرجن عن المألوف واردن رؤ ية هؤلاء الذين يتحدث عنهم الرجال بهذا المقدار . . . وكل يوم ، أن يعرفن أي نوع من الرجال هم . أما الصبية والأطفال فقد انتظروا في امكنة أقرب ، ثم ساروا مع الأميركيين ، لكن على مسافة منهم ، وذهبت محاولات أولئك الذين يتكلمون العربية عبثاً ، لأنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا في أي حوار مع الصبية ، ولم يستطيعوا إغراءهم بالاقتراب .

لما اقترب الأميركيون كثيراً من الخيمة الكبيرة التي نصبت للأمير ، وكانت في مكان وسط تقريباً بين أهل حران والسوق ، خرج اليهم . تقدم بضع خطوات وحوله رجال كثيرون . وحين تقدموا أكثر ، ولم تبق بينه وبينهم الا خطوات تقدم مرحباً وصافح كل واحد منهم . ونعيم الذي قام بالتعريف والترجمة في بداية الأمر ،

تعذر عليه الاستمرار في ذلك ، نتيجة الفرح ثم التداخل ، وبعض الكلمات التي كان يسمعها ، ربما لأول مرة ، ولم يستطع أن يقدر معناها بدقة .

بعد أن أديرت فناجين القهوة وتبادل الأمير الحديث مع رئيس المعسكر ، وتحدث مباشرة الى بعض الذين يتكلمون العربية من الأميركان ، قال انه حضّر لهم عرضاً لسباق الهجن ، وطلب من الجميع الانتقال الى الفسحة وراء الخيام ، وهناك كان ابن الراشد قد حضّر ، بالاتفاق مع رجال الأمير ، أطيب الجمال ، وزيّنها ، وكان ينتقل بخفة وحماسة بين المضارب والساحة حتى اذا اطمأن غمز للأمير . . فدعا الضيوف .

كانت مفاجأة كبيرة للأميركيين . كانوا يتصورون ان الجمال خُلقت للاحمال فقط ، وأنها إذا ركضت تركض ببطء ، ولمسافات قصيرة ؛ أما حين رأوا ركضها السريع ، وهي تتسابق ، فقد تملكهم العجب ، فأخذوا يصوّرون ويصفقون ويتطلع بعضهم في وجوه بعض. ولما انتهى السباق أصرّ الكثيرون على أن يقتربوا من الجمال ، أن يتصوروا معها . وقد أبدى اثنان رغبة في الركوب عليها . جرى ذلك في جو من الانفعال والحماسة ، وقد لبيت مطالبهم جميعاً .

المفاجأة الثانية حضرها الدباسي ، وقد حضرها بدهاء وتكتم ، وبالاتفاق مع صخر الذي كان يرعى صقور الأمير .

إذ ما كاد ينتهي سباق الهجن ، وقد حاول صخر كل جهده من أجل إنهائه، مبكراً ، بالاتفاق مع بعض الرجال الذين شاركوا في السباق ، حتى تقدم الدباسي واسرّ في اذن الأمير شيئاً أدى إلى تغيير الجو بسرعة ، انفعل الأمير ، وقد فاجأه الأمر تماماً ، وقال لنعيم أن يطلب من الأميركيين الهدوء التام ، لأن ما سيرونه الآن سيدهشهم ، وأكد على الهدوء مرة أخرى . وبخفة ساحر تقدم صخر واثنان من الرجال وعرضوا الصقور في جو من الجلال ، حتى ظن الكثيرون أن الأمر سيقتصر على ذلك ، لكن حين طُيّرت حمامات ، لا يعرف من أين أتى بها الدباسي ، واطلقت وراءها الصقور وجرت تلك المعركة في الجو ، استبدت الدهشة الممزوجة بالخوف بالجميع ، حتى بابن الراشد ، الذي لم يكن يتوقع مفاجأة مثل هذه ، ولما عرف أن الدباسي وراءها ، شعر أنه خسر أمام هذا الخصم الذي لا يعرف كيف انشقت الأرض وأخرجته! وبنفس القدر الذي دهش ابن الراشد دهش

الأميركيون ، فصوروا صخراً عشرات الصور ، واقتربوا كثيراً من الصقور ، ومدّ أحد الأميركيين يده الى ظهر واحد منها، وكادت تقع اكثر من حادثة ، لولا ان صخراً والرجال الذين معه اخذوا الصقور بعيداً وبذلوا جهداً من أجل تهدئتها .

وكانت مفاجأة الأمير خالد المشاري للأميركيين اثناء تقديم العشاء : رأس جمل ، وضعه أمام رئيس المعسكر ، في منتصف المناسف ، ثم رؤوس الخراف ، وقد ذبح عدداً منها مساوياً لعدد الضيوف ، ولأن ثلاثة لم يحضروا فقد وضعت رؤوس الخراف التي ذبحت لهم أمام الآخرين .

بعد العشاء أعد الأمير للضيوف « رقصة السيف » ، وقد قام بها رجاله بشكل جميل للغاية ، حتى أن الأمير ذاته ، في لحظة انفعال ، قام وشارك ، وكان لمشاركته تأثير قوي غيّر الجو ، الأمر الذي دفع عدداً من الأميركيين الى طلب المشاركة ، وإذا كان رجال الأمير قد استجابوا لهذه الرغبة ، وقدموا الكثير من المساعدة ، إلا أن الأميركيين أفسدوا كل شيء ، إذ كان التقاط الصور بالنسبة لهم أهم من أي أمر آخر ، وكانت حركاتهم وتعليقاتهم بدل أن تحفزّ وتقوّي الرقص تضعفه وتؤخره ، حتى إذا انتهت تلك الرقصة اتضح أن السهرة ذاتها قد انتهت . وابن الراشد الذي اقترح على الأمير ، في محاولة لأن يرد على الدباسي ويخلق جواً جديداً ، اقترح عليه أن يغني بعض الرجال ، كما حصل في عرس الدباسي ، إلا أن غضب الأمير وتلك الكلمات التي قالها جعلت كل شيء يطوى . قال الأمير بحدة : « بعد ما صرنا قرباط يا ابن الراشد ! » وحين حاول ابن الراشد أن يوضح أو أن يبرر أضاف بنفس اللهجة الغاضبة :

- إذا غنينا اليوم باكر يريدونا نرقص لهم مثل السعادين ، وهذه ما هي شغلتنا يا ابن الراشد .

وبعد أن دارت فناجين القهوة عدة مرات ، وتحدث الأميركيون الذين يعرفون العربية مع أكثر الناس ، وسألوا عن أشياء كثيرة ، قال رئيس المعسكر ان أمامهم مشواراً طويلاً لكي يصلوا الى المعسكر ، ولذلك يجب أن يتحركوا . وبكثير من الفرح والتحيات المبالغ بها والابتسامات خرج الجميع لوداعهم ، وبعد أن غادروا ورافقهم عدد من رجال الأمير ، ظلت أصواتهم تسمع ، حتى بعد أن ابتعدوا .

وحتى وقت متأخر ظل الناس يتذكرون هذه الليلة في حران .

لم تعد زيارات الأميركيين الذين يتكلمون العربية تقتصر على ابن الراشد ، بدأوا يزورون أيضاً الدباسي وابن سرور والسلامي وآخرين ، وفي كل مرة يأتون للزيارة يصطحبون معهم آخرين لم يأتوا من قبل ، ويتولى القدامى إدارة الحديث وشرح امور كثيرة لهؤلاء الذين يرافقونهم ، ثم يتولون الترجمة بعد ذلك .

هذه الزيارات التي كانت تمتد وتطول في الغالب ، وتتخللها أشياء كثيرة وطريفة ، تتحدث عنها حران فترة طويلة ، ثم يتذكرها الناس بعد ذلك . كانت هذه الزيارات ، في بداية الأمر ، تحدث بشكل عفوي ، إذ ما يكاد يصل هؤلاء الأميركيون بيوت حران ، أو بالقرب من المعسكر ، ويراهم سكان حران أو العمال حتى يدعونهم الى فنجان قهوة أو كأس من الشاي ، فيلبوا الدعوة ، وخلال الساعة التي يقضونها في مثل هذه الزيارة تجري الأحاديث على رسلها . كان يشترك فيها الجميع ، حتى الصبية الذين لا يتكلمون عادة بوجود الكبار ، لم يكونوا ليترددوا طويلاً ، كانوا يندفعون الى المشاركة في الحديث ، خاصة للاجابة عن الأسئلة . والأميركيون الذين يستمعون وينظرون في وجوه الناس ، وينظرون الى كل ما حولهم ، لا يترددون بعض الأحيان من لمس الأشياء ، سواء أكانت منسوجات أم جلوداً ، ووقفوا مرة ساعة أو تزيد لمراقبة أحد المسنين وهو يدبغ جلداً ، وقد اخذوا له

صوراً كثيرة . ووقفوا مرة أخرى لمراقبة حذو الحمير وصوروا فلماً كاملاً ، وصوروا ضمنه واحداً منهم وهو يرفع رجل الحمار وآخر وهو يحذوه أو يتظاهر بذلك !

هكذا كانت تتم الزيارات في البداية ، وكان يرافقها الكثير من الهرج ، حيث يتراكض الأطفال والصبية ، ويتجمع عدد كبير من الناس .

في وقت لاحق أصبح الأميركيون يأتون مباشرة من معسكرهم الى بعض بيوت حران ، الى بيت ابن الراشد أو الدباسي ، أو الى بيوت أخرى . كانوا يأتون ومعهم بعض الكتب ، إضافة الى كميات كبيرة من الورق . كانت الأوراق ، أغلب الأحيان ، ملونة ومقواة ومتفاوتة المساحة ، منها الصغير الصغير ، ومنها الكبير ومنها المتوسط ، وكانت هذه الأوراق تستهوي الكبار والصغار ، فلا يتردد الكبار في لمسها وتقليبها ، ويحاول الصغار محاولات لا تنتهي للحصول على عدد منها . وإذا كان الأميركيون قد أعطوا الصغار اوراقاً في بعض الحالات ، فقد طلبوا اليهم أن يأخذوها ويذهبوا ، وما يكاد يذهب الصغار ويهدأ الجو حتى يفتحوا الكتب التي يحملونها ، يقلبون صفحاتها ثم يبدأون الأسئلة .

أهل حران الذين عجبوا أشد العجب لأن في هذه الكتب أشياء كثيرة يعرفونها ، من أسماء الأمكنة والعشائر ، إضافة الى مواعيد الأمطار والرياح وهجرة الطيور ، شعروا لأنفسهم بأهمية لا توصف حين بدأ الأميركيون يكتبون ما يسمعونه منهم . كانوا يستوقفون الرجال عند بعض الأسماء ، يطلبون اليهم أن يكرروها أكثر من مرة ، حتى إذا أعادوها بعدهم كتبوا ذلك على تلك الأوراق الملونة .

كانت الكتب التي يحملها الأميركيون تثير الدهشة والخوف معاً . كتب من كل لون ومن كل حجم ، كان بعضهم يحمل عدة كتب ، وكان بعضهم يحمل كتاباً أو اثنين . وأهل حران الذي أدهشتهم هذه الكتب وأخافتهم ، راقبوا بعناية ما إذا كان الأميركيون حملوا الكتب ذاتها في المرات اللاحقة أم استبدلوا بها غيرها ، فلما وجدوا أن بعض هذه الكتب ذهب وعاد مرات عديدة ، وان بعضها لم يأت مرة أخرى ، قال بعض المسنين : « هذه كتب سحر ، ولكل انسان نوع من الجن يختلف عن الباقين ، والأميركان يجربون كتاباً بعد كتاب ، فإذا تمكنوا قضوا على حران وأهلها ! » وفي بعض المرات تجرأ الرجال والتقطوا بعض هذه الكتب ، قلّبوها لكن لم يفهموا شيئاً أبداً . قال ابن نفاع ذات مرة ، بعد أن اشتدت الحمى على ابنه

الصغير ، وقد حصل هذا في اليوم التالي لزيارة الأميركيين لبيت السلامي ، وكان جاراً له : « إن الجن دخل بيته » وقد تأكد من ذلك ، إذ وجد ورقة صفراء مقواة تحت مخدة الصغير ، ولم يشف الولد من الحمى إلا بعد أن أحرقت هذه الورقة .

وقال آخرون ان عبده محمد تعلم السحر من الأميركيين ، وفي خلواته الطويلة يمارس السحر ، وهذا ما دعا عدداً من أهل حران لأن يتحولوا الى فرن عبد الله الأبيض ، وربما هم الذين دفعوا الدباسي لأن يفتح لهم فرناً جديداً « لأن الخبز المسحور لا يمكن أن يشفى منه الانسان الى أن يموت » .

الرجال الذين سألوا الأميركيين عن هذه الكتب ، لماذا يحملونها معهم دائماً وأية أشياء مكتوبة فيها ، تلقوا إجابات مختلفة وغير واضحة ، الأمر الذي زاد لديهم الشكوك والمخاوف . كان كل واحد من الأميركيين يجيب اجابة مختلفة عن الآخر ، وكان كل واحد يقول شيئاً يختلف عن المرة السابقة .

قال الأميركيون : « كتب تاريخ » لكن تبين أن في كل مرة يقولون « تاريخ » كانوا يحملون كتباً تختلف عن المرة السابقة . كان بعض هذه الكتب الأسود كأنه الليل ، وفيها الأحمر القاني ، وفيها الأزرق والأخضر ، وكلها مغلفة بجلود قوية تشبه جلود الحجب التي كتبها قبل سنوات الشيخ سالم العتيبي حين زار حران وبقي فيها شهرين ، وقد صنع خلال إقامته لأكثر أولاد حران أنواعاً من الحجب لمقاومة الدود والهزال والخوف ، وغلفها كلها بالجلد . هذه الكتب تشبه تلك الحجب ، ولا بد أن يكون هؤلاء الأميركيون قد حملوها من سحرة كفار ، ولا بد أن يصيب شرها الجميع في يوم من الأيام .

وفي أوقات أخرى ، حين سئلوا عن أسماء الكتب التي يحملونها وعما فيها ، ذكروا أشياء غير « التاريخ » قالوا : « الجغرافيا » ثم عادوا وذكروا أنها تبحث في تكوين الصحاري والرياح وطرق القوافل . ثم في وقت لاحق قالوا إن هذه الكتب تبحث في الآثار ، وسألوا باهتمام عن بعض المواقع ، وما إذا كان أحد من أهل حران قد زارها ويمكن أن يدلهم عليها .

هذه الكتب وهذه الأسئلة بمقدار ما تثير الاستغراب والتعجب تثير المخاوف أيضاً . ماذا يريد هؤلاء العفاريت ولأي غرض جاءوا ؟ وإذا كانوا قد قالوا انهم

جاءوا من أجل مساعدة الناس وتأمين المياه ، وأن الذهب تحت هذه الرمال ، وسوف يقومون باخراجه لكي يوزعوه على الناس ، فما علاقة هذا كله بالكتب التي يحملونها ؟ ما علاقته بالأسئلة التي يسألونها ؟ وهل الذهب في حران وحدها أم يوجد في الأمكنة الأخرى ايضا ؟ وفي تلك الأماكن ، إذا كان الذهب موجوداً وذهبوا لاخراجه ، فما عسى أن يدفع هؤلاء للبحث عن ادلاء والذهاب الى هناك ؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع بدأت تتردد بين الناس ، وكانت ترافقها أسئلة أخرى يطرحها الذين لم يلتقوا مباشرة بالأميركيين ، بل وأخذ أهل حران يسألون الآخرين الذين جاءوا من عجرة ، من روضة المشتى ، أو من الأماكن الأخرى ما إذا كان الأميركيون قد وصلوا الى هناك وأية كتب يحملون وهل هي كتب سحر أم كتب كفر ؟

ذات يوم جاء مع الذين تعودوا المجيء أميركي بلحية حمراء كبيرة كأنها محناة ، وكان يغلب على هذه اللحية اللمعان والكثافة ، بحيث أن أهل حران لم يروا لحية مثلها . كان يحمل كتاباً كبيراً ، وما كاد يجلس في مضافة ابن الراشد ، وكان ابن نفاع موجوداً ، وبعد مجموعة من الأسئلة حول الرياح والرمال والمسافات ، بدأ هذا الرجل يطرح اسئلة غريبة ، سأل ما اذا كان أهل حران يمارسون انواعاً من السحر ، وهل لديهم معتقدات أخرى غير الاسلام ، وهل سمعوا عن جماعات في أماكن قريبة يعبدون الشجر والرياح والشمس أو غير ذلك . فوجيء الرجال بهذه الأسئلة ونظر بعضهم في وجوه بعض . فتح الرجل كتابه الكبير وبدأ يشير الى بعض الصور . تقدم بعض الرجال وأمعنوا النظر فوجدوا أشكالاً غريبة ، رأوا صور أصنام وحيوانات لم يروا مثلها من قبل ففزعوا ، ارتدت أيديهم عن الكتاب وصمتوا .

ومن جديد بدأ الرجل يسأل وأحد الأميركيين يترجم . فلما وجدهم صامتين قال المترجم ان « زميله يبحث في معتقدات الشعوب وتطور الأديان » ويريد أن يعرف أية معتقدات سائدة .

خرج ابن نفاع منفعلا غاضبا وهو يصرخ :

- الآن تأكدنا أنهم كفار ، كلهم كفار ، وكافر كل من يجلس معهم .

أثناء زيارة أهل حران للأمير كان ابن نفاع هائجاً شديد الغضب . قال ان الأميركان جاءوا ليحولوا الناس عن دين الاسلام ، وانهم يمارسون السحر ، فاذا

تركوا فلا بد أن يخربوا حران ، ولا بد أن تقع مصائب كثيرة . والأمير الذي استمع باهتمام لما قاله ابن نفاع وغيره ، هز رأسه عدة مرات ، لكن لم تفهم هذه الهزات على وجه محدد ، ولم يتكلم الا كلمات عامة غامضة ! وحين استأذن أهل حران اذن لهم الأمير واستبقى الدباسي ، ولا يعرف ما دار بين الاثنين . لكن الأميركيين بعد ذلك تغيروا ، أصبحت زياراتهم لحران العرب أقل ، ولم يعودوا لحمل الكتب ، وإن ظلوا يحملون معهم الأوراق الملونة ويكتبون ما يسمعون . أما الأسئلة التي يوجهونها الى الناس فقد أصبحت أكثر بعداً عن الدين والسحر . وفي وقت لاحق كفوا عن الكتابة ، بدأوا يحملون معهم صناديق سوداء ، وحالما يبدأون الحديث يضغطون على هذه الصناديق ، وقد قال ابن نفاع ، لما وصله خبر هذه الصناديق « إن العفاريت داخلها ولا بد أن تخرج منها وتستقر في البيوت على شكل قطط أو حيات وربما بأشكال أخرى » وطلب من الناس أن لا يدخلوا هذه الصناديق الى بيوتهم ، فاذا لم يستطيعوا منع ذلك عليهم أن لا يتكلموا أمامها ، لأن العفاريت بمجرد أن تسمع الأصوات تتابع أصحابها حتى لو وصلوا الى أبعد مكان ، ويمكن أن تتبعهم حتى لو عبروا البحر الى مصر » .

واذا كانت زيارات الأميركيين الى حران العرب قد قلّت في هذه الفترة فقد بدأت زيارات ابن الراشد وصالح الدباسي والسلامي وغيرهم تزداد الى معسكر الأميركيين ، وقال بعض العمال انهم شاهدوا ابن الزيان ذات ليلة عائداً من معسكر الأميركيين !

الخيام السبع التي نصبها ابن الراشد في الأيام الأولى ، وسكن فيها العمال طيلة ستة شهور ، ظلت في مكانها ، بعد ان اصبحت محطة لاستقبال العمال الجدد . أما العمال الذين كانوا فيها فقد بنيت لهم قرب معسكر الاميركيين ،وراء الأسلاك الشائكة ، المدينة الجديدة ، بعد أن زاد عددهم وحتمت طبيعة العمل ان يكونوا في مكان اقرب الى المعسكر ، خاصة أثناء تعميق البحر وبناء الميناء .

المدينة الجديدة ، الواقعة بين حران العرب وحران الأميركان ، قريباً من التلال وفي مواجهة البحر ، بدأت بثلاثة بركسات كبيرة بنيت على عجل من الخشب والصفيح . أما الأرض فقد فرشت بالاسمنت ، واكد دحام ونعيم وهما يشرفان على نقل العمال وتوزيعهم على البركسات « إنها مؤقتة ، وبعد فترة سوف تبنى للعرب بيوت مثل بيوت الأميركان » .

انتقل العمال الى البركسات بعواطف متباينة اشد التباين ، اذ نتيجة خصومات عديدة وقعت بسبب الخلاف على جلب الماء من الآبار ، أو تنظيف الأرض تحت الخيام ، إضافة الى الضجة التي كان يحدثها لاعبو الورق ، والتي كانت تمنع الكثيرين من النوم ، لقرب الخيام بعضها من بعض ، فقد رأى بعض العمال « ان

البركسات مكان نظيف والماء على بعد خطوتين والبركس غير الخيمة» . اما آخرون فقد رأوا ان مجرد الانتقال من الخيمة ، من هذا القبر ، وبعدها لو عاش الانسان في الفلاة . تحت السماء ، يمكن ان ينقذهم من حالة الضيق التي بدأت تسيطر عليهم وتجعلهم متوتري الأعصاب سريعي الغضب . كانوا بحاجة الى تغيير ، ولا يهم بعد ذلك الى اين . ورأى غيرهم ان المكان الذي اختاره الأميركيون وبنوا فيه البركسات هو أسوأ الأمكنة تماماً ، « لأن الانسان لا يعرف هل هو في الجنة أو في النار ، هل هو مع جماعته وبين أهله ام متقطوع في الفلاة » . إذ رغم الضيق الذي يعاني منه الجميع فان العودة كل غروب الى حران العرب ، والمرور بين البيوت والدكاكين ، والحديث مع الناس ، ورؤية الأطفال والكلاب والحمير والجمال ، من شأن ذلك التخفيف من العذاب والصمت اللذين يسيطران طيلة ثماني ساعات في معسكر العفاريت . ليس هذا كل شيء « ان رؤية عبده محمد وهو يتمشى على شاطىء البحر ويدندن بتلك الألحان ويذكر أسماء الحبايب يفك المعدوم من المشنقة ! » كما كان يقول عبد الله الزامل . أما اذا جلسوا مع ابن نفاع وسألهم ، وهو يتطلع الى وجوههم بتحديد ، ما اذا رأوا ذلك اليوم الأمريكيين يسحرون وأي شيء فعلوا ، وهو بعد السؤال وأثناء الاجابة يردد : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاذا قالوا شيئاً لم يعجبه انتفض . اقترب من محدثه ، تطلع اليه بامعان ، ثم عاد من جديد بلهجة اكثر انفعالاً وسرعة : اعوذ بالله ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ان رؤية عبده او الجلوس قليلاً مع ابن نفاع ، ثم سماع أخبار الدنيا من هؤلاء الذين قدموا حديثاً من عجرة أو من امكنة اخرى ، ان هذا يعادل ، بنظر الكثيرين ، ملكوت الأميركيين كله ، خاصة وان هذا المكان المعزول ، وحوله الأسلاك ، يجعل الانسان يحس أنه في سجن حقيقي . لماذا يضعون الأسلاك الشائكة حولهم ؟ ولماذا يريدونهم ان يدخلوا ويخرجوا من تلك البوابة بالذات ، وبعد ان يبرزوا البطاقة الصفراء ، وكأنها الشيء الوحيد الذي يدلل على وجود الانسان ؟

هكذا كانت عواطف ومواقف العمال وهم يحملون حاجاتهم القليلة وينتقلون الى « منازلهم » الجديدة . وابن الراشد الذي لم يظهر خلال الأيام الثلاثة الأولى ،

وربما كان في احدى سفراته ، جاء في اليوم الرابع ، وبعد أن تفقد البركسات وامتدح نظافتها وحكمة توزيع العمال فيها ، قال وهو يقف وسط مجموعة من العمال :

- منازل عامرة ودايمة .

هز رأسه وهو يضحك ثم اضاف :

الله يخزيه ابن مزعل . . اكيد ما ذبح . . .

وبعد قليل تابع بلهجة فيها بقايا الضحكة :

- مثل عادته : لا طبخ ولا نفخ

وتلمس احد الجدران بيده ، ودق عليه ليختبره ، ثم أمسك باب البركس ، فتحه واغلقه اكثر من مرة ، فلما تأكد قال يواصل حديثاً :

- اذا قصرّنا معكم هذه المرة ، يا شباب ، ان شاء الله نعوضكم مرات ومرات .

المدينة الحديدة التي بدأت بثلاثة بركسات ، وتضم ثلاثة وخمسين عاملاً ، وكانت مصدر فرح لبعض العمال ، ومصدر ضيق لآخرين ، وربما نوعاً من انواع التغيير بالنسبة للاكثرية ، اخذت تتسع وتكبر . فبعد اقل من شهر بني بركس جديد ، وما كادت السنة تنقضي حتى اصبح عدد البركسات سبعة عشر واحداً . والبركس الذي كان يضم حوالى خمسة عشر رجلا في بداية الأمر ، أصبح يضمّ في فترة لاحقة بين العشرين والخمسة والعشرين . أما الذين فرحوا بالانتقال فقد شعروا بالخيبة ، لأن الهواء الذي كان يلعب بالخيام ، والذي يصبح عذباً رقيقاً في الليل المتأخر ، وعند الفجر ، لم يعد له وجود في هذه العلب التي تصبح كأنها الأفران الخانقة ، حيث تعبق بالحرارة ورائحة العرق والنوم . أما الجدران الخشبية البيضاء فقد تحولت خلال اسابيع قليلة الى الوان لا يمكن تمييزها ، بعد ان اختلطت وتداخلت بسبب الدخان والأيدي المعروقة والغبار ، وأشياء أخرى . واقسى شيء واجه العمال وسبب لهم ضيقاً لا يمكن مقاومته : سقوف الصفيح . لقد أصبحت هذه السقوف هي العدو الحقيقي . لأنها لم تكن تمطر حرارة فقط ، كانت تصبّ موتاً رمادياً مصهوراً ومستمراً منذ ساعات النهار الأولى وحتى أواخر الليل ، وكانت أشد قسوة واكثر عداء من وجوه الكثيرين من الأميركيين وتصرفاتهم ؛ وحتى فترة متأخرة كان العمال

لا يكتفون بالنظرات الحاقدة التي يوجهونها الى هذه السقوف ، كانوا يبصقون الى أعلى لعل بصاقهم يصلها ، وكثيرون كانوا يقذفونها بالأحذية أو أية اشياء تصل الى أيديهم . كانت حفلة الأحذية تقع أكثر من مرة في الأسبوع ، وكانت تجري في البركسات كلها . اذ ما تكاد العملية تبدأ في واحد منها حتى تباريه البركسات الأخرى ، وخلال دقائق قليلة تنتشر الأحذية على الأسرة او بينها ، بعد أن تكون قد تعبت في رحلتها بين الأيدي والسقوف ، وقد تنتقل بين البركسات عبر النوافذ او من المشاركين في الخارج .

وكل شيء كان في السابق مصدراً للازعاج او الخصومات اخذ شكلاً معاكساً تماماً ، فالذين كانوا يشكون من لاعبي الورق ، ويتعاركون معهم في أواخر الليل ، حين كانوا في الخيام ، لأنهم مصدر صراخ وازعاج يمنع النوم ، اصبحوا في وقت من الأوقات ينامون بين لاعبي الورق وعلى أصواتهم ! وحين يخرج هؤلاء اللاعبون الى الهواء الطلق ، كان الآخرون لا يترددون في ان يفرشوا الى جوارهم ، لكي يواصلوا النوم بعد ان تعذر عليهم في الداخل .

أما الذين كانوا يتعاركون من أجل تنظيف الأرض فقد اكتشفوا في البركسات انهم اكثر استعداداً للمعارك والخصومات ، رغم أن ثمة من يقوم بتنظيف البركسات ، بعد ان أعفي العمال من هذا الواجب .

ويمكن ان يقال الشيء ذاته عن المياه ، وعن ساعات النوم واليقظة ، وعمن ينام في هذه الناحية وعمن ينام في تلك .

لكل امر وكل شيء سبب كافٍ لوقوع خصومات لا نهاية لها ، وقد أحس الكثيرون ، لكن بشكل غامض ، ان الخلافات التي تقع ، والشتائم التي تتردد ليست دائماً نتيجة اخطاء أو سوء نية ، كما أنها ابعد من الكلمات التي تقال ، خاصة وإن الضيق والحنين « وأشياء » ملعونة اخرى تظل في الصدر وتمزقه قبل الخصومات والشتائم وبعدها . ولولا التعب الذي يهدّ الأجساد ويساعد على فض الخصومات ويدفع الرجال الى الغرق في النوم ، لحصلت امور كثيرة . ومع ذلك فان يوماً واحداً لم ينقض دون وقوع مشاكل . صحيح ان رغبة خفية كانت اقوى من الارادة هي التي تحكم تصرفات الرجال وعلاقاتهم فيما بينهم ، وكانت هذه الرغبة تتمثل في

التحدي وفي عمل شيء غير عادي . ورغم الندم . وتلك الايمان التي تخرج دون رغبة . والقرارات الحازمة التي تصدر عن الرجال ان لا يتعاركوا ، ان لا ينفعلوا ، فقد كانت الخصومات تتكرر . والحوادث لا تتوقف يوماً واحداً .

وكان الضيق اقوى ما يكون حين يُنقّل العمال نظراتهم من جهة الى اخرى ، فيرون في جهة الشرق حران الاميركان : مضيئة ، لامعة ، ضاجة ، وبدأت تكتسي بالخضرة ، ويسمعون عن بعد أصوات الأميركيين وهم يصخبون في البرك ، وهم يضجون بالغناء او المرح ، وفي بعض الليالي يطلقون الأسهم النارية الملونة فتملأ السماء ،خاصة اثناء استقبال مجموعات جديدة . فاذا نظروا الى جهة الغرب ورأوا بيوت اهل حران وقد انبعث منها الدخان عند الغروب ، وامتلأت بأصوات البشر والحيوانات ، وأخيرا اذا نظروا الى البركسات التي يعيشون فيها ، والى هذه الحياة الجافة القاسية المعزولة ، فعندئذٍ تدفق الذكريات ويزحم قلوبهم الحنين، ويجدون أسباباً لا حصر لها للخصومة والحزن ، وبعض الأحيان للبكاء .

أما تلك السهرات التي كان يقيمها العمال . ويتخللها الغناء والنكات وبعض المفاجات ، من أجل أن يخففوا عن انفسهم ، فقد كانت تنتهي ، اغلب الأحيان ، بجروح جديدة . فالأغاني بدل ان تفرح الرجال تغرقهم في حالة من الكآبة الشديدة . والنكات التي يضحكون لها بصخب حين تروى ، لا تلبث ان تصبح عادية جداً بعد ذلك . وكثيراً ما يستغربون انهم ضحكوا بسببها ! أما المفاجآت التي كان يدبرها البعض ، وبدل أن تدخل السرور وتغير الجو ، فكانت تؤدي الى معارك جديدة في الغالب ، خاصة اذا لم يتم اختيار « الضحايا » بدقة وعناية كبيرتين .

صويلح « مغني الحي » كما أطلق عليه ابن الزامل ، ولم يعترض هو على ذلك ، والذي فتن الجميع في عرس الدباسي لم يتغير ، وصوته لم يضعف ، لكن ما عاد يخلق في النفوس الزهو والتألق اللذين خلقهما في الرجال تلك الليلة ، رغم انه في كل مرة يغني يصل انفعاله الى درجة البكاء والتحطيم .

في إحدى الليالي ، أوائل الصيف ، قال ابن الزامل بصوت يهدر بالغضب :

ـ يا جماعة .. اذا سكتنا متنا مثل ما يموت فأر السجن ، وما دام الموت هو الأول والأخير فالموت عند الأهل اخير من الموت بين العفاريت الزرق ..

توقف قليلاً وسأل :

ـ اذا غرّبت من يغرب معي ؟

نظر في الوجوه بتساؤل اقرب الى التوسل . كان يريد صوتاً ، موافقة ، فلما وجد الرجال صامتين حائرين ، قال كأنه يكلم نفسه :

ـ باكر تندمون ، لكن ما تنفع الندامة .

ولم يثنه عن السفر الا الوعد الذي قطعه ابن الراشد على نفسه بأن يجد طريقة لكي « يدبر السفوف ويمنع الموت النازل منها » .

وبوسائل هي بين الارهاب والاغراء ، مع الكثير من الوعود ، وُضع عدد من رجال الأمير بين العمال ،وسموا «مراقبين » ووضعت ألواح خشبية بين العوارض والسقف ، كما وضعت طبقة من التراب فوق الألواح . وفي البركسات الأربعة القديمة ، ومن الجهة الجنوبية ، فتحت نوافذ اضافية ، وقد قال ابن الراشد ، لما تقرر فتح هذه النوافذ « ان الهواء سيلعب مثل الخيّال في هذه المنازل الفسيحة » !
أما البركسات الجديدة فقد تولت الشركة مباشرة بناءها ، ولم تعط لابن الراشد ، كما حصل بالنسبة للأربعة الأولى . كانت البركسات الجديدة اصغر ، وقد بنيت من مواد عديدة : من الإسمنت,والتراب والحجر ، فكانت اقل حرارة ، وبدأت معارك من نوع آخر : من يسكن في البركسات الجديدة ومن يبقى في القديمة ؟

وإذا كان العمال الأوائل قد اكتسبو قوة نظراً للقدم ثم للقرابات التي تجمع الكثيرين منهم ، فقد بدأ الأميركان يضعون مقاييس جديدة في تصنيف العمال؛ فأولئك الذين يظهرون اكثر وعياً من غيرهم ، أو أكثر قدرة على فرض ارادتهم ، وكانوا يتكلمون ويطالبون ، بدأت النظرة اليهم تتسم بالخشونة والعداء . أما الذين يبدون مسالمين وأقرب الى الرخاوة ، فاصبحت توجه اليهم عناية خاصة ، فعبدالله الزامل مثلاً ، الذي لا يدخل لسانه الى حلقه ، بالمزاح والتعليقات ، ثم تلك المشكلة التي خلقها في السكن ، لم يطل انتظاره حتى أرسل الى المركز رقم ٤ .
كان العمل في ذلك المركز ، بالاضافة الى بعده ، بحيث لا يرجع العمال من هناك الا مرة كل ثلاثة أيام ، يتصف بالخشونة والقسوة . وقد وافق ابن الزامل على العمل في ذلك المركز مضطراً بعد التهديد الذي وصله من الأمير ، ومع ذلك لم يكن ليخفي رغبته في الهرب ذات يوم ، لكن قبل ان يفعل لا بد ان « يقتل اثنين أو ثلاثة

من الأميركيين ، وابن الراشد . . . وكلبهم دحام » . ومربان الذي ضرب دحام ذات يوم لم تُنس له هذه الاساءة ، فقد اختير هو وأخوه هاجم واثنا عشر رجلاً من العمال الذين جاءوا في الدفعات الاخيرة ، اختيروا بحجة انهم يعرفون السباحة ، لكي يشاركوا في قطع الصخور البحرية من أجل توسيع الميناء . واذا كان الاخوان والعمال الآخرون الذين كانوا معهم لم يعترضوا على هذه المهمة ، بل وبدوا راغبين في مغامرة جديدة ، إلا أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك جعلت الجميع ينظرون الى الأمر نظرة تختلف عن تفسير ابن الراشد وغيره .

فمزبان وهاجم اللذان لم يتوقفا يوماً واحداً عن محاولات تعليم العمال السباحة ، وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في الماء ، حتى اطلق عليهما ابن الزامل اسم « الحيتان » استطاعا بمثابرتهم اقناع الكثيرين الاقتراب من البحر أولاً ، ثم في وقت لاحق النزول الى الماء ، واصبح الكثيرون يخوضون في المياه الضحلة حتى يبلغوا مسافة معينة يكون الماء قد بلغ وسطهم ، وبهدوء وحذر ينزلون أجسامهم فلا تبقى إلا رؤوسهم وحدها عائمة . كانوا يفعلون ذلك بحذر شديد ، ولم يبالغوا في ذلك ، خاصة وان سلمان الجرف كاد يغرق ذات مرة اثناء محاولته تعلم السباحة . كان الإخوان الى جانبه ، وقد ضحكا كثيراً وهما يشاهدانه يصعد ويهبط ويعبّ الماء . كانا يضحكان لأن الماء في المكان الذي يسبح فيه لا يصل الى الصدر ، لكن حينما شاهدا الأمر اكثر خطورة مما قدرا اخرجاه . كان بين الحياة والموت . هذه الحادثة جعلت الكثيرين يترددون في النزول الى الماء فترة طويلة ، ثم جعلتهم شديدي الحذر .

كان اختيار الأخوين يرضي رغبتهما ، لكن يبدو أن المهمة التي كلفا بها مع الآخرين كانت من الخطورة الى درجة جعلت الحادث يقع .

فبعد البدء بتوسيع المنطقة البحرية وتعميقها ، وكانت مقابل معسكر الأميركان ، والرجال يذهبون ويرجعون كل يوم ، وقد اكتسبت أجسامهم هذا اللون المحروق ، فبدوا مختلفين عن العمال الآخرين ، وأخذوا ينقلون أحاديث وقصصاً عن المركب الذي يأخذهم ، وعن الأدوات التي يستعملونها ، ثم عن التفجيرات التي كانت تهز البحر وتجعل الأمواج الهائلة تتلاطم ، ويروون ماذا يأكل الأميركان وكيف يأكلون ، كانت الأحاديث التي ينقلها عمال البحر الى عمال البر تجعل

ليالي حران في هذا الصيف المتأخر أقل قسوة .

يتذكر الكثيرون انه في الليلة التي كان القمر بدراً ، وكان صويلح في حالة من الوجد ، فغنى غناء خافتاً اقرب الى البوح الحزين ، ورفض أن يرفع صوته او أن يغير نبرته ، رغم الالحاح ، ورغم المقاطع الأولى التي حاول العمال اغراءه بها ، يتذكر الكثيرون ان مزبان كان صامتاً وحزيناً ، وانه لم يتكلم الا مرة واحدة طوال السهرة التي امتدت ساعات ، قال « يا جماعة . . والله هالبحر كله ما أبدله بالبير اللي بديرتنا ، والليلة ابن هديب فتح جروح ما لها تالي » قال هذه الكلمات في لحظة صمت وفي لحظة لوعة ، وما كان الرجال ليتذكروا هذه الكلمات لولا الحادثة التي وقعت .

ففي فجر اليوم التالي ، حيث تعوّد عمال البحر أن يذهبوا قبل غيرهم ، وبعد ان غادر هؤلاء المعسكر وركبوا البحر ، وحين طلب الى ثلاثة من العمال الغوص لكي يثبتوا حبلاً في إحدى الصخور تمهيداً لقلعها ، وكان مزبان واحداً منهم ، في هذه النزلة التي أخذت الثلاثة الى حيث حدد لهم ، وبعد فترة قصيرة عاد الاثنان ولم يعد مزبان . عاد ابراهيم الصقار وسعد الراجح ولم يعد مزبان . ولما مرت دقيقتان او ثلاث دقائق ولم يظهر نزل وراءه عدد من العمال ، لكنهم عادوا ولم يعد .

بعد بحث طويل وجدوا مزبان : كانت رجله في فجوة صخرة ، كانت الفجوة كأنها السوار ، وقد علق هناك ، ويبدو انه ناضل كثيراً من أجل ان يفلت منها ، اذ وجدت جروح في جسده ، لكنه لم يستطع .

كان يوماً صعباً مشؤوماً يوم عادوا بمزبان جثة هامدة . انتشر الخبر بسرعة في المعسكر ، في حران الاميركان وحران العرب .

وبكثير من الحزن والغضب دفن مزبان في ظهيرة اليوم ذاته . لم يبق أحد الا وشارك في الدفن ثم في الحزن ، وظل الكثيرون ، وحتى وقت متأخر ، يتذكرون تلك الضحكة المدوية التي كانت تميّز الحوت الكبير ، كما كان يسميه عبد الله الزامل .

لم يتوقف العمل في تعميق البحر وتوسيع الميناء يوماً واحداً ، وهاجم الذي لم يُطلب منه الذهاب الى العمل في اليوم التالي ، ثم في الأيام التي بعده ، ولم يفعل هو ايضاً ، بدا منذ الساعة التي وضع فيها مزبان في القبر واهيل عليه التراب انساناً آخر : زاغت نظراته وارتخى فكاه وبدا غائباً . صحيح انه لم تسقط من عينيه دمعة واحدة ، ولم تخرج من فمه كلمة ، لكنه كان مذهولاً . كان ينظر في الوجوه وكأنه يبحث عن احد . حتى اذا تأكد ان الذي يبحث عنه غير موجود اخذ يبتسم ثم يقهقه ، ويضرب ساقه براحة يده . كان يفعل ذلك دون وعي ودون ارادة . والعمال الذين اشاحوا بانظارهم لكي لا ينظروا اليه في البداية ، ما لبثوا ان اصيبوا بالحزن الشديد ، وشعر بعضهم بالاعياء او ما يشبه الدوار . لم يكن مزبان مجرد واحد من العمال . كان شهماً ومحبوباً ، وكان يتصرف مثل اب او مثل اخ كبير . اطلقوا عليه عدة اسماء . سموه « الجمل » ، وسموه « الحصان » ، أما عبدالله الزامل . فقد سماه « الحوت الكبير » ، وكان هذا الاسم الأخير اكثرها انتشاراً وتداولاً . كان يلجأ اليه الكثيرون في ساعات الضيق او عند الحاجة . وهو بمقدار ما يبدو طفلاً كبيراً كان قوياً ، وفي لحظات معينة قاسياً . كان يمسك من يسأله من يده عند الساعد ويجره نحو البحر لكي يسمع منه بانتباه ، حتى اذا عادا عادا مثل أخوين

وبشكل مختلف ايضاً . أما اذا اختلف اثنان فكان مزبان الحكم الذي يفصل ويُقبل بحكمه .

الآن ، بعد ان دفنوه ، بعد ان وضعوه تحت التراب ، صدقوا انه مات وانتهى . فاذا نظروا الى وجه هاجم وهو يتلفت ، وهو ينظر في الوجوه بذهول ويبتسم تلك الابتسامة البلهاء ، عندئذ يتأكدون انهم فقدوا عزيزاً . أما اذا تذكروا كلمات ابن نفاع عند القبر وهو يصرخ « الرجل ما مات . قتلوه بالسحر قبل ما يقتلوه بالبحر » فانهم يجدون معنى مختلفاً لهذه الكلمات .

لماذا هم كذلك منبوذون ويدفعون الى الموت في كل لحظة ؟ واذا كانوا قد جاءوا من اجل العمل فانهم في هذا المكان يعملون ويُقتلون في وقت واحد . أما الدراهم التي حصلوا عليها فانها لا تعادل يوماً واحداً تحت وطأة هذه السقوف التي تصب فوق رؤوسهم رصاصاً مصهوراً . وكلمات ابن الراشد ؟ ودحام ؟ ونعيم ؟ ووجوه الاميركان القاسية ؟ كان الاميركان في البداية يضحكون ، يربتون على اكتافهم . في الشهور الأخيرة اصبحوا لا ينظرون اليهم . فاذا نظروا خرجت من افواههم كلمات لا يمكن ان تكون الا شتائم . هكذا قدروا وكانوا متأكدين من ذلك ، لان « الشتائم باية لغة لا تخفى » ، كما يقول ابن الزامل . حتى اطفال حران وهم يقتربون من الاميركان ويرفعون ايديهم بتحية مع كلمة مثل « يا ابن الكلب » ، كان يعرفها الاميركان ، كانوا يرفعون اصابعهم محذرين ، ولم يتردد واحد منهم في ان يضرب طفلاً بقدمه ويوقعه . لقد تغير الاميركان ؛ ليس هذا كل شيء ، اصبحت العلاقة بين الطرفين محدودة وتتم فقط عن طريق « ادارة الافراد » . وادارة الافراد اصبحت تعني نعيم والدباسي الصغير ودحام ، اضافة الى اثنين من رجال الأمير .

عصر اليوم الذي مات فيه مزبان جاء ابن الراشد . كان يبدو اكثر وقاراً من اية مرة سابقة . لبس عباءته السوداء الجديدة ، التي لا يلبسها عادة الا اذا زار الأمير او جاء بزيارة لمعسكر الاميركان . كان يمشي ببطء . رآه الكثيرون وهو يدخل بوابة المعسكر ومعه اثنان من جماعته . ظل العمال في اماكنهم صامتين . كانوا يعرفون انه جاء ليقول كلمتين لهاجم ، ليعزيه ، وفي تلك اللحظات شعروا ان ابن الراشد عدو حقيقي . هو الذي جاء بهم الى هذا المكان وسلمهم كالغنم الى هؤلاء . كانوا حاقدين عليه ويعتبرونه مسؤولاً ليس عن موت مزبان وانما عن قتله .

في ظل احد البركسات ، ناحية الشرق ، كان هاجم ومجموعة من العمال جالسين ، وقبل ان يصل ابن الراشد بمسافة ليست قصيرة تنحنح ، لكن احداً لم يسمع ولم يتطلع نحوه ، حتى اذا اقترب تماماً ، بخطواته القوية الواثقة ، قال من تلك المسافة :

ـ العوض بسلامة الرجال .

تقدم نحوه بعض العمال ، صافحوه ومشوا معه . كان هاجم يتطلع الى الوجوه ، يتلفت في اكثر من ناحية ثم يبتسم . اقترب منه ابن الراشد حتى اذا صار فوقه ، تطلع اليه هاجم وابتسم . قال ابن الراشد :

ـ سلامة راسك يا وليدي ، وعسى تكون نهاية الاحزان .

وهبط فقبّل كتفي هاجم وجلس بجانبه . تطلع اليه هاجم اكثر من مرة وابتسم . تطلع ابن الراشد في وجوه الرجال الصامتين ، هز رأسه وقد ادرك الحالة ، قال ليغير الجو :

ـ الموت مكتوب على ابن آدم من يوم ما الله خلقه ، ومثل ما يولد الانسان لا بد ان يموت ، هذه سنة الحياة ، والانسان لا يعرف في اي مكان يولد وفي اي مكان يموت . ان الله حق والموت حق ، ولا يدوم الا الحيّ القيوم .

كان ابن الراشد يتكلم وحده ، يتكلم لنفسه . بدت كلماته جافة لا تعني شيئاً او احداً ، وحين رأى نظرات الرجال الباردة ، واحس بالصمت يحاصره سأل :

ـ من كان مع المرحوم ؟

لما ذكرت بعض الاسماء ، وتحرك بعض الرجال بطريقة عفوية ، لانهم كانوا مع مزبان ، قال ابن الراشد لاحد الرجال .

ـ تعال . . . تعال يا وليدي ، تقرب ، وسولف لي كيف صارت « القصة » .

ورغم ان ابن الراشد وجميع الرجال قد سمعوا « القصة » عدة مرات ، ورواها عدة اشخاص ، فان الصمت قد خيم والرجل يروي من جديد بتفصيل وارتباك كل شيء ، منذ لحظة مغادرة المعسكر عند الفجر وحتى وقوع الحادثة .

كان الوحيد الذي يسمع القصة ، وكأنها تروى لاول مرة ، هو هاجم . كانت عيناه تحملقان في وجه الرجل . كان يقترب منه ويبتسم ، حتى اذا انتهى ضرب ساقه براحة يده ، وبانفعال رفع رأسه بسرعة واداره في عدة اتجاهات كأنه يبحث عن

احد . امسك به ابن الراشد واجلسه . قال له بصوت حزين :

ـ اصبر يا وليدي ، ولا حول ولا قوة الا بالله . . وانّا اليه راجعون .

لما خيم الصمت مرة اخرى ، وبدا الجو ثقيلاً مشحوناً قال ابن الراشد بارتباك :

ـ دم الرجل لا بدّ يتعوض .

غير جلسته واضاف بلهجة مختلفة :

ـ لا بد انه صار بعلمكم : من مدة العمال كلهم صاروا بذمة الشركة . الشركة هي المسؤولة ، هي اللي تدفع المعاشات ، وتدفع الارزاق . . ومسؤولة عن السكن . . .

قال دحام وقد ظل صامتاً منزوياً :

ـ لازم ادارة الافراد تعوض . . .

كان ابن الراشد بحاجة الى مساعدة ، الى من يقف معه في تلك اللحظة ، وما كاد دحام يقول هذه الكلمات حتى رد ابن الراشد بحزم :

ـ اسمع يا دحام ، انت وابن هذال ، هذا اليوم ، نعم هذا اليوم ، تكتبون معروضاً للشركة وتقولون فيه كل شيء . نعم . . كل شيء الحادث كيف وقع . متى . وتطلبون التعويض ، تسمعني يا دحام ؟

وهز دحام رأسه دلالة الفهم والموافقة . وحين رفع رأسه ليبحث عن ابن هذال من اجل ان يعاونه في هذه المهمة ، التقى بعيني هاجم . كان هاجم يتلفت ، ينظر في الوجوه ، وحين التقت عيناه بعيني دحام ابتسم . وابن الراشد الذي مال على هاجم وقبّل كتفيه مرة اخرى قال وهو ينهض :

ـ العوض بسلامة الرجال . وانا لله وانا اليه راجعون . .

وحين غادر رافقه بعض الرجال الى مسافة معينة . أما دحام فقد ذهب معه الى حران العرب !

وحين هبط الظلام في تلك الليلة شعر الرجال بحزن شديد ، ولا يتذكر احد منهم انه رأى القمر الذي كان يملأ السماء .

في أواخر ايام الخريف انشغلت حران ببناء دار الامارة وبيت الأمير . فالى جانب الخيام ، على التل الشمالي الاوسط ، الواقع بين حران العرب وحران الاميركان ، اضافة الى الغرب من معسكر الاميركان ، اخذت تتكدس اكوام الحجارة والرمل ، اضافة الى القضبان الحديدية والعوارض والواح الخشب ، وبدأت حركة غير عادية ، بانتظار الشروع بالبناء . وخلال هذه الفترة زار الأمير عدد من الاميركيين ، يرافقهم نعيم ، وعرضوا عليه المخططات والرسوم ، وقد تريث الأمير في اعطاء موافقته لمدة ثلاثة ايام ، ويبدو انه سأل ابن الراشد والدباسي وآخرين حول المكان المقترح للبناء وعدد الغرف ، وعرض امامهم المخططات والرسوم ، لكن اياً منهم لم يميز شيئاً . اكتفوا بان اوصوا ، وبكلمات عامة « ان يكون البناء قوياً مثل بيوت الاميركيين وان يكون واسعاً » . وحين عاد الاميركيون لزيارة الأمير بعد ايام ، ومعهم نعيم ، وعرضت المخططات والرسوم مرة اخرى ، قال الأمير خالد المشاري بصوت خافت وحازم :

ـ خلص وافقنا . . . وعلى بركة الله .

وحين سئل الأمير عن اي المخططات يباشر به ، اجاب :

ـ خلص . . اعطينا موافقتنا . . وتوكلوا على الله .

ولما ارتبك نعيم ولم يستطع ان يقول شيئاً ، وظل ينقّل نظراته بين الامير والاميركيين ، قال الأمير لينهي كل شيء :

ـ قل لهم ان يكثروا الحديد . . . والشبابيك جنوبية .

وافهم نعيم الأميركيين ان الأمير يترك لهم اختيار المخطط المناسب ، وأشار ان تكون النوافذ واسعة وباتجاه الجنوب . وحين سئل الاميركيون عن المدة التي يحتاجها البناء اجابوا انها تتراوح بين شهرين وثلاثة اشهر .

لما بدأت الحفارات تعمل لم يطق الأمير سماع هديرها ، أما حين جاءت القلابات لكي تحمل الاتربة فقد قال للدباسي :

ـ حلّ وعدنا يا ابو صالح . . .

فلما ابتسم الدباسي وهز رأسه واجاب وهو يضع اصبعه بالقرب من عينه :

ـ ببطن عيني يا طويل العمر .

ابتسم الأمير ثم بدأ يقهقه ، والدباسي يشاركه الابتسام ، حتى اذا هدأ قال :

ـ الظاهر انها فاتتك يا ابو صالح . . او نسيت .

وبعد جهد ، وبكثير من المكر والمداورة ، فهم الدباسي ان الوعد الذي يعنيه الأمير : رحلة الصيد ، خاصة وان « هذه البلايا التي جاء بها الاميركان تطوّش الرأس وتعمي العيون ! » واذا كان الدباسي قد ابدى استعداداً وحماسة لمرافقة الأمير في هذه الرحلة ، ووعد ان يصطحب معه بعض الذين يعرفون اماكن الصيد ، فقد استأذن ببضعة ايام ريثما ينتهي من بعض الاشغال الطارئة التي لا تحتمل التأجيل ، فوافق الأمير على ان يتم اختيار المرافقين بعناية .

أما حين عرض الأمير على ابن الراشد ان يرافقه في هذه الرحلة فقد فرك يديه وبدا غير قادر على الرفض او الموافقة ، وظل صامتاً ، فلما استفسر منه قال وهو يضحك :

ـ يا طويل العمر المربى قتال .

وفهم الأمير انه يريد البقاء في حران ، فقال ساخراً :

ـ لا تخف يا ابن الراشد ، حران بمكانها ، وما ترجع الا وتكون ازين .

هز ابن الراشد رأسه ورفع يديه الاثنتين ورد :

ـ حران لاهل حران ، للدباسي وغيره ، وانت ، يا طويل العمر ، تعرف ان اللي ما يصل اهله ما يجيه ولد ، وابن الراشد سنّ للولد .

كان يمكن لابن الراشد ان يذكر الأمير ذاته ، وكيف انه اصطحب معه اهله ، وانه لا يستطيع ان يعيش بدونهم ، لكنه فضّل ان يذكر الدباسي ، وان يشير بصورة او اخرى الى زواجه من حرانية ، وبعد وصوله ببضعة ايام فقط ، قال الأمير خالد مداعباً :

ـ الحق عليك ، يا ابن الراشد . . . والفلوس تعمي .
ـ اخطأنا يا طويل العمر . . . والفلوس راحت ببطون الناس .
ـ اذا رجعنا ولقيناك بهذه الديرة ، مثل ما انت ، زگرتي ، زوجناك او رحلناك .
ـ القول قولك يا طويل العمر .

وخلال بضعة ايام تهيأت رحلة الأمير ، وصحبه في هذه الرحلة عدد من رجاله ، بالاضافة الى الدباسي واثنين من اهل حران ، احدهما رجل مسن لا يكاد يتكلم ، والثاني اقرب الى سن الشباب ، لكن يبدو من هيئته انه كثير الاسفار ، وكان سريع الحركة ، ذكياً ، والابتسامة لا تفارق شفتيه .

كانت وصية الأمير خالد لنائبه ان يراقب بنفسه البناء ، وان يشرف على كل مراحله ، واكد من جديد ان تكون الشبابيك جنوبية وواسعة ، كما اشار الى انه لن يغيب فترة طويلة ، لكنه لا يعرف ايضاً متى سيعود لان « كل شيء يعتمد على القنص . يجوز نرجع بعد كم يوم ، ويجوز نبطي » واضاف بلهجة أبوية ، « البركة فيكم ، واعتمادنا على الله وعليكم » ؛

وتأخر ابن الراشد في حران ، بعد سفر الأمير خالد ، ثلاثة اسابيع . كان عليه ان يؤمن جميع كميات الحجارة والرمل لدار الامارة وبيت الأمير ، اضافة الى تأمين اليد العاملة ، وكان عليه ان يتفق مع الاميركيين حول تأمين المواد لمطعم العمال ، خاصة وان التنافس بينه وبين صالح الدباسي قد تطور الى ما يشبه التحدي الاقرب الى الخصومة المكشوفة . كانت هذه الاعمال ، بالاضافة الى قرار غامض وقلق ، ولم يحسم بعد ، حول بناء بيت في حران . . هل يشرع فيه الآن ام يرجئه الى وقت لاحق .

كانت هذه هي الاسباب الظاهرة في تأخر ابن الراشد ، اضافة لسبب آخر لا يعرفه سواه ودحام : كان عليه ان يتخلص من هاجم . اذ بعد المعروض الذي قُدّم في

الاسبوع الثالث لوفاة مزبان ، وقد وضع ابن الراشد كل « عبقريته » في صياغة هذا المعروض ، اذ عدله وأضاف اليه عدة مرات ، وقرر اخيراً ان يكتبه فواز الهذال لان « خطه على السطر ، مثل السيف ، وكلماته واضحة وقوية ، عكس دحام اللي يكتب بالميل ، وكلماته واحدة كبيرة وواحدة صغّيرة » . ملأ ابن الراشد المعروض بكلمات الاستعطاف التي كان يحفظها ويتذكرها ، وقد قضى وقتاً حتى رتبها بشكل يرضى عنه .

قُدّم المعروض الى « ادارة الافراد » ، وعن طريقها رفع الى المقر العام ، ومن المقر العام احيل الى اللجنة القانونية ، لتقرر ما اذا كان ابن الراشد هو المسؤول عن التعويض ، باعتبار ان اجراءات المصادقة على انتقال العمال الى مسؤولية الشركة لم تتم الا بعد عشرة ايام من الحادث . وقد زاد في تعقيد الموضوع ايضاً الحالة التي وصل اليها هاجم ، اذ لم تفارقه الهواجس وظل غارقاً في حالة من الذهول ، الأمر الذي ادى الى صرفه من العمل ، بعد احالات عديدة على اطباء كان واحد منهم هندياً ، ويبدو ان هذا الطبيب كان له رأي يختلف عن الطبيبين الآخرين . وقد ادى الخلاف الى تأخير صدور التقرير اولاً ثم تأخير قرار الصرف من الخدمة بعد ذلك ؛ وترافق هذا مع مداخلات واشاعات كثيرة ساهم بتغذيتها ، كما يؤكد ابن الراشد ، صالح الدباسي ، بهدف « اضعافه امام الاميركان وتحريض العمال ضده » .

كان ابن الراشد يريد حسم هذه القضية قبل ان يتحرك ، خاصة وان الأمير بدا غير متحمس للتدخل ، وحين طلب منه ابن الراشد ذلك رد : « البشر برقبتنا يا ابن الراشد ، والاحسن ان تشوف جماعتك ، وارضوا الناس بقريشات وخلصونا من الطلاليب » . ولذلك قدر ابن الراشد انه اذا لم تنته القضية الآن فلا بد ان تتطور وتجر ذيولاً كثيرة ، خاصة وان الدباسي مع الأمير الآن في هذه الرحلة « وما عنده سالفة الا ابن الراشد . ابن الراشد فعله ، ابن الراشد تركه ، وكلمة وراء كلمة ، في الليل والنهار ، والأمير مثل الحريمة والولد الصغير لا بد يسمع ويصدق ، وعندها نكون شغلة نصير بشغلة ثانية » .

المحاولات التي بذلها ابن الراشد مع الاميركيين ، من اجل انهاء القضية باسرع وقت ، اصطدمت بالاجراءات القانونية والطبية « لان النظام هو النظام ، وهو فوق الافراد واقوى من ارادتهم او رغبتهم ! » أما محاولاته غير المباشرة ، مع هاجم فقد

اصطدمت بالابتسامات الساخرة ، واصطدمت ايضاً بالتحريض الذي يمارسه العمال . لذلك اتخذ قراراً بنفسه ونفذه في احدى الليالي دون ان يحس به احد .

عند الظهر بعث دحام ليأخذ هاجم الى اللجنة الطبية ، هكذا قال لدحام وهكذا قال دحام للعامل الذي كان مناوباً مع هاجم ، بعد ان قرر العمال فيما بينهم ان يبقى واحد منهم معه ؛ وبدل ان يؤخذ هاجم الى اللجنة الطبية جيء به الى حران العرب ، الى خيمة ابن الراشد ، وهناك كان قد هيأ احد رجاله لكي يسافر بعد الغروب مصطحباً معه هاجم ، ليوصله الى أهله . وهذا ما حصل فعلاً ، فقد وضعت بعض « القريشات » في خرج الجمل الذي حمل هاجم ، ولم توضع في جيبه لانه قد « يرميها او يعطيها لأي بدوي » هكذا قال ابن الراشد للذي رافق هاجم الى عجرة ، ثم الى ام السعف « لان له خالاً هناك ، سلمه لخاله وقل له التعويض يصلكم ! » .

في اليوم الثالث حين سئل عن هاجم قال : « الحكيم الاميركاني كظّه، وإن شاء الله يرجع طيب » أما بعد اليوم الخامس فقد قال دحام ، وكان مرتبكاً وخائفاً :

ـ هاجم عند اهله . . واذا ما وصلهم اليوم يصلهم باكر !

امتلأ العمال حقداً اسود عندما سمعوا كلمات دحام ، وقرروا الا ينسوا ابداً .

بعد سفر الأمير بايام وصل الى حران محمد السيف وعبد الله السعد ، وهما من أهل حران ، وكانا قد تركاها منذ وقت طويل . عبد الله ظل يبعث الى أهله الرسائل ، وبعث لهم ارزاقاً ودراهم عدة مرات ، أما محمد فقد انقطعت اخباره في السنين الثلاث الاولى ، ثم جاءت منه عدة رسائل ومعها بعض الدراهم ، وقال احد الذين حملوا رسالة من رسائله ان « محمد السيف فوق الريح ، ومن الاغنياء المعروفين في البصرة » .

الآن ، وهما يعودان ، وحينما وقفا في المطالع ، بداية طريق حران ـ عجرة ، ظنا انهما أخطأ الطريق ، وفي لحظة من اللحظات ظن عبد الله انه في حلم ، وحين فرك عينيه جيداً وتطلع بامعان لم يميز سوى النخلتين اللتين كانتا قرب الجامع منذ وقت طويل ، وما عدا ذلك تغير. حران التي كانت هناك ، في المنخفض ، عند الآبار ، لم تبق منها اية علامة من العلامات القديمة . ومكان البيوت التي كانت ، تقوم الآن كتل من الابنية الصغيرة المتناثرة والملونة ثم مجموعة من الخيام ، وعلى التلال من الشرق والغرب قامت اشياء عجيبة لم يكن لها وجود في السابق .

ظلا يتأملان بصمت ، تلفتا اكثر من مرة ، اذ ربما يكون هناك خطأ من نوع ما ، وحين تأكدا انهما وصلا ، وان هذا الشيء العجيب الذي يريانه هو حران ذاتها ، وان

تكن حران اخرى ، فقد شعرا بالخيبة وما يشبه الكراهية . لماذا دُمّرت حران التي كانت في يوم من الأيام ؟ واهلهم ، اين صاروا وماذا حلّ بهم ؟ وهل يستطيعان ان يعيشا في هذه الحران التي لا يعرفانها ولم يعيشا فيها من قبل ؟

كان يمكن للرجلين ان يقولا الكثير ، لكن المفاجأة ، وتلك الرغبة بالاكتشاف والتعرف جعلتهما اقرب الى الصمت والحيرة . فما عدا كلمات التعجب والدهشة ، وحتى عدم التصديق التي صدرت عنهما في المطالع ، ظلا يخبّان على ناقتيهما ضمن هذه القافلة التي اثارت في نفسيهما العجب منذ اللحظة الاولى في عجرة . كانت القافلة كبيرة وفيها بشر لا يمكن ان يجتمعوا ابداً في قافلة اخرى ، وكانت تحمل اشياء كثيرة ومتنوعة ايضاً . واذا كانا قد تبادلا احاديث عامة مع عدد من المسافرين فلم يقولا انهما من أهل حران ، او انهما غابا عنها فترة طويلة ، وهما يعودان اليها الآن . أما حين سألهما احد البدو في القافلة ما اذا كان مثله يقصدون حران للعمل ، فقد هز محمد رأسه بالإيجاب .

الآن وهما يقطعان المسافة باتجاه الجامع يحسان بخيبة الامل ، ويشعران بالاحراج ايضاً . كيف سيصلان الى اهليهما ؟ هل يسألان الغرباء والذين جاءوا بالامس لكي يدلوهما ويقولوالهما اين اصبح أهلهما ؟ وأهلهما هل يعرفونهما بعد هذي السنين وبعد هذا التغير الكبير الذي حصل في كل شيء ؟

قال عبد الله بطريقة مازحة :

ـ يا محمد . . ما لنا الا الجامع ، هناك نصلي ركعتين ونلقى الشّياب اللي بعدهم ما ماتوا ، ولا بد يعرفوننا ، او يعرفون علوم اهلنا .

رد محمد وهو يضحك بصوت عالٍ :

ـ بمصر يقولون : قولوا لي يا جدعان هو بيت ابوي فين .

ـ وكّل الله نلقاهم . . لا تخف .

ـ ما ان بخايف . . لكن . . .

وهز محمد رأسه وتطلع الى عبد الله بامعان ، ثم تابع وهو يبتسم :

ـ قبل عشرين ثلاثين سنة ، كنا نركب الحمير ونشد عيوننا من تل الذيب الى حران ونتسابق ونصل !

قهقه عبد الله وعلق :

ـ « الحمار » دائماً يدلّ مربطه .

لم تغير حران عاداتها ، اذ ما كادت القافلة تصل حتى كان الناس في لقائها ، وباسرع مما قدر الرجلان ، ومن النظرات الاولى غرقا في جو الاهل والاصدقاء . كان الناس حولهما وكأنهما لم يغادرا حران هذه السنين كلها . صحيح أن الزمان ترك آثاره وعلاماته على الوجوه ، لكن هذه الآثار مالبثت ان تراجعت بسرعة لتظهر العواطف التي كانت ، ولتظهر القوة الداخلية التي تلغي الزمن والمسافات ، وتعيد الأشياء الى لحظة مجدها الأول .

كانت لقاءات الرجلين بالاهل والاصدقاء مؤثرة ، وفي بعض اللحظات قاسية ، فالمقيمون اظهروا فرحا جامحا ، وعبروا عن ذلك بصور شتى ، لكن ظل في عيونهم ايضاً لوم لا يخفى ، وكأن هذه العيون تقول : لماذا تركتمونا هكذا كل هذه السنين ؟ او تقول : هل يمكن للانسان ان ينسى او يتخلى عن جذوره ؟ والعائدان اللذان تلفتا في كل الانحاء وسألا عشرات الاسئلة ، دون انتظار اجابات كاملة او دقيقة ، كانا في قلق : اين اصبحت الامهات والاخوات والعمات والخالات ، أين هن نساء حران ؟ وهل يعيش الناس في رضا بعد هذا التغير الذي لم يبق شيئاً من حران الاولى ؟ واين يسكنون الآن ؟

وبطريقة لا تخلو من الارتباك ، بين صخب الاطفال وضجيجهم ، اضافة الى هياج الحيوانات بسبب الاضطراب والضجة والنداءات ، وصل محمد السيف وعبد الله السعد الى حران الجديدة . وقد رأى الكثيرون عبد الله السعد يمسح دموعه حين التقى بأمه . كانت امرأة عجوزا لا تستطيع المشي الا بصعوبة ، وقد اصبحت عمياء ايضاً . حين التقت به دفنت وجهها في صدره وظلت هكذا فترة طويلة ، وحتى حين تراجعت قليلاً ورفعت رأسها ظلت ممسكة به . امسكت به بقوة اول الامر ، وكأنها تخاف ان يفلت منها او ان يهرب مرة اخرى . وتساقطت من عينيها دموع غزيرة ، وظلت بين لحظة واخرى تدفن رأسها في صدره ، تشمه وتبكي . وقد رأى الناس عبد الله يبتسم لكن بطريقة اقرب الى البكاء ، ثم بعد فترة ارتخت احدى قبضتيها ، وظلت الاخرى بنفس القوة ، وبدأت تجوس وتتلمس باليد الطليقة وتستقر اكثر ما يكون على وجهه .

لحظات قاسية عاتية ليس بالنسبة لعبد الله وامه فقط ، وانما لجميع الذين كانوا . والام اذا ظلت صامتة ، ويدها فقط ترحل من مكان الى آخر ، وكأنها بهذه اليد تسأل ، تتفحص ، تتأكد ، حتى اللحية الصغيرة التي تلمستها بكثير من الحنان وما يشبه المتعة ، واخذت تقبل يدها ، ثم ترتفع وتقبل اللحية ذاتها ، فلما اطمأنت ، او ربما ثملت ، ارتخت يداها ، اسبلتهما ، لكن بين فترة واخرى تمتد احداهما او الاثنتان معاً لتتلمس المخلوق الغريب الذي انفجر فجأة ، كانت تفعل ذلك وكأنها تتلمس طفلاً رضيعاً .

فوجىء عبدالله أن أمه فقدت بصرها . لم يقل له أحد ولم يتوقع ، لكن وهو يراها هكذا شعر بالتعاسة ، احس ان خطأه كبير الى درجة لا يمكن ان يغفره لنفسه ؛ أما حين اقبلت عليه اخواته فقد احس بثقل الزمن ومرور الايام . حتى اخته الصغيرة التي تركها ابنة عشر تزوجت وجاءها ولدان ، كانت تحمل الأول وتجر الثاني ! كيف انقضت كل هذه السنين ، ولماذا كان قاسياً بهذا المقدار ؟

واذا كان عبد الله قد فوجىء بهذا الذي يراه امامه فان محمد الذي لم يفاجأ بأمّ فقدت بصرها ، لانها غادرت هذه الدنيا منذ كان صغيراً ، فقد فاجأه كل شيء آخر ، وحتى بعد انقضاء ايام وتعرف الاثنين على الصغار ، وسؤالهما عن كل واحد من الكبار ، ثم تجولهما بين بيوت حران الجديدة على التل الغربي ، ونزولهما الى السوق ووقوفهما عند الآبار ، ثم التجوال الطويل على الشاطىء ، رغم كل هذا فان حران التي يريانها الآن لا تجعلهما يشعران براحة من اي نوع ، ليس عدم الشعور بالراحة فقط ، وانما الشعور بالخوف ايضاً .

وبطريقة غريزية تختلط فيها المحبة بالخوف طوّق أهل حران هذين العائدين لمحاربة اية فكرة او رغبة تحملهما على السفر مرة اخرى . فقد احس أهل حران ، وهذا الاحساس ملأ النسوة قبل الرجال ، ان الرجلين يمكن ان يفلتا ، يمكن ان يتذرعا باية حجة ، وقد يقولان اي شيء من اجل ان يسافرا مرة اخرى . احس أهل حران بذلك من النظرات ومن ذلك السهوم الذي كان يسيطر على الرجلين في لحظات معينة ، رغم أنهما لم يقولا كلمة واحدة تشي بذلك .

واذا كان أهل حران جميعهم قد تكفلوا بمحمد السيف ، دون ان يتفقوا على ذلك

بكلمات واضحة او نتيجة خطة ، فان تلك العجوز العمياء وحدها تكفلت بابنها عبد الله وساعدت اهل حران ايضاً في ان يحاصروا محمد السيف ، ويمنعوهما من السفر . فالشعور الذي سيطر على الناس انهم متروكون ، وبحاجة الى حماية من نوع ما ، وان هذه الحماية لا يمكن ان تولد الا من داخلهم ، لا من الأمير ولا من غيره ، هذا الشعور هو الذي جعلهم يتصرفون ويتكلمون بطريقة معينة مع الرجلين ، وهو الذي امتص تلك الرغبات التي تراودهما بين فترة واخرى ، وبمرور الأيام ، وما كاد شهر ينقضي حتى ابلغ عبد الله امه انه سيبعث اخاه ابراهيم الى البصرة ليأتي بأهله وسوف يبعث معه رسالة الى شريكه هناك يخبره انه سيتأخر عليه في العودة . وهزت العجوز رأسها وانحدرت من عينيها الدموع ولم تقل شيئاً .وبعد بضعة ايام كان ابراهيم قد هيأ نفسه وسافر . أما محمد السيف فقد قال ليلة سفر ابراهيم : « قريشاتي بعتّي وحران مثل غيرها . اذا ما سافرت هذه السنة اسافر السنة اللي بعدها » .

في البركسات بدأ الحقد مثل طير ينتقل من صدر الى آخر . كان ينتقل كل لحظة ولاي سبب او حتى دون سبب . ودحام الذي كان قوياً بصوته العالي ومشيته الواثقة ، والذي كان لا يتردد في الشتيمة ، ويعتبرها احد الفنون التي يتقنها ، اصبح بعد غياب هاجم ثم سفر ابن الراشد ، دقيقاً شديد الحذر ، بل وكان كثير الغياب عن المعسكر بحجة وجود اعمال وامور يجب ان يلاحقها في حران العرب او في معسكر الاميركان . أما نعيم فلم يره العمال منذ وفاة مزبان ، اذ بعد ان اشترك في التشييع ، ممثلاً للادارة ، كما قال اكثر من مرة ، غاب تماماً . قال بعض العمال انهم رأوه عن بعد ، وقال آخرون انه سافر سفرة طويلة وربما لا يعود . أما « ادارة الافراد » كما اطلق على هذا الشبح فلا يعرف ان كان موجوداً او غير موجود ، فقد ابلغت العمال بأمور عديدة ، عن طريق مراقبي العمل ، خاصة رجال الامير ، ثم تـمّ التراجع عنها .

في هذه الفترة ايضاً وصلت وجبات جديدة من العمال ، وقد تم جلبهم من قبل الدباسي ، وليس عن طريق ابن الراشد ، وابدى صالح الدباسي اهتماماً غير عادي اثناء استقبال العمال ثم توزيعهم على البركسات الجديدة التي تم تشييدها في هذه الفترة ، كما تم تسليفهم نصف راتب اذ ربما « يحتاجون لشراء بعض المواد من دكاكين

حران ، او لشرب كأس من الشاي في المقهى » . يضاف الى ذلك ان الملابس والحاجات الاخرى التي سُلّمت للوجبات الجديدة كانت افضل من تلك التي سلمت للعمال القدامى . وظل صالح يتردد كل يوم ويسأل ليتأكد . .

الوجبات الجديدة التي جاءت من امكنة عديدة حملت انسام العالم خارج حران ، وذكرت الكثير من القصص والوقائع ، والتي كانت مزيجاً من الاحلام والرغبات مع بعض الاكاذيب ، ففي عجرة فُتح مكتب للتوظيف ، وفي السماعنة ، وعلى الطريق السلطاني ايضاً ، ورجال ابن الراشد الذين رابطوا في هذه المكاتب او رحلوا الى الداخل بحثاً عن عمال ، ذكروا الكثير الكثير من المزايا التي يحصل عليها من سيعمل في الشركة . لم يتركوا شيئاً الا وقالوه : الأكل الجيد ، المعاشات الكبيرة ، العمل لساعات قليلة ثم يصبح العمال احراراً ويمكن ان يعملوا اي شيء يريدونه ، اضافة الى السكن المجاني ، والسكن في بيوت وحول هذه البيوت الحدائق والمياه . . .

عيون العمال الجدد تجوس كل الأنحاء وتتطلع برغبة التعرف والاكتشاف ، واذا كانت هناك اكاذيب يمكن ان تدوم فترة طويلة ، فان السكن في البركسات الجديدة رغم انها افضل وأقل حرارة ، كان يفضح كل شيء ويجعل الحياة صعبة قاسية .

و« ادارة الافراد » التي ظلت شبحاً خلال الفترة الماضية قامت في هذه الفترة بابلاغ العمال ان مقابلات سوف يتم اجراؤ ها خلال ايام من اجل التصنيف . ابلغ احد رجال الامير العمال بذلك وطلب منهم ان يستعدوا ! ان يستعدوا ؟ اي معنى لمثل هذه الكلمة وماذا سيفعلون وماذا يعني تصنيف العمال والى ما سيؤدي ؟

كان يمكن لبلاغ من هذا النوع ان يمر دون ان يخلف اثراً او يثير قلقاً ، لكن في اليوم الثالث أبلغ العمال أنهم سيقسمون الى مجموعات ، المجموعة الاولى ستتوجه للمقابلة والمجموعات الاخرى تواصل عملها كالمعتاد . ودون انتظار قرأ دحام اسماء مجموعة المقابلة ، وطلب من الآخرين ان ينصرفوا الى عملهم ، وخلال فترة قصيرة توجه العمال الى معسكر الاميركان .

لقد انقضت فترة طويلة ، بضعة شهور ، منذ ان كانوا هنا آخر مرة ، وبعضهم لم يأت من قبل .

بدت حران الاميركان شيئاً جديداً بالنسبة للجميع . حتى الاماكن والابنية التي عملوا فيها واستراحوا في ظلالها تبدو الآن شيئاً مختلفاً . لقد اضاف اليها الاميركان اشياء كثيرة جديدة : أشجاراً لا يعرف من اين جيء بها ، وقد حُفر لها في الارض وخلطت التربة بتربة اخرى او بمواد غريبة ، وقد كبرت هذه الاشجار . نباتات كثيرة ومختلفة في أوانٍ كبيرة وصغيرة ، حتى البراميل ، بعد ان دُهنت بلون ابيض ، امتلأت بالخضرة وانتشرت في امكنة كثيرة . وكذلك الشوارع التي كانت من التراب ثم فرش عليها سائل اسود اثناء العمل في الايام الاولى ، اصبحت الآن شيئاً مختلفاً ، واضيفت ابنية جديدة للابنية التي قاموا بانشائها ، وكانت هناك صفوف من البيوت الصغيرة غير بعيدة عن «الادارة العامة» .

الاشياء الجديدة والغريبة التي يراها العمال في حران الاميركان تولّد في نفوسهم التهيب ثم الحذر . خاصة وهم يشاهدون الاميركان ينتقلون من بناء الى آخر ويتطلعون اليهم بتعجب وتساؤل وكأنهم فوجئوا بوجودهم : ماذا يفعل هؤلاء هنا ومن جاء بهم ؟

كان الصمت مثل ظل ثقيل يخيم على هذه المجموعة التي تزيد على العشرين . لم يكن يُسمع إلا وقع الخطى وذلك الصوت الذي يتولد من الاحتكاك أو من الأنفاس والسعال . لم يكن عندهم شيء يمكن أن يقوله بعضهم لبعض بصوت عالٍ . حتى الأسئلة التي تبادلوها في اللحظات الأولى، وهم يغادرون معسكرهم باتجاه معسكر الأميركان، ولّدت في نفوسهم قلقاً ووسواساً تزايدا مع كل خطوة جديدة.

قال لهم احد الاميركيين ، باشارة من يده ، ان يقفوا . وقفوا قبل ان يصلوا مقر الادارة العامة بثلاثين او اربعين خطوة . كان المكان عبارة عن اعمدة وفوقها سقف ، ولم يكن كافياً لكي يتسع لهم جميعاً ، فظل عدد منهم تحت الشمس ، لكن رغم ذلك كان المكان يتيح لهم ان يتطلعوا الى كل الاتجاهات . رأوا ناحية الشرق البركة الكبيرة وصفين من البيوت ، وفي الناحية الثانية المطعم ، حيث تغدى الامير ، والى جانبه طرف من البركة الثانية ، ورأوا صفاً من البيوت الصغيرة ايضاً . أما في مواجهتهم تماماً ، الى جانب المقر ، فقد قام بناء كبير يقارب بمساحته المطعم ، لكن على شكل مستطيل ، والى جانبه غرف صغيرة .

كانوا ينظرون بصمت . لم يجرؤ واحد منهم على السؤال ، ولو تجرأ وسأل فلن يستطيع احد ان يجيب . كانوا يتجنبون ، اول الامر ، ان ينظروا في وجوه بعضهم بعضاً ، لكي

لا يكتشفوا صفرة الوجوه والخوف ، لكن بعد ان تملّوا المنظر كله ، وبعد ان تلفتوا في كل الاتجاهات وطال انتظارهم ، في هذا المكان ، بدأوا يتبادلون النظرات ، كانت النظرات مزيجاً من التساؤل والرهبة ، وكانت عيونهم تتكلم دون توقف، أما الصمت الذي سيطر في البداية فقد تحول الى همهمات غامضة متداخلة .

فجأة وهم كذلك ، وكما تخرج الاشباح من القبور خرج لهم نعيم . خرج من مقر الادارة العامة وتوجه نحوهم . لم يكن ينظر اليهم طوال المسافة الواقعة بين المقر والمكان الذي يقفون فيه . كان ينظر الى الأرض ، ورغم القوة التي ميزت ملامحه حين وصل قريباً منهم ورأوه ، فقد كانت قوة اقرب الى الحقد او الكراهية . كان يلبس ملابس واسعة خلافاً للمرات السابقة ، حيث كانت تبدو ملابسه اقل اتساعاً ومختلفة ايضاً . وخلال اللحظة القصيرة التي استغرقتها نظرته الواسعة ، وهو يحدد اين تبدأ هذه المجموعة البشرية واين تنتهي في هذا المكان ، قال لدحام بحزم :

- يدخلون خمسة خمسة . . وحسب الحروف الابجدية .

وأخرج من جيبه ورقة عليها الاسماء ، وقرأ الاسماء الخمسة الاولى وقال لهم :

- اتبعوني .

* * * *

في الدهليز الطويل نصف المعتم هبّت فجأة على العمال الخمسة ريح باردة جعلت اجسامهم تنكمش وتقشعر . انها تشبه الريح الشتوية ، او هواء اواخر الليل . التفتوا في اكثر من اتجاه ليعرفوا من اين تأتي هذه الريح ، لكن لم يشاهدوا شيئاً . كانت الغرف على جانبي الدهليز مغلقة وصامتة ، ولم يكن يسمع سوى وقع اقدامهم وهم يمشون بارتباك وراء نعيم . مشوا مسافة طويلة حتى اذا وصلوا نهاية الممر تقريباً توقف نعيم فجأة ، فتوقفوا . نظر اليهم بطرف وجهه ثم فتح باباً كان يقف عنده ودخل . لم يعرفوا هل عليهم أن يدخلوا أم أن ينتظروا، نظروا في وجوه بعضهم بعضاً، نظروا الى الباب المفتوح، وكانت بضع خطوات لا تزال تفصله عنهم، أخرج نعيم رأسه مثل ساحر وقال : أدخلوا .

حين دخلوا الغرفة وجدوا انفسهم أمام رجل شديد السمرة ، يجلس وراء طاولة . كانت مجموعة من الكراسي على جانبي الغرفة . نظر اليهم الرجل نظرة محايدة وباردة . تحدث مع نعيم قليلاً ثم قام الاثنان معاً . فتحا باباً جانبياً ودخلا واغلقا وراءهما . سُمعت اصوات من الداخل . كان العمال يقفون في منتصف الغرفة ، كانت الغرفة اقرب الى البرودة . لا ، كانت باردة ، بل باردة جدا . التفتوا ، نظروا الى الجدران والمقاعد ثم نظروا في وجوه بعضهم بعضاً . كانوا صامتين تماماً ، وكانت حلوقهم جافة ، وقلوبهم تخفق بقوة .

فتح الباب ذاته مرة اخرى وخرج الرجلان معاً ، قال نعيم لواحد منهم : « تعال معي » ، وقال للآخرين : « اجلسوا هنا » ، وأشار الى المقاعد جهة اليمين ، مقابل الباب ، وفي محاولتهم الجلوس اصطدم اثنان أحدهما بالآخر وهما يحاولان الحركة والتوجه نحو الكراسي ، وكاد واحد منهم ان يجلس على نفس الكرسي الذي توجه اليه آخر . أما حين جلسوا فكانت نظراتهم مصوبة الى الرجل الأسمر الذي جلس من جديد وراء الطاولة والى الباب الذي دخل منه نعيم وابراهيم الفالح .

الرجل الشديد السمرة ، والذي لم يروا سمرة قاسية حادة مثلها من قبل ، كان نظيفاً براقاً وكأنه مدهون بالزيت ، بعد ان استراح وراء طاولته نظر اليهم نظرة طويلة ، بدت نظرته اقل قسوة من المرة الاولى ، حين التقت نظراته بنظراتهم ابتسم . ظهرت اسنانه شديدة البياض ، او ربما بدت هكذا لأنه كان شديد السمرة ، سحبوا نظراتهم بسرعة ، غرقوا في الصمت . حركوا ارجلهم وايديهم دون ارادة ، تحرك واحد منهم ، وحين التقت نظراتهم بنظراته مرة اخرى ابتسم اكثر من المرة السابقة،وبسبابة يده اليسرى دق مرتين على صدره وقال وهو يبتسم :

ـ مسلمان . . . مسلمان . . علي اقبال

ابتسموا له ابتسامة مرتبكة خائفة ولم يتكلموا . لم يفهموا شيئاً مما قاله . نظر بعضهم الى بعض بتساؤ ل . ماذا تعني كلمات الرجل وماذا يريدمنهم ؟ هل سألهم وينتظر إجابة من نوع ما ؟ تطلع اليهم وهز رأسه ثم براحة يده كلها دقّ على صدره مرة أخرى وقال :

ـ الهمد لله رب العالمين . الرهمان الرهيم .

وكانت ابتسامته هذه المرة كبيرة ، ومن جديد نظر بعضهم في وجه بعض ، وصمتوا . قرب الرجل سبابتي يديه الاثنتين من بعضهما وحركهما بشكل متوازٍ ، ثم دق على صدره ، إشارة اليهم وقال :

ـ مسلمان

كانوا خائفين ومرتبكين . فهموا ولم يفهموا في وقت واحد . صمتوا .

* * * *

حين دخل ابراهيم الفالح وجد الغرفة كبيرة جدا وباردة . اكبر من الغرفة الاولى بثلاث مرات او ربما اكثر . والبرودة فيها كما في الغرفة السابقة . رأى في صدر الغرفة طاولة كبيرة بيضوية لا يجلس احد وراءها ، ورأى ثلاثة من الاميركيين . عرفهم من النظرة الأولى : اثنان كانا يترددان باستمرار على حران العرب ويعرفان العربية ، أما الثالث فكان صاحب اللحية الكبيرة الحمراء . كانوا يجلسون في وسط الغرفة تقريباً ، على شكل دائرة غير كاملة ، وكانت مقاعد عديدة فارغة . لم يجد شيئاً يقوله لهم ، كان يريد ان يسلّم ، ان يقول شيئاً ، لكن وجد نفسه مرتبكاً ، حرك يده بتحية ولم يتكلم ، نظروا إليه من رأسه حتى قدميه وهو يتقدم نحوهم . ابتسم له احد اللذين يتكلمان العربية وطلب منه الجلوس ، واشار الى مقعد . جلس ، وجلس نعيم قريباً منهم ، وان ترك كرسياً اقرب اليهم فارغاً .

تطلع بعضهم في وجوه بعض ، قالوا فيما بينهم كلمات لم يفهم منها شيئاً، قال نعيم موجهاً اليه الكلام :

ـ سنقوم بتوجيه مجموعة من الاسئلة ونريد ان تجيب عنها بدقة . .

وحين رأى الخوف في عينيه ، قال بلهجة ودية :

ـ الاسئلة بسيطة ، عادية ، ويمكن لأي انسان ان يجيب عنها .

كانوا يتكلمون بالانكليزية ونعيم يترجم ، لكن قبل ان يوجه اليه أي سؤال انتقل واحد من اللذين يعرفان العربية الى الطاولة البيضوية ، جلس وراءها استعداداً للكتابة ، وبعد فترة صمت قصيرة بدأت الاسئلة :

ـ الاسم . . الاسم الكامل ، اسم الاب والجد ؟

ـ ابراهيم الفالح الابراهيم

ـ الاسم بعد الجد ؟

ـ ابراهيم الفالح الابراهيم المحمد
ـ جد الجد ؟
ـ ابراهيم الفالح الابراهيم المحمد الابراهيم
ـ من اية قبيلة ؟
ـ العتوم
ـ الفخذ ؟
ـ حرب
ـ اسم الام ؟

نظر ابراهيم الفالح الى نعيم بدهشة وصلت حد الاستغراب ثم تطلع الى الاميركيين الثلاثة ، فلما وجدهم بانتظار اجابته سأل :

ـ ما عليكم من الام ؟

نظر اليه نعيم بتحديد اقرب الى التأنيب . ثم التفت الى الاميركيين وترجم ما قاله . ضحك الاميركيون الثلاثة بصوت اقرب الى القهقهة ، وقال احد اللذين يعرفان العربية :

ـ المعلومات المطلوبة بسيطة وضرورية . . .

توقف لحظة ، ابتسم له . وقام ، اقترب منه حتى حاذاه ، سأله وهو يربت على كتفه :

ـ عندك أم ؟

هز ابراهيم رأسه بالايجاب

ـ الام عنده اسم ؟

ومن جديد هز رأسه بالايجاب

ـ ما هو اسم الام ؟

زفر ابراهيم مثل ذئب جريح ، هز رأسه بلوعة ونظر الى الاميركي الذي يقف فوقه ، ثم نظر الى نعيم وقال بنفاد صبر :

ـ اسم الام مزنة
ـ تعيش ام ماتت ؟

رد وهو يبتسم :

ـ ماتت
ـ والاب ؟
ـ الاب حي
ـ هل تزوج عدة زوجات ؟

قال بنفاد صبر

ـ ما بال القوم ما عندهم سالفة الا ابوي وامي ؟

ومن جديد ضحك الاميركيون الثلاثة وشاركهم نعيم ، بعد ان ترجم ما قاله له . رجع الاميركي الذي كان يقف بالقرب منه . تكلم مع الاثنين الآخرين ، ثم توجه الى نعيم بالكلام فقال له بعض الاشياء اثارت ابتسامات الآخرين . هز نعيم رأسه عدة مرات دلالة الفهم او الموافقة ثم تكلم :

ـ مثل ما قلت لك في البداية : المعلومات المطلوبة بسيطة وضرورية ، وهي ايضاً سرية ، لا يمكن لأحد ان يطلع عليها ، ولذلك يمكن ان تجيب بحرية ودون خوف .

توقف لحظة ثم اضاف بلهجة مختلفة :

ـ كل هذه المعلومات ضرورية من اجل زيادة الراتب ، من اجل الترقية ، ويمكن ان تساعدك في السفر الى اميركا من اجل التدريب .

قلب ابراهيم الفالح شفته دلالة على عدم الاهتمام .

ومن جديد بدأت الاسئلة :

ـ هل تزوج ابوك غير امك ؟
ـ نعم تزوج اثنتين غيرها
ـ ما ترتيب امك بين الزوجات ؟
ـ ما ترتيب امي ؟
ـ هل هي الاولى ؟ الأخيرة ؟
ـ الاولى
ـ والزوجات بعدها ، اثناء حياتها ام بعد وفاتها ؟
ـ واحدة قبل والأخيرة قبل ثلاث اربع سنوات
ـ ي بعد وفاتها ؟
ـ ي نعم !

ـ كم اخ لك ؟
ـ ثلاثة وانا الرابع
ـ هل هم اكبر منك ام اصغر ؟
ـ أنا الكبير ، كلهم اصغر
ـ كم عدد الاخوات ؟
ـ اعوذ بالله من الشيطان ، اتركونا يا جماعة الخير !

قال نعيم بحزم :

ـ قلنا لك : هذه المعلومات ستبقى سرية ولن يطلع عليها احد ، وهي ضرورية بالنسبة للشركة !

همهم ابراهيم الفالح فخرجت من فمه اصوات غير واضحة

ـ عدد الأخوات ؟
ـ خمس
ـ هل انت متزوج ؟
ـ لا
ـ واخواتك واخوانك هل فيهم متزوج ؟
ـ الأخوات ثلاث متزوجات
ـ هل تزوجن غرباء ام اقرباء ؟
ـ اقرباء

قال احد الاميركيين وهو يبتسم :

ـ الآن انتهينا من الاسئلة عن الأهل ، طبيعي هناك عشرات الاسئلة الاخرى التي كان يفترض ان تُسأل ، لكن هذه المرة يكفي هذا القدر .

توقف قليلا ، نظر إليه ليعرف ردّ فعله ، فلما وجده صامتاً وعلامات الضيق تظهر على وجهه ، التفت الى ذي اللحية الحمراء ، تكلم معه قليلاً ثم عاود الأسئلة من جديد :

ـ انت مسلم أليس كذلك ؟

هز ابراهيم الفالح رأسه دلالة الايجاب ولم يتكلم .

ـ هل تصلي ؟
ـ بعض الاوقات .
ـ لماذا بعض الاوقات ؟ لماذا لا تصلي كل الاوقات ؟
ـ نلحق على الصلاة !
ـ نريدك ان تجيب بدقة ، لماذا لا تصلي كل الأوقات ؟
ـ يا جماعة الخير الصلاة لله . الصلاة ما هي للعبد .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ اذا كنا مع المصلين صلينا .

ابتسموا وأدار بعضهم النظرات في وجوه بعض . سأل ذو اللحية الحمراء : :

ـ ماذا تقوم به غير الصلاة من الواجبات الدينية ؟
ـ اصوم
ـ هل تصوم لأن اهلك طلبوا منك الصيام ام لاسباب اخرى ؟
ـ لان رب العالمين قال : صوموا
ـ هل تصوم في غير شهر الصيام ؟
ـ لا
ـ هل زرت الكعبة ؟
ـ لا
ـ الا تريد زيارتها ؟
ـ إن شاء الله ازورها
ـ وغير ذلك من الواجبات الدينية ؟

قال بانفعال موجهاً الكلام الى نعيم :

ـ علّم جماعتك ، هذه السوالف ما منها فائدة ، والاحسن يتركوها !

لما ترجم نعيم ما قاله ابراهيم الفالح هزّ ذو اللحية الحمراء رأسه دلالة التعجب والاستغراب ، ثم تبادل مع الاثنين الآخرين بعض الكلمات ، فتولى واحد غيره توجيه الاسئلة :

ـ ما عدد افراد عشيرتك ؟
ـ اذا ما بها حسد .. عدّ التراب .. وازود

- هل تحب الشيخ ؟
- اذا ظل الشيخ شيخ ، يحب الناس ويحارب معهم ، ومثله مثلهم احبه
- هل توجد خصومات بين عشيرتك والعشائر الأخرى ؟
- هذه السالفة سالفتنا ما هي سالفة غيرنا . وهالحين لا

قال « لا » وضحك وهو يهز رأسه ، تظاهروا انهم لم يروا ، تابع نفس الشخص

- هل تحب الامير ؟
- نعم !
- هل تحدثت معه ؟ هل زرته ؟
- لا
- هل تحب العمل الذي تعمل فيه الآن ام تريد ان تغيره ؟
- البحر ما اروح . اروح اهلي وما اروح البحر ، وبعده كله مثل بعضه ، حملت الحصو بهذا المكان او بذاك المكان ، حفرت بهذا المكان او بذاك المكان ، ما تغير شيء .
- كم عدد اصدقائك من العمال ؟
- كلهم خويا .
- الاصدقاء . . الاصدقاء ؟
- وكّلوا الله يا جماعة الخير ، كل الناس فيهم الخير والبركة .
- هل تحب السفر الى اميركا للتدريب ؟
- لا
- لماذا ؟

ضحك ضحكة عالية ولا يدري لماذا قال :

- ابو الحصين في بلاده سبع .

ضحكوا كثيراً لما ترجم لهم نعيم هذه العبارة ، بعد ان استفسر من ابراهيم الفالح عن معنى كلمة « أبو الحصين » ، وما كادت الضحكة تتراجع حتى نظر بعضهم في وجوه بعض وكأنهم يكتفون ضمناً ، هذه المرة ، بهذه المجموعة من الأسئلة ، خاصة حين نظر أحدهم الى الساعة ورفع رأسه كأنه يحسب كم من الوقت قد مرّ أو كم استغرقت هذه المقابلة . تكلموا فيما بينهم ثم قال أحدهم لنعيم بعض الأشياء ، هز نعيم رأسه اكثر من مرة دلالة الفهم والموافقة ، وقال له :

- كما اوضحنا لك ، الاسئلة التي وجهت اليك والاجابات ستبقى سرية ولا يمكن لاحد ان يطلع عليها ، لذلك نطلب منك ان لا تذكر اي شيء للعمال الآخرين اذا سألوك .

وبعد ان اوصله الى الغرفة الثانية طلب منه ان يرجع مباشرة الى المعسكر ، ان لا يتوقف عند العمال الآخرين ، وطلب من عامل من العمال الاربعة الآخرين الذين كانوا ينتظرون ان يرافقه .

عند العصر ، حين عاد العمال الى المعسكر ، كان عدد الذين جرت مقابلتهم خمسة عشر ، أما الآخرون فقد اجلوا الى وقت آخر لم يحدد . وبرغم ان الكثيرين صمتوا في البداية ، فلم يتكلموا ولم يسألوا او يُسألوا ، فان حالة من الاضطراب الاقرب الى الهياج ، سيطرت على المعسكر كله . كان الدوي الداخلي يدفع الكثيرين لان يتصرفوا بخشونة ، لان يصرخوا دون سبب واضح ، ولم يتردد بعضهم في ان يذهب الى النوم مباشرة ، رغم انهم لم يتعودوا النوم في مثل هذا الوقت .

عند اول المساء ، وبعودة العمال الآخرين ، الذين لم يدعوا الى المقابلة تغير جو المعسكر ، بدأت الاسئلة وبدأت التعليقات . الذين سألوا كانوا مدفوعين برغبة المعرفة ، ولم تساورهم اية شكوك او مخاوف ، لكن ما كادت تلك الكلمات العمياء تتطاير حتى قال بعض الذين جرت مقابلتهم كلمات معينة اثارت في نفوس الآخرين الحيرة . قال ابراهيم الناصر :

ــ اولاد الحرام يريدون معرفة كل شيء ، حتى ليش ابوي طلق وما تزوج نوبة ثانية . ويريدون ان يعرفو اذا كنت جُنُباً لاني لا اصلي الاوقات كلها . وسألوا هل استحلم كثيراً وضحكوا . اولاد الحرام يريدون ان يعرفوا القمحة من زرعها والبيضة من باضها .

وبصق باحتقار وغضب .

أما فواز بن متعب الهذال فلم يستطع ان يصبر طويلاً فيبقى صامتاً ، اذ ما كاد واحد من العمال يطلب منه ان يكتب له رسالة يبلغ اهله انه سيعود قريباً ويترك عمل الشركة ، حتى قال له بحدة وتكلم بصوت عالٍ سمعه الكثيرون :

ـ يمكن قالوا لك مثلي : انت احسن العمال ولك مستقبل ، ولا بد نرسلك الى اميركا للتدريب ، وهناك تتعلم اللغة الانكليزية وتدخل المدارس وتصبح في يوم من الأيام رئيساً للعمال . . .

توقف لحظة ، تنفس بعمق ثم اضاف :

ـ . . . ولو كان متعب الهذال ابوك لسألوك :نريد منك تعلمناوتقول ليش تخاصم ابوك مع ابن الراشد ، وين هو هالحين !

وصويلح طلبوا منه ان يغني لهم فلما رفض باصرار قال له ذو اللحية الحمراء انهم فقط يريدون ان يسجلوا كلمات هذه الاغاني ، لانها اعجبتهم كثيراً حين سمعوها في عرس الدباسي ، وحين ابدى تردداً وصل حدود الامتناع ما لبث ان تراجع نتيجة الالحاح الذي مارسه نعيم بشكل خاص ، قال له « ان الجماعة يحبون غناءنا ويريدون ان يسمعوا الكلمات فقط لكي يفهموا المعنى » .

الكلمات القليلة المتناثرة التي قيلت خلقت حالة من الاستغراب ، والمحاولات التي جرت من اجل اقناع الآخرين بالكلام ، ماذا سئلوا وماذا يريد الاميركان ، لم تتواصل ولم تنجح ، وقد احس الكثيرون انهم اخطأوا حين تكلموا . اذ لم يكن من الضروري ان يتدفقوا بهذه الطريقة وان يقولوا ما قالوه بعد التنبيهات المشددة التي صدرت عن نعيم .

واذا كانت عادة العمال ان يذهبوا الى حران العرب بين يوم وآخر لشراء بعض الحاجات او للجلوس في المقهى الذي افتتحه ابو اسعد الحلواني ، قريباً من الشاطىء ، والذي سماه « مقهى الاصدقاء » فان رغبة مغادرة المعسكر هذه الليلة كانت قوية الى درجة ان الكثيرين استجابوا بحماس وسرعة .

كانوا بحاجة لأن يمشوا ، فالمسافة بين المعسكر وحران العرب طويلة ، ويمكن لرحلة من هذا النوع أن تنسيهم . فإذا لم تكف فلا بد أن يكون سيرهم في السوق ، التقاؤهم بالناس أو الجلوس في المقهى كافياً ، أو ربما يخفف عنهم . لم يكونوا قادرين على البقاء في

المعسكر في مواجهة بعضهم بعضاً ، صامتين، ولم يكونوا قادرين على الكلام أيضاً . فالصمت أقسى عليهم من تلك المعارك التي تجري بينهم فترة وأخرى . أما اذا تكلموا فلا بدّ ان تكون آذان المراقبين وأعينهم ترصدهم ، تتابعهم ، وعند ذاك قد يستدعيهم الأميركان مرة أخرى ، وتبدأ كلمات نعيم الرخوة : « قلت لكم ألف مرة : النظام هو النظام . الواحد لو تكلم مع الحجر ، مع الحيطان لكان الحجر فهم والحيطان فهمت ، وأنتم سمعتم من هنا وخرجت الكلمات من هنا ، وإذا سكتنا عنكم في المرات الماضية فهذه المرة لا يمكن السكوت ! » وتبدأ الأسئلة من جديد ، وقد تجرّ الأسئلة الى أشياء أخرى هم في غنى عنها .

في حران العرب ، في السوق ، لاحظوا ان عدداً جديداً من الدكاكين قد قام ، حتى انه لم يبق الا فراغ واحد او اثنان بين الدكاكين التي قامت ، وقد وضع ابن الراشد كميات كبيرة من الحجارة والرمال في هذه الفراغات وبدأ يستعد للبناء . ولاحظوا ايضاً ان اعداداً كبيرة من العمال والغرباء قد وصلت وانتشرت في امكنة عديدة ، الى جانب الخيام ، قرب الجامع وفي الدكاكين . أما حين اخذوا يصلون الى مقهى الاصدقاء فقد ابتسم ابو اسعد الحلواني ابتسامات واسعة ، وكان ينظر في وجوههم وينظر الى الاماكن القليلة الفارغة في المقهى ، ولا يكف عن ترديد عبارة واحدة : « اهلاً بالشباب ، اهلاً وسهلاً ، اهلاً وسهلاً » وكان ينتقل بسرعة هنا وهناك لعله يوفر امكنة جديدة هؤلاء الذين جاءوا دون انتظار وباعداد كبيرة .

وفي حران العرب ايضاً التقوا بابن نفاع وعبده محمد ، وسمعوا ان بعض رجال حران الذين كانوا في امكنة اخرى قد عادوا .

ابن نفاع احس ان مجيء العمال باعداد كبيرة الى حران العرب يحمل معه ريحاً شريرة ، فهؤلاء الذين يقابلون الاميركان كل يوم ، ويعيشون قريباً منهم لا بد ان تكون العفاريت قد لبستهم ، واذا كانت عادته ان يحرص على سماع اي شيء جديد فقد خاف هذه الليلة ، وبعد ان مدّ يده مرتين او ثلاثاً ليصافح هؤلاء الذين جاءوا فوجاً وراء آخر ، ما لبث ان تشاغل بمسبحته ، وتجنّب ان تلتقي نظراته بنظراتهم فور دخولهم المقهى ، لكن من خلال الكلمات التي بدأت تتسرب اليه ، تصله ، على ان الاميركان استدعوا العمال الى معسكرهم ، وسألوهم عن اشياء كثيرة ، فقد تحرك بعصبية وانفتحت عيناه واذناه معاً . ومع دعائه الذي لم يتغير « اعوذ بالله ، اعوذ بالله

من الشيطان الرجيم » كانت تتخلل الدعاء كلمات متقطعة « اي . . اي ، يا وليدي ، ويش قالوا ؟ ما عساهم يريدون ؟ وانتم . . قلتم شي ، سولفتم معهم ؟ اولاد الحرام كل واحد منهم ابليس » وبين الاسئلة والاجابات يرتفع صوته وينخفض ، يزداد استغرابه ليصبح أقرب الى اللوعة . والعمال الذين كان بعضهم يتحدث الى بعض ، كانوا يحبون ان يرفعوا اصواتهم قليلاً ، أن يسمع ابن نفاع بعض الذي حصل . أما حين قال ابراهيم الناصر أنهم سألوه اذا كان يستحلم أم لا فقد وقف ابن نفاع وأخذ يصرخ ويهذي :

« اقطعوا زبابكم يا أهل حران وارموها للكلاب ؛ الأميركان دخلوا بين الرجّال وحرمته ، الاميركان ركبوا ظهورنا وبكرة يسحرونّا ويبدلون الرجال والنساء . . يسوّون الجميع قرود ؛ أبوهم وأبو اليوم اللي جاءوا فيه . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وبهياج وصل حدود الاحتقار وقف ، نظر في الوجوه نظرة واسعة حاقدة ، ثم بصق اكثر من مرة بصوت عالٍ وخرج .

قال ابو اسعد الحلواني ليخلق جواً من الطمأنينة :

ـ الحاج راح للجامع ليصلي العشاء !

عبده محمد كان يجلس في زاوية بعيدة ، وقد ادار ظهره للمقهى كله لكي يمنع اي واحد من الجلوس معه ، او الدخول في حوار او اسئلة ، خاصة عن الصور الجديدة ، والعمال اذا كانوا قد تعودوا عليه وبدأوا يحافظون على هذه المسافة التي فرضها وارادها ، خاصة بعد ان عرفوا انه عاشق ، فقد كانوا مشغولين الليلة بهذا الهم الجديد الذي دخل حياتهم فجأة فخضها وخلق فيها اضطراباً لا يعرفون كيف يواجهونه ، لذلك لم يقتربوا من عبده محمد . تعمد بعضهم ان يلقي عليه التحية بصوت عالٍ ومن بعيد ، لكي يقولوا له انهم رأوه ، وانهم لا يريدون ازعاجه . وكطريقة لرد هذا الجميل وللاستمرار في المحافظة على المودة فقد التفت عبده في كل المرات التي سمع تحية موجهة اليه ، ولم يتردد من الوقوف للتعبير عن المزيد من المحبة والاحترام اثناء الرد .

رأى بعض العمال ، في لحظات معينة ، ان عبده كان يلتفت التفاتة الخائف او

المتردد ، لكي يرقب الجو ويتأكد ، حتى اذا اطمأن الى الآخرين يغرقون في همومهم ومناقشاتهم ، وكان صوت ابن نفاع يصل اليه رتيباً منتظماً ، رأى البعض عبده اكثر من مرة يخرج من جيبه صورة ، ينظر اليها فترة غير قصيرة ، كان يفعل ذلك ويهز رأسه هزات بطيئة وكان يكلم نفسه همساً وهو يبتسم . وبعد ذلك يعيد الصورة الى جيبه ويلتفت الى هذه الجهة ، الى تلك كي يتأكد ان احداً لم يره . لقد فعل ذلك عدة مرات ، ولو ان العمال كانوا في ظرف آخر لربما علّقوا او سألوا او ربما لفتوا نظر بعضهم البعض الى ما يفعله عبده محمد ، لكن الذين رأوا هزوا رؤوسهم وصمتوا . أما حين بلغ ابن نفاع ذلك الحد من الهياج فقد أدار عبده محمد كرسيه تماماً . فأصبح في مواجهة الآخرين . ومن زاويته بدأ يتابع ويسمع ، حتى اذا ذكر ابن نفاع تلك الكلمات التي أثارت ضحكات العمال وصخبهم وضع يده على عضوه التناسلي وكأنه يتأكد انه لا يزال في مكانه ، وبعد ان خرج ابن نفاع بقليل ، وعاد الهدوء الى مقهى الاصدقاء قام ، مشى بين الطاولات الصغيرة الحديدية ، يريد الخروج والكلمات القليلة التي وجهت اليه ردعليها بسرعة ، أما حين طلب منه بعض العمال ان يجلس معهم لأنهم مشتاقون اليه وقد قطعوا مسافة كبيرة من معسكرهم لكي يروه فقد ردد نفس العبارات :

ـ الفجر لا يتأخر ولا ينتظر ، وبكره كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده !

وصلت اصداء الشتائم والمخاوف الى « ادارة الافراد » بسرعة ، ومن « ادارة الافراد » الى المقر ، وكان رد الفعل : الصمت وتوقف المقابلات .

لم يصدر عن الادارة اي فعل يشي بالغضب ، او حتى عدم الرضا ، بل واصبحت معاملة الاميركيين ، خاصة اولئك الذين يتكلمون العربية ، اكثر رقة واكثر مكراً ، اذ بدأ هؤلاء يزورون حران العرب ، لكن لم يعودوا يلبون الدعوات التي توجه اليهم الا في حالات نادرة ، وحتى في هذه الحالات التي استجابوا فيها وزاروا بعض البيوت ، او بعض الاشخاص ، اقتصرت الاحاديث على الطقس وعلى معنى بعض الكلمات والاسماء .

في احدى المرات ، لما قاموا بزيارة عبد الله السعد ، صدف ان كان ابن نفاع موجوداً ، وبعد ان نظر في وجوههم طويلاً وهو يهز رأسه ، سألهم ما اذا كانوا يريدون التفريق بين الرجل وزوجته ، بين الأخ واخيه ، ثم سألهم عن المكان الذي يضعون فيه الجن ، وهل يريدون ان يجلبوا عدداً من العفاريت يوازي عدد أهل حران وعدد القبائل التي حولها . . حين سألهم بهذا الشكل المفاجىء والقاسي ، نظر بعضهم في وجوه بعض .وضحكوا كثيراً ، وبدأوا يرددون بعض الآيات القرآنية ، وقال واحد منهم « ان

اتهام أهل الكتاب بالكفر معصية عند الله » وابن نفاع الذي فتح فمه دهشة وهو يسمع الآيات القرانية لم يصدق أول الأمر ، وحين رددوا آيات أخرى قام بانفعال من المجلس وهو يصرخ :

ـ ابليس له الف وجه والف لسان .

ورغم ان عبدالله السعد بدا محرجاً ومتضايقاً من حديث ابن نفاع، فقد ظل يكظم غيظه ، لكنه لم يستطع حين قال ابن نفاع هذه الكلمات ، فبدا غاضباً شديد الانفعال ، فلما حاول اخوه راشد استرضاء ابن نفاع واعادته الى المجلس ، وابن نفاع يصرخ ، يريد ان يفلت ، ويردد بعض الشتائم ، فقد قال ، مخاطباً اخاه ويريد ان يسمع الآخرون :

ـ خل الباب مفتوح يا راشد وهو يسع البعير ، مرحبا بالضيف واللي ما يبغانا ارض الله واسعة !

رجع ابن نفاع حين سمع هذه الكلمات . وقف في بوابة المضافة ، حيث يجلس ابن السعد وضيوفه ، كان منفعلاً قاسياً :

ـ اي والله الارض واسعة ، والله يرحم ذاك النايم بالوطا ، ابوك ، كان يقول اللهم ابن سداً من نار بيني وبين اولاد الحرام .

توقف قليلاً ، تطلع في وجوه الاميركيين ، الذين اصيبوا بالذعر ، ابتسم بسخرية ثم تابع :

ـ يا وليدي الديار الغريبة تخرب ، والناس الغرباء يخربون . . والفلوس تخرب

مطّ عبد الله السعد شفته السفلى ساخراً ولم يجب . خيم الصمت . وابن نفاع في الباب ينتظر اية كلمة لكي يرد ، لكي يشتم ، فلما وجد انه غير قادر على الاستفزاز اكثر من ذلك ، استدار قليلاً حتى اصبح يواجه القوم بنصف وجهه وقال :

ـ بكرة تعضون اصابعكم . . لكن ما تنفع الندامة .

وزار الاميركيون معسكر العمال ، جاءوا اول الامر بحجة الكشف على موتور الماء ، ثم جاءوا من أجل تحديد مواقع البركسات الجديدة ، وفي المرتين قضوا فترات اطول مما يتطلب الكشف على الموتور او تحديد مواقع البركسات . وفي المرتين تبادلوا الاشارات وبعض الكلمات مع العمال .

في المرة الثالثة لما جاءوا كان عددهم اربعة ، وكان ضمن الاربعة واحد يتكلم العربية ، ورافقهم نعيم ايضاً . جاءوا يوم الجمعة ، يوم عطلة العمال ، قبل الظهر . قالوا انهم يريدون بناء مسجد ونادٍ للعمال ، وانهم يفكرون باختيار لجنة للاشراف ، وقد سألوا العمال ما اذا كانوا يفضلون انتخاب هذه اللجنة ام يترك تحديدها « لادارة الافراد » . وسألوا اذا كان لدى العمال اقتراحات اخرى . والعمال الذين كانوا شديدي الحذر ولم يتكلموا الا اقل الكلمات ، وعندما سئلوا مباشرة ، قالوا لنعيم انهم يفضلون انتخاب اللجنة من قبلهم .

كان الاميركيون رغم الود الذي عبرت عنه تصرفاتهم والكلمات التي قالوها ، يتطلعون الى وجوه العمال ، يدققون بتصرفاتهم وردود افعالهم تجاه اي اقتراح او اية فكرة يتقدمون بها . كانوا يرغبون لو ان الحديث معهم يمتد ويطول ، اولو يعبرون عما يريدون بصراحة ودون خوف ، لكن إزاء الوجوه المغلقة ، والكلمات القصيرة لم يكن من الممكن أو من السهل مواصلة الحديث .

في احدى اللحظات قال الاميركي الذي يتكلم العربية ، والذي كان في لجنة مقابلة العمال ، انه يريد ان يوضح للجميع ان الشركة جاءت لخدمة العمال ومن اجلهم ، وانها ستكون اقدر على خدمتهم فيما لو توافرت المعلومات التي تساعدها : ماذا يرغبون من الأكل ؟ اي عمل يرتاحون فيه ؟ أما عندما تسأل الشركة العمال هل يصلّون ام لا فلكي تقدّر اذا كان بناء مسجد ضرورياً ام يكفي مسجد حران ، مثلاً .

تحدث الاميركي عن هذه الامور بطريقة منفعلة ومضحكة في آن واحد ، اذ بالاضافة الى لهجته التي لم تكن مفهومة بالمقدار الكافي ، فقد استعان بنعيم مرتين من اجل كلمات معينة ! ولما انتهى كان شديد السعادة لانه رأى العمال يبتسمون ويلفت بعضهم نظر بعض . كان يدرك ان طريقته في الكلام هي السبب ، ومع ذلك فقد كان يهدف الى خلق جو من الالفة واعادة الثقة .

بعد اكثر من ساعة في احاديث واسئلة متنوعة ، ابتسم العمال وتغامزوا خلالها عدة مرات ، قال الاميركيون انهم يغادرون الآن بعد ان وقفوا على رأي العمال ومطالبهم ، وأنهم سينقلون الى المقر كل ما سمعوا ، وخلال فترة قصيرة سوف تتخذ الاجراءات من أجل البدء بانشاء المسجد والنادي .

لم يقتصر تحرك الاميركيين على هذه الزيارات فقط ، اذ ارسلوا بعض الهدايا الى حران العرب والى المعسكر . كما ابلغوا العمال عن طريق « ادارة الافراد » ان المقابلات قد توقفت واستعيض عنها باستمارة خضراء دوّنت فيها اسئلة متعلقة باسم العامل وعمره والمنطقة التي جاء منها ، أما الخانة الخاصة بالوضعية العائلية ، اي هل هو متزوج ام لا وعدد الاولاد فقد اوضح نعيم قبل ان توزع الاستمارة ان الغاية من هذا السؤال هي اعطاء علاوة للمتزوجين وللذين عندهم اطفال ، وهذه العلاوة تتناسب مع عدد الاطفال . أما حين سأله عبد الله الزامل ما اذا كانت العلاوة تقتصر على عدد الاطفال فقط ام على عدد الزوجات ايضاً فقد بدا السؤال مفاجئاً تماماً لنعيم ، قال بنوع من الحيرة :

ـ الادارة لم تفكر بهذه القضية وسوف نسأل القسم القانوني !

بعد اربعة شهور من العمل المتواصل تم تعميق البحر وتوسيع الميناء مقابل معسكر الاميركان ، وفتحت عدة شوارع ، احدها يربط الميناء بالمعسكر مباشرة ؛ وآخر الى جانبه ثم يتجه غرباً ، قريباً من شاطىء البحر ، حتى يصل الى حران العرب ؛ أما الشارع الثالث فكان يبعد قليلاً عن الميناء ويصل بين الشارع الثاني ومعسكر العمال .

وبتوسيع الميناء وبناء هذه الشوارع تغيرت حران مرة اخرى : بدأت تصل ، بين يوم وآخر ، بواخر صغيرة وكبيرة ، وهذه البواخر تحمل الناس والبضائع والمخاوف واشياء غريبة في صناديق كبيرة الحْجم ، ومع وصول كل باخرة جديدة تهتز حران ، تمتلىء بالمخاوف ، ترقب كل شيء وكل حركة من خلال عيون اطفالها ورجالها المسنين . واذا كان الاطفال قد تعودوا عدّ البشر الذين ينزلون من البواخر ، فان المسنين كانوا يراقبون ويتأملون ويتساءلون ثم تزحمهم المخاوف والهواجس فينكفئون عائدين الى السوق او الى مقهى ابو اسعد الحلواني ، فيتبادلون الاحاديث والاخبار في جو من المرارة والخوف ، حتى اذا حان وقت صلاة المغرب انتهت اقامتهم في المقهى فذهبوا الى مسجد حران الذي لم يتغير ، وهناك قبل الصلاة ، او بعدها يغرقون لحظات طويلة في الصمت والتأمل ، فاذا استفاقوا مرة اخرى هبوا باجسام قوية لكن

بارواح مثقلة بالهمّ كي يبدأوا رحلتهم باتجاه حران الجديدة على التلال الغربية .

البشر الذين يصلون الى حران لا نهاية لتنوعهم واشكالهم ، ولتصرفاتهم ايضاً . كان قسم منهم يذهب الى معسكر الاميركان مباشرة . وهؤلاء تنقطع اخبارهم ، فلا يعود الناس الى رؤيتهم الا في وقت متأخر . وكان قسم آخر يتولى الاميركان تأمين الخيام لهم قريباً من الشاطىء ، ولقد حصل عدة مرات ان اقيمت الخيام وهيئت قبل وصول هؤلاء ، فما تكاد البواخر تصل حتى يذهب الذين يأتون عليها الى هذه الخيام ، وخلال فترة تبنى لهم بركسات جديدة او ينتقل قسم منهم الى معسكر الاميركان ذاته . وكان آخرون يأتون ولا يدرون الى اين يذهبون ، فلا المعسكر يستقبلهم ولا الخيام جُهّزت لهم ، كما لا يكون احد بانتظارهم . وهؤلاء الذين يقضون وقتاً غير قصير ، الى ان ترسو سفنهم ، يتباطأون في النزول ، وتبدو عليهم الحيرة ويملؤهم التردد ، إذ ما يكادون ينزلون الى الشاطىء ويكومون أمتعتهم وأشياءهم حتى يجيلوا النظر فيما حولهم ويفترضوا أنهم أخطأوا بشكل ما في اختيار المكان ، فيغيرون مكانهم مرة بعد أخرى ، حاملين معهم الأمتعة والأشياء ، وتسيطر على تصرفاتهم وحركاتهم الفوضى والضوضاء .

وخلال فترة قصيرة ينتشرون في كل مكان : في السوق ، في مقهى ابو اسعد ، وفي المسجد وقرب المعسكر .

اغلب الذين يأتون في بواخر من هذا النوع فقراء خائفون ، ولا يترددون في قبول اي عمل يعرض عليهم ، اذ ما يكاد دحام او الدباسي ، او اي شخص آخر من حران ، يطلب منهم ان يأتوا ليعملوا في المعسكر او في قطع الحجارة او في بناء البيوت حتى يوافقوا ، وبهمة كبيرة لا تعرف التردد ، ومن اجل ان يكسبوا الثقة والبقاء كانوا يوافقون على اي شيء سواء من حيث الاجر او نوع العمل .

وحران ذاتها تفور ، تتغير وتكبر كل يوم .

بيت الامارة ارتفع ، واصبح كبيراً عالياً على التل الشمالي ، والى الشرق منه ، على مسافة مائتين او ثلاثمائة متر ارتفع بيت آخر هو بيت الأمير ، ويمكن لاي انسان على الشاطىء ، او في اي مكان آخر من حران ان يشاهد البناءين وهما يرتفعان ويتكاملان يوماً بعد يوم .

عبد الله السعد لم ينتظر ولم يتردد ، كما فعل ابن الراشد ، ليقرر بناء بيت على التل الغربي . جنّد عدداً من اهل حران ليساعدوا في بناء البيت ، وأهل حران اندفعوا بقوة وهمة كبيرة للمساعدة ، وكأنهم مدفوعون بقوة خفية لتحدي بيت الامارة وبيت الامير من ناحية ، ولكي يثبتوا للاميركان انهم قادرون على عمل شيء لا يقل عن اعمالهم وبيوتهم من ناحية اخرى . ولهذه الغاية استدعي من عجرة ابو عبده التلي للقيام بهذه المهمة ، فجاء ومعه عدد من مساعديه ، وبعد ان قضى عدة ايام في حران يتجول ويختبر الارض والحجارة ، وقد اقترب كثيراً من معسكر الاميركان لكي « يناظر » البيوت التي يسكنون فيها ، بعد ان منع من دخول المعسكر ، ولم تجدِ المحاولات التي بذلت في هذا المجال . . . بعد هذه الاختبارات و« المناظرة » ، والتي رافقها همس كثير وتردد واضح ، اندفع ابو عبده التلي ومساعدوه الى العمل بثقة عالية ، وقبل دخول فصل الشتاء من تلك السنة كانت المداميك الأخيرة ، فوق عقود الشبابيك ، قد انتصبت بلون حجارتها الرمادية ، واستمر العمل متواصلاً بعد ذلك .

حتى ابن الراشد الذي سافر لم يغب طويلاً ، اذ عاد قبل عودة الامير باسبوع . وقد جاء معه ، مثل كل مرة ، عدد من الاشخاص . ورغم ان احداً لم يعرف ماذا سيفعل ، الا ان دحام لم يخف عزم ابن الراشد على اقامة بناء حديث وسط السوق . قال ان البناء سيكون اعظم الابنية في حران كلها ، وربما في الاماكن الاخرى ايضاً . اذ سيكون من ثلاثة طوابق ، الاول سيكون سوقاً تجارياً كبيراً ، فيه مجموعة من الدكاكين الواسعة ، وستكون اوسع هذه الدكاكين مركزاً لابن الراشد . أما الطابقان الثاني والثالث فسوف يسكن فيهما ابن الراشد نفسه ، لان كل زوجة من زوجتيه تحتل طابقاً خاصاً بها . وابن الراشد الذي لم يتكلم في الامر مباشرة ، اجاب عندما سئل ذات يوم ، وكان يجلس في مقهى ابو اسعد الحلواني ، اجاب وهو يبتسم ويتجنب النظر في عيون الذين حوله :

ـ الملك لله يا جماعة الخير . . .

ولما نظروا اليه وابتسموا قال ضاحكاً :

ـ البشر في حران صاروا مثل التراب ، والسكن في الفلاة ما عاد يجوز ، خاصة اذا كان الواحد معه حريمه . . .

لم يكتف بذلك ، قطب وجهه وقال كأنه يكلم نفسه :
ـ ومثل ما تلاحظون . . السوق ما عاد يكفي وحران يلزمها اكثر من سوق .

وفهم الناس ان ابن الراشد سيأتي باهله بعد ان يشيد البناء ، وانه سيفعل ذلك في وقت قريب .

وخلال الأيام الاولى لوصوله رآه الكثيرون يتجول في السوق ، قريباً من المسجد ، وكان بصحبة بعض الذين جاءوا برفقته ، وقد بدا عليه الانفعال والانشغال معاً . أما في يوم آخر فقد رآه بعض الناس ، في الصباح الباكر ، يضع طرف ثوبه في وسطه ، تحت الحزام العريض الذي يلبسه ، ويمسك حبلاً او ما يشبه الحبل ، مقابل رجل كان يقيس الارض ويسجل على ورقة يحملها اشياء لم يعرف الناس ما هي ، لكن تأكد الجميع ان ابن الراشد لن ينتظر طويلاً حتى يبدأ البناء .

وفي هذه الفترة ايضاً قيل ان صالح الدباسي سوف يتزوج اخت محمد السيف ، فالعلاقة القوية التي قامت بين الرجلين ، والساعات الطويلة التي يقضيانها معاً ، ثم بعض ما تسرب من النساء ، خاصة زوجة الدباسي ذاتها ، من ان القرابة التي تجمع العائلتين ، الدباسي والسيف ، لا بد ان تؤدي الى زواج جديد لكي يدعم هذه القرابة ويجددها ، لكن كل شيء ترك وأُجّل الى حين عودة الدباسي الاب من السفر .

أما هاجم الذي سافر في ذلك الغروب ، او سُفّر على وجه اكثر دقة ، دون ان يحس به احد ، فقد عاد ايضاً بصحبة رجل مسن ، وقبل عودة الامير بيومين .

كان لوصول هاجم وقع يشبه الصاعقة ، خاصة على ابن الراشد ، فبعد ان اعتبرت هذه المشكلة قد انتهت ، ويمكن ان تُنسى بمرور الايام ، فان وصول هاجم في ذلك الغروب جعل تلك الليلة من ليالي حران صعبة قاسية .

كان هاجم يبدو شديد النحول ، كأنه لم يذق نوماً او اكلاً من ايام ، وكان ذاهلاً ذهولاً كاملاً ، حتى لا يكاد يسمع الاصوات حوله ، ولا يرى الوجوه والعيون التي تنظر اليه . وفي المرات التي كان الرجل المسن يريد ان يخاطبه ، ان يقول له شيئاً ، كان يهزه ، يمسكه من يده عند الساعد ويهزه هزاً قوياً ، فينتفض كأنه يستعيد نفسه من مكان قصي او يستيقظ من نوم عميق ، فيتطلع الى الرجل بعيون شديدة الحزن ،

وكأنها عيون حيوان جريح ، فترّف اجفانه عدة مرات مع حركة عصبية من الرأس . حتى اذا تأكد الرجل من انتباهه سأله بصوت عالٍ : هاجم . . تسمعني يا هاجم ؟» فاذا هز رأسه بالايجاب تابع « قل لي ، يا وليدي ، تأكل ؟ تشرب ؟ ما جعت ؟ وعطش ما عطشت ؟» فيحرك هاجم يديه ورأسه دلالة انه لا يعرف .

ما كاد ابن الراشد يسمع بوصول هاجم ، ومعه ذلك الرجل الغاضب ، حتى امتلأ بالخوف والحيرة ، وخلال اللحظات الاولى اختفى عن الوجود تماماً . لا يدري احد اين اختفى او كيف ، اذ ما كاد خبر القافلة يصل ، وانها قرب المسجد ، وكان ابن الراشد في مقهى أبو اسعد ، حتى جاء من حمل له خبر وصول هاجم ، وان معه رجلاً غاضباً يشتم ويهدد ويسأل عن ابن الراشد . الذين رأوا ابن الراشد يدخل المقهى ، الذين رأوه في المقهى عند الغروب ، لم يعرفوا متى خرج او كيف . أما محاولات البحث عنه في الخيام ، ثم في السوق او معسكر العمال فقد انتهت الى الفشل تماماً .

ومع كل دقيقة تمر ، وبعد البحث في كل الامكنة التي يحتمل وجوده فيها ولا يعثر عليه ، يزداد الرجل المسن الذي يرافق هاجم غضباً وتندفع كلمات الشتيمة والتهديد :

ـ وين يروح ابن الراشد ؟ والله . . والله لو كان بآخر تلفات الدنيا لازم اصله ، لو كان في السماء اجرّه وانزله ، وحتى لو رجع لـ . . امه اطلعه .
يتوقف الرجل لحظة ، يزفر ، يتطلع في الوجوه ويتابع :
ـ يظن اولاد الناس مقطوعين من شجر ؟ ما لهم احد ؟ لا يا ابن الراشد ، الآدمي ما هو كلب ، الآدمي آدمي ، واذا بعثت هاجم مع بدوي وقلت خلصت ما تخلص .
هاجم واخو هاجم ، مزبان ، وين صار مزبان ؟ دفنته وقلت خلصنا ؟
لا ما تخلص يا ابن الراشد . . . انا ورياك والزمن طويل .

وينظر الرجال الى هاجم ، انهم لا يعرفونه لفرط ما تغير ، حتى الذين مدوا ايديهم لكي يصافحوه ، ورأوه يتطلع اليهم ولا يراهم . امسكوا باليد دون ان يشدوها . هزوها ، سألوا : « عساك طيب ، عساك بخير يا هاجم ؟» ولم تتغير نظراته ، لم يقل كلمة ، حتى شفتاه لم تتحركا . شعر الرجال بالحزن يسحق انفاسهم ، وشعروا انهم غير قادرين على ان يواصلوا النظر الى وجهه ، خاصة

العينين . وزاد حزنهم انهم تذكروا كيف كان الحوت الصغير ، أما عبد الله الزامل الذي جاء راكضاً حين سمع بوصول هاجم ، فقد دفن رأسه في صدره ، وظل كذلك فترة غير قصيرة ، وحين رفع رأسه لم يتطلع الى الذين حوله ، ويقول الكثيرون انهم رأوا عينيه حمراوين ، ويؤكد آخرون انهم سمعوا صوت بكائه وهو يدفن رأسه في صدر هاجم .

وحران التي شعرت بالحزن الى درجة التعاسة لم تستطع ان تخفف من غضب الرجل ، أما الدعوات التي وجهها اليه أهل حران ، ان يذهب معهم ، ان يستريح ويتعشى ، حتى اذا جاء اليوم التالي لا بد ان يجدوا ابن الراشد ، وان يجدوا حلاً لهذه المشكلة ، فان الرجل رفض الدعوات بحزم اقرب الى الخشونة ، وبعد ان انتظر وتعب ، وبعد ان ذهب الى اكثر من مكان بحثاً عن ابن الراشد وعاد الى مقهى ابو اسعد ، قال لهاجم وهو يمسك به من ذراعه لينهضه :

ـ قم يا وليدي ، وابن الراشد يشوف . . .

ولما نهضا يريدان الخروج ابتسم هاجم ، لاول مرة ، من ساعات ، يبتسم . تطلع اليه الرجل المسن ، ثم تطلع الى كل من في المقهى ، وقال قبل ان يخرج :

ـ انا وراه . . والزمان طويل .

ابن الراشد الذي عوّد الناس في حران على أن يظهر ويغيب بشكل مفاجىء ، لم يكن احد يتصور انه قادر على الاختفاء بهذه السرعة ولا يُعرف اين . اذ بعد ان جرى البحث عنه في كل الأماكن التي يحتمل وجوده فيها ، ولم يعثر عليه ، قال بعض الناس انه سافر ، وقدّر آخرون ان سفره قد تم قبل وصول القافلة ، لأن بعض الذين جاءوا معه الى حران لم يبقوا فيها أكثر من ثلاثة او اربعة ايام ثم سافروا ، ولا بد أن يكون قد سافر معهم . وذكر غيرهم انه في حران ، لم يغادرها ، لكن لا أحد يدري اين .

اثنان من الذين صلوا في مسجد حران صلاة العشاء ، وكانا قد شاهدا وسمعا ما قاله الرجل الذي كان مع هاجم ، قال هذان الرجلان وهما يجتازان السوق في طريقهما الى حران الجديدة ، انهما شاهدا دحام ونعيم ، وهما يتجهان الى مضارب الأمير ، ولم يكن الرجلان متأكدين . ما اذا كان مع دحام ونعيم ثالث ام لا ، فالظلمة كانت كثيفة ، ودحام وحده رد السلام ، أما الآخر ونعيم فقد عجلا في السير لكي لا يلتقيا بأحد .

وحران التي نامت متسائلة حزينة تلك الليلة ، بعد أن تركت هاجم والرجل

الذي معه لكي يناما في المسجد ، لم تعرف ما حصل بعد ذلك . حتى الرجال الذين تعودوا السهر في مقهى أبو اسعد الحلواني لم يروا ولم يسمعوا ، لأنهم غرقوا في لعب الورق أو في تعلّم الألعاب الجديدة التي جاء به أبو أسعد الحلواني من الشام الى المقهى لكي يشجّع الناس على المجيء وقضاء اوقات طويلة في مقهاه دون ملل .

بعد العشاء بساعة أو أقل وصل ثلاثة رجال ارسلهم نائب الأمير الى المسجد ، والظاهر انهم جاءوا مباشرة الى هذا المكان لأنهم عرفوا او قدروا ان الذين يطلبون ابن الراشد موجودون فيه . ودون خطأ او سؤال احد اقتادوا هاجم والرجل الذي معه ، فقد كان أحد رجال الأمير يعرف هاجم . اقتادوا الرجلين بهدوء ، بل وبدا على الرجل الذي مع هاجم ما يشبه الفرح ، إذ اضاءت عيناه واستراح وجهه حين سأله الرجال اذا كان يبحث عن ابن الراشد . وما كاد يهز رأسه بالايجاب ويبين على وجهه التحفز ، حتى طلبوا منه ان يرافقهم ، وهاجم ، وخلال فترة قصيرة كان الجميع أمام نائب الأمير .سأل نائب الأمير الرجلين بحزم اقرب الى القسوة :

- من أنتم وما هو اللي جاء بكم الى حران ؟

أجاب الرجل بهدوء ، لكن بحزم ايضاً ، انه جاء الى حران ليصل الى حقه ، ليعرف كيف قتل ابن اخته ومن قتله ، وليعرف ايضاً كيف انهبل الثاني . وأشار الى هاجم الذي كان يقف الى جانبه .

- وعلام تسبسب على ابن الراشد ؟
- ابن الراشد غريمي !
- وتعرف ابن الراشد ؟
- شوف ما شفته ، لكن سمعت عنه .
- ومن قال لك انه فعل وترك ؟
- كل الناس تدري .
- تدري ؟ والحكومة .. وين هي الحكومة ؟
- أريد من الحكومة أن تاخذ لي حقي .
- وعلام ما تروح للحكومة وتطالب وتقول ؟

توقف نائب الأمير قليلاً ، تطلع اليه بقسوة وهز رأسه ثم تابع :

- إذا كنت تظن انك تأخذ حقك بذراعك ، او اذا سببت الناس تخاف منك ،

فذاك يوم راح . الحين الحكومة فوق الجميع . الحكومة لا تخاف من أحد ، وهي اللي ترجع الحق لأصحابه ، لكن انتم البدو ما تتعلمون الا بالدبوس .

ودون ان ينتظر جواباً قال للرجال الذين يقفون في مقدمة الخيمة :

- خذوهم .

كان الرجل وهو يصعد التل ، ممسكاً بهاجم ، يتصور ان حقه سيصله فوراً ، وان الأمير لا بد أن يكون قد أمسك بابن الراشد ، وربما ربطه ، الى حين وصوله ، وحالما يسمع القصة كيف وقعت ، ثم كيف أرسل اليه هاجم مع بدوي .. وقريشات ، ويخرج الدراهم من جيبه ويضعها أمام الأمير ويقول له « هذه هي القريشات » حتى يأخذ الغضب الامير ، فيشتم ابن الراشد ويؤدبه ، ثم يحدد كيف يجب ان تحل المشكلة .

الآن والرجال يقودونه الى خارج الخيمة ، لا يعرف الى أين ، وبعد أن سمع ما قاله الأمير ، لا يصدق اذنيه ، ولا يتصور ان شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع . هل هناك خطأ لا يفهمه ؟ ألم يدرك الامير ما حصل او لم يسمع به ؟ والقصة من حيث الأساس ، التي وقعت هنا ، في حران ، والتي سمعها الكثيرون ، حتى في اماكن بعيدة ، في عجرة والروضة وأم السعف ووادي العيون ، ولم يكف الناس عن السؤال .. هذه القصة التي عرفها الناس في الأماكن البعيدة ، الا يعرفها الامير ؟ وهاجم .. الا يكفي دليلاً على مدى شناعة ما فعله ابن الراشد ؟

وابن الراشد ... كيف استطاع ان يصل الى الامير بهذه السرعة ؟ واين هو الان ؟ لماذا لا يظهر ويتكلم أمام الامير اذا كان يعتبر نفسه غير مسؤول أو غير مذنب ؟

لم يعرف رجال الأمير الى أين يجب ان يأخذوا الرجلين ، فحران لا تعرف السجون ، ولا يوجد فيها سجن ، والأمر كله لا يستوجب هذه القسوة في المعاملة ، خاصة وانهم يعرفون كيف مات مزبان ، وهم الآن يرون هاجم : بقايا انسان ، زائغ النظرات ، في حالة من الذهول عن كل ما حوله . وحتى لو كان في حران سجن هل يمكن ان يحبس رجل مثل هذا ؟

كان رجال الامارة ينظرون الى وجوه بعض ، والى وجهي الرجلين ، في نصف

العتمة داخل الخيمة الصغيرة التي علق في وسطها فانوس ينشر ضوءاً ضعيفاً . كانوا شديدي الحيرة والحزن ، فاذا نظروا الى وجه هاجم تصبح حيرتهم خوفاً : « المهبول يعمل كل شيء ، يمكن ان يحرق أو يقتل . ويمكن ان يبول على الآخرين وهم نيام » هكذا فكر بعض الرجال ، وهكذا كانوا ينظرون الى المسلوبين ويتعاملون معهم بدوافع الخوف والشفقة معاً . الان . . ماذا يفعلون بهذا المهبول ؟

وسط الحيرة والمرارة صرخ نائب الأمير ، ركض رجل ليلبي نداءه ، وما كاد يرجع بعد دقيقة أو اثنتين حتى قال بحقد أقرب الى الشتيمة :

ـ الناس مات بقلوبها الله . الواحد منهم صار مثل الصلّ .

ولما استفسر منه الآخرون ، قال وهو يعطي ظهره هاجم والذي معه ، لعلهما لا يسمعانه ، ان نائب الأمير طلب اليه ان يُربط الرجلان الى الجمال المعقولة . أبدى رجال الامارة استغرابهم واستنكارهم ، أما الرجل الذي كان مع هاجم ، والذي افترص في لحظة وهم أخيرة ، حين نادى الأمير مستدعياً احد رجاله ، ان شعور الامير بالخطأ لا بد ان يدفعه الان الى تصحيح هذا الخطأ ، وعمل شيء يجعل كلماته اقل قسوة ، وربما لها معنى آخر . أما حين سمع ما قاله لأحد رجاله فقد ضحك بسخرية وودّ في تلك اللحظة لو يبكي او يصرخ . كان يجب أن يفعل شيئاً لئلا يسقط ميتاً ، وحين نظر الى هاجم ورآه ينظر اليه بتينك العينين الضاحكتين المسكينتين ويبتسم ، أمسك بذراعه وشد عليه ، وقال بصوت يسمعه الجميع ، وربما كان يريد أن يسمعه الأمير أيضاً :

ـ الواحد . . . إذا ما اخذ حقه بذراعه ، يموت ولا يحصل على شيء . . .

ناموا جميعاً تلك الليلة قريباً من مربط الجمال . كان يفصل بينهم وبين الجمال سور منخفض ، بارتفاع نصف القامة ، مبني من حجارة صغيرة غير منتظمة . أما الحبال التي كان يفترض ان تستعمل فقد النيت باهمال وغضب ، دون ان يكلف أحد من رجال الامارة نفسه بأن يقوم بهذه المهمة المستحيلة ، إذ بعد أن نظر بعضهم الى بعض ، وبعد ان نظروا في وجهي الرجلين ، وحين قرروا أن يناموا قالوا للرجلين : « ننام هنا » واشاروا الى تلك الفسحة التي توضع في جانب منها اكياس التبن ، ولم يضيفوا كلمة واحدة .

بدت حران في تلك الليلة ثقيلة قاسية ، رغم ان البرودة التي ملأت الجو آخر الليل اضطرت الرجل المسن ان يسهو قليلاً ، لكنه لم ينم نوماً عميقاً متصلاً . أما حين نظر الى الرجال الخمسة ، بمن فيهم هاجم ، الذين كانوا ينامون حوله ، فقد بدا له على ضوء الفجر انه يعرف هؤلاء الرجال ، وانه رآهم من قبل . وحين استدار واحد منهم ، وأصبح يقابله تماماً ، ظن للحظة أنه يرى مزبان ذاته ! كان وجه مزبان هكذا حين رآه آخر مرة قبل ثلاث سنوات . أما الجمال التي كانت لا تتوقف عن المضغ ، وكان يرى رقابها ورؤوسها ، وهي تتحرك وتستدير بين فترة وأخرى ، فقد بدت أكثر حزناً من أية جمال اخرى ، كانت تدير ألسنتها وحلوقها

وكأنها تشتم وتنظر الى كل ما حولها بحقد . كان الرجل يمتلىء غضباً ، لا ، ليس الغضب فقط ، انه يمتزج بشيء اسود يشبه القطران ، وشديد الكثافة مثل الدم الذي مضى عليه الوقت لكنه لم يجف بعد . قال في نفسه وهو يجلس في فراشه مع أضواء الفجر الأول « هل وصلت النذالة الى درجة ان يصبح القتيل هو المخطىء ؟ وان يحبس الذي يطالب بحقه ؟ وهل يمكن ان يحتمل الانسان كل هذا ويسكت ؟ » تلفت حواليه . رأى عدداً من الخيام ورأى بناءين كبيرين شديدي القسوة ، قال في نفسه « ابن الراشد ما يفلت مني حتى لو كان طيراً ، ولو كان معه كل الناس » وهز رأسه اكثر من مرة وتطلع الى الرجال الذين ينامون حوله ، فبدا انه يعرفهم اكثر من قبل . أما هاجم الذي كان ينام على ظهره ، وجهه نحو السماء ويداه ممدودتان على اتساعهما ، وشفته السفلى مرتخية ، وكأنه يبتسم ، فقد ظهر كطفل . كان مثل الأطفال الآخرين لكن أكبر حجماً ، قال في نفسه « لو عرفتْ امهم لقتلت نفسها » .

اذا حصل خطأ في الليلةالفائتة، نتيجة الغضب او نتيجة كلمات قالها وفهمت على أنها تهديد مباشر لابن الراشد ، وانه جاء لينتقم ويقتل ، ولم يجيء من أجل ان يطالب بالحق ويعرف كيف وقعت الأمور ، اذا حصل خطأ في الليلة الفائتة فلا بد ان يتصرف الامير بشكل مختلف في هذا اليوم . هكذا قال الرجل المسن في نفسه ، لكن حين جاء الصباح وارتفعت الشمس ثم بدأت الحركة والضجة ، خاصة في البناءين ، وحين طلب اليهم دخول الخيمة الصغيرة والبقاء فيها ، فقد بدأت الشكوك تساوره مرة اخرى . كانت اكثر من شكوك ، اذ لو أراد الامير ان يعرف الحقيقة ، ان يسأل الآخرين لانتهى الى نتيجة في وقت مبكر ، أما أن يترك هكذا ، مسجوناً ، مربوطاً ، دون ان يعرف لماذا او الى متى ، فقد بدأ الغضب مثل بخار يرتفع شيئاً فشيئاً الى رأسه . وهاجم الذي طال نومه ، ولم يفق الا حين زحفت الشمس عبر السور ووصلت الى وجهه ، ظل في الخيمة صامتاً ؛ كان ينظر باستمرار الى الفانوس ، حتى حين وضع أمامه رغيف الخبز وكأس الشاي لم ينتبه ، أما لما أمسك به الرجل المسن وهزه فقد ظهر عليه الخوف أكثر من المرات السابقة ، ولم يأكل من الرغيف الذي قدم اليه الا قطعة صغيرة وشرب الشاي بارداً .

عند العصر ، والرجال يتحركون هنا وهناك ، وهاجم والرجل المسن يجلسان في

ظلال الخيمة الصغيرة ، مرّ ثلاثة رجال . كان احد الثلاثة يمشي مسرعاً وباضطراب ، والاثنان الآخران يمشيان خلفه ويحاولان ان يلحقا به . نظر الأول بطرف عينه نحو الرجلين الجالسين ، ثم اصلح عباءته السوداء ومشى بانحراف. أما اللذان كانا وراءه فقد تبادلا كلمات وهما يمران . نظر الرجل المسن الى الثلاثة الذين مروا فلم يعرف أياً منهم ولم يميّز شيئا ، أما حين التفت الى هاجم ، ورآه يبتسم ابتسامة واسعة ، ولم يبتسم هكذا منذ أيام ، فقد ارتجف قلبه وساورته الشكوك ، لكن حركة العمال وهم يغسلون ايديهم ووجوههم من مياه البراميل القريبة ، بعد أن انتهوا من العمل ، شغلته وجعلته يراقب ويتابع ما يجري حوله .

قبل الغروب ، حين طلب اليه ان يمثل أمام الامير ، احس انه مضطرب ، ولما دخل ورأى الرجال الثلاثة جالسين ، أدرك ان ابن الراشد هو الذي يجلس الى جانب الامير . لم ينظر اليه ابن الراشد اول الأمر ، أما الآخران فقد نظرا اليه بامعان ، لكن بخوف ايضاً ، والامير طلب منه الجلوس هو وهاجم ، خلافاً لليلة الفائتة ، وبدا اكثر استعداداً للاستماع .

بعد فترة صمت طويلة سأله الأمير :

ـ اتعرف غريمك ؟

تطلع في الوجوه وتنفس بعمق ، ثم قال بسخرية :

ـ غريمي يعرف نفسه .

ـ تقول ابن الراشد غريمك . . بحرّ زين ، تشوف ابن الراشد بين الرجال ؟

ـ اذا ما كذبني ربي هذا هو !

واشار الى الرجل الذي يجلس بجانب الامير .

انتفض ابن الراشد ، ابتسم ابتسامة هي بين السخرية والثقة بالنفس ، وقال بصوت عالٍ ومتلجلج :

ـ ابن الراشد اللي تقول عليه ، ابن الراشد اللي ما خليت شينة الا وقلتها فيه ، واللي ما شفته أبداً هو اللي يريد يحصّل لك حقك من حلق السبع ، لكن لا تعمل خيراً شراً ما تلقى .

تأكد في تلك اللحظة انه في مواجهة خصمه ، قال بتحدٍ :

ـ اسمع يا ابن الراشد ، اذا انت ابن الراشد ، الحق حق ومنة الله ولا منتك انت أو

منة غيرك . الرجال ما هي قريشات ، ودم الرجال ما يدفن بليل ، وانت ابن عرب وتعرف كيف يحصّل الرجال حقوقهم .

- تهددني ؟ بعثوك عليّ ، ابن هذال وغيره ؟

- اسمعني وافهمني : الحق حق . . هذا كل شيء .

- حقك ما هو عندي .

وبانفعال بدأ ابن الراشد يروي القصة ، مرة اخرى ، أمام نائب الأمير ، ونائب الأمير يهز رأسه دلالة الفهم ، وفجأة التفت ابن الراشد الى الرجل وقال بحدة :

- الجماعة شهود ، هم كتبوا المعروض ، هم ركضوا هنا وهنا يحصّلوا لك على التعويض ، والفلوس اللي وصلتك . . ابن الراشد بعثها . الفلوس من كيس ابن الراشد .

اخرج الرجل من صدره خرقة قديمة ملفوفة ورماها وسط المجلس وقال :

- الفريشات منك ، يا ابن الراشد ، أو من غيرك ، هذه هي ، واذا كان عندك شهود فهذا هو شاهدي .

وأشار الى هاجم الذي كان جالساً يتطلع الى ابن الراشد ويبتسم .

ربما لأول مرة يتطلع ابن الراشد الى هاجم ، واذا كان قد راه من قبل ، فقد بدا مذعوراً وهو يراه الآن . تحرك في جلسته اكثر من مرة ، وقال مخاطباً نائب الأمير :

- الأميركان قالوا : هذا الرّجال ما له عندنا دواء . شوفوا غيرنا . وتعرف ، يا طويل العمر ، ان دواء العربان احسن من دواء الأميركان ، اذا انكوى ، اذا انفصم ، يمكن العلة تطلع منه .

- ومزبان . . يا ابن الراشد ؟

هكذا سأل الرجل المسن .

- مات موت الله .

- اخذته للبحر وغرّقته وتقول مات موت الله ؟

- انطح فالك يا رجال ، الحياة والموت من الله .

- لو ما اخذته للبحر ما مات . . .

- أنا ما اخذت أحداً .

- أنا أخذته ؟

- الشركة . الأميركان هم اخذوه وهم مسؤولون، ويقولون التعويض يصلكم .

انفعل الرجل المسن ، قال وهو يرفع اصبعه مهدداً :

- اسمع يا ابن الراشد ، الرجال دمها ما يروح بالتراب ، وأنا لا اعرف غيرك ، أنت كنت تركّض من مكان لمكان تجمع الناس وتسوقها ، واليوم تقول انك غير مسؤول ؟

وبطريقة مرتبكة خائفة بدأ دحام يروي كيف انه وابن هذال ، واشار الى بعيد ، عملا كل شيء من أجل التعويض ، وانهما راجعا « ادارة الأفراد » وتحدث هو شخصياً عدة مرات مع نعيم ، أما المعروض الذي قدم الى الشركة ، الى « إدارة الأفراد » والذي رفع من « ادارة الأفراد » الى المقر ، فقد تعاون هو وابن هذال في كتابته ، وان الشركة وعدت ان يدرس الموضوع « وحتى الآن لم تبلغ ادارة الأفراد بأي جواب » .

كان كلام دحام مرتبكاً بارداً ومتأخراً ، ولم يزد أية اضافات هامة أو جديدة على ما قاله ابن الراشد . والرجل المسن الذي سمع ونظر الى دحام والى الرجل الأسود المتجهم الذي كان معه ، قال مخاطباً الأمير .

- أولادنا مثل ما تشوف ، يا طويل العمر ، واحد تحت التراب وهذا الثاني .

وأشار الى هاجم ، كان هاجم يبتسم ، ونظراته مشتتة زائغة . هز الرجل المسن ذراعه وصرخ :

- هاجم . . . تسمعني يا هاجم ؟

رفع هاجم اليه وجهاً مسكيناً حزيناً وخالياً من التساؤل . صرخ من جديد :

- ها ، يا وليدي . . . كيف أنت ؟

ظل هاجم ينظر اليه ولا يتكلم . قال الرجل المسن مخاطباً ابن الراشد :

- هل كان الرجل لما أخذته من عجرة بهذا الشكل ؟

ابتسم بسخرية وتابع

- وأخوه مزبان . . له قبر او اكله السمك ؟

رد ابن الراشد بحدة :

- حقك عند الشركة ، والشركة ذاك بابها

- أنا أعرف باباً واحداً . . وهذا هو الباب .

واشار الى ابن الراشد ، الذي بدا عليه الغضب . رد ابن الراشد منفعلاً

خائفاً :

ـ تسمع يا طويل العمر ؟

قال نائب الأمير ، وقد بدا عليه التفكير والهم ، مخاطباً الرجل المسن :

ـ حقك يصلك .

وأضاف بلهجة حازمة :

ـ كل واحد له حق يصله ، وانتم ضيوفنا ثلاثة أربعة أيام . . ونشوف

وظل الرجل المسن وهاجم يوماً اخر « ضيوفا » عند نائب الأمير ، أما ابن الراشد فقد تأخر بعض الوقت ثم غادر مع الرجلين اللذين جاءا معه .

كان وصول الأمير ، عائداً من رحلة القنص ، مفاجئاً ، اذ لم يتوقع الكثيرون عودته بمثل هذه السرعة . واكثر الذين فوجئوا ، بل أصيب بالاضطراب ، كان ابن الراشد ذاته . فبعد الزيارة التي قام بها نعيم لنائب الأمير ، وكان معه دحام ، تم « توقيف » او التحفظ على هاجم وخاله « لئلا يتولد الاضطراب نتيجة الاتهامات والتهديدات ، وتتأثر اعمال الشركة » كما توقع وأكد ابن الراشد في حديثه للأميركان تلك الليلة ، حيث قضى ليلته هناك ، وكما قال نعيم لنائب الأمير . أما التعويضات التي يمكن ان تصرف عن الوفاة ، فما زال امرها معلقاً ، اذ يعتبر المكتب القانوني في الشركة ان « الشركةغير مسؤولةوغير ملزمة ، باعتبار ان المصادقة على نقل العمال الى مسؤولية الشركة قد تمت بعد الوفاة » . أما التعويض المستحق لهاجم فسوف يتم صرفه في « غضون بضعة أيام . . شرط ان يكون الوضع عادياً وهادئاً » . لذلك كان استمرار التحفظ على هاجم وخاله من شأنه ان يقطع اللغط والاثارة من ناحية ، وان يمنع تهديد ابن الراشد من ناحية ثانية ، فاذا تم دفع التعويضات لهاجم عن طريق دار الامارة يعتبر الموضوع منتهياً في الوقت الحاضر .

هكذا خطّط للأمر ، وهكذا كان يجري تنفيذه . وإذا كانت وفاة مزبان قبل بضعة شهور قد خلقت حالة من الاضطراب الصامت بين العمال ، فان المقابلات

التي تمت في الفترة الأخيرة ولدت لدى الجميع مخاوف وشكوكاً كبيرة ، ولـم يخف الكثيرون هذه المخاوف والشكوك ، بل وانتقلت الى حران ذاتها ، لذلك لا يحتمل الوضع ، كما أكد نعيم ، بأساليب عديدة، اية هزة أو اضطرابات جديدة .

الآن وهاجم يصل الى حران بهذه الصورة دليل شديد الوضوح والقسوة على نوع المعاملة والنظرة الى هذه المخلوقات البشرية . فاذا اضيف الى هذا الـدليل الحـي المتحرك تهديدات الخال والغضب الذي اخذ ينتشر ويتسع بين العمال « فلا بدوأن تؤدي الأمور الى نتائج لا تريدها الشركة » .

لما أشرف الأمير على حران أُخذ بالبناءين قبل ان يصل ، اذ شاهدهما من مسافة بعيدة ، وقد تظاهر ، أول الأمر، انه لم يستطع معرفتهما وتساءل ما اذا كانا تابعين للشركة أم لا ، رغم ان ابنية الشركة تبدو واضحة وبعيدة . وحينما تأكد انهما بيت الامارة وبيت الأمير لـم يخف فرحه بذلك . قال مازحاً يخاطب الدباسي الـذي كان يسير الى جانبه :

ـ اذا فاتنا لحم الطير ، يا أبو صالح ، فالعوض باللي تشوفه !

وأشار الى البناءين ، وكان يبدو شديد الفرح متشوقاً ان يصل في أسرع وقت . أما حين وصل عند العصر ، وكان العمال على وشك الانصراف ، فقد توجه فوراً لتفقد الأبنية والتأكد من المراحل التي وصلت اليهـا . ونائـب الأمـير الـذي هبّ لاستقبالـه ، وكان واضـح الانفعـال ، اكد له وهـو يسـير الى جانبـه ، بكلمات متقطعة ، انه أشرف على كل شيء بنفسه ، وان الوصايا التي حرص عليها نفذت بدقة ، مشيراً الى النوافذ الكبيرة ، ناحية الجنوب ، وضارباً بكفه بين لحظة واخرى على الجدران السميكة ليؤكد قوتها . والأمير الـذي اسـتفسر باهتمام عن استمـرار العمل طوال الفترة الماضية سأل عن عدد العمال الذين شاركوا ، وعن توافر المواد ، وعن أمور اخرى مشابهة . والدباسي الذي رافق الأمير وتجول معه ، ابدى إعجابه الكبير وأثنى على جودة المواد والبناء وقال انه « مشغول بحق ورب » واكد أن البناء اذا تم بهذا المستوى من الدقة والعناية يمكن ان يعيش مئات السنين ، وأضاف اكثر من ذلك « ان الأبنية في مصر تشبه هذا البناء ، وبعضها قام منذ أيام سيدنا يوسف عليه السلام ولا يزال ! »

كان الأمير فرحاً مثل طفل . وقد اثنى على العمال بكلمات كبيرة . وقال لهم انه لولا جهودهم واخلاصهم لتأخر البناء ، او لما اصبح بهذا الشكل القوي . والعمال الذين سرّوا لكلمات الأمير أبدوا بعض الملاحظات السريعـة ، بخصـوص عقـود الشبابيك واتساعها . اضافة الى أن « الشمينتو سُقّي عدة مرات حتى شبع ، ولا يمكن ان ينفطر بعد ذلك » وقد تفهم الأمير هذه الملاحظات ، وأثنى على الجهود التي بذلت مرة اخرى ، ثم سأل عن المدة التي يحتاجها البناء لكي يكتمل ، وما اذا كانت الضجة أو الغبار الآن مثل الأيام الأولى ، فلما اكد له نائبه ان ما يتذكره مرحلة مبكرة ، وان لا وجود للآلات الكبيرة التي تخلق الضجة وتولد الغبار قال بصوت عالٍ وأمام العمال الواقفين على بعد خطوات :

ـ البلايا التي حفرت الأساس كانت تطوّش الرأس وتعمي العيون . . .

توقف لحظة ثم أضاف وهو يضحك :

ـ الحمد لله . . خلصنا منها .

والدباسي الذي أصرّ على مرافقة الأمير حتى النهاية قال حين عرض عليه الأمير ان يبقى عنده تلك الليلة ، وان يتعشى ويتعلل ثم يذهب الى اهله :

ـ الأحسن ، يا طويل العمر ، ان تشوف غيرنا . .

توقف قليلاً ، ابتسم واضاف :

ـ وغيري ، يا طويل العمر ، ينتظرك !

رد الأمير وهو يضحك بصوت عالٍ :

ـ ما تترك سوالفك يا أبو صالح . كل كلمة عندك لها الف معنى .

وضحكا معاً ، وبعد أن شربا القهوة غادر الدباسي الى اهله . أما الأمير فقد سأل نائبه عن الأشياء التي حصلت اثناء غيابه ، عن القوافل التي وصلت والناس الذين وصلوا ، وبعد أن استمع الى بعض الاجابات ، دون ان يستوعبها ، قال وهـو ينهض لكي يذهب الى اهله في خيمة اخرى :

ـ نلحق على هموم الخلق .

واضاف وهو يمشي بخطوات بطيئة ويضحك .

ـ هموم الخلق . يا ابو رشوان ، ما تخلص .

أضاف نائبه وهو يشاركه الضحك :

ـ في حران ، يا طويل العمر ، هموم الناس ما تخلص ، والناس ما تخلص . . . حتى الموت ما يخلصها !

قال الأمير :

ـ وكّل الله .

كان ابن الراشد أول زوار الأمير في صباح اليوم التالي لوصوله ، جاء مبكراً أكثر من العادة . كان الأمير في هذه الساعة يتفقد البناء ، كان فرحاً منشرح الصدر ، وقد ضرب بكفه الجدران عدة مرات ليختبرها ، كما فعل نائبه في اليوم السابق ، أما حين رأى ابن الراشد مقبلاً في هذا الوقت المبكر فقد راوده الشك : هل جاء ليكون في استقبال العمال وتوجيههم ؟ هل يفعل هذا كل يوم أم عرف بوصوله وجاء هذه المرة فقط لكي يدلل له على مدى إخلاصه وحرصه ؟ إذا جاء ليسلم عليه فان الوقت لا يزال غير ملائم لمثل هذه الزيارة . قال الأمير وابن الراشد على بعد خطوات يخبّ مستعجلاً ليصل :

ـ سروتك ما هي لله يا ابن الراشد .

ـ صارت الدنيا الظهر ، يا طويل العمر !

هكذا رد ابن الراشد وهو يتقدم مرتبكاً ومسرعاً ، وكان يحاول الابتسام . رد الأمير :

ـ لا توصي الحريص .

ولم يفهم ابن الراشد ما قصد إليه الأمير ، هل يمدحه أم يذمه ، وبعد أن سلّم

بحرارة وسأله باهتمام اذا كانت رحلة القنص ممتعة والصيد وافراً، رافق الأمير في تفقد البناءين ، وقد أبدى ملاحظات كثيرة بخصوص قوة البناء والعناية التي بذلت من أجل أن يكون هكذا . وأكد للأمير أنه لن ينقضي شهر إلا ويكون البناءان قد انتصبا ، ولا تبقى إلا الاكمالات الداخلية ، وهذه الاكمالات ، إذا رأى الأمير أن يحث الأميركيين فلا بد أن تتبع نفس الطريقة التي اتبعوها في بناء المساكن الخاصة بهم ، حيث كانت الأبواب والشبابيك وأشياء أخرى كثيرة جاهزة ، فما أن تفك من صناديقها وترفع عنها الأوراق حتى تثبت في أماكنها . أبدى الأمير اهتماماً كبيراً للحصول على هذه الأشياء ، وتساءل عما إذا كان الأميركيون سيقومون بذلك دون طلب ، وأشار الى أنه يخجل أن يطلب ذلك بنفسه .

قال ابن الراشد وقد أدرك نقطة الضعف :

ـ أنا لا أقبل أن تطلب منهم يا أبو مسفر . . .

ابتسم ، غير لهجته وهو يتابع :

ـ إذا وافقت ، يا طويل العمر ، إترك الشغلة عليّ .

توقف قليلاً ثم أضاف وهو يتكلم من منخريه :

ـ أنا أظل وراءهم ، ألاحقهم في الليل والنهار ، أقول لهم لازم بيت الأمير يكون مثل بيوت الأميركان : الشبابيك ، الأبواب ، كل حاجة . نعم كل حاجة لازم تكون مثل الأميركان .

وبكثير من الدهاء والبراعة تعهد ابن الراشد للأمير أن يتولى ، نيابة عنه ، البحث مع الأميركيين من أجل إنجاز دار الامارة وبيت الأمير بنفس الطريقة التي اتبعوها في إنجاز بيوتهم . وهذه الفكرة التي تقبلها الأمير برضا ، وإن ظلت عيناه وملامحه تتساءل بشك ؛ وفي محاولة لأن يتغلب على الشكوك ويعطي ابن الراشد الفرصة قال وهو ينظر الى عينيه بتحديد :

ـ توكل على الله يا ابن الراشد ، الحّ عليهم ، نشّف ريقهم ، بس لا تذكر أبداً أنني أنا اللي طلبت .

ودون كلمات هز ابن الراشد رأسه عدة مرات ، مع ابتسامة صغيرة واثقة ، وبعد لحظات ضرب بكفه المفتوح على صدره مرتين ، وقال :

ـ ما يصير الا اللي تريده . . يا طويل العمر .

وواصل جولته برفقة الأمير ، أما حين رأى اثنين او ثلاثة من العمال قادمين فقد صرخ بصوت حازم وساخر :

ـ الله . . الله . . الدنيا صارت الظهر يا أولاد الحلال . . .

ولما رأى العمال الأمير بدا عليهم الخوف والارتباك وظلوا صامتين . تابع ابن الراشد بطريقة ابوية :

ـ يا الله يا نشامة . . خفّوا رجليكم . . وكل واحد وشغله .

ولكي يزيد حماستهم ويحرضهم على الاسراع نزع عباءته السوداء وألقى بها على كومة من الحجارة ، ووضع طرف ثوبه تحت حزامه العريض وقال بانفعال :

ـ يا الله يدي بأيديكم

وفي جو من الصخب والانفعال والحركة الزائدة بدأ ملء البراميل ونقل أكياس الاسمنت وتحضير الرمل ، وكانت مشاركة ابن الراشد وحركته والأوامر التي يصدرها تؤكد الارتباك أكثر مما تفيد في المساعدة ، والأمير الذي كان يراقب من بعيد ، وترتسم على شفتيه ابتسامة لا يمكن لأحد أن يكون متأكداً هل هي ابتسامة رضا أم إشفاق ، قال لابن الراشد بعد فترة من الوقت :

ـ شيل عباتك ورح تقهوى يا ابن الراشد .

وكأن ابن الراشد كان ينتظر هذه الاشارة إذ ما لبث أن غسل يديه وتناول عباءته وركض وراء الأمير الذي سار قبله ، فلما أدركه قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ إذا ما كان الواحد فوق روسهم ، يا طويل العمر ، ينامون .

* * * *

كان ابن الراشد شديد القلق والحيرة ، فهو بمقدار ما يريد تدعيم ثقة الأمير به ، كان يخشى أن تنهار هذه الثقة لو بحث موضوع هاجم واجهه مرتان دون تحضير دقيق ودون تهيئة الجو المناسب . إذ لا يزال يتذكر كلمات الأمير التي قالها قبل فترة طويلة حين جرى بحث هذا الموضوع . كان قاسياً وأقرب الى [illegible] . قال له : [illegible] طالب يا ابن الراشد ، أرض [illegible] . [illegible] قال الأمير ان هاجم ومعه [illegible] الآن في خيمة لا تبعد عن مكانهم أكثر من عشرين او ثلاثين خطوة .

وأنهما مسجونان ، لأن هذا القريب يهدد ، وقد رمى الفلوس التي ارسلت إليه ، لو قال شيئاً مثل هذا فلا بد أن يثور الأمير ويقلب الدنيا على رأسه ، أما إذا قال له انه اتفق مع الأميركان ونائب الأمير على السجن فلا بد أن يشعر الأمير بالمهانة . وربما تساءل بسخرية : من هو الأمير ؟ أنا أم أنت ؟ والأميركان ما دخلهم في هذه السالفة ؟ أكثر من ذلك إذا رأى الأمير هاجم مسلوباً فاقداً فماذا سيقول ؟ ونائب الأمير كيف سيبرر موقفه وماذا سيقول ؟

كانت الأفكار والصور تتراكض في رأسه ، فيشعر أنه محاصر وأنه مهدد ، أما الابتسامات التي يراها الآن على وجه الأمير فانها ستار خادع ، خاصة وأن « ابن الحرام الدباسي طلّع الزايدة والناقصة في رحلة القنص ! » ولا بد أن يكون قد أوغر صدر الأمير عليه ، فإذا رأى هاجم والرجل الذي معه ، ومن هذا كلمة ومن هذا نظرة مجانين فلا بد أن تنقلب الأمور عليه .

قال الأمير وهو يتطلع في وجه ابن الراشد بتحديد :

ـ اشوفك صافن يا ابن الراشد ؟

توقف لحظة ثم تابع وهو يضحك بصوت عالٍ .

ـ وكل الله . . نصف الألف خمسمائة . . يا ابن الراشد .

انتفض ابن الراشد وكأنه يستعيد علاقته بما حوله ، فلما رأى الأمير يتطلع إليه بهذه الطريقة قال وهو يتصنع الابتسام :

ـ القول قولك يا طويل العمر .

ـ وانت تعرف : الهّم ياكل القلب ، يقتل .

ـ اللي ما يدري يقول قبضة عدس !

ـ أشوف قلبك ورمان يا ابن الراشد .

ـ الناس ورّمته يا طويل العمر .

ـ الناس أو الفلوس ؟

ـ الفلوس ما تورم القلوب يا مبارك .

ـ الفلوس هي العلة وهي السبب .

زفر ابن الراشد زفرة قوية حارة وكأنه يريد أن يمهد لما سيقوله ، فلما رأى الأمير

يبتسم ويهز رأسه قال بلهجة مسكينة :

ـ أريدك ، يا طويل العمر ، تسمع سالفتي وبعدها تحكم ، واللي تحكم به على العين وعلى الراس .

استغرب الأمير هذا الكلام ، أما حين بدأ ابن الراشد بانفعال اقرب الى الحيرة والخوف يعيد قصة هاجم ، والأمير الذي انتفض وارتد جسده قليلاً الى الخلف ، ما لبث أن أخذ يهز رأسه وكأنه تذكر ما قاله سابقاً ، وكيف أنه أراد أن تحل المشكلة بالتراضي وأن تنتهي . أما كيف جاء هاجم مرة أخرى ومعه أحد أقربائه ، والتهديدات التي صدرت عنهما ثم احتجازهما ، وأن المشكلة لا تزال تتفاعل يوماً بعد آخر في معسكر العمال ولدى الأميركان ، وابن الراشد لا يعرف ماذا يفعل ، والأميركان يرفضون دفع التعويض ، حين بلغ ابن الراشد في قصته هذا الحد ، قال الأمير وهو يحرك يديه بطريقة غاضبة :

ـ قلت لك ، يا ابن الراشد : الفلوس هي السبب . . .

وبعد عدة هزات من رأسه أضاف بلهجة ساخرة :

ـ بينك وبين الأميركان ضاعت حقوق الناس يا ابن الراشد .

ومن جديد حاول ابن الراشد أن يشرح كيف بذل أقصى الجهود من أجل الحصول على تعويض لمزبان ، وإن الأميركان ما زالوا يرفضون ، أما بالنسبة لهاجم فإن تعويضاً سيدفع له ، لكن الاجراءات لم تنته بعد ، وكيف أنه أرسل من كيسه الخاص مبلغاً من المال ترضيةً له وتعبيراً عن حسن نيته ، وأنه لا يزال يحاول انهاء الموضوع في أسرع وقت ممكن ، لكن الأميركان اشترطوا أن لا يدفع التعويض الا اذا هدأت الأمور تماماً ، وكفّ الرجل المرافق لهاجم عن التوعد والتهديد .

كان ابن الراشد وهو يتكلم يحرك يديه وينتظر رد فعل الأمير . كان ينظر بعينين خائفتين ، لأن رد الفعل يحدد ، ويعني اشياء كثيرة بالنسبة له ، إذا استجاب له الأمير ولان قلبه يمكن أن تنفتح أمامه الأبواب كلها ، ويمكن أن يبقى قوياً ، أما اذا عاند ورفض الاستجابة فسوف يواجه مصاعب لا نهاية لها . قال في محاولة ماكرة :

ـ إذا وافقت ، يا أبو مسفر ، الآن ، بوجهي ، من مجلسك الى الأميركان ، وما أتركهم حتى يحلوا المشكلتين : مشكلة الشبابيك والبيبان ومشكلة اولاد جازي .

قال الأمير بصوت يائس :

ـ إخلع شوكك بيدك يا ابن الراشد . . وباكر نشوف .

المحاولات التي جرت من أجل انهاء المشكلة لم تنته الى نتيجة . رفضت الشركة باصرار أن تقدم أي تعويض ، حتى لو كان رمزياً لأن « القانون هو القانون ، والنظام هو النظام» ، أما الحجة دائماً فهي أن مسؤولية العمال انتقلت اليها بعد الوفاة و«الشركة قبل هذا التاريخ لا تعترف لأحد بأية حقوق أو تعويضات ، لأن الاتفاق مع ابن الراشد يلزمه بتقديم العمال المياومين ، وهو وحده المسؤول » أما محاولات الأمير في أن « يقسم الكوم قسمين ، الشركة النصف وابن الراشد النصف » فقد فشلت أيضاً ، لأن هاملتون الذي زار الأمير يرافقه نعيم ، أكد بإصرار لا ينفك يتزايد أن « المشكلة الأساسية ليست المبالغ التي يجري الحديث عنها ، المشكلة هي المبدأ ، الجانب القانوني ، وعلى هذا الأساس لا توافق الشركة أن تناقش التفاصيل » وأضاف هاملتون أن أية حوادث لاحقة : فقدان الحياة ، العجز الكامل أو الجزئي ، فقد أو إصابة أي عضو من الأعضاء ، سواء كان العين أو الساق أو الاذن ، وحتى الاصابات الأقل شأناً ، ستقوم الشركة بالتعويض عنها ، وستكون التعويضات كبيرة ، كما لو أن العمال العرب مثل غيرهم !

أما إبن الراشد فقد كان مستميتاً من أجل القاء عبء التعويض على الشركة « لأن فلوسي ، يا طويل العمر ، كلها راحت ببطون الناس وبالحديد والحجارة » أما حين

ارتأى الأمير تحميل ابن الراشد التعويض كاملاً ، بعد أن رفضت الشركة ، فقد صرخ كالملسوع :
ـ أجرة العمال ما هي بجيبي يا طويل العمر . . توسطوا مع الشركة ، فاذا وافقت على أن تسلفني ، وتنتظر عليّ سنة . . ادفع .

رد الأمير بنفاد صبر :
ـ أنا لا أتدخل ، وأنت أعرف منا بالشركة ، رح تسلّف منها أو من العفاريت .

والتفت الأمير الى الناحية الثانية ، حيث يجلس نائبه وقال بحدة أقرب الى التهديد :
ـ خلصونا من هذه السالفة يا جماعة الخير .

قال ابن الراشد في محاولة واضحة للتأثير على الأمير ، مستغلاً وجود نائبه :
ـ على كل شيء وافق الأميركان ، يا طويل العمر . قالوا الأبواب والشبابيك مثل بيوت الشركة ، وأحسن من بيوت الشركة . . .

توقف لحظة سحب خلالها نفساً عميقاً مهموماً وأضاف :
ـ وثلاثة أو أربعة أبواب كبيرة ما عندهم شيء منها جاهز ، لكن باكر ، يا طويل العمر يأخذون قياسها ، ويفصلونها ، وما يمر كم يوم الا وهي جاهزة .

لانت ملامح الأمير ، لكن لم ينظر مباشرة الى ابن الراشد ، وتظاهر انه لم يسمع أو لا يملك تعليقاً على ما قاله ، خاصة وأن ابن الراشد قد قال كلاماً قريباً من هذا بعد زيارته الأولى للأميركان ، لكن لم يكن الكلام واضحاً ونهائياً كما هو الآن . فقد هز الأميركيون رؤوسهم وتطلع بعضهم في وجوه بعض وقالوا في حينها ، كلما ذكر ابن الراشد ، أن إمكانية من هذا النوع ستجري دراستها للتأكد من وجود الأبواب والشبابيك المطلوبة ، أما الآن ، وفي ظل هذا الحصار الذي يتعرض له ابن الراشد فقد حاول أن يضغط على الأمير ، أن يحمله على تغيير موقفه ، أو أن يتساهل في الشروط في أسوأ الأحوال .

قال نائب الأمير ، في محاولة لاقتراح تسوية تكفل تأمين المال المطلوب من مصدر غير الشركة ، وأن تبقى العلاقة مع الأميركان هادئة وجيدة :
ـ إترك الشركة ، كلّم الدباسي أو السيف ، أو كلم ابن السعد ، عسى أن واحداً يسلفك

قال الأمير ساخراً :
ـ إترك هذه السالفة . . يا رجل . . .

والتفت الى ابن الراشد بنظرة سريعة وأضاف مخاطباً نائبه :
ـ هذا عظمه ذهب ، لا تخف ، وهو يعرف كيف يدبر الفلوس .

وكاد ابن الراشد يبكي في محاولة لاثبات عجزه عن تأمين المبلغ . قال إن كل ما يملكه انفقه ، وأنه أخطأ في ذلك خطأ لا يمكن أن يغفره لنفسه لأن « الأرض لا قيمة لها ولا يوجد في حران مجنون مثله يضع ماله كله في الأرض أو في بطون الناس » وأكد أن أموره إذا استمرت بهذا الشكل فترة قصيرة فلا بد أن يهرب من حران ، لأنه لا يستطيع أن يواجه الحلوق المفتوحة التي تطالبه بالمال في الليل والنهار .

قال الأمير وقد بدأ يضعف :
ـ من يسمعك ، يا ابن الراشد ، يقول : يستحق الصدقة .

رد بيأس :
ـ الناس مالها الا الظاهر ، وما لها شغلة الا السوالف .
ـ مثل ما قال أبو رشوان : كلم الدباسي ، شف ابن سيف .
ـ انت أعرف مني بهم ، يا طويل العمر . . .

هكذا رد ابن الراشد ، توقف لحظة ثم تابع بعدها بسخرية :
ـ ابن السيف ما يبول على يد مجروح ، والدباسي يتمنى اليوم اللي أبيع فيه عباتي واشحذ !

* * *

كان الدباسي يتمنى فعلاً اللحظة التي يستطيع أن يوجه فيها ضربة قاضية لابن الراشد ، فان لم تكن قاضية تماماً فلا أقل من أن تتعبه وتذله ، لذلك ما كاد يسمع في اليوم الأول لوصوله بقضية هاجم وعودته حتى بدأ .

عند ظهر اليوم التالي كان في زيارة الأمير . كان المجلس عامراً وضيوف الأمير كثيرين ، وقد جاء أغلبهم للسلام . بدا الأمير منشرح الصدر وأقرب الى المرح ، خاصة حين يعاد عليه السؤال ذاته حول رحلة الصيد ، ففي كل مرة يحيل السائلين الى الدباسي مع ابتسامة ذات معنى ، وهو [illegible] بهذه تطلب اليه أن يتولى الرد على

الذين يسألون ، لكن ما كاد يخلو المجلس قليلاً حتى اقترب الدباسي من الأمير وهمس في أذنه ببضع كلمات ، فرد الأمير بصوت عال وهو يتلفت الى هذه الناحية والى تلك قائلاً :

ـ أدري . . أدري يا أبو صالح .

أما عندما خلا المجلس تماماً ، ولم يبق إلا الأمير ونائبه ، فقد سأل الأمير بنوع من التعريض :

ـ ها . . . يا أبو صالح . ما هي سوالف الناس ؟

ونظر بطرف عينه الى نائبه وأضاف :

ـ رجعتنا كانت رحمة للناس وللطير يا أبو صالح .

قال نائب الأمير في محاولة لأن يدافع عن نفسه :

ـ للطير . . أي والله يا طويل العمر ، أما للناس فما أدري ، لأن الناس غارقة باشغالها وهمومها ، ولولا الشامي وديوان ابليس اللي فتحه ، كان الناس بالف خير .

قال الأمير بنبرة صلبة :

ـ سولف يا أبو صالح .

ـ السوالف كثيرة يا طويل العمر ، لكن السالفة اللي سمعتها البارحة ، ساعة وصولي ، واللي سمعتها اليوم في السوق ، هي سالفة البدوي اللي انهبل ، زلمة ابن الراشد . . .

ولم يكن أي من الثلاثة بحاجة الى تفاصيل كثيرة حول الموضوع ، إذ ما كاد ابن الراشد يترك الأمير ذاهباً الى معسكر الأميركان من أجل متابعة بناء دار الامارة وبيت الأمير ، وما كاد نائب الأمير يصل مبكراً حتى استدعي هاجم والرجل الذي معه ، وبعد أن استمع إليه الاثنان قال له الأمير :

ـ حقك يصلك . . ولسانك إبلعه .

وبعد أن نظر الأمير طويلاً في وجه الرجل وفي وجه هاجم ، وبدا عليه للحظات الحزن الممزوج بالألم ، أضاف بصوت هادىء لكنه قاسٍ :

ـ تسمعني ؟ تفهم ما قلت ؟

ولما هز الرجل رأسه دلالة أنه سمع وفهم ، واطمأن الى وجه الأمير ، والى كلماته

قال له الأمير :

ـ إذا بغيت تكون ضيفنا مرحبا بك ، وإذا بغيت تنزل الى السوق فهذا درب السوق .

قال الرجل المسن كلمات سريعة متداخلة ، لكن فهمت على أنه يريد الذهاب ، فصاح الأمير على أحد رجاله وقال له :

ـ وصّله طريق السوق . . وعطه شي .

الدباسي في طريقه الى مضارب الأمير لم ير هاجم وخاله ، لكن كثيرين قالوا انهم رأوهما في السوق ، قرب المسجد ، ثم في مقهى أبو أسعد ، ورغم أن الرجل المسن لم يجب عن الأسئلة التي وجهت اليه ، إلا أن عينيه كانت تشتعلان ، وصمته كان قاسياً معبرا أكثر من كل الكلمات ؛ أما هاجم الذي كان يسير بجانبه ، وينظر في الوجوه بتساؤل واستغراب ، وبين لحظة وأخرى يبتسم بطريقته ، فقد كان يثير الشفقة والسخط في آن واحد ، وكانت تصدر عنه أصوات أقرب الى حمحمة حيوان متألم .

تأثر الدباسي لما سمعه ، وجاءت أيضاً الفرصة لكي يوجه ضربته . قال للأمير بطريقة ماكرة :

ـ لو سمع كلامك ، يا أبو مسفر ، كانت السالفة كلها ما صارت .

رد الأمير بنفاد صبر :

ـ المال يفتن والطمع يعمي . . يا أبو صالح .

هز الدباسي ونائب الأمير رأسيهما وصمتا .

في الأيام التالية تولى ابن نفاع المهمة . إذ ما كاد يرى الرجلين قرب المسجد . عصر اليوم التالي لوصول الأمير ، حتى بدأ يصرخ بغضب . فعل ذلك دون تحضير سابق ، ودون تحريض من أحد ، إذ ما كاد يسلم على الرجل المسن بحرارة ، حتى سمعه الجميع يهذر :

ـ هذا الرجل ـ وكان يمد سبابته حتى تكاد تلامس وجه هاجم ، وهاجم يبتسم ويتطلع في وجوه الناس ـ هذا الرجل ما به خلاف ، الموت حق ولا يخاف منه أحد ، الموت أقرب إلى الانسان من حبل الوريد ، وهذا مشكلته ما هي الخوف . لا . الخوف سالفة . هذا الرجل دخله عفريت . الأميركان جاءوا وجاءت معهم العفاريت . وكل من يشرب ماءهم ، كل من يأكل زادهم . . يدخله عفريت . إذا ما كان اليوم

عقبه ، وإذا ما ظهر اليوم يظهر بعده .

ويتطلع ابن نفاع في وجوه الرجال ليرى أثر كلماته فيهم ، وحين يجدهم صامتين مطرقين يتابع بصوت أقوى :

ـ إبن الراشد شرّق وغرّب . جمع الناس من كل مكان وساقهم للأميركان . ساق الغنم للذيب ، وعلى كل ذبيحة ، على كل رأس ، يتسلف من الأميركان والأميركان يعطونه ويقولون : هل من مزيد ؟ ويركض ابن الراشد ويجمّع ويقول لهم : خذوا ! ومثل جهنم لا يشبع ولا يشبعون .

وزفر زفرة قوية ، امسك بكتف هاجم ، هزه بقوة ثم أضاف :

ـ يا وليدي داك ودواك منهم وفيهم .

ويلتفت من جديد الى من حوله ويضيف وهو يشير الى هاجم :

ـ هذا اليوم ، وبعده حران كلها . ومثل ما قال صاحبنا العتيق : « أرى العفاريت تدخل من اظفاركم لتلبس أجسادكم وتستقر في امخاخكم » .

وتتوالى هزات رأس الخال ويظهر الغيظ قوياً جامحاً في عينيه وفي ملامح وجهه ، فاذا سأله أحد ان كان رأى ابن الراشد ، أو كيف استقبله الأمير وقبل ذلك نائبه ، فكان ينظر في وجوه سائليه فترة طويلة ويهز رأسه ، ويغرق في الصمت . ولما ترتد الأسئلة دون إجابات ، دون توضيح ، كان ابن نفاع يصرخ من جديد .

ـ الأميركان هم العلة وهم السبب .

ولما يرتفع السؤال ، ولا يُعرف ما اذا كان موجهاً الى خال هاجم أو الى ابن نفاع ، للاستفسار عن ابن الراشد ، كان ابن نفاع يرد بسخرية ، بعد أن يشير بيديه اشارات بذيئة :

ـ من هو ابن الراشد ؟ ابن الراشد زق .

ويتابع وهو يضحك :

ـ تسعين ابرة ما يصيرن مخرز ، وابن الراشد أصغر من إبرة ، لكن الأميركان هم المخرز ، وباكر واللي عقبه يفوّتون بحلوقنا إبر او يطلعونها من هنا مخارز .

ويشير الى مؤخرته !

وكلمات ابن نفاع التي تثير الضحك لا تلبث أن ترتد كالزوابع لتخلق التساؤل

والخوف ، فتتابع التعليقات والهمسات والنظرات ، وتبقى الصلابة ذاتها الأقرب الى الصخر مرسومة على وجه الرجل العجوز ، وكأنه لا يرى ولا يسمع ما يدور حوله ، فاذا استعاد نفسه ونظر من جديد الى الذين بقربه يركز نظراته في وجه هاجم ويهز رأسه .

الدباسي الذي لم يكن يفوته شيء ، فيسمع ويعرف كل ما يجري ، بما في ذلك اقتراح الأمير ونائبه أن يتسلف ابن الراشد منه ، لم يكن في عجلة من أمره . كان يقول كلمة تبدو بسيطة اقرب الى البراءة ، لكن لا تلبث ، وهي تنتقل من فم الى آخر ، أن تصبح مثل سيخ النار . فلما سمع ما قاله ابن نفاع قرب المسجد من أن ابن الراشد مجرد إبرة ، فقد قال في مقهى أبو اسعد في نفس الليلة :

ـ سبحان الله يا جماعة الخير . . . من به طبع ما تركه !

قال ذلك وصمت فترة غير قصيرة ثم أضاف ، وكان حوله عدد من أهل حران :

ـ اللي ما يخاف الله خف منه .

وهز رأسه ثم قال لأحد الجالسين الى جانبه بصوت عالٍ يريد للآخرين أن يسمعوا :

ـ لا تتركوا الجماعة بدون عشاء ، ولزّموا عليهم ينامون فوق .

وفهم من كلامه انه يعني هاجم وخاله .

حين بعث نائب الأمير دحام في اليوم الثالث لكي يطلب من الدباسي تسليف ابن الراشد مبلغاً يعادل ما اتفق عليه كتعويض لهاجم وأخيه ، قال الدباسي :

ـ المبلغ كله موجود ، والموعد العصر ، عند الأمير . . . .

توقف لحظة ، ابتسم ثم أضاف :

ـ وقل لابن الراشد يلزم يكون موجود ، لأن الدنيا حياة وموت .

ورغم أن الدباسي كان مستعداً لتقديم المبلغ ، وابن الراشد يماطل ويؤجل ، لعل الشركة تتولى اداءه ، لكنه بدا في النهاية مستعداً للموافقة . أما الشيء الذي لم يفطن اليه أحد الا بعد ظهر ذلك اليوم فهو أن هاجم وخاله كانا قد تركا حران في الليلة السابقة . لم يقولا لأحد انهما سيسافران، ولم يحس بهما أحد . أما المحاولات التي جرت في غروب ذلك اليوم للبحث عنهما في المسجد ، في المقهى ، في السوق ،

وحتى في معسكر العمال فقد انتهت الى الفشل .

قال الأمير لما بلغه خبر سفرهما :

ـ ورّطنا ابن الراشد . . . والله يستر .

ونظر الى نائبه بأسف ، كأنه يلومه . أما حين أقبل ابن الراشد يريد أن ينقل اليه الخبر الذي سمعه لتوه حول سفر هاجم وخاله ، فقد رد عليه :

ـ الفلوس ترفع وتذل ، والناس اما أسياد أو عبيد .

وخيم صمت ثقيل ، وتوقع الكثيرون ان تحدث أشياء وأشياء .

بانقضاء الربيع . او الأيام المعتدلة والليالي المنعشة التي تتخللها البرودة بعض الاحيان ، بدأ الصيف الثقيل القاسي . والناس الذين تعودوا في السنين الماضية على دخول الصيف بتمهل ، معلناً عن نفسه بتزايد الحرارة والرطوبة ، فوجئوا ان صيف هذه السنة هجم هجوماً سريعاً مبكراً ، وتميزت بدايته برياح لافحة وبزوابع رملية ، حتى كادت حران تختفي تحت هذه الزوابع التي تهّب من الصحراء ، وتحت اكوام الاتربة والاوساخ التي تنبع من كل مكان والتي تذروها الريح ليل نهار . حتى الليالي التي كانت في اواخر كل ربيع لينة سخية ببرودتها ، بحيث تُنسي الناس حرارة النهار ، كانت في هذه السنة خشنة ثقيلة واقرب ما تكون الى ليالي اواسط الصيف . قال الكبار : لم نر ربيعاً مثل هذا منذ سنين طويلة . وقال آخرون : ان جفاف هذه السنة لم يمر مثله من قبل ، وهذا الجفاف سيرفع الاسعار ، خاصة الحنطة والشعير ، ويجعل حياة الناس شديدة الصعوبة ، أما الدواب فسوف تهلك لا محالة قبل دخول الصيف الكبير . ابن نفاع وحده لم يوافق على ما يقوله الناس ، واكد ان الحرارة التي تملأ الجو ليست من الشمس وانما هي تنبع من الارض ومن داخل النفوس معاً ، لان العفاريت التي وصلت تعيش تحت ارجل الناس ، ثم لا تلبث ان تنتقل الى اجسام البشر والحيوانات ، ولن يمر وقت حتى تتعشق كل شيء ، لان في داخل كل مخلوق

عفريتاً صغيراً اسود ، وهذا العفريت يكبر ويمتد ما لم يبادر الانسان الى قتله » .

والناس في حران الذين تعودوا في مثل هذا الوقت من كل سنة على وصول قافلة او اثنتين ، وكانت هذه القوافل تحمل معها الاخبار والرسائل والدراهم ، اضافة الى الاقمشة والسكر والطحين ، كانت هذه القوافل بوصولها تغير حياة حران ، تولد فيها فرحاً ملوناً او هواجس ومخاوف بسبب وصول الاخبار والرسائل او انقطاعها . هذه السنة تختلف عن السنين السابقة جميعها ، اذ لم يعد احد ينتظر قافلة بذاتها ، لان القوافل اصبحت من الكثرة لدرجة انها لم تنقطع اسبوعاً واحداً ، ولان الاشياء الجديدة لم تعد تأتي من جهة عجرة فقط ، وانما اصبحت تأتي من جهات كثيرة ، خاصة من جهة البحر . كما ان وصول هذه القوافل يحمل معه مخاوف جديدة وبشراً يزيدون يوماً بعد يوم ، ولا يدري احد كيف سيعيش هؤلاء الناس او ماذا سيفعلون .

كان انقطاع القوافل في السنين الماضية او مجرد تأخرها يثير هموماً كبيرة ، خاصة في نفوس المسنين . أما وصول القوافل الان ، مع ما تحمله من اخبار وهواجس وبشر فقد جعل الجميع يحسون ان حران لم تعد ملكاً لاحد او مدينة لاحد . اصبح الناس فيها من الكثرة والاضطراب الى درجة ان كل واحد يسأل وكل واحد يجيب ، لكن لا احد يفهم ولا احد يسمع . فالرجال الذين يقضون وقتاً طويلاً في السوق ، ويذهبون عدة مرات في اليوم الى مقهى ابو اسعد الحلواني ، ويراقبون الابنية الجديدة بكثير من العناية ، وينظرون باهتمام مشوب بالحذر الى القادمين الجدد ، هؤلاء الرجال يرون ذلك كله ويسمعون ويسألون ويراقبون ، لكنهم لا يعرفون كيف يفسرون ما يجري حولهم ، ولا يعرفون كيف ستكون الحياة في الأيام القادمة ، ولذلك كانوا يغرقون في الهموم والصمت ، فاذا عادوا الى بيوتهم ، وحاولوا ان ينقلوا للنساء بعض ما رأوا وبعض ما سمعوا ، وجدوا انفسهم يتكلمون وحدهم ، فلا النساء يسمعن ولا هن ينظرن ، لان عندهن من المتاعب والمشاغل الكثير ، فاذا سمعن او نظرن لم يفهمن شيئاً مما يقوله الرجال ، بل وتظهر على وجوههن مظاهر الاستغراب لهذه الهموم التي يراها غيرهم ، ولهذا الخوف الذي يظهره الرجال دون سبب واضح مفهوم . فاذا هبّ ذلك الغضب الخفي المفاجيء ، او صدرت عن الرجال تلك الصرخات القصيرة الحادة منذرة ان كل شيء يمكن ان ينتهي في لحظة

خاطفة ، فتنقلب الارض وتزهق الروح ، عرفت النساء ان الحياة حولهن لا تسير سيراً محموداً ، وان لدى الرجال من الهموم الكثير ، لكنهن لا يدركن ذلك ، وخلال لحظات قصيرة ، وبطريقة شديدة الخفاء والدهاء ، ولا تتقنه الا الامهات والنساء المجربات ، يُـهرب الاطفال ، وتتصرف كل امرأة بشكل من المسالمة والحنان ، تعرف استحضاره في اللحظة ، ويبلغ من الاتقان درجة ان اقسى الرجال واكثرهم غلظة لا يلبث ان يبرد ويتراجع ثم يندم ، ويحل محل ذلك الغضب حزن هادىء اقرب الى اليأس ، وكأن الانسان في مواجهة قدر لا يقوى على دفعه او تغييره .

هكذا بدت الأيام التالية لغياب هاجم وخاله ، ذلك الغياب الغامض المفاجيء ، وبعض الذين فسروا الضيق الذي شعروا به بسبب هذه الحادثة ، وذكروا ذلك بصوت عالٍ امام الكثيرين ، ما لبثوا ان نسوا السبب ، لكن الضيق لم يفارقهم ، بل واخذ يزداد يوماً بعد يوم . حتى الامير الذي قسا على ابن الراشد واغلظ القول له ، وبدا شديد الضيق اذا ذكر أمامه شيء له علاقة بما حدث ، ما لبثت قسوته ان تحولت الى سخرية مُـرّة ، وحل التعريض مكان اللوم والعتاب .

وابن الراشدذاته الذي لم يصدق شيئاً مما جرى ، وكأنه مجرد حلم ، ما لبث ان اصبح رجلاً مختلفاً . امتلأ اول الامر بالاستغراب ثم تحول استغرابه الى ذهول وصمت ، ثم حل مكان ذلك الخوف . اصبح رجلاً شديد الارتياب والخوف من كل شيء ومن كل شخص . اخذ يتلفت كل لحظة ، يفزع من اي صوت ، ينظر في الوجوه بتساؤ ل اقرب الى الاتهام . لقد جرى هذا التحول خلال فترة قصيرة . . صحيح انه جرى ببطء ، ولم يفطن اليه الكثيرون اول الامر ، لكن القلق الذي اخذ يميز تصرفاته وسلوكه ، وتلك العلاقات المضطربة بالآخرين ، ثم التردد الذي اصبح يطبع كل حركة وكل تصرف ، جعل الكثيرين ينظرون ثم يتساءلون .

قال ابن نفاع لما سمع الرجال في مقهى ابو اسعد يتحدثون باستغراب عن ذهول ابن الراشد وصمته :

ـ بلّش العفريت ينقب فيه . . .

وهز رأسه وهو يضحك . . ثم اضاف :

ـ اذا عشنا نشوف .

اكثر اثنين لاحظا وعرفا بالحالة الجديدة لابن الراشد هما دحام والدباسي دحام من خلال علاقته المباشرة واليومية به، والدباسي من خلال الحدس والتقدير، اضافة الى مجموعة من الملاحظات المتفرقة والاقوال والمعلومات التي تصل اليه من هنا وهناك ، حول تصرفات او كلمات تصرفها او قالها الرجل . وكل واحد من الاثنين ، دون ان يدري بما يفكر الآخر ، قرر ان يجهز عليه ، وان يرغمه على دفع ثمن كبير

فبعد تلك المفاوضات والمساومات الطويلة الشاقة لارغام ابن الراشد على دفع التعويض ، وافق مضطراً ، ولانه لم يكن يملك المبلغ المطلوب فقد وافق الدباسي على اقراضه ، أما حين سافر هاجم وخاله ذلك السفر المفاجيء ، فقد اعتبر ابن الراشد ان لا حاجة هذا القرض في الوقت الحاضر ، أما الدباسي فقد قال للامير بنوع من المكر :

- الفلوس في جيب راعيها تدفي . . يا طويل العمر . .

توقف لحظة ، نظر الى ابن الراشد ثم اضاف :

- لكن باكر اذا صبتم عجوز ما تلقون . .

وتغيرت لهجته تماماً وهو يوجه حديثه من جديد للامير :

- يجوز ، يا طويل العمر ، ان البدوي راح هنا . . هنا ، يريد عارفة ، يريد فزعة حتى يحصل على قرشين ازود .

وعاد الى لهجته الاولى مخاطباً ابن الراشد :

- باكر اذا جاء لا تقولوا تعال يا دباسي ، هات فلوس يا ابو صالح .

بهذه الطريقة المحكمة اتفق على ان تبقى الفلوس لدى الامير وديعة الى حين مجيء البدوي او الوصول الى حل هذه المشكلة ، ولان الفلوس تبقى وديعة ولن يتمكن ابن الراشد من تسديدها في فترة قريبة ، هكذا افترض الدباسي ، لذلك قال ليخطو الى الامام :

- الله يصلحه ابو محمد حطّ قريشاته كلها بالقاع وبطون الناس . . .

واضاف بعد ان ملأ صدره بالهواء فجاء صوته مختلفاً :

- القاع يا جماعة الخير مثل البير ، كل شيء ينحط فيها تبلعه !

لم ينقض اسبوع على هذا الكلام حتى قال الدباسي في المقهى انه سلّف ابن الراشد ، وانه يريد ان يتبايع واياه ، فيترك له القرض ويأخذ الارض غرب المسجد « لان هذه الارض لا تساوي شيئاً ، ولا احد يفكر بشرائها في يوم من الأيام » وابن الراشد الذي وصله هذا الكلام محرفاً ، اكتفى بان هز رأسه ولم يقل شيئاً ، أما حين جاءه رسول من الدباسي مستفسراً ما اذا كان « بحاجة الى الارض غرب المسجد . لان ابو صالح ينوي بناء بيت ، والتلال الغربية بعيدة بالنسبة له . وهو مستعد لان يدفع أي مبلغ تطلبه » حين جاء هذا الرسول وتحدث بهذه الطريقة ، تأكد ابن الراشد ان الارض غرب المسجد لا بد وان تؤخذ منه بطريقة او اخرى ، لكنه لم يكن قادراً على ان يقول نعم او ان يقول لا . قال للرسول :

- ما يأمر به ابو صالح على العين والراس .

واضاف وهو يتنهد ويتطلع الى وجه الرجل :

- اذا التقينا يصير خير .

اعتبر الدباسي ما توصل اليه مرضياً وايجابياً في الوقت الحاضر ، فلم يلح ولم يعد الى ذكر الموضوع . لكن من خلال ما بدأ يظهر على ابن الراشد من قلق وخوف ، بدأت الاخبار والاشاعات تتردد في مقهى ابو اسعد وفي السوق ان عدداً من

المسافرين شاهد هاجم وخاله في عجرة ، ولم يكونا وحدهما هذه المرة ، كان معهما متعب الهذال ذاته وبرفقته عدد من البدو المسلحين ، وذكر بعضهم انهم سمعوا ان متعب الهذال سيصل بين يوم وآخر الى حران ؛ بل وانتشرت اخبار اخرى ان بعض الذين وصلوا حران فعلاً خلال الفترة الأخيرة اقرباء مباشرون لهاجم وانهم جاءوا بقصد الثأر والانتقام .

هل كانت هذه الاخبار تصل لابن الراشد ؟ هل نقلها اليه احد واعترف بذلك ؟ لا احد يستطيع ان يزعم ذلك او ان ينفيه، لكن عبده محمد الذي يسمع بعض ما يقال ، ويظل اغلب الاحيان بعيداً في زاوية المقهى ، يقهقه حين يسمع تساؤلات من هذا النوع ويعلق :

ـ يا جماعة اسألوني انا عن ابن الرشد . . .

يتوقف قليلاً ، يهز رأسه وكأنه يتذكر او يستعرض في مخيلته القصص الكثيرة التي يعرفها . . ويضيف :

ـ ابن الراشد ألعن من ابليس ، يعرف القمحة من زرعها والبيضة من باضها .

وحين يسمع الناس هذا الكلام يتطلع بعضهم في وجوه بعض بتعجب ، كيف يستطيع هذا الانسان معرفة كل شيء ، ومن ينقل اليه ذلك كله ؟ وحين لا يجدون جواباً يزدادون قناعة ان ما وصل اليهم لا بد ان يكون قد وصل الى ابن الراشد ، وربما قبل ان يعرفوا . فاذا سمعوا ان ابن الراشد لم يخرج من بيته في الأيام الأخيرة ، وانه لم يسافر ، كما لم يزر معسكر الاميركان ولم يزر الامير ، رغم انه في حران لم يغادرها . . اذا سمع الناس ذلك ادركوا ان شيئاً جديداً قد حصل ، وما قيل عن وجود هاجم واقربائه في عجرة ، وان متعب الهذال معهم وانهم سيصلون الى حران في اول قافلة ، امر مؤكد ، وهذا ما دفع ابن الراشد الى الاختباء ، كما فعل في المرة السابقة .

وفي الوقت الذي يظهر ابن الراشد في السوق ـ ولم يعد يرى الا ومعه اثنان او ثلاثة من جماعته ـ كان يبدو شديد القلق ، وقد تغير شكله كثيراً : حركته سريعة ، وعيناه شديدتا النبه والفزع ، وكان دائم الالتفات الى هذه الناحية والى تلك ، دون سبب ظاهر وبطريقة عصبية . أما الاصوات المفاجئة ، حتى لو كان احد ينادي على آخر ، او سقوط شيء من الاشياء ، كانت هذه الاصوات تفزعه ، كما حصل في المقهى ،

لما جاء بعد انقطاع طويل ، اذ ما كاد محماس قهوة يسقط من يد بدوي كان يحمله حتى هب ابن الراشد بشكل مفاجيء ، وقد ظهرت على وجهه علامات الخوف واخذ يتلفت . ولما اطمأن تهاوى على كرسيه مثل الشوال ، وقد انحدرت من جبينه حبات العرق البارد الغزير .

لما رأى الناس ابن الراشد على هذه الصورة اصبحوا متأكدين ان شيئاً جديداً بدأ يتكون ويكبر تحت ابصارهم ، ولا بد ان يصبح خطيراً في الأيام القادمة .

ودحام الذي يراقب ذلك كله بعين ذئب ، ويسمع كل ما يقال بدأ يحضر ويستعد ايضاً . فما ان انقضى اسبوعان او ثلاثة اسابيع ، وبدأت هواجس ابن الراشد تظهر واضحة ، ودحام يراها اوضح من غيره ، حتى اخذ ينوب عنه في جميع الاتصالات مع الاميركان ، بما في ذلك متابعة بيت الامارة ودار الامير ، خاصة وان نعيم ابدى ضيقه الشديد نتيجة الحاح ابن الراشد في اعتبار الشركة مسؤولة عن التعويض ، وتهديده بالامتناع عن احضار العمال في المستقبل .

لكي يؤكد دحام دوره الجديد ، ونتيجة اضطراره الى مقابلة الامير بالذات بين فترة واخرى ، فقد قرر ان يتخلى بصورة نهائية عن الاوفرهول والقبعة ، فعاد الى الملابس العربية يلبسها في كل الاوقات . واذا كان دحام قد اثار الدهشة ثم السخرية في بداية الامر ، لما تخلى عن الملابس العربية قبل الآخرين ، وليكون قدوة لهم ، فقد اثارت عودته الى ملابسه القديمة ، ثم تلك العباءة السوداء التي اشتراها على عجل ، استغراباً وتساؤلاً . قال لابن الراشد لما اتخذ القرار ، ولكي يوضح له الامر :

ـ حياتك ، يا ابو محمد ، اغلى عندي من ابوي واخوي . وملابس الاميركان تبين تحتها النملة ، ولا يمكن اخفاء هذا . . .

وحرك المسدس في راحة يده المفتوحة ، وكأنه يختبره او يداعبه .

وحين ابدى ابن الراشد عجبه من وجود المسدس ، ولم يفهم العلاقة بينه وبين الحديث عن ملابس الاميركان ، تطلع بارتياب الى دحام ، وللحظات داخله خوف غامض . قال دحام وهو يبتسم لكي ينتزع الشكوك :

ـ لازم واحد ، في الليل والنهار ، يكون معك ، يا ابو محمد .

حرك ابن الراشد رأسه ولم يجب ، لكن تنهد بحرقة ، خاصة وقد بلغه ما يتناقله

الناس . تابع دحام بثقة :

ـ هذه الملابس ـ وأشار الى ملابسه العربية ـ تخفي عشرة من هذا .

وبطريقة بارعة وسريعة وضع المسدس تحت الحزام وهمس :

ـ والعدية فوقه . . وإبليس ما يعرف ما انت شايل .

ابدى ابن الراشد تفهماً ، وفي محاولة لان يبث الشجاعة في نفسه ويرد على ما يقال في المقهى وفي السوق ، ابتسم وهو يقول من منخريه :

« اليد اللي تمتد لابن الراشد ما خلقها الله . . يا رجل » .

رد دحام لينهي المناقشة :

ـ تحزم للواوي حزام اسد . . وبعدها كل شيء يهون .

وبهذه الطريقة بدأ يظهر دحام في كل وقت وفي كل مكان بملابسه العربية ، والتعليقات التي اثيرت حوله في معسكر العمال اولاً ثم في حران الاميركان بعد ذلك ، ما لبثت ان تراجعت وانتهت ، واخذ الناس يتعودون عليه بهذا الشكل ، ولم يعودوا قادرين على تصوره بشكل آخر .

لم تتغير ملابس دحام وحدها . تغيرت تصرفاته ، واساليبه في التعامل ايضاً ، حتى حركاته بدأت تتغير . اصبحت مشيته سريعة تماماً مثل مشية ابن الراشد حين يكون مشغولاً او لا يريد الدخول في مناقشات طويلة مع الآخرين . وبدأ ينزع عباءته اذا اقتضت ضرورات المساعدة ذلك ، لكي يثبت للعمال القدرة التي يتمتع بها . أما اذا رآه احد يضع طرف ثوبه تحت الحزام فيمكن ان يظن لاول وهلة أنه ابن الراشد ذاته .

كيف تغير بهذه السرعة وبهذا القدر ؟

قال الامير لما جاءه دحام اول مرة يعرض عليه وضع قضبان حديدية على نوافذ الطابق السفلي من بيت الامارة ، وكان لديه نائبه والدباسي واثنان آخران :

ـ ها . . يا وليدي تريد تدفنا وحنا بعد ما متنا ؟

فلما ظهر الارتباك على وجه دحام ولم يستطع ان يجيب بكلمة ، اضاف الامير وهو يضحك :

ـ قل لجماعتك الحديد يوفرونه . . لغيرنا . . .

واضاف وقد تغيرت لهجته :

ـ وقل لابن الراشد غيباته طالت ولازم نشوفه .

وبعد ان خرج دحام تساءل الامير باستغراب :

ـ ها . . يا جماعة الخير . . . ما هو هذا العوج اللي كان معبي روحه ببنطرون؟

وحين ضحك الموجودون وهزوا رؤوسهم للتأكيد رد الامير وهو يضحك ويحرك يده بسخرية :

ـ سبحان الله . . صار يحكي بالحديد والخشب ، اللي يصير واللي ما يصير .

قال الدباسي بمكر :

ـ هذا وكيل ابن الراشد ، يا طويل العمر ، وهذا العوج اللي ما يعجبك ، ابن الراشد ما يشيل حجر الا بشوره ، بموافقته . .

قلب الامير شفته وحرك يده ، اضاف الدباسي .

ـ خبل . . لكن قلبه طيب .

ودار الحديث مرة اخرى حول ابن الراشد ، والدباسي الذي كان يتكلم بطريقة معينة في المقهى ، امام الآخرين ، حول ما سمعه من وجود هاجم وخاله في عجرة ، ووجود المسلحين ، وهذا مايمنع ابن الراشد من الخروج ، فإنه امام الامير يؤكد ان امتناع ابن الراشد نتيجة هواجس وليس نتيجة مخاوف ، وقد يكون بسبب المرض .

وفي معسكر العمال ايضاً لم يغب طيف ابن الراشد يوماً واحداً . فالاحاديث التي تروى ، والاخبار التي تنتشر في حران العرب ، في السوق ، وفي المقهى ، لا تلبث ان تنتقل بسرعة الى المعسكر . وفي رحلتها القصيرة من مكان الى آخر تضاف اليها تفاصيل كثيرة ويدخلها تحريف كبير . فعدد من العمال يؤكد ان ابن الراشد منذ وصول هاجم وخاله اصيب بحالة من الخوف بحيث اصبح يبول على ثيابه ، ولهذا السبب امتنع عن مغادرة بيته . ويقسم هؤلاء الذين يروون هذه القصة انهم لم يستطيعوا الجلوس بقربه في المقهى ، لان رائحته كانت رائحة جثة . كانت تفوح منه روائح البول مختلطة بالعطور والرطوبة فتتولد في رؤوس القريبين حالة من الصداع ، وقد سأل احد الموجودين ابا اسعد بصوت عالٍ ما اذا كان عنده بخور او عطور .

ويؤكد غير هؤلاء ان ابن الراشد اخذ يتنكر بملابس متسولين ، وروى اثنان انهما شاهداه وقد طلى وجهه بالسواد تماماً! وقال آخرون انهم رأوه مرة في الليل المتأخر

يضع قبعة على رأسه فوق الغترة في محاولة للتخفي .

واذا كان التحريف او الخيال قد داخل الكثير من هذه الروايات ، فان الشيء المؤكد هو ان الخوف قد دخل قلب ابن الراشد . واكد ابن نفاع ان : « الخوف لا يخرج من الرجل الا اذا خرج مزبان من القبر » أما الحديث عن الكي والعصام « فانه يفيد هاجم ولا يفيد ابن الراشد » ، حسب قول ابن نفاع ايضاً .

واذا جرى الحديث عن البدو المسلحين الذين سينتقمون هاجم ويثأرون له ولاخيه مزبان ، فان جميع العمال متأكدون ان هذا سيجري اليوم او غداً ، ويخفضون اصواتهم وهم يضيفون ان ابن هذال والبدو الذين معه اذا جاءوا فسوف تهيأ لهم المنامة ، وسوف يتم اخفاؤهم في امكنة لا يستطيع احد الوصول اليها ، وبالتالي لن يعرف ابن الراشد .

أما دحام الذي كان يختلف حوله العمال ، ويميزون بينه وبين ابن الراشد ، فما لبث ان اصبح ابن الراشد ذاته ، وحين جاء بملابسه العربية الى معسكر العمال اول مرة قال عبد الله الزامل وهو يضرب كفاً بكف :

ـ الله . . الله . . راح منير وجاءنا مناور !

وضحك بصوت عالٍ وادار ظهره وقال يخاطب الذين حوله قبل ان يصل دحام .

ـ خذوا بالكم يا جماعة الخير . مثل حمير ابن غيتار : المطلق اخبث من المربوط !

وحين بدأ دحام يطلب من العمال بعض الطلبات ، واخذ يوجههم ، كما كان يفعل في كثير من الحالات ، همس عبدالله الزامل بأذن أقرب الناس إليه ، وضحك الاثنان عالياً . فبدا الانفعال على وجه دحام ، لكنه تحول بسرعة الى الجهة الثانية وقال بطريقة قاسية ، لكن يريد من ابن الزامل ان يسمع :

ـ العاقل . . وابن الحلال ما يغتر ولا يتغير .

توقف لحظة ، نظر في وجوه الجميع ثم اضاف :

ـ ولازم تعرفون : البارح ما هو مثل اليوم ، واليوم ما هو مثل باكر . . ونشوف .

وبعد احاديث طويلة ومتشعبة حول ورديات العمل والبركسات والعمال الجدد غادر دحام المعسكر . وحين سأل العمال عبد الله الزامل لماذا ضحك ، وماذا قال اجاب :

ـ مثل ما قال الشيخ : البارح ما هو مثل اليوم . . واليوم ما هو مثل اللي وراه . . ونشوف

وهز رأسه عدة مرات ثم تابع بحقد :

ـ الخبل يظن انا ما نعرفه . . مثل الاعمى يخرأ فوق السطح ويظن الناس غافلين !

ولما الح العمال يسألون ابن الزامل ، اجاب الذي شاركه الضحك :

ـ سألني : هذا الشيخ اللي نشوف هو دحامنا ، صاحبنا اللي نعرفه ؟ قلت : من اكل تمرهم يقوم بامرهم . . وهذا ابن الراشد الثاني .

* * *

خلال الفترة ذاتها ، واثناء زيارة من زيارات ابن الراشد القليلة للمقهى ، بدا اصفر الوجه مضطرب الحركات وكانت نظراته زائغة ، وقد ولّد مجيئه مواقف متناقضة الى اقصى حد واثار من العطف بمقدار ما اثار من التساؤل . أما محاولات بعض الموجودين في فتح حديث معه ، فقد قابلها بابتسامة حزينة واجابات قصيرة مبتورة .

واذا كان مجيء ابن الراشد الى المقهى ، وجلوسه هناك وقتاً غير قصير ، ما كان يثير اية احاديث او تعليقات ذات اهمية ، فان ما حصل في احدى اللحظات قد اثار الاهتمام الى اقصى حد ، وعلق في ذاكرة الناس فترة طويلة . فما ان صرخ ابو اسعد بانفعال على الصبي الذي يساعده في المقهى :

ـ البدوي . . ناد على البدوي .

ما ان سمع ابن الراشد ذلك النداء حتى هب كالمجنون ، لم يقف وحده وقف الآخرون الذين كانوا معه ، واخذ ينظر الى الجهة التي ركض الصبي نحوها ، وهو يشير بيديه ويصدر اوامر قصيرة ، لكن ما ان عاد الصبي ومعه ذلك البدوي ثم الحديث الذي جرى بينه وبين ابو اسعد ، حتى جلس البدوي على الارض وفتح صرة صغيرة ، اخرج منها قطعة نقدية اعطاها لأبو اسعد . . ما كاد هذا يجري ويراه ابن الراشد ، كما رآه كل من كان في المقهى ، حتى احس الجميع ، واولهم ابن الراشد ، بنوع من الهبوط الاقرب الى الخجل ، الامر الذي جعله يخرج من المقهى بعصبية ، لكن عينيه لم تتحولا عن ذلك البدوي لحظة واحدة .

وهذه القصة ما ان وصلت الى معسكر العمال والى مسامع عبد الله الزامل بالذات حتى استفسر عدة مرات عن الكلمات التي قالها ابو اسعد . وكيف قالها ، ثم هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم ، ولم يفهم احد لماذا فعل ذلك ! .

الصيف مقيم مستمر ، ولذلك فهو بنظر الجميع اقسى صيف مر منذ سنين لا يتذكرونها . الأيام تطول والليالي تقصر ، مع تزايد لهب الشمس وقسوتها ، وتأكد الكثيرون ان هذا الصيف سيهلك البشر والدواب ويقضي على كل شيء قبل ان ينتهي . وابن نفاع لا يتوقف ولا يهدأ يبشّر الناس بنوع من الفرح اقرب الى الشماتة ان العفاريت سوف تنفر من بين ارجلهم كما تنفر الفئران ، وان جهنم التي تغلي تحت الأرض ، سوف تنتفض في يوم قريب الى خارجها فتحرق كل شيء . والناس الذين تضيق صدورهم من الحرارة والرطوبة ، ثم من حديث ابن نفاع ، فيعافون الأكل ، ويصابون بالارتخاء والشرود والنسيان ، فلا يتذكرون الا الساعة التي يعيشونها ، ولا يرون الا ما يمر أمام اعينهم من احداث واشياء .

وحران التي انشغلت وتغيرت منذ الساعة التي وصل اليها الاميركيون ، عرفت كيف تشغل الناس ، فتجعلهم يركضون كالكلاب ، لا يعرفون الى اين او لماذا ، واغرقت الجميع في هموم لم يتصوروا انهم سيتعرضون لها . . ومع ذلك فان حران لم تكفّ يوماً واحداً عن ان تفاجيء نفسها وتفاجيء الآخرين ، المقيمين والذين جاءوا في الشهور والأيام الأخيرة .

ففي السوق ، حيث يتكوم البشر الذين جاءوا مع القوافل ، او الذين قذفتهم البواخر ، لا يخلو يوم من الأيام من عشرات الاحداث الصغيرة والكبيرة ، من المنازعات الى المساومات ، الى عمليات البيع والشراء التي لا تنتهي ، اضافة الى الدكاكين الخشبية وبيوت الطين التي لا يُعرف متى شيدت ومن شيدها . ولأي شيء ستخصص . وفي المسجد حيث يخلو الانسان الى ربه ، لم يتوقف الدعاء ولم تتوقف الشكوى . ومع الدعاء والشكوى كان الناس يتبادلون الاخبار والاشاعات ، ويهزون رؤوسهم واكتافهم انتظاراً للأيام القادمة .

أما معسكر العمال الذي يعرف اياماً هادئة رضية في الشتاء ، والشهور الأولى من الربيع ، فانه يصبح في الصيف جحيماً لا يحتمله احد . حتى الاميركان الذين يبدون متشددين قساة ، وكذلك رجال الامير ورجال ادارة الافراد ، فما تكاد الأيام الاولى من حزيران تبدأ حتى تقل زياراتهم ، ثم تنقطع ، ونتيجة ذلك ترتخي قبضة رجال الامير وادارة الافراد ، فلا يُعرف ما اذا كانت قائمة ومستمرة ام انها انتهت الى الابد . أما حين يسافر اكثر الاميركيين في اجازة طويلة ، وتكون عادة خلال شهري تموز وآب ، فانهم في الأيام الأخيرة قبل السفر يبالغون في التعبير عن مشاعر الرضا والغضب حتى انهم يتصرفون كالأطفال .

البركسات التي كانت لها ميزة في الصيف الماضي ، حيث كانت تمنع اشعة الشمس من الوصول مباشرة ، اصبحت هذه السنة خانقة الى درجة ان لا احد يستطيع ان يبقى فيها اكثر من دقائق قليلة ، الفترة التي تكفي لاستخراج حاجة من الحاجات ، بعد ان تحولت الى مجرد مستودعات ، اذ وضعت فيها الملابس والاحذية ومعدات العمل ، اضافة الى كميات من المؤونة ، وحين تختلط روائح هذه الاشياء معاً ، وفي جو من الحرارة القاسية والرطوبة فعندئذٍ لا يمكن للانسان ان يبقى فيها ، واذا اصرّ بعض العمال على تنحية الاكياس والمعدات من الممرات الطويلة لتأمين مكان للقيلولة ، وهرباً من الشمس الحارقة ، ومن الامكنة الضيقة تحت الخيام او الى جانبها ، ان الذين يفعلون ذلك ، ويرمون انفسهم على الأرض الاسمنتية داخل البركسات ، لا يلبثون ان يخرجوا شاحبي الوجوه ، غارقين في العرق ، وشديدي الخوف والعصبية ، لأن كثيرين منهم لامست اجسادهم الحيات ، او لدغتهم عقارب صغيرة صفراء ، زحفت اليهم من تحت الاسرة ؛ والذين نجوا من اللدغ فلا

بد ان تكون حشرات من انواع لا يعرفونها قد سببت لهم اوراماً وحكة في أماكن عديدة . أما الفئران السوداء الكبيرة فقد اصبحت البركسات مأواها خلال ساعات النهار كلها . فاذا جاء الليل زحفت لتنتشر في كل مكان ، بين الخيام ، وقرب البراميل ، وكثيرا ما خرجت من المراحيض ايضاً . كانت تقفز قفزات سريعة ذكية ، حتى اذا ابتعدت مسافة كافية توقفت ونظرت الى الخلف . نظرت الى الذين افزعوها . واغلب العمال يقولون انها كانت تنظر اليهم وتضحك . . واكد هؤلاء انهم كانوا يسمعون ضحكها الذي يشبه ضحك الاطفال !

لقد ادرك الاميركيون بالحدس ، او ربما نتيجة اسباب اخرى ، انه اذا امكنت السيطرة على العمال وترويضهم في الجو البارد او المعتدل فانهم يصبحون وحوشاً كاسرة اذا دخل الصيف ، وتزداد وحشيتهم ما ازدادت الحرارة . ولذلك يجب ان يقترب منهم الانسان بمقدار ، وان يبتعد عنهم بمقدار اكبر ، تماماً مثل سمك القرش اذ كلما اقترب لوجود الدم فانه يصبح من الصعب تماماً ان يهدأ او يروض او حتى ان يقضى عليه .

وابنية البركسات التي تلقت الضربات والاهانة المباشرة في الصيف الفائت ، وعرف الاميركان بذلك وضحكوا ونظروا باستغراب ، ففي هذا الصيف لم يعترض الاميركيون وكذا رجال الامير ، كما لم تعترض الادارة حين فرد العمال حاجاتهم وفراشهم في الهواء ، خارج البركسات ، في بداية الربيع ، أما في شهر مايس ، حين اشتدت الحرارة ، وطالب العمال بالخيام فقد وُعدوا ان تُوفر لهم ، دون مناقشات طويلة ، وقد حصل ذلك فعلاً ، لكن مع بعض التأخير ، ولجأ كثير من العمال الى البحث عن اسباب للتحدي المباشر والاحتكاك من اجل خلق المشاكل والعراك .

الاميركيون الذين سافروا هذا الصيف اكثر من الذين بقوا . سافروا فوجاً بعد آخر . وما كاد الصيف الكبير يبدأ حتى احس العمال ان الاميركيين الباقين ليسوا مثل الذين رحلوا ، بل وليسوا مثلما كانوا في اوقات اخرى . فالرقة التي ميزت تصرفات المسافرين ، خاصة في الأيام الأخيرة ، والفرح الذي ارتسم على وجوههم وهم يستعدون . واخيراً وهم يمدون ايديهم بقبضات قوية ويسلمون بحرارة ، جعلت الجميع يشعرون ان الذين بقوا اقرب الى الخشونة والعداء . اذ بعد ان اعيد توزيع العمال ، نتيجة توقف بعض الاعمال ، واغلاق بعض الاقسام ، بدا كل شيء

مرتبكاً ومؤقتاً ، مثلما كان الامر في الأيام الاولى .

كان العمال يتحركون بحذر ، وكل حركة من حركاتهم ، مهما بدت دقيقة حذرة ، تستوجب التوبيخ والصراخ من هؤلاء الرؤساء الذين يعلو صراخهم وضجيجهم ساعة بعد ساعة ، ويتراكضون في بعض الحالات بغضب ، مع كلمات كثيرة ينثرونها هنا وهناك ، ولا يحتاج الانسان الى ذكاء كبير ليعرف معنى هذه الكلمات ! والعمال الذين ينظرون بعيون متسائلة عما يجب فعله لارضاء هؤلاء الرؤساء ، يردون على الشتائم بشتائم اقسى منها ، مع نظرات التحدي والغضب . لكن لا شيء يستقيم ، ولا شيء ينتهي الى ما يريده هؤلاء الاميركيون الأجلاف .

وبتقدم ساعات النهار تزداد الحالة سوءاً والعلاقات توتراً وعداء . حتى اذا حان وقت العصر ، ساعة انصراف العمال ، يكون كل شيء قد بلغ نهايته . فالمراقبون الذين يبدون نشيطين في الصباح ، ويركضون اكثر مما يتطلب العمل ، يصبحون في نهاية اليوم اكثر ضيقاً من الذين عملوا بايديهم ، فتصبح اصواتهم مبحوحة ، خافتة ، ونظراتهم خابية ، ويصبح اي سؤال او تصرف يثيرهم الى اقصى حد . والرؤساء الاميركيون الذين كانوا في ساعات الصباح مثل الديوك ، حين ينتقلون من مكان الى آخر بسرعة ونشاط ، لا يلبثون ان يشعروا بالتعب والاحباط فتضعف حركتهم ويتراجع حماسهم ، أما السنتهم التي كانت لا تكف عن الشتيمة والصراخ ، فانها في نهاية اليوم تندلق الى الخارج ، كالكلاب العطشى ، او تنبلع الى الداخل وكأنها انزلقتْ الى اجوافهم ، حتى الاسئلة التي يوجهها العمال او المراقبون فانهم يجيبون عنها بعيونهم ، او بحركات رخوة من ايديهم ، ويبدو الاميركيون في مثل هذا الوقت وكأنهم يستعجلون نهاية تلك الساعات التي تحدد بداية الدوام ونهايته .

فاذا انتهى الدوام وانشق الجمع الى جزءين ، كما تنشق السيول في المنحدرات ، واحد صغير والآخر كبير ، فذهب الاميركان الى معسكرهم ، وعاد العمال العرب الى معسكرهم ، فان الاميركيين يغرقون في برك السباحة ، حيث تصل اصوات ضجتهم الى البركسات القريبة من الاسلاك ، او يخيم الصمت فيقدر العمال ان الاميركان دخلوا الى تلك الغرف المبردة وراء الستائر التي تصدّ كل شيء : ضوء

الشمس والغبار والذباب والعرب .

أما حين يصل العمال الى معسكرهم ، فهناك ينتظرهم تعب آخر ، وتنتظرهم هموم اخرى : تحضير الأكل ، غسل الملابس ، تنظيف الخيام ، جلب الماء ، ويجب ان يصل بعضهم الى السوق لجلب الخبز والمعلبات وبقايا اللحم ، بعد ان يكون اللحم الجيد قد بيع من ساعات الصباح الأولى .

كل امر ، في كل خطوة ، يثير متاعب وخلافات لا تنتهي . ورغم ان الكثيرين قد اتفقوا على القيام بهذه الواجبات منذ وقت مبكر ، منذ بداية الاسبوع او قبل ذلك او بعده ، فان كل شيء يعرض من جديد للنقاش ثم الاختلاف . فاذا تعبوا او سئموا من هذا الحديث الذي كرروه عشرات المرات ، انصرفوا بصمت ، دون ان يعترف واحد للآخر ، الى الاعمال يؤدونها بكثير من السأم والكراهية .

لقد تكرر هذا مرات لا نهاية لها . وعلى هذا المنوال كانت تجري الأمور اغلب الأيام . فاذا دخل الليل يبدأ نوع من الارتخاء اقرب الى الخدر يسري في الاجساد فيمتص التعب شيئاً بعد شيء ، ومع السيجارة الاولى التي تعقب العشاء ، يحس الرجال بنوع من الراحة ، فتتغير طباعهم وتصرفاتهم ، حتى اصواتهم تكتسب ذلك الجرس الودود الذي يشعر الآخرين بقرابة من نوع معين . أما اذا دارت الاحاديث فانها تكون في البداية اقرب الى المزاح او الاخبار ، حيث تعكس حياة النهار نفسها . فاذا ذكر احد الرؤساء او المراقبين ، يتلفت المتحدث اكثر من مرة ، لئلا يكون احد من اصدقاء هؤلاء موجوداً ، فاذا اطمأن بدأت التعليقات ، والتي تتخللها الشتائم ، ثم تلك الاوصاف التي تصبح وحدها المتداولة .

لا يعرف العمال اسم هاملتون ، انه ابو لهب ، وقد انتقل هذا الاسم الى حران العرب ذاتها ، ويقال ان هاملتون نفسه يعرف ذلك . أما جيمس الذي كان رئيس فريق تعميق البحر فكان يُسمّى ابو جنيب ؛ ورئيس المعسكر اطلق عليه العمال نزّي الاعوج ، لأنه كثيراً ما كان يقف عند بوابة المعسكر وينظر الى الآثار على الأرض والى اقدام الداخلين والخارجين ، وكأنه يبحث عن اثر ما !

لا تقتصر الاوصاف على الاميركيين ، فنائب الامير اسمه البرميل ، وان كان العمال يتناقلون هذا اللقب بخفاء وحذر ، وقد اطلقوه عليه لسمنته ، ولأنه كان

يحرص على أن يملأ العمال البراميل ، أثناء بناء بيت الامارة ، قبل أن ينصرفوا ، أما صالح الدباسي فقد كان اسمه صالح المطوّط ، ربما لارتفاع صوته أثناء الحديث ، أو للطريقة الرخوة التي ينطق بها بعض الحروف والكلمات .

كانت احاديث اول الليل اقرب الى المزاح والتورية ، أما اذا امتدت مع تقدم الليل وظهور القمر او التماع النجوم فانها ترحل الى الاماكن الاخرى والى الفترات الماضية . واذا كان لكل انسان ماضٍ ، فان الذين يحسنون الحديث عن هذه الامكنة وتلك الفترات قليلون ، وهؤلاء كانوا هم عصب المعسكر واهم افراده ، اذ حول هؤلاء يتجمع العمال وتبدأ الأحاديث . ومع كل قصة جديدة او تعليق طريف او ذكرى ترحل القلوب والعقول . فيحس الكثيرون في هذا المكان انهم بعيدون وانهم يتعبون دون جدوى ، فيمتلئون بالحزن والندم ، ويشعرون اكثر من ذلك انهم وحيدون ومنسيون . ولما يبلغ الشعور هذا الحد لا بد ان يرتفع صوت بالغناء ، فيرحل الرجال مرة اخرى الى اماكن بعيدة ، الى الذكريات والاحلام معاً ، لأن الشجي يجر الشجي . فالغناء الذي يبدأ ناعماً خجولاً لا يلبث ان يتحول شيئاً فشيئاً الى ان يصبح ندباً شجياً حزيناً للنفس والحياة ولكل شيء . وهذا الغناء الذي تخصص فيه عدد محدود جداً من الافراد ، لا يأتي دائماً او كما يريد الآخرون ، اذ لا بد ان تشتعل نفس الذي يغني ، ولا بد ان ينصهر قبل ان يصل الى تلك اللحظة التي يندفع بها بقوة لكي يطغى صوته على جميع الاصوات ، ولكي يصرخ في جوف الظلمة . فيقول اشياء ما كان هو نفسه يتصور انه سيقولها ، لكن الالم الذي يحز في القلب كالسكين لا يجعل لاحد خياراً . ولا يجعل الانسان يقرر بوعي او ارادة .

هكذا كانت تجري الليالي في حران . لكن حران التي تتغير كل يوم ، والتي تحمل جديداً كل يوم ، لا تترك لليلة ان تكون مثل ليلة اخرى ، ولذلك كان هناك دائماً شيء جديد .

لا شيء في حران ينتظر ، ويبقى ثابتاً لا يتغير ، البشر والاشياء . حتى الطبيعة ، بما فيها من ماء وهواء تتغير وتتبدل . فالناس الذين انشغلوا اياماً بهاجم ، فحزنوا وراقبوا وانتظروا ، ثم تساءلوا ماذا سيحصل بعد ان سافر بشكل مفاجيء ، لم تلبث الحياة ، بتدفقها الذي لا يتوقف ، ان انستهم الرجل ، وحتى اذا تذكروه في سهرة من السهرات فان ذكريات اخرى تندفع بقوة فتطغى على هذه الذكرى او تجعل لاحداث اخرى بريقاً يخطف ابصارهم وقلوبهم .

وقبله عبده محمد الذي شغل الناس وقتاً من الاوقات ما لبث ان انزوى في فرنه ، فما عاد احد ليتذكره او ليتحدث عنه الا كذكرى قديمة موغلة في القدم .

حتى ابن الراشد الذي شغل الناس فترة طويلة من الوقت باخباره وتحركاته ، وكان شديد الحضور باقامته وسفره ، يراه الناس يقفز مثل قط من مكان لآخر ، يذرع الأرض ، يتأمل الابنية ، يقلب الاخشاب والحديد ، يجمع اشياء لا احد يتصور انها يمكن ان تجمع .. ابن الراشد ذاته ، بعد الذي حصل ، وتحدث الناس كثيراً وانتظروا ، ما لبث ان حمل الجميع على نسيانه ، او على الاقل حملهم على الا يتذكروه مثلما كانوا يفعلون من قبل . فالعزلة التي فرضها على نفسه ، وحالة

الاكتئاب التي اصطرته للبقاء اياماً متوالية دون ان يرى احداً او يراه احد ، هذه العزلة غيبته تماماً ، فاذا عادوا الى تذكره فلانه خرج الى مقهى ابو اسعد في عصرية من العصاري ، او تمشى على شاطىء البحر ومعه اثنان او ثلاثة من جماعته . لقد تغير كثيراً في هذه الفترة ، فالمشية السريعة انتهت لتحل مكانها مشية ثقيلة حذرة ، والجسم القوي المملوء اصبح جسماً متعباً اميل الى النحول ، ولولا تلك النظرات القلقة السريعة التي ظلت تميزه مثلما كان من قبل لانكره اقرب الناس اليه .

البواخر تحمل رجالاً يزيد عددهم كل يوم . الحاجات تتزايد ويتسارع وصولها ويُحمل اكثرها الى معسكر الاميركان . الابنية تقوم هنا وهناك وترتفع يوماً بعد آخر . الدكاكين تتراصّ وتتزاحم ، الناس يتراكضون ويصرخون وينادون ، وذاكرة الناس يعاد ترتيبها بصورة مستمرة . والقلق والهم يتزايدان لأن احداً لا يعرف ماذا يخبىء الغد .

حران العرب التي انتبذت مكاناً قصياً في محاولة لأن تبتعد وتهرب مما يراد لها ، لم تستطع ان تقاوم طويلاً ، فالابنية الطينية التي تتراكم بجانب بعضها ، فتسد الطرقات او تجعلها ملتوية شديدة التعرج ، لم تعد قادرة على استيعاب الناس ، ولم يعد الناس راغبين او قانعين ان يبقوا مثلما كانو ا ، فانتشرت ابنية جديدة في امكنة عديدة ومتفرقة ، واصبحت مثل الدمامل في اليد او مثل الرقع في ثوب كبير قديم . والسوق الذي بدأ بثلاث دكاكين ، ما لبث ان اصبح شيئاً عجيباً . كانت الدكاكين الجديدة تقوم كل يوم ، دكاكين من كل شكل ومن كل حجم : ابنية قوية راسخة واخرى عبارة عن صناديق خشبية كبيرة تقوم في التو واللحظة ، وقد اصبح دحام متعهداً لهذا النوع من الدكاكين ، اذ كان يجلب الصناديق الخشبية الكبيرة من معسكر الاميركان ، ومن يريد دكاناً من هذا النوع يلتزم بتقديم البضاعة والقيام بالعمل لقاء « ان يجد دكاناً جاهزةً بالأرض والبناء . . وبعد ذلك الربح مناصفة » وهذا النوع الذي كان يرضي الكثيرين ويلبي حاجات كثيرة اصبح ينتشر في كل الامكنة : في السوق الرئيسي ، قرب المسجد ، بجانب معسكر العمال . وفي حران العرب ذاتها ، على التلال الغربية ، اقيمت ايضاً دكاكين كثيرة من هذا النوع .

إلى جانب هذا النوع من الدكاكين بدأت تنشأ بيوت مماثلة ، وان كانت اكثر اتساعاً اغلب الاحيان ، وتتناولها تحسينات يجريها كل واحد حسب ما يتخيله اكثر

جمالاً واقدر على تلبية حاجاته . وكانت هذه البيوت تتوزع في كل مكان ، الى جانب البحر ، بين الدكاكين ، على سفوح التلال . بكلمة اخرى في كل بقعة ارض فارغة تتسع لبيت من هذه البيوت،ولا يعترض احد على ذلك اعتراضاً جدياً .

ومثلما كان يقوم هذا النوع من الدكاكين والبيوت . فان نوعاً آخر من البيوت المبنية من الحجر الرمادي الاقرب الى السواد ، الذي احسن قطعه وتجهيزه ، بدأ يرتفع ايضاً . كان اول هذه البيوت واكبرها بيت عبد الله السعد ، ثم تلاه الدباسي وقد اقام بيته في تلك الفسحة من الأرض غرب المسجد ، بعد ان وافق ابن الراشد على التنازل عنها ، وجرى اقرار ذلك أمام الامير . ولم يتردد آخرون مثل السلامي والمرزوق وغيرهم من تشييد بيوت من نفس النوع ، وان ظلت اصغر واكثر تواضعاً .

دار الامارة وبيت الامير انتهى تشييدهما اواخر الصيف وبداية الخريف ، لكن الامير استمر مقيماً في الخيام التي رفعت من أماكنها ونصبت وسط الساحة الكبيرة التي احيطت بالاسلاك ، والتي تحدد دار الامارة وبيت الامير معاً . وكانت الحجة التي استند اليها الامير في تأخير الانتقال « رائحة الاصباغ التي تدوخ الرأس وتعمي العيون » اضافة الى « ان النوم تحت السماء احسن من ان يحبس الانسان روحه في هذه القبور » كما قال واكد لأكثر الذين زاروه او سألوه .

ومثلما جاء عبد الله السعد ومحمد السيف ليستقرا في حران ، فان اثنين آخرين وصلا ورافق مجيئهما الكثير من الاهتمام في هذه الفترة . جاء الأول مع ابراهيم السعد من البصرة ، ولم يتوقع عبد الله السعد نفسه ان يجيء ، لأن محيي الدين النقيب ، شاه بندر التجار ، كما كان يطلق عليه في البصرة ، لعظم تجارته واتساعها ، ولأن له علاقات مع الهند والسند ومنتشرة . جاء محيي الدين النقيب مستطلعاً ثم ما لبث ان قرر البقاء وبقي . أما الثاني فكان حسن رضائي ، ورافق مجيئه الكثير من الحفاوة والاهتمام ايضاً ، وقد جاء على باخرة ليست مثل بواخر الاميركان بحجمها ، لكنها ليست مثل تلك البواخر الفقيرة البائسة التي كانت تحمل حسرات المسافرين التائهين . جاء حسن رضائي بابهة وفخامة . ورغم ان احداً لم يكن يعرفه في حران ، الا انه قام بزيارة الامير فور وصوله ، ولقد جرى الحديث اثناء الزيارة حول امور كثيرة . أما في تفسير مجيئه فقد قال انه بدافع التعرف ، ولا مانع

لديه من تقديم اي نوع من المساعدة تحتاجها حران ، اليوم او في اي يوم آخر » . أما الهدية التي قدمها للامير ، وهي عبارة عن منظار مقرب ، فقد ابدى الامير تردداً في قبولها اول الأمر ، لكن ما لبث ان سُرّ بها سروراً كبيراً حين وضع المنظار على عينيه واخذ ينظر في هذا الاتجاه وفي ذاك الاتجاه وبدأ يشير بيده ويضحك فرحاً ودهشة !

لم يبق حسن رضائي خلال هذه الزيارة الى حران سوى ثلاثة ايام « لأن اشغاله ومواعيده لا تسمح له بأكثر من ذلك ، على الرغم من سروره ورغبته في البقاء واعتزازه بالتعرف على سمو الامير » . أما عرض الامير في ان يكون ضيفه وينزل في دار الامارة فقد اعتذر عنه حسن رضائي بتهذيب كبير ، وقال انه سيقضي اغلب الوقت « في رحاب صاحب السمو وبين يديه ، لكن الفراش الذي تعوّد عليه ، نتيجة المرض ، يلزمه ان يعود الى الباخرة » . وفي نطاق تبرير هذا الموقف واقناع الامير بالموافقة على هذا الاقتراح ، قال ان وجوده على ظهر الباخرة وباستعمال كل منهما منظاره المقرّب ، سوف يجريان حديثاً طويلاً وشائقاً ، كما يفعل عادة البحارة على ظهور السفن ، وراهن ان الامير سيسر من هذه الطريقة في الحوار ، وانه سيتقنها بسهولة .

لقد تحدث الناس كثيراً عن هذا الرجل الذي لا يعرفون من اين اتى ، وكيف استطاع بسهولة ان يصل الى قلب الامير ، وكيف انه تحدث معه في أمور شتى ، وكان الحديث يجري بينهما ، في بعض الاحيان ، وحين يفترقان ، من هذه المسافة الكبيرة !

حين سمع ابن نفاع بهذا الذي يتناقله الناس عن المنظار المقرب ، الذي يتيح لمن يقف على شاطىء البحر ان يرى القمحة في ابعد مكان من التلال الغربية ، وكيف يمكن النظر الى النجوم في الليل وكأنها فوانيس معلقة فوق الرؤوس ، حين سمع ابن نفاع بهذا صرخ بغضب :

ـ صارت الدنيا بآخرتها . .وما عاد الانسان يخاف من كتاب وحساب او من رب العباد .

فلما سأله بعض الناس لماذا يفكر بهذه الطريقة هز رأسه بحزن يبلغ حد الاسى وأجاب :

ـ منذ ان جاء الاميركان جاءت معهم العفاريت والمعاصي والمصائب ، ولا احد

يعرف ماذا سيحصل في الأيام الآتية . . .

يصمت قليلاً ، ويخرج صوته متهدجاً :

ـ اللهم يا رب ، يا مالك الملك ، يا قوي ، يا رحيم . . امتني على دين آبائي واجدادي ، على دين نبينا محمد ، ولا تجعلني عاصياً كما عصى قومي . اسمعني يا ربي واستجب لدعائي .

وفي غمرة الدعاء والابتهال يقول رجل لآخر :

ـ اترك الشايب هالحين . . الباخرة وصلت .

ـ اية باخرة ؟

ـ مثل اللي تذكرها . . .

وما يكاد خبر باخرة الحريم يصل الى عبده محمد حتى يجنّ ، يريد ان يخلص من الاقراص التي بين يديه ، ان يخرج من الفرن ومن جلده ومن حران كلها . تبدو الاقراص أمامه اكثر من اية مرة سابقة ، كثيرة الى درجة انه لم ير بعددها يوماً من الأيام ؛ ليست كثيرة فقط ، ان النار تعاديه ، لا تستجيب له ، والا لماذا تبقى الارغفة صماء هكذا ؟ لماذا لا تنضج وتخرج بسرعة ؟ والباخرة ، هناك ، هل تنتظره ؟ لماذا يظل يحترق في هذا الجحيم ، والآخرون ، هناك ، يجلسون برخاوة على الشاطىء ، يدلون ارجلهم في الماء وعيونهم تحلق ، ترافق ذلك المركب الصغير في رحلته الرائعة ، فاذا عاد بسرب من الحسان ظلت العيون تتابع هذه الرحلة الخطرة اللذيذة حتى اللحظات الأخيرة من الماء ، فاذا طارت طيور القطا وحطت على الشاطىء ، بتلك الضحكات الصاخبة ، بذلك الصوت الذي يشبه البلابل ، وظهرت تلك الاجساد البيضاء . . البيضاء . . البيضاء الرطبة ، القريبة ، الشهية ، التي تتدافع وكأنها غزلان حطت على غدير ، وحاصرتها الايدي وتابعتها العيون . . يا الله هل يمكن ان يحصل كل هذا وهو بعيد . . بعيد . . بعيد ؟ وماذا اذا طال انتظار الناس لكي يحصلوا على الارغفة التي يحتاجونها من اجل ان يذهب عبده ويكون هناك مثله مثل الآخرين ؟ وحتى لو لم يأكل الناس يوماً واحداً . . هل يتغير شيء في هذا الكون ؟

الجميع ضد عبده محمد . هذا شيء مؤكد يعرفه اكثر من اي انسان آخر . انه

يطعم الجميع . يقدم اليهم الارغفة كل يوم ، يحرص الى اقصى حد على ان يقدم احسن الارغفة واكثرها نضجا ، لكن لا احد ، نعم ، لا احد ، ينظر اليه ، يتعاطف معه ، يعرف اي حريق يشتعل في قلبه ، خاصة الآن ، وقد علم بوصول الباخرة . لماذا لا يأتون الآن ، في هذه اللحظة ، من اجل اخذ ارغفتهم ؟ اين ذهبوا ولماذا تركوه وحيداً هكذا ؟

حين استخرج عبده الارغفة ، رغيفاً ثم آخر ووجدها قد احترقت بالكامل ، تطلع الى الارغفة الثلاثة او الاربعة الباقية وقال في نفسه « لقد احترقت قبل ان تحترق » ولم يستطع ان يواصل . .

ذهب الى شاطىء البحر ، الى نفس المكان الذي وقف فيه السنة الماضية .

اقترب اكثر . اقترب الى اقصى حد ، لامس وجهه الاسلاك . لم يستطع ان يرى من هذا المكان الا باخرة بعيدة بيضاء . حتى العلم الذي كان يخفق عليها لم يستطع ان يميز الوانه . حاول كثيراً مع جمعة . قال له ان الاميركان في المعسكر ارسلوا وراءه وطلبوا اليه ان يأتي ، لكن جمعة لم يسمع ولم يستجب ، كأنه لم يأكل مرة واحدة من خبز عبده ! ذهب بعيداً عن البوابة . تطلع في كل الاتجاهات لعله يستطيع ان يجتاز هذه الاسلاك ، ان يصل الى مكان قريب ، لكن محاولاته انتهت الى الفشل . رأى حوله بعض الصبية ، سألهم ما إذا كانوا قد رأوا أحداً يسأل عنه . تضاحكوا وهم يجيبون إجابات غير واضحة . أما عندما بدأوا يسبحون مجتازين حد الأميركان وهم يتصايحون فقد شعر بالندم الشديد لأنه لا يعرف السباحة .

وتذكر ما سمعه في الأيام الأخيرة عن المنظار المقرب ، الهدية التي حصل عليها الامير . قالوا ان الامير منذ حصل على هذا المنظار ، وهو مبطوح على بطنه والمنظار منصوب يراقب من خلاله كل شيء . تمنى عبده لو يحصل على هذا المنظار لدقيقة واحدة . سوف يتمكن خلال هذه الدقيقة من رؤيتها . تكفي نظرة واحدة ليعيش عليها سنة اخرى . حين يراها لا بد ان يجدها تبحث عنه ، تراقب كل قادم وتنظر الى كل وجه .

وفي هذا اليوم ، عند الغروب او بعده بقليل ، انتشرت شائعة قوية ان عبده محمد غرق في البحر . صحيح ان بعض الناس رآه قرب الشاطىء ، لكن احداً لم يشاهده بعد ذلك . أما الفرن فقد ظل مغلقاً طوال اليوم ، ولم تجد كل محاولات الطرق

والنداء التي حاولها الكثيرون ، حتى اصدقاؤه الذين يعرفون متى يطرقون الباب ، واية كلمات يقولونها ، وكيف كانوا يستخرجونه من وكره في اصعب ساعات التجلي والعزلة ، حتى هؤلاء لم يتوصلوا الى نتيجة ، وخامرهم شك قوي ان عبده ليس موجوداً في الفرن ، وربما يكون قد مات فعلاً ، وقد فكر بعضهم بكسر باب الفرن ، لكن تركوا كل شيء لليوم التالي « لان الصباح رباح ، والرجل مثل عادته ، ركبته السودا ، ولا يريد ان يرى احداً » .

وفي هذا اليوم ايضاً باع فرن عبد الله الابيض كما لم يبع في يوم سابق ، ومع الارغفة التي توضع بين ايدي الناس كانت تنسكب في آذانهم اخبار غرق عبده !

لكن لا شيء في حران ينتظر او يثبت ، فعند ساعات الليل المتأخر ، قبل الفجر بساعة ، رأى الذين خرجوا من مقهى ابي اسعد ، وعلى شاطىء البحر ، ليس بعيداً عن المقهى ، رأوا عبده . كان يدندن باغان حزينة ، وكان في بعض المقاطع ينشج ويبكي بصوت عالٍ !

في الأيام التالية كان عبده شديد النحول ، شاحب الوجه ، وكانت يداه ترتجفان ارتجافاً شديداً ، حتى انهما لا تقويان على ادخال الارغفة الى بيت النار او اخراجها منه ، وكان لا يكلم احداً ولا ينظر في وجوه الناس .

لكن ما كادت بضعة ايام اخرى تمر حتى انتشرت معلومات قوية ان عبده الذي لم يعرف السباحة ولا نزل الى البحر من قبل ، قد نزل في ذلك اليوم ، وظل يضرب بيديه ورجليه والماء يحمله حتى وصل الى الباخرة الراسية بعيداً ، وانه صعد الى ظهرها بحبل مدته اليه المرأة ذاتها ، وانه قضى هناك ساعات طويلة حافلة ، ولما رجع الى الشاطىء مرة اخرى كان يسبح على ظهره ويحمل بيدٍ لم تمس الماء صورة امرأة . واكد بعض الذين خرجوا من المقهى متأخرين تلك الليلة انهم رأوا مع عبده صورة تلك المرأة . كانت الصورة جافة لامعة ، لم يمسها ماء ، وكان يقبلها وهو يبكي !

راجت إشاعات قوية ، في منتصف الصيف ، أن سفر دحام الى عجرة له علاقة قوية بقضية هاجم ، فقد قيل ان الأموال التي كانت مودعة عند الأمير قد سحبت ، لأن ابن الراشد قرر أن يبحث في كل الأمكنة عن هاجم وخاله ، لكي يدفع لهما التعويض ؛ وحتى المبلغ الذي قرره الأمير ، إذا لم يكن كافياً أو مرضياً ، يمكن أن يزيد عليه مقداراً إضافياً . ومما أكد قوة الاشاعة أو صحتها أن ابن الراشد ، على خلاف الفترة الماضية أخذ يظهر للناس . وهو الذي لم يكن متعبداً تقياً ، حتى أنه لم يكن يذهب الى المسجد الا مضطراً ، شوهد عدة مرات في المسجد ، بل وأكد الكثيرون أنه كان يغرق في الصلاة والدعاء والتهدج ، فيغمض عينيه نصف إغماضة ويتمتم بأدعية طويلة ، وهذه عادة غير مألوفة في حران ، كما لا يمارسها البدو ، أو سكان المناطق المجاورة ، بل وينظر هؤلاء الى الذين يغرقون في التعبد نظرة شك وتوجس .

ومما زاد في رواج هذه الاشاعات وقوتها أيضاً أن ابن الراشد بدأ يستعيد صحته شيئاً فشيئاً ، وبدأ يطيل الجلوس في المقهى أو التمشي على الشاطىء . صحيح أنه لم يعد لأي من الأعمال التي شغل بها نفسه في المدة الماضية ، لكن الكثيرين فسروا الأمر باعتلال المزاج ، وإنه لن تمر فترة من الوقت الا ويعود مثلما كان . ومع أنه ظل

كعادته كثير الصمت وغير راغب في الحديث مع الآخرين ، عدا التحيات السريعة والأسئلة العابرة ، فإن رجلين او ثلاثة من رجاله كانوا يرافقونه باستمرار ، ومع هؤلاء كان يجلس ويتحدث .

الدباسي الذي بلغه أول مرة أن ابن الراشد قضى ساعة أو أكثر في المقهى ، وبدا منتعشاً ، قال وهو يتصنع الحزن :

- صحوة موت . . . يا جماعة .

وبعد قليل أضاف كأنه يكلم نفسه :

- يتوهم ، يظن أنه اذا قرّب من الخوف يأمن .

استراح قليلاً ثم تابع :

- ورطته ما هي سهلة إبن الراشد ، ومع من ؟ مع إبن هذال والبدوان ، الواحد منهم يأخذ ثأره بعد أربعين سنة ويقول : والله استعجلت .

ولكي يتأكد الدباسي من الوضعية الجديدة لابن الراشد ارسل ابنه صالح لزيارته وليدعوه ايضاً الى حضور حفلة زواجه من أخت محمد السيف ، لكن ما عاد به صالح من رأي وانطباع كان مشوشاً للغاية ، فتارة يقول ان الرجل مثلما كان من قبل ، وتارة أخرى يقول انه رأى في عينيه شيئاً غريباً لم يفهمه ، لكن الأمر المؤكد ان « الرجل لا يريد أن يتكلم ! » وقد دفع هذا بالدباسي الأب لأن يقوم بزيارته ليتأكد بنفسه ، وقد تم الاتفاق ان يلتقيا في المقهى .

قال الدباسي ليبرىء نفسه :

- هو اختار المقهى ، بعثت أقول له : أريد زيارتك يا أبو محمد . قال : في القهوة عصرية نلتقي ، والتقينا ، وبعدها صار اللي صار .

ما كاد الرجلان يلتقيان ، وقد أوعز ابن الراشد ، بخشونة ، للرجال الذين كانوا معه أن يبتعدوا ، وقال بطريقة احتفالية ، وهو يقف بقوة ، أثناء ما كان الدباسي يتقدم نحوه :

- مثل ما تشوف . . يا أبو صالح : حصان ، أقوى من الحصان .
- الحصان بدون فرس أو ثنتين . . ما يساوي شيء يا أبو محمد .

هكذا رد الدباسي وهو يضحك بصوت عالٍ . قال ابن الراشد وقد احس

بالتعريض :

ـ نلحق على الفرس يا أبو صالح . . .

توقف لحظة ثم أضاف هامساً وهو يتلفت :

ـ إذا خلصنا يا رجال .

ودون أن يسأله الدباسي اندفع يحدثه عن وجود مجموعة مسلحة تريد قتله ووراء هذه المجموعة متعب الهذال بالذات ، وإنها تتربص به في الليل والنهار ، لكنه احتاط لكل شيء ، وسوف يفوّت عليها هذه الفرصة ؛ ودون تردد وبانفعال اخرج من وسطه مسدساً وقال :

ـ قبل ما يجرّون سلاحهم ، بهذا ابطحهم واحداً بعد واحد .

كان شديد الانفعال والحدة اثناء الكلام ، والدباسي الذي فوجيء بهذا الانفعال ابتسم ، تصنع الهدوء وعقّب :

ـ وكل الله يا أبو محمد ، المسألة كلها بسيطة ولا توجب القتل والبارود .

ـ توجب أو لا . . . المسألة صارت ، لكن قبل ما أموت اموّت عشرة

قال الدباسي بخبث :

ـ سمعت أنهم رضوا . اخذوا القريشات وسكتوا .

ـ كانوا موافقين ومستعدين ، لكن الناس ، الناس يا أبو صالح . . وخاصة ذاك اللي ما ينسى وما يتعب ، متعب الهذال . . .

توقف ابن الراشد قليلاً ، تنهد بألم ثم أكمل :

ـ وكل واحد ، من أولاد الحلال ، يرمي كلمة ، كل واحد يقول ابن الراشد ؛ والجماعة كل يوم برأي .

توقف مرة اخرى ، مسح العرق الذي تساقط من جبينه وأضاف بنبرة جديدة :

ـ القريشات كوم وهذا كوم ، واللي ما يرضى بذاك يرضى بهذا .

وهز المسدس بين يديه بثقة والتفت حواليه اكثر من مرة .

في هذه اللحظة دخل صبي الى المقهى بسرعة وصرخ بشكل مفاجيء وبصوت عالٍ :

ـ البدوي . . البدوي

وفجأة دوّت بضع رصاصات ، وامتلأ جو المقهى بالفوضى والصراخ ورائحة البارود . وما كادت الضجة تتراجع ويتلاشى دوي الرصاص ، حتى تداعى ابن الراشد على كرسيه ، وقد أصيب بحالة من الهبوط والانهيار .

لقد تراءى لابن الراشد أن أشخاصاً سيدخلون المقهى وانهم سيقتلونه ، ولذلك بدأ قبل أن يبدأوا ، هكذا قال بعد أن استراح ، لكن حالة الذهول المصحوبة بالفزع ، والتي عمت الجميع ، اكدت ان ابن الراشد وصل الى درجة تثير الشفقة .

كان يمكن اعتبار ما حدث مجرد صدفة ، وقد يزول من ذاكرة الناس ، كما زالت اشياء كثيرة . لكن تلك النداءات التي اصبحت تطارد ابن الراشد في كل مكان ، والتي تصله الى بيته ، كما يؤكد هو نفسه ، خلال ساعات الليل والنهار ، يطلقها الصبية بعض الأحيان ويطلقهاالكبار في أحيان أخرى، جعلت ابن الراشد يعتصم في بيته يوماً بعد آخر ، ليلة بعد أخرى . فاذا كان يغفر للصغار ، فماذا يقول عن تلك الأصوات الخشنة التي تأتيه فجأة في الليل المتأخر ؟ كان يهب من نومه مرعوباً . أو ينتفض في فراشه كما ينتفض ديك مذبوح . كانت الأصوات تطلب منه أن يخرج ، إن كان شجاعاً ، فإذا صمت أو توارى تعالت الأصوات أكثر من قبل ، أما إذا خرج فلا يرى أحداً . وحين يسأل الآخرين يبدون استغرابهم وينفون أنهم سمعوا صوتاً أو رأوا أحداً !

قال بعض الناس في تفسير صرخات الصبية ان الصدفة وحدها هي التي اوقعت ابن الراشد ، إذ ما ان عرفوا بما حصل في المقهى حتى تعلقوا بهذه التسلية ، أما الكبار الذين يطلقون تلك الصرخات في جوف الليل فلم يؤكدها احد سوى ابن الراشد .

أما حين عاد دحام من عجرة ، ومعه عدد من العمال ، وسمع ما حصل أثناء غيابه ، ثم لما رأى ذلك الهوس الذي استبد بابن الراشد فقد قال أمام كثيرين :

ـ هذه شغلة أبو صالح . أبو صالح هو أبوها وهو أمها .

سمع الدباسي ما قال دحام ، لكنه تظاهر أنه لم يسمع ، فالاستعدادات للزواج استمرت ، وباشر أكثرها بنفسه . جرى التأكيد مرة بعد أخرى على الكثيرين بأن يحضروا . والخراف التي ستذبح عُلفت جيداً ، وأخذت الى البحر مرتين فغسلت هناك

لتكون بيضاء نظيفة. أما «التريكات» ذات الأضواء القوية فجلبت خصيصاً من عجرة ، وقد جرّبت عصر يوم وصولها، ثم في الليلة التالية، فبدت حران العرب في الليل على التلال الغربية مشعة مضيئة، حتى أن الكثيرين من العمال في المعسكر شاهدوا الأضواء وظنوا أن هذه الليلة هي ليلة الزواج ، لكن آخرين أكدوا لهم أن الأمر خطأ، فالزواج سيكون ليلة الجمعة، وأن ما يرونه الآن لا يعدو أن يكون مجرد استعداد لليلة الزواج .

وحران التي استعادت ذكرى زواج الأب في السنة الماضية توقعت أن يكون زواج الابن أكثر أهمية « لأن صالح هو الابن الأكبر ، ولأن الدباسي الآن أقوى وأهم مما كان في السنة الماضية ، ولا بد أن يثبت للجميع ذلك » أما الأمير الذي وجهت إليه الدعوة ، وجرى تأكيدها مرة بعد مرة من قبل الدباسي نفسه ، فانه لم يعد وعداً أكيداً قاطعاً بالحضور ، لأنه كان تواقاً لمراقبة الزواج بالمنظار ، وسوف تكون مناسبة مهمة لأن يرى كل ذلك في الأضواء القوية ومن هذا البعد الكبير ! وبدا مشغولاً في النظر الى أعواد الثقاب أو الى بعض الصور ، كان يضعها له أحد رجاله على مسافات متفاوتة ، مرة بعد أخرى ، والأمير يأخذ وضعيات مختلفة ، فمرة ينبطح على الأرض ، بعد أن يثبّت المنظار على وسادة ، ومرة يجلس واضعاً ركبته تحته ، ومستنداً باليد التي تحمل المنظار على الأخرى ، لكي يصل الى « وضعية الرمي » كما كان يطلق على الحالة المثلى للرؤ ية . ونتيجة الحاح الدباسي ، والأهمية التي يعلقها على حضوره فقد قال الأمير دون أن يلتفت :

ـ أمرٌ عصرية . . . أتقهوى وأمشي .

واستمر يصدر الأوامر لتثبيت العيدان ، لمسكها بالملقط ، لوضعها بشكل منتظم ، وفي كل مرة ينظر الى العيدان مباشرة ، ثم من خلال المنظار ، تتوالى هزات رأسه دلالة التعجب والاهتمام . قال الدباسي وهو يستأذن :

ـ المهم تصلنا يا طويل العمر . . وإذا وصلت ما نتركك .

وواصل الدباسي إرسال الرسل لابلاغ المدعوين ، فلما بعث لابن الراشد كان جواب دحام ، بعد صمت طويل « ما أظننا بحاضرين » وبعد قليل أضاف بصوت بطيء منخفض : « إحذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة » لم يكتف بذلك قال وهو ينهض مدعياً أن وراءه أشغالاً يجب أن يقوم بها : « أيام السرور قصار » فلما بلغ

الدباسي ما قاله دحام ضحك بغيظ وعلق بكلمة تناقلها الناس ، قال :

ـ إركب الحمار ولا يهمك ضراطه ، وأنا إذا ما ركبت هذا الجحش وسمعت أهل حران كلهم ضراطه ما أكون أبو صالح !

يوم الخميس صباحاً طلب الدباسي من الأمير ، مجدداً ، وهذه المرة على شكل رجاء ، أن يشرفه بالحضور ، لكن الأمير الذي كان يراقب باخرة وصلت لتوها ، انشغل تماماً ، حتى أنه لم يفطن لوصول الدباسي ولم يسمع كلامه ، ولما بدا الضيق على الدباسي ، ولأن وراءه بعض الأشغال يجب ان يقوم بها ، فقد قال لنائب الأمير الذي كان يهز رأسه هزات رثاء وحزن :

ـ الاعتماد عليك يا أبو رشوان .

وهز نائب الأمير رأسه ، وفهمت على أنها موافقة وأنه سيبذل جهده .

أما في معسكر العمال فقد قام صالح نفسه بزيارة أخيرة ، وقال بصوت عالٍ وبتفاخر ظاهر :

ـ الجميع ضيوفنا الليلة ، الحاضر يبلغ الغائب ، وما نقبل عذراً من أحد .

إلى الظهر ظل الأمير مشغولاً بالباخرة ، احصى عدد الرجال الذين نزلوا منها ، لكن ظل متردداً حول الرقم النهائي ، لأن خمسة رجال أو ستة من الذين صعدوا اليها مرة أخرى سبق أن نزلوا منها ، وربما فعل واحد مرتين أو ثلاث مرات . فالأمير غير متأكد من ذلك ، نتيجة اختلاط الناس ببعضهم وتشابه الملابس وحتى الملامح ، إضافة الى اهتزاز المنظار ثم سقوطه أثناء ما كان أحد رجال الأمير يقدّم الشاي ! هذه المراقبة الدقيقة الصبورة أوحت للأمير بأفكار كثيرة ، وسرح عدة مرات بذكريات أيام بعيدة ، تمنى لو أن المنظار كان معه ! ثم علّق على أهمية هذا الاختراع لنائبه ، وذكر أن عقل الانسان لا بد أن يصل في يوم من الأيام الى تركيب مجموعة من المناظير يمكن أن تساعد في رؤ ية الناس في أماكن بعيدة ، في مصر والشام وربما أبعد . وغرق في تصوراته وأحلامه ولم يفق الا لما دعي الى الطعام .

بعد قيلولة قصيرة تخللها نوم متقطع ، بسبب الرطوبة الشديدة والحر الشديد ، وحين مالت الشمس قليلاً نحو الغرب ، تطلع الأمير نحو التلال الغربية ، فرأى أناساً كثيرين وحالة غير طبيعية ، فخمن وقدر أن اليوم هو يوم زواج صالح الدباسي ،

فلما سحب المنظار لينظر من خلاله سأل نائبه الذي وصل لتوه ، وكان يلبس ملابس جديدة نظيفة تفوح منها رائحة البخور ، سأله إذا كان اليوم هو يوم الزواج ، فلما ضحك نائبه بصوت عالٍ قبل أن يجيبه ، رفع الأمير المنظار عن عينيه وتطلع إليه لكي يفهم سبب الضحك ، فقال نائبه بنوع من السخرية المبطنة :

ـ الرجل نشف ريقه يا أبو مسفر ، وقال عمره ما أحد تزوج إذا أبو مسفر ما جاء .

هز الأمير رأسه كأنه يتذكر أنه رأى الدباسي في الصباح . قال يخاطب نفسه :

ـ الواجب واجب .

وقبل أن يصلا الى الفسحة الكبيرة وسط حران العرب قال الأمير لنائبه :

ـ حدي المغيب وارجع . . .

وأضاف بعد قليل وقد تغيرت نبرة صوته :

ـ وأنت ، يا أبو رشوان ، تبقى ، لأن أبو صالح به عرق عبيد . . وزعول !

* * * *

رغم جميع الجهود التي بذلت فان عرس الدباسي الأب كان أكثر أهمية وروعة ، ولو سئل أي إنسان لماذا خرج بهذه النتيجة لما استطاع أن يعطي جواباً واضحاً أو يشبه أجوبة الآخرين . فالخراف التي نُحرت هذه المرة كانت أكثر من المرة السابقة ، بل ثلاثة أضعافها على وجه الدقة . وعدد الذين حضروا هذه المرة يفوق عدد الحاضرين في عرس الأب مرات كثيرة . أما التريكات التي عُلقت في أماكن عديدة فحوّلت الليل الى نهار ، فكان يقابلها في المرة السابقة تريك واحد وضع في الوسط ، وكان يؤذي العيون أكثر مما ييسر الرؤية الواضحة . وكذلك الغناء والرقص وأشياء أخرى كثيرة ، إذا أخذت بقياس الحجم أو العدد ، فان حجمها وعددها الآن أكبر وأكثر ، لكن مع ذلك فقد شعر الناس أن عرس الدباسي الأب مختلف . قال بعض العمال أن الأميركان لم يحضروا هذه المرة ، لكن رد عليهم آخرون أنهم لو حضروا لحوّلوا العرس الى مجموعة من الأسئلة والصور ولا شيء غير ذلك . وقال غيرهم : لو كان صويلح موجوداً لشعل الدنيا ، لكن صويلح سافر قبل أسابيع ، ولا بد أن يكون قد عرّس وأعجبته الحياة هناك فتأخر أو لا يريد العودة . وهز الكثيرون الذين سمعوا الكلام رؤوسهم بنوع من الموافقة ، لكن لم يعلقوا .

كان يمكن للعرس أن ينتهي ببعض الوخزات من مسلات يحملها أصدقاء وأعداء صالح الدباسي ، وبعد ذلك يتفرق الجمع ، لكن الدباسي الأب اصر على أن يبقى الناس أطول فترة ، وأن يجعل العرس مناسبة يتذكرها الجميع لوقت طويل . إضافة الى رغبته في إثبات القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما الآن . لذلك ما كاد واحد يقترح أن يختتم العرس بجولة في حران كلها ، مع الأضواء والمشاعل ، ما كاد هذا الاقتراح يقدّم حتى ووفق عليه بحماس كبير ، ودون اعتراض من أحد تقريباً ، عدا بعض المسنين . قال ابن نفاع بنوع من التأنيب غير الشديد :

ـ الليلة ما هي بليلتكم ، الليلة ليلة غيركم . . . يا جماعة الخير .

ولما لم يسمعه أحد أضاف يخاطب نفسه :

ـ إذا رنت الطاسة طلعت الف رقاصة . . . وهذه هي العفاريت طلعت .

كان يمكن للعرس أن ينتهي بالطواف في السوق ، والوقوف عند المسجد ، وربما الوصول الى مقهى أبو أسعد الحلواني ، ثم يعود أدراجه الى التلال الغربية ؛ وخلال هذا المشوار تكون جنبات صالح الدباسي قد تلقت وخزات عديدة كافية لاثارته لكي يقوم بمهمته تلك الليلة على أحسن وجه واطمئنان كامل ، فيترك بعد أن يصل وينصرف الناس ، لكن شيطاناً ملعوناً يقدر ويدبر ، أو ربما حصل كل شيء نتيجة الصدفة ، دون تقدير ودون تدبير . إذ ما كاد يصل موكب العرس بالقرب من بيت ابن الراشد ، حتى دوّت طلقات رصاص . لم يُعرف من أطلق النار أولا ، لكن خلال لحظات اشتعلت حران . اطلقت نيران كثيفة . صحيح أنه تخللها الخوف والتحسب أول الأمر ، لكن لم تلبث أن تحولت بعد قليل الى نوع من الفرح والتحدي والمباهاة ، فطال وقوف الناس ، وخلال الفترات القصيرة ، بين طلقة وأخرى ، بين صلية رصاص وأخرى ، كانت تسمع أصوات منغّمة حادة « البدوي » « البدوي » « البدوي » .

ورغم أن صوتاً لم يسمع من بيت ابن الراشد ، وأن ضوءاً لم يظهر ، إلا أن الجميع كانوا متأكدين أن ابن الراشد ورجاله داخل البيت ، وأنهم سمعوا كل كلمة وراقبوا كل حركة ، وربما كانوا في حالة الجاهزية الكاملة للرد لو تعرضوا للعدوان ، لكن لأن شيئاً مثل هذا لم يفكر فيه أحد ولم يقع ، واقتصر الأمر على تلك النداءات التي كانت تخرج من حناجر الصبية ، وربما بمشاركة بعض الكبار أو تحريضهم ، فقد استمر

الموكب وابتعد قليلاً ، وفي لحظة من لحظات الصمت ، سمع وراء الموكب صوت قوي ، وكأنه يأتي من فوق ، كان الصوت خشناً ممدوداً قوياً ، وكان واضحاً أيضاً :
المطوّط . . المط . . . وّط . . . صالح المط . . . وّط . . صالح المطوّط .

نظر بعض الرجال الى وجوه بعض ونظروا الى صالح الدباسي . كانت وجوه الرجال متسائلة : صوت من يكون . . صوت دحام أم صوت ابن الراشد أو أحد ثالث ؟ وكان وجه صالح الدباسي الذي تنعكس عليه الأضواء والمشاعل والظلال يتغير يصفرّ . يسودّ ، يصبح بين الصفرة والزرقة ، وما دام الصمت مخيماً والرجال يتبادلون النظرات كان الصوت يصلهم طويلاً ممدوداً ، كأنه صوت كلب جريح : المطوّط . . صالح المطوّط .

صرخ رجل من وسط الجمع ولم يعرف من يكون :

ـ اتركونا ، يا جماعة ، من هذا المهبول .

قال رجل آخر :

ـ تران بطينا ، والعريس ما به صبر .

قال الرجل الأول بنفس الصوت القوي :

ـ باكر اذا جاءه البدوي يطلّع مرجلته . . .

ومن جديد سار الموكب ، لكن سيره هذه المرة بدا ثقيلاً مرتبكاً ، وخيمت حالة من المرارة . ورغم أن الدباسي الأب بلغه ما حصل ، وسمع الرصاص ينطلق وسط السوق ، فقد حاول أن يعيد جو المرح ، فرقص وطلب من بعض المسنين أن يرقصوا ، واطلق ناراً غزيرة وشاركه عدد في اطلاق الرصاص . وغنى عدد من الرجال ، كما اقتربت النسوة كثيراً من مواقع الرقص والرجال وتضاحكن بصوت مسموع . رغم أن هذا كله قد حصل ، وعاد الجو الى طبيعته تقريباً ، وبعد أن أصرّ الدباسي على أن يبقى الرجال أطول فترة ممكنة ، ورد على الذين اقترحوا الانصراف ، مع غمزات وابتسامات ذات معنى ، رد عليهم مثلما رد في عرسه :

ـ يلحق يا أولاد الحلال ، يلحق ، وباكر يزهق .

قال هذا بصوت عالٍ وهو يضحك ويغمز بعينه لابنه يريده أن يوافقه على ما قاله

في وقت متأخر ، وقبل أن يغادر الرجال ، زفّ صالح الدباسي الى عروسه ، وفي اليوم التالي تناقلت النسوة ، بسرية كاملة وبخوف ، أخباراً غير سارة ، لكن هذه الأخبار دفنت في مهدها ، وبدت زوجة الأب شديدة الخشونة والعنف حين قالت بتورية قريبة من الوضوح .

ـ التعب اللي تعبه الرجال ، من التلال الى السوق ، ومن السوق الى التلال يهدّ الجمال !

ولم يعد أحد بعد ذلك الى ذكر الموضوع .

بعد شهر من عرس صالح الدباسي ، مات عبد العزيز الراشد . كان موته مفاجئاً ، خاصة أن احداً لم يره منذ ليلة المقهى ، فشعر الجميع بالحزن ، وشعروا أنهم مسؤولون بشكل أو آخر عن موته . حتى الدباسي حين بلغه موت عبد العزيز الراشد صرخ بأسف وتوجع :

ـ لهْ . . . لهْ . . . . لهْ . لا إله إلا الله . . : لا إله الا الله . . وحده الباقي . . ووحده الدائم .

وشيعت حران ابن الراشد بحزن وصمت ، ولم يتخلف إلا القليلون عن المشاركة في التشييع .

موت ابن الراشد في اواخر الصيف ، وعلى هذه الشاكلة ، اثار مقداراً كبيراً من الحيرة والتساؤل . اذ رغم الكراهية التي كان يحس بها الكثيرون تجاهه ، لخشونته وطمعه ، ورغم الحسد الذي كان يولده في صدور عدد من الرجال الذين يناقشونه ، فقد احس الجميع انه ظلم اكثر مما ينبغي ، وان هذا الظلم هو الذي اودى به .

ففي معسكر العمال ، ما كادت بضعة ايام تنقضي على موته ، حتى وجد من قال : « الله يرحمه ، لانه احسن من غيره وارحم . والايام بيننا » وقال آخر « على الميت لا تجوز الا الرحمة . وابن الراشد تصور انه سيخلد . وطمعه هو الذي قتله» . اما عبد الله الزامل فقد قال بصوت عال وامام عدد من العمال بعد ثلاثة ايام من وفاة ابن الراشد :

- جمعة خير . هالحين ابن الراشد راح . مات . صار تحت التراب . والواحد لازم يكون منصف ويقول للي في قلبه . يقول الحقيقة

توقف قليلاً . تطلع في الوجوه وأضاف :

- تعرفون من قتل ابن الراشد ؟

فلما شخصت اليه العيون قال وهو يهز رأسه :

- الاميركان هم اللي قتلوا ابن الراشد .

تطلع اليه العمال باهتمام واستغراب « الاميركان هم الذين قتلوا ابن الراشد ؟ كيف ؟ لماذا ؟ » بدا الأمر غير قابل للتصديق ، او على الاقل غير واضح وغير منطقي ، تابع ابن الزامل :

- نعم الاميركان . الاميركان هم قتلوه . . .

وابتسم بسخرية وهو يتطلع في الوجوه مستمتعاً بالدهشة التي ظهرت عليها :

- اكثر من ثلاث سنين وهو يركض مثل كلب ، يمنة ويسرة ، هنا وهنا ، كل شيء يريده الاميركان « من هذه العين ومن هذه العين » ولا فائدة . لما راح ، الله يرحمه ، مزبان قالوا : « ابن الراشد !» من غرّق مزبان ؟ ابن الراشد ما هو تمسؤول ، ابن الراشد ما له علاقة . الاميركان هم اخذوا مزبان وهم غرقوه و« يا ابن الراشد ادفع ، يا ابن الراشد دبّر راسك » هم يقولون قوانين ؟ طيب اللي يغرقون ما هم قوانين ؟ ما لهم حقوق ؟ « مزبان ما له عندنا شي ، حتى قشة ما له عندنا ، ما شفناه ولا عرفناه » وابن الراشد ، الله يرحمه ، الطمع عمى عيونه ، هبله ، وصار اللي صار .

تطلع العمال في وجوه بعض ، وتطلعوا الى عبد الله الزامل ، انهم الآن يفهمون الكلمات التي يقولها ، يرونها واضحة ، لكنهم لا يعرفون ماذا تعني بالضبط . قال احد العمال ، وكانوا يسمونه الجرادة ، لصغر حجمه :

- الاميركان ما لهم صاحب ، مثل الذيب والغنم .

رد عليه آخر وهو يضحك بصوت عال :

- لا . . ما هم مثل الذيب والغنم ، وانت الصادق . . مثل الزاد والجراد .

- لا . . مثل الذيب والغنم . الجراد يأكل الى حين ما يشبع ، وخويك الذيب . يقتل ويجدع .

هكذا رد عليه الاول بعصبية .

قال ابن الزامل مازحاً :

- الاميركان الذيب وابن الراشد الجرادة .

وضحك بصوت عال اقرب الى القهقهة ، وأضاف :

- وانتم تعرفون ذيك السالفة : لولا الجرادة ما وقع العصفور .

قال احد العمال بحدة :

- انت ، يا ابن الزامل ، قتلت ابن الراشد ، ظليت وراه حتى دفنته .

- انا ؟

وتغيرت لهجته تماماً :

- اخز الشيطان يا رجل .

- لا . انت ، نعم انت اللي قتلته .

ضحك عبد الله الزامل بصوت عالٍ ، لكن ضحكته كانت جافة باهتة ، فلما استمر ذلك العامل ينظر اليه بتحدٍ اقرب الى الاتهام ، قال عبد الله الزامل :

- اسمع يا ابن الحلال . . .

قال ذلك ونظر الى الوجوه بتحديد ، ثم نظر الى الرجل وتابع :

- انت تعرف ، وكل واحد في المعسكر يعرف : انا وابن الراشد كنا مثل الشحم والنار ، يكرهني واكرهه ، لكن الحق حق . . .

وتغيرت لهجته :

- يمكن غلطت بحق ابن الراشد ، لا اقول لا ، لكن ، الله يرحمه ، غلط بحق نفسه اكثر مما غلط الناس بحقه . ما ترك احداً يحبه ، وما ترك شينة الا وسواها . ركّب الاميركان على اكتافنا ، وفوق العلة زودة . . هذا هو ابن الراشد .

- وتقول الله يرحمه ؟

- قلتها واقولها .

- والله يا ابن الزامل حيرتنا !

- اذا كنت تريد الكلام الصحيح : ابن الراشد كلب ابن كلب : طماع ، يحب نفسه ، لا يحلل ولا يحرّم ، لكنه مسلم ، ابن عرب ، يعرف الصحيح والغلط ، وهذا اللي هبله ، هذا اللي قتله .

توقف عبد الله الزامل لحظة ، تنفس بعمق وبصوت واضح ، اقرب الى الحدة اضاف :

- الاميركان ما لهم رب . الاميركان ما لهم صاحب ، ما يعرفون الا : « شغل . . شغل . عرب كسلان ، عرب كذاب ، عرب ما يفهم » وابن الراشد اللي ما وقف لحظة ، ودائماً يقول لهم : نعم . . نعم ، على العين والراس ، رموه مثل كلب ، تركوه يناطح وينهبل ويموت ، ولا ابن كلب منهم ، حتى الشعيرة ، النصيّص ، جاء بجنازته ، ما احد قال الله يرحمه .

توقف . اخذ نفساً عميقاً مقهوراً ، ثم تابع :

- الواحد منا عنده شرف ، يعرف حرمة الموت ، يعرف . . .

ولم يستطع ان يتابع ، لم تسعفه الكلمة المناسبة . قال احد العمال ، وكان بعيداً صامتاً ، كأنه لا يسمع ولا يتابع :

- اذا مات الميت طالت عراقيبه . . .

فلما وجد ان كلمته وصلت الى الجميع في جو الصمت الذي سيطر ، وقف . مشى خطوتين وأضاف متسائلاً :

- لما ابن الراشد راح ، وصار تراب ، صار احسن منه الله ما خلق ؟

نظرت اليه العيون باستغراب متسائلة ، تابع :

- والله ما لكم ذمة ، يا اولاد العرب ، كل يوم بوجه وكل ساعة برأي .

وخرج من الخيمة . وبخروج مفلح العرجة انقسم العمال في الرأي مرة اخرى . قال ابن الزامل بصوت اقرب الى الصياح في نهاية المناقشة التي تحولت الى الهرج :

- المسألة اوضح من الشمس . الاميركان قتلوه وباكر تجيئكم علومه وعلوم غيره .

مثل هذه المناقشة جرت مرات كثيرة في المعسكر . واذا كان الكثيرون قد اعتبروا المسألة ليست من التعقيد الى الدرجة التي يفترضها ابن الزامل او ابن نفاع ، فان الاميركان لو « كانوا اعقل وفيهم شرف ونخوة لما تركوا الرجل بعد الخدمات الكثيرة التي قدمها » هذه هي مسؤوليتهم ، أما غير ذلك ، أما كلام ابن الزامل او ابن نفاع فكله مبالغة وهذر .

ومثل المناقشات التي جرت في المعسكر جرت مناقشات ايضاً في المقهى وفي السوق ، حتى النسوة في حران العرب ، اللواتي كن يشعرن بالمرارة والحقد على ابن الراشد ، لانه هو الذي جاء بالمصائب ، فهدم البيوت ، وشيّل الناس ، ما لبثن ان شعرن بالاسف والندم ، ودخل الوسواس الى قلوب عدد منهن لانهن تذكرن ادعية واستغاثات وجهنها للسماء، ان ينتقم من هذا « الجبار » .

الآن ، وقد رحل ابن الراشد الى الابد ، وليس مثل رحلاته القصيرة الغامضة ، يشعر كل واحد في حران انه بطريقة معينة مسؤول عن موت هذا الانسان . او على الاقل مسؤول عن تركه يموت هكذا دون ان يفعل من اجله شيئاً ، حتى قطرة الماء لو قدمت اليه في الساعات الأخيرة ، او نظرة فيها العطف والتشجيع ، لجعله ذلك

يموت مسترجا ، او اقل حقداً على نفسه ، واقل شعوراً بالذنب . وهذا الشعور الذي راود الناس منذ اللحظة التي سمعوا فيها بموته ، فرفضوا ان يصدقوا اول الامر ، ثم تبادلوا فيما بينهم نظرات التساؤل ، ولما تأكدوا هبوا مثل رجل واحد ، وقد سيطر عليهم شعور حاد بالاسى والقهر ، الى المشاركة بدفنه ، وظل طيفه يحوم فوق الرؤوس ، فلا يعرفون هل هو طيف خيّر ام طيف شرير ، ولا يعرفون لماذا حصلت الامور بهذا الشكل .

أما الدباسي الذي اذهلته المفاجأة وظهر عليه الحزن والاسف ، فقد شعر بمرور الأيام بالندم يسحقه ، فتمنى لو كان اكثر رأفة واوسع صدراً ، وتمنى اكثر من ذلك لو ان الامور لم تصل بينهما الى هذا الحد من الكراهية والحقد ، وتذكر ما قاله للأمير وما قاله للآخرين ، فشعر انه مسؤول عن نهاية الرجل . أما حين جاءه ابنه صالح بعد ايام من وفاة ابن الراشد وقال « ان باب الرزق انفتح والعلة راحت » مشيراً الى غياب ابن الراشد نهائيا ، فقد رد بمرارة ظهرت شديدة الوضوح على وجهه « يا وليدي الرزق من الله والموت من الله .. وعدوك اذا مات لا تشمت » . لكن صالح الدباسي الذي لم يأبه كثيراً للكلمات التي سمعها من ابيه ، انصرف بهمة كبيرة ونشاط لا يعرف التردد من اجل ترتيب اموره واشغاله بعد غياب ابن الراشد .

وظلت عواطف الدباسي الأب مختلطة فترة طويلة ، فلم يستطع أن يشارك الآخرين في اي حديث عن ابن الراشد ، بل وكان يحاول بذل جهوده كلها لصرف الذين يتحدثون عن موضوع ، فاذا سمع احداً يعرّض « بالمرحوم » ، هكذا اصبح يطلق على ابن الراشد منذ اللحظة التي سمع بموته ، كان يقول :

- اذكروا حسنات موتاكم يا أهل حران ، والا اكلكم الندم .

وظلت هذه القصة في قلب الدباسي ، حتى عندما جاءته الوفاة بعد ذلك بسنوات . أما ابن نفاع فلم يكن يحتاج الى اقناع او تحريض . كان واثقاً متأكداً ان ابن الراشد مات منذ اللحظة التي وضع يده بيد الاميركيين . وان الله امهله ولم يهمله . لكنه لم يتعظ ولم يرعو ، فلذلك عندما مات فقد مات على دين الكفر .

وحتى سنوات متأخرة ، وعندما حصلت تلك الاحداث الدموية الكبيرة في حران وما حولها ، ظل ابن الراشد موجودا ، وظل الكثيرون يتذكرونه وان اكتسبت

الذكرى ملامح جديدة ومختلفة عما كانت عليه في البداية ، بل واصبحت لا تمت الى الوقائع الكثيرة التي حصلت باية صلة .

لم يكن الصيف وحده قاسياً هذه السنة ، فالخريف كان كذلك ايضاً . فما كادت تحل الأيام الأخيرة من ايلول ، وكانت اشد حرارة من ايام كثيرة مرت خلال هذا الصيف ، حتى بدأ الاميركيون يتدفقون من جديد . جاء الذين سافروا ، او معظمهم ، وجاء آخرون غيرهم . وكان الجدد اكثر عدداً . وقد اضطربت الحياة في معسكر الاميركان لاول مرة ، تماماً كما كانت في الأيام الاولى ، فنصبت خيام كثيرة في عدة امكنة ، وظلت بعض البواخر راسية لأيام مقابل المعسكر ، وكان عدد من الاميركيين ينامون ويأكلون في هذه البواخر . والامير الذي بدا شديد الانفعال والحركة ، لمواجهة المرحلة الجديدة ، بلغت به الدهشة حداً كبيراً عندما شاهد تلك الآلة العجيبة التي كانت محمولة على احدى البواخر ، ثم انزلت ، اذ ما كادت تستقر على الارض لحظات حتى انطلقت الى داخل المعسكر بسرعة رصاصة . رأى الأمير ذلك بعينه المجردة اول الأمر ، ولما استعمل منظاره المقرب بسرعة ومهارة ليتعرف على ماهية هذه الآلة ، بدأ يصرخ ويشير بيده وينادي ، خاصة عندما شاهد هاملتون ، نائب رئيس المعسكر ، يمتطي الآلة ذاتها ويحركها . لقد ظهرت على وجه الأمير علائم الغبطة والاضطراب معاً . صحيح انه رأى من قبل تلك الآلات الكبيرة التي تتحرك الى امام والى خلف ، وتميل الى هذه الجهة والى تلك ، وحدثه نعيم

وآخرون من الاميركيين ان هناك آلات صغيرة من نفس النوع ، وهي مخصصة للبشر ، اذ يركبونها وتنطلق بهم بسرعة كبيرة ، رغم انه سمع ذلك ، وابدى اهتمامه واعجابه ، الا انه لم يتصور بدقة كيف يمكن ان تكون هذه الآلات . الآن وهو يشاهدها بالمنظار ، وهو يراقب حركتها السريعة مقطوع النفس خائفاً ، وحين تأخذ الطريق الاوسط ، كأنها متجهة نحو التلال الشمالية ، فان دهشته وخوفه يصلان الى درجة ان المنظار يضطرب بين يديه ، وتصبح قدرته على المتابعة الدقيقة اقل بكثير مما لو كان يرقب اناساً يهبطون من الباخرة ، واقل مما لو كان يرقب هدفاً ثابتاً .

هذه الآلة السريعة الغريبة شغلت الأمير وجعلته يفكر بقلق ، خاصة وان هذه الاشياء التي جاءت فجأة ودفعة واحدة ، بمقدار ما تثير من الاعجاب والتساؤل فانها تثير الخوف ايضاً .

أما عندما شاهد الاميركيين الذين يضطربون على الباخرة ، ويمكن رؤيتهم بوضوح من خلال المنظار ، ويكونون اغلب الوقت عراة او اقرب الى العري ، فقد بلغ الاستغراب بالأمير حدود الخوف والاضطراب الشديد ، اذ اكتشف ان معهم عدداً من النسوة ، وان هاته النسوة مثل الرجال عاريات او اقرب الى العري . لم يصدق عينيه اول الامر ، وتصور ان ما رآه مجرد وهم او تغبيش في العيون نتيجة استعمال المنظار فترة طويلة ، وقد حصل له مثل هذا من قبل ، أما بعد ان فرك عينيه عدة مرات ، وتركها مغمضة بعض الوقت لتستريح ، ثم عاد الى المنظار ونظر الى الباخرة ، والى الناس فوقها ، فقد صرخ ، وكان حوله ، أول الأمر ، بعض رجاله ، وكانت اكثر كلماته ، خاصة عندما ينطقها ببطء ، واضحة تماماً :

ـ اواه . . يا اولاد الحرام ، يا اميركان . . مصاليخ ، كلهم مصاليخ ، ربي كما خلقتني .

وحين يتطلع الرجال نحو الباخرة ، الى حيث يتطلع الأمير ، لا يستطيعون من هذه المسافة ان يميزوا شيئاً . صحيح انهم يرون الباخرة ، لكن الذين عليها لا يظهرون ، واذا دقق الانسان طويلاً ، وفي ساعات معينة من النهار ، يمكن ان يميز من هذا البعد نوعاً من الحركة ، يرى اشباحاً ، لكن لا يعرف ان كانوا رجالاً ام نساء . الآن ، والأمير يقول بتأكيد مملوء بالحرارة والشبق انهن نساء ، ونساء عاريات ، ويمكن رؤيتهن بوضوح ، فان الافكار والشهوات تتفجر ، تطير في هذا

المدى المتطاول حتى اذا وصلت الباخرة ولامست اجسادهن ارتدت مثل كرة النار فخضت القلوب والعيون وولدت اضطراباً لا يعرف كيف يمكن ان يدارى !

ان هذا الذي يقوله الأمير شيء لا يصدق ، ولا يمكن للانسان ان يتخيله : نساء حقيقيات عاريات يتجولن بين الرجال على ظهر الباخرة ؟ والرجال . . كيف يمكن ان يتحملوا مرورهن او اقترابهن دون ان يحترقوا ؟ دون ان يتحولوا الى بارود وينزرعوا كالاوتاد في كل ناحية من هذه الاجساد الدافئة الشهية ؟

كان الخيال يشتط بعيداً بكل رجل من الرجال . فيتمنى لو يقترب ، ان يرى ، ان يلامس ، فاذا تعذر عليه ذلك فلا اقل من ان ينظر بالمنظار ولو للحظة واحدة . حتى رؤ يتهن من هذه المسافة يمكن ان تشفي ، ان تبرد القلوب التي اشتعلت ، لكن الأمير القابض على المنظار كما تقبض الام على طفلها الرضيع ، وتلك التعليقات المصحوبة باصوات من نوع معين ، لم يكن احد يتصور ان الأمير يعرفها او يتقنها بهذا القدر ، والمرات التي فتنته الاجساد ، وفتكت به اوضاع معينة ، اعطى المنظار الى نائبه لكي ينظر الى الوضيعة او الى تلك المرأة التي يحس انها جعلته ينفجر ويتلاشى في هذا الفضاء . كان يصرخ كالملدوغ ويضرب رأسه بيده اليسرى ضربات ليست قوية وليست خفيفة ، وكأنه يندب : .

- راحت علينا يا ابو رشوان ، عيني يا ابو رشوان ، تعال وناظر . الله . . الله . مبطوحة مثل المهرة ، تلمع ، تضوي ، تشتعل يا ابو رشوان ، وانا اشتعلت ، وما عاد بي صبار . تعال . . بالله عليك تعال وناظر ، هالحين انبطحت ، مدّت رجلها ، قلبت ، يا ابو رشوان ، مثل البرق تضوي ، قتلتني ، يا ابو رشوان ، تعال وناظر . . .

وحين يمسك نائب الأمير بالمنظار ، ويوجهه نحو الباخرة ، فلا يرى بوضوح ، حتى الباخرة لا يراها واضحة يقول برخاوة :

- ما اشوف شي يا ابو مسفر !

- ناحية اليسار ، اذا اخذت الباخرة من غرب ومشيت ، قبل ما تصل الى الوسط تشوفها مبطوحة مثل الفرس . . شفتها ؟ وكّدتها ؟

وحين تتوالى حركات رأس نائب الأمير دلالة النفي ، يصرخ بحدة ولهفة :

- عطني . . عطني . . يا ابو رشوان وما عليك .

ويتناول الأمير المنظار من نائبه ، يتلفت حواليه يريد واحداً من رجاله ، فلما لا يجد احداً ، يقول نائبه بنوع من الحزن الممزوج بالخوف :

- انا قلت لهم يتركونّا . . يا طويل العمر .

والتفت الأمير يبحث بنفسه عن ركاب قريب ، عن مجموعة من الوسائد ، فيتابع نائبه بنفس اللهجة :

- اذا عرف الناس ، اذا عرف الاميركان انفضحنا يا ابو مسفر .

وبحركة متقنة طالما رددها الأمير من قبل ، بلسانه ويده اليسرى : يلقف مثل حرباء ويدير يده نصف دورة دلالة انه لا يخاف ولا يهتم . ثم مثل امرأة مسنة ، طالما تعوّدت على الجلوس ، ينهض فيبدو قصيراً متعثراً في مشيته ، وبعد ان ينتزع ركاباً من صدر الخيمة ويسير به خطوتين او ثلاث خطوات يرميه عند باب الخيمة ويبرك مثل جمل . يثبّت الركاب اولاً ثم يثبت المنظار فوقه بعد ذلك . وبعد حركات عديدة وتغيير مستمر لوضعه او لوضع المنظار يصرخ :

- تعال . . تعال يا ابو رشوان .

ويتمسك اكثر بالمنظار ، ويتغير صوته ، يصبح مختلطاً اقرب الى الهذيان :

- هالحين ما هي وحدة ، ثنتين ، ناقة وفلو ، ووحدة ازين من الثانية . الله . . الله مثل البرحي يلمعن ومثل القطا يدرجن ، واذا الاولية ما ذبحتني ما اظن ان الثانية تترك بي روح . . تعال يا ابو رشوان ، ناظر زين . .

من رأى الأمير ونائبه يتبادلان الانبطاح وهما يصرخان ، وهما يفركان أيديهما ، وهما يتبادلان التعليقات والمعلومات يظن ان خبلاً اصابهما ، فالعيون كانت تقدح شرراً وقد احمرت احمراراً ظاهراً من الشهوة ومن شدة التصاقها بالمنظار ، والشفاه ارتخت وبدأت ترتجف ارتجافاً عصبياً ، أما الكلمات والصرخات الحادة التي تخرج دون ارادة بين فترة واخرى عن واحد منهما، فانها تضطر الآخر لان ينحيه ، لان يطلب منه بلهفة ومذلة ان يخلي له المكان بسرعة لئلا تفوته تلك اللحظة الباهرة .

في وقت من الاوقات ، وبعد محاولات تميزت بالتردد والخوف تنحنح احد رجال الأمير ، قبل ان يتقدم ، انذاراً بوجوده ، واعلاناً عن تحركه ، فاصاب القلق الرجلين ، اذ ربما جاء غريب ورآهما بهذا الوضع ، لكن ما كادا يعتدلان ، وينحي نائب الأمير الركاب حتى دخل احد رجال الأمير واشعرهما ان الغداء جاهز .

وخلال فترة الغذاء ، واثناء القيلولة لم يستطع اي من الرجلين ان يهدأ او ان يغمض عينيه لحظة واحدة . ظلا صامتين ، وكان يبدو انهما بعيدان .

ورغم ان الأمير ، مثل عادته عند كل غروب ، يجلس على تلعة مطلة ، بعد ان تُحضّر وترش بالماء ، ويستمر في مجلسه هذا الى ما بعد صلاة العشاء ، ويتخلل هذه الامسيات الكثير من الاحاديث والطرائف والمعلومات ، يتبادلها مع زواره ، فقد كان هذا اليوم مختلفاً تماماً . تأخر في الجلوس ، تمشى على طول المنحدر ، تطلع من خلال المنظار بتحديد واهتمام جهة البواخر ، وفي محاولة للتمويه تطلع جهة حران العرب على التلال الغربية والى معسكر الاميركان ، لكن اكثر النظرات طولاً وتركيزاً كانت مصوبة نحو البواخر ، ورغم انه رأى اكثر من رجل عاري الصدر ، الا انه لم ير اية امرأة . أما الاحاديث التي دارت في اول المساء حول الصندوق الحديدي الذي جاء به مدير الشركة . وكيف ان هذا الصندوق الذي كان لونه اصفر ضارباً الى خضرة ، او بلون الحرباء في اوائل الربيع ، كان يمشي بسرعة دون ان يدفعه احد ، دون ان يجّره احد ، وكيف ان اثنين او ثلاثة من الاميركان دخلوا الى جوفه مع المدير واختفوا تماماً . رغم ان هذا الامر على جانب كبير من الاهمية ، ويثير الاستغراب والتعليقات والتساؤ ل ، وكان من الممكن جداً ان يثير الأمير ذاته فيتصدى الى شرح وتوضيح طبيعة هذه الآلة للآخرين ، وكيف يمكن ان تسير مسافات كبيرة دون ان تتعب ، الا ان حالته النفسية لم تكن رائقة او مشجعة لكي يتصدى لهذا الامر ، اضافة الى ان المعلومات التي سمعها من قبل ، حينما جيء بآلات من اجل البدء ببناء دار الامارة ، لا يتذكر الآن شيئاً منها ، فقد سمعها على عجل ودون اهتمام ، وضاعت من باله تماماً ، ومع ذلك كان مضطراً ان يتكلم ، ان يقول شيئاً . قال في لحظة من اللحظات ، وهو يهز رأسه ويفكر في امور كثيرة :

- الصندوق . . وغير الصندوق ، يلزم ان يناظره الواحد ، يقلّبه ، قبل ما يقول فلاني وتركاني .

قال نائب الأمير وقد ادرك ما يرمي اليه الأمير :

- والاحسن يركبها يا ابو مسفر !

- القول قولك يا ابو رشوان ، نعم يركبها ، يجربها !

وحين قام الأمير ورجاله الى العشاء ، اقترب منه نائبه ، قال وهو يضحك :

- الخوف ، يا ابو مسفر ، ان نصير مثل ذاك السومطري .

رد عليه وهو يشاركه الضحك :

- صرنا يا رجّال . . وخلصنا .

وفي تلك الليلة لم يستطع الأمير ان ينام حتى ساعة متأخرة ، وكان بادي القلق واضح الهم ، أما المحاولات التي جرت لاكتشاف ما وراء ذلك فقد انتهت دون نتيجة ، وفي ذلك اليوم ، ثم في الأيام التالية . فسرت النسوة هذا الصمت بانه نتيجة التعب والحرارة وهموم الحياة ، خاصة بعد ان جاءت البواخر .

ويتذكر الأمير انه في الليلة الاولى ثم في الليالي التي بعدها رأى نفسه على ظهر الباخرة الكبيرة البيضاء ، وانه كان يقلب النساء واحدة واحدة ، كما يقلب الانسان خروفاً لكي يتأكد ، وكان بمجرد ان يضع يده على الإلْية او الفخذ ويحملها قليلاً في الهواء ، يسمع ضحكاً فياضاً مكتوماً ، أما حين يرفع يده بسرعة عن الإلْية او تاركاً الفخذ يسقط فكان يحس بكثافة رجراجة تملأ روحه وتحرك كل عضو من اعضائه . لقد فعل ذلك مرات لا حصر لها ، وكان شديد الحيرة ، يركض من مكان الى آخر لا يعرف ايهن الاجمل وايهن الاكثر سمنة ، أما حين سقط على واحدة ، وكانت لا تتوقف عن الضحك وكأنها قطة تموء ، فقد استيقظ ووجد نفسه غارقاً في العرق واشياء اخرى ، واحس انه اقرب الى التعب والحمى ، وكان تنفسه سريعاً ودقات قلبه تملأ اذنيه وصدره .

ومثلما حدث في اليوم الاول حدث في الأيام التالية ، وانتشرت اشاعة قوية ان الأمير ونائبه وقعا فريسة مرض غامض ، وانهما يقضيان كل الوقت منفردين ، ولا يستطيعان ان يتكلما او ان يستقبلا احداً ، لكن ما كادت تلك الباخرة البيضاء تغادر حران ، حاملة معها بعض المسافرين ، وبعد ان نزل منها الآخرون وسكنوا في المعسكر ، وبعد أن حصلت أمور أخرى في حران ، حتى بدا الأمير ونائبه يعودان الى وضع طبيعي ، لكن الأمر الجديد الذي ميّز الأمير أكثر مما ميز نائبه : الشرود الذي بدأ يغرق فيه .

حين بلغ ابن نفاع ان الأمير مرض مرضاً غامضاً لم تجدِ معه الأدوية التي تجرعها ، قال عند باب المسجد ، والناس يخرجون بعد صلاة المغرب :

ـ ولّم نفسك يا مفضي ، لأن المبارك ما بقي له الاّ الكيّ . .

واختلفت نبرة صوته تماماً وهو يضيف كأنه يكلم نفسه :

ـ وإذا الكي ما أفاده يكون مديوس ، جاءته العفاريت من حدر .

إبن نفاع الذي تجرأ وقال هذا الكلام لم يجرؤ غيره أن يقول كلاماً واضحاً ، او بصوت عالٍ ، وحتى الذين تساءلوا فيما بينهم ، بصوت منخفض ، أقرب الى الهمس ، لم يعرفوا كيف يصلون الى إجابة من أي نوع يمكن ان تقنعهم أو ان تهدىء مخاوفهم . قال الكثيرون بنوع من التسليم ان قسوة الأمير على ابن الراشد ، ثم موته . بذلك الشكل ، ادى الى المرض الذي حلّ به .

أما الدباسي الذي بلغه أن الأمير لا يستقبل أحداً ولا يرغب بزيارة أحد ، فقد وجد في ذلك مخرجاً له ، اذ هو ذاته في حالة نفسية سيئة أقرب الى التشاؤم ، ولا يرغب أن يراه الأمير على هذه الحالة . لكن ما كادت بضعة أيام تنقضي حتى أرسل وراءه نائب الأمير وطلب منه ان يعدّ لرحلة صيد ، مثل السنة الماضية ، لأن ذلك

وحده يمكن ان يشفي الأمير . ورغم ان الوقت ما زال مبكراً لمثل هذه الرحلة الا أن الفكرة لاقت هوى لدى الدباسي ، وأحس انها إذا تمت فسوف تشفي الاثنين معاً ، ففي اعماق الصحراء ، حيث يجد الانسان نفسه في هذا المدى اللامتناهي مع الصمت ومع الطبيعة في حالتها البدائية البكر ، لا تتاح الفرصة فقط من أجل ان يعيد الانسان تقييم ما جرى ، وانما تتم عملية شاقة تمارس بهدوء وصمت من أجل ان يتشكل الانسان على نحو جديد .

أما حين استفسر عن مرض الأمير وما اذا كان يستطيع ان يراه فقد قال نائبه وهو يهز رأسه بألم :

ـ العلة في أكثر من مكان . . . يا أبو صالح

وبعد فترة صمت اضاف :

ـ واليوم قال : ما أريد أحداً ، لكن اذا جاء الغد أو عقبه تشوفه !

ولم يلح الدباسي ولم يكرر السؤال . انطلق يعد لرحلة الصيد لكن دون استعجال كبير

في ذلك اليوم وبذلك الشكل المفاجىء حين غادرت الباخرة استبد بالأمير نوع من النزق ما لبث أن تحول الى غضب ، إذ يمكن لأية كلمة ، لأي تصرف ، ان يخرجه عن طوره ، ويمكن لأي انسان ان يصبح بنظره خصماً . لقد شعر انه خُدع ، وان رحيل الباخرة وترحيل الذين كانوا عليها مؤامرة ضده . اذ ربما وصل الى علم الأميركان ما كان يفعله ، ولا بد أن يكون هناك من نقل اليهم ان الأمير ليس لديه ما يفعله سوى مراقبة الباخرة ، خاصة النساء اللواتي كن عليها ؛ وذهبت به الظنون درجة أن الذي أوصل الخبر للأميركان . لا بد ان يكون واحداً من رجاله ، ولذلك اتخذوا هذا القرار المفاجىء والعاجل بالرحيل .

بدأ الأمير يشك بمن حوله . وأصبح كل واحد من رجاله متهماً . كان ينظر الى الوجوه ، خاصة العيون ، نظرات مليئة بالشك والتساؤل ، فاذا ارتبك احدهم ، اذا ظهر عليه الخوف ، كان يقول ، فتخرج الكلمات من بين اسنانه : « انت . . . ها ؟ » فاذا حاول احد ان يسأل او أن يستفسر كان يصرخ وقد بلغ به الغضب مبلغاً كبيراً :

ـ هالحين رح من وجهي ، امش ، ما اريد أشوف وجهك ، بعدين نتفاهم .

وينقلب الرجل خارجاً لا يعرف ماذا فعل ولماذا يخاطبه الأمير بهذه الطريقة . وهكذا يوماً بعد آخر اصبح لا يريد ان يرى أحداً من هؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى التجسس عليه ونقل أخباره الى الآخرين . وهذا ما أدى الى انتشار الاشاعات حول ضيق صدره ثم مرضه .

وإذا كانت القصة كلها قد بدأت اقرب الى المزاح ولا تتعدى تزجية الوقت ، فان نائب الأمير ادرك في وقت من الأوقات ان الأمر وصل درجة من الخطورة يمكن أن يؤدي الى نتائج غير مريحة ، لذلك ابعد الرجال وتكتم على الأمر . أما عندما ابحرت الباخرة وانتهت تلك اللعبة فقد ظن ان كل شيء عاد الى طبيعته ، لكن ما لاحظه من انفعال الأمير وغضبه ، ثم تلك الشتائم والشكوك التي أخذت تميز تصرفاته ومواقفه تجاه الآخرين ، جعله يخاف ويتحسب ، فاتصل بالدباسي لكي يعدّ لرحلة الصيد الجديدة ، وأرسل وراء نعيم يطلب اليه الحضور لكي يتكلم مع الأميركيين من أجل دعوة الأمير لمشاهدة الصندوق الحديدي عن قرب والتعرف على هذه الآلة الجديدة . أما محاولاته لحماية الرجال ، ودفع أذى الأمير عنهم فقد أخذت اشكالاً عديدة وماكرة . حين رآه قاسياً يشتم ويهدد جوهر ، الذي كان أقرب الناس اليه ، قال له بعد أن خرج جوهر متعثراً :

ـ تسمع مني كلمة يا أبو مسفر ؟

فلما نظر اليه الأمير متسائلاً دون ان يجيب استمر :

ـ اسمع وأترك يا طويل العمر

توقف قليلاً ، رسم على شفتيه ابتسامة وتابع :

ـ الحق حق يا طويل العمر ولازم الواحد يقوله . . .

ظل الأمير يتطلع اليه دون ان يتكلم ، لكن بدأ يظهر الضيق على وجهه . قال نائب الأمير :

ـ رجالنا هم رجالنا يا أبو مسفر ، تقطع رأس الواحد وما تخرج منه كلمة . . .

وجر نفساً ثم أضاف بحزن :

ـ لكن مثل ما عندنا عندهم ، ومثل ما شفتهم شافوك . . . يا طويل العمر .

وأمسك نائب الأمير بالمنظار ، هزه عدة مرات وقال بحدة :

ـ هذه هي البليّة !

لأول مرة انتبه الأمير وكأنه فوجيء بهذا الكلام يسمعه . هز رأسه وفتح عينيه على اتساعهما .

تابع نائب الأمير :

ـ ومثل ما سمعت ، يا أبو مسفر ، الحريم اللي شفناهم كلهن قحاب ، سراويلهن محلولة ويفلّتن ، والأحمر والأبيض اللي تشوفه ديرم وصبغ وما يساوي التعب والهم .

شعر الأمير ان قوته تلاشت ، وان الطريقة التي يتكلم بها نائبه لا تعجبه بل وشعر انه ضعيف الى درجة ان أي انسان يمكن ان يسحقه . انتفض شيء في داخله ، لكنه وجد نفسه عصبياً وغير قادر على ان يقول ما يفكر فيه ، او كأن افكاره تضيع منه قبل ان تتبلور وتستقر . قال في محاولة اخيرة لأن يفك عن نفسه الحصار الذي يحس به :

ـ يا أبو رشوان . . اللي تقوله صحيح ، لكن النفس خضرا .

* * * *

كانت هذه بداية الشفاء .

خلال يومين او ثلاثة جاء هاملتون ونعيم في زيارة الى الأمير ، وخلال هذه الزيارة جرى الحديث عن أعمال جديدة وكبيرة ستقوم بها الشركة ما بين وادي العيون وحران ، وضرورة ان تُبذل الجهود من أجل تأمين اعداد اضافية من العمال ، وأن الشركة ستبدأ في حران ايضاً باقامة ابنية ومنشآت اخرى .

وفي نهاية الزيارة عرض على الأمير ان يزور حران الأميركان ، وأن يطلع بنفسه على المنشآت والأعمال التي قامت . وجرت الاشارة الى السيارة الخاصة بمدير الشركة ، وسوف يكون الجميع سعداء اذا قام الأمير بالزيارة والتعرف على جميع الأشياء مباشرة .

كان الأمير طوال الزيارة صامتاً يسمع ويهز رأسه ، وبين فترة وأخرى ، وبشكل مفاجيء ، يركز نظراته على هاملتون ثم يتطلع فجأة وبسرعة الى نعيم . كان تواقاً لاكتشاف ما يعرفونه عنه ، خاصة في الأيام الأخيرة ورغم ان هذه الطريقة قد نحت الخوف الى قلب نعيم ، فبدا مرتبكاً أكثر من مرة ، الا ان افكاره انصرفت الى امور اخرى ، ربما الى هاجم ومزبان ، وربما فكر بابن الراشد ايضاً . أما

عندما وجهت الدعوة للأمير لزيارة المعسكر ، فقد وافق ، لكن لم يحدد موعداً ، وأضاف بنوع من التعريض :

ـ قلت لأبو رشوان ، والبوابير تقف مقابلنا ، هنا . . .

وأشار بيده وهز رأسه :

ـ لا تتركوا الجماعة ، شوفوهم ، اسألوا اذا كانوا محتاجين اي شيء . . .

توقف قليلاً ثم أضاف بطريقة تقريرية ، وهو يتطلع الى هاملتون مباشرة :

ـ اذا جاءت البوابير مرة ثانية لازم اشوفها بنفسي !

كان يمكن لفترة النقاهة ان تطول أو أن تأخذ نسقاً آخر لولا مجيء حسن رضائي في هذه الفترة . قال يشرح الأسباب التي دعته الى المجيء :

ـ اذا شرب الواحد من ماء حران لا بد ان يرجع اليها . . .

بدأ الصوت منخفضا كأنه يحدث نفسه ، فلما وجد الجميع ينصتون اليه استمر :

ـ من يوم ما تركت حران ، وكل يوم بمكان ، كل يوم بديرة جديدة ، لكن حران ظلت هنا . . وهنا

ودق بجمع يده على صدره ، ثم بالسبابة والوسطى دق على صدغه بعد ذلك وهو يبتسم ويتطلع الى الأمير . رد الأمير ليدفعه الى مواصلة الحديث :

ـ اذن ما تركت مكاناً الا وشفته ؟

أجاب بسرعة :

ـ العالم ، يا صاحب السمو ، لا نهاية له ، ومهما تجول الانسان ومهما زار من اماكن ، تبقى هناك امكنة كثيرة يجب ان تشاهد ، ان تزار . واذا كان لكل شيء في هذا الكون نهاية وحدّ ، فان شوق الانسان الى التعرف والاكتشاف لا يحده حد وليس له نهاية .

توقف قليلاً وهو يهز رأسه متذكراً أماكن وأشياء كثيرة راها في أسفاره ، فلما رأى الأمير مصغياً متابعاً أضاف بنبرة جديدة :

ـ لا بد ، يا صاحب السمو ، ان نسافر معاً ، وان نتجول في هذا العالم لنتعرف عليه .

دوت ضحكة الأمير وتطلع الى نائبه وسأله :

ـ ما قولك يا أبو رشوان ؟

قال حسن رضائي :

ـ ركوب البحر مضجر في البداية ، لكن اذا تعود الانسان عليه لا يجد مكاناً افضل منه .

رد الأمير :

ـ خلينا بأرضنا أحسن

ومن جديد تطلع الى نائبه وأضاف بتورية :

ـ طرف البحر ، هنا ، مقابلنا ، قتلنا ، فما بالك لو رحنا أو وصلنا ابعد ؟

قال حسن رضائي بحماسة وانفعال :

ـ يبقى يا طويل العمر ، البحر العالي غير الجرف . البحر العالي عالم ثاني .

وبضحكة مدوية رد الأمير .

ـ الجرف احسن ، الجرف أمن وقريّب .

في غمرة الحديث والضحكات المدوية دخل ثلاثة من بحارة حسن رضائي ، من الذين يعملون معه على الباخرة . كان العرق يتصبب من وجوههم الحمراء المحروقة ، والتي تشبه نحاساً قديماً . كان اثنان منهم يتعاونان على حمل كيس متوسط الحجم ، ويبدو ان ما في الكيس ثقيل وثمين ، لأن طريقتهما في حمله ، ثم عندما انزلاه على الأرض اوحت بذلك . أما الثالث فكان يحمل قطعة مكعبة من حجر أسود يشبه الفحم .

وفي جو من الصمت الذي خيم ، وقد رافقه الترقب والانتباه نهض حسن رضائي بثقة ، اخرج من جيبه سكينا صغيرة وفتح الكيس . وطلب من أحد رجاله ان يخرج ما بداخله . جرت العملية بحذر بالغ وانتباه شديد ، فلما وضع ذلك الصندوق اللامع ، والذي كان في طرف منه مغطى بقماش يشبه الصوف ، أمام الأمير ، نظر اليه باهتمام ، لكنه ظل صامتا . انه يرى لأول مرة شيئا مثل هذا ، فلم يستطع ان يخمّن لأي أمر يمكن ان يستعمل ، فلما أخرجت بعض الحبال ، أو ما تشبه الحبال ، من الجانب الخلفي للصندوق ، وربطت الى القطعة المكعبة السوداء التي كانت الى جانب ، وبعد ان تأكد حسن رضائي بنفسه ان كل شيء وضع في مكانه ، فرك يديه وابتسم ابتسامة واسعة ، وجلس قرب الصندوق ، وقبل ان يبدأ المرحلة الجديدة من عمله ، نظر الى الأمير ونظر الى الآخرين أيضا . كانوا صامتين وقد

ظهرت على وجوههم علامات الخوف والتساؤل معاً ، تنحنح وقال :

ـ هذه الهدية التي حملتها اليك من مكان بعيد ، يا صاحب السمو ، سوف تنقل اليك العالم ، وسوف تنقلك الى العالم ، حتى ابعد نقطة . . . وانت في مكانك .

انفتحت عيون الأمير دهشة واهتز رأسه اهتزازاً موصولاً دلالة انه فهم واستوعب تماماً ما قاله حسن رضائي . وظل صامتاً مترقباً الخطوة التالية .

قال حسن رضائي ، وقد تغيرت لهجته :

ـ وهذه الآلة ، يا صاحب السمو ، شديدة الحساسية والدقة ، بحيث لا يجوز ان يمدّ أحد يده اليها غيرك .

ازدادت الدهشة على وجه الأمير وخالطها نوع من الخوف ، وتبادل الرجال النظرات فيما بينهم . قال حسن رضائي ، وهو يفرك يديه ويبتسم بثقة :

ـ الآن نبدأ . . .

وحرك يده على الصندوق ، من أحد الجوانب ، وانتظر قليلاً ، وعيناه مثبتتان على وسطه ، ووجهه شديد التربب منه ، كأنه يوشوشه . اضاء شيء اخضر وسط الصندوق ، فتبادل الأمير نظرات سريعة مع الآخرين . كانت نظرات تساؤل وخوف ، لكنه حاول ان يتماسك . أما في اللحظة التالية ، وعندما حرك حسن رضائي بعض الأجزاء البارزة من الصندوق ، ودوّت اصوات قوية منبعثة من حيث لا يدري أحد ، فقد اجفل الحضور جميعاً ، تراجع عدد من الرجال ، واختبأ واحد وراء اثنين من رفاقه . أما الأمير فقد غير جلسته والتفت الى الآخرين وكأنه يطلب اليهم ان يكونوا أقوياء ومستعدين . حرك حسن رضائي الأجزاء البارزة اكثر من قبل ، فأضاء اللون الأخضر بقوة ثم تلاشى ، مع وشّة قوية صاخبة . حرك من جديد ، وفجأة انبعث صوت موسيقى . كانت الموسيقى واضحة ، وكأن الصوت يصدر من الخيمة ذاتها . نظر الرجال بعضهم في وجوه بعض باستغراب ، أما الأمير فقد تحرك بجسده كله واقترب من الصندوق ، وكانت ابتسامته تملأ وجهه . ثبت حسن رضائي الصوت أكثر من قبل ورفعه فامتلأ المكان .

وباستمتاع ممزوج بالرهبة استمع الرجال الى الموسيقى صامتين . بعد دقائق ، وبطريقة خفية شديدة المهارة وبحركة لم يرها الكثيرون ، لسرعتها ، اوقف حسن

رضائي الموسيقى ، فبان الصمت عميقاً مديداً ، حتى ليستطيع الانسان ان يلمسه بيديه . وفي هذا الصمت جاء صوت حسن رضائي مرة أخرى :

ـ هذه موسيقى ، يا صاحب السمو ، هذه مجرد محطة ، وهناك اشياء كثيرة غيرها !

وبنفس المهارة والخفة حرك حسن رضائي يديه فانبعث من بعيد صوت ، كان الصوت يظهر ويغيب ، وكان اللون الأخضر وسط الصندوق يلتمع ويتلاشى ، فعندما يظهر الصوت ويلتمع اللون الأخضر يسمع الرجال « واذا مات الملك في بلاد سرنديب صرّ على عجلة قريبة من الأرض وعلق على مؤخرتها مستلقياً على قفاه ، يجر شعر رأسه التراب عن الأرض ، وامرأة بيدها مكنسة تحثّ التراب على رأسه وتنادي : أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وكان امره نافذاً فيكم ، وقد صار الى ما ترون من ترك الدنيا واخذ روحه ملك الموت ، فلا تغتروا بالحياة من بعده. وكلاماً نحو هذا ثلاثة أيام ، ثم يهيء له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ويرمى رماده في الريح(١) » هكذا سمع الرجال فنظر بعضهم الى بعض لا يصدقون ما يسمعون ، أما حين اختلط الصوت بالأصوات الأخرى ، وغاب اللون الأخضر ، فعندئذ لم يستطع أحد أن يسمع شيئاً .

كان بعضهم ينظر الى بعض بدهشة تصل حدود عدم التصديق : كيف يمكن لهذا الصندوق أن يخرج الموسيقى وأن يتكلم؟ من يعزف؟ أين يجلس وكيف يأكل وينام وكيف يسعه هذا المكان ؟ وهذا الذي يتكلم ، كما يتكلم ابن نفاع او الامام ، هل هو نفسه الذي عزف الموسيقى ام أحد غيره ؟

قال حسن رضائي بفرح :

ـ واحد . . . اثنان . . . والآن ثلاثة .

ومن جديد حرك يده على الصندوق فخرج صوته يغني :

أيها الفلك على وشك الرحيل
ان لي في ركبك الساري خليل
رقرقت عيناي لما قال لي صار الوداع
وبكى قلبي مما ذاع في الكون وشاع

(١) ابن السيرافي ، أحد جغرافيي القرن الرابع الهجري (عن كتاب د. شاكر خصباك : كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي ـ صفحة ٨٨ ، وهذا النص من كتاب أخبار الهند والصين

غابت الشمس وراء الأفق
هف نفسي كاد يغفو رمقي
حين حياني حبيبي وتبادلنا الوداع
وانطوى منه نصيبي عند تصفيق الشراع

ما إن انتهت الأغنية واعقبها : « هنا محطة الشرق الأدنى » حتى اقترب الأمير كثيرا من حسن رضائي ، ومثل طفل لا يستطيع ان يخفي فرحه وعجبه قال بصوت عال .

ـ هالحين انا أسويه . . بس علمني .

ـ الأحسن ان يستريح . لازم يستريح !

ـ مرة واحدة . . وبعدها يستريح

ـ مرة واحدة . . . ها ؟

ـ أي مرة . . مرة واحدة !

ومثل طفل يقترب من نار سبق ان عرف معناها اقترب الأمير . وبصبر وانتباه وضع يده حيث أشار حسن رضائي ، وبدأ يحرك حسب ارشاداته ، فلما وصل الى موسيقى قوية انبعثت فجأة رفع يده بسرعة وكأنه خاف او جفل ، فلما ملأت الموسيقى بصوتها القوي الخيمة وما حولها تراجع الأمير قليلاً الى الوراء ، نظر في وجوه الرجال الصامتين الذين كانوا يرقبون كل حركة بكثير من الانتباه والحذر ، وكأنه يقول لهم انه يعرف أكثر منهم ، ويعرف ما لا يعرفون . بعد دقائق والأمير يهز رأسه بهدوء وطرب ، وكأنه هو الذي جاء بهذه الموسيقى من حيث لا يعرف احد ولا يستطيع احد ، وبعد ان خيم ، للحظات ، جو من الصمت قال حسن رضائي بنوع من القلق :

ـ يا صاحب السمو . . . لازم يستريح .

ومثلما بدأ بانفعال وصمت ، وبمهارة ايضاً ، اخذ الان يحرك يديه على الصندوق ، من هذه الجهة ومن الجهة الثانية ، ثم فك الحبال عن الحجر الأسود وعادها الى مكانها ، حتى اذا انتهى من كل شيء فرك يديه وتطلع في الوجوه ، خاصة وجه الأمير ، يسألها دون ان يتكلم ، رأيها فيما رأت وما سمعت . كانت الوجوه صماء اقرب الى الاستغراب وعدم التصديق ، أما الأمير فقد قال ورأسه يهتز

كما لو ان ريحاً لا ترى هي التي تهزه :

ـ العالم اللي حولنا عالم عجيب وكله أسرار . والله ، سبحانه وتعالى ، علم الانسان ما لم يعلم . المهم ان تسلم نيته وينفتح قلبه وعند ذاك ينشرح صدره والله سبحانه وتعالى يلهمه ويعلمه .

بدا كلام الأمير غامضاً لا يعني شيئاً ، اضاف وهو يتوجه بالكلام الى نائبه :

ـ الدربيل يشوّف الشعرة من مسافة بعيدة . صندوق الحديد الأصفر يركض مثل الغزال ولا يتعب ، وهذا الصندوق ساعة يحكي وساعة يشكي وساعة يصلي على النبي !

واضاف بعد قليل بنوع من العجب :

ـ سبحان الله الذي علّم الانسان ما لم يعلم .

خبر وصول الآلة العجيبة الى الامير انتشر اسرع من اي خبر آخر . حتى « الصندوق الحديدي » ، الذي وصل الى حران الاميركان ، كما سمّاه الكثيرون ، وسماه غيرهم « حصان الجن » وتحدثوا عنه اياماً عديدة ، بالرغم من ان الذين رأوه كانوا قلة محدودة ، وقد رأوه من مسافة بعيدة ؛ حتى حصان الجن لم يثر من الاهتمام والتساؤلات والخوف ما اثارته الآلة الجديدة . لم يستطع احد ان يصفها او ان يقول شيئاً محدداً عنها . أما عندما بعث الامير ببعض رجاله الى المقهى والسوق ليدعو عدداً من الوجوه ، دون ان يوضح سبب الدعوة او ما سيجري خلالها ، فقد كان الناس في كل مكان يتحدثون عن « العجيبة الجديدة » ، واكد ثلاثة او اربعة من الرجال انهم سمعوا اصواتاً خلال النهار ، وكأنها تهبط من السماء او تنبع من الأرض ، وقال واحد من هؤلاء انه سمع صوتاً خلال النهار يناديه ، فلما التفت حواليه لم يجد احداً .

ورغم ان الكثيرين حاولوا مع رجال الامير لكي يفهموا منهم شيئاً عن هذه الآلة ، وما اذا كانوا قادرين على وصفها لهم ، او ان يعطوهم فكرة عنها ، الا ان هذه المحاولات كلها انتهت الى الفشل ، فلا الذين سألوا في المقهى او السوق عرفوا كيف يسألون ، ولا رجال الامير أجابوا الا اجابات زادت الموضوع غموضاً وحيرة . كانت الاجابات شديدة الاختصار تماماً ومبهمة : « شيء لم يسمع الناس بمثله من قبل »

« اللي شاف ما هو مثل اللي سمع » وقال احد رجال الامير ، وكان اسمه شهاب ، وقد كُلّف ان يبلغ دعوة الامير الى ابن نفاع والسيف والدباسي ، قال وهو يهرول لكي يخلص من الناس :

- باكر . . اذا شفتم ، يا اهل حران ، تنهبلون !

ابلغت الدعوة الى الجميع مبكراً ، قبل الغروب بساعتين تقريباً ، وبعض الذين لم توجه اليهم الدعوة ، لم يستطيعوا ان يقاوموا الفضول الذي احسوا به ، ولم يستطيعوا ان ينتظروا لكي ينقل اليهم الآخرون ، فصمموا على ان يذهبوا ، ان يكونوا قريبين بشكل ما ، حتى اذا واتتهم الفرصة بشكل او آخر اندفعوا متذرعين بحجة ما لكي يشهدوا هذه الآلة العجيبة ، ولكي ينقلوا الى اهل حران ، قبل غيرهم ، ما شاهدوه .

أما الامير فقد كان طوال فترة بعد الظهر شديد التهيج والانفعال ، فلم ينم ولم يبرح الخيمة . وكانت عيناه لا تفارقان هذا الجهاز العجيب . أما المرات التي وقف وتمشّى خلالها فلكي يلقي نظرة متأملة ، ومن قريب ، او لكي يرى هذا الجهاز من جميع جوانبه ، وقد جسّه اكثر من مرة باصابع خائفة مختبراً صلابته . وكان يمتلىء تصميماً ساعة بعد اخرى على ان يتولى بنفسه تشغيل الجهاز دون اية مساعدة من حسن رضائي ، ولذلك كان يتخير الوقت المناسب لكي يطلب منه ان يعلمه الحركات كلها : كيف يبدأ ومن اين ، ثم ما هي الخطوة التالية ثم الخطوة التي بعدها ، حتى اذا كان متأكداً من جميع الحركات والمراحل يطلب من حسن ان يكون مع الآخرين ومثلهم اثناء قيامه بتشغيل هذه الآلة العجيبة. سوف يدهش اهل حران جميعهم ، سوف يجعلهم يشعرون ان هذا اليوم هو بدء حياتهم او اهم يوم في حياتهم . سوف يصرخون كالاطفال ، وسوف يخافون ويفرحون ويعجبون ، كيف لا وهو لا يزال شديد العجب والاستغراب من هذه الآلة التي لم يسمع بها احد ولم يرها احد ؟

في لحظة من اللحظات ، وقد اوعز الامير بان يهيأ « المجلس » مبكراً ، ساوره نوع من الخوف ان يتعذر نقل الجهاز الى الخارج ، فسأل حسن رضائي بارتباك :

- نسيت اسألك . . اليوم . . مجلسنا بالفلا ، هنا ، قرّيب ، نقدر نشيل الماخوذ

اكد له حسن رضائي ان ذلك امر ميسور جدا ، وانه يستطيع ان ينقله الى اي مكان آخر . فقط يحتاج الامر الى عناية زائدة اثناء النقل ، فلا يتعرض للاهتزاز ، ولا يُرمى بقوة ، ولا يوضع عليه اي شيء . حين اكد له ذلك بدا شديد الانفعال والفرح ، فتصور اشياء كثيرة واماكن كثيرة ، ولكي لا يفوت الفرصة قال بلهجة صداقة حميمة :

ـ هالحين اريدك تعلمني عليه ، وتقول لي كل شيء

رد حسن وهو يبتسم ابتسامة واسعة :

ـ من حقك ، يا صاحب السمو ، ان تعرف كل شيء ، وان تجرب كل شيء ، لأنني اذا كنت اليوم موجوداً هنا ، واستطيع ان اقدم بعض المساعدة ، فغداً لا اكون .

سر الامير جداً من هذا الكلام . ان الرجل يضع كل اسراره بين يديه ، ويقوي مركزه امام الآخرين ، حين يجعله متفوقاً عليهم . قال بلهجة الصداقة الحميمة ذاتها :

ـ الله يبارك فيك ويكثر من امثالك .

واندفع حسن رضائي يشرح للامير طبيعة هذا الجهاز وخطورته . تكلم كثيراً وبتدفق . قال ان الدول الاخرى تهتم بالراديو ، وتخصص له مبالغ كبيرة وعناصر كثيرة ، وهو كالمرآة للوجه ، يظهر قوة الدول واهميتها ، وان هذا الجهاز موجود في بيوت الاغنياء ، ومن خلاله يفهمون ماذا حصل في العالم من احداث واخبار ، فاذا انتهت الاخبار بدأ الطرب : الموسيقى ، والغناء ، ثم بعد ذلك الاحاديث المفيدة والقصص والاشعار وغير ذلك . .

لم يستطع الامير ان يفهم او ان يتابع معظم ما قاله حسن رضائي ، لكن كلمة « رلديو » التي كررها عدة مرات ، انحفرت في رأسه . كان الامير يتحرق شوقاً لان ينتهي الرجل باسرع وقت من هذا الحديث ، لكي يتفرغا معاً من جديد الى تشغيل هذه الآلة العجيبة ، حتى اذا جاء الرجال لا يكون بحاجة الى اية مساعدة او الى اية ارشادات . قال الامير مازحاً :

ـ التجربة ما هي مثل السالفة ، وهل الحين نقول بسم الله .

ودون انتظار اندفع الى قرب جهاز الراديو وجلس منتظراً ان يتبعه حسن رضائي . مسّد على الجهاز بيد ناعمة حنونة ، كما يمسّد الانسان على وجه طفل صغير ، ونقر نقراً خفيفاً بسبابته ، وكأنها اشارة البدء

وبنفس الخفة والبراعة والسرعة بدأ حسن رضائي . ربما كانت البداية اسرع مما توقع الامير ، او لم يستطع ان يستوعبها بدقة ، فقال بما يشبه الرجاء :

ـ يرحم والديك خطوة خطوة وعلى مهلك .

ـ امرك يا مولاي !

هكذا رد حسن رضائي مع ابتسامته ، وهذه الطريقة في الخطاب التي يتقنها حسن رضائي جيداً بمقدار ما تبدو غريبة ، غير مألوفة في حران وما حولها ، فقد كانت تدخل السرور على قلب الامير ، وتشعره بأهمية اضافية ؛ لقد لفتت هذه الطريقة نظره منذ الزيارة الاولى ، ووجد نفسه انه يحبها . الآن وهو يقول له « يا مولاي » قال في نفسه : « الناس في الاماكن الاخرى اكثر ادباً من جماعتنا ، ويعرفون كل شيء ، بما في ذلك كيف يخاطبون الانسان على قدر منزلته » أما عندما قال حسن رضائي :

ـ من جديد . . . وخطوة خطوة

فقد رد الامير :

ـ اي نعم ، من جديد خطوة خطوة . . وعلى مهل !

وخلال فترة قصيرة دوى صوت الراديو فملأ المكان : الخيمة الكبيرة والفلاة المحيطة بها ، ووصل الى الخيام الخاصة بالحريم ، فلما خفف حسن رضائي صوته قال بثقة :

ـ الآن ، يا صاحب السمو ، تقوم بكل شيء وحدك !

وحاول الامير ، لكن بدا مرتبكاً وخائفاً من الوقوع في الخطأ ، وفي محاولة لأن يسهل حسن رضائي المهمة الى اقصى حد قال :

ـ احسن طريقة ، يا سمو الامير ، هي طريقة العد .

توقف لحظة ، هز رأسه عدة مرات وكأنه توصل الى طريقة مثالية في التعليم ، تحرك قليلاً وقال :

ـ واحد ، اثنان ، ثلاثة . . وهذا اربعة . . .

وضع يده بسرعة على البطارية ، معتبراً اياها الرقم واحد ، ثم على مفتاح التشغيل واعتبره رقم اثنين ، ثم مؤشر المحطات وهذا هو رقم ثلاثة ، أما الرقم اربعة فكان مؤشر الصوت . فعل ذلك ببعض السرعة ، الامر الذي دفع الامير لان يقول :

ـ العدّ طريقة زينة ، لكن ما هو مثل صلاة البدو !

ضحك حسن رضائي ، لكن لم يفهم ما يعني الامير بصلاة البدو ، وحين شرح له ذلك ضحك كثيراً ، وقال كأنه يعلّم طفلاً :

ـ واحد . . هذا واحد . . زين ؟

وحين يهز الامير رأسه دلالة الفهم والموافقة يتابع وهو يشير الى مفتاح التشغيل :

ـ بعد الواحد اثنين ، وهذا اثنين

ويهز الامير رأسه أنه فهم ، يسأل حسن من جديد :

ـ مشينا ؟

ويرد الامير بصوت فخم :

ـ توكل على الله

ـ هذا ثلاثة ، وثلاثة يا صاحب السمو ، اصعبهم .

ويهز الامير رأسه انه فهم وانه يقدر الصعوبة التي يشير اليها حسن رضائي ، فيتابع :

ـ وهذا اربعة . هذا سهل : اذا كنت تريده عالياً يسمع حران كلها على اليمين ، واذا كنت تريده لنفسك على اليسار .

بعد عدة محاولات ، تخللتها شروح اضافية ، خاصة فيما يتعلق بالبطارية ومؤشر المحطات ، قال الامير ، وقد ظهر على وجهه السرور :

ـ هذه آخر مرة ، وبعدها نتركه يستريح ، حتى اذا جاء الجماعة انقلبت الدنيا .

توقف لحظة ، ضحك بصوت عالٍ ثم اضاف :

ـ والله لاخلّي صوته يلعلع ويصل النجم . . والى الصبح . . .

* * * *

اعد المجلس ابكر من الأيام الاخرى ، أما الراديو فقد نقل من قبل رجال الامير ، لكن باشرافه مباشرة ، وقد اعطى تعليمات حازمة قبل النقل وأثناءه ، فلما

اطمأن الى كل شيء ، ولكي يضفي على العملية مزيداً من الاهمية والتشويق ، القى عباءته على الراديو وغطاه تماماً !

حاول الامير ان يكون بتصرفاته وكلامه طبيعياً بل اقرب الى البساطة ، اذ تكلم مع بعض رجاله بطريقة رقيقة ابوية ، خلافاً للأيام السابقة ، وبدا ذلك غريباً منه ، الا ان حالة التوتر الداخلية التي كانت تسيطر عليه جعلته كثير الحركة ، سريع التنقل ، خائفاً او اقرب الى الخوف . انه الآن أمام تجربة جديدة ، ورغم انه كان متأكداً وواثقاً ، الا ان بعضاً من الشك ظل يراوده : « ماذا لو مات الجهاز دفعة واحدة او اخطأ في تشغيله وادارته ؟ ماذا لو اخطأ في العد او معرفة المفاتيح ، كما سماها حسن رضائي ؟ اي خجل سيحس به اذا فشل ، ثم جاء بعد ذلك حسن رضائي لكي يبعده ويحل محله ، وما فشل فيه ، استطاع هو ان ينجزه ببساطة ، وبعد ان يفعل ذلك ينظر اليه بطرف عينه ، وينظر الى الآخرين ويبتسم . اذا حصل هذا الا يعتبر بنظر نفسه ، على الاقل ، غير كفوء او عاجزاً ؟ » هكذا مرت الافكار والتساؤلات ، وقد زادت في توتره . كان يود ، في هذه اللحظة ، لو يستطيع ان يقوم بتجربة اخيرة : « كان يجب ان نجرب الجهاز في مكانه الجديد » لكن ماذا يقول عنه حسن رضائي لو حاول ذلك ؟

قبل الغروب بقليل جاء الرجال ، جاء اولاً الدباسي ، وقد تعمد ان يأتي مبكراً ، وقبل الآخرين ، لانه لم ير الامير منذ أيام طويلة ، ولأنه كان يشعر بنوع من الذنب لا يعرف سببه بشكل واضح ومؤكد . يمكن ان يكون السبب هو موت ابن الراشد ، او ربما انقطاعه عن زيارة الامير ، او شعوره باللاجدوى . المهم ان شعوراً مثل هذا كان يسيطر عليه ، أما ما سمع الناس يتناقلونه في مقهى ابو اسعد عن الآلة العجيبة فلم يكن ليشغله كثيراً . فقد سمعه اكثر من واحد في المقهى يقول « لو سافرتم ورأيتم العالم ، يا اهل حران ، لكانت الدنيا بالنسبة لكم غير الدنيا » ولم يضف الى ذلك شيئاً ، ولم يستطع الذين سمعوا كلامه على اي وجه يفسرونه .

وجاء عبد الله السعد ومحمد السيف معاً ، وجاء الذاووي وابن نفاع معاً ايضاً ، وقد تكلما كثيراً وهما يصعدان التل الشمالي ، تكلما عن الفساد الذي انتشر ، والشر الذي عمّ ، وعن خراب الذمم واقتراب نهاية العالم ، أما ما يحاوله الامير ، وما يحصل في حران تحت سمعه وبصره ، وسكوته الذي لا يجدان له سبباً او كيف

يفسرانه على المفاسد وتساهله مع الاميركان ، فإنها امور تحيرهما وتثير من الشكوك اكثر مما يتوقع الانسان او مما يمكن الموافقة عليه او احتماله . أما حول ما سمعاه عن الآلة العجيبة ، المفاجئة ، فقد قال ابن نفاع بصوت تمنى لو يسمعه الاخرون :

ـ اللي شفناه ، يا ابو محسن ، يكفينا وزود ، واذا كان هذا التكروني اللي شف شفار امه وانهبل ، يريد يهبل الناس فلا هو ولا يومه .

لما انحدرت الشمس وراء التلال الغربية ، ولم يعد يظهر منها الاشعاع برتقالي يزداد قتاماً لحظة بعد اخرى ، وكان الذين دعاهم الامير قد حضروا جميعاً ، بمن فيهم ثلاثة من معسكر العمال ، احدهم ابن الزامل ، وكان آخر الحاضرين دحام المزعل ، اذ جاء مهرولاً فتبلل بعرقه وتعثر حين دخل الخيمة . لما تأكد الامير من حضور المدعوين ورأى ايضاً اثنين او ثلاثة من اهل حران ، لا يعرف كيف حضروا او ماذا يريدون قال وهو ينهض :

ـ تحت السماء ، يا اولاد الحلال ، اطيب وأرحم .

وقام الرجال . كان لقيامهم وحركتهم ضجة مسموعة لكن لم يرافقها اي كلام . الامير الذي مشى متقدماً خطوة او اثنتين عن الآخرين ، وبدا واثقاً ، كان في اعماقه مرتبكاً وفي عجلة من امره . طلب باشارة من يده الى حسن رضائي ان يكون قريباً منه ، وقد الحّ عليه ان يتقدم اكثر . فاستجاب الرجل بحركة عفوية متقنة . أما ابن نفاع فلم تفارق عيناه تصرفات حسن رضائي وحركاته لحظة واحدة . لقد ترك الجميع وركز نظراته عليه منذ ان وصل . وحسن رضائي الذي التقت عيناه بعيني ابن نفاع اكثر من مرة ، كان يبتسم في كل مرة ، لكن ابن نفاع لم يستجب لهذا الاغراء ، ولم يسحب نظراته عنه . الآن والامير يعامله بتلك الطريقة ، ويلح عليه ذلك الالحاح ، قال ابن نفاع في نفسه : « ما يندري اذا كان الرجّال ضيف رحمان ام ضيف شيطان ، لكن مثل ما يقولون اذا جاءت العلة من البطن العافية تجي منين ؟ ويظهر ان ابن الحرام ،هالقرباطي . دخل تحت ابط الامير وما اظنه الا لاعن اجداده واجدادنا » .

ما كاد الرجال يجلسون ، ونظراتهم مركزة حول العجيبة الراقدة الى جانب

الامير ، ناحية اليسار ، ومغطاة بعباءته ، وقد أقضّ قلوبهم التساؤل ، حتى قال الامير بصوت بدا مرتجفاً قليلاً :

ـ الدنيا ، يا جماعة الخير ، ما هي مثل قبل . تغيرت . تغيرت كثيراً . صارت صغيرة ، وهي تجي للبني آدم ، تجي لحضنه ، بدل ما هو يروح اليها .

لم يفهم اي من الرجال ما يرمي اليه الامير ، بل ان كلامه هذا زاد الغموض الذي كانوا يحسون به ، تململ الامير في جلسته وتابع ، فبدا صوته اكثر ثقة :

ـ والواحد ما يصدق الا اذا شاف بعينه ، الا اذا جرب بنفسه .

والتفت صوب حسن رضائي وقال وهو يبتسم ، كأنه يتبادل معه سراً :

ـ اذا شافوا بعيونهم يصدقون .

ودون انتظار قفز مثل هر . نحّى العباءة جانباً وسأل بطريقة استعراضية :

ـ تشوفون هذا الماخوذ ؟

وحين هزوا رؤوسهم مؤكدينَ انهم يرون الجهاز الذي يشير اليه تابع :

ـ هذا يجوب الدنيا كلها في طرفة عين ويقول لك كل شيء .

ظل الرجال ينظرون صامتين ، قال الامير ، وهو يفرك يديه ، تماماً كما فعل حسن رضائي حين استعد لتشغيل الراديو :

ـ هذا اللي تشوفونه : ساعة يحكي وساعة يبكي وساعة يصلي على النبي !

توقف لحظة ، نظر الى الراديو ، ثم نظر الى الرجال ، قال وهو يهز رأسه :

ـ وهذه الساعة نتوكل على الله .. ونبدأ .

وبصوت يكاد يكون مسموعاً بدأ الامير : واحد ، ووضع يده على البطارية ، انتظر لحظات ، واضاف : اثنين . قعد مقابل الراديو ، معطياً ظهره للآخرين ، حتى اذا ظهر اللون الاخضر تنحى جانباً ومال بجسده كله وبدأ يحرك مؤشر المحطات ، فلما استقر ذلك المؤشر على محطة ، وتأكد من ذلك ، حين سمع بعض الكلمات ورأى اللون الاخضر قوياً زاهياً التفت الى الرجال وقال بصوت قوي :

ـ اسمعوا .. اسمعوا

ولما رفع مفتاح الصوت سمعوا : « وجاء في الخبر ان ابن الخطاب بكى لما فتحت عليه كنوز كسرى وقال : ان هذا لم يفتح على قوم قط الا جعل بأسهم بينهم » .

ما كادوا يسمعون هذا الكلام حتى غاب الصوت تقريباً، وحلّت مكانه ونّة قوية موصولة . فنظر الرجال بعضهم الى بعض ونظروا الى ذلك الجهاز الذي حركه الأمير باستغراب . وقد ارتخت أفواههم وحملقت عيونهم . وما كادت الونة تغيب قليلاً حتى سمعوا من جديد : « ما الفقر أخشى عليكم . ولكن أخشى عليكم ان تبسط الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » وقال الرسول عليه الصلاة والسلام ايضاً « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

كان الأمير يتطلع الى الوجوه واحداً واحداً ليرى الأثر . فلما وجدهم صامتين ينظر بعضهم الى بعض ، ثم ينظرون الى ذلك الجهاز بحيرة . قال وهو يفرك يديه ويضحك :

ـ هذه واحدة

وخفض الصوت كثيراً حتى لم يعد يُسمع وقال :

ـ بعيونكم شفتم وبآذانكم سمعتم . وهالحين خذوا غيرها

ومال مرة اخرى بجسده كله ، حتى كاد ينبطح ، واخذ يحرك مفتاح المحطات ورأسه ملتصق بالراديو تماماً ، فلما سمع صوتاً اطمأن اليه ، وضع يده على مفتاح الصوت وقال وهو يضحك :

ـ وهذه الثانية . . .

وهدر صوت موسيقى قوياً صاخباً فملأ المكان . تطلع اليهم ، هز رأسه مرات كثيرة وهو يضحك ، ومن جديد رفع الصوت اكثر من قبل فضجت الاصوات اكثر من قبل . دخلت الرعشة الى الاجساد ، وجعلت العيون معلقة والنفوس واجفة ، والرجال لا يجرأون أن ينظر بعضهم في وجوه بعض نظراً مباشراً وإنما يسرقون من زوايا العيون نظرة الى هنا ونظرة الى هناك . كانوا يخافون أن يخرج من هذا الصندوق فجأة بشر فيقتلوا الناس جميعاً . والأمير الذي كان شديد السعادة، وقد تبادل نظرات طويلة مع حسن رضائي، وغمزات أيضاً مشيراً الى التأثير القوي الذي حصل، تمنى في تلك اللحظة لو انه دعا اهل حران جميعا ، ولم يقتصر على مجموعة صغيرة منهم ! « لو كانوا جميعاً موجودين لرأينا العجب » لكن هذه الفكرة ما لبثت ان تلاشت . « لأن الاسرار يجب ان تبقى بين الكبار . الذين يفهمون ويقدرون ! » .
بعد هذه الموسيقى الصاخبة سمعت كلمات لم تفهم ابداً ، وبخفة ، مثلما فعل حسن رضائي ضحى هذا اليوم ، اخرس الامير الصوت تماماً وقال :

ـ هذه الثانية . . وبعدها كثير .

ومثلما انبطح في المرة السابقة انبطح من جديد ، ظل يحرك وينظر الى اللون الاخضر فلما استقر على صوت اطمأن اليه اعتدل في جلسته ، وقال :

ـ اليكم الثالثة :

« زعموا[1] ان طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوي كان وطنه على ساحل البحر ومعه زوجة له ، فلما جاء اوان تفريخهما قالت الانثى للذكر لو التمسنا مكاناً حريزاً نفرخ فيه فاني اخشى من وكيل البحر اذا مد الماء ان يذهب بفراخنا . فقال لها افرخي في مكانك فانه موافق لنا والماء والزهر منا قريب . قالت له : يا غافل ليحسن نظرك فاني اخاف وكيل البحر ان يذهب بفراخنا ، فقال لها : افرخي مكانك فانه لا يفعل ذلك ، فقالت له : ما اشد ثقتك أما تذكر وعيده وتهديده اياك ؟ الا تعرف نفسك وقدرك ؟ فابى ان يطيعها . فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له : ان من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما اصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين ، قال الذكر : وكيف كان ذلك ؟

قالت الانثى : زعموا ان غديراً كان عنده عشب وكان فيه بطتان وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة ، فاتفق ان غيض ذلك الماء فجاءت البطتان لوداع السلحفاة وقالتا : السلام عليك فاننا ذاهبتان عن هذا المكان لاجل نقصان الماء عنه ، فقالت انما يبين نقصان الماء على مثلي فاني كأني السفينة لا اقدر على العيش الا بالماء ، فاما انتما فتقدران على العيش حيث كنتما فاذهبا بي معكما، قالتا لها : نعم ، قالت كيف السبيل الى حملي ؟ قالتا نأخذ بطرفي عود وتقبضين بفيك على وسطه ونطير بك في الجو ، وأياك اذا سمعت الناس يتكلمون ان تنطقي ، ثم اخذتاها فطارتا بها في الجو فقال الناس عجب سلحفاة بين بطتين قد حملتاها ، فلما سمعت ذلك قالت فقأ الله اعينكم ايها الناس ، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت .

قال الذكر : قد سمعت مقالتك فلا تخافي وكيل البحر . . . فلما مد الماء ذهب بفراخهما ، فقالت الانثى : قد عرفت في بدء الامر ان هذا كائن ، قال الذكر سوف انتقم منه ، ثم مضى الى جماعة الطير فقال لهن : انكن اخواتي وثقاتي فأعنني .

[1] كليلة ودمنة

قلن : ماذا تريد ان نفعل ؟ قال تجتمعن وتذهبن معي الى سائر الطير فنشكو اليهن ما تعبت من وكيل البحر ونقول لهن انكن طير مثلنا فاعنّنا . فقالت له جماعة الطير ، ان العنقاء هي سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا اليها حتى نصيح بها ، فتظهر لنا فنشكو اليها ما نالك من وكيل البحر ونسألها ان تنتقم لنا منه بقوة ملكها ، ثم انهن ذهبن اليها مع الطيطوي فاستغثن اليها وصحن بها فتراءت لهن فاخبرنها بقصتهن وسألنها ان تصير معهن الى محاربة وكيل البحر . فاجابتهن الى ذلك ، فلما علم وكيل البحر ان العنقاء قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له ؛ فرد فراخ الطيطوي وصاحه فرجعت العنقاء عنه ! » .

كان الامير فرحاً وقلقاً معاً ، فالرجال الذين انشدّوا تماماً يسمعون ويتابعون وقد انعقدت السنتهم ، وسيطر عليهم العجب ، كان منظرهم الصامت الخائف يولد الفرح ، لكن حين طال الحديث وتداخلت قصة بأخرى وفاتته بعض الكلمات وهو يتلفت ويراقب ، فقد استبد به القلق ان يكون الجهاز قد تعب ، فما كادت الكلمات الأخيرة تصل الى مسامع الرجال فترتاح وجوههم قليلاً حتى هجم بخفة قط على الجهاز وسمعه كثيرون يقول : اربعة ، ثلاثة ، اثنين ، واحد !

لما أطفأ الجهاز رجع الى مكانه متعباً فجلس وسحب نفساً عميقاً ثم نظر الى السماء ، ولما وجد الصمت قوياً مسيطراً جاءت كلماته من جديد :

- مثل ما تشوفون ، يا جماعة الخير ، ان الله علم الانسان ما لم يعلم .

كان لدى كل رجل من الرجال اشياء كثيرة يمكن ان يقولها ، فالذين سافروا ورأوا العالم كانوا يريدون ان يتكلموا ويسرفوا في الكلام ، صحيح ان الدباسي رأى الراديو من قبل ، رآه في مصر عند صديق ابن البارح ، لكنه لم يثر ولم يعجب « لان كل شيء في مصر لا يصدقه العقل » هكذا كان يلخص اغلب الاحيان انطباعاته دون قدرة على الدقة او التفصيل ، أما عبد الله السعد فقد مال على محمد السيف وقال بهمس : « ابن النقيب ، خوينا بالبصرة ، عنده واحد ، وانا شفته ! » أما الآخرون الذين لم يسافروا ابعد من عجرة فانهم كانوا في حيرة وخوف . وتمنى اكثر من واحد لو ان الامير يغطي هذه البلية اويبعدها « لان كل شيء يمكن ان يحصل في هذه الدنيا » واكثرهم لم يكن مستعداً لان يسمع اي شرح او تعليق لأن هذا الجهاز العجيب يمكن ان يتكلم ويغني وينقل القصص وربما يفعل اشياء كثيرة اخرى ، انه يفعل ذلك رغم

صغره ، وقد يكون الناس الذين فيه مخلوقات عجيبة مسحورة او ممسوخة . الوحيد الذي تجرأ على السؤال هو ابن نفاع ، لكن رغم جرأته كان متوجساً وخائفاً ، قال موجهاً الكلام الى حسن رضائي :

- هذه البلية مَنْ سوّاها ؟

رد حسن رضائي ببعض الارتباك نتيجة النظرات المعادية التي لم يكف ابن نفاع عن توجيهها اليه طوال السهرة ، رد بسرعة :

- الانسان اخترعها

- قل لي . . قل لي : الالمان او الاميركان ؟

- هذا الراديو صنع هولندي

- هولاندي ؟

- نعم . . هذا مصنوع في هولندا .

- وهناك يعرفون العربي ؟ يصلون ويصومون ويقولون اشهد ان لا إله إلا الله ؟

قال الدباسي وقد شعر ان ابن نفاع سيكون قاسياً مع الرجل :

- اذا ابو مسفر يوافق ، نريد من الخويا ، بسفرة من سفراته لحران ، ان يشتري لنا واحداً . . واذا يريد هالحين ندفع فلوسه !

رد ابن نفاع وقد اصابه الرعب :

- وتحطه ببيوتنا يا دباسي ؟

- وكل الله يا رجال ، طوّل بالك !

هكذا رد الدباسي وهو يبتسم ، ومن جديد سأل ابن نفاع .

- وتحطه ببيوتنا ؟ تجيب الذيب لغنمنا ؟

قال الامير :

- والله يا ابن نفاع انت ما ترضيك الا حزوم نجد . كل شيء ما يعجبك ، وكل شيء تقول عليه حرام .

وتغيرت لهجة الامير وقال موجهاً الكلام الى الجميع :

- يا جماعة الخير ، انتم ، بآذانكم سمعتم اللي قاله عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، واللي قاله عن ابن الخطاب . . وغيرهم وغيرهم ؟

قال ابن نفاع وهو ينهض محتجاً :

- يا جماعة الخير . اياكم وخضراء الدمن

توقف قليلا ثم اضاف بسخرية :

ـ مثل ابليس له عين واحدة ، عين خضراء ، وهذه هي التي نهى عنها الرسول وسماها خضراء الدّمن

واضاف بلهجة تهديد :

ـ وباكر يجركم الى جهنم .

قال الذين سهروا في مقهى ابو اسعد تلك الليلة ، وظلوا منتظرين يترقبون ، انهم سمعوا اصواتاً غير عادية تنبعث من التل الشمالي ، واكد هؤلاء ان هذه الاصوات يمكن ان تسمع ، دون وضوح كافٍ ، حين يهدأ البحر ويتقدم الليل . وقال عبده محمد ، الذي سهر تلك الليلة أكثر مما تعود ان يسهر ، انه سمع الحان اغان يعرفها ، وان هذه الالحان كانت تهبط اليه مباشرة من التل الشمالي . أما عثمان الاصقى ، الذي يشكو من احدى اذنيه ، فقد صمم على الذهاب الى بيت الامير دون دعوة ، لانه لم يستطع ان يقاوم الفضول الذي احس به عندما « سمع » الناس يتحدثون عن هذه الآلة العجيبة ، ويؤكد بعض الذين يحبون المداعبة ان عثمان لم يذهب الا من اجل ان يتعشى .

كان الاصقى اول الذين وصلوا الى المقهى بعد زيارة الامير والاطلاع على تلك العجيبة . للحظات طويلة التزم الصمت ، كان فقط يهز رأسه ويديه دلالة الاعجاب والدهشة . أما حين سئل عن تلك الالة وطلب منه ان يصفها فقد حرك يديه بطريقة فهمت انه لا يمكن ان يفعل ، لان ما رآه لا يقال ولا يوصف . أما حين حاول ، وقد حصل هذا بعد الحاح وانتظار ، وبعد تردد طويل ايضاً ، فقد قال ان لدى الامير شيئاً عجيباً : صندوق لكن ليس كاي صندوق . مثل سحارة الشاي ،

أصغر او ربما اكبر ، فهو ليس متأكداً ، وهذا الصندوق اذا ضرب على رأسه صرخ واخذ يتكلم ، ولهذا الصندوق ايضاً عين واحدة فقط ، عين لونها اخضر ، مثل عشب الربيع ، فاذا ضرب مرة اخرى ، ويجب ان تكون ضربات غير قوية ، تخرج منه دقات طبل ومزمار . فاذا ضرب مرة ثانية ، وعلى جنبه بالذات فانه يخرس ويموت .

حين استفسر ابو اسعد بصوت عالٍ واشارات كثيرة من يديه ما اذا كان لهذا الصندوق رقائق صغيرة سوداء تشبه الارغفة التي يخبزها عبده محمد ، لكن ارق منها ، وما اذا كان له محقان كبير يشبه محقان السمن او اكبر ، ويحتاج الانسان الى ان يحرك عموداً في طرف منه ، بعد ان شرح ابو اسعد واستعان باكثر من واحد لكي يصرخ في اذن الاصقى ، وعثمان ينفي ان يكون كذلك ، او انه لم ير ما يقول عنه ابو اسعد ، اذ كان بعيداً ، سأله ابو اسعد اذا كان لهذا الصندوق مفاتيح صغيرة وفي وسطه لوحة من الزجاج ، وعليها شعرة تتحرك ، حين اجاب عثمان ان الامر ليس بعيداً عن ذلك ، وإن كان يختلف عن هذا الوصف ، فقد جلس ابو اسعد على الكرسي الذي كان يستند اليه وقال بنفاد صبر :

ـ احك هذا الكلام من اول مرة . . يا ابن الاوادم !

وهز رأسه وهو يضحك بصوت عالٍ :

ـ هذا راديو . . يا جماعة .

والتفت الى عثمان يسأله .

ـ راديو . . ما هيك ؟

وقلب عثمان شفته وهز كتفيه دلالة انه لا يعرف .

قال واحد ، وكان بعيداً بعض الشيء ، يرقب المناقشة والاشارات ويتلهف لمعرفة هذه الآلة العجيبة ، قال وهو يتوجه الى عثمان والآخرين :

ـ الاصقى كان يسمع ويشوف ببطنه .

قال ابو اسعد ، وقد شعر انه يعرف اكثر من الآخرين :

ـ لو كان في حران كهرباء لكان الراديو موجود من زمان .

وانصرف بعد ذلك يشرح للجميع كل ما يعرفه عن هذا الجهاز ، وكيف ان اعداداً كبيرة منه موجودة في بيروت وحلب والشام ، واماكن كثيرة عاش فيها او

زارها ، واكد انه لا يخلو بيت من بيوت الوجهاء والاكابر من راديو ، واكد اكثر من ذلك ان مقهى النديم في ساحة البرج يحوي على راديو وعلى كرامافون ، ثم شرح للرجال حوله ما هو الكرامافون ، وكيف ان الاسطوانات التي تشبه الارغفة الرقيقة تنقل الاغاني ، ولا تتعب من الدوران ليل نهار . وان كثيرين من الذين يرتادون مقهى النديم يأتون من اماكن بعيدة فقط لكي يستمعوا الى الاغاني ، وصاحب المقهى ، وجيه الحلبي ، يضع الاغاني حسب طلبات المستمعين ، وردد كلمة « المستمعين » اكثر من مرة . واكد من جديد انه حالما تصل الكهرباء الى حران ، فان اول راديو سيكون في مقهى الاصدقاء . لكن اضاف وهو يرفع يده مهدداً مازحاً :

ـ اسمعوا . . اذا جاءت الآلات لا يمكن لاحد ان يمد يده .

توقف قليلاً وهو يضحك :

ـ والشيء الثاني : ما في كل دقيقة : يا ابو اسعد حط هذي ، يا ابو اسعد شيل هذي .

وفي هذه الليلة اكد الكثيرون ان حران لم تنم . فسهرة الامير طالت اكثر مما قدر واكثر مما اراد . وصوت الراديو الذي سُمع مثل حداء بعيد في اول الليل ما لبث ان قوي وصفا ، فسمعه الكثيرون . أما عندما اعلن حسن رضائي ، بادب جم مبالغ فيه ، عن رغبته في ان يغادر ، وانه سيكون بين يدي صاحب السمو في اية ساعة من ساعات الصباح يشاء سموه ، عندما اعلن حسن رضائي عن تلك الرغبة استجاب الامير ، وكانت ايذاناً بانتهاء السهرة . ولما خرج الجميع ، وقد ودعهم الامير على مسافة كبيرة من الخيام ، اكثر مما يفعل عادة مع ضيوفه ، قال الجميع ان صوت الراديو كان يتابعهم وكأنه يمشي وراءهم ، حتى بعد ان هبطوا التل واقتربوا من السوق ، كان الصوت واضحاً مسموعاً ، وقد ضحك الكثيرون حين سقط الذاووي في احدى الحفر على الطريق . قال الدباسي وهو يساعده على النهوض :

ـ هذه البلية يا ابو محسن فتحت آذاننا وعمت ابصارنا .

والامير الذي ظل بعض الوقت ، بعد انصراف ضيوفه ، ورفع صوت الراديو اكثر من مرة ، وكانت هزات رأسه تتوالى دلالة الاعجاب والطرب ، ما لبث ان نقل

الراديو من مكان الى آخر . نقله اول الامر الى خيمته، ثم نقله الى القسم الخلفي ، حيث ينام ، وهناك سُمع يتحدث بصوت عالٍ عن هذه الآلة العجيبة ، ثم بعد ذلك سمع صوت الراديو قوياً صاخباً ، وقد رافق صوته في البداية صرخات النساء ، وكانت مزيجاً من الخوف واللذة والاستغراب ، واكد الذين سهروا في المقهى انهم سمعوا صوت الراديو . كان صوتاً متقطعاً يغيب ويظهر ، حتى ابو اسعد ، وهو يجمع الكراسي ، قال لآخر اثنين كانا يغادران المقهى :

ـ إن شاء الله ما يمر كم شهر إلا والراديو منصوب، وصوت يا ليل يا عين واصل الى السماء !

وابن نفاع الذي غادر مبكراً ، وتوجه الى حران العرب مباشرة ، رفض ان يقول شيئاً عن هذه العجيبة ، وظل صوت دعائه يسمع حتى ساعة متأخرة ، ولهذا السبب ، او لبعد المسافة ، لم يسمع احد من أهل حران صوت الراديو . أما حين غادر الآخرون ، والذين كانوا يسكنون على التلال الغربية ، فقد ذكروا اشياء كثيرة عن هذه العجيبة ، لكن اياً من الذين سمعوا لم يستطع ان يحدد صورة هذه الالة او طبيعتها .

وفي اليوم التالي ، قبل شروق الشمس ، شوهد الامير يطلب من مسعود ورجل آخر ان ينقلا الراديو ، وقد رافقهما خطوة خطوة ، ورفع بنفسه طرف باب الخيمة ليسهل دخولها دون اية صعوبة . وفي وقت متأخر ذكر بعض الخبثاء ان الامير ظل اياماً عديدة لا ينام في نفس المكان الذي كان فيه الراديو ، وعلى غير عادته كان يعمر بندقيته الموزر ويضعها بالقرب منه تحسباً لاية مفاجأة قد تأتي من هذه « البلية » .
وروى ابن السيف انه في احدى زياراته للامير ، شاهد اثنين من رجاله يرفعان الراديو الى اقصى حد ، والامير ينظر بالمنظار الى اسفله ، وحين لا يرى شيئاً يتقدم ويدق براحة يده وكأنه يدق باباً ، فاذا لم يسمع صوتاً يستدير لكي ينظر الى الراديو من النواحي الاخرى ، بالمنظار اولاً ثم يدق باصابعه او براحة يده .

وفي معسكر العمال ، وفي السوق والمسجد ظل الناس يتحدثون عن هذه العجيبة ، وكان الكثيرون يتمنون لو تتاح لهم الفرصة لكي يلقوا عليها نظرة او يسمعوا صوتها . والامير الذي انشغل بهذه القضية الى اقصى حد ، ولم يترك لاي

من رجاله ان يمد يده الى الراديو ، او يقترب منه اثناء غيابه ، بدأ يعيش مرحلة جديدة ، وقد بدأت هذه المرحلة بالصدفة . بعد سماع مجموعة من الاغاني ، لكن اثرت عليه كثيراً وظل يتذكرها فترة طويلة وظل الكثيرون يتذكرونها ايضاً .

اثناء زيارة الامير لمعسكر الاميركان ، كان برفقة نائبه وحسن رضائي ، وقد تفقد السيارة بكثير من العناية . وسأل ما اذا كان الاميركان مثل العرب يطلقون الاسماء على الآلات التي يستعملونها للركوب ، فالعرب مثلاً يطلقون على كل حصان اسماً ، وحين اكد له هندرسين ان لهذه السيارة اسماً ، وهو « فورد » بدا شديد السرور ، فالتفت الى نائبه وقال بثقة : « قلت لك ! » وبعد ذلك حرص على توجيه اسئلة اخرى دقيقة : كم تعيش الفورد ؟ وهل يستعمل البارود في دفعها ام لا ، وهل يمكن ان تستجيب لغير سائقها ، وهل هي مروضة من الاساس ام تحتاج الى ترويض .
بعد ان سأل الامير هذه الاسئلة وغيرها ، وكان لا يتوقف عن هز رأسه ، اثناء الاجابة وبعدها ، عرض هندرسين ان يركبوا جميعاً السيارة ، فابدى الامير نوعاً من الامتناع الخفي ، اذ سأل نائبه وحسن رضائي بطريقة معينة ما اذا كانا يرغبان في هذه التجربة ام لا ، لكن ازاء البساطة التي تصرف بها هندرسين ، ثم استجابة حسن السهلة ، لم يكن امام الامير الا الموافقة !

كانت رحلة حافلة تخللها الكثير من المفاجآت والصرخات والتعليقات . فحين انطلقت السيارة بسرعة صرخ الامير : « عوذة . . عوذة » وبدا شاحب الوجه خائفاً ، وبعد قليل امتدت يده الى ساق هندرسين ، وكان يجلس بجانبه ، يريد ان

يتمسك بها لئلا يقع ، فلما ضحك هندرسين بصوت عالٍ سحب الامير يده وقد شعر بالخجل ، وتمسك بطرف الكرسي . وفي احدى اللحظات قال يخاطب نائبه وحسن رضائي دون ان يلتفت :

ـ لو شدينا ارواحنا يا جماعة الخير كان احسن .

أما حين استدار هندرسين بالسيارة فقد خاف الامير خوفاً كبيراً فتشبث بالسكان ، وكادت ان تقع مشكلة لولا ان هندرسين تصرف بسرعة وأزاح يد الامير ! وكادت تقع مشكلة اخرى حين توقف هندرسين فجأة اثناء مرور احد الكلاب . أما التعليقات والصرخات فكانت كثيرة وظل الكثيرون يتذكرونها حتى وقت متأخر . وهندرسين حين يتذكر السيارة الاولى التي وصلت الى المعسكر يتذكر وجه الامير : « كان شديد الخوف والارتباك ، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة ، وكأنه يوجه ادعية الى الله او يتوسل ، وكاد يخلق لنا اكثر من مشكلة ، اثناء السير واثناء الوقوف . وفي احدى اللحظات كاد يرمي بنفسه ، اذ امسك مفتاح الباب اثناء انطلاق السيارة ، ولولا انتباهي وسرعتي لقالوا ان الاميركيين قتلوا الامير . » .

أما حين مرت السيارة امام مجموعة من العمال ، ورفع هؤلاء ايديهم واصواتهم لتحية الامير ومن معه ، فقد ظل الامير جامداً وظلت يداه تمسكان طرفي الكرسي ، وقد استغرب ان هندرسين اخرج يده من الشباك وحيّ الواقفين ببساطة .

قال الامير وهم يصعدون التل بعد الزيارة :

ـ هذه البلية مثل الجرادة تقمّز تقميز وما يعرف الواحد متى يطيح .

رد نائبه :

ـ مطايانا ، يا طويل العمر ، احسن منها وآمن .

ـ هذه اسرع بس مالها أمان .

قال حسن رضائي ، بعد ان وقف قليلاً :

ـ الاختراعات التي توصل اليها الانسان لا نهاية لها ، كل يوم آلاف الاختراعات ، وكل يوم اشياء جديدة ، لكن اصل الاختراعات البارود .

هزّ الامير رأسه موافقاً ، لكن الافكار كانت مضطربة متداخلة الى درجة لا يستطيع ان يهمس بتأكيد شيئاً محدداً ، وفجأة وجد نفسه يقول :

ـ لو استعملوا البارود بدفعها كان احسن واقوى .

ولم يستطيعوا مواصلة النقاش ، ولم يجد الامير كيفية اوضح للتعبير عن الافكار التي تخطر بالبال فجأة . أما حسن رضائي فكان يرى أن المسافة التي تفصله عن الجماعة كبيرة الى درجة لا يستطيع ان يكون جاداً ، او ان يتكلم في موضوع جدي

ما كاد الامير يصل حتى تطلع اول الامر الى الراديو ثم تطلع الى رجاله الذين ظلوا في دار الامارة . كان يريد ان يكتشف ما اذا اقترب احد منهم او عبث بالراديو اثناء غيابه ، فلما لم يلمس ذلك ، اذ كانت ردات فعلهم طبيعية هادئة ، قال ليبدأ جواً جديداً :

ـ احسن ما الواحد يركّض هنا وهنا جاء العالم لحضنه .

وبكثير من الثقة توجه الى الراديو . وقبل ان يبدأ قال حسن رضائي .

ـ صارت الشغلة بسيطة !

وما ان هدر صوت الموسيقى قوياً حافلاً حتى هز الامير رأسه وانشد :

ـ «ان عدت عدنا وان وافيت وافينا   وان هجرت فانا قد تكافينا

وبعد قليل اضاف بصوت حزين :

ـ «لما خفيتُ ضنى ووجدي قد ظهر   والنومُ من عيني تبدّل بالسهر
ناديت وجداً قد تزايد بي الفكر   يا وجد لا تبقِ عليّ ولا تذر
ها مهجتي بين المشقة والخطر

صفق حسن رضائي طرباً ، وبدا على وجهه الاستغراب ان الامير يحفظ الشعر ويردده ، دون ان يعرف ذلك من قبل او ان يقدر ، قال الامير في محاولة تبرير هذه النشوة :

ـ روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة ، ان القلوب اذا كلّت عميت !

وفي جو من الفرح والشعور العميق بالراحة ، وبعد ان دارت القهوة ، قال حسن رضائي ، بعد ان خفّض صوت الراديو بنفسه ، ولم يعترض الامير :

ـ اريد ان استأذن بالسفر ، يا صاحب السمو .

رد الامير محتجاً :

ـ اتق الله يا رجل ، بعدنا ما شفناك .

ـ لكن اعمالي ، يا صاحب السموة تلزمني بالسفر .

توقف لحظة ، ابتسم ، ثم تابع :

ـ وفي اي وقت تأمر بعودتي سأعود يا صاحب السمو .

قال الامير وهو يتطلع الى نائبه ، ولكن الكلام موجه الى حسن رضائي :

ـ سفر يوك . . يفتح الله .

رد حسن رضائي بانكسار مصطنع :

ـ كما تأمر يا مولاي .

قال الامير بعد فترة صمت وبلهجة مختلفة اقرب الى الحزم :

ـ ونحن بحاجة اليك هذه الأيام . .

ـ انا بالخدمة يا صاحب السمو .

وما كاد يغيب صوت الموسيقى حتى مال الامير قليلاً وطلب من حسن رضائي ومن نائبه ان يقتربا وهمس في آذانهم :

ـ قلت للاميركان يرسلون لنا الترجمان عصرية ، نريد نشوف طلباتهم وكيف نساعدهم .

قال رضائي بتواضع ماكر :

ـ الافضل ان لا اكون موجوداً في الاشغال الخاصة بينكم ، يا صاحب السمو !

ـ قلت لهم انك من جماعتنا ويمكن تساعدهم كثيراً .

وبقي حسن رضائي اياماً امتدت الى اسابيع ، الى حين توقيع عقد بينه وبين الشركة لمدة ثلاث سنوات ، وبموجب هذا العقد يتولى حسن رضائي تأمين الايدي العاملة من اجل بناء خط انابيب وادي العيون ـ حران ، ويتولى تأمين التموين ، اضافة الى تعهد تعبيد الطريق بين عجرة وحران ، وتوفير كافة المواد اللازمة ، على ان تتعهد الشركة بتأمين الاسفلت وبعض المعدات والآلات .

بعد توقيع العقد ، وفي احدى السهرات ، حين خلا الجو تماماً وانفض جميع الذين كانوا ، قال حسن رضائي كأنه يحدث نفسه ، لكن يريد الامير ان يسمع :

ـ لا بد من سماع اذاعة لندن . . .

اخرج من جيبه ساعة مربوطة بسلسلة ذهبية ، نظر اليها واضاف :

ـ بقي للاخبار ثلاثة ارباع الساعة .

وتحرك بمكر كأنه يستعد للمغادرة من اجل ان يصل الى الباخرة ، وهناك يسمع نشرة الاخبار .

سأله الامير :
ـ هذا الراديو ياخذ لندن ؟
ـ بكل تأكيد يا صاحب السمو .
ـ اذن نسمعها جميع .
ـ اخشى ان اثقل عليك يا صاحب السمو .
وابتسم ثم تابع :
ـ ويجب ان ترتاح .
رد الامير وهو يضحك بصوت عالٍ :
ـ الراحة نلحق عليها ، والليل بعده باوله !
قال حسن رضائي وقد تغيرت لهجته تماماً :
ـ اريدك ، يا صاحب السمو ، ان تسمع اخبار لندن كل ليلة .
وخفت صوته وهو يضيف :
ـ لا شيء في هذا العالم يحصل الا وتكون هذه المحطة اول من يعرف واكثر ما يعرف !
صمت قليلاً كأنه يتذكر حادثة .. وبعد قليل اضاف :
ـ اول مرة سمعت بحران ، يا صاحب السمو ، من راديو لندن . راديو لندن هو الذي جاء باخبار حران كلها : ميناء بترولي ، مصافي ، مستودعات تموين للمنطقة وللسفن واشياء اخرى . قلت لنفسي : يجب ان تزور هذه المنطقة ، ان تتعرف عليها ، ويمكن للانسان ان يخدم ، ويساعد .
وباندهاش لم يستطع الامير ان يخفيه ، سأل :
ـ هذا كله بحرّانا راح يصير ؟
ـ اي نعم يا صاحب السمو .. كل هذا واكثر .
ـ الملاعين الاميركان ما علموني ، ما قالوا لاحد .
ـ خبثاء لا يعطون سرهم .
ـ حتى هذا الطقوع ، اللي جاءنا ذاك اليوم ، الترجمان اللي شفته ، ما قال لي شيء ابدا !

وهز الامير رأسه دلالة الاستغراب والاسف ، وبعد قليل اضاف .
ـ وهذه البلايا متى تصير ؟
ـ لقد بدأوا يا صاحب السمو ، فاذا تم خط الانابيب من وادي العيون الى حران يكون كل شيء قد انتهى
وقهقه الامير وقال :
ـ حضّروا روسكم يا قرعان .
وشاركه حسن رضائي الضحك . فلما هدأ قال حسن رضائي بنبرة فيها رجاء :
ـ لدي طلب .. يا صاحب السمو .
ـ سم .
ـ في المرة القادمة ، بعد شهر او شهرين من الآن ، اذا عشنا ، اريد مساعدتك ، يا صاحب السمو ، في اختيار قطعة ارض لأقيم عليها منزلاً . وكلما كان المنزل اقرب اليكم اكون اكثر سعادة .
ـ حلت البركة ، اختر اية ارض وهي لك .
ـ الارض التي تختارونها .
ـ حلت البركة .
وبعد قليل وبلهجة مسكينة تماماً قال حسن رضائي :
ـ قبل فترة لم اسمع بحران ولم افكر بها .. والآن كما ترى ، يا صاحب السمو .. فسبحان الله .
وانصرفا الى الراديو ، حتى اذا عثر حسن رضائي على محطة لندن قال بثقة :
ـ في هذا المكان ، ليلاً ، تكون لندن مسموعة وواضحة ، أما في النهار فلها مكان اخر .
وبدأ يسمعان نشرة الاخبار باهتمام .

قبل ان ينتهي تعبيد الطريق بين عجرة وحران بسنة وبضعة شهور ، بدأت تصل بين فترة واخرى الى حران سيارتا شحن كبيرتان . الاولى يسوقها الأرمني آكوب « مدبرها » والثانية راجي « ابو عقلين » ، لم يكن اسماهما هكذا ، لكن الكثيرين لا يعرفونهما الا بهذين اللقبين . حتى في الاوراق الرسمية التي نظمت في وقت متأخر لراجي ، كان يضاف الى جانب اسمه : راجي سليمان النونو كلمة الملقب بابو عقلين .

لم يكن للسيارتين مواعيد ثابتة او برامج منتظمة سواء في الوصول او في المغادرة ، وانما تعتمدان على تقديرات آكوب وراجي للسوق في حران ، او على مزاجهما . أما في عجرة فانهما تخضعان تماماً لما يفرضه عبود السالك .

كانت السيارة الواحدة ، اذا سافرت من عجره ، تحمل بين العشرين والخمسة والعشرين رجلاً مع احمالهم واحمال اخرى . أما الرحلة بين البلدتين ، والتي لا تزيد المسافة بينهما على المائتين وعشر كيلو مترات ، فكانت تستغرق اكثر من ثلاثين ساعة في الغالب ، لان السيارة لا بد ان تغرز في الطريق او قد تتعطل ، وفي الحالتين يجب ان تفرغ من حمولتها ، ويجب ان يشترك الجميع في تفريغها ودفعها ثم في اعادة

تحميلها مرة اخرى ، وهذا يستغرق بضع ساعات في العادة ، وقد يتكرر مرتين او ثلاث مرات في كل رحلة . يضاف الى ذلك ان السيارة لا بد ان تستريح مرة او اثنتين ، في المائة وعشرة على وجه التأكيد ، وهي محطة على الطريق بين البلدتين منذ وقت طويل ، وكانت تتوقف فيها القوافل ايضاً ، لان فيها بئراً . وفي احيان كثيرة بدل المحطة الواحدة اثنتان . وكانت الثانية في الكيلو مائة وستين ، وهي محطة نشأت اثناء تعبيد الطريق . وهاتان المحطتان عبارة عن مقاهٍ صغيرة ، يقدم فيها الشاي والقهوة وبعض الاحيان الاكل ، وقد اكتسبتا هذين الاسمين بالتداول المستمر ، لذلك لا يستغرب احد اذا استغرقت الرحلة يومين متتالين . فاذا لم تتأخر السيارة في الطريق فلا بد ان تتأخر في احدى هاتين المحطتين . أما ما يتكلفه المسافر قبل ذلك من انتظار فلا يمكن ان يقدره احد . فبعد ان افتتح عبود السالك « مكتب سفريات البادية » في عجرة اصبح الجهة الوحيدة التي تؤمن السفر والنقل بين البلدتين ، فالشخص الذي يريد السفر ، او صاحب الحاجة الذي يريد ان يؤمن نقل حاجة من حران او اليها ، ما عليه الا ان يذهب الى عبود السالك ، الى مكتب سفريات البادية ، وهو عبارة عن دكان عادية في عجرة ، وهذه الدكان تقوم بجميع الاعمال والخدمات ، لكنها الوحيدة التي تتولى القيام بنقل البضائع والمسافرين .

على باب مكتب سفريات البادية كان عبود يقف مثل ثعلب مسنّ منتظراً الفريسة ، وما يكاد يرى واحداً من اولئك البدو ، او من الباحثين عن عمل ، وبفراسة مدربة ملعونة يقدر أنه يريد السفر الى حران ، حتى يطلب الى الصبي الذي يستخدمه ان يصرح : « حران ، مسافر واحد الى حران ، راكب واحد الى حران » أما عبود نفسه فانه ينزلق مثل سمكة الى داخل الدكان ، يجلس وراء طاولة قديمة فوقها ميزان وينكبّ على الدفتر الكبير المفتوح امامه ، متظاهراً انه شديد الاستغراق في الكتابة او مراجعة الارقام والحسابات ، والبدوي ، او ذلك الغريب ، اما ان يسقط رأساً في احضان عبود ، حيث يأتي مباشرة ، مستجيباً لنداء الصبي ، او يتظاهر ، بمكر بدائي ، انه لا يريد السفر ، فيتجاوز الدكان ، لكنه لا يستطيع ان يقاوم نفسه من النظر والتدقيق ، وفي الحالتين فان عبود لا ينفعل ولا يستعجل ، فاذا سقط المسافر مباشرة ، واعلن عن رغبته في السفر الى حران ، وانه جاهز ومستعجل ، كان عبود لا يرفع رأسه عن الدفتر الا بعد فترة . وحين يرفعه يتظاهر

بالتعب والضجر ، فاذا رأى البدوي متلهفاً يريد ان ينتهي بسرعة قال له بلهجة آسفة : « الله يصلحك . . لو جيت قبل ساعة يا ابن الحلال ، قبل ساعة السيارة قامت » وينتظر لحظات ثم يضيف : « لكن ولا يهمك . . . . انا ادبرك » وبعد مفاوضات فيها الكثير من المشقة بين الطرفين ، يشترط عبود ان يدفع البدوي فوراً لان « باكر تقوم السيارة باذن الله » والبدوي الذي يبدي تردداً ظاهراً في دفع الاجرة ، متذرعاً انه اودع فلوسه عند جماعته ، يجيبه عبود بان يهزّ يده في وجهه بنوع من الاحتقار طالباً منه ان يذهب عنه ويتركه لاعماله ، فيوافق البدوي على دفع نصف الاجرة ، أما النصف الثاني فسوف يدفعه حالما يركب السيارة ، وبحزم ، لكن دون قسوة ، يرفض عبود هذا الاقتراح . وبعد ان يخيم الصمت ويستغرق عبود مرة اخرى في دفتره الكبير يجد البدوي نفسه مضطراً للموافقة ، لكن يطلب من عبود ان يسجله ، ريثما يذهب هو ويأتي بالاجرة ، فيقول عبود بعدم اهتمام ، وهو ينهض لكي يلقي نظرة على الخارج :

ـ التسجيل بعد الدفع .

فلما يمر بالبدوي الجالس على الارض يقول له :

ـ تدفع تاخذ وصلك بيدك . . . ورجلك تصير بالسيارة !

ويخرج البدوي ، ويكون عبود جالساً على سحارة ، مستنداً الى الجدار ، فيقول له بصوت عالٍ :

ـ اذا تأخرت يا ولد تنتظر السيارة التالية ، بعد اسبوع ، اسبوعين . . الله اعلم .

يغيب البدوي ساعة وحين يعود يمد عبود يده بصمت ، يحرك اصابعه دلالة ان يدفع له بسرعة ، دون تردد او تأخير ، فاذا حاول البدوي من جديد دفع نصف الاجرة ، على ان يدفع النصف الآخر في الغد ، يغضب عبود ، او يتظاهر بالغضب الى درجة ان يصرخ في وجهه ، بعد ان يقترب منه :

ـ مالك سفر من عندنا ، تسمعني ؟ ولا انت من الناس اللي يركبون سياراتنا .

ولا يتأثر البدوي من هذا الكلام ، كأنه لم يسمعه ، ومع ذلك لا يزال حائراً متردداً ، لكنه في النهاية يمد يده الى صدره فيخرج صرة مربوطة بعناية ، وقبل ان يشرع بفكها ، وقد جلس على الارض ، يسأل :

ـ باكر نسافر ؟

ويهز عبود رأسه مؤكداً ، ويحرك يده طالباً منه ان يستعجل في تسليم الاجرة ، لكن البدوي ما زال متأنياً هادئاً خائفاً ، وهنا يتركه عبود لان « الدوسة القوية تكسر » كما يقول في وصف شطارته . يتركه ويذهب الى طاولته ، يفتح الدرج ، يخرج قطعة حديدية مستديرة تشبه قطعة النقد القديمة الممسوحة ، وان كانت ارق واكبر ، ويخرج قطعة من الورق بمساحة نصف راحة اليد ، فيوقع على الورقة توقيعه الطويل المعقد وينتظر ، فاذا اخرج البدوي النقود ، وعدّها مرتين او ثلاث مرات وسلّمها ، فان عبود في لحظة خاطفة يعدها ، وبعض الاحيان يخزرها لانه اختلس النظر وراقب عدها . ويدفع الى البدوي القطعة المعدنية والورقة :

ـ الحديدة ترجعها للمكتب قبل ما تسافر ، والورقة تسلمها للسائق .

وبعد ان يأخذ البدوي القطعة المعدنية والورقة ، ويلقي عليهما نظرة طويلة ، ولا يفهم منهما شيئاً البتة يضيف عبود :

ـ اذا ضيعّتهم ما تركب ، ولا لك عندنا شيء . . تسمع ؟

ويهز البدوي رأسه ، ومن جديد يفك الصرة ، التي ربطها قبل قليل ، ويضع فيها القطعة المعدنية والورقة . وبعد ان يصرهما بحرص وعناية يسأل بطريقة جديدة :

ـ ومتى نسافر ؟

ـ اذا عشنا السفر يكون باكر او اللي عقبه .

وحين يرى الخوف في عيني البدوي يضيف :

ـ باكر ، بعد صلاة العصر . مرّ بنا ، والله كريم .

ـ بعد صلاة العصر ؟ باكر ؟

ـ تعال الظهر .

ـ والسفر متى ؟

ـ نريد بعد كم راكب ، اذا جاءوا نسافر اليوم .

ويرى الخوف يزداد في عيني البدوي الذي يحس انه وقع ضحية ، بعد ان دفع الفلوس ، ولا يعرف متى يسافر ، ولكي يبدد مخاوفه يسأله :

ـ اذا كان عندك خويا يريدون السفر الى حران هاتهم وتعال . .

ولكي ينهي عبود مناقشته يقول وهو خارج من الدكان :

ـ تعال الصبح ونشوف .

فاذا ابدى البدوي مزيداً من التردد والخوف يأمر له عبود بكأس من الشاي ، ويبدأ يسأله عن المكان الذي جاء منه ، ومن اية قبيلة هو ، ولماذا يريد السفر الى حران ، ولا ينتظر اجاباته كلها ، يبدأ يحدثه كيف اصبحت حران منطقة عامرة ، والاشغال فيها كثيرة ويختم حديثه :

ـ وباكر اذا وصلتها ، إن شاء الله، تتوفق ، وما اظنك تتركها .

هذا هو النمط الغالب من مسافري « مكتب سفريات البادية » . فبعد ان يجمعهم عبود واحداً واحداً ، ويؤجل سفرهم يوماً بعد آخر ، وقد يمتد هذا التأجيل الى اسبوع او عشرة ايام ، متذرعاً مرة « ان السيارة انكسرت » او « راحت تحمل » ومرة اخرى ان « الارمني جاءته السودا وما يريد يتحرك ، فاذا سافر بدون رضاه يمكن يذبح الركاب » فاذا تجمع ما يعتبره كافياً من الركاب والحمولة ، ورجعت احدى السيارتين من حران ، واستراحت يوماً او يومين ، بدأ الاستعداد للسفر . انه يوم غير عادي في عجرة ، ولا يقل اهمية عن وصول قافلة من قوافل الحج . اذ يبدأ الهرج والمرج في السوق كله ، من عمليات بيع سريعة ، الى السؤال عن بعض الركاب ، الى نقل المواد ، وغير ذلك . فاذا تجمع المسافرون ، وبدأ كل واحد منهم يحاول التقدم على الآخرين ، او ان يحتل مكاناً يعتبره اهم من الامكنة الاخرى ، وترافق ذلك مع صياح عبود وشتائمه ، وتهديده ان يوقف السفر ، وأكوب الذي كان يدور حول السيارة ويتفقد اجزاءها بعناية وصمت ، لا بد ان تخرجه عن طوره تلك الفوضى والاخطاء التي يرتكبها عبود والركاب ، فاذا استجاب الجميع لما يطلبه ، بوضع الاحمال الثقيلة في امكنة يحددها ، بشكل يضمن توازن السيارة وامكانية تفريغها في حالة التغريز ، فعندئذٍ يواصل اعطاء تعليماته باختصار شديد ويشارك مشاركة فعالة في وضع الاشياء في اماكنها . أما اذا لم يستجب للتعليمات التي يصدرها ، او انشغل عبود بالقطع المعدنية التي وزعها على الركاب يجمعها مرة اخرى ، تاركاً هؤلاء يفعلون ما يشاؤون ، فلا بد ان يتصرف أكوب بطريقة اخرى ، يقول لعبود وقد اشتعل غضباً :

ـ اتعبوا . . اتعبوا حبيبي، لكن الحمل كله لازم ينزل .

ويستدير آكوب ذاهباً الى المقهى ، فان ادركه عبود قبل ان يصل واسترضاه فعندئذٍ يمكن ان يسافر ذلك اليوم ، أما اذا وصل الى المقهى ، وجاءت الاخبار عن

الفوضى التي تجري هناك ، وان عبود يرفع وينزل ، والدنيا قائمة قاعدة ، فعندئذٍ لا يمكن ان يرضى بسهولة ، وقد يمتد غضبه يوماً او اثنين ، ولا بد ان ينزل الحمل كله ، وان يرفع من جديد حسب التعليمات التي يعطيها ، وفي هذه الحالة يعتصم عبود داخل الدكان ، ويكون شديد الانفعال سريع الاثارة ، وقد تحصل حوادث كثيرة ايضاً ، كأن يرفض تسفير احد الركاب بحجة انه اضاع القطعة المعدنية ، او يطلب مبالغ اضافية عن الاحمال التي يعتبرها زائدة . ومن شأن هذه المناقشات ان تطول وان تتعقد ، وقد تأخذ مجرى لا يمكن التحكم به !

اذا انتهى كل شيء واصبحت « الفورد » القديمة جاهزة للسفر ، وعلى ظهرها هذه الاحمال كلها ، ولا يعرف كيف امكن حشدها وتنظيمها ، لا بد من ان يلقي آكوب نظرة اخيرة ، وحين يطمئن لكل شيء يقوم بحركات غامضة . . ويبدأ . فاذا كان الوفاق بينه وبين عبود كاملاً فعندئذٍ يرافق عبود الرحلة راكباً على الجناح قاطعاً الطريق حتى المفرق ، وخلال هذه المسافة يصرخ على الركاب منبهاً محذراً ، كما يوزع تحيات كثيرة على كل الذين يمر بهم . وعند المفرق يترك عبود السيارة ، لتبدأ رحلتها الطويلة الشاقة الى حران .

هكذا بدأت السيارات تصل الى حران ، ومعها البضائع والبشر ، فاذا وصل آكوب وتجمع حوله الكثيرون قرب المسجد ، الى جانب سوق الدواب ، لا يمكن للانسان ان يميز الرجال الذين يهبطون من السيارة . يكون الغبار الكثيف قد لفهم وغطاهم تماماً ، حتى اجفانهم اثناء انفتاحها وانطباقها تبدو كما لو انها تنفخ في طحين او رماد ، ومع الرجال الذين يهبطون تنزل الاحمال ترافقها الصيحات والتحذيرات والاسئلة ، وآكوب الذي يشرف على كل شيء بصمت ، عليه بعد ذلك واجبات اخرى كثيرة : الاشياء التي يحملها الى دار الامارة ، او الى دحام والى آخرين كثيرين كانوا قد اوصوه عليها في سفراته الماضية او ارسلها احد من عجره ، بما في ذلك الرسائل وبعض المبالغ ، كل ذلك لا بد ان يصل الى اصحابه .

هذا الكهل المتين ، الذي لا يمكن لانسان ان يحزر عمره ، الصامت اغلب الوقت ، الا عندما تنتابه لعنة الغناء ، فيخرج صوته من منخريه ، ولا يعرف ما اذا كان غناؤه تعبيراً عن فرح ام حزن ، ولا يُميز في هذا الغناء سوى كلمة واحدة تتردد باستمرار : آمان آمان .

هذا الانسان لا احد يعرف على وجه الدقة لماذا جاء او من اين . قال مرة انه من حلب ، وقال مرة اخرى ان اصله من مكان ابعد بكثير . وقال ذات مرة ، في احدى خطات النشوة والتحدي ، انه جاء من اجمل مكان في الدنيا ، وانه لا بد ان يعود اليه في يوم من الأيام .

آكوب اصبح جزءاً من حران . اذا لم يكن في حران نفسها فهو في طريقه اليها ، ولا بد ان يصل بين يوم وآخر . ومثلما كانت تصل القوافل من قبل ومعها المؤن والاقمشة والرسائل ، اصبحت « سفينة نوح » كما اطلق الامير على سيارة آكوب ، تصل مرتين او ثلاث مرات في الشهر ، وعليها كل شيء . الناس ينتظرونها بلهفة واهتمام ، اذ اضافة الى ما تحمله من المؤن والاقمشة والرسائل ، كان آكوب يحمل معه اشياء جديدة باستمرار ، وهذه الاشياء هي التي لفتت نظر الامير وجعلت آكوب شخصاً مقرباً اليه . فبعد ان ضعفت بطارية الراديو ، ولم يأت حسن رضائي بواحدة جديدة ، لانه كان مسافراً ، واصبح صوت الراديو لا يكاد يسمع الا في الليل المتأخر ، وعلى شكل حشرجة غير مفهومة ، كان آكوب هو المنقذ . اذ شحن البطارية وابدى استعداده ان يفعل ذلك كل مرة ، وقال ان البطارية ، حتى لو ماتت ، يمكن اعادة الحياة اليها ، وقد ادهش هذا الامر الكثيرين ، خاصة الامير ، ولم يصدق في البداية ، لكن حين سمع صوت الراديو يهدر ، اثنى على هذا الارمني « الابليس » . أما بابور الكاز الذي كان يستعمله آكوب في اعداد طعامه ، فقد كان شيئاً عجيباً في بداية الامر ، وعندما ابدى استعداده ان يحضر الى حران ثلاثة او اربعة من هذه البوابير ، وان يبيعها باسعار معقولة ، فقد رغب الكثيرون في اقتنائها . ولكي يكون صادقاً قال انه لا يستطيع ان يؤمن في سفرته اللاحقة سوى ثلاثة ، وما تبقى يمكن جلبه بعد شهرين او ثلاثة من حلب ! في وقت آخر احضر آكوب مصابيح تعمل بالبطارية الجافة . وكانت صغيرة الحجم تحمل باليد ، وقد كانت نافعة جداً ، خاصة للذين يسهرون ويعودون متأخرين الى بيوتهم ، بعد ان حفرت طرقات حران كلها وتكومت الحجارة والرمال في كل مكان . اما حين احضر آكوب ماكنة يدوية لفرم اللحم ، وبدأ أبو كامل استعمالها في حران ، فقد ادهشت الجميع وهم يراقبون آكوب يثبتها على دف قوي اولاً ، ثم وهم يراقبون ابا كامل يضع قطع اللحم الكبيرة في ناحية ، وتخرج قطعاً صغيرة من الناحية الثانية .

و « الترمس » الذي كان آكوب يشرب منه ظل سراً مستعصياً على الكثيرين ، لان احداً لم يستطع ان يفسر الحرارة التي تنبعث منه ، كما لم يشأ هو ان يتكلم عن ذلك ، لان هذا الترمس اذا عرف به الأمير فلا بد أن يطلبه أو يأخذه بشكل ما ، ولان آكوب لا يستطيع ان يستغني عنه ابداً ، فقد كان يخفيه عن الجميع . كان يحتفظ به في مكان صعب الوصول اليه ، وهذا ما فسر الاشاعات ان آكوب يشرب « بول ابليس » ، اي انه يشرب الخمر .

وعشرات الاشياء المتنوعة المثيرة كانت تصل ايضاً على سيارة آكوب : أمشاط العظم القوية المصقولة ، المرايا ، المحافين الصغيرة ، الاحذية المصنوعة من مطاط السيارات ، ثم المسلات والخيوط القوية ، ما تكاد هذه الاشياء تصل ويراها الناس حتى تنهال الطلبات عليها . كل واحد يريد حاجة او اكثر ، وفي حالات كثيرة لم يكن في ظن آكوب او تخطيطه ان يبيع هذه الحاجات . فالمصباح الذي يعمل على البطارية الجافة كان يستعمله في تفقد محرك السيارة ، او حين ينزل تحتها لمراقبة بعض اجزائها ، لكن ما ان يراه الناس ، فيبدأوا باشعاله واطفائه ، حتى يروق لهم ، واذا بكل واحد منهم يرغب بالحصول على مثله . وآكوب الذي يستجيب لهذه الرغبات ويهز رأسه ، لم يكن قادراً على رد الكثير من الطلبات ، فما يكاد يوافق حتى يجر من وراء اذنه قلماً ، وعلى كرتونة موضوعة في باب السيارة ، من الداخل ، يخط خطوطاً تثير الدهشة والعجب معاً . والذين كانوا يراقبون بمقدار ما يحرصون على تأكيد طلباتهم ، يعجبون لهذه الخطوط الغامضة المتداخلة التي يخطها . انهم لا يحسون ابداً ان ما يفعله آكوب هو الكتابة ، انها اقرب الى الرسوم البدائية المضحكة . فاذا سألوه عنها يجيب بعصبية : « العسكر العصملي لا يسأل مثلكم » فاذا صمتوا وهدأ آكوب يقول بلهجة لا تكاد تفهم « حبيبي . . انت بدك حاجة او بدك شي تاني ؟ » فاذا هز صاحب الحاجة رأسه او قال انه يريد الحاجة يضحك آكوب ويضيف : « خلي آكوب يعمل اللي في راسه ! » .

هكذا كانت تجري الامور مرة بعد اخرى ، وبات اكوب ضرورة لحران تزيد يوماً بعد يوم ، واصبح اصدقاؤه يتكاثرون باستمرار . فالذين جاءوا على سيارته الى حران ، وبالرغم من كل ما حصل من تأخير وشتائم ، ثم التعب الذي حل بهم اثناء الطريق ، خاصة وهم يفرغون السيارة من حملها اثناء التغريز ، كل هذا يمكن نسيانه ،

الشيء الوحيد الذي يبقى عالقاً في اذهانهم ولا يمكن ان ينسوه ابداً ، ان آكوب هو الذي حملهم الى حران . لقد اصبحوا مقيمين بمعنى ما ، وللمقيم قوة او ميزة يحسها لنفسه خلافاً لاي مسافر . والذين لم يسافروا مع آكوب لا بد ان يكون قد قدم لهم خدمة من نوع ما ، بحمل رسالة ، ببيع حاجة من الحاجات ، او تلك المساعدات التي تعود تقديمها . فابن نفاع مثلاً كان يخشى « هذا الكافر » لكن ما كاد البابور الذي اشتراه بشكل غير مباشر يتعطل ، وجاء آكوب حتى دفعه اليه بنوع من القسوة ، لكي يريه الحاجات الرديئة التي يحملها ويبيعها ، ما كاد ذلك يحصل حتى هب آكوب الى اصلاح البابور ، فوضع له جلدة جديدة من عنده ، ونفضه نفضاً جيداً ، وبعد ان اشعله وتأكد منه اعاده الى ابن نفاع ، وحين حاول هذا الأخير ان يدفع له اجراً على ذلك رفض آكوب باصرار .

* * *

ومثلما كان آكوب يعمل على « الخط » ـ هكذا اصبح يسمى طريق عجرة حران ـ كان راجي ابو عقلين . وراجي طويل ، ضامر ، اصلع ، او بالاحرى يشكل شعره هلالاً حول رأسه . عصبي المزاج كثير الشتائم ، وفيه الكثير من الصفات المناقضة لآكوب ، لكنه مع ذلك شديد الطيبة سريع النسيان ، خاصة نسيان الاساءة . كان اذا وصل الى حران يتوجه مباشرة الى المقهى ، تاركاً « المعاون » يشرف على تفريغ السيارة « لان دق طاولة مع ابو اسعد يُنسي الانسان انه في هذه الزفت اللي اسمها حران » . فاذا وجد ابا اسعد مشغولاً ، او غير راغبٍ في اللعب ، فانه يجلس في المقهى ، بعد ان يعمر نفس اركيله ، ويشرف على ذلك مباشرة ، ليبدأ الشتائم والتعريض ، وخلال ساعة يكون قد تعارك مع الجميع ، واسمع الكثيرين كلمات قاسية دون مبرر . يظل هكذا لا يصمت ولا يهدأ الى ان يوافق ابو اسعد على اللعب معه . وما تكاد تبدأ « المباراة » التي يتخللها الكثير من التحدي والصراخ وضرب الاحجار بقوة ، اضافة الى رمي الزهر بطريقة تؤدي الى خروجها من الطاولة ، وحرب الاعصاب التي يلجأ اليها راجي لتجعل اللعب ساخناً مستفزاً ، ما تكاد المباراة تبدأ وتتطور حتى يتجمع الكثيرون ، ومع المراقبة تبدأ التعليقات والهمسات .

راجي عالم خاص ، رجل لا يمكن ان يتكرر . فما يكاد يضم الزهر بين اصبعيه ، بعد ان يكون قد خضه كثيراً ، حتى يتطلع في وجوه الذين حوله ، او يرفع رأسه

وكأنه يبحث عن احد ، وحين تلتقي عيناه بعيني ذلك الشخص الذي يفترض انه صاحب حظ يقول بصوت عالٍ : « لعيونك ! » . فاذا جاء الزهر مواتياً او كما يريد يلتفت الى من تطلع اليه ويقول له وهو يهز رأسه : « حظي وحظك يفلقان الصخر . . تعال وابق قريباً مني . » فاذا اقتنع من وُجّه اليه الكلام واقترب ، او راقب اللعبة وكأنه اصبح شريكاً فيها ، فالربح دائماً لراجي والخسارة لذلك المنكود ، فلا بد ان يوجه له راجي بين رمية واخرى نظرة . وبعض الاحيان كلمة . كان اذا جاء الزهر قوياً يقول : « تسلم ايدك يا راجي ، المسألة ما هي حظ . لا . رمية الزهر هي الأساس ، وهذه رمية المعلم راجي » أما اذا جاء الزهر ضعيفاً او على غير ما يشتهي يصمت قليلاً . ثم يلتفت بكليته الى ذلك الشخص الذي راهن عليه وبشكل مفاجىء يصرخ : « تفضل . شوف حظك » ويصمت قليلاً ثم يضيف فتخرج الكلمات من بين اسنانه « وجه يقطع الرزق » ويغير صوته مرة اخرى حتى يتحول الى همس مسموع مشيراً الى ذلك الشخص : « لا تحوّل عينك فينا يا اخ ، لفّ وجهك والأحسن تفرقنا » . كان الكثيرون لا يفهمون الكلمات التي يقولها ، لكنهم يقدرون معناها . وابو اسعد الذي يحرص على شيئين معاً ، وبنفس المقدار : ان يربح الدق ، وان لا يخسر الزبائن ، كان يحاول كل شيء من اجل ان يسيطر على اللعب ، ان يبقيه ضمن حدود معقولة ، ففي لحظة من اللحظات يتصنع الغضب ، ويصرخ في وجه راجي :

ـ اسمع . . الناس ما لهم علاقة . . انا وانت وهذه .

مشيراً اولاً الى نفسه ، ثم الى راجي ، واخيراً الى الطاولة التي بينهما . ويهز راجي رأسه دلالة عدم الاقتناع ويرتفع صوته .

ـ اسمع يا ابو اسعد ، لا تحطني وسطاني وتقول لي طاولة . .

ويلتفت الى الناس الذين يتابعون اللعب :

ـ كلهم جماعتك ، كلهم مع ابو اسعد ، وراجي كلب ابن كلب ، خليه ينغلب مائة مرة .

بعد مناقشة عصبية ، يؤكد خلالها ابو اسعد ان اللعب نزيه ، وان لا احد تدخل فيه ، وما يعتبره راجي تحيزاً مجرد مزاعم لاخفاء ضعفه وانهاء اللعب قبل ان يُغلب ، بعد هذه المناقشة يوافق راجي على الاستمرار ، شريطة ان لا يراقبه الاخرون ، ان لا

يتابعوا كل لعبة وكل رمية زهر ، فيعتبر ابو اسعد ان راجي هو الذي لفت نظر الآخرين وجرهم الى المراقبة من خلال عربدته وصياحه . لذلك فان الطريقة العملية لصرف الناس عن المتابعة والمراقبة هي ان يكف الاثنان عن كل تعليق ، ان يلعبا بهدوء ، وسوف يكتشف بعد فترة قصيرة ان لا احد يتابعه او يراقبه . ويوافق اخيراً ويعاودان اللعب ، لكن ما يكد يتحسن مركز راجي قليلاً او يسوء حتى تبدأ المشكلة من جديد . لانه لا يستطيع ان يستمتع بالغلب منفرداً ، ؛ ولا يجد اللعب جميلاً الى درجة الروعة اذا لم يشاركه الآخرون الاعتراف . أما الخسارة فلا بد ان تكون نتيجة خطأ او ان « الزهر ميت ، عظم كلب » ، ويؤكد ان عيناً شريرة تتابع كل حركة ، وتنفث انفاسها مع كل رمية زهر !

المرات التي غُلب فيها راجي لا حصر لها . لكنه ينساها بسرعة ، يتذكر فقط المرات التي فاز فيها . يتذكر من كان موجوداً وكم كانت النتيجة . ويتذكر ايضاً الوقت والجو وما اعقب اللعب .

ومثلما كان آكوب مهماً لحران كان راجي كذلك ، لكن كل بطريقته . فراجي سريع التقلب ، كريم ، يحب التدخل في كل قضية من أجل تقديم المساعدة أو النصح . حتى لو لم يطلب منه ، ولا يتردد عن حمل بعض المسافرين الفقراء مجاناً ، فإذا وصل ذلك الى علم عبود فلا بد أن تقع مشادة بين الاثنين ، لكن ينتهي كل شيء حين يوافق راجي على أن يُخصم من أجرة النقلة الجديدة الكومسيون الذي يستحقه عبود عن الراكب . وعبود الذي يوافق بسرعة ، لا يريد أن يغضب راجي الى درجة تخرجه عن طوره ، لأن هذا إذا حصل لا يمكن أن ينتهي على خير «راجي أبو عقلين ، مجنون ، يده والضرب ، يضرب بأي شيء ، بمناويل السيارة ، بالمفك الكبير ، بأي شيء يضرب . . ويعوّر ! » ولذلك فإن جميع الذين يعرفونه لا يتمادون الى درجة كبيرة في إثارته أو استفزازه .

لم يكن أكوب وراجي يلتقيان في مكان واحد الا لفترات قصيرة ، على الطريق غالب الأحيان ، فواحد منهما في حران والآخر في عجرة . واحد في هذا الاتجاه من الطريق والآخر في الاتجاه المعاكس . فاذا صدف والتقيا في المايه وعشرة او المايه وستين ، أو في غيرهما من الأماكن ، وبعد أن يتبادلا أسئلة عادية وأخبار الطريق والسوق لا يجدان الكثير ليقوله الواحد للآخر ، فاذا افترقا فإن لدى راجي دائماً ما

يقوله عن آكوب : « طوله طول الشبر ، طول الفتر ، الدركسيون اطول منه . مساكين الركاب ، يمكن في كل لحظة يقتلهم ، لأنه قصير ولا يرى الطريق . قصير واعمى ، واذا عتّمت العين . . خطوتين ما يشوف قدامه . مساكين الركاب » .

هكذا يبدأ راجي التعريض ، فاذا أبدى المعاون اهتماماً بما يقول ، أو أصغى بعيون مفتوحة فان راجي يتابع : « صحيح أن الطول والنظر من الله ، هذا الشيء معروف ، الله سبحانه وتعالى خلق واحد طويل وخلق الثاني قصير ، لكن المصيبة انه لا يعرف السواقة . سواقته شيش بيش ، وعامل نفسه أبو السواقة ورب المكانيك . . هذه هي المصيبة » وحين ينظر اليه المعاون بطرف عينيه يدرك راجي أن معنى هذه النظرة عدم الثقة أو عدم الموافقة فينفعل ويهدر صوته :

ـ لا تحول عينك . . . اسأله هو نفسه كم مرة غرّز السفرة قبل الماضية . اسأل جماعة المايه وستين كم مرة سحبه التراكتور ؟ لو كان سواق مثل الخلق والأوادم لبان وظهر ، لكن الأعور بين العميان ملك .

وحين يجد أن كلامه غير مقنع يتحول الى جانب آخر :

ـ اتركنا من هذا التشوتشوك اللي ما يبول على يد مجروح . للرغيف السخن ما يضحك . يأكل وحده ، يشرب وحده ، وكلام لا يتكلم ، كله شغل . . حتى شغله زعبرة . طول النهار حامل العدة ومبطوح تحت السيارة يفك ويشد ، كل هذا زعبرة . بده يضحك على الناس ، لكنه مكشوف مثل قفا السعدان !

إذا وصل هذا الكلام أو بعضه الى أكوب يبتسم ابتسامة صغيرة ولا يتكلم . انه شديد الثقة بنفسه وبامكانياته . وحتى الأشياء التي لا يعرفها يقول انه لا يعرفها ، ومع ذلك يحاول ، وكثيراً ما انتهت محاولاته الى النجاح . فالمدحلة التي توقفت عند الكيلو مائة وستين ، وفشل حتى المهندس الأميركي في إصلاحها ، وقال انها تحتاج الى قطعة غيار ، وما لم تتأمن هذه القطعة لا يمكن أن تتحرك من أرضها ، ظل آكوب يحاول ويعالج الى ان أصلحها . وكذلك ماتور الماء في الطريق أصلحه بعد أن رفع الجميع ايديهم وأعلنوا عجزهم ، ونفس الكلام يقال عن التراكتور .

أما إذا بالغ راجي في الحديث عن آكوب ، خاصة ما يتعلق ببخله ، وأنه يأكل ويشرب وحده ، فكان آكوب يتأثر أشد التأثر ، لكنه يخفي ذلك ، يكتفي بأن

يقول : « بسيطة . . بكرة نشوف » ولم يكن أبداً مستعجلاً . والناس الذين يراقبون هذه الحرب ، دون أن يجدوا لها مبرراً معقولاً أو سبباً ، كانوا ينظرون الى آكوب بتعاطف ، ويعتبرون راجي متجنياً قاسياً .

ظلت الأمور هكذا فترة طويلة من الزمن . الطريق يتكامل تعبيده شهراً بعد آخر ، والركاب الذين انتقلوا على إحدى السيارتين بدأوا يستقرون في حران بعد أن وجدوا عملاً . الأشياء الجديدة لا تزال تصل مع آكوب ، وكذلك الرسائل والخدمات الأخرى . وراجي في لحظات معينة يتذكر آكوب فيثير شجونه ويبدأ . وآكوب يسمع ويصمت .

كان يمكن لهذه الحرب الغامضة ان تنتهي بشكل عنيف ذات يوم ، حين تستبد بآكوب ثورة من ثوراته التي تغيب فترة لكن تنفجر على حين فجأة فتدمر وتحرق . وكان يمكن لهذه الحرب أن تتراجع وتهدأ حتى تخمد من تلقاء ذاتها . كان يمكن أن يحدث مثل هذا ، لكن الأمور حصلت بشكل آخر تماماً .

فبعد أن طالت غيبة راجي عن عجرة أكثر من أية سفرة سابقة ، وكان سوقها ساخناً ، بحيث يمكن تحميل سيارة كل يوم ، عكس سوق حران الذي كان ميتاً تماماً ، وكان الاتفاق مع عبود أن تصل السيارة وترجع بأقصى سرعة ممكنة ، في هذه السفرة التي التقى آكوب راجي عند الكيلو مائة وستين ، الأول في طريقه الى عجرة والثاني ذاهب الى حران ، وبعد أن حمّل آكوب وعاد مرة اخرى ، وجد راجي في الكيلو مائة وستين لم يتحرك : السيارة مكسورة .

كان يمكن لآكوب ان يتوقف قليلاً ، ان يتظاهر بتقديم المساعدة ثم يمضي ، وكان يمكن أن يسخر وهو يرى راجي وقد تحول الى قطعة من السواد نتيجة الدهون والزيوت التي غرق فيها ، بعد أن استمرت محاولاته في إصلاح السيارة بضعة أيام وانتهت الى الفشل ، لكن ما كاد يرى ذلك حتى اندفع مثل ثور ، اندفع بتصميم لا يعرف الهدوء أو التردد ، وراجي الذي كان يدور مثل نحلة ، يعرض على آكوب كل ما فعله ، ويضع احتمالات معينة ، فيسمع آكوب ولا يسمع ، ينظر الى راجي ولا يراه ، وبعد أن يغمض عينيه فلا تبينان الا كخطين أسودين ، يطلب أن يناوله المفتاح رقم ستة ، أن يناوله المفتاح خمسة ، وبعد أن يحاول ويحاول يطلب مفتاحاً آخر ، ثم مفتاحاً غيره ، وبعد أن يفك وينفخ وينظف يطلب من راجي ان يشغّل المحرك ،

وبعد عدة محاولات ، خلال ساعة أو أكثر قليلاً ، يقول أكوب بثقة :

ـ خلص . . كل شيء تمام ، شغّل وامش وأنا وراءك .

وهكذا بعد أن قضت السيارة عدة أيام في الكيلو مائة وستين سارت بقوة حصان ، ورغم التعب الذي حل بالجميع فان راجي كان أكثر الناس رغبة في مواصلة المسير ، وخلال بضع ساعات وصلت السيارتان ، لأول مرة ، معاً الى حران .

هذه الواقعة التي جرحت راجي جرحاً بالغاً لم تغيّر في سلوكه تجاه آكوب الا تغييراً بسيطاً ، إذ لم يتوقف عن التعريض به كلما وجد مناسبة لذلك ، وآكوب يسمع ويصمت ، فلا تحدث عن الكيلو مائة وستين ولا أشار اليه مجرد إشارة ، كل ما قاله « إن من وجد صديقاً بحاجة الى مساعدة ولا يساعده يكون مثل العقرب ، فالعقرب يموت عندما يلدغ نفسه » .

لكن رغم أن راجي لم يغير موقفه من آكوب ، ولم يتوقف عن التعريض والشتم ، فان شيئاً جديداً قد حصل : أصبح يثور اذا سمع احداً يشتم آكوب أو يتكلم ضده كلمة واحدة . من حقه وحده أن يفعل ذلك ، أما إذا أبدى إنسان ملاحظة ، مجرد ملاحظة ، على آكوب ، حتى لو كان يردد ما قاله راجي ، فإنه يصبح عدواً «من أنت يا أجرب ، إذا حكى راجي ، راجي معلم وآكوب معلم . وأنت ، من أنت ؟.» فاذا تجاسر أحد وقال ان آكوب بخيل أو يشرب بول ابليس فكان راجي يصرخ «تفضلوا، حاتم الطائي يتكلم . . . أحمد بن حنبل يفتي . . . تفضلوا»، ويلتفت الى الذي تكلم « من أنت يا من تأكله البراغيث ويأكل القمل ، أنت تساوي قرادة ، فاذا لم تترك الناس الاشراف أساوي عظامك بأرض الطريق » .

هكذا أصبح راجي ، ويوماً بعد يوم لا يعرف الناس كيف يتعاملون معه . هل يصدقون شتائمه عن آكوب ؟ هل يوافقونه ؟ هل يختلفون معه ؟ إن كل شيء يمكن أن « يثير هذا المجنون ويجعله نار الله الكبرى » . إذا هزّ أحد رأسه موافقاً على ما يقوله رد هازئاً : « أي الله . . صار البرغوث حصاناً ! » أما إذا أبدى أحد دهشته وهو يسمع الشتائم ضد آكوب فان الصفعة تأتيه سريعة : « ها . . . فتحت حلقك ورخيت بيضك ؟ إنك مثل القط يفرح بعمى أهله ! » فاذا خالفه أحد في الشتائم التي يكيلها الى آكوب يصرخ : « أترك الكبار ، لأن الصغار شغلتهم الوحيدة ان

يتفرجوا » .

ومثلما شغلت الهموم الناس في الفترات السابقة ، وصرفتهم عن الكثير من الأحداث حولهم ، فان راجي وآكوب يمران في الذاكرة أو يغيبان بقدر ما تصل الى الأسماع الشتائم والاصداء التي تصدر عن راجي ، أو بقدر ما تحصل من الوقائع والأحداث . ففي أحد الأيام ، وقد حصل هذا في يوم ماطر ، يرون راجي يدخل بسيارته الى حران ، وقد ربطت الى سيارة آكوب بحبل قوي . لم يكن أحد يتصور أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث . فراجي الذي كان يباهي بسيارته التي « تعادل عشر سيارات مثل سيارة آكوب القرقيعة » والذي كان يزيّنها بالخرز والأضواء ، وكانت تبدو قوية لامعة ، وأكبر قليلاً من سيارة آكوب ، لم يكن أحد يتصور أن تتحول الى جثة وتجر هكذا . قال ابن نفاع لما رأى السيارتين ، الواحدة تقطر الأخرى ، قال وهو يضحك :

ـ الحجر اللي ما يعجبك يدميك .

وبعد أن هز رأسه عدة مرات أضاف ولم تفارق الضحكة فمه :

ـ ومثل ما الحمار يقطر الأباعر ويجرها ، وإن كانت أكبر منه ، فاليوم شفنا القطاية تشيل دبشاية !

وقد تحدث أهل حران عن ذلك طويلاً ، وكادت تقع أكثر من معركة بين راجي والآخرين ، لأنهم فقط تجرأوا على أن ينظروا ويضحكوا ! أما حين وقفت السيارتان عند المسجد ، وبعد أن انزلت الاحمال وغادر الركاب ، ولم يبق الا عدد محدود من الرجال ، فقد قال آكوب وهو ينظر الى راجي بحيرة :

ـ اسمع أسطة راجي ، أنت صاحب السيارة ، إما ترجع معي الى عجرة وتتفاهم مع سامي أو . . .

وتوقف قليلاً ، ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يخفض وجهه الى الأرض ، وأضاف :

ـ أو تحط ايدي بيدك ، ويمكن الله . . . .

ودون تردد قال راجي :

ـ لا يا أبو الشباب ، يا معلم آكوب ، إذا أنت موجود لا سامي ولا غيره .

ضحك آكوب بصوت مسموع ورفع أصبعه في وجه راجي :

ـ أنا موجود ، آكوب مستعد . . بس .

ـ بس ؟

ـ كَلا . كلا ما في ، كِتّي كَالمدي ما في . . موافق ؟

ولكي يتغلب راجي على الحرج قال وهو ينحني على آكوب ويطوق رقبته :

ـ ولا يهمك ، موافق .

الذين تابعوا الرجلين وهما يشتغلان ذكروا أن الأمور كادت تصل بينهما الى درجة الخصومة ، وكاد آكوب ، أكثر من مرة ، أن ينفض يده ويترك ، لكن في اللحظة التالية يتراجع ويستمر في العمل . وفي إحدى المرات ، وبعد أن بدا الضيق واضحاً على وجهه ، وكأنه اسقط بيده وبدا عاجزاً ، قال راجي بصوت عالٍ أمام ثلاثة أو أربعة من الرجال كانوا يراقبون :

ـ اعط الخباز خبزك ولو سرق نصفه .

وطبطب على كتف آكوب بنوع من السخرية وتابع :

ـ معلم آكوب . . هذي الشغلة أكبر منك . . .

والتفت مرة اخرى نحو الآخرين وقال :

ـ ظبطت مع الأفندي مرة تصور نفسه أنه صار اسطه .

وضحك بصوت عالٍ ثم تابع :

ـ كانت صدفة يا أسطه .

وآكوب الذي سمع ولم يسمع ، والذي لم يفهم أكثر ما قاله راجي ، استمر في المحاولة واستمر في العمل . رغم أن راجي بعد انقضاء ساعات ، وبدا له أن المحاولة دون جدوى ، قرر أن يذهب الى القهوة ، قال لآكوب بسخرية ومرارة :

ـ معلم آكوب . . رجّع كل شيء الى مكانه ، وتعال معي لأكسّر رأسك بدق طاولة !

قال آكوب .

ـ الله معك حبيبي ، روح . . بسيطة .

ظل آكوب واستمرت المحاولة ، وظل راجي يتسقط الأخبار بين دق وآخر ، ومع كل خبر جديد ، مع كل دق جديد تتوالى التعليقات ، فيضحك لها الذين يسمعون لحظة ويحزنون في اللحظة التالية . فما كاد راجي يكسب الدق الأول حتى التفت الى

كل الذين كانوا حوله وصرخ :

ـ يا جماعة . . . قولوا لآكوب أول رأس انكسر ، ولازم يحضر راسه .

أما حين وصل مناور الخضيري وقال لراجي أن آكوب طلّع مصارين الحنتور وفسّخ كل شيء فيه فقد رد :

ـ والله لأطلع مصارينه ، والله لاشنقه بمصران كلب .

وحين غلب راجي طبق الطاولة بقوة وصاح وهو يضرب على رأسه :

ـ « إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . . . وكم أهلكنا قبلهم من القرى ! » وآكوب اكبر مفسد في حران ، وقبله أو بعده الفاسق أبو أسعد الحلواني !

وعلى ضوء اللكس بدأ شوط طاولة ثانٍ ثم ثالث . وعلى ضوء المصباح اليدوي أول الأمر ، ثم على ضوء اللمبة الكهربائية التي ثبتها آكوب في مكان مناسب من السيارة ، قرب الماكنة ، استمر العمل واستمرت المحاولة ، وما كادت صلاة العشاء تنتهي حتى انتهى آكوب ، فشغّل السيارة وجاء بها الى مقهى أبو أسعد الحلواني . لقد أحس راجي بقلبه يخفق وهو يسمع هدير سيارة يقترب ، وبشكل عصبي أفسد الدق ، رغم أنه كان متفوقاً ، ثم هبّ يستطلع الصوت ، أما حين رأى سيارته تقترب ، وقد عرفها من الأضواء الصغيرة الملونة على جنباتها فقد اندفع لا شعورياً بقوة حصان . قال الذين رأوا الرجلين على ضوء السيارة يلتقيان ، قالوا أنهم رأوا دمعات تنحدر من عيني راجي ، ورأوه ينحني كثيراً ويطوق آكوب ويدفن رأسه في صدره . وآكوب الذي جلس في المقهى وشرب كوبين من الشاي وراقب جزءاً من دق جديد بين راجي وأبو أسعد ، ظل صامتاً . لم تصدر عنه الا كلمات قليلة ، كانت ، في الغالب ، رداً على اسئلة تتعلق بالصحة والأحوال . كان يرد باختصار شديد مع ابتسامة ، وقبل أن ينتهي الدق قال انه متعب ويريد أن يذهب لينام .

ومرة أخرى ، بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة ، غرقت حران في همومها ، وتساءل الناس اية احداث ستأتي مع انتهاء تعبيد الطريق ، أية هموم جديدة وأية أفراح ، خاصة وأن كل يوم يحمل معه خبراً أو توقعاً جديداً ، وإن كانت أكثر الأخبار وأكثر التوقعات غيرت طريقها في السنين الأخيرة ، فبدلاً من أن تأتي من جهة عجرة ، عن

طريق القوافل ، أصبحت تأتي عن طريق البحر ومن أماكن ومدن لم يسمع بها أحد من قبل .

الآن والطريق يوشك على الانتهاء بدأت السيارتان تتباريان في سرعة قطع المسافة بين عجرة وحران . إذ بدل الثلاثين ساعة أو اليومين أصبحت السيارة تقوم صباحاً من عجرة وقبل أن يحل العصر تكون قد وصلت حران وافرغت حمولتها . كما أصبحت السيارتان في هذه المرحلة تحملان المواد اكثر مما تحملان البشر . حتى عبود الذي كان يجد متعة في توزيع تلك القطع المعدنية على الركاب ، وفي نقش ذلك التوقيع الذي كان يثير العجب لتعقيده ، ويؤكد الكثيرون ان لا توقيع يشبه الآخر ، كفّ في هذه الفترة عن توزيع القطع المعدنية ، لأن الصبي الذي يعمل عنده جاءه يوماً بعشر قطع معدنية مرمية بالقرب من دكان سامي ، الميكانيكي الوحيد في عجرة . وحين قارن عبود تلك القطع بالتي كانت عنده ، بعد أن مسحها بالشوالات القريبة منه ، تبين انها متشابهة تماماً ، ويمكن أن تختلط على الكثيرين ، لذلك قرر أن يتوقف عن توزيعها . أما التوقيع فقد استمر لكن مع بعض التعديلات ، فبعد أن أصبح « مكتب سفريات البادية » أكثر اتساعاً ، إذ ضمّ اليه عبود الأرض الخلفية وحوّلها الى مستودع ، وكان من السهل على السيارة ان تقف في باب المستودع لكي تحمّل ، قرر أن يخطو خطوة كبيرة للامام لتناسب المرحلة الجديدة ، فكان أن أوصى على دفاتر فواتير وعلى ختم ، وقد صنعت له في الشام ، وبدأ استعمالها ، رغم الخطأ في اسم البلدة ، إذ كتب الخطاط بدل « عجرة » « غنجرة » ، فكان عبود مضطراً لاصلاح كل فاتورة . كان يفعل ذلك أثناء فراغه ومن أجل التسلية . أصبحت الفاتورة والختم هواية جديدة ، إذ لا بد من كتابة اسم المسافر والمبلغ ، أما ما يقابل ساعة السفر ورقم المقعد المثبتين على الفاتورة ، فكان عبود يضع خطاً مائلاً وهو يضحك ساخراً ويقول لنفسه : « ما بقي إلا أن نكتب اسم الأم ومتى يصل المسافر الى حران ! » .

الفواتير لا بد أن تذيل بالتوقيع ، ومع التوقيع الختم الدائري . كان عبود يقرّب الختم من حلقه ويزفر زفرتين أو ثلاثاً فاذا تأكد أن الرطوبة أصبحت كافية يطبّع الختم . ورغم أن المسافرين في كل سيارة أصبحوا أقل من قبل ، ولا يمكن أن يقع خطأ في عددهم ، كما لا يمكن أن يتهرب أحد من دفع الأجرة ، إلا أن عبود كان يصرّ

في اللحظة الأخيرة على أن يرى الايصالات . كان يقول بلهجة حازمة ، بعد أن يصعد الركاب الى السيارة :

ـ يا إخوان . . . كل واحد فاتورته بيده .

فاذا تأخر أحد أو نسي أين وضع تلك الوريقة كان عبود يصرخ :

ـ لا تؤخرون وتؤخروا أرواحكم . . كل واحد فاتورته بيده

خلال الشهر الأول ، بعد انتهاء تعبيد الطرق ، سارت الأمور سيراً مريحاً بالنسبة لعبود أولاً ، وبالنسبة للسيارتين وآكوب وراجي بعد ذلك . فعبود الذي قرر ان يذهب الى حران لكي يفتتح هناك مكتباً رسمياً ، أجّل سفره مرة بعد أخرى ، لأن قافلة الحج كانت على وشك العودة ، ولاعتقاده انه يستطيع اقناع سائق أو اثنين من سواق القافلة بالعودة الى عجرة والعمل على خط عجرة ـ حران ، خاصة وان السيارتين لم تعد تكفيان ، وأصبحت سيارة آكوب تتعطل مرة بعد أخرى ، رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها في الصيانة .

وفي هذه الفترة أيضاً ساد نوع من السلام بين آكوب وراجي ، بل واصبحا صديقين . أصبحا يقضيان وقتاً أطول في مقهى المائة وعشرة ، ويتبادلان ، بهمس ، الكثير من الأخبار والهموم . أما حين يطلب احد الركاب الاسراع في مواصلة الرحلة فكان يتكفل به راجي ، سواء أكان ذلك المسافر على سيارته أو على سيارة آكوب . كان يصرخ ويهدد باصبعه :

ـ الله يلعن ابو هذا الزمان ، زمان عرص وابن ستين كلب .

وحين يفتح المسافر فمه دهشة ، فلا يعرف ان كان الكلام موجهاً اليه ام الى غيره ، وأي معنى يعني ، كان راجي يضيف :

ـ الواحد منكم كان يقضي أسبوع أو أسبوعين بين عجرة وحران . . . هذا اذا وصل !

وتتغير لهجته تماماً :

ـ إشرب شاي على حسابي . يا ولد ، او فرك اصابع رجليك . . وخلي الناس تشرب شايها على رواق .

فاذا أبدى المسافر اعتراضاً على الكلام أو على التأخير كان الغضب براجي يبلغ حده الأقصى :

ـ اسمع . . كل كلمة ، كل فلسفة تؤخرك ساعة ، واذا أحد زادها والله ما ينام الا في المائة وعشرة .

ولأن الكثيرين يعرفونه أو سمعوا به ، او جاء من يقول لهم أي نوع من الرجال هو ، فقد كانت هذه المناقشات تنتهي عادة بدعابة أو قصة ، وغالباً ما يتولى العانم ، صاحب مقهى المائة وعشرة ، روايتها .

وفي المائة وعشرة بدأت شخصية آكوب تتضح اكثر من قبل ، فأصبح يشاهد في المقهى يغني ، وكان يشارك الآخرين طعامهم ويشرب الشاي ايضاً . أما القهوة المرّة التي يفخر الغانم انه أحسن من يصنعها في المنطقة كلها فلم يكن آكوب يقربها او يستسيغها . كان يقول له الغانم بأسف حقيقي ، حين يمتنع عن شرب القهوة :

ـ لا عيب فيك الا صوتك ، وهذا الصوت لا تداويه الا غزالة : المرة والمرّة .

وحين يهز آكوب رأسه ساخراً يقول راجي :

ـ الله حارمه وربنا لا يكملها دائماً .

وفي هذه الفترة عرف أن آكوب جاء من حلب ، لكنه ولد وراء الجبال ، الى جانب بحيرة لم يخلق الرب أجمل منها ، هكذا كان يقول . وفي تلك الفترة القاسية ، ومع التبدلات الكبرى التي حصلت في أوائل القرن ، اثر المذابح التي حلت بالأرمن ، جاءت به جدته بعد ان فقد أباه وامه واكثر أفراد عائلته في تلك المذابح . جاءت به الى حلب وفيها عاش . وأن هذه السيارة حصيلة عمر بأكمله ، ورغم أنه تقدم في العمر ـ ولم يعترف بعمره أبدا ـ إلا أنه سيرجع خلال فترة قريبة ، سنتين أو ثلاث سنوات الى حلب . وبعد ان يتزوج سيذهب هو وزوجته الى تلك البحيرة . وسيعيشان هناك . لأنه يريد لأولاده كلهم ان يولدوا على تلك الأرض . أما إذا تقدم به العمر فسوف يتفرغ لنظم الشعر !

كان آكوب يتوقع انه خلال سنة واحدة ، اذا استمر العمل كما هو الآن ، وبعد أن يبيع « القرقيعة » ويضيف ثمنها الى ما جمعه ، ان يشتري سيارة اخرى ، سيارة احدث . ولن تمر بعد ذلك سنة واحدة ، وعلى أبعد تقدير سنتان الا ويقول لحران وللخط كله : كَولا . . . كَولا ويقفل عائداً ، أولاً الى حلب ثم بعد ذلك الى أرمينيا .

هكذا كان يفكر ويحلم ويخطط ، فاذا مرت هذه الأفكار برأسه ، ورآها واضحة جلية كاملة تنبسط ملامحه ويشرق وجهه ، فيضحك بصوت عالٍ بعض الأحيان . كان وجهه كله يضحك فتبين في مؤخرة فمه أسنان فضية وعندها لا يستطيع الانسان ان يقدر عمره ، إذ يبدو فتياً وقوياً ، ويبدو في نفس الوقت وكأنه ينزف آخر ما تبقى فيه من شباب .

ولئلا يفوت الوقت وتأتي الظلمة ، ولكي لا يعترف ولا يبوح بأسرار يريد ان يستمر محتفظاً بها لنفسه ، كان يقول لراجي :

ـ أنتم عرب ، جماعة الف ليلة وليلة . أنا أرمن ، ما عندي إلا ثلاثمائة وخمسة وستين ليلة ولازم أخلص كل الشغل !

وبقوة حصان ينهض . كان اذا مشى يباعد رجليه قليلاً ، وربما كانت الساقان مقوستين ، أو ان ثقل الجسم القوي المكتنز يضغط على الساقين فيجعل مشيته اشبه بالبطة . كانت هذه المشية بالذات تثير راجي وتضحكه ، كما لو ان انساناً يدغدغه ، فما ان يبتعد آكوب بضع خطوات ، وتبدو مشيته من هذه المسافة ، وقد اخذت هذا النسق ، حتى يصرخ :

ـ آكوب . . . آكوب . .

فاذا وقف آكوب يتابع راجي بنغم :

ـ مشية الغزال مشية حبيبي .

فيرفع آكوب اصبعه مهدداً ويتابع محاولاً ان يعدل هذه المشية فلا يستطيع ، وحين يقفز بخفة وقوة الى السيارة يصله صوت راجي :

ـ ونطة الحجل نطة حبيبي .

ولا بد أن يتأخر راجي ساعة أو أكثر لان الغانم خمّر دلة قهوة جديدة ، « واذا راجي ما ذاقها عمرها ما كانت » هكذا قال راجي مرة في تبرير تأخيره ، ثم أصبح

الغانم يردد هذا القول من أجل استبقاء راجي ساعة اخرى « لأنه اذا رحت انت ، وراح آكوب ما اشوف الطير الطاير الى أن يأتي واحد منكم » .

* * * *

بعد شهرين وبضعة أيام من انتهاء طريق عجرة ـ حران ، وبالاضافة الى سيارات الشركة كانت سيارتا آكوب وراجي تطاردان على هذا الطريق ، وبعد ان مرت قافلة الحج ، وأجرى عبود مفاوضات طويلة وشاقة ، لم تتبلور بشكل واضح ، اذ ظلت مجرد وعود ، قرر عبود ان يسافر الى حران وان يغامر بفتح مكتب هناك . ولأنه كان يخشى السفر مع راجي ، لأسباب لا حصر لها ، فقد جعل سفره يبدو مفاجئاً ، وكأن الفكرة انبثقت فجأة او عفو اللحظة . فما كاد ذلك « الحكيم » الذي كان يرافق قافلة الحج يقرر التوقف في عجرة ، تاركاً لمساعده ان يتولى طبابة القافلة ومرافقتها ، وبعد أن قضى بضعة أيام ، واستكمل المعلومات حول فرص العمل ، قرر أن يسافر الى حران ، ولذلك ما كاد يدفع الاجرة ويأخذ الفاتورة من عبود ويتجاذب معه أطراف الحديث ، وقد اشترط ان يركب الى جانب السائق ، ما ان حصل هذا حتى قرر عبود أن يسافر . وهكذا وافق الطبيب على تأخير سفره يوماً آخر « لأن الأرمني يخاف الله ويسوق بطريقة رحمانية ، عكس هذا المجنون اللي تشوفه يركض ويصرخ وما ينعرف اذا كان يصل حران او لا يصلها ! » وهكذا سافر الحكيم صبحي المحملجي الى حران يرافقه عبود .

في الكيلو مائة وعشرة التقت السيارتان ، أو بالأحرى كانت هناك سيارة راجي قبل أن تصل سيارة آكوب . وما كاد راجي يرى عبود حتى فوجىء تماماً . قال للغانم وهو يشير الى عبود :

ـ هذا هو عبود ابو الحدايد اللي سولف لك عنه البدوان .

حاول عبود ان يبتسم ، ان يتغلب على الحرج ، وقد واجه هذه العيون كلها تنظر اليه دفعة واحدة . تابع راجي :

ـ خذ بالك يا عبود ، حران ما بها حديد وقرطاس ، بها كلمة .

ـ باكر يصير !

هكذا رد عبود وهو يضحك بصوت عالٍ كطريقة للدفاع . قال الغانم موجهاً الكلام الى عبود ليخلق جوّاً جديداً :

ـ كل من مرّ الى حران ذكرك بالخير .

ولكي يبدد أية شكوك قد تساور عبود اضاف :

ـ كل واحد يقول : لولا سيارات عبود ما وصلنا الى حران .

بعد ذلك اختلط الناس واختلطت الأحاديث بعضها ببعض . وبدا الحكيم صبحي المحملجي ، ببياض بشرته المشربة بحمرة ، ثم بملابسه والنظارات التي يضعها على عينيه ، شخصاً من عالم آخر . فطريق حران الذي ظل يستقبل أعداداً تتزايد يوماً بعد يوم من سنين ، لم يشهد شخصاً بهذا الشكل ، حتى المعلمان اللذان مرا قبل ثلاثة أسابيع ، لم يكونا بهذه الأناقة والنظافة والصحة ، أما المهندسون الأميركيون وغير الأميركيين الذين مروا من هنا ، واستراحوا في هذا المقهى ، فقد كانت أشكالهم وتصرفاتهم أقرب الى العمال ، بل إن كثيرين منهم كانوا يأكلون بأيديهم . قال راجي وهو يميل على آكوب لكي يستفسر عن هذا الأفندي المتأنق :

ـ هذا الأفندي . . قولك يصل حران او يذوب على الطريق ؟

ضحك آكوب ولم يجب . تابع راجي .

ـ ابن الحرام عبود . . . مثل المنشار ياكل على الطالع وعلى النازل ، أخذ الاجرة وركبه الى جانبه !

والتفت الى عبود ، وسأل بطريقة تنم عن البراءة :

ـ ها أبو نجم . . . اذا كنت قاصد حران لمن تركتنا ؟

ـ كلها كم يوم وارجع .

توقف عبود لحظة ثم أضاف :

ـ وفيكم البركة . . . والصبي هناك وهو يعرف كل شيء

رد راجي ولم يستطع ان يمنع نفسه من الضحك ، وكانت يده تتحرك في الهواء :

ـ والتواقيع والأختام ؟

قال عبود وقد بدأ يغضب :

ـ والله يا لئيم أطول ما فيك لسانك

قال راجي وهو ينهض ويشير الى أكثر من موضع في جسده :

ـ كل شيء فيّ طويل يا أبو نجم !

* * * *

في اليوم الرابع لوصول عبود الى حران ، وبعد أن فوجيء بهذه البلدة التي رآها قبل اربع سنوات ويراها الآن ، فتبدو له مختلفة تماماً عما كانت ، أو بالأحرى ليس بينهما اية صلة . ولولا الوجوه الكثيرة التي يصطدم بها في الشارع ، في المقهى ، في كل مكان يمر فيه ، وجوه الذين سافروا الى حران عن طريقه ، لأنكر انه في حران .

في اليوم الرابع لوصوله ، وبعد أن اتفق مع شهاب الدريعي على افتتاح مكتب للسفريات في حران ، امتداداً لمكتب عجرة ، اطلعه على الفواتير والختم ، ثم حدّثه عن الكومسيون الذي يستحقه المكتب عن كل مسافر وعن كل حمل . وتم الاتفاق ايضاً على التفاصيل ، بما في ذلك التوصية على أوراق جديدة تطبع باسم المكتبين معاً في الشام وصنع اختام جديدة . احدهما يكتب عليه اسم شهاب الدريعي ، باعتبار انه لا يعرف الكتابة والقراءة ، وبالتالي لا يستطيع التوقيع ، رغم ان عبود اكد لشهاب ، بأكثر من طريقة ، ان مسألة التوقيع مختلفة عن مسألة القراءة والكتابة ، اذ بمجرد ما يحسن الانسان طريقة خاصة يخط بها اسمه ، بحيث لا يستطيع احد ان يقلد هذه الطريقة ، فانه يضمن بالتالي التوقيع . بعد أن تحدث عن كافة هذه التفاصيل ، تحدث ايضاً عن الاحتمالات الايجابية الكثيرة التي تنتظر المكتب الجديد ، ثم ذهبا ليشربا القهوة في مقهى ابو اسعد الحلواني .

مع رشفات القهوة جاء اكثر من واحد الى المقهى ليبلغ ان من جملة ما أفرغته الباخرة التي وصلت بالأمس ثماني سيارات جديدة كبيرة ، اكبر من أية سيارات شهدتها حران من قبل ، وان السيارات الثماني ما ان انزلت الى الأرض حتى صعد اليها سائقوها ، ومعهم اشخاص آخرون ، وقد شغلت ويمكن ان تنطلق في أية لحظة .

نظر شهاب الى عبود نظرة تساؤل اقرب الى الاتهام ، وقال وهو يجره :

- جيت ، يا أبو نجم ، بوقتك ، ومكتب السالك - الدريعي صار بالسماء .

وبعد العصر وقبل الغروب تجولت السيارات الثماني - وكانت خمس منها انترناش والأخرى ماك بگيرين - مرتين في حران من البحر وحتى المسجد، ثم توجهت الى طريق عجرة فغابت اقل من ساعة ، وأخيراً اصطفت كلها في شارع الراشدي ، قرب مكاتب رضائي ، فملأت الشارع من أوله الى نهايته تقريباً

في ذلك المساء، في المقهى والسوق والمسجد ، وفي حران العرب ومعسكر العمال ، قال جميع الناس ان عصراً جديداً بدأ.لم يكن احد يتصور كيف سيكون وماذا سيجلب من أفراح وأحزان . هل سيكون خيراً على حران واهلها أم سيكون شقاء جديداً يضاف الى الشقاء الذي بدأ يعيشه الناس منذ ان جاءت باخرة الشيطان قبل اكثر من أربع سنوات .

ورغم ان الناس كانوا في حيرة كبيرة ، فلا يعرفون كيف يفسرون هذا فقد قال ابن الزامل في المعسكر :

- مسكين آكوب .

وحين تطلع اليه العمال وتساءلوا بأعينهم لماذا يكون آكوب بالذات مسكيناً ، تابع ابن الزامل بصوت حزين :

- السيارات الجديدة راح تاكل الأخضر واليابس ، وأول ما تاكله آكوب وسيارته .

اما آكوب الذي شهد موكب السيارات مع الكثيرين ، وكان قد وصل لتوه من عجرة ، فقد ارتسمت علامات الحزن والفرح والخوف معاً على وجهه ، ولم يستطع الذين رأوه في تلك الساعة أن يعرفوا هل كان يبتسم ام كان وجهه يعتم ويكفهر . أما حين وقفت السيارات قريباً من المسجد فقد اقترب منها كثيراً ، دار حولها مرة ثم ثانية ، وسمع الذين كانوا قريبين منه انه قال :

- البني آدم اهم من المكينة ، وآكوب أقوى من الأنترناش والماك ، لكن آكوب فقير . . .

* * * *

وظل آكوب وراجي على الخط . كانت تمر بهما السيارات الجديدة كما يمر البرق ، لسرعتها وحجمها الكبير . كان آكوب يبذل جهداً واضحاً كي يتقي ضغط الهواء القوي اذا تجاوزته احدى هذه السيارات أو اذا التقت به . وفي وقت من الأوقات بدأت هذه السيارات تمازحهم في الطريق ، إذ كانت تميل الواحدة الى درجة تضطر أياً منهما للخروج عن الاسفلت ، أو تهجم ، اذا كانت مقبلة ، الى درجة يظن آكوب انها ستصطدم به ، فينحرف انحرافاً حاداً في محاولة للهرب ، حتى اذا اقتربت السيارة ،ولم تبق الا مسافة قليلة ، يعدلها سائقها في اللحظة الأخيرة ويتابع

سيره بنفس السرعة ، وابتسامة واسعة تملأ وجهه ، لأنه أدخل الى قلب العجوز كل هذا الخوف . ولأن السيارات متشابهة بألوانها وأحجامها ، لم يكن من السهل تمييز من يقوم بهذه « الأدوار » .

بعد أن تكررت هذه « الأدوار » ، وفي الكيلو مائة وعشرة ، ما كاد راجي يلتقي باثنين من السائقين ، حتى جرّ المانويل ونزل راكضاً . كان يريد أن يدخل معركة دامية ، ان يضرب الى درجة القتل . وهذه النية التي عبر عنها أكثر من مرة أمام الغانم ، كان من السهل أن تتحقق لولا ان الغانم كان حاضراً متنبهاً ، اذ ما كاد يرى راجي راكضاً حتى هجم عليه ، اعترضه ، وبصعوبة استطاع ، بالتعاون مع اثنين او ثلاثة من الذين كانوا ، ان يحجزه . قال راجي للسائقين اللذين فوجئا وظهر عليهما الخوف الشديد :

ـ والله يا أولاد الشرموطة قبل ما أموت لا خوض في دمكم . . .

وحاول ان يهجم من جديد ، لكن امسكوا به بقوة . تابع وكان الزبد يخرج من حلقه :

ـ يا أولاد الكلب ، يا جبناء ، اذا كنتم تقولون لانفسكم : سياراتنا جديدة ، ويمكن ان نقلب سياراتهم ونقتلهم ، غلطانين . قبل ما أموت أنا أوآكوب، دمكم يسيل من عجرة لحران .

وحاول الكثيرون ان يهدّئوا راجي . قالوا ان هذين السائقين غير مسؤولين ، ولم يفعلا شيئاً ، وربما كان الآخرون هم الذين فعلوا أو حاولوا ، فيصرخ راجي :

ـ ابن الشرموطة الأصلي هو رضائي . واذا كان ما ذبح لسياراته لازم نبعث له بدم واحد من هالكلاب .

بعد جهد أُخرج السائقان من المقهى ، وطلب اليهما ان يواصلا سفرهما توقياً لأي شر ، وما كادا يبتعدان و يجلس راجي حتى بدأ صوته يهدر :

ـ يا جماعة . . . أنا وآكوب ، هذا الطريق ، قبل ما يتزفت ، أكل طيازنا . مشيناه الف مرة . من سنين ونحن على هذا الطريق . صحيح ان سياراتنا قديمة ، لكن إذا كان الواحد سيارته قديمة ما هو مفروض أن يموت على الطريق مثل كلب . رضائي اشترى سيارات جديدة . كل واحد منا شافها . ما حكينا كلمة واحدة ،

يمكن سرقها ، أو الله انعم عليه ، هذه بينه وبين رب العالمين ، لكن رضائي فتش عن أخرا سواقين الله خلقهم وقال لهم : راجي وآكوب : يوك . اقتلوهم ، اصطدموا بهم على الطريق ، والي ما يروح موت الله يروح موت العبد .

استراح قليلاً ، زفر وابتسم ثم تابع :

ـ لكن بسيطة . أنا غلطان . الصغار ما لي شغل معهم ، لازم يكون شغلي مع الراس .

انتهت هذه « الأدوار » في المائة وعشرة ، وفي نفس اليوم وصلت القصة الى حران ، وصلت عن طريق هذين السائقين ، ووصلت عن طريق الآخرين ، وكما هي العادة دائماً لم يبق احد في حران الا وتحدث في هذه القضية ، أما آكوب الذي كان خارجاً لتوه من عجرة ، وما كاد يلمح من بعيد احدى سيارات رضائي حتى صلّب وخفف السرعة ثم اخذ اقصى اليمين . كان متوقعاً ان تمزح معه هذه السيارة كما تعودت ان تفعل جميع السيارات ، لكن أكثر ما استغربه ان السيارة من مسافة كبيرة ، وخلال النهار ، اضاءت النور لتنبهه ، ولاحظ أنها خففت السرعة وأخذت جانب اليمين اكثر مما تعودت ان تفعل دائماً . أحس بالخوف وخفف السرعة اكثر من قبل ، وكاد ان يقف ، فلما اقتربت السيارة كثيراً خففت السرعة مرة اخرى ، فلما تلاقت السيارتان بدا لآكوب ان السائق قد ابتسم له ، وحين توازيا تماماً رفع السائق يده بالتحية . قال آكوب للذي كان يجلس الى جانبه وهو يضحك :

ـ يا جماعة . . راجي عملها .

تلك كانت نهاية هذه الطريقة في الحرب لتبدأ طريقة جديدة .

بدأت سيارات رضائي تنقل من حران او اليها المسافرين والبضائع بدون أجر او بأجر رمزي . فالسيارة التي تكون في عجرة وتحمل الاسمنت والخشب وبعض المؤن ، كانت تحمل معها أي إنسان يريد ان يسافر ، كل ما في الأمر ان يرضى السائق ويوافق على حمله . أما من حران فالكثيرون سافروا على سيارات رضائي ليس لأنهم مسافرون حقيقيون ، وإنما لأن ليس لديهم شيء يفعلونه ، ولأن السيارات تذهب فارغة فيمكن ان يركبوا ليقضوا يوماً او بعض يوم في عجرة ثم يعودون مع السيارات الأخيرة الى حران .

قال آكوب لراجي ، وهما جالسان في مقهى المائة وعشرة ، وكان راجي يحمل من عجرة ثلاثة شوالات من الطحين واثنين من البدو ، أما هو فكان راجعاً فارغاً ووحيداً ، لأن المعاون ذاته فضل أن يبقى في حران وأن يجد عملاً آخر . قال آكوب وهو يتنهد ويتذكر :

ـ تقول مشية غزال . . مشية ديك . . . اسمع

وكاد آكوب ان يتوقف ، فقد طال به الصمت وذهب بعيداً، لكنه بعد فترة تابع :

ـ قبل ثلاثين سنة ، اربعين سنة ، في حلب ، مرضت . قالت جدتي : آكوب بدو يموت . كان عندي كلب . تصور الكلب مرض . الكلب لا ياكل ، لا يشرب ، وعند رجلي ينام . بعد أسبوع أسبوعين آكوب طاب ، صار احسن ، لكن الرجل ما طابت . انت تقول مشية غزال ؟ شوف . .

ورفع آكوب البنطلون عن ساقه فبدت مستدقة في الأسفل ثم تتقوس عند بطة الرجل ، قال بسخرية :

ـ ها . . . شفت ؟

وضحك آكوب كأنه يتذكر قصة شخص آخر ، وبعد ان هدأ قال :

ـ الكلب صار مثل آكوب . . صارت رجله عورا .

وضحك بصخب مرة اخرى وقال وهو يطبطب على ساق راجي :

ـ لا . . مش عورا . . العين بتصير عورا ، صارت عوجا ، مثل طارة ، مثل عجل .

ومن جديد صمت آكوب . بدا له انه لا يعرف لماذا قال ما قاله وحين تذكر انه يعود وحيداً الى عجرة ، تفاعلت افكار كثيرة في رأسه فأضاف بسرعة :

ـ السيارة مثل الكلب ، يمكن تمرض ويمكن تموت .

ولم يستطع ان يضيف شيئاً واضحاً ، بعد ان قضيا ساعة أو اكثر افترقا .

في اليوم التالي ، اثناء عودة راجي من حران وجد آكوب ، وجده قبل قهوة المائة وعشرة ، كان يحاول بجهد وشراسة اصلاح السيارة التي تعطلت ، لكن لم يستطع ان يصل الى نتيجة ، لم يقو على اصلاحها ، أما حين سحبه راجي الى المقهى ،

وكانت المسافة اقل من خمسة كيلومترات ، فقد بدا آكوب حزيناً اكثر من أية مرة سابقة . وحين جلسا في المقهى ، وقبل ان يتكلما في أي موضوع ، أو يسأل احدهما الآخر ان كان جائعاً او بحاجة الى قدح من القهوة او الشاي ، كانت الكلمة التي خرجت من فم آكوب :

ـ السيارة مثل الكلب ، أنا مرضت هي مرضت !

وبدأ الاثنان يمرضان . كان المرض يبدو غامضاً وبعض الأحيان مستعصياً ، فآكوب الذي يعرف كيف يبدأ مرضه وكيف يتطور ، ومتى يحصل ولماذا ، بدأ يحس في الفترة الأخيرة بأعراض لم يعرفها من قبل ولا يجد لها تفسيراً . حتى الحكيم الذي نقله الى حران ، والذي استأجر ثلاث دكاكين معاً ، وافتتح عيادة كان يستقبل فيها المرضى ويجري العمليات ، وخصص فيها ايضاً قسماً للاقامة ، له وللمرضى الذين يجري لهم عمليات ضرورية وعاجلة ، حتى صبحي المحملجي لم يستطع ان يشخّص مرضه ، او يفسر الأوجاع التي يشكو منها . كان الألم يبدأ من مؤخرة الرأس ثم ينتشر الى كل مكان ، وكان مع الألم الشعور بالارهاق وفقدان الشهية وارتفاع الحرارة ، خاصة في الليل .

كان آكوب يعالج مرضه بالأسبرين ، وبعض الأحيان باعشاب متنوعة يعرف كيف ينتقيها أو يوصي عليها ، لكن هذه الأعشاب لم تكن تختلف عن الأسبرين بأثرها أو مدتها .

وكان يعالج السيارة بنفس الطريقة ، اذ ما يكاد يحس بتعبها ، وبأنها غير قادرة على مواصلة الرحلة ، حتى يبدأ : يتفقد كل شيء . يقضي الساعات الطويلة ، وبعض الأحيان يصل الليل بالنهار من أجل ان يكشف العلة ويعرف السبب ، لكن أغلب الأحيان ينتهي الى الفشل . وبعد أن يستريح يوماً أو يومين ، ويفكر خلال الليل والنهار بهذه العلة الخفية ، ولا يجد لها سبباً ممكناً ، كان يقول لنفسه : « اذا كانت السيارة قوية اكوب : قوة سز . اذا كانت السيارة خرا وآكوب تمام ما في فايدة . اذا كان آكوب تمام والسيارة تمام سوق سز . . . سوق خرا» .

حتى عود الذي كان يبدو مثل ديك ، وكان يتباهى بالتوقيع والقطع الحديدية ، ثم بالفواتير والاختام ، ما لبث ان شعر بوطأة القوة التي فرضها رضائي ، وبالمنافسة التي لا يقوى على احتمالها ، فبدأ يشارك الصبي في النداء « حران ، راكب واحد

حران » . ثم بدأ يتجاوز الدكان والرصيف . ويصل بعض الاحيان الى المسجد او بداية الطريق السلطاني ، بحثاً عن مسافر الى حران . وحين يجد ان هؤلاء البدو الفقراء الجاهلين لا يستجيبون لندائه او محاولاته في ان يركبوا سيارات « مكتب سفريات البادية » كان يقول بنوع من الغضب :

ـ خليهم يسافرون مع ابن رضائي ، لكن باكر اذا طلع حليب امهاتهم من خشومهم ، واذا دوروا بسراج وفتيل عن ابن السالك ما يلقون الا الخراب .

وهكذا بدأ عبود السالك ، يوماً بعد آخر ، يتحول الى دكان عادي مثل دكاكين عجرة . كان يبيع الرز والطحين ، ويشتري الملح والتمر ، وكان ايضاً ينتظر قوافل الحج . وينتظر اخيراً الصدفة العمياء ، هكذا كان يسمي الحالات التي تأتي وحدها ولا ينتظرها احد .

وفي هذه الفترة ايضاً ، ومثلما جاءت سيارات رضائي ، جاءت سيارتا باص لمحيي الدين النقيب . كان الباصان الاصفران شيئاً عجيباً في حران ، فقد قضى الناس ساعات طويلة يتأملون هذه المخلوقات الغريبة التي جاءت فجأة عن طريق عجرة . لم يبق احد الا ووقف طويلاً ونظر الى الداخل ، أما الصغار فقد حملوا بعضهم بكثير من الصخب لكي يلقوا نظرة الى بطنها ، كما يقولون ، وحاول بعضهم ان يتسلق السلم الخلفي ليصعد الى الاعلى ، لكن صرخات السواق ورجال النقيب منعتهم من ذلك ، ثم في وقت لاحق شُدّت اسلاك شائكة حول السلالم لتمنع احداً من تسلقها ، فاكتفى الصبية بان خطّوا اشكالاً ورسوماً على جدران الباصين . كانوا يفعلون ذلك بكثير من اللذة والاستغراق ، وهذه الاشكال كانت تبدو جميلة غريبة ، خاصة حين يكون الغبار كثيفاً على الجدران .

ومثلما انشغلت حران في المرات السابقة انشغلت الآن . لم يكن بعد واضحاً اي شيء ستفعله هاتان السيارتان العجيبتان ، أما حين ربطت قطعة كبيرة من القماش على الدكان الأخيرة من المبنى الذي يشغله محيي الدين النقيب ، وكتب عليها بلون احمر وخط كبير : « سفريات النقيب ـ السيف عبر الصحراء » ثم بدأ النداء : عجرة ـ عجرة ، وجاء بعد ذلك محمد السيف وقال بصوت قوي والابتسامة تملأ وجهه :

ـ كل من يريد من أهل حران السفر الى عجرة ، ومن عجرة الى حران يركب . . سفركم كلكم على حسابنا ، ولا واحد منكم يدفع قرش .

نظر الناس بعضهم الى بعض ونظروا الى ابن السيف وتساءلت عيونهم ووجوههم : السفر الى عجرة ، ومن عجرة الى حران . . ولا قرش ؟ ، بدون أجر ؟

ولثلاثة ايام متوالية ظلت الباصات تذهب وتجيء ، تحمل « المسافرين » في داخلها ، أما العفش فكان يربط على السقف . لم يبق احد الا وركب الباص او حاول الركوب . وصدف ان سافر بعض الاشخاص مرتين او ثلاث مرات ، وآخرون كثيرون حاولوا وانتظروا ، وجاء بعضهم مبكراً ، لكن نظراً للازدحام الشديد والمنافسة القوية بين هؤلاء الراغبين تعذر سفرهم كلهم .

في اليوم الرابع استراح الباصان وقام السواق بتنظيفهما تنظيفاً جيداً ، وسرى الهمس بين الناس ان السفر منذ اليوم بهذه الباصات المريحة السريعة القوية سيكون بسعر عال ، اعلى من السعر الذي كان يُدفع في سيارة اكوب او سيارة راجي ، وربما يصل الى ضعفين او ثلاثة اضعاف ، لكن المفاجأة كانت كبيرة حين أُبلغ الجميع ان الاجرة التي يدفعها المسافر هي نفس الاجرة التي كان يدفعها من قبل : « سعر القراقيع » . وفي محاولة للتوضيح قال عبد الله السيف لبعض الرجال الذين كانوا حوله . في الطابق الثاني ، فوق مكتب سفريات النقيب ـ السيف عبر الصحراء :

ـ نريد السيارات تطّلع مصروفها واجرة سواقها ، والله يلعن اللي يدور على ربح

وهكذا بدأت سيارات الباص بين عجرة وحران . يخرج باص حران صباحاً فيصل الى عجرة قبل الظهر ، وعند العصر يغادر عجرة عائداً الى حران ، وهكذا الباص الآخر ، لكن بشكل معاكس . وفي المائة وعشرة يستريح الباصان والركاب قليلاً ثم يواصلون سفرهم

قال راجي لاكوب ، وكانا يجلسان في مقهى المائة وعشرة وقد تدفق ركاب الباص مثل السيل ، وكل واحد يريد ان يشرب قبل الآخر ، قال راجي :

ـ انا وانت ، يا اكوب ، مثل السمك الصغير ، اذا بقينا بعيدين يمكن ان نعيش ويمشي حالنا ، لكن السمك الكبير كيف يعيش ؟

وحين قلب اكوب شفته لا يعرف الاجابة تابع راجي :

ـ جاك الموت يا تارك الصلاة ، وخازوق النقيب فات برضائي من طيزه الى عينه ،

وبكرة تسمع الصوت .

رد اكوب وهو يضحك :

- الخازوق فات فينا . . افندي .

- صح ! اكلنا الخازوق ، لكن جاء النقيب ليرد الخازوق عشرة .

- عشرة ؟ لمن ؟

- طبعاً لرضائي . . رضائي اكل خرا .

- افندي . . رضائي ياكل اللحم . رضائي ما ياكل خرا .

توقف آكوب لحظة ثم اضاف بسخرية :

- انا وانت ، افندي ، ناكل خرا .

- غلطان .

- غلطان مش غلطان بكرة تشوف .

- يا سيدي اكثر من القرد الله ما مسخ .

وبدل ان ينهض آكوب بسرعة ، كما كان يفعل من قبل ، كان يفضل ان يطيل البقاء ، أما حين يهدأ الغانم ويبدأ بصنع القهوة ، ثم يأتي بها فيرفض آكوب تذوقها يقول الغانم وهو يضحك :

- اسطه . . . مائة مرة قلت لك : في هذه الجلهيمة ، في هذه الفلاة العكرة النكرة لا تحل المشكلة الا غزالة : مُرّة او مرة .

ويمدّ اليه فنجان القهوة من جديد ويقول بصيغة الامر :

- اشرب ، اسمع من اخوك واشرب .

فيرد عليه آكوب بغضب :

- خلينا يا شيخ ، اشرب انت .

* * *

ومثلما سرق رضائي الركاب والحمولة من آكوب وراجي سرق النقيب الركاب من رضائي . أما الحمولة فقد ظلت تنقلها سياراته . واخذت هذه السيارات تتجاوز حران بمسافات بعيدة .بدأت السيارات الثماني تجلب الاسمنت والخشب ومواد اخرى كثيرة من بيروت مباشرة . وبدل الثماني اصبحت هناك سيارات اخرى كثيرة ، وكانت بعض هذه السيارات تجر وراءها مقطورات كبيرة ايضا . واذا كان ابن نفاع

قد ضحك طويلاً حين رأى آكوب يقطر سيارة راجي ويدخل الى حران . فانه قلب شفته استغراباً ودهشة حين رأى السيارات الطويلة ووراءها المقطورات . قال وهو يهز يده بنوع من السخرية والغضب معاً :

- اذا عشنا يجي يوم يقطرون حران كلها ، يربطونها بحبل مثل ما يربط الحمار ويقولون : حي حي فتمشي .

وهكذا اصبحت الامور تسير من سيّىء الى اسوأ بالنسبة لآكوب وراجي . حزن الكثيرون من اجلهما ، وتمنوا شيئاً آخر . شيئاً افضل ، لكن لا احد يستطيع الوقوف في وجه الحيتان الجديدة القوية . صحيح ان الكثيرين ظلوا يوصون آكوب اذا احتاجوا شيئاً من عجرة ، وكان بعض الناس يفضّل السفر معه في تلك السيارة القديمة تحت الشمس ، لكن هؤلاء كانوا قلة ، ويتناقصون يوماً بعد آخر ، كما انهم لا يسافرون الا في فترات متباعدة ، وقد لا يسافرون مرة واحدة في السنة ، كما انهم بدأوا يجدون ما يحتاجون اليه حولهم في حران ، عكس الفترات الماضية .

قبل ان تنقضي السنة الاولى على تعبيد الطريق بشهر او شهرين قال راجي لآكوب في المقهى اياه ، والذي اصبح لهما مثل ملجأ :

- اسطه . . . الشغل خلاص . . شغل يوك .

هز آكوب رأسه موافقاً ولم يتكلم . سأله راجي :

- هذا . . اسطه ، رأيك نظل بهذا الشكل ؟

حرك آكوب كتفيه ويديه بطريقة يائسة . قال راجي :

- اسمع . . قبل كم يوم بعث إليّ رضائي بواحد من جماعته . . .

فتح آكوب عينيه باهتمام وهز رأسه طالباً من راجي ان يتابع ، تابع :

- باختصار : تبيعنا السيارة وتشتغل عندنا سائقا .

- وافقت ؟

- قلت لهم اعطوني فرصة كم يوم ، خلوني افكر .

توقف قليلا وبدا حذراً ثم أضاف :

- سألتهم : وآكوب ؟ قالوا : آكوب اذا يبيع سيارته نشتريها منه . ومرة ثانية سألتهم : ويشتغل عندكم سائق ؟ قالوا : . . .

وتوقف راجي لا يريد ان يتابع . بدا الحزن في وجهه قوياً جامحاً ، أما حين ابتسم

آكوب في محاولة لان يخفف عنه ، فقد قال بغضب :

ـ اولاد الكلب .

وتنهد بحسرة ثم ابتسم وقال كأنه يكلم نفسه :

ـ لازم ننجّر لهم خازوق . . يا آكوب .

وبعد فترة صمت وتفكير قال من بين اسنانه :

ـ اولاد الشرموطة ، قالوا : آكوب مستوي ، خالص .

وتغيرت لهجته وتغيرت ملامح وجهه :

ـ آكوب اقوى من ربهم ، آكوب يدفنهم قبل ما يموت .

وعاد من جديد الى لهجته الهادئة المتآمرة :

ـ اذا ما نجرّت لهم خازوق ما اكون راجي .

واقترب كثيراً من آكوب يريد ان يبوح له بسر :

ـ اسمع . . من رأيي ان نوافق على بيع السيارات ، اي نعم نبيعهم سياراتنا ، وبس الفلوس تصل ايدينا هم بطريق ونحن بطريق .

ـ انا لا ابيع .

هكذا رد آكوب بسرعة وشراسة ، قال راجي في محاولة للتوضيح :

ـ لو قطعت رأسي لا اشتغل عند رضائي ، ممكن اوافق على الشغل في الشركة ، عند النقيب ، أما عنده . . فلا .

وبعد قليل اضاف آكوب وهو يشير الى سيارته :

ـ انا عندي هذه ، وانت ، الله معك ، حبيبي .

ورغم ان راجي كان قد ترك حران قبل ساعات قليلة في طريقه الى عجرة ، الا انه كان يحس بحاجة لان يبقى مع آكوب ، ان يتحدث معه ، ان يقضيا وقتاً اطول لعلهما يتفقان على شيء ما ، ولذلك قرر ان يرجع مرة اخرى الى حران . قال في محاولة لان يبقى الحوار مستمراً :

ـ انا راجع معك الى حران .

ـ حران ؟

ـ اي . حران .

وأضاف وهو يضحك :

ـ ما دام شغل يوك في حران او عجرة فكل الاماكن مثل بعضها .

ورجعا الى حران .

لا أحد في الكون يتصور ان هذين الرجلين كانا خصوما ، **أو يمكن أن يتخاصما** ، في يوم من الأيام . كما لا يوجد احد يتصور ان هذين الرجلين اللذين يمتلئان فرحاً وقوة يمكن ان يخفيا في قلبيهما هذا المقدار من التعاسة وخيبة الأمل والحيرة . فما كادا يصلان الى حران ، وبعد ان نزل البدو الثلاثة وانزلوا رؤوس الغنم العشرة التي كانت معهم ، والاحمال الاخرى من الطحين والشعير ، حتى انطلق آكوب وراجي . تجولا في السوق الرئيسي ، والذي اصبح اسمه سوق الراشدي ، رغم ان معظم الاراضي فيه اشتراها حسن رضائي ، وقد اطلق عليه الناس هذا الاسم . توقفا امام مكاتب رضائي ، كانت اللوحة الكبيرة مكتوباً عليها : « حسن رضائي واخوه عباس تجارة عامة ونقل » وتحت اللوحة كانت ثلاث سيارات صغيرة جديدة تقف امام المكاتب ، واحدة منها سوداء واكبر من السيارتين الأخريين . بعد ان توقفا قليلا انطلقا الى السوق الشرقي ، وهناك كان ابو كامل اللحام ، وعلى مسافة قصيرة منه عبده محمد ، وفي نهاية السوق باتجاه البحر ، كانت قهوة ابو اسعد الحلواني .

كانا يتجولان ويتحدثان كما لو انهما شابان في مقتبل العمر . كان الواحد منهما يستوقف الآخر بين فترة واخرى ، لان الحديث الذي يخوض فيه من الدقة ومن الاهمية بحيث يحتاج الى ان ينظر في عيني صاحبه ، او ان يضيف الى الكلمات التي يقولها بعض الاشارات التي تساعد على وضوحها . وكانا يضحكان بصوت عال . ويتوقفان مع الكثيرين الذين عرفوهم من قبل . وكانا يردان على الدعوات الحارة التي توجه اليهما بانهما سيبقيان وقتا طويلا في حران وانهما سيستجيبان لكل الدعوات .

لقد جرى هذا قبل ان يصلا الى القهوة . اما حين وصلاها فكانت تعج بالعشرات ، وقد اضطرا للوقوف بعض الوقت مع ابو اسعد . الى ان هيأ لهما مكاناً معيناً . على شاطىء البحر . وشارك راجي نفسه في تحضير النفس العجمي . أما حين قال ابو اسعد لراجي انه حان يفرغ قليلا فسوف ينازله بالطاولة لكي يسد الغلب ، فقد رد عليه راجي :

ـ حق الطاولة ليوم آخر .

وحين اصرّ ابو كامل على ان ينازله ، وهذه الليلة بالذات ، اجابه :

- حالف يمين ان لا العب اليوم .

لو اراد راجي ، او اي انسان آخر ممن جلس معهما ان يستعيد احاديث تلك الليلة لما استطاع الا ان يقول شيئاً باهتاً ، شيئاً لا يستحق ان يقال . ولو اراد احد ان يصور كيف بدأت السهرة وكيف انتهت لما قال الا كلمات عادية لا تعلق بالذاكرة . لكن ، مع ذلك ، ظلت هذه الليلة كبيرة ، غير عادية . وعبد الله الزامل الذي سهر مع الاثنين اكثر من الآخرين ، وحاول ان يقنعهما بالذهاب معه الى المعسكر ، وقضاء الليلة هناك ، اكد له آكوب انه سيمرّ على المعسكر في اليوم التالي ، لان الحاجات التي اوصاه عليها بعض العمال لا تزال في السيارة ، ولا يمكن ان يخرجها في هذا الوقت المتأخر .

قال الكثيرون انهم لم يشهدوا راجي هادئاً مبتسماً مثلما كان تلك الليلة . واكد ابو كامل ان لحمة الفطائر التي اكلوها تلك الليلة كانت موضوعة في جانب وكان ينوي ان يأخذها معه ليشويها ويأكلها ، « لكن كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب » وشاركهم في العشاء . وعبده محمد الذي لا يمكن ان يمد يده الى عجين او طحين في مثل هذه الساعة من الليل ، وافق بسرعة حين اقترح عليه ابو اسعد ان يخبز الفطائر ، وابن نفاع الذي مر مسرعاً ، متجنباً باب المقهى ، اصطدم بآكوب وراجي اللذين كانا يجلسان قريباً من البحر ، وكاد ان يواصل سيره الى المسجد لولا انه لم يستطع مقاومة رغبته في ان يسلم على آكوب .

وغير هؤلاء كثيرون مروا ، وغير هذه الاحداث اخرى كثيرة وقعت تلك الليلة ، لكن لم يعد احد يتذكر شيئاً ، لان ما جاء بعد ذلك انسى الناس او جعلهم لا يتذكرون .

فبعد ان ذهب آكوب وراجي الى السيارتين اللتين وقفتا بالقرب من المسجد ، وفرد كل منهما فراشه في ارض سيارته ، قال راجي وهويتمطى ويطل على سيارة آكوب التي كانت الى جانبها :

- بكره ، ابن الكلب ، رضائي ، اذا اشترى السيارة يحوّلها الى مشخة

ضحك آكوب بصوت عالٍ في الليل الساكن ، كانت ضحكتهمن القلب واقرب الى العربدة ، وبعد ان هدأ امسك بطرف السيارة وقال لراجي الذي فاجأته الضحكة وكان يقف مقابله :

- افندي . . مثل ما النوم يريح البني آدم الشخاخ يريحه .
- والله يا آكوب انا لا ارتاح الا اذا شخيت على رضائي .

رد راجي بحدة وقد خرجت الكلمات من بين اسنانه ، قال آكوب :

- افندي . . اتركنا من قصة الشخاخ وخلينا ننام .
- انا لا اقدر على النوم اذا ما شخيت على رضائي .
- طيب ، افندي ، جرب ، وتصبح على خير .
- تشوف يا آكوب ، واذا ما شفت تسمع ، تصلك الاخبار . . . تصبح على خير .

وناما .

قال راجي في اليوم التالي انه بعد كلمات تبادلها مع آكوب ، خيم الصمت ، ولم يعد يسمع الا عواء كلاب تحوم في السوق وقرب المعسكر . لا يدري كم ساعة نام ، لكن حين استيقظ فجأة على صوت خوار ، صوت اقرب ما يكون الى صوت يقاوم الذبح ، ونظر حول السيارة يبحث عن هذا الثور فلا يجده ، جاءه الخوار اقوى من المرة الثانية . كان كثيفاً معتلجاً وفيه صرير ، وكان يصدر من سيارة آكوب بالذات ، وحيث ينام آكوب تماماً . ظن راجي خلال اللحظات الاولى ان رجال رضائي جاءوا ، وانهم بدأوا بذبح آكوب . تناول المناويل الذي كان يضعه دائماً الى جانبه وصرخ وهو يهبط من السيارة :

- والله لالعن ابو رضائي الاولاني ، يا اولاد الكلب .

لما اقترب من آكوب ولم يجد احداً ، وآكوب لا يزال يخور ، والعرق يغسله تماماً ، والزبد يملأ وجهه كله ، صرخ ، ناداه ، هزه ، لكن آكوب كان يفرك مثل ذبيحة ، لا يجيب ، لا يفتح عينيه ، وكأنه في عالم آخر .

قال راجي عصر اليوم التالي « خفت كثيراً . لم اعرف ما اعمل . فتحت قربة الماء وصببتها على وجه آكوب ، على صدره . ضربته على خده . رفعت رأسه ، صرخت : آكوب آكوب ، لكن آكوب لا يجيب لا يتكلم ، وبين لحظة والثانية يفرك كالذبيحة . كان يتألم ، كان يصرخ ، لكن صوته يخرج من بين اسنانه . كنت اريد احداً يساعدني ، ليكون الى جانبي ، ناديت ، لكن لا احد ، تركت آكوب وركضت الى الحكيم . الافندي بعد ساعة قام من النوم ، كان غاضباً منزعجاً . قال لي : تعال انت وهو بكرة الصبح . قلت له : الرجل لا يحتمل ، يمكن يموت

قال : لا تخف . وكاد ان يغلق الباب ويدخل . قلت له : حكيم . . . تفضل معي بسرعة ، ورفعت المندويل . خاف ، صار وجهه مثل الليمون . سألني بعصبية : من هو مريض ؟ قلت له : صاحبك آكوب . قال : من آكوب ؟ قلت : آكوب اللي حملت من عجرة ، السائق . المهم بصعوبة جاء . كان خائفاً وقد اصطحب معه مساعده . لما وصلنا السيارة ، ولم يتصور ان آكوب ينام هناك ، فقد خاف اكثر من قبل . قال برجاء وكاد يبكي : الله يخليك اتركني ، ورائي اولاد . قلت : لا تخف ، بس شوف المريض . سأل : المريض . . اين المريض ؟ وحين جاءه صوت آكوب مخنوقاً مليئاً بالصرير ، وكأنه احتكاك اجسام هائلة،استرد انفاسه . تطلع باهتمام الى داخل السيارة ، أما حين صعد والمصباح الصغير بيده فقد تعثر . المهم انه رأى آكوب ، ضربه ابرة ، لكن بعد آذان الصبح كان آكوب قد انتهى . لا . . مع الآذان تماماً خلص . الحكيم رفع يده وقال : البقية في حياتك » .

ذلك اليوم من اواخر الربيع كان يوماً حزيناً مروعاً في حران . لم تشهد مثله من قبل . وقد تمر سنوات لا يخلع قلبها مثل ذلك الحزن . امتلأت البيوت في حران العرب بالصمت ، وفي الليل المتأخر بكت النساء . ومقهى ابو اسعد لاول مرة من ثلاث سنوات لا يستقبل احداً . ولا يجلس فيه احد ، رغم انه ظل مفتوحاً . وعبده محمد الذي لم يكن في التشييع . وراحت في البداية اشاعة قوية انه ترك حران ، لم يشارك لانه لم يستطع احتمال ذلك ، بل ورفض ان يصدق ان آكوب يمكن ان يموت . أما عبد الله الزامل وعشرات ، بل مئات ، من العمال فقد تركوا المعسكر دون خوف ودون اجازة ايضاً . فقط اكتفوا بان ابلغوا ادارة الافراد ان احد زملائهم قد توفي ويجب ان يشاركوا في تشييعه ، وادارة الافراد التي لم توافق ولم ترفض رفعت الامر الى الادارة العامة . ولم يكتف الزامل وابن هذال والعمال الآخرون بهذا القدر من المشاركة فقد فعل كل واحد منهم شيئاً للتعبير عن الاحترام والحب الذي يكنه لآكوب .

لكن رغم هذا فان موت آكوب ولّد عصبية لدى الجميع في حران . لم يكن مثل اي موت آخر . فبعد ان عرف بموت آكوب بوقت قصير بدأ التفكير كيف يجب ان يدفن واين ومن سيتولى الامر . واذا كان امام المسجد ، ابراهيم الحميدي ، قد رفض مجرد مناقشة الموضوع مع احد ، « لان الميت نصراني وكافر » ولا يمكن ان يمد

اليه يده ، فان مبادرة ابن نفاع ، ثم الشهادات التي ادلى بها الكثيرون ، وتلك الصعوبات التي سقطت الواحدة بعد الاخرى ، انتهت الى ذلك التشييع الذي شارك فيه جميع الناس ، عدا عبده الذي غاب تماماً ذلك اليوم فلم يره احد ولم يسمع به احد .

قال ابن نفاع لعبد الله الزامل :

ـ غسله . . وشوف . . وبعدها نشوف .

هكذا قال ابن نفاع دون ان يطلب منه احد . وحين اكد عبد الله الذي قام بهذه المهمة ان كل شيء طبيعي . ويمكن لاي انسان ان يتأكد ، خاصة اذا نظر الى سبابة اليد اليمنى ، اذ كانت هذه السبابة شاخصة بالشهادة في يد مجروحة في اكثر من موضع . أما راجي الذي اكد امام الجميع ان روح الرجل فاضت الى بارئها مع آذان الصباح فقد ردد الجميع : اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله .

ورغم ان ابن نفاع ابدى استعداده لان يصلي عليه ويلقنه فقد ظلت قضية اخيرة تشغله : الرجل يشرب بول ابليس ام لا . قال لراجي بعصبية حزينة :

ـ صحيح ان الحساب عند الله ، لكن علّمنا . خويك يشرب المخزي ؟ يشرب بول ابليس ؟

وحين اكد راجي بعبارات لا تحتمل الشك ان آكوب لم يمد يده الى الخمرة ولا يشربها ، تقدم منه ابن نفاع خطوة وسأله همساً :

ـ والشراب اللي يحطه بالماخوذ ؟

ورغم الحزن اندفع راجي ، انتزع من تحت مقعد السيارة الترمس وجاء راكضاً ، قال بحدة :

ـ هذه قهوة ، قهوة حلوة ، وما كان يشرب غيرها .

وطلب ابن نفاع من عبد الله الزامل ومناور الخضيري ان يتذوقا القهوة ، فلما فعلا واكدا انها قهوة ، قهوة حقيقية ، مثل التي يشربها الجميع ، عدا انها حلوة المذاق ، قال ابن نفاع بصوت اراد من الجميع ان يسمعوا :

ـ الله يلعن الشيطان ، كلهم قالوا ان المرحوم كان يملأ الماخوذ ببول ابليس .

وشيعت الجنازة من مقهى ابو اسعد . كانت الجنازة حزينة ، ولم يسمع على خطو الرجال الصامتين السائرين سوى كلمات : الله يرحمه ولا اله الا الله

وعند القبر ، وبعد ان صلى ابن نفاع على الميت وجاء وقت تلقينه لم يعرف اسمه كاملاً ولم يعرف اسم امه ، وبعد ان نظر ابن نفاع في الوجوه التي حوله واصل دون ان يسأل احداً ودون ان يتردد :

ـ « يا يعقوب ابن فاطمة اذا جاءك الملكان الصالحان وسألاك من ربك قل الله ربي والاسلام ديني والكعبة قبلتي والمسلمون اخوتي واشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله . . .

وبصمت قاس انزل آكوب الى القبر ، وسوي القبر مع التراب عدا حجر صغير وضع كشاهدة .

ونامت حران تلك الليلة والليالي التالية بحزن لم تعرف مثله من قبل .

بعد بضعة ايام كتب فواز بن متعب الهذال على الشاهدة بمسمار كبير : الفاتحة هنا يرقد المرحوم يعقوب الحراني !

بناء خط الانابيب من وادي العيون الى حران كلّف من المشقة والوقت الكثير ، فبدل اثنين وعشرين شهراً ، المدة التي كان يفترض ان ينجز خلالها ، استمر العمل سبعة وعشرين شهراً . ومثلما جُنّ الاميركيون اثناء تعميق البحر ، وكانوا يتسمون بذلك المقدار الهائل من العصبية ورغبة العراك ، فهم الآن كذلك ، مع فارق اساسي : انهم هذه المرة في الصحراء ، وسط الجحيم الحقيقي ! فاذا كانوا قد تعودوا الرجوع آنذاك الى المعسكر كل يوم ، والغرق في برك السباحة او الغرف المبردة ، فانهم الآن ، هنا ، مثل الحيوانات المحاصرة بالنيران كانوا يتراكضون في كل الاتجاهات ويصرخون ويتعاركون فيما بينهم ومع الآخرين ، اضافة الى الخوف والانتظار اللذين يسيطران عليهم فاذا انتهت ساعات العمل وعادوا الى الخيام لم يجدوا ما يفعلونه ، حتى النوم اصبح متعذراً بالنسبة لهم . أما الاجازات التي يحصلون عليها ، والتي تتلاحق شهراً بعد آخر ، اذ بعد شهر من العمل ، او بالاحرى بعد خمسة وعشرين يوماً ، كانوا يرجعون الى حران ليقضوا هناك شهراً كاملاً ، وخلال هذا الشهر تحل مجموعة بدل اخرى . رغم ذلك فان الاجازة بدل ان تخفف او تغير فان المجموعة التي تكون قد قضت شهراً في الراحة ، تعود الى واجب ثقيل ، الى مهمات لا تعرف كيف تؤديها بأسرع وقت وبضجر يصل حدود الموت .

السنة التي بدأ فيها مد الخطوط كان الطقس خلالها احسن من سنوات غيرها ، فالعمل بدأ اول الشتاء ، والحياة ، رغم برودتها في الليل ، بدت شديدة الجمال والاغراء للعمال خلال النهار ، خاصة بعد تلك الشهور الطويلة والسنوات الصعبة في حران وحولها . أما الامطار التي تتالت مرة بعد اخرى ، فسالت الشعاب وامتلأت الغدران ، فما لبثت ان فجّرت الكثير من النباتات ، ثم بعد ذلك ساقت الطيور والحيوانات . وهذا سهّل العيش وجعل العمل غير مرهق ، كما جعل العمال يقضون ساعات طويلة في جمع الاعشاب والنباتات ، او يطاردون الارانب ، وبعض الاحيان الظباء . أما الامسيات المبكرة من هذا الشتاء فكانت حافلة ، اذ اضافة الى الالعاب الكثيرة التي يخترعها العمال لكي يحافظوا على حرارة اجسامهم ، بعد ان تبدأ الشمس بالانحدار نحو الغروب ، فان دفقاً من الحنين كان يملأ صدورهم فيندفعون الى الغناء .

لقد عرف العمال كيف يتكيفون مع المحيط الذي وجدوا انفسهم فيه ، وعرفوا اكثر من ذلك كيف يغيظون الاميركيين وكيف يخرجونهم عن اطوارهم ، اذ اضافة الى الالعاب التي كانوا يكتشفونها في التو واللحظة ، اخذوا يضفرون من الصوف مقاليع قوية متقنة ، وبدأوا يتصيدون الجرابيع والضباء ، او يتبارون في قذف الحجارة واصابة الاهداف . كانت الحجارة المصقولة المنتقاة تئز وتصفر صفيراً حاداً وهي تطير في الهواء ، وكان الاميركيون يتطيرون الى اقصى حد من هذه « القذائف » التي يسمعون صوتها ولا يرونها ، فيصرخون ويشتمون طالبين ان تتوقف !

وغير هؤلاء كان هناك عدد من العمال هوايتهم الوحيدة انتقاء الحطب وجمعه ، وبعد ان يتركوه اياماً في الشمس لكي يجف يوقدونه ليصنعوا الشاي والقهوة ، وهذا الحطب ما يكاد يشتعل ويملأ المعسكر والمنطقة المحيطة بالدخان حتى تنفجر مشكلة جديدة ، وكأن الغبار الذي تولده آلات الحفر ، ثم تلك الرياح التي تهب فجأة فتدفع في طريقها الغبار القريب والزوابع البعيدة لا يكفي . كان الدخان يسبّب للاميركيين ضيقاً لا يخفونه ابداً . اذ رغم النظارات الشديدة الاحكام التي يضعونها على عيونهم ، ثم تلك الاقمشة الرقيقة التي تُشد على الانوف والافواه ، لكي تصّد الغبار والزوابع ، فان النيران ما ان تشتعل ويبدأ الدخان يتلوى في الهواء ويتطاير بسرعة ، حتى يصل الغضب بالاميركيين درجة القهر . كان بعضهم ينزع النظارات

والاقنعة ويرمي بها ، تماماً كما يفعل الاطفال او المجانين ، وكانت تستبد بالآخرين موجة من السعال فيركضون نحو خيامهم او نحو النار ليفعلوا شيئاً او ليهربوا من شيء .

فاذا انتهت هذه المصاعب والازعاجات ، او لم تعد كافية بنظر بعض العمال ، فقد وجد من كان بارعاً وموهوباً في خلق المقالب للآخرين ، خاصة للاميركيين . من هؤلاء مجلي السرحان ، القصير الضامر ، الذي لا يكاد يسمع صوته . كان قادراً على ادخال الفزع الى القلوب كل يوم ، ويفعل ذلك دون ان يحس به احد .

فالمرات التي اطلق فيها مجلي السرحان عدداً من الجرابيع والضباء في خيام الاميركيين لا حصر لها . كان يلاحق هذه المخلوقات بهمة لا تعرف التعب ، وحين يقبض على عدد منها يربطها من ارجلها او اذيالها ويجرها ، فان لم يكن الوقت مناسباً لاطلاقها تركها في مكان قريب ، حتى اذا جاء الليل سحبها نحو الخيام واطلقها . وهذه الجرابيع والضباء التي ظلت مربوطة لساعات طويلة ، والتي تمتلىء بالخوف ، ما تكاد تطلق حتى تتراكض لكي تختبىء . كانت تدخل الى الخيام او تنزل الى الحفر التي يعمل فيها العمال ، وتتراكض مذعورة بين الارجل ، والعمال حين يسمعون اصوات الاميركيين الحادة مع الركض وطلب المساعدة ، يتطلعون حولهم باحثين عن مجلي . كانوا ، اغلب الاحيان ، يجدونه بينهم او في مكان قريب ، فيدققون متسائلين ما اذا كان ، مرة اخرى ، وراء هذا الذي يجري . ومجلي صامت ، ملامحه شديدة البراءة ، بل ولا يتردد ، بعض الاحيان عن تقديم المساعدة .

وفي أوقات اخرى يجمع مجلي الثعابين ويطلقها بين الخيام ، لقد حصل هذا مرتين على الاقل ، وفي شتائين متواليين ، الاولى في بداية قيام المعسكر حول المحطة H2 في منتصف الطريق ، وفسر الامر آنذاك ان المنطقة مليئة باوكار الثعابين ، وان الوادي القريب مرتع لها ، وقد روج مجلي مع الآخرين هذه القناعة ، ولذلك كان الاميركيون يخافون الى اقصى حد من النزول الى الوادي ، وكانوا يقضون ساعات من الليل وهم يبحثون عن الثعابين . أما المواد التي أرسلوا بطلبها على جناح السرعة لمكافحة هذه الضواري المخيفة ، والتي لم تتأخر في الوصول ، فانها ان كانت كافية للمكافحة فانها لم تخفف من الفزع الذي ملأ القلوب .

أما المرة الثانية فكانت اثناء زيارة المستر هاملتون ، وبعد ان تقدم العمل كثيراً في

خط الانابيب . في هذه الزيارة عمل مجلي شيئين ظل العمال يتحدثون عنهما فترة طويلة . فما ان طلب احد المهندسين من مجلي مناولته صندوق العدة ، وبعد ان حمله وقدمه اليه ، وكان المستر هاملتون قريباً يراقب تركيب بعض الاجهزة ، وما كاد المهندس يفتح الصندوق حتى صرخ وركض هارباً ، لان ضباً بحجم القط تقريباً يرقد فوق الادوات ، كان الضب يتطلع بعيونه الشهباء وينفخ نفخاً قوياً مسعوراً . والمستر هاملتون الذي اصفر وجهه وبدا شديد الخوف لم يكن قادراً على الاقتراب او التراجع . أما المهندس الذي ركض من الفزع فما لبث ان تعثر وسقط . كان في حالة يرثى لها : العرق يتصبب منه بغزارة ، شفتاه ترتجفان ، ولون وجهه يتحول من الازرق الى الاصفر الى البياض الشمعي . أما مجلي الذي ظل ساكناً صامتاً متسائلاً فقد تقدم وسط هذا الخوف وهذا الذهول ، التقط الضب ، ماسكاً به من رقبته ، بعد ان انتزعه من الصندوق بيدٍ تكاد تشبه العصا القاسية ، رفعه الى ما فوق رأسه وبقوة ضربه بالارض فترنح الضب ثم تراكض في هذا الاتجاه ثم في الاتجاه الآخر ، والأميركيون الذين ذهلوا وأصابهم الفزع أول الأمر ما لبثوا ان تراكضوا واقترب بعضهم من بعض لكي يتجنبوا هذا الوحش الخطير الذي لا يعرفون ما هو وكيف انبثق هكذا فجأة

قال المهندس ، في محاولة تفسير وجود الضب اكثر مما اراد تفسير فزعه : ان الخطأ هو في ترك صناديق العدة مفتوحة ، فهذه الصناديق لأنها عميقة ورطبة فان تلك المخلوقات الجهنمية تريد مكاناً ، اي مكان ، لكي تلجأ اليه .

في ذلك اليوم امر المستر هاملتون ان تبقى صناديق العدة مغلقة ، وعلى الجميع التأكد من ذلك ! أما المهندس نفسه فقد وضع اقفالاً للصناديق الثلاثة التي كانت في عهدته .

في اليوم الثالث لزيارة المستر هاملتون قتل العمال ثعباناً كبيراً اسود كالليل ، وقد تعمدّوا ان يضعوه في مكان ظاهر ، قريباً من الخيام التي يسكن فيها الاميركيون ، وأشاع الكثيرون ان هذا الثعبان واحد من ثلاثة كانت معاً ، لكن لم يتمكنوا من الاثنين الآخرين ! في ذلك اليوم ، وفي الليلة التي تلته ، خيم الفزع على المعسكر كله ، وقد سافر المستر هاملتون في اليوم التالي مباشرة ، ولم يُعرف ما اذا كانت هناك علاقة بين سفره السريع ووجود الثعابين .

هكذا كانت الحياة في المحطات الثلاث التي نشأت اثناء مد خط الانابيب . وهذه المحطات التي اعطاها الاميركيون اسماً موحداً مشتقاً من اسم حران ، باعتبارها المصب ، مع اضافة رقم مختلف لكل محطة ، فسميت H1 وH2 وH3 فان العمال ابقوا على اسمائها القديمة او اعطوها اسماء من عندهم ، فالاولى هي المطيرة ، هكذا كان اسمها من قبل ، وهي لا تبعد عن وادي العيون الا مسيرة يومين . أما المحطتان الأخريان ، فاطلق عليهما العمال : عسكر والقصعة ، وقد سميت الاولى هكذا لان بيرسي ، المهندس المسؤول عن H2 ، كان يحرص على ان يعدّ العمال بنفسه يومياً مرتين ، مرة حين يبدأون العمل والاخرى عند الانصراف ، بعد ان يجعلهم ينتظمون في صف طويل ، ولذلك اطلق عليها العمال اسم عسكر . أما القصعة فقد اكتسبت اسمها من الطباخ الهندي الذي كان حين يُسأل عن الأكل ما اذا نضج ام لا يجيب : « قصعة تمام » او « قصعة مش تمام »

المحطات الثلاث بدأت مجرد اسم ، عدا المطيرة التي كان فيها بئر ماء وبعض الخيام ، الا ان آبار المياه التي حُفرت واحدة بعد اخرى ، وتراكم الآلات والخيام والبشر ، خلق حياة من نمط جديد ، فبدأ العمال يألفون هذه الحياة ويحبونها ، أما الاميركيون فاخذ يزداد ضيقهم وضجرهم ، وبدأت المصاعب ترهقهم . كما ان المحاولات التي لجأوا اليها لكي يدفئوا الخيام في الشتاء اولاً ، ثم في ان يبردوها في الصيف بعد ذلك ، اصطدمت بصعوبات لا نهاية لها ، لان الاجهزة التي وُضعت في اطراف الخيام ، وبدأت تهدر في الليل والنهار ، خلقت من المشاكل اكثر مما ساعدت في حل المشاكل ، ولذلك فان تلك الاجهزة التي لم تختنق وتتوقف بنفسها ، نتيجة الرياح والغبار ، سرعان ما اوقفت .

أما خيام العمال فكانت تتكيف ضمن جو طبيعي يوماً بعد آخر ، وكان العمال يباهون ، دون كلمات ، حين يمتلئون في ذلك الجو الدافىء حول القهوة والنار في ليالي الشتاء ، وحين دخل الصيف وبدأوا يرفعون اطراف الخيام ، بعد ان حوّلوا ابوابها مع اتجاه الريح ، اخذوا يرقبون الاميركيين وهم يحاولون مع تلك الآلات يعالجونها مرة بعد مرة ، أما بعد أن أخذت اجسامهم العارية المحروقة تتصبب بالعرق ، وكأنهم قرب مثقوبة، فكان العمال يعجبون ويحزنون ويتساءلون ويفرحون في وقت واحد ، لأن لهم ميزة ليست للاميركيين .

* * * *

لو ان الصعوبات اقتصرت على قسوة الجو او تلك المشاكل التي تتولد من العمل لامكن احتمالها او التغلب عليها ، لكن ما كاد الشهر الرابع ينقضي ، وفي احدى الليالي التي امتلأت بالمطر والرعود ، وكأنها تريد ان تمزق صمت الصحراء الذي تراكم منذ الاف السنين ، في تلك الليلة النادرة انفجر طيف اقرب الى الشبح ، فبدد السكينة وملأ حياة الاميركيين ولياليهم بفزع اقرب الى الجنون .

لقد حدث هذا فجأة دون توقع ودون انتظار ، ففي هذه الليلة ، قبل الفجر بقليل ، سمعت ضجة كبيرة في المحطة رقم ٢ ، كانت الضجة غامضة متداخلة اول الامر ، لكن وهي تقترب اختلطت اصوات الرصاص بالشتائم بغثاء الابل وصهيل الخيل ، وخلال فترة قصيرة ، الفترة التي تكفي ولا تكفي لأن يفتح الانسان عينيه ، لان يتذكر في اي مكان هو ، ولان يميز اصوات البشر من الرعود التي ملأت السماء تلك الليلة ، من أصوات الآلات التي تراكمت وتكاثفت في الآذان خلال الاسابيع الماضية ، في تلك الفترة القصيرة اشتعلت النيران في عدد من الخيام .

لا احد يعرف كيف امكن ان تشتعل في مثل تلك الليلة الماطرة وبهذه السرعة ، وخلال دقائق قليلة ، والعمال يخرجون لاستطلاع الاصوات ولمعرفة ما يجري حولهم ، ارتفعت السنة اللهب فأتت على ثلاث خيام ، كانت ضمنها خيمة المستر بيرسي وخيمة المقر .

والاميركيون الذين شلّ الرعب حركتهم وجعلهم يصرخون ويتراكضون في كل الاتجاهات ، ولا يعرفون ماذا يفعلون او الى اين يتجهون ، ما لبثوا ان وجدوا انفسهم متجمعين حول المستر بيرسي ، الذي بدا في حالة من الاعياء الشديد الى درجة ان عدداً من العمال اكد اصابته بطلق ناري ، وبين مقاومة النيران او اسعاف المستر بيرسي كان الاميركيون عاجزين عن تقديم اية مساعدة ، أما محاولات ثلاثة منهم استعمال بعض المعدات لاطفاء الحريق فقد كانت متأخرة ، لان العمال لجأوا الى الرمل ، ولم يتركوا للاميركيين امكانية استعمال غيره ، مما اضطر هؤلاء الى القاء المعدات التي جلبوها واستعمال الرمل ايضاً !

مع اضواء الفجر الأولى ، وبعد ان مرّ وقت يكفي لأن يتملى الانسان المشهد كله ، بدأت الاسئلة : من فعل هذا ؟ لماذا فعله ؟ ومع الهمسات والتساؤلات والاجابات المبهمة تأكد شيء واحد : متعب الهذال . انه الوحيد الذي يمكن

ويستطيع ان يفعل ذلك . لم يقل اي من العمال ذلك بوضوح ، ولم يُذكر اسم متعب الهذال بصوت عالٍ ، لكن طيفه ملأ الفلاة كلها ، أما بعد اليوم الثالث ، وحين وصلت مجموعة من الامارة الوسطى ، ومعها اثنان من الاميركيين ، وبدأ التحقيق ، ثم تلك الاسئلة الاقرب الى العداء التي اخذت توجه الى العمال ، حول من يحتمل ان يكون وراء هذا الذي جرى ، ومدى معرفة اي واحد منهم أو قرابته بمتعب الهذال ، وما اذا كان قد رآه او سمع عنه شيئاً ، خاصة في الفترة الأخيرة . بعد هذا التحقيق تأكد الجميع ان متعب الهذال الذي غاب سنين لا احد يعرف اين ، قد عاد ، وانه بعودته لا بد ان يحوّل الصحراء الى جحيم بالنسبة للاميركيين . لقد فرح الكثيرون ، لكن داخل هذا الفرح نوع من التحسب الاقرب الى الانتظار . أما بعد ان جيء بفواز بن متعب الهذال ومعه صويلح فلم يستطع العمال ان يفهموا او يفسروا الأمر . قال بعضهم ان متعب اذا عرف أن ابنه في المعسكر فلن يقدم على مهاجمته مرة اخرى ؛ وقال آخرون ان فواز وضع رهينة ، ولا بد ان يُنتقم منه اذا حصل شيء ، أما مجلي السرحان فقد ذكر حين سئل ان لا احد ولا شيء يمكن ان يقف في وجه متعب الهذال او ان يرده .

ومجموعة الحراسة التي تكونت على عجل من ستة رجال جاءوا من عجرة ، فقد كبرت وتضاعفت مع مرور الأيام ، بل واصبح عدد جنود الحراسة في وقت من الاوقات مساوياً لعدد الاميركيين ، حتى ان العمال اطلقوا ، بسرية وخفاء ، اسماء او القاباً على الجنود هي نفس اسماء او القاب الاميركيين ! ومع ان متعب الهذال غاب مرة اخرى ، وقيل ان دوريات عديدة تعقبته وذهبت وراءه تبحث عنه ، وراجت في فترة معينة اخبار ان احدى هذه الدوريات التقت به وبجماعته وقتلت عدداً منهم ، كان من بينهم متعب الهذال نفسه ، ان هذه الاخبار التي روجها غطاس ، مترجم المحطة الثانية ، استقبلها العمال بقلق اول الامر ، لكن حين رأوا نمر السهيل ، رئيس مفرزة الحرس يوزع على جنوده كميات اضافية من الذخيرة ، وينبه عليهم بقسوة ، مشيراً الى ان « متعب الهذال في مثل هذه الليلة المظلمة التي تشبه القبر بعد ان ينهال عليه التراب ، يمكن ان يفاجئهم » فقد تأكد الجميع ان اخبار غطاس مجرد تلفيقات ، وان متعب الهذال الذي يحتمي بالظلمة والصحراء لا بد ان يظهر مرة اخرى .

ومن جديد اصبح متعب الهذال هاجساً يملأ حياة المعسكر ، وترافق هذا مع عداوة صامتة تزيد وتترسخ بين العمال والاميركان ، فالرقابة الشديدة التي فرضت ، خاصة اثناء فترات الراحة ، وضرورة ابلاغ مفرزة الحراسة عن اي غرباء او عابرين ، قابلها العمال بالصمت والتجاهل ، ثم في وقت لاحق بالشتائم والمعارك ، حتى ان كثيرين اعربوا عن رغبتهم بترك العمل ومغادرة الشركة ، وأصرّ آخرون على ان يعدوا طعامهم بأنفسهم ، مما اضطر الاميركيين الى تخفيف الاجراءات التي فرضت ، والاستعاضة عنها بوسائل جديدة ، اذ بالاضافة الى المجيء باعداد كبيرة من العمال الاجانب ، فانهم بدأوا ينقلون العمال بين فترة واخرى . كما زادوا عدد المراقبين . وغطاس الذي كان شديد الحذر والقسوة في آن واحد بعد تلك الليلة ، واصطدم بالعمال اكثر من مرة اثناء التحقيقات التي جرت ، ما لبث ان ترك الاتصال بالعمال الى نمر السهيل ، لأنه « وحده الذي يمكن ان يتفاهم معهم » أما نمر السهيل الذي كان شديد الخشونة ، وبدا قاسياً في الشهور الأولى ، فما لبث أن تغير هو الآخر ، وقد قيل إن هذا التغير كان بطلب من دار الامارة في المنطقة الوسطى ، لأن الشدة تخلق ألف متعب الهذال .

وعاد العمل ليأخذ وتيرة اسرع واكثر راحة ، وبدأ الجميع ينسون متعب الهذال او يتظاهرون بنسيانه ، الا ان الاخبار والاشاعات لا تلبث ان تسري من جديد مرة بعد اخرى ، وكان ينقلها الرعاة والعابرون ، وكلها تؤكد ان شيئاً لا بد ان يحدث ، وان متعب الهذال سيكون وراء ذلك . ونمر السهيل الذي يستطيع بغريزته ، او ربما نتيجة معلومات مشوشة تصل اليه ، ما يلبث ان يخلق جواً من الاستفزاز والرعب ، فتقوم عمليات بحث وتفتيش في أوقات متعددة ، في الليل المتأخر ، بعد ان يأوي العمال الى فراشهم ، او حين يكونون بعيدين عن الخيام ، ورغم ان احداً لم يذكر السلاح او يشير الى ان عمليات التفتيش تجري بحثاً عنه ، الا ان الجميع تأكد من ذلك ، خاصة حين صوردت السكاكين الكبيرة وبعض الادوات التي اعتبرت جارحة .

وتستمر حالة الترقب والانتظار اياماً ، يرافقها الكثير من التوتر والارتياب ، وخلال هذه الفترة كل تصرف له معنى مختلف عن الأيام الاخرى ، وكل همسة وكل حركة ينظر اليها بخوف وحذر واضحين . فحين ربط احد الرعيان صفيحة بذيل

كلب واطلقه نحو المعسكر ، ولّد ذلك الحادث حالة من الخوف والاستنفار استمرت بعد ابتسامات السخرية والشفقة ساعات وساعات ، أما الضرب الذي تلقاه ذلك الراعي من نمر السهيل فلم يجد له حتى الاميركيون مبرراً او تفسيراً .

وفي مرة اخرى حين قبضت مفرزة الحراسة على رجل كان يمرّ بعد الغروب بالقرب من المعسكر ، ولما تبين ان اسم الرجل متعب ، فقد سيطرت على الجنود والاميركيين حالة من الفرح المشوب بالتوتر الظاهر . أما حركات عناصر الحراسة فقد كانت محاذرة مترقبة وامتلأت بذلك التوقع الخطر ، وظل الأمر كذلك حتى ظهر اليوم التالي ، ورغم ان نمر السهيل استدعى في نفس الليلة اربعة من عمال وادي العيون وطلب اليهم التعرف على الرجل وهل هو متعب الهذال ام لا ، فلم يصدق نفيهم واعتبر انكارهم محاولة منهم للتستر على متعب الهذال والتواطؤ معه ، اذ ما لبث ان بدا معهم شديد الخشونة والغلظة ورفع اصبعه في وجوههم مهدداً . أما في اليوم التالي وحين استدعى صويلح اولاً ، وبوجود احد الاميركيين ، للتعرف على الرجل ، فكان يراد بالدرجة الاساسية ان يُعرف رد فعله اذا حاول الانكار . أما حين جاءوا بفواز فقد بدا الرجل شديد الاستغراب ولم يكن يفهم ما يدور حوله او ماذا يريد منه هؤلاء الناس . ولم تنته القصة الا عند العصر ، حين وصل اثنان من المطيرة ، وكان يعرفهم نمر ، وقد جاءا يبحثان عن والدهم الذي غادر قبل اربعة ايام لا يعرفون الى اين او ماذا حلّ به ، وقد قالا ان اباهما اصبح في الفترة الاخيرة ضائعاً وقد اختلطت عليه الأمور بعد وفاة زوجته !

ظل متعب الهذال شبحاً يغيب ويحضر طوال فترة مد خط الانابيب ، والاميركان الذين لجأوا الى اساليب لا حدود لها من اجل انجاز هذا المشروع ، كانوا بين الشدة والاغراء ، وكانوا شديدي الحذر والاضطراب ، أما حين اوشك الخط على الانتهاء ، فقد بدوا اكثر حذراً ، واصبحوا بشراً من نوع آخر : كل كلمة تثيرهم وكل تصرف ، خاصة من نمر السهيل ، تجعلهم في حالة من العصبية الاقرب الى الانفعال ، أما في ذلك الضحى ، حين انتهت الفرقة الثالثة ، ووصلت الى المطيرة ، ولحم آخر انبوب ، فقد بلغ الفرح حد الجنون ، كانوا في حالة من النشوة والصخب لم يظهروا بمثلها من قبل وبدأوا يعدون للاحتفال .

واذا كان مثل هذا الاحتفال قد جرى مرتين ، الأولى في بداية العمل ، والثانية

حين التقى خط الانابيب بمحطة القصعة ، فانهم هذه المرة بدوا اكثر اضطراباً وصخباً وهياجاً وكأنهم يريدون ان يفعلوا شيئاً مختلفاً .

العمال الذين بذلوا اقصى الجهد ، وانتهى العمل عند الضحى ، لم يكونوا يشعرون بالجوع قدر شعورهم بالتعب . أما الأكل الذي قدم اليهم فلم يؤكل كله . كانوا بحاجة الى ساعة من الراحة لكي يرتبوا اوضاعهم النفسية ولكي يستعدوا لاحتفال الليلة !

عند العصر ، او بعده بقليل ، بدأت موجات صغيرة من العمال تتجه الى المضرب الكبير المقام الى جانب المحطة . احس الكثيرون ، ان الأمر اكثر جدية مما قدروا في البداية ، وان شيئاً غير عادي لا بد ان يحصل الليلة .

المشاعر التي سيطرت على الرجال في هذا المكان النائي هي مزيج من مشاعر الظفر والرهبة . فبعد سبعة وعشرين شهراً من العمل المتواصل ، ومن معايشة الصحراء شبراً بعد شبر ، ومن المعارك اليومية ، يصلون الى النهاية . كل واحد منهم يحس انه وحده مسؤول عن هذا الانجاز ، ولولا الجهد الذي بذله ، دون ان تلاحقه الرقابة ، او تصله كلمات التهديد ، لما أمكن الوصول الى هذه النتيجة .

ومجلي السرحان الذي غاب تماما في الليلة السابقة ، حتى ظن الكثيرون انه ذهب ولن يأتي ، وفي الصباح حين تأكد الجميع من غيابه سرت اشاعات ومخاوف كثيرة ، حتى ان ثمر السهيل اضطرب ووزع عناصره في أماكن كثيرة ، كما منع البدو من الاقتراب . أما الرعاة الذين جاءوا صباحا من اجل الماء فقد منعهم في البداية، ثم ما لبث ان وافق اذا ابلغوه بكل ما يعرفون عن متعب الهذال ، او عن اية اشياء غريبة رأوها خلال الأيام الأخيرة . وحين صمتوا وانتظروا ، دون ان يقووا على عمل اي شيء ، فقد تركهم يردون الماء ، لكن مع تنبيهات وتحذيرات ما تنفك تتزايد ، أما حين وصل مجلي عند الغروب ، قابضا على حصيني صغير ، وكانت آثار الجروح ظاهرة على يديه وثيابه ، فقد اثار من الشفقة اكثر مما اثار من الاستغراب ، وحين طلب منه ان يرأف بهذا الحيوان البائس فيطلقه ، وان يغسل يديه لكي يذهب الى المطيرة فقد صحك بسخرية وقال :

ـ يا جماعة .. حتى الاميركان لهم عند الله حوبة

ولما صمت الرجال ولم يفهموا ما يقصده ، اضاف وهو يتطلع الى ابو الحصيني :

ـ أبن الحرام طلع روحي !

وتغيرت لهجته :

ـ قلت لنفسي ما دام « بيب الشيطان » خلص لازم روح الاميركان تخلص ، نويت عليهم ، كنت اريد الواحد منهم يرجع حليب امه من الخوف ، لكن مثل ما تشوفون ، بعد كل التعب ما طلع معي الا هالحصيصين وذبحني قبل ما اذبح الاميركان !

أما غازي السلطان ، المسن العجيب ، الذي ملأ عقول الرجال وخيالهم بتلك القصص الغريبة التي كان يحكيها لهم ، والذي خلق اكثر من مشكلة في الاسابيع الأخيرة ، طالباً من الاميركيين ان يحاسبوه ويطلقوا سراحه ، كما كان يقول ، والاميركان يقولون انه لن يقبض قرشاً واحداً الا اذا استمر في العمل حتى النهاية ، وبعدما ينتهي العمل ، في اليوم الأخير ، يمكن ان يدفعوا له كل ما يستحق ويتركوه . حتى غازي السلطان ، ابو عيشة ، بدا في الأيام الأخيرة غير مستعجل ، او كأنه لا يريد ان يترك العمل .أما الرجال الذين هنأوه وقالوا له ان حريته اصبحت ملك يديه ويمكن ان ينطلق في الغد ، فقد رد بخشونة :

ـ والله يا اولاد الحرام ، يا بدوان ، ما لكم صاحب وما لكم أمان !

فلما استغربوا كلامه تابع :

ـ كنت اظن ان هذه الشيبة لها عندكم قيمة ، وقلت لنفسي : الخويا ما يتركون ابو عيشه ، لكن يا حسافا !

في هذا الجو من المشاعر المتناقضة المختلطة بدأت ، عند الغروب ، تسري همهمة بين الرجال انهم تأخروا ، ويجب ان لا يتأخروا اكثر من ذلك . وما كاد غازي السلطان واثنان او ثلاثة آخرون يطلبون من الجميع ان يتحركوا ، وقد فعلوا ذلك بطريقة اقرب الى الامر ، حتى بدأ العمال ، موجة بعد اخرى ، يتحركون . ومجلي الذي وافق على اطلاق سراح الحصيني ، بعد ان تفل في وجهه مرتين وشتمه بقسوة ، لانه تسبب في الجروح التي اصابته ، اخذ معه ، بما يشبه الاحتفال ، الصندوق الذي يحوي الضباء الثلاثة . كان وهو يحمل الصندوق ، وتلك المخلوقات البائسة تتحرك وتتصارع وتصدر منها اصوات واضحة ، كان يهزج :

« وين تولون ، اميركان ، يا زرق العيون
وين تولون
الشمس من فوق والعقرب من حدرية
والضب ينهش الخصيان
والطيز اكلتها الواوية
وين تولون ، اميركان ، يا زرق العيون
وين تولون ؟ » .

في هذا الجو من المرح الهش الرجراج الذي تولد في اللحظة الاخيرة ، بدأت خطوات الرجال نحو المطيرة التي لم تكن تبعد اكثر من ثلاثة كيلومترات . وكان يمكن لأي حديث ، لأي تصرف ، ان يغير الجو ، لكن عندما اخذت المسيرة خطواً اوضح ، وبدت الخيمة والرجال يتخطرون حولها ، وبدا الدخان يتلوى في ذلك الغروب ، وكأنه زوبعة من ضباب خفيف ، فقد احس الجميع انهم انجزوا كل ما هو مطلوب ، وانهم الآن اكثر راحة واكثر شقاء ايضاً !

أما بعد ان انتهى المستر مدلتون من القاء كلمته ، بمناسبة انتهاء بناء خط الانابيب ، وقد ترجمها غطاس بطريقة رديئة لم يفهم العمال الكثير مما قاله ، صفق الجميع ، واطال بعضهم التصفيق ، حتى ان السخرية ظهرت واضحة تماماً . بعد هذا ، ومثل جمل هرم ، قام غازي السلطان . مشى نحو مدلتون ببطء ، وكانت العيون معلقة به تتابعه ؛ أما مدلتون الذي يعرف هذا العجوز المشاغب ، واهمل الكثير من تصرفاته ، لأنه حين يقرر ان يعمل يندفع بقوة يحسده عليها الشباب ، فلذلك توقع الجميع مفاجأة من هذا العجوز . نظر مدلتون في اكثر من اتجاه ، وقد احس ان شيئاً ما يدبر له ، وما كاد غازي السلطان يصل حتى مد يده الى صدره واخرج مجموعة من النقود ، اخرجها وجر يد مدلتون ووضع النقود فيها ثم اغلقها ، وقال بطريقته الساخرة :

ـ ما دام اللي عندهم الفلوس ما يعطون ، لازم الفقراء يعطون ، وهذي مني لكم حلال بلال !

ومدلتون الذي فوجىء تماماً ، ولم يفهم لماذا وضع غازي السلطان الفلوس في يده وماذا تعني ، ظل مبهوراً مستغرباً بعض الوقت ، أما حين ضجّ العمال بضحك

صاخب ، فقد بدا محرجاً ، وبعد ان ترجم له غطاس ما قاله غازي غرق مدلتون في موجة عالية صاخبة من الضحك والاشارات ، وبعد ان ربت على كتفي غازي وقال اشياء كثيرة لم يترجمها غطاس كلها . اكد ان جميع العمال سيتقاضون علاوة ابتداء من هذا اليوم ، وان الاستحقاقات كلها سوف يتم صرفها خلال ايام العطلة الثلاثة .

في هذا الجو من المرح قام مجلي السرحان حاملاً الصندوق وتقدم نحو مدلتون . انقطعت انفاس العمال ، كانوا متأكدين ان هذه المفاجأة لن تكون سارة باي حال من الأحوال للاميركان . أما مدلتون الذي توقع مفاجأة مثل المفاجأة السابقة ، فقد خامره شك للحظات ان يقدم العمال هدية بمناسبة انتهاء خط الانابيب ، وحاول ان يفترض احتمالات معينة . لكنه لم يستطع ان يصل الى نتيجة .

حين وضع مجلي الصندوق بين يدي مدلتون وتراجع خطوتين الى الخلف ، وكان السكون شاملاً قوياً ، فقد بدا ان هذا البدوي الضامر ، والذي لا تعرف الابتسامة طريقاً الى وجهه ، لا بد ان يدبر امراً خطيراً ، وقد زاد في احساسه ابتعاد مجلي الحذر المخادع .

وضع مدلتون الصندوق على الأرض وسأل ببراءة مصطنعة :

ـ هذه الهدية للخط ام لي شخصياً ؟

وبعد ان ترجم ما قاله مدلتون ، قال غازي السلطان الذي كان لا يزال قريباً :

ـ مثل زكاة الفلوس اللي دفعها العمال للاميركان ، هذه زكاة الديرة كلها !

ولم يفهم مدلتون شيئاً مما قاله غازي السلطان ، فسأل مجلي من جديد ما اذا كانت الهدية له ام لكل العاملين في الخط ، وحين اشار اليه مجلي باصبعه ان الهدية تعنيه شخصياً فتح الصندوق محاذراً ، وبقوة غير مألوفة اندفع احد الضباء الثلاثة وخرج من الصندوق . تراجع مدلتون بعصبية وقد بدا عليه الخوف ، لكن حين ضجّ العمال مرة اخرى بالضحك ، ما لبث ان شاركهم ، متظاهراً انه لم يفاجأ ، وان هذه الدعابة ، خاصة في مثل هذه المناسبة ، يمكن قبولها والتسامح بها ، وزيادة في اظهار التساهل تقدم مرة اخرى من الصندوق ، الذي اغلق من قبل احد الاميركيين باحكام ، وقد وضع عليه يديه الاثنتين ، تقدم مدلتون مرة اخرى وحمل الصندوق

بطريقة بارعة وهزه ، فلما اضطربت الضباء داخله ، صاح بصوت قوي ومرح في آن واحد طالباً من مجلي ان يسترد هديته !

* * * *

وبكثير من الهرج المصحوب بالمرح دعي الجميع الى العشاء ، وقد اظهر الاميركان تبسطاً ظاهراً ، حتى ان الكثيرين من العمال تساءلوا ما اذا كان هؤلاء هم انفسهم الذين كانوا من قبل ، ولماذا هم الآن كذلك .

وبانصراف مدلتون وثلاثة من الضيوف الذين جاءوا بهذه المناسبة اعتبرت الحفلة قد انتهت ، أما حين وقف غطاس وقال بصوت حاد :

ـ انتباه . . انتباه

فقد تطلعت العيون كلها اليه ، ولما خيّم الصمت تابع :

ـ على الجميع مراجعة الادارة صباحاً ، ويجب أن تكونوا مستعدين تماماً عند الظهر للرحيل .

وتطلع العمال بعضهم الى بعض وصمتوا .

خلال الشهور الثلاثة الأولى واجه الدكتور صبحي المحملجي صعوبات لا نهاية لها ، وأكثر من مرة فكر أن يترك حران عائداً من حيث أتى . لكن في كل مرة يصل الى هذه القناعة ، كان يتعمد تأجيل اتخاذ القرار الى اليوم التالي ، لأنه فلسفته في الحياة أن « لا يتخذ قراراً تحت تأثير الغضب أو الانفعال » ولذلك ما يكاد « العارض » كما يسمي السبب الذي أدى الى غضبه أو انفعاله يزول حتى يهدأ ويبدأ يفكر « بعقل بارد » « لأن الحياة كلها صعوبات ، والدليل على ذلك أن الطفل حين يخرج من الرحم يبدأ الحياة بالبكاء والصراخ » ويضحك الحكيم بجذل ويضيف « وتستمر الصعوبات يوماً بعد يوم ، منذ لحظة الميلاد وحتى ساعة الموت ، ولا يخفف منها إلا النعمة ، أما الموت فانه يضع حداً للصعوبات كلها ، والدليل أن الميت يتوقف عن الألم ، يتوقف عن الصراخ والاحتجاج ، تاركاً هذه المهمة للذين حوله ، للذين ما زالوا على قيد الحياة » .

العقل البارد اذن هو الذي يقود خطوات الحكيم ، ويجعله يفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين ، ولأنه هكذا لم يكن له أصدقاء بالمعنى الحقيقي « الأصدقاء عبء على الانسان ، والعاقل هو الذي يعتمد على نفسه ولا يحتاج الى الآخرين » حتى في بلدته لم يكن له أصدقاء . كان له معارف كثيرون « لكن الأصدقاء مثل الغول والعنقاء »

ولأنه كذلك لا يحب الثرثرة ، ولا يحب ان يخوض الناس في قضاياه الخاصة . أما زوجته التي كانت لها في البداية طباع من نوع مختلف عنه ، فما لبثت مع الأيام أن تغيرت . كانت تشاركه فيما تتحدث به النسوة ، وذكرت عدة مرات ما يحب الحكيم وما يكره ، ومتى ينام ومتى يستيقظ ، فلما وصل الى علمه شيء مما قالته عنّفها بقسوة . لقد حصل هذا في بداية عهد الزواج ، مما اضطر المرأة الى أن تبلع لسانها ، فاكتفت يوماً بعد آخر بسماع قصص الآخرين . أما حين جاءها الابن الثالث فقد توقفت نهائياً عن المشاركة في الاستقبالات ، وانصرفت بشكل كامل الى تربية الأولاد والعناية بالبيت . حصل هذا دون ضجة ودون إعلان ، لكن الحكيم بنظره الثاقب ادرك ذلك قبل أن تقول زوجته كلمة واحدة ، وقد عقب آنذاك بأن قال : « من حكي الناس لا يأتي الا العمى والطراش » .

قبل أن يصل الحكيم الى حران قضى عدة سنوات في حلب ، وقبلها عاش في طرابلس . أما عن عائلته فان المعلومات قليلة ومتضاربة الى درجة كبيرة . وحين يسأل لا يجيب اجابات واضحة تماماً . يقول ان جده كان خزنداراً عند الوالي التركي في الأناضول ، وقد رافق الوالي عدة مرات في محمل الحج ، ثم قضى ما تبقى من حياته مجاوراً في المدينة المنورة ، أما أبوه فكان كاتم أسرار والي ولاية بيروت الكبرى . كان الحكيم يقول ذلك بسرعة وبعبارات غامضة ، ثم يضيف وهو يبتسم لينهي أية اسئلة أو حوار حول الموضوع : « إن الفتى من يقول هاأنذا وليس . . . . » .

أما لماذا جاء الدكتور صبحي المحملجي الى حران ولماذا ترك بعثة الحج فانه يفسّر الأمر بدوافع الانسانية والرغبة في مساعدة الناس في هذا المكان المقطوع . أما حين سأله الأمير خالد ، بعد أن توثقت العلاقة بينهما ، فقد رد وهو يضحك :
ـ الماء الراكد ، يا طويل العمر ، يفسد ، وكذلك الرجل صاحب الهمة ، ولا يخفى عليك ان الخيل الطيبة يتعبها أصحابها ، لكن إذا جاء وقت السباق كانت أسرع الخيول .

والأمير الذي كان يحب أن تكون العلاقة بينه وبين الحكيم على أحسن وجه ، وخاصة جداً ، كان يوافق ، يهز رأسه ويقول مؤكداً :
ـ لا يعرف الانسان في أية أرض يولد وفي أية أرض يموت . . .

أما حقيقة البواعث التي جاءت بالحكيم الى حران ، والتي يذكرها بعض الأحيان

بخفاء ومواربة فتتلخص باثنين ، الأول ان لديه أوراقاً خلّفها جده الخزندار حول ملكية أراضٍ وبساتين في عدة امكنة في الجزيرة وعلى الطريق السلطاني ، وقد جاء لكي يستقصي ويبحث لعله يصل الى نتيجة ، والباعث الثاني ان لديه ولعاً شديداً بالأماكن الجديدة ، وقد اكتسب هذا الولع من اسفاره الكثيرة وتنقلاته ، ومن تلك القصص التي قرأها حين كان طالباً في برلين ، عن أولئك المكتشفين والرحالة الذين وصلوا الى العالم الجديد ، وكيف استطاعوا أن يجمعوا ثروة في فترة قصيرة ، ثم كيف تركوا تأثيرهم في الأماكن التي وصلوا اليها .

هذان الباعثان قلما يشير اليهما الحكيم ، بل وكثيراً ما يحاول التمويه حتى على نفسه ، لأن ارثاً مثل الذي تتحدث عنه جدته قد ضاع تماماً ولا يمكن استعادته ، خاصة وأن أباه قبله قد سبقه الى هنا ، وقضى ثلاث سنوات كاملة يركض من مكان الى آخر وقد عاد دون جدوى ، عاد حاملاً معه مجموعة من الأوراق الممزقة ، المهترئة ، مع كمية كبيرة من اليأس والمرارة ، وقد ترك كل ذلك لابنه . والابن الذي استلم الأوراق ولم يتخل عنها ، قام مرة بعد أخرى باعادة لصقها وترميمها ، لأن الأمل لا يزال يراوده بالوصول الى نتيجة . كان دائماً يقول لنفسه : « كل شيء ممكن في هذه البلاد . . . إذا جدّ الانسان وصبر » .

كان وصول الحكيم الى حران حدثاً يفوق الكثير من الأحداث التي وقعت في ذات الفترة ، فالملابس النظيفة الأنيقة التي ظهر بها في المقهى ، بعد وصوله بساعات ، ثم الأسئلة الدقيقة التي وجهها الى بعض الذين جلسوا معه ، حول عدد سكان حران ، وما اذا جاء قبله طبيب أم لا ، وسأل عن اجور البيوت والدكاكين ، وهل تقدم الشركة أية خدمات طبية للعمال والسكان ؛ ثم سأل عن الأمير ، عن عمره واهتماماته وأي نوع هو من الرجال . هذه الأسئلة لفتت نظر الناس إليه وجعلتهم يتساءلون ويترقبون . أما حين استكمل المعلومات الضرورية فقد تساءل بينه وبين نفسه ما اذا كان الأفضل ان يقوم بزيارة الأمير مباشرة ام يطلب موعداً لهذه الزيارة ، وتوصل ان القيام بهذه الزيارة في أسرع وقت ، ودون وساطة احد هو الحل الأفضل ، لذلك حمل حقيبته الطبية في المساء إياه وتوجه الى دارة الامارة . والأمير الذي سمع بوصول الحكيم ، توقع زيارته ، لكن لم يتوقع أن يأتي بهذه السرعة أو أن يأتي ليلاً ، وحين أبلغ بوصوله قال بصوت هامس :

ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

ثم التفت الى الذين حوله وتساءل :

ـ إذا كان هالشياطين يترزقون من المرض ومن الموت العافية تجي منين ؟

وبطريقة احتفالية مبالغ فيها . وكأن صداقة قديمة تربط بين الاثنين ، تقدم الطبيب وسلم بحرارة ومودة على الأمير ، وقال انه سعيد لوصوله الى حران ، وإذا أذن له الأمير سوف يقدّم خدماته لمن يحتاجها ، وختم كلامه بقوله :

ـ وبإذن الله سوف أبذل كل جهدي من أجل تخفيف آلام المرضى ومعالجتهم بطريقة عصرية .

ظل الأمير صامتاً يستمع وينظر في وجه هذا الرجل المربوع الأبيض ويتساءل بينه وبين نفسه ، أي نوع من الرجال هو ، ويتساءل هل حران بحاجة الى طبيب غير مفضي الجدعان ؟

سأل الأمير يمتحن الرجل :

ـ ومن يدرينا انك تعرف تداوي الناس ؟

ابتسم الحكيم ابتسامة واثقة وتطلع في الوجوه التي تراقبه ، وأجاب :

ـ حياة حجاج بيت الله الحرام وصحتهم ، كانت أمانة في رقبتي ، يا طويل العمر .

وابتسم اكثر من قبل وتابع :

ـ يمكن لبعض الأشخاص أن يكذبوا ، أن يدّعوا . . . إلا في الطب . . . .

ولم ينتظر ولم يتردد ، إذ فتح حقيبته أمام عيني الأمير وقال :

ـ بهذه الادوات والأدوية استطيع أن اشفي أي مريض . . ثم ان شهادة الممارسة لا تعطى إلا بعد القسم .

قال الكلمات الأخيرة ببعض الحيرة ، فتطلع الأمير باهتمام الى الحقيبة المفتوحة ، وقد راودته الرغبة في أن يقلب محتوياتها ، والحكيم الذي أحس بهذه الرغبة دفع الحقيبة قليلاً الى الامام ، فظهرت بعض الأدوات الطبية وبعض الأدوية . سأل الأمير من جديد :

ـ وتعرف تداوي كل الأمراض ؟

ـ بمشيئة الله . يا طويل العمر .

ـ وين اشتغلت قبل ما تجي حران ؟

ـ كنت طبيب بعثة الحج يا طويل العمر ، ولما سمعت أن حران بحاجة الى طبيب توكلت على الله وجئت .

هز الأمير رأسه دلالة الفهم ، وقال له أن لا مانع من بقائه في حران ، وأن يمارس مهنة الطب ، ثم بدأت الأحاديث والأسئلة تأخذ منحى آخر .

كانت هذه الطريقة في المعاملة والتحقيق كافية لأن يبقي الحكيم حقيبته مقفلة ويفكر بحملها مغادراً حران ، لكن التعب الذي لقيه خلال الرحلة من عجرة الى حران ، ثم تعمده تأجيل اتخاذ القرار الى اليوم التالي ، جعلاه ينتظر ثم يعدل عن فكرة الرحيل .

أما ما تلا هذه الحادثة ، سواء في الليلة ذاتها أو بعد ذلك ، فقد جعله أكثر حيرة وأكثر رغبة في العودة . فصعوبات السكن والأكل وغسل الثياب ، إضافة الى أن أهل حران لم يألفوا بعد وجود طبيب بينهم ، ولذلك لم يغامر أحد في الأيام الأولى بزيارته ، بل وتوقع الكثيرون رحيلاً مبكراً لهذا الرجل الذي جاء قبل الأوان ، أو جاء الى مكان لا يحتاج الى طبيب غير مفضي الجدعان ، إلا أن بعض الأحداث التي أتت مصادفة غيرت الكثير من المواقف والقناعات . فابن الأمير الذي أصيب بحمى لم تجد معها المحاولات التي بذلت في معالجته ، تولى الحكيم المعالجة ،وقام بهذه المهمة على أحسن وجه ، والأمير نفسه راقب بانتباه شديد كل حركة من حركات الطبيب ، وكل تصرف من تصرفاته أثناء العلاج ، وكأنه يريد أن يتعلم أو أن يتأكد من كل شيء . والطبيب الذي كان بطرف عينه يتابع حركات الأمير وردود فعله ، أظهر كثيراً من البراعة ، وبالغ في الحركة ، ثم ما لبث أن قام بشرح الحالة بتفصيل ودقة ، واطلع الأمير على بعض الأدوات الطبية : قدم له السماعة ، ثم قدم ميزان الحرارة وآلة قياس الضغط . والأمير الذي أمسك السماعة بحذر ، ثم وضعها على أذنيه بمساعدة الحكيم نفسه ، أبدى دهشة كبيرة عندما سمع دقات القلب واضحة قوية . أما ميزان الحرارة فلم يستطع أن يرى مؤشره ، رغم محاولات الطبيب العديدة . وآلة قياس الضغط اعتبرها معقدة ، وربما خطرة ، ولم يفهم منها شيئاً البتة .

أما عندما انخفضت حرارة الصغير وتم شفاؤه في اليوم الثالث ، فقد بدأ الطبيب يتمتع بحالة من الاحترام المشوب بالتقدير الغامض . كانت هذه الحادثة بداية علاقة

وثيقة وبداية صعود نجم الدكتور صبحي المحملجي .

وتأكدت براعة الطبيب ولم يبق أحد الا وتحدث عن ذلك . حين تعرض جوهر ، مرافق الأمير ، الى حادث خطير أدى الى جرح كبير في ساقه ، مع ارتفاع درجة حرارته ، فقد كاد مفضي الجدعان ، الذي تولى المعالجة قبل وصول الحكيم ، أن يقتل جوهر ، كما أكد الدكتور صبحي مراراً ، وبالحاح لا ينفك يتزايد أو على الأقل أن يتسبب ببتر الساق . إذ لولا تدخل الحكيم في الوقت المناسب ، ثم قيامه باظهار براعته ، والأمير يراقب بانتباه ، ففتح الجرح بعد تخدير المريض ونظفه ثم أعاد تخييطه ، وقد أجرى هذه العملية في الخيمة القريبة من خيمة الأمير ، لولا تدخل الحكيم لكانت النتائج مختلفة ، ولم يمر أسبوع والطبيب يتابع المعالجة ، حتى نهض جوهر ، رغم أنه استمر يتوكأ على عصا أثناء المشي ، ثم تحولت العصا بمرور الوقت الى الأبهة ثم لاستعمالات أخرى !

هذان الحادثان اعتبرا تزكية للطبيب ، وقد حصلا خلال الفترة الأولى ، فساعدا في تثبيت مكانته ، رغم الكثير من الاشاعات والأقاويل التي بدأ يثيرها مفضي الجدعان . وخلال فترة قصيرة أصبح صبحي المحملجي شخصاً مرموقاً في حران . أما حين استأجر ثلاثة دكاكين معاً من الدباسي ، وأجرى فيها تعديلات كبيرة ، بحيث يمكن أن تصبح مكاناً ملائماً لاستقبال المرضى وللاقامة أيضاً ، فقد تأكد الجميع أن الطبيب جاء ليبقى ، وأن إقامته في حران ستطول . ومفضي الجدعان الذي اختار مكاناً قريباً من العيادة وأخذ يجلس فيه فترات طويلة يحرّض ويشتم ، وقد انتزع أكثر من مرة الأدوية التي كانت في أيدي الذين زاروا الطبيب ورمى بها ، مؤكداً أنها مليئة بالعفاريت الصغيرة ، ولن تلبث أن تُدخل الضيق الى الصدور ، لأن الذين صنعوها لم يتعوذوا من الشيطان ولم يسموا عليها باسم الرحمن ، والحكيم الذي كان يصله كل ما يفعله مفضي عن طريق الحارس والمساعد الذي استخدمه ، يتظاهر انه لم يسمع ولا يعرف شيئاً خارج العيادة ، لكنه مع ذلك كان ينتظر الوقت المناسب لكي يرد مرة واحدة على « هذا الدجال » كما أطلق على مفضي . وإلى أن يأتي ذلك الوقت انصرف الحكيم الى بناء علاقات خاصة مع الأمير أولاً ، ثم مع أعيان حران وأغنيائها بعد ذلك .

كان الحكيم يشعر أنه وحيد وأعزل ، خاصة وأن طبيعته تجعل بينه وبين الآخرين

مسافة ، كما أنه لا يستطيع ، في هذه الفترة ، أن يبعث وراء زوجته وأولاده لكي يأتوا الى حران ، فحران لا تزال ، رغم تزايد عدد الناس فيها ، ورغم توافر الكثير من الأمور والحاجات ، بلدة لم تكتمل بعد ، أو بعبارات أدق غير قادرة على استقبال الجميع أو توفير ما يحتاجون اليه . فالمدرسة الابتدائية التي افتتحت منذ بعض الوقت تقتصر على الصفوف الأربعة الأولى ، بل ان عدد التلاميذ في الصف الرابع لا يتجاوز الخمسة ، وهم أبناء المدير وأحد المعلمين الثلاثة . إضافة الى اثنين من أبناء الراشد . أما أن يترك الأولاد لكي يتابعوا دراستهم في بيروت ، عند جدتهم لأمهم ، وتلتحق به زوجته ، فقد بدا الأمر مبكراً ، خاصة وانه لم يعثر على سكن ملائم ، أو بالأحرى لم يبحث بشكل جدي ، لأنه غير مستقر على قرار نهائي .

ومما زاد في شعور الحكيم بالوحدة أن مساعده محمد عيد الذي عمل معه طوال السنوات السبع الماضية ، والذي رافقه في بعثة الحج ، وعده أن يلتحق به خلال فترة شهر ، وعلى أبعد تقدير خلال شهرين . وها قد مضت ثلاثة شهور كاملة ولم يصل ولم يبعث بأي خبر . ان محمد عيد ليس مجرد مساعد يمكن استبداله بغيره ، أو يمكن الاستغناء عنه ، إذ إضافة الى اتقانه للمهمات التي يقوم بها مساعدو الأطباء عادة ، فانه متوقد الذكاء ، سريع الفهم والاستجابة ، حتى بعض الأمور التي قد ينساها الطبيب نفسه كان يلفت النظر اليها ، ويتداركها هذا عدا عن الألفة التي تولدت من العمل المشترك الطويل بين الاثنين ، ونتيجة هذه العلاقة كان محمد عيد يقوم بأعمال ليست من مهمته ، كأن يحضر الأكل او يشرف على نظافة العيادة ومكان المنامة ، إضافة الى أعمال أخرى كثيرة !

لا يمكن لأحد غير محمد عيد أن يقوم بهذه المهمات ، ولا يمكن للطبيب أن يدرب شخصاً جديداً ، ويتوقع ان يكون مثل ذلك المساعد ، خاصة وأنه في هذا العمر ، وفي هذا المكان ، يجد نفسه أقل قدرة أو أقل استعداداً من قبل لأن يفعل ذلك .

كل هذه الأسباب ترد في بال الطبيب ، بل ويذكرها لنفسه أثناء الانتظار الطويل الممض لمحمد عيد ، لكن في الحقيقة هناك أسباباً أخرى أكثر أهمية ، وهي التي تسبب له تعاسة حقيقية وشعوراً قوياً أنه يواجه الآخرين وحيداً أعزل . من هذه الأسباب أن محمد عيد الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يقيم بينه وبين الآخرين نوعاً من الصلة ، وهي وحدها التي يرتاح اليها الطبيب ويجدها المناسبة ، إذ يعرف

كيف يتكلم عنه أمام الناس وكيف يصوره . إنه يتكلم عن إنسان اسطوري ، عن إنسان يمتلك قوى خارقة ، خاصة في مجال الطب ، فهو يتذكر المرات التي انتزع فيها الطبيب انساناً من بين يدي عزرائيل وقال له اخسئت ! لقد حصل ذلك عندما عجز الأطباء الآخرون وأعلنوا استسلامهم الكامل « وحده الدكتور صبحي الذي قال للموت : أنا أقوى منك . وأعاد لذلك الانسان الحياة ! » ومحمد عيد لا يذكر فقط عدد المرات أو الحالات التي تفوق فيها الطبيب على الآخرين بل وتفوق فيها على نفسه « لأنه عاشق لهذه المهنة ولم يخلق الا لها » وإنما يمتلك مقدرة غير عادية على نقل أبسط الأمور بطريقة ساحرة مؤثرة ، وحتى لو كررها مرات عديدة فانها دائماً تبدو جديدة وكأنها حصلت بالأمس . وهذه القصص التي يرويها يعرف متى يرويها ولأي أشخاص ، حتى الطبيب نفسه يعجب حين يُسأل بعض الأحيان عن تلك القصص ، بل إنه لا يتذكر هذه التفاصيل التي رواها مساعده !

ومن الأسباب التي قوت العلاقة بين الاثنين أيضاً أن محمد عيد يعرف الناس معرفة جيدة ، ويعرف الطريقة المناسبة للتعامل معهم « فالطبيب مشغول جداً » حين يأتي أحد الأقرباء أو أحد المعارف . و« عنده عملية كبيرة » إذا جاءت الشرطة طالبة منه اجراء الكشف على مصاب في حادثة من الحوادث . و« الطبيب غير موجود » إذا جاء إنسان فقير . صحيح أن محمد عيد أخطأ في بعض الحالات أو تجاه بعض الأشخاص ، لكنها أخطاء صغيرة يعرف كيف يبررها في وقت لاحق ، حتى لتكاد تختفي من ذاكرة الذين حصلت معهم ، أما من ذاكرته هو فانها تختفي في اليوم نفسه .

والطبيب الذي يصغي الى مساعده يروي ما قام به من مهمات نيابة عنه ، فيقره عليها ويثني على فعله ، يكرر التنبيه مرة بعد أخرى : « أنا ما شفت ولا سمعت . . فاهم ؟ » ويهز محمد عيد رأسه مع ابتسامة ، ويضيف وهو ينسحب بعد أن قدم التقرير : « ولا يهمك . . حكيم . . خليها عليّ . . . أنا المسؤول » .

يضاف الى الأسباب الحقيقية التي يعرفها الطبيب ولا يذكرها أبداً : « إبرة العافية » فمحمد عيد هو الذي يتولى وضع اللمسات الأولى والأخيرة بالنسبة لأغلب المرضى ، إذ بعد أن يسجل اسم المريض بحروف كبيرة غير واضحة ، يسجل الحالة ، وغالباً ما تكون وصفاً بدائياً للمرض ، كل ذلك بخط رديء متداخل

الحروف ، على عادة الأطباء ، فيكتب : « وجع بطن » « حكة » « أوجاع مختلفة في الأعضاء » . بعد أن ينتهي من هذه المهمة يبدأ بتهيئة المريض نفسياً ، كأن يؤكد له أن حالته بسيطة ، أو أنه جاء في الوقت المناسب ، وأن الله سبحانه وتعالى رحمه وأرسله الى الدكتور صبحي . وبعد فترة من الصمت ، لكي يترك أثر الكلمات التي قالها تترسب في أعماق المريض ، يضيف وهو يبتسم ابتسامة الواثق :

- بعد ما يفحصك ويصف لك الدواء ، الأبرة جاهزة ، وهذه الابرة في خمس دقائق تؤدي مفعولها ، وإن شاءالله تكون فيها العافية .

قليلون هم المرضى الذين لم تثقب حقنة محمد عيد جنوبهم ، وأقل منهم هم المرضى الذين لم يسألوا ما اذا وصف لهم الطبيب ، ضمن الدواء ، إبرأ أم لا ، وهل الحقن التي سيأخذونها من نفس نوع وقوة الحقن التي سيعطيها لهم محمد عيد . والدكتور صبحي الذي يعطي اجابات مختصرة جداً وسريعة ، يترك المرضى في حيرة الى أن يستلمهم مساعده ، إذ بعد ان يطلب ، بطريقة أقرب الى الأمر ، من المريض أن يهيّىء نفسه بسرعة « لأن الأبرة جاهزة » يسحب منه الروشيتة فيلقي عليها نظرة مدققة مع هزات من رأسه دلالة أنه فهم الحالة واعتبر الدواء مناسباً جداً . وفي ذلك المربع الصغير ، الذي ربما كان في يوم من الأيام مخبأ أو مرحاضاً ، وأصبح الآن أصغر غرفة في العالم ، حيث لا يتسع الا لوقوف شخص واحد ، وبعد أن يستعد المريض وراء الستارة المسدلة ، ويسأله محمد عيد : « أنت جاهز ؟ » وما يكاد يسمع الاجابة حتى يرفع الستارة بطريقة متقنة للغاية ، لفرط ما تكرّرت ، عن الجزء الأسفل من جسد المريض ، وبسرعة خاطفة ينتهي من مهمته ، مع كلمة يرددها دائماً : « فيها العافية » . « إبرة العافية » تعادل قيمتها أجرة الكشفية ، لأنها قيمة كلية وغير قابلة للتجزئة ، إذ لا يمكن أن يقال مثلاً : قيمة الابرة كذا وأجرة اعطائها كذا . ولا يمكن الموافقة على طلب أحد المرضى أن يأخذ الابرة لكي يتولى غير محمد عيد اعطاءها . إن مثل هذا لا يقع ، كما أن المرات التي رفع فيها الطبيب أجور المعاينة ارتفعت معها قيمة « إبرة العافية » أيضاً . وإذا كان الدكتور صبحي قد بدأ ممارسة المهنة بأجور أقل من الآخرين ، خاصة الكبار المعروفين الذين سبقوه في طرابلس وحلب ، فالكثيرون كانوا يسخرون من كفاءته ونزاهته حين يذكر اسمه . يذكرون الاضافات التي يحصل عليها من هنا وهناك ، مشيرين الى « إبرة العافية » كما أصبح

يطلق عنيها ، وإلى قيامه ببيع الأدوية التي يحصل عليها كنماذج .

إذن شعور الدكتور في حران بالوحدة والعزلة كانت له أسبابه ، أما وصول محمد عيد في بداية الشهر الرابع ، فقد غيّر كثيراً في شكل الحكيم وتصرفاته ، أو بالأحرى جعله إنساناً آخر . فالصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات كثيرة ، أو تلك الاجابات المضطربة الخشنة ، بدأ تجاوزهما من خلال لسان جديد . . . متمثل بمحمد عيد . فكل ما يريده الحكيم أو يسأل عنه يتولى المساعد القيام به . أما الأكل الذي تسبّب باضطرابات معوية حادة ، وقد خاف منها الحكيم في فترة من الفترات « لأن الآخرين لا يفهمون عليه ولا يريدون مساعدته ! » فما لبث أن أخذ نسقاً جديداً حين تولى مساعده إعداده وتحضيره . فزالت آلام الحكيم واستعاد قوته . ويمكن أن يقال الكثير عن النظافة والملابس وشراء الحاجات ومساومة الصناع ومراقبتهم . ولذلك أمكن تدارك أمور كثيرة خلال أيام من وصول محمد عيد ، وبدت العيادة التي تكاملت وانتظمت قريبة الشبه بالعيادة التي كانت للطبيب صبحي في طرابلس قبل عشر سنين . وإذا كان مكان سكن الطبيب في الدكان الجانبية قد ولد في نفسه نوعاً من المرارة نتيجة ملاحظات نقلت اليه . فما لبث أن فُتح لهذه الدكان باب جانبي ، صبغ بلون أزرق فاتح ، ووضعت الى جانبه لوحة خطها أحد معلمي المدرسة ، الذي وفد حديثاً الى حران . كتب على اللوحة الصغيرة بخط رقعة جميل « الدكتور صبحي المحملجي ـ منزل » أما اللوحة الأصلية التي وضعت في وسط الواجهة الأمامية ، على الشارع الرئيسي ، وقد صممت بعناية في عجره ، فكان مكتوباً عليها : « الدكتور صبحي المحملجي ، طبيب وجراح . اختصاصي في الأمراض الداخلية والتناسلية من جامعات برلين والنمسا » .

إن اختصاص « الأمراض التناسلية » الذي كان من جملة اختصاصات الدكتور صبحي المحملجي ، والذي أشار اليه ، منذ البداية ، إشارة سريعة ، لكن مؤثرة وذات دلالة . هذا الاختصاص ، الذي يعرف الحكيم أهميته وتأثيره ، أقام بينه وبين الكثيرين روابط قوية ومتداخلة .

فلم تمر أسابيع قليلة على وصوله الى حران الا وبدأت بينه وبين الأمير علاقات وثيقة حتى أن كثيرين تساءلوا من جديد ما اذا كانت معرفة سابقة تجمع بين الرجلين ، وقد حملهم على هذا التساؤل طريقة الطبيب في السلام على الأمير في

الليلة الأولى ، ثم هذه الجلسات الطويلة الخاصة التي تجمعهما الآن . والأمير الذي ظل يحرص ، أمام الآخرين ، أو في بداية قيام هذه العلاقة ، على أن يسأل ويستمع بانتباه عن الأمراض : أعراضها ، أسبابها ، وطرق معالجتها ، ويبدي اهتماماً وإصغاء أثناء ما كان الطبيب يشرح ، رغم أن القسم الأكبر مما كان يسمعه لا يفهمه ، وتختلط المعلومات الى درجة يحار كيف يمكن للطبيب نفسه ان يعرفها ، فقد كان دائماً يهز رأسه دلالة الفهم والمتابعة ، وفي أغلب الجلسات كان الأمير يبدي رغبته في استعمال السماعة ، في أن يضعها على صدر أحد رجاله ليستمع الى دقات قلبه . كان دائماً شديد الاعجاب بهذه الآلة ، ويتمنى من أعماقه لو يستطيع أن يحصل على واحدة. وفي هذه الجلسات ، ومن خلال الأسئلة ، كان الحديث دائماً يتجه الى تلك القضية الحساسة والمثيرة معاً « قضية الجنس » والطبيب الذي لا يعطي الا القليل القليل ، كان بإجاباته يثير من الفضول والرغبة أكثر مما يفسر ويوضح للآخرين ، تاركاً كل واحد مفكراً مهموماً ، وراغباً أيضاً في أن يزوره منفرداً .

في فترة معينة ، وبعد أن توثقت العلاقات اكثر من قبل بين الطبيب والأمير ، أصبحت الأسئلة أقل براءة ومباشرة جداً وصريحة .

الدباسي الذي وافق بحماس على تأجير الدكاكين الثلاث الى الطبيب ، استجاب بكثير من التفهم الى الاقتراحات والتعديلات المطلوب اجراؤها ، لكي يتم تحويلها الى عيادة ومستشفى ومكانٍ لسكن الطبيب . كان فخوراً أن الطبيب اختار هذه الدكاكين ، وكان يحرص على أن يكون صديقاً وقريباً ، كما أبدى استعداداً لأن يلبي أية طلبات لاحقة . وحول هذه النقطة الأخيرة جرى بحث غير واضح وغير نهائي في امكانية بناء طابق ثانٍ ، وربما ثالث ايضاً ، لكي يصبح هذان الطابقان مستشفى كبيراً ومكاناً لائقاً لسكن الطبيب ، خاصة حين تصل عائلته .

كان الدباسي يتعمد أن يقضي وقتاً أطول مما تعود في فترات سابقة للاشراف على التعديلات التي تجري . وقد تعمد اكثر من ذلك أن يكون قريباً من الطبيب ، ورغم أنه قرر مرات عديدة ، بينه وبين نفسه ، مفاتحته لكي يعطيه بعض المقويات والأدوية ، لأنه أصبح يشعر بحاجة اليها ، خلافاً للفترات السابقة ، رغم أنه قرر ذلك إلا أنه لم يجرؤ في البداية . كان يحس بالخجل والارتباك ، وحين يبلغ في تصميمه حد المكاشفة كانت تظهر بعض العوائق ، مما اضطره الى تأجيل ذلك لفترة

غير قصيرة .

ومثلما توثقت علاقات الحكيم بالأمير والدباسي فان علاقاته بشاه بندر التجار وحسن رضائي وآخرين اخذت المنحى ذاته ، مع اختلاف يسير بين واحد وآخر . حتى ابن نفاع الذي ظل حذراً مراقباً كل الفترة الأولى ، وسمع ما قاله مفضي الجدعان وما قاله غيره ، ورأى الطبيب عدة مرات في المسجد ، ورأى التقى الذي يظهره ، ثم عرف أنه كان رئيساً لبعثة الحج ، فقد أبدى نوعاً من التسامح والتفهم لمجيئه ، أما بعد أن وصل محمد عيد ، وما نقله عن الطبيب اثناء مرافقة الحجاج ، كيف انقذ العشرات من موت محقق ، وكيف كان يواصل الليل بالنهار لمراقبة المرضى والعناية بهم ، ما ان سمع ابن نفاع هذه التفاصيل ، واستفسر من محمد عيد حول عدة أمور ، حتى تغير بشكل واضح . قال امام الكثيرين ان ابن جدعان مخطىء ولا يريد خير المسلمين ، لأنه يحاول قطع رزق واحد من الرجال الصالحين . وقال اكثر من ذلك ، أن حران التي احتملت عدداً من التجار يزيد يوماً بعد آخر ، لا يضيرها لو وجد أكثر من طبيب. أما المرضى فيمكن أن يذهبوا الى ابن جدعان أو الى الطبيب الجديد ، لا فرق في ذلك . وقد اورد ابن نفاع عدة أحاديث وقصصاً عن الرسول قالها أو حصلت له ، وكلها تحث على النظافة ومعالجة المرض .

مفضي الجدعان كان آخر من يتصور ان ابن نفاع يمكن أن يقف الى جانب الطبيب الجديد . فلما تأكد من ذلك ، قال امام عدد من الرجال ، وهو يشمر عن يده اليمنى ويحرك أصبعه بطريقة معينة :

ـ يتوهم إبن نفاع . يفكر أن اللي الله هدّه يمكن للطبيب أن يرده . . .

وحرك أصبعه أكثر من مرة دلالة الرخاوة وتابع وهو يضحك :

ـ قولوا له يجدع هذه السالفة من رأسه ، وراح يظل ينام كفي على وجهه .

ابن نفاع الذي نقل اليه ما قاله مفضي الجدعان ، استشاط غضباً ، قال والزبد يتطاير من حلقه :

ـ قولوا له : ابن نفاع يعرّس كل ليلة وكل يوم ، وإذا أراد يولّم أمه وينتظر بالباب ليسمع ويشوف .

وطالت المعركة بين الاثنين وتشعبت ، لكن الحكيم لم يتدخل مباشرة . كان يسمع ما يقال ، كان ينقل اليه حارسه هديب كل ما يجري ، وبعد ذلك أخذ ينقل

اليه محمد عيد مباشرة تفاصيل اخرى . فكان رده الذي قاله في مجلس الأمير ذات ليلة ، وبدا شديد الثقة :

ـ إذا أراد ابن نفاع يمكن أن أرجعه شاباً ابن عشرين ، ويمكن أن يعوّض كل ما فاته .

كلمات الحكيم السريعة العابرة ، والتي كانت في معرض المزاح ، رنت في آذان الرجال رنيناً حاداً موصولاً ، والذين لم يفكروا يوماً بسؤ اله حول هذا الأمر بالذات ، لأنهم لا يشعرون بحاجة الى ذلك ، أحسوا أنهم قد يحتاجون اليه في يوم من الأيام ، وأنه يملك قوى وامكانيات خارقة . أما الذين انحطت قواهم ، الذين كانوا بحاجة ماسة الى المساعدة ، فقد شعروا انهم وصلوا الى ضالتهم بعد انتظار طويل وبعد عذاب أطول . ولذلك تعلقت به العيون تتابع كل كلمة ، كل تصرف ، ودون إرادة ، ودون شعور ، أصبح الدكتور صبحي المحملجي مثالاً وأملاً للكثيرين .

والدكتور صبحي الذي عرف أو قدر أن حران بحاجة الى طبيب ، فان مشكلة الأدوية أو مشكلة الصيدلية لم يفكر فيها بالمقدار الكافي . إذ بعد أن احتفظ بالقسم الأكبر من الأدوية التي كانت مع بعثة الحج ، فقد طلب من مساعده أن يحضر معه عندما يأتي مجموعة أخرى سماها له ، لكن ما عنده منها ، وما يأتي به محمد عيد اذا كفى شهراً فلا بد أن ينفد في الشهر التالي . ولذلك فكر ، في جملة ما فكر فيه ، أن يقيم علاقات طيبة مع الطبيب الباكستاني الذي يعمل في الشركة . قال ذات ليلة لمساعده وهما يرتبان الأدوية :

ـ تأمين الدواء يتطلب وجود اتصال مباشر مع النبع ، والنبع في هذه الفترة هو الشركة ، حتى يأتي صاحبنا صدقي المفتي أو واحد ابن حلال مثله .

وبكثير من البراعة والمكر بدأت زيارات بين الدكتور صبحي والدكتور محمد جناح . كانت أول الأمر زيارات مجاملة ، تخللتها بعض الصعوبات ، لأن الدكتور جناح لا يحسن سوى الانكليزية ، ويعرف بعض الكلمات العربية فقط ، أما الدكتور صبحي فان انكليزيته « انكليزية قراءة وليست انكليزية أخذ وعطاء » هكذا قال الحكيم أول مرة ، واستعان بوسائل عديدة ، بالكتابة ، بالقاموس ، بالاشارات ، وببعض الكلمات العربية ايضاً لكي يتفاهما . أما في المرات التالية

فيبدو أن الاثنين استعدا ، فحصيلة الدكتور الباكستاني من الكلمات العربية كانت أكبر ، وكذلك حصيلة الدكتور صبحي من الكلمات الانكليزية ، وقد نطقها بطريقة بدت غريبة أول الأمر ولم يفهمها الطبيب الباكستاني ، لكن بعد أن فهمت تحولت الغرابة الى متعة مشوبة ببعض المزاح . وهكذا توثقت العلاقة بين الاثنين الى ما يشبه الصداقة ، وأصبح الاثنان يتفاهمان بطريقة خاصة للغاية !

بدت حران ، اثناء تدشين خط الانابيب ، مدينة خطيرة ، بنظر نفسها على الاقل ! فقد سبق التدشين باسبوع او عشرة ايام وصول مجموعة كبيرة من رجال الشرطة والموظفين والحراس والخدم ، اضافة الى كميات كبيرة من المواد التموينية والخراف ، ووصلت ايضاً الى الامير تعليمات متلاحقة وربما متناقضة .

احس الناس بهذه الامور احساساً غامضاً ، فاضطربوا بعض الشيء ، وترافق ذلك مع حركة غير عادية في دار الامارة ، وفي البريد اليومي بين هذه الدار ومعسكر الاميركان ، ثم في استدعاء نائب الامير لبعض أعيان حران ، والاحاديث الطويلة التي جرت بينه وبينهم ، وما تسرب منها ، او ما عرفه الناس بطرقهم الخاصة . وبعد ذلك الزيارة المفاجئة التي قام بها ثلاثة من الاميركيين الكبار الى دار الامارة ولقاؤ هم بالامير . وفي اليوم التالي زيارة الامير نفسه لمعسكر الاميركان ، وتجوله في المنطقة البحرية ، والخيام الثلاث التي نصبت في معسكرهم ، وسط الحديقة الكبيرة وقرب بركة السباحة ، وقيل انها ستكون للضيوف ، لان نائب السلطان ولي العهد سوف ينزل في بيت الامير او في دار الامارة .

الحركة التي استمرت اياماً ، وتميزت بالاضطراب وعدم الدقة ، وقد تخللتها

حالات غضب من الامير او من نائبه ، وحتى من المرؤوسين تجاه من هم دونهم ، ثم تساؤلات الناس التي لم تهدأ لحظة واحدة ولم تتوقف ، والتي لم يكن من السهل الاجابة عنها ، سواء عن عدد الضيوف الذين سيأتون الى حران او المدة التي سيقضونها ، واخيراً التعليمات والتنبيهات التي اعطيت على عجل لاصحاب الدكاكين ، خاصة في الشوارع الثلاثة الرئيسية ، حيث سيمر الموكب ، هذه التعليمات التي اشارت الى ضرورة التزيين ووضع البيارق والاشارات الملونة ، واظهار الفرح والبهجة ، كل هذه الامور لم يستطع الكثيرون تصور كيف يمكن ان تكون ، لانه لم يسبق لهم ان فعلوا شيئاً مثل هذا من قبل . أما حين رأوا محمد عيد امام عيادة الدكتور صبحي المحملجي ، وقد هيأ مجموعة من العوارض الخشبية ، وبمساعدة النجار الذي قام بانجاز اعمال العيادة ، وخلال بضع ساعات نُصب قوس غطى العيادة كلها تقريباً ، ثم نشرت على هذا القوس سجاجيد كان الطبيب قد اشتراها في الفترة الأخيرة ، اثناء وصول احدى البواخر . نشرت هذه السجاجيد - عدا ثلاث فرشها الحكيم في العيادة وغرفة المنامة - ثم وضعت فوقها مجموعة من الاوراق الملونة ، كانت عادة توضع في علب الادوية الكبيرة . وعلى قطعة مستطيلة من القماش خط رؤوف السقا ، الخطاط الذي كان في عجرة ، والذي انتقل مؤخراً الى حران ، خط عبارات اختارها الطبيب بنفسه ، وقد قضى الليلة السابقة يفكر فيها ويكتبها على ورقة امامه ، وظل ينقحها حتى استقر نهائياً على صيغة ترضيه . حين انتهى رؤوف السقا من كتابة اللافتة بدت جميلة متقنة ، وقد ابدى الطبيب رضاه التام عنها . أما حين رفعت على عرض الشارع ، امام السوق مباشرة ، فقد اشرف الطبيب بنفسه على ذلك ، وطلب اكثر من مرة ان تُشد الحبال لكي ترتفع اللافتة اكثر . فلما انتهى كل شيء ذهب الطبيب الى نهاية الشارع لكي يلقي نظرة من هناك ، وتقدم خطوة بعد اخرى ، وعيناه لا تفارقان اللافتة والقوس ، فلما وصل تحتهما تماماً كان يبدي السرور وقال بصوت مسموع :

- العظماء والقضايا العظيمة تستحق هذا واكثر من هذا .

مبادرة الطبيب فتحت الآفاق امام الآخرين ، حتى الامير نفسه لم يتردد في النزول الى حران وزيارة الطبيب في عيادته ، عصر اليوم الذي اقيم فيه القوس ، وقد فسرت هذه الزيارة على انها بادرة رضا . أما محمد عيد حين سئل عن الزيارة فقد رد بثقة :

- زيارة الامير للحكيم تتعلق بامور اكبر واخطر . . .

توقف قليلاً تطلع في وجوه الذين يسألون ثم تابع :

- انتم تعرفون العلاقة بينهما ، انهما اكثر من اصدقاء ، انهما اخوة .

ولم يستطيع الكثيرون ان يفهموا معنى الزيارة على وجه مؤكد ، لكن لم يبق احد في حران الا وتحدث عنها .

واذا كان اهل حران قد اضطربوا وانتظروا فان دار الامارة كانت اكثر اضطراباً واكثر انتظاراً . اذ لم يتصور احد من قبل ان يأتي الى حران مثل هؤلاء الرجال او بعددهم ، أما وقد تقرر مجيئهم فلا يعرف كيف سيكون انطباعهم او رأيهم فيما سيرون او يسمعون ، لكن رغم شعور الرهبة الذي سيطر على الكثيرين فان شعور الفخر ، الذي يصل حدود الكبر ، كان اقوى واوضح . حتى الذين لم يطلب منهم اقامة الزينة بادروا الى اقامتها ، او على الاقل رفعوا الاعلام او وضعوا خرقاً ملونة .

الوحيد الذي اظهر رفضاً وصل حدود الازدراء هو ابن نفاع ، اذ ما كاد يمر في شارع الراشدي ويرى القوس الذي أقامه الدكتور صبحي حتى فوجىء مفاجأة جعلته يصرخ :

- اه . . . يا ابن الحرام يا ارناووطي . حسبناك ابن اوادم تراك طلعت مثلهم . .

توقف قليلاً ثم اضاف بسخرية :

- لكن مثل ما قالوا : الكلب اخو السلوقي .

ولم يتوقف ابن نفاع عن الشتيمة والتحدي ، رغم محاولات محمد عيد استرضاءه وتوضيح الامر له . والرجال الذين اجتمعوا تحت القوس ، مقابل العيادة ، وكانوا يوزعون نظراتهم بين ابن نفاع وهذه الزينة التي تبدو لهم شديدة التألق ، لم يأخذوا كلام ابن نفاع وشتائمه على محمل الجد ، وذكروا انه لا يعني ما قاله كلية ، ولكن هذه هي العادة التي لم يستطع هذا الشايب التخلي عنها منذ أن وصل الأميركان وحتى الآن . قال أحد الرجال في لحظة صمت ، يريد أن يخلق شقاقاً جديداً :

- يا جماعة . . القصة من اولها الى تاليها ان الابرة اللي يحلم بها ابن نفاع ما رضي الطبيب يعطيها له !

وتغامز الرجال وانخرطوا في موجة عالية من الضحك والصخب ، وما كادت

الموجة تتراجع قليلاً حتى قال محمد عيد مازحاً :

- اذا كانت هذه كل القصّة . . فاتركوا الحاج عليّ .

- ومن انت يا ارناؤ وط حتى تتكلم هذا الكلام ؟

هكذا رد ابن نفاع غاضباً متسائلاً . كان غضبه شديداً اقرب الى الهياج ، ومحمد عيد الذي فوجىء بهذا الموقف ، هز كتفيه ولم يجب . قال احد الرجال من مكان بعيد متجنباً غضب ابن نفاع او ربما ضربه :

- اسمعوا . . اسمعوا يا جماعة الخير . . .

فلما التفتت العيون نحو الصوت ، قال الرجل وهو يتحرك يريد ان يفلت :

- آخر الزمان يقصر (. . .) ويطول اللسان ، وهذه حالة الشيبة .

لم يصدق ابن نفاع ان احداً يمكن ان يكلمه بهذه الطريقة او ان يقول ما قاله هذا الرجل . ظل مذهولاً بعض الوقت ، فلما دوّت ضحكات الرجال عالية صاخبة ، وسلقته العيون تتساءل ماذا سيكون رد فعله ، نحّى الرجال بعصبية اقرب الى الغضب ، وتقدم الى عمود القوس القريب ، أرخى سرواله وهز عضوه امام الجميع ثم جلس هناك وبال . خيم الصمت وعلت الوجوه تساؤلات مستغربة غير مصدقة ، فلما وقف مرة اخرى قال وهو يضحك من السخرية والغيظ :

- قل لراعيك يا ارناؤ وط : ابن نفاع ما يبغي شي ابداً وحيله قوي ، وهذا العمود اخذ شراب يلايمه !

وسار ابن نفاع شامخاً غير آبه بالنظرات التي ظلت تتابعه ، ولا بالهمهمات التي سرت في الجمع وراءه ، وحين ابتعد سمع صوت الطبيب من الداخل ينادي على محمد عيد طالباً منه ان يوافيه بسرعة .

كان ابن نفاع الشخص الوحيد الذي فعل شيئاً للتعبير عن عدم الرضا ، لكن حركاته التي اضحكت الرجال ، وأخافت محمد عيد ، ما لبثت ان ضاعت في حمى الاستعداد والانتظار . حتى جوهر الذي اصبح مسؤ ولاً عن الحراسة ، ومهمته ان يشرف على الامن وحماية الضيوف ، والذي مر بعد فترة قصيرة ورأى الرجال قرب القوس وسمع منهم ما قاله ابن نفاع ، فقد هز العصا التي كان يحملها وقال ضاحكاً :

- خلوا هذا الشيبة يعوي وحده ، مجنون وهابلته خصيانه !

واستمرت الاستعدادات وتسارعت في الأيام الثلاثة الأخيرة ، فلما جاء يوم الاربعاء وصل نائب السلطان ولي العهد الامير خزعل .

كانت تتقدم الموكب سيارة بيك آب خضراء داكنة ، يجلس على المقعدين المتقابلين فيها ثمانية من الحرس باسلحتهم الكاملة ، وهي عبارة عن بنادق طويلة وسيوف ، اضافة الى مجندين من الذخيرة متصالبين على صدر كل واحد منهم ، ثم خناجر معقوفة بعض الشيء ومتفاوتة من حيث الطول والشكل . أما جوهر فكان يجلس في صدر السيارة الى جانب السائق ، وكانت يده التي تحمل العصا خارج النافذة اغلب الوقت . بعد البيك آب مجموعة من السيارات ، كان عددها ثمانياً لما غادرت عجرة ، لكن حين وصلت الى حران كانت ستاً ، لان اثنتين تعطلتا على الطريق ، ولولا ان نائب السلطان ، الامير خزعل ، انتبه في الوقت المناسب لظل ركاب هاتين السيارتين على الطريق بين عجرة وحران . أما حين تحول ركاب هاتين السيارتين الى السيارات الاخرى فقد بدت جميعها ، عدا سيارة الامير خزعل ، مليئة ببشر لا يمكن للانسان أن يميز بوضوح ودقة مراتبهم . سيارة الامير خزعل حمراء قانية من نوع كاديلاك ، أما السيارات الاخرى فرمادية اوبلون الطحين الاسمر ، الا واحدة كانت سوداء ، وهذه السيارات من نوعي فورد وشيفرولية .

سيارة الامير خزعل في الوسط ، وهي بحجمها وشكلها وحتى بلونها والعلم يرفرف عليها ، كالذبيحة الكبيرة في منتصف منسف متوسط الحجم ، وتبدو كالخروف الابيض وسط قطيع من الماعز .

الى جانب الامير خزعل ، ومثل قط متربص ، جلس الامير خالد المشاري . وقد ذكر الكثيرون ممن رأوا الموكب يدخل حران ، ثم هرولوا الى جانبه ، قريباً من السيارة الحمراء ، ذكر هؤلاء ان الامير خالد كان صامتاً ، وكان العرق يتصبب منه ، كما لم يرفع يده بالتحية حين دق بعض الصبية على زجاج النافذة . أما في السيارات الاخرى فقد كان مرافقو الامير وحاشيته ، وكانت البهجة واضحة على وجوه الجميع ، بمن فيهم السواق والحرس ، وابدوا الكثير من الطيبة والتسامح اثناء مرور الموكب في شوارع حران . اذ كان الموكب يتوقف بين فترة واخرى ، لان بعض الرجال او الصبية كانوا يقفون وسط الشارع ، ولان آخرين كانوا يحملون عصياً ويرقصون بها ، ومرة ثالثة توقف او كاد لان الامير خزعل لفت نظره القوس الذي

أقامه الدكتور صبحي ، اذ طلب من السائق ان يتمهل ، وطلب من كاتم السر الذي يجلس مقابله ، ان يقرأ العبارات المكتوبة على اللافتة . أما حين وصل الموكب الى دار الامارة فكان هناك بانتظاره نائب الامير ووجوه حران ، ومن فيهم الدكتور صبحي المحملجي .

كان كل شيء في دار الامارة مضطرباً قلقاً . حركة الرجال ، خاصة الحرس والمرافقين ، اكثر مما يجب ، بل اعاقت وغيّرت الكثير من الترتيبات التي هيىء لها بعناية من قبل ، ولهذا السبب لم يتح لبعض الرجال مثلاً ان يصلوا الى الامير خزعل او ان يسلّموا عليه . لقد حصل هذا لاثنين من معلمي المدرسة ولدحام وابن جدعان . كما ان محيي الدين النقيب دُفع اثناء تقدمه نحو الامير ، ولولا انه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة لكبا على وجهه ، وقد سلم عليه الامير خزعل بحرارة وابتسم له ، خاصة بعد ان همس في اذنه لامير خالد معرفاً بالرجل :

الدكتور صبحي كان متميزاً واضحاً وسط هذا الجمع الكبير . كان واضحاً بملابسه الانيقة ، دون اسراف ، وكان واضحاً ببياض البشرة والابتسامة التي لم تفارق شفتيه ، كذلك بنظراته المدققة الشفافة . كان لا يسرف في النظر الى عيون الآخرين ، لكي لا يشعروا بالحرج ، اذ ما تكاد نظراته تلتقي بنظرات احد ، خاصة الذين يرافقون الامير خزعل ، حتى يبتسم ويسحب نظراته ، كأنه يعتذر ، او يلقي بتحية من بعيد . ومع ذلك لم يفت الدكتور اي واحد من الرجال ، بل واستطاع وهو يتقلب على فراشه تلك الليلة ان يستعيد الكثير من الوجوه والتفاصيل عندما كان يتذكر وقائع ذلك اليوم . واستعاد ايضاً الكثير مما قيل وراجعه بعناية وفكر في كل ما حصل تفكيراً متأنياً موزوناً .

أما حين قُدّم الدكتور صبحي للامير فقد جرى ذلك بشكل متميز . صحيح انه قدّم بعد حسن رضائي والدباسي والنقيب ، لكن هذا لم يقلل من أهيمته، ويبدو ان الامير خالد ذكر انه صاحب القوس الذي لفت نظر الامير خزعل ، وقد جرت الاشارة الى هذه النقطة في وقت مبكر ، وقبل ان يُقدم للامير . ان هذا مجرد استنتاج توصل اليه الحكيم ، رغم انه لم يسمع ما تبادله الرجلان من كلمات ، لكن أحس من طريقة الامير وهو يشد على يده !

وتأكدت اهمية الحكيم ، بل تفوقه الكلي ، بعد لحظات من دورة فناجين القهوة . فمدير المدرسة الذي كان يفترض او يطمح ان يلقي كلمة اهل حران امام الامير خزعل ، والذي حاول باساليب شتى ان يقنع نائب الامير بذلك ، تقرر بعد مشاورات طويلة في دار الامارة ، او على التحديد بتوجيه من الامير خالد نفسه ، ان يكون المدير مقدماً ومعلقاً ، ويمكن ان يجيب عن الاسئلة او يشرح بعض الامور اثناء الزيارة ، أما كلمة اهل حران فان الحكيم هو الذي سيلقيها . هكذا تقرر دون ايضاحات كثيرة ودون تبرير . ومدير المدرسة الذي امتثل مكرهاً لهذا القرار ، ووافق ان يكون مقدماً للآخرين فقط ، ما لبث ان تكلم اكثر مما يفعل عريفُ لحفل ، وهذا ولد بعض الانفعال وما يشبه الاضطراب لدى الحكيم ، لان بعض ما اراد ان يقوله في الترحيب بالامير خزعل قاله المدير ، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً ، خاصة حين هدر صوت الحكيم فملأ القاعة الكبيرة في دار الامارة والخيمة التي نصبت في مدخلها .

ان الدكتور صبحي يختلف عن رجال كثيرين ، اذ بالاضافة الى كونه اعظم طبيب في الشرق الادنى والشرق الاوسط ، كما يحب محمد عيد ان يؤكد ، وهذا التعبير الجغرافي الغامض يعجبه كثيراً ، رغم انه تساءل بينه وبين نفسه ، وتعمد ان يسأل الطبيب وآخرين غيره ، اية مناطق يعني واية بلدان يشمل ، الا انه لم يتوصل الى تحديد واضح يطمئن اليه ، رغم ذلك كان يصر على استعمال هذا التعبير ، خاصة في مجال المباهاة والتحدي .

ان هذه الصفة في الحكيم لا تثير الجدل ، أما ان يكون خطيباً مفوهاً ، ان يحفظ الشعر ويورد الامثال ، وبعض الاحيان يورد الطرائف والقصص ، كل ذلك ضمن نبرة واضحة قوية ، ان هذا لم يعرف عنه، ولم يتصوره احد . حتى مدير المدرسة الذي نطق باسم الدكتور صبحي المحملجي بسرعة اثناء تقديمه ، وكأنه يريد ان يطمسه ، ما لبث ان دهش ، وعبر عن ذلك بهزات من رأسه ، وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك ، حين بدا الحكيم وسط هذا الجمع وكأنه الشخص الوحيد . أما الامير خزعل الذي لم يتعود على كلمات من هذا النوع ، وكان يفضل سماع القصص والقصيد على وعظ الدراويش كما كان يقول لبعض خلصائه ، حتى الامير ما لبث ان مسه السحر ، فأخذ بما كان يقوله الحكيم ، خاصة وان اسمه كنائب للسلطان وولي

للعهد ، حين يتردد ، كان الحكيم يشدد بقوة اضافية على مخارج الحروف .

لم تكن الكلمة طويلة حتى يملّ الناس ، ولم تكن قصيرة وكأنها واجب ثقيل . لقد اختار لها الحكيم حداً مناسباً ، وضمنها ثلاثة ابيات من الشعر ومثلاً واحداً . أما حين اوشكت على النهاية فقد ختمها بما يلي « وسوف تذكر حران بعد عشرات السنين ، مئات السنين ، هذا اليوم الاغر المحجل من ايامها ، يوم زارها ابن اعظم السلاطين ، مولاي الامير خزعل ، ويوم تكرمت يداه ففتحت انابيب الخير والبركة على هذا الشعب ، فتدفقت المحبة بين الناس ،وشملت الخيرات القاصي والداني وبدأت الحياة الهنيئة» .

« باسم حران ، باسم رجالها ونسائها ، شيبها وشبابها ، باسم الحاضرة والبادية ، باسم الامير خالد الذي لا يهدأ ليل نهار ، باسم جميع الحاضرين ، وباسمي شخصياً ، تقبل يا صاحب السمو الملكي اسمى آيات التقدير واعمق مشاعر الحب والولاء ؛ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

أما ما تلا ذلك ، خاصة عصر اليوم نفسه ، من احتفال في معسكر الاميركان بافتتاح الخط ، ثم الدعوة للعشاء التي اقيمت على شرف الامير في المعسكر ، والتي اقتصرت على عدد محدود من المدعوين ، بمن فيهم الدكتور صبحي ، ما تلا ذلك اتسم بنفس المقدار الكبير من الارتياح والاهمية والحفاوة . ورغم ان الكثير من التفاصيل الصغيرة ، من احاديث واسئلة ، وبعض القصص والامثال وابيات الشعر التي رويت ، سواء في دار الامارة اثناء الغداء ، او بعد ذلك في الخيمة الصغيرة التي اقتصر الحضور فيها على عدد محدود ، ثم في الليل ، في المعسكر وفي بيت الامير ، رغم ان هذه التفاصيل لا يذكرها احد ، ولا يعرفها الا عدد قليل من الحاضرين ، الا انها خلقت جسراً قوياً من المعرفة والثقة وحتى المحبة بين الامير خزعل والدكتور صبحي المحملجي . أما في اليوم التالي ، حين استعد الامير خزعل للعودة ، وبكثير من الارتباك الظاهر والحيرة الواضحة ، تقدم الدكتور صبحي من زيد الهريدي ، اقرب اعوان الامير خزعل ، وهمس في اذنه كلمات قليلة ، ضحك على أثرها زيد وقال بصوت عالٍ يريد الامير ان يسمعه :

ـ الامر امره . . والهدية لا ترد .

وحين التفت الامير مستطلعاً سحب الدكتور صبحي من بين يدي محمد عيد ، الذي كان يقف وراءه ، وعلى مسافة غير بعيدة ، سجادة صغيرة وقدمها للامير بتواضع ، فلما اخذها الامير ، وتطلع الى زيد الهريدي ، ثم تطلع الى الدكتور صبحي ، قال الحكيم :

ـ هدية متواضعة ، يا صاحب السمو . وقيمتها في ان تقبلها ، وهذا شرف عظيم لن انساه طوال حياتي .

قهقه الامير خزعل وقلّب السجادة وابدى اعجابه بها ، ولما سأله عن عمرها ومن اين اشتراها رد الحكيم بتواضع :

ـ هدية من جدي لابي ، ومن ابي اليّ يا صاحب السمو ، والآن ذهبت الى اعظم الرجال !

وفي المساء ، حين كان الحكيم يتذكر وقائع هذين اليومين مع مساعده ، لكي يرسخ هذه الوقائع فلا تضيع ولا تتوارى ، التفت محمد عيد فجأة نحو الزاوية التي تراكمت عليها قطع السجاد التي اشتراها الحكيم قبل فترة ، وتساءلت عيناه قبل ان يقول لسانه الجملة كاملة « يمكن يا حكيم اشترينا سجادة تشبه تلك التي . . . » رد الحكيم بسرعة وهو يشيح ببصره لكي لا تلتقي نظراته بنظرات مساعده :

ـ ولكن هذه غير تلك . . . صحيح ان بينهما شبهاً ، لكن الفرق من الارض للسماء !

مفضي الجدعان ليس فقط « الحكيم » لحران كلها قبل وصول الدكتور صبحي المحملجي ، بل وكان ايضاً « ملبي الحاجات » كما يطلق عليه . فحين لا يحتاج احد الى طبه وعقاقيره كان ينقل الماء الى البيوت ، ولما يتعب من هذه المهنة او يضيق بها يقوم بأعمال كثيرة لا تدخل تحت أسماء معينة او مهن محددة ، كأن يساعد الصيادين ، أو يركب البحر في سفرات قصيرة ، ولقاء اكله يساعده البحارة في التجديف ، أو يقوم بأية اعمال أخرى تطلب منه ، فاذا عاد مرة اخرى الى اليابسة يساعد البناءين والذين يقطعون الحجارة ، او يسرح بالابل او يذهب الى الفلاة ليجمع الأعشاب ، فاذا ملّ من هذه الأعمال كلها ، وكثيراً ما كان يقع ذلك ، يقتفي اثر الأرانب والوعول ، ويرجع ، أغلب الأحيان ، بحصيلة يعجب الكثيرون كيف تمكن من جمعها ، وهذه الحصيلة يوزعها بنفس طيبة ، حتى أنه كثيراً ما يبقى صفر اليدين فلا يذوق شيئاً مما جمعه بنفسه .

منذ جاء قبل سنين عديدة وحتى الآن لم يتغير شكله الا تغيراً قليلاً لا يكاد يلحظ ، فذلك الوجه الأقرب الى وجوه الأطفال ، بالضحكة الصافية الرنانة ، والعينين الجريئتين ، ثم تلك الأسنان الكبيرة البيضاء اللامعة ، وذلك الجسد الناحل الطويل ، وكأنه قدّ من صخر او من خشب قاس لا يعرف الانثلام ، جعله

بنظر الكثيرين شيئاً ثابتاً أزلياً مثل بئر حران أو مثل تلالها . حتى نساء حران اللواتي عرفن مفضي هكذا منذ أول يوم وصل فيه ، وينظرن اليه الآن يقلن من بين فجوات الأسنان :

ـ كأن امه فطمته البارحة ، أو كأن السنين لا تقترب منه .

ورغم انه قضى سنين طويلة في حران فأصبح واحداً من أبنائها أو أكثر من ذلك ، الا أنه لم يتزوج ، ولم يملك بيتاً ، ولا يتعدى ما بحوزته اشياء قليلة توضع جميعها في خرج متوسط الحجم ، وهي في الغالب ما يحتاجه في مهنته من أدوات الكي والفصد ، اضافة الى كميات من الأعشاب والعقاقير جعلها في صرر صغيرة محكمة الربط ، ويعرفها من ملمسها ، دون ان يضطر الى فكها ، فاذا اشكلت عليه بعض الأحيان ، لتشابه الصرر بشكلها أو بحجمها ، فان رائحتها تكفي ليقرر دون ما خطأ .

في وقت متأخر وبعد ان تغيرت حران كثيراً ، وجاءها خلق كثير ، كان الرجال يخرجون من جيوبهم قطعاً نقدية ويقولون لمفضي : « اذا عرفت قيمة هذه القطعة فهي لك » فيقلب مفضي القطعة المعدنية او الورقة النقدية ، ينظر الى الخطوط والرسوم باعجاب ثم يعيدها الى صاحبها ويقول : « اتريد الصدق ؟ والله لا أدري ! » ويضحك الرجال قليلاً ثم يحاولون مرة أخرى ويحصلون على نفس الجواب .

لم يتعامل مفضي في يوم من الأيام بالنقود ولا يخفي احتقاره لها ، كما لم يتعامل لقاء ما يقدمه من خدمات بمقابل . كان يغضب غضباً جامحاً اذا لوح له أحد انه سيدفع له أجراً ، اياً كان هذا الأجر . كانت الكلمات تخرج من بين أسنانه :

ـ يجي يوم تبيعون فيه الماء يا اهل حران . .

ويهز رأسه بلوعة ويقول وهو ينظر الى الأرض :

ـ استحوا واتقوا الله يا جماعة الخير .

ولأنه كذلك فان نظرة الناس اليه تختلف عن نظرتهم الى غيره ، وتعاملهم معه يختلف عن تعاملهم مع الآخرين . كان يدخل اي بيت من بيوت حران كأنه يدخل بيته ، ولا يتردد في طلب الأكل او اللبن . وحين يهترىء ثوبه او حذاؤه لا يتردد في ان يطلب بديلاً . صحيح انه لا يفعل ذلك بسرعة ، اذ يؤجل مرة بعد اخرى ،

فيخيط الثوب ويربط النعل ، فاذا وصل الحال درجة التلف الذي لا يجدي معه أي اصلاح كان يقصد الميسورين اكثر من غيرهم ، فيطلب الحذاء من واحد والثوب من آخر . وفي حالات كثيرة كان الناس يجنبونه الطلب ، او بكلمات أدق كانت خزنة تقوم بهذه المهمة ، وهي امرأة تشارك في معالجة المرضى ، خاصة الأطفال والنساء . كانت خزنة قبل غيرها ، رغم عينيها العمشاوين ، تعرف ان ثوب مفضي قد تمزق ، او ان حذاءه قد دب اليه التلف ، فتتولى تأمين ثوب او حذاء جديد ، كانت تفعل ذلك بكثير من المهارة ، ودون ان يحس احد ، حتى اذا قال أحد الميسورين لمفضي انه يريده لأمر هام ، وعليه ان يمر في اليوم ذاته ، يكون قد هيأ له ثوباً او حذاء . هكذا كانت تتم الأمور ، رغم تمنع مفضي ، ان كان في ثوبه او حذائه بقية من رمق .

هذا هو مفضي الذي عاش في حران كل هذه السنين ، فنسي الناس أنه جاء اليها كما جاء غيره ، ونسوا اكثر من ذلك ما يفترضون انه سبب مجيئه . أما لماذا لم يتزوج ولم يفتح بيتاً فقد ظل سراً يطوي صدره عليه ، وفي احدى المرات ، ونتيجة خطأ او سهو ، قالت خزنة ان امرأة تنتظر مفضي ، وأنها السبب وراء تركه لموطنه وأهله ، ولا بد ان يعود في يوم من الأيام .

قالت خزنة ذلك أمام زوجة ابن نفاع وأم عبد الله السعد ، وحين استفسرت المرأتان المزيد من الاستفسار تهربت خزنة من الاجابة ، ثم ما لبثت ان غيرت الموضوع . وفي مرة لاحقة انكرت أنها قالت ذلك مدعية انه مجرد احتمال او تقدير من عندها . أما حين سأل ابن نفاع مفضي ما اذا كانت وراء مجيئه امرأة فقد اصفر وجهه وبدا شديد الاضطراب ، وأنكر انكاراً تاماً ان يكون بشر ، رجل او امرأة وراء مجيئه . . ومثل عادته دائماً غيرّ الموضوع !

هل يمكن أن يكون هذا هو السبب وراء العداء الصامت بين الرجلين ؟ وهل ما بينهما عداء أم مجرد جفوة ، أو عدم تطابق النجوم كما يقول مفضي ؟ ابن نفاع يقول ان مفضي لا يعرف الله ، لأنه لا يصوم ، وحتى الصلاة اذا استطاع أن يهرب منها لا يتردد . ففي شهر رمضان يركب البحر أو يخرج الى الفلاة . فاذا سئل لماذا لا يصوم يجيب أنه على سفر ! أما اذا حان وقت الصلاة فكثيراً ما يشغل مفضي نفسه بأمر من الأمور لكي يهرب من هذا الواجب ، فاذا لم يستطع كانت صلاته قصيرة مختصرة ،

ويكون أول الخارجين من المسجد ، وغالباً ما يلتفت وراءه خوف ان يقبض عليه أحد .

لم يتغير مفضي رغم أن حران لم تتوقف يوماً واحداً عن التغير . فالبدو الذين جاءوا من جهة الصحراء ، عن طريق عجرة ، لم يترددوا في سؤال مفضي واللجوء اليه اذا ألمّ بهم المرض . كانوا يذهبون اليه أو يبعثون وراءه حالما يحسون بالتوعك او الألم . كانوا يعرفون الأعراض في بداياتها ، فاذا لم يعرفوا علاجها او لم يملكوا الدواء المطلوب يخفّون اليه مسرعين قبل ان تقعدهم الأوجاع أو ترهقهم . أما الحضر الذين جاءوا على نفس الطريق ؛ ولكن من أماكن بعيدة ، ولم يألفوا هذا النوع من العلاج ، فكانوا يترددون في اللجوء الى مفضي أو استشارته ، ولم يخف بعضهم سخريته منه ، لكن مع تزايد الألم وانحطاط القوى ، ونتيجة الارهاق الذي ما يني يزيد ساعة بعد اخرى ، يوماً بعد آخر ، لا يجدون مفراً من اللجوء اليه والامتثال لما يطلبه . هذان النوعان من البشر هما اللذان قامت بينهما وبين مفضي علاقة من نوع ما . واذا كان البدو لم يشكّوا ولم يترددوا ، فإن الحضر ظلوا كثيري الشكوك فيما يصفه لهم من العلاجات ، بل وكانوا ينسون بسرعة العلاجات التي شفتهم أو المرات التي شفوا فيها ، ويتذكرون ما سواها . فيكيلون لمفضي أقذع الشتائم وأقساها ، واصفينه بالأهبل والدجال ، ومعتبرين أنفسهم أخف عقلاً منه لأنهم صدقوه ووافقوا على تجرع تلك الأدوية المرّة التي وصفها .

أما الذين جاءوا من وراء البحر ، أو عن طريق البحر ، فلم يعرفوا مفضي في البداية ولم يحفلوا به بعد ذلك ، لأنهم جاءوا ومعهم اطباؤهم وأدويتهم . والفقراء منهم الذين لا يعرفون الأطباء كانوا يحملون معهم في زجاجات صغيرة ملونة او خرق مربوطة باحكام الأدوية التي يحتاجون اليها . والمرات القليلة التي رأوا مفضي في السوق ، قرب الجامع أو قرب فرن عبده محمد ، يكوي بعض المرضى كانوا يشيحون بوجوههم عنه ، ويخافون منه خوفاً حقيقياً ، بل وكان بعضهم لوقت غير قصير يتلفت وراءه . وروى عدد منهم أن كوابيس قاسية سوداء لاحقتهم في ليال كثيرة بعد أن شهدوا ما قام به مفضي في السوق ، وكانوا دائماً هم الضحايا في هذه الكوابيس .

أما خزنة الحسن ، شريكة مفضي في هذه المهنة الشاقة ، فقد اتقنتها على كبر ،

وبعد وصول مفضي بعدة سنوات ، ويقال انها أقل كفاءة منه ، وهي تهتم بالنساء والأطفال ، وتعالجهم على قدر معرفتها ، إضافة الى المساعدات التي تقدمها للنساء اثناء الوضع ، خاصة في الفترة الأخيرة ، بعد أن تغيرت الحياة في حران . وكانت أيضاً تجلس الى جانب المحتضرين من الرجال والنساء ، لتذكرهم بالشهادة ، ولكي تنقّط الماء في حلوقهم . ولا تتردد اثناء ذلك في قراءة بعض السور القصيرة التي تعرفها من القرآن . كانت تقرأ بصوت خافت مدغوم ، وقد قال ابن نفاع اكثر من مرة ان خزنة لا تعرف من القرآن الكريم حتى سورة الحمد . ولذلك تكون قراءتها بهذا الشكل الغامض المتداخل ، لكي لا يميز احد الخطأ من الصواب . لكن رغم ذلك فان اخطاء من هذا النوع كان يغفرها الجميع ويتناسونها بسرعة ، لأن مجرد ذكر الله عند رؤوس الذين يحتضرون يخفف عنهم ويجعلهم ينتقلون الى الدار الآخرة براحة ونفس مطمئنة وربما دون ذنوب ايضاً .

لم تكن خزنة تتردد في طلب الأدوية من مفضي او استشارته في حالات معينة ، بل وكانت ترفع يدها عن المريض اذا قدّرت انها لا تستطيع افادته او شفاءه . وكانت تؤكد بالحاح ان « اخو الجهرا » تعني مفضي ، وحده القادر على معالجة هذه الحالة . واغلب المرات كان يستجاب لطلبها . أما تلك النسوة اللواتي وفدن في الفترة الأخيرة ، ولا يعرف ما اذا كن حضريات أم بدويات ، فلم يكن ليستحين لمثل هذا الطلب ، ولذلك كان مفضي يعاون بطريقة غير مباشرة ، ببعض الشروح والايضاحات التي تمكّن خزنة من مواصلة مهمتها ، وما كانت لتفعل او لتواصل هذا العمل لولا النذر الذي نذرته بعد ان غاب ابنها ، اي بعد ان ركب البحر ومرت الأيام تبعتها الشهور ثم اعقبتها السنوات ، ولا يأتي منه أي خبر . فقد نذرت خزنة الحسن ان تعالج المرضى وان تبذل اقصى ما تستطيع الى ان يعود ابنها ، وما تزال تمارس هذه المهنة بانتظار عودته .

* * * *

كان من السهل ، او على الأقل من الممكن ، ان تحتمل حران الحكيمين : مفضي الجدعان وصبحي المحمصجي . فالناس يتزايدون يوماً بعد يوم ، وأغلب الذين يترددون على مفضي لا يفكرون بزيارة الحكيم الجديد أو التعامل معه . أما أولئك الذين رحبوا بصبحي المحمصجي وفرحوا لمجيئه ، وكأنهم كانوا ينتظرونه ،

فانهم قد بدأوا يملون مفضي قبل وصول الحكيم الجديد بشهور طويلة ، بل ان اكثر الذين كانوا لا يترددون في تقديم الثوب او الحذاء لمفضي ، قد توقفوا عن ذلك ، لأن مفضي الذي لا يعرف المال ولا يتعامل به ، بل ويحتقره ايضاً ، لا يميز ما اذا كان المال يعنيه أم يعني الآخرين . فما كاد المال في حران يزيد ويتدفق بين أيدي الكثيرين حتى تغير مفضي تغيراً عجيباً ، وهذا التغير يزداد ويكبر ما زاد المال وما كثر . ومفضي الذي تعلم السكوت خلال السنين الطويلة ، لم يستطع ذلك بعد الآن .
أما خزنة الحسن التي شعرت قبل الآخرين وأكثر منهم أن مفضي الجدعان بدأ يسلك طريقاً خطراً ، فقد كانت على يقين أن هذا الطريق له اتجاه واحد : القضاء على مفضي ، لأن الذين يتحداهم ويشتمهم اقوى منه ! لم تستطع ابداً ان تفهم لماذا اصبح مفضي مجنوناً هكذا . قدرت بنوع من الغموض انه لم يعد يحتمل ، وان ذلك الحنين الذي طالما كتمه حتى كاد ينسى ، كان اقوى مما تصورت وأقوى مما افترضت ، ولا بد ان يكون هو السبب في هذا التغير الذي طرأ عليه .

قالت له ذات يوم ، وقد رأت رأسه معصوباً من أثر جرح :

- ولد الحرام دحام ما يوفر ابوه ، قتل ابن الراشد وقال : مات موت الله ، وانت رايح تناطح دحام وغير دحام .. اترك البشر يا رجال .

وحين هز رأسه ، ولم تفهم ما اذا كان يعني الموافقة أم التحضير لجولة جديدة ، قالت بمكر :

- اذا كانت البل طلبت اهلها والقلب ما يحمل ... اقصد الله ، يا محروس .

ضحك مفضي ساخراً ولم يجب .

لقد حصل هذا بعد أن أرسل دحام رجالاً ضربوا مفضي وأدموه ، لأنه تجرأ وقال ان دحام يسرق الناس ، يسرق العرب والأميركان ، يسرق الأحياء والأموات . بعد هذه الحادثة ضرُب مفضي مرة أخرى في السوق ، ولم يُعرف ما إذا كان صالح الدباسي وراء ذلك أم محيي الدين النقيب ، لأن مفضي شتم الاثنين ، وقال عنهما كلاماً قاسياً . وفي مرة ثالثة سرُق من مفضي الخرج الذي يضع فيه كل شيء ، وبعد يومين وجد الخرج مطروحاً قرب الجامع ، وكل ما كان فيه من عقاقير وأدوية تالفاً وقد

اختلط بالتراب .

لم يقتصر الأمر على ذلك . فقد ذكر بعض الرجال الذين وصلوا حديثاً من عجرة ، وكانوا يعملون عند دحام ، ولم يكونوا قد عرفوا مفضي بعد ، ذكر هؤلاء ان مفضي هو الذي تسبب بموت تركي المفلح .

ومفضي الذي يسمع ما يقال فتنفتح عيناه على اتساعهما دهشة واستغراباً وخوفاً لا يتصور ان تصل الدناءة بهؤلاء الأغنياء لترويج هذه الأخبار الملفقة الكاذبة . وبدل ان يتراجع ويحترس فانه يندفع مثل ثور : « يا أهل حران ، الحاضر يبلغ الغايب ، ابن جدعان مثل ما كان ، لا يغدر ولا يخون ، وما له بهذه الدنيا شي ولا يخاف الا رب العالمين . يا أهل حران الفلوس خرّبت قبلكم كثيرين ، خرّبت دول وممالك . الفلوس اذا انعبدت استعبدت وما أسعدت ، وبعيونكم تشوفون . ناظروا دحام وابن دعيج وابن فرحان ، ناظروا النقيب وابن سيف والسلامي ، الواحد ياكل ابوه ، ويقتل امه وأخوه ، لكن لا شيء يدوم ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم ، وباكر بعيونكم تشوفون ، والله والله لأظل وراهم حتى ألعن والديهم وأبا وهم . . والأيام بيننا » والناس الذين يسمعون ما يقوله مفضي الجدعان لا يفهمون هذا الجنون الذي طرأ عليه فجأة ، ولا يجدون له سبباً أو تفسيراً .

هكذا كان مفضي الجدعان حين وصل الدكتور صبحي المحملجي : حانقاً ، مستثاراً ، وكان حائراً ايضاً . لا يعرف كيف ترتفع البيوت وتُشترى الأراضي وتملىء الجيوب بهذه السرعة . يحس ، دون دليل واضح ، ان الكثيرين لا يعملون شيئاً سوى السرقة ، يسرقون حين يشترون ، ويسرقون حين يبيعون . فلما رأى الدكتور وحوله هؤلاء الأغنياء السراق ، ثم لما عرف ان هذا الرجل جاء ليبقى في حران ، ويريد ان يتقاضى أجوراً لقاء المرض والموت ، لم يصدق ابداً . أما حين افتتح الدكتور صبحي عيادته وبدأ يستقبل المرضى ويوزع عليهم تلك العلب الملونة ويتقاضى لقاء ذلك أجوراً لا يمكن للعقل ان يصدقها ، فقد تأكد ان سارقاً جديداً يضاف الى الذين كانوا من قبل ، ومن أجل أن يمنع السرقة اخذ ذلك المكان ، قريباً من عيادة الدكتور صبحي ، لعله يستطيع شيئاً . والدكتور الذي أراد أن يبدأ بداية قوية ، كان يفترض ان ازالة العوائق من الطريق ، بحذف اولئك الذين يمكن ان يشكلوا تهديداً ، أمر أساسي جداً . وحين بدأ مفضي الجدعان لم يتردد الدكتور في

أن يصفه بالدجال ، وبدأ ، خفية ، يحرض ضده . كان بطريقة مليئة بالمكر يسخر من أولئك الذين يقتلون الناس بحجة معالجتهم ، دون ان يسمي مفضي بالذات . كان يتحدث عن الميكروبات والالتهابات وأشياء أخرى كثيرة ، أما الذين يستمعون اليه فكانوا لا يفهمون أغلب ما يقوله ، لكن ما دام المعني هو مفضي فانهم يوافقون ، ويضيفون الى ما قاله الحكيم اشياء اخرى كثيرة .

لم يظهر الدكتور صبحي في هذه الحرب أبداً . كان يكتفي بالتحريض ، وغالباً ما يكون تحريضاً خفياً ، لان من المبادىء الأساسية التي يؤمن بها : « الحرب المتكافئة ، حرب الأنداد ، لان مثل هذه الحروب وحدها التي تشرّف المتحاربين ، حتى الذين يخسرون . أما الحرب غير المتكافئة فان المنتصر فيها مهزوم ايضاً ». كان يقول هذا لنفسه ويضيف وهو يبتسم حين يتمثل له وجه مفضي الجدعان « ومن كان عنده خادم يجب أن لا يوسخ يديه ! » وتمر في مخيلته صور أولئك المسعورين الذين يريدون ان يقضوا على مفضي اليوم قبل الغد ، فيبتسم ويستمر في التحريض .

لكن بمرور الأيام ينسى الدكتور صبحي ، أو يجبر نفسه على نسيان مفضي الجدعان ، وحين التقى به اثناء وصول الامير خزعل لافتتاح خط الأنابيب ، تجاهله تماماً ، رغم انهما تقابلا وجهاً لوجه . كانا أول الأمر متقاربين ، أما حين قال له عبد الله السيف :

- تراك اذا قرّبت خطوة ثانية ، يا حكيم ، لا بد ابن جدعان فاصدك أو كاويك !

فقد التفت الطبيب بطرف وجهه نحو مفضي وضحك ساخراً وتحرك . أما بعد ذلك حين تعذر على مفضي ان يسلّم على الأمير ، حين دفع مع كثيرين غيره ، فقد احس الحكيم باهمية اضافية ، وزادت هذه الاهمية حين وصلته بعد شهرين او ثلاثة شهور من تدشين الخط ، هدية الأمير خزعل ، وهي عبارة عن سيارة خضراء . لقد كانت هذه الهدية بمثابة بداية الموت الحقيقي لمفضي الجدعان .

فالدكتور صبحي الذي كان يحسب ، حتى لو لم يعلن ، من مفضي الجدعان ، وكان يحرّض ضده ، نسيه نهائياً في هذه الفترة لانشغاله بأمور اخرى اكثر اهمية ، فالأرض الكبيرة التي كانت للسلامي على طريق معسكر الأميركان ، ناحية الشمال ، بدأت تقوم عليها ابنية غريبة ، قيل في البداية انها للشركة ، لكن حين شوهد الدكتور صبحي هناك عدة مرات ، اضافة الى التوجيهات التي كان

يعطيها بصوت عالٍ ، فقد تأكد الجميع ان البناء يخصه ، وتأكد هذا اكثر حين وضع السقا لافتة على مفرق طريق المعسكر ـ دار الامارة ، كتب عليها : « مستشفى الشفاء » ووضع سهماً باتجاه الشمال ؛ عند ذاك لم يبق شك عند احد ان البناء الذي يشاد هناك يخص الدكتور صبحي المحملجي . وفي هذه الفترة سافر الدكتور مرتين أو ثلاث مرات . لم يعرف الناس الى اين ، لكن حين عاد من احدى السفرات كان معه مجموعة من الأشخاص . وقد استنتج الكثيرون نوعاً من القرابة لشدة الشبه بينهم . وما كادت اسابيع تنقضي حتى افتتحت « صيدلية الشفاء » ، وغير بعيد عنها افتتح الدكتور وصفي الآغا عيادة لمعالجة الأسنان . ويؤكد مدير المدرسة ان وصفي كان مجرد مساعد طبيب أسنان في حلب ، وقد عرفه هناك ، ولا يعقل ان يكون قد درس طب الأسنان بعد أن تجاوز الخمسين ! ورغم أن الكثيرين سمعوا ما قاله المدير ، الا ان « الدكتور » وصفي بدأ يستقبل المرضى في مطلع الشتاء ، وكان من اوائل الذين زاروه الأمير خالد ، اذ صنع له اسناناً ذهبية في مقدمة حلقه ، وقد لفت نظر الناس كثيرا !

وفي هذه الفترة تزوج من جديد عدد من الاغنياء . لقد فعلوا ذلك في فترة واحدة تقريباً ، او بكلمات ادق خلال الشتاء ذاته ، وكأنهم كانوا على اتفاق فيما بينهم ، لان عادة حران ان تتحدث عن مثل هذه الامور قبل وقت طويل ، وان تمتلىء بالقصص والحكايات ، وان تسري فيها الاشاعات ايضا ، الا ان الامور سارت خلافاً لذلك هذه المرة ، فما كاد الشتاء يبدأ الا وبدأ زواج الكبار ، كان اكثرهم اصدقاء الدكتور صبحي ، وكان ضمنهم او اولهم الأمير خالد نفسه . وما لفت النظر ان هذه الزيجات تمت دون ضجة ودون احتفالات ، خلافاً لما حصل من قبل ، لكن ذلك لم يمنع الكثيرين من الحديث عن الأمر في مجالسهم الخاصة ، وقد استنتجوا ايضاً علاقة من نوع ما بين الذي حصل والدكتور صبحي .

وفي هذه الفترة ايضا لبس جوهر الملابس العسكرية . لقد بدا شديد الغرابة ، حتى ظن الكثيرون ان الامر مجرد مزحة من المزحات ، فالرجل القصير الذي جاء بعد شهرين او ثلاثة شهور من سفر الأمير خزعل في السيارة الخضراء ، ترافقه سيارة بيك أب فيها اثنان من العسكريين ، والذي سأل باحترام مشوب بالخوف عن دار الامارة ، وتوقع الذين رأوه شيئاً غير عادي ، ما لبثوا أن عرفوا في اليوم التالي : فالسيارة الصغيرة كانت هدية ولي العهد للدكتور صبحي . أما البك أب المغطاة

فكانت تحوي مجموعة من الملابس العسكرية والبساطير والمستلزمات الاخرى من القياطين والخرق الملونة والاشارات المعدنية واشياء اخرى كثيرة . وكانت مهمة الرجال الثلاثة انشاء الوحدة العسكرية ؛ مهمة القصير الاشراف الاداري ، أما العسكريان فقد قاما بتسليم « اللوازم » الى دار الامارة ، بموجب ايصالات رسمية ، ثم أشرفا على اخراجها مرة اخرى وتوزيعها على « مفرزة الامارة » كما سمي رجال الأمير . وخلال ثلاثة ايام من الجهد الشاق والمستمر ، والذي لم يتوقف الا في الليل ، تكونت مفرزة الامارة .

كان منظر الرجال وهم يتدربون مقبولاً ، أما حين ارتدوا ملابس الاحتفالات والاستعراض فقد اصبح هذا المنظر مثيراً للضحك والاستغراب ، فالالوان الكثيرة والشارات المعدنية والقياطين ، اضافة الى الاحذية الثقيلة ، كل ذلك جعل حركات هؤلاء الرجال مرتبكة متداخلة ، واقرب ما تكون الى اللعب او الى حركات اطفال لا يعرفون ماذا يفعلون . وقد تأكد ذلك في اليوم الثالث حين جرى « احتفال استلام المهمات » كما اطلق على الحفل الذي اقيم عصر ذلك اليوم وحضره الأمير .

لقد كان احتفالاً تحدثت عنه حران وقتاً طويلاً ، فالجنود استعدوا منذ الصباح ولبسوا ملابس الاحتفال الملونة والمزينة بالشرائط ، أما جوهر فبدا في مقدمة المفرزة مثل طاووس بملابسه المزركشة الفضفاضة ، وقد علّق على صدره مجموعة من النياشين والخيوط الملونة ، ووضع تحت أبطه عصا لم يُعرف ما اذا جاءت مع « اللوازم » واستلمها جوهر « عهدة » كما استلم الاشياء الاخرى ، ام عثر عليها في مكان ما . حين بلغ الاحتفال ذروته ، وكان الصمت شاملاً والعيون كلها تشخص نحو الامير الذي وقف على باب دار الامارة ، منتظراً تقديم المفرزة ، في هذه اللحظة سقطت عصا جوهر فارتبك ارتباكاً شديداً ، ولم يعرف ما اذا كان عليه ان يلتقطها ام ان يتركها ويستمر في التقدم نحو الأمير . وحين قرر التقاطها انحنى بشكل مفاجىء وسريع فتعثر بثوبه وسقط ! كانت لحظة متوترة قاسية اثارت من الضحك بمقدار ما اثارت من الشفقة ، فلما وقف مرة اخرى ، وقد تعفرت ثيابه وغسله العرق ، التفت الى المفرزة وراءه ، وكانت قد ارتبكت تماماً ، قال بانفعال وكأنه يتعارك :

ـ مفرزة . . مكانك سر .

وحاول من جديد ان يرمم المفرزة ، ان يعطيها نسقاً منظماً يمكنّها من الوصول الى

الأمير على احسن وجه ، فلما بدا له ان هذا قد تحقق بعض الشيء ، صرخ كأنه يؤذن :

ـ مفرزة . . قف . استرح ، استعد ، مفرزة . . الى الامام سر .

قامت المفرزة بكل ما طلب منها ثم سارت ، حتى اذا لم تبق الا خطوتان او ثلاث من الأمير صرخ بصوت اعلى من كل المرات :

ـ سلام خذ .

وارتفعت الايدي بالتحية للأمير ، الذي ابتسم بدوره ابتسامة كبيرة اظهرت اسنانه الذهبية اللامعة . وخلافاً للتعليمات تقدم جوهر نحو الأمير وصافحه ، أما حين انحنى عليه الأمير يقبله فقد دفن جوهر وجهه في صدره ، فظهرت العصا وراء ظهر الأمير وبدا كما لو ان جوهر يضربه ، وقد سمع عدد من الذين كانوا يقفون قريباً من الاثنين ، ان الأمير ، بعد ان رفع جوهر رأسه ، يقول له « عصاك ، يا جوهر ، مثل عصا موسى !» وقد ابتسم الجميع بمن فيهم جوهر نفسه ، أما وهو يتراجع ووجهه نحو الأمير ، فقد وضع العصا من جديد تحت ابطه ، لكن شدّ عليها بقوة ، ولما اصبحت المسافة ، مرة اخرى ، اربع او خمس خطوات صرخ :

ـ مفرزة . . الى اليمين در .

فلما دارت ودار معها علا في تلك اللحظة التصفيق ، وقد شارك فيه الجميع ، حتى الأمير نفسه ، وكان ذلك اليوم بداية تكوين « جيش البادية » .

قال مفضي الجدعان بعد هذا اليوم بسنة او اكثر قليلاً ، قال لنفسه وهو في تلك الغرفة المظلمة ، اسفل الدرج : « سبحان الله ، دنيا عجب ، اعجب مما يتصور البني آدم ، كل شيء فيها تغير ، لكن اكثر من تغير هم البشر » هز رأسه وهو يتذكر ، ثم مد يده الى صدره يتلمس الجرح ، فلما آلمه اكثر من قبل قال لنفسه « واكثر ما يغّير الناس البذلة والفلوس . . . » وكاد يضيف كلمة اخرى ، لكنه خجل منها !

كان مفضي يتذكر جوهر ، يتذكره يوم وصل مع الأمير خالد ، ويتذكر يوم مرض وكواه ، ولما مرض مرة اخرى وفصده . ويتذكر حين عالج الجرح في ساقه ، لكن الارناؤوطي لم يمهله ، جاء يصرخ ويشتم ، ونقل الذين كانوا موجودين آنذاك ، ان

الدكتور صبحي ، وهو يكشف على الجرح كان يصرخ : « الدجال الذي داواه لازم تكسر يده ، يجب ان يقضي حياته في السجن ، لانه قتل الرجل ، وحتى لو عاش يمكن ان تقطع الساق كلها » يتذكر كل هذا ويتذكر بعد ذلك لما اصبح جوهر يلبس الملابس العسكرية ويحمل عصا . كان اول الأمر يتكلم مع الناس ، يجلس في المقهى او في بعض الدكاكين . كان يبتسم للصبية وهم يتطلعون باعجاب الى ملابسه العسكرية ، ولم يكن يمانع في ان يمد بعض الرجال ايديهم لكي يتلمسوا القياطين الملونة او الشارات المعدنية . كان يبرز صدره بفخر وتعالٍ لكي يمكّن الذين يريدون ان يتأكدوا من نوعية القياطين او من ثقل الشارات المعدنية ، كما انه اعطى عصاه لكثيرين لكي يروزوها ويختبروا ما اذا كانت من خشب او معدن . هكذا كان جوهر في البداية ، لكن جوهر تغير « غيّرته ، بنت الكلب ، البذلة » هكذا قال مفضي الجدعان لنفسه . اصبح يوماً بعد آخر يقطب وجهه ، ولا يتكلم الا اقل الكلمات . أما حين يجلس في المقهى ، بين فترة واخرى ، فكان يدخل بابهة ويتطلع في الوجوه بطريقة عدائية او ساخرة . اصبح يجلس مع مجموعة محدودة ، خاصة من الاغنياء والوجهاء « البذلة خربته ، خربته تماماً ، صارت مثل البردعة على روحه » صار اذا مر في السوق لا يتطلع في الوجوه مباشرة ، واذا رد التحية يردها باختصار وسرعة . صار يصرخ ، ولا يتردد في ان يضرب . أما عندما خُصّص جناح في دار الامارة « لجيش البادية » واصبح مقراً لجوهر ، فقد تغيرت الامور تماماً : اصغر جندي ، الجندي الذي لبس البذلة بالامس ، صار مثل جوهر . صار الجنود يمشون في السوق وبايديهم العصي ، ولا يترددون في ضرب اي انسان لاقل الاسباب ، لاتفه الاسباب . أما جوهر نفسه فلم يعد يراه احد . اصبح يقضي معظم وقته في « المقر » ، هكذا اطلق على جناح جيش البادية ، وحين اكتملت البناية التي اقيمت لجيش البادية ، قريباً من دار الامارة ، فقد اطلق عليها اسم « القيادة » . كانت القيادة مؤلفة من طابقين ومستودع ، وهذا المستودع الذي ينزل اليه الانسان بدرج طويل مظلم ، نزل اليه مفضي الجدعان مرتين من قبل ، والآن هذه هي المرة الثالثة .

كان مفضي الجدعان اول سجين في حران . صحيح ان نائب الأمير حاول ان يسجن هاجم وخاله قبل بضع سنين ، لكن لم يكن هناك اي مكان يصلح لان يسمى

سجناً . الآن ، وفي هذا المستودع الذي تراكمت فيه اشياء كثيرة : الارزاق واللوازم واطارات السيارات والحطب والبراميل ، جُعلت فيه غرفة ، وهي الأخيرة ناحية اليمين ، سجناً .

كان جوهر محرجاً لما جيء بمفضي اول مرة . صحيح انه ظل جالساً وراء الطاولة ، وكان عاري الرأس ، لكنه لم ينظر في وجه مفضي الا مرة او مرتين . قال له وهو يتطلع الى الارض ، ان لديه اوامر بسجنه ، وانه لا يستطيع الا ان ينفذ الاوامر . ومفضي الذي ظل يتطلع بالحاح الى جوهر ، ويتمنى لو يرى عينيه ، ابتسم حين سمع الكلمات التي قالها له ، ولما أخذه اثنان من الجنود الى المستودع ، الى السجن ، قال جوهر وهو يقف :

ـ إن شاء الله كم يوم وتنتهي القضية على خير :

لم يعلق مفضي وظل يبتسم . أما القضية التي تمنى جوهر ان تنتهي خلال ايام فلم تنته الا بعد اربعين يوماً ، وكانت التهمة : شبهة سرقة ، المتهم : مفضي الجدعان . اذ بعد ان سرق محل حسن رضائي ، اكد اثنان من الرجال الذين يعملون في هذا المحل انهما شاهدا مفضي الجدعان يدور حول المحل خلال يومين متواليين ، وقد حصل هذا قبل السرقة بيوم واحد .

المرة الثانية التي نزل فيها مفضي الى السجن ، الى تلك الغرفة اياها ، كانت اثر مشادة بينه وبين صالح الدباسي . اوقفوه ولم يوقفوا صالح . قالوا ان مفضي هو المعتدي ، رغم الكدمات والجروح التي اصيب بها ، والتي ظلت ظاهرة تحت عينه اليسرى لمدة اسابيع. أما صالح فقد وافق اخيرا على ان يفرج عنه ،وكفله ابن نفاع ، وقد حصل هذا بعد ثلاثة اسابيع . وحين افرج عنه قال له جوهر ، وكان غاضباً حانقاً :

ـ كثرتْ طلايبك يا ابن جدعان . كل يوم والثاني لك مشكلة ، وهذه المرة اذا وافقنا على كفالة ابو عثمان وطلعت ، المرة الجاية تظل تنكز تحت الى ان تتكسر عظامك .

لم يصدق مفضي ان الكلام موجه اليه ، وحين اراد ان يتكلم ، قال جوهر بنزق وهو يدير وجهه ويهز يده :

ـ خلصنا ، اسكت ، واذا تكلمت اية كلمة تنزل تحت .

والتفت الى ابن نفاع الذي كان يتابع كل شيء وقال له :

ـ لولا انك عزيز علينا ، يا ابو عثمان ، لكان هذا الخبل ما يطلع .

الآن ، المرة الثالثة التي ينزل فيها مفضي الى السجن ، الى الغرفة الأخيرة ، ناحية اليمين ، لانه « مشرد » ! هكذا وصفه الدكتور صبحي المحملجي ، اثناء الحديث الذي جرى بينه وبين الأمير ، حينما كان هذا الأخير يفتتح جناحاً جديداً في « مستشفى الشفاء » . لقد جرى الحديث عرضاً . كان الدكتور يستعرض مع الأمير ذكرياته منذ اللحظة الاولى التي وصل فيها الى حران « لم يكن في حران ، ذلك الوقت الا ذاك الدجال . . . لقد نسيت اسمه ، كان يقتل الناس بالادوية التي يعطيها ، وكان يصرخ ويشتم عندما بدأنا الطب الحديث . . . الآن خلصت حران من هؤلاء المشردين ، وهذه المستشفى دليل على ذلك » . لقد راقت كلمة « مشرد » للأمير ، ولم تمر ثلاثة ايام ، وحين نقل احد الناس ان مفضي الجدعان يجلس في مقهى ابو اسعد الحلواني ويقول ان الارناؤوطي ، يقصد الطبيب ، جمع فلوسه بالحرام ، وان المال الحرام مصيره الحريق او الغريق ، ما كاد هذا الكلام يصل الى دار الامارة حتى جاء الامر الى جوهر بان يقبض على هذا « المشرد » الذي لا عمل له الا شتم الناس . ورغم ان جوهر لم يفهم معنى كلمة مشرد ، ولم يتصورها على نحو واضح ، الا انه نفذ الامر في اقل من ساعة ، ونفذه بطريقة لائقة ، اذ كلف الجنود الذين ذهبوا لاحضار مفضي الجدعان ان « يتوصـوا » به قبل ان يصل الى القيادة . وفهم الجنود هذه التعليمات بدقة ، لان مفضي حين وصل كان بين الحياة والموت . لقد تلقى من الضرب والجر والاهانة ما لا يتحمله شاب في مقتبل العمر . تلقى ذلك صامتاً ، فقد كان مستوعباً الامر بدقة ويعرف الاسباب اكثر مما يعرفها الذين يكيلون له الضرب . وبعد شهر ، حين جيء به ، وقد ربطت يداه خلف ظهره ، لمقابلة جوهر ، فقد سمع كلاماً لم يتصور ان جوهر يعرفه ، او يمكن ان يقوله له . وبعد هذا الكلام اعيد ، مرة اخرى ، الى السجن . لم يسمح له ان يقول كلمة ، لم يُسأل ، وحين حاول ان يتكلم جاءته ضربة خيزرانة على كتفه وجزء من ظهره جعلته يصرخ ، أما وهو ينزل الدرج ، وكان يُدفع دفعاً ، مما ادى الى وقوعه ، فكان صوته يهدر مثل حيوان جريح « ديار الظالمين تاليها الخراب ، ابشروا يا اولاد الكلب ، دياركم تاليها الخراب ، والله لالعن ابوكم وابو جوهر وابو اللي لبّسه البردعة » وظل يصرخ ويشتم

بعد مرور وقت طويل على اغلاق الباب عليه !

ستة شهور وبضعة ايام في السجن ، وبعدها افرج عنه . كفله ابن نفاع مرة اخرى . لم يقابله جوهر ، قابله احد مساعديه ، رجل حضري صغير السن ويبدو بوجهه الحليق وكأنه فتاة . . قال له :

ـ خلال اسبوع واحد اما ان تعمل في المحجر او تترك حران .

قال هذه الجملة القصيرة الواضحة وتوقف . نظر اليه بلؤم وحقد ، وكان يريده ان يترك الغرفة في اسرع وقت . ومفضي الذي كانت عيناه تؤلمانه اشد الالم ، حتى لا يكاد يرى بهما ، لا يعرف ماذا يقول . كانت الامور مختلطة عليه الى اقصى حد ، وكان يشعر بالتعب الى درجة الارهاق . وابن نفاع الذي ظل يقلب نظراته بين هذا الشاب الذي لا يعرفه ولم يره من قبل وبين مفضي الذي بدا عجوزاً فانياً ، وقد هدّته الشهور التي قضاها في ذلك المكان المظلم ، لا يعرف ماذا يفعل .

بعد صمت بدا طويلاً للثلاثة سأل الشاب من جديد :

ـ ها ما هو قولك : المحجر او تترك حران ؟

ولم يتكلم مفضي ، قال ابن نفاع لينهي هذه اللعبة الكئيبة :

ـ خلص . . انا كفيل ، وكّل الله يا وليدي وما يصير الا الخير .

وخرج مفضي متعثراً بخطواته ، فوضع ابن نفاع يده تحت ابطه لكي يساعده على السير وليحميه من السقوط !

لم يذهب مفضي الجدعان الى المحجر ولم يغادر حران أبداً . لقد كان هو نفسه متأكداً أنه لن يفعل ، وكان الجميع متأكدين أيضاً . حتى جوهر الذي أوعز الى مساعده أن يطلب منه العمل في المحجر أو مغادرة حران كان متأكداً أن مفضي الجدعان لن يمتثل لهذا الأمر . أما أبو عثمان الذي استدعي الى القيادة في اليوم الثالث ليسأل من قبل الشاب ذاته ما اذا كان مفضي سينفذ الأمر أم لا فقد رد بنوع من الغضب :

ـ يا عباد الله ، يا جماعة الخير ، قلتم أسبوع ، واليوم . . . الثالث ما صار .

قال الشاب الحليق الضامر وهو يبتسم بتحدٍّ :

ـ أنت كفيله ، إذا مر الأسبوع والأمر ما نفّذ . . أنت وإياه ضيوفنا !

ـ يا وليدي . . لا تشيخ ، ترانا كلنا ضيوف بهذه الدنيا .

ـ الأوامر هي الأوامر .

ـ وكّل الله ، يا ابن الحلال ، والأمر لرب العالمين .

ـ بسيطة ، خلي الأسبوع ينقضي ونشوف .

وخلال هذا الأسبوع حصلت اشياء كثيرة لا يمكن أن تحصل في أسبوع غيره .

فبعد أن قضى مفضي الجدعان يوماً واحداً في الفراش ، نهض في اليوم التالي انساناً آخر . استحم ولبس الثوب الجديد الذي قدمه اليه أبو عثمان ، وجلس في الحوش يستقبل الناس . الذين لم يسمعوا بخروجه أو لم يتمكنوا من زيارته في اليوم الأول فعلوا ذلك في الأيام التالية . والذين لاحظوا خلال الأيام الثلاثة الأولى أن مفضي بدا متعباً ، شاحب اللون ، ونور الشمس يؤذي عينيه ما لبثوا أن لاحظوا قوة غير عادية تدب في جسده وعينيه ، وأكثر من ذلك بدأ يتكلم بصوت عالٍ ، أما الابتسامة ، ابتسامة التحدي ، فلم تفارق شفتيه أبداً .

بعد الأيام الثلاثة الأولى بدأت زيارات من نوع آخر لمفضي : فابن عجيل الذي باع أراضيه كلها غرب دار الامارة ، لكي يدفع أجور المعالجة في عيادة الدكتور صبحي ثم في المستشفى ، وكانت حالته تسوء وتتردى ، حمله أولاده الى بيت ابن نفاع ووضعوه أمام مفضي الجدعان ، وخلال ساعات قليلة ، وبعد أن كواه مفضي واعطاه الدواء تحرك وكاد ينهض ، أما بعد ذلك بيومين فكان يستطيع أن يمشي مستنداً الى الحائط .

والدباسي الذي أصابه ألم ربط ساقه اليمنى من الحوض حتى القدم ، ولم تجد معه كل الأدوية التي جرّعه اياها الدكتور صبحي ، والذي هدّه الخوف الى درجة ان الثقل أصاب لسانه وبدأت يده اليسرى تؤلمه ، ما لبث ان جاء الى بيت ابن نفاع . جاء بحجة زيارة ابي عثمان ، وقد تظاهر انه فوجىء لما رأى مفضي ، لكن لم تمر بضع ساعات حتى كان ممددا في غرفة داخلية وقد فصده مفضي ودلكه ، ثم شد عرقاً في مكان بين الحوض والخصيتين ، ورغم الألم وانين حاد قصير ، فقد أكد الدباسي ، وهو يتوكأ على عصاه ، مغادراً بيت ابن نفاع ذلك المساء ، أكد ان الالم الذي يحسه الآن غير الذي كان يحس به من قبل ، وفي مكان آخر ايضاً . وبعد بضعة أيام كان يمشي مثلما كان يمشي وهو شاب ، لكنه ، مع ذلك لم يترك العكاز .

أما حمدان الراعي الذي لم يتوقف يوماً واحداً عن زيارة مفضي ، وبدا شديد السرور ، ولم يستطع أن يتكلم ، ربما من الفرح ، أو لأنه نسي عادة الكلام ، فقد ظل شيء ما يجعله غير قادر على مواصلة الفرح الى النهاية ، وحين عرف مفضي ان ما يمنعه من ذلك هو كلبه الذي مرض مرضاً شديداً ، لم يتردد في أن يطلب منه إحضار الكلب ، وأبو عثمان الذي كان يتطير من الكلاب ، فلا يتركها تقترب من بيته أو

تمس حاجة من حاجاته ، وافق على أن يؤ تى بالكلب وأن يعالج ، وقد قام مفضي بمعالجته ، ثم فتح حلقه وتفل فيه فعطس الكلب ونهض يركض مترنحاً وما لبث أن استعاد قوته .

والعمال الثلاثة الذين رفض صبحي المحملجي استقبالهم في المستشفى ، لأن الشركة لن تدفع أجور العلاج في هذه المرحلة ، إذ ما زالوا في مرحلة الاختبار والتدريب ، وكانوا لا يملكون المبالغ التي يطلبها الطبيب ، لم يجدوا سوى مفضي الجدعان ، فلما كوى واحداً وأعطى الاثنين الآخرين أدوية جلبتها خزنة الحسن ، بدا ان اثنين من العمال الثلاثة أفضل حالاً ، أما الثالث فلم يستطع أن يقدّر بدقة ما اذا تحسن أم ظل مثلما كان .

كانت كل حركة ، مهما بدت بسيطة ، تحصل في حوش ابن نفاع ، تنتقل أسرع من البرق . كان أهل حران كلهم يتحدثون عما فعله مفضي الجدعان ذلك اليوم . حتى المرضى الذين كانوا يرقدون في مستشفى الشفاء ، وقد مرت على بعضهم أسابيع طويلة ، ولم يعد في جنوبهم مكان لم تثقبه حقن محمد عيد ، كان هؤلاء يتمنون لو يستطيعون الهرب والوصول الى مفضي الجدعان ، ورغم الألم الذي يمكن أن يسببه الكي ، أو ذلك النوع من التدليك الذي يقوم به ، إلا أن ألم ساعة خير من هذا الألم الذي يقاسون منه ويزيد يوماً بعد آخر ، ما داموا مستلقين على ظهورهم ليل نهار لا يتحركون الا حين يأتي محمد عيد ويديرهم من ناحية لأخرى لكي يتأكد أيا من الجنبين ما زال قادراً على الاحتمال أكثر .

ومفضي الذي قام بهذه المداواة بفرح يزيد ويكبر بعد كل مريض ، كان فرحه يكبر ويزداد مع كل كلمة وشتيمة يكيلها لجوهر ولمن لبّس جوهر البذلة العسكرية ، وكانت هذه الكلمات والشتائم تنتقل من لسان الى آخر ، لكن بعد أن تتغير تبعاً للسامع . فالذين كانوا ينقلون لجوهر أو لقصر الامارة كانوا يسمعون كلاماً لو نقلوه لا يعني شيئاً هاماً أو خطيراً . أما أولئك الذين يبلعون السنتهم أمام رجال الأمير فلا يقولون إلا ما يجب أن يقال ، كانوا يسمعون كلاماً لا يتمالكون معه أنفسهم من القهقهة العالية ، وحتى لو كانوا وحيدين وتذكروا ما قاله مفضي الجدعان كانوا يبتسمون أو يقهقهون .

خزنة لم تفارق بيت ابن نفاع منذ الساعة التي وصل اليه مفضي ، وقد بدت كبيرة هرمة قياساً للفترة الماضية ، كما لو كبرت عشرين عاماً ، وزاد بكاؤها على ابنها الذي تنتظره ، حتى أصبحت عيناها أضعف من قبل . أما بعد أن عاد مفضي فما لبثت ان تغيرت ، فبدت أقوى ، وأكّد بعض الناس انهم رأوها تضحك . والمساعدات التي قدمتها لمفضي في العلاج كانت كثيرة ولا تتوقف . جاءت بكل ما عندها من أدوية وأدوات . كانت تمسك بعض المرضى ، وتقول كلمات خشنة إن بدا الخوف أو التردد على أحد منهم . وكانت تساعدها في ذلك آمنة بنت ابن نفاع ، وهي شابة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشر سنوات . كانت الصغيرة تركض حاملة الماء الساخن ، أو حاملة قطعاً من الحطب أو القماش . وكانت تنظر الى مفضي باعجاب ممزوج بالخوف ، خاصة وهو يقوم بعمليات الكي . أمها ، صبحة العبد الله ظلت بعيدة وظلت تتحرك مثل قطة مسنّة ، غير ملتفتة الى كل ما يجري ويشغلها شيء واحد : عدد الأفواه التي يجب أن تحضر لها الأكل ؛ عدد الأرغفة التي يجب ان تخبزها ذلك اليوم . فاذا سألتها الصغيرة عن أمر يريده مفضي أو تريده خزنة بدت مرتبكة مستغربة وأشارت الى تلك الغرفة الواطئة حيث توضع كل الأشياء .

التلال الشمالية لا تتوقف عن مراقبة كل ما يجري ، خاصة مراقبة التلال الغربية ، وعلى التحديد ما يجري في حوش ابن نفاع . وجوهر الذي كان يسمع ويهزّ رأسه كان ينتظر انتهاء مدة الانذار الذي وجّهه « والله إذا مرّ الأسبوع وابن جدعان بهذه الديرة لا خلي أخباره على كل لسان ! » ويبتسم ويقول لنفسه « والله لاجدع انفه واقصّ لسانه . . . وهذه العصا تفوت من حدره وتطلع من حلقه ، ورب العالمين ما يخلصه . . . » ويزيد غضب جوهر ويتعاظم ما زادت القصص التي تروى عما فعله ابن جدعان .

حتى الدكتور صبحي الذي نسي مفضي الجدعان نهائياً ، ولم يعد يتذكره الا كما يتذكر الانسان قصة قديمة ، ما كاد يسمع أن مفضي خرج من السجن ، وأن من جملة الذين عالجهم الدباسي ، حتى قال بنوع من اليأس مخاطباً الدكتور وصفي الذي كان يزوره في المستشفى :

ـ أنا تورطت وورطتكم معي . . .

وحين تطلع اليه « الدكتور » وصفي متسائلاً بوجهه وعينيه ولم يفهم الكلمات التي

قالها ، تابع وكأنه يخاطب نفسه :

ـ الجماعة ، يا أخي ، بدو ، حمير ، اذا قلت لهم : ثور ، يقولون : إحلبه !

وعاد الى لهجته الأولى :

ـ حتى الأغنياء منهم حمير ، الدباسي أكبر حمار . انت تعرف الدباسي . . طلعت روحنا ونحن نعالجه . كل يوم : معاينة وابرة ، وهو كما تعرف : خالص ، ما منه فائدة . بعد كل التعب والشقاء حمل نفسه وراح عند واحد دجال ، بدوي يساوي فرنك وكواه . . ولا أحد يعرف ماذا عمل فيه أيضاً .

والدكتور وصفي الذي ضحك ساخراً وهز رأسه دلالة الأسف والاستغراب تساءل:

ـ والحكومة . . . . كيف تسمح الحكومة بهذه الخزعبلات ؟

ـ مائة مرة قلنا ، حكينا ، لكن ، يا أخي ، كلهم حمير ، من فوق الى تحت .

أما ما دار من حديث بعد ذلك بين الدكتور صبحي والأمير فلم يعرف منه شيء وحين استدعي ابن نفاع للمرة الثانية ، من قبل ذلك الشاب ، في اليوم الخامس ، فقد كان واضحاً أن ما جرى هو التهديد فقط ، وان الانذار لا يحتمل الانتظار او التأجيل .

قال ابن نفاع لمفضي بعد ان عاد من دار الامارة ، وكانت خزنة موجودة :

ـ ما بقي بهذه الدنيا خير . . . .

وحين التفت اليه الاثنان اطرق وظل صامتاً فترة غير قصيرة ، ثم تابع :

ـ الجماعة وصلوا لأرواحنا ، ما ظل الا ان يطلبوا من الرجل أن يطلق زوجته . . . نفّو !

قالت خزنة ببعض النزق :

ـ طلّ قلوبنا ، يا أبو عثمان ، وسولف لنا عن ما صار وما جرى .

ـ السالفة من أولها الى تاليها : يريدون من مفضي ان يرحل ، يشيل . اما يترك حران أو يروح للمحاجر . . وهناك يشتغل .

ـ والله ما يفرحون . . .

هكذا رد مفضي وهو يضحك ، وبعد قليل أضاف :

ـ اللي ترميه السماء تتلقاه الأرض ، وأكثر من القرد الله ما مسخ ، وما بعد السجن إلا الموت . شفنا مضافة جوهر وعمه خالد المشاري ، ظلّ علينا ، هالحين ، نشوف مضافة رب العالمين .

قال ابن نفاع بحقد :

ـ اسمع يا ابن آخي . . . هذا البيت بيتك وانت تعرفني : أنا ما خفت منهم ، وهم ما يتقربون مني ، لكن أخاف عليك .

قالت خزنة :

ـ سبحان الله . . الأغراب يحكمون ويرسمون ، يقولون يصير وما يصير ، والله باطن الأرض أخير من ظهرها .

ـ وكّلي الله ، يا بنت الحلال ، الدنيا بأولها .

هكذا رد مفضي ، وقد بدا فرحاً مثل طفل . كان وجهه كله يضحك ، وتمنى لو يرقص في تلك اللحظة ، أو لو يخرج رأساً الى دار الامارة ، هناك يمكن أن يشتم ، أن يصرخ ،ويمكن أن يتفل في وجه جوهر ووجوه الآخرين .قال ابن نفاع بحزن :

ـ قالوا أسبوع ، وبقى من الأسبوع باكر واللي بعده .

ـ طويلة عليهم . . . يا أبو عثمان .

ـ وقصيرة علينا ، يا ابن آخي .

ـ لا تخف يا رجل .

ـ اللي تختاره ، أنا معك .

ـ ما قولك لو تركت بيتك . . . يا أبو عثمان ؟

ـ تترك بيتي ؟ تترك بيتك ؟ الله يخزي الشيطان .

قالت خزنة بغضب :

ـ شوفوا الأمير ، احكوا مع الرجال ، عساها القضية تنتهي على خير .

في هذه الأثناء دخلت آمنة راكضة وراء الغزال الذي وصلهم هدية قبل أقل من شهر . كانت شديدة التعلق بهذا الغزال ، تعتني به ، تطعمه ، وتحاول باستمرار ان تحمله ، والغزال ما يكاد يُحمل حتى يحس باخصار فيلبط ويُخرج صوتاً حزيناً ، وغالباً ما يهرب ، وهي بمقدار ما تحبه تريده ان يكون قريباً . قال أبوها وهو يراها تلاحقه :

ـ خله . يا بنت الحلال ، يكفيه سجنه . . . وإلا مع البلا عوانة ؟

نظرت الصغيرة الى أبيها ونظرت الى الغزال . كانت تريد ان تقبض عليه ، أن تحتضنه . لكنها لم تجرؤ . ظلت واقفة تنتظر ، فلما خرج الى الحوش مرة اخرى ركضت وراءه .

بقي الثلاثة صامتين ، وكأنهم لا يجدون شيئاً يقولونه ، أو أنهم ذهبوا بعيداً في أفكار وذكريات لا حدود لها ، واذا كان الحزن قد بدا على ابن نفاع وخزنة فان مفضي حول الى طفل بابتسامته الصغيرة الفرحة ، وعينيه اللتين تضجان بالتحدي ورغبة العراك . لما طال الصمت أو رجعوا من ذكرياتهم وأفكارهم ، أو رجع مفضي على الأقل ، قال بسخرية :

ـ لا تخافوا يا جماعة الخير ، مثلهم مثل غيرهم ، باكر يصيرون تواريخ وأمثال .

قالت خزنة بنفس اللهجة الساخرة :

ـ لنهم اليوم . . . يا ابن الحلال .

والتفتت الى الجهة الثانية وقالت كأنها تكلّم نفسها :

ـ وعش يا كديش الى حين ما يجيك الربيع .

كان من الممكن أن تطول المناقشة أو تأخذ منحى آخر ، وكان من الممكن ان يسيطر الصمت الحزين مرة اخرى لولا مجيء نعمة دخل الله . جاءت باكية منتحبة تقود طفلاً صغيراً . ومن خلال دموعها قالت انها لم تترك احداً في عجرة وحواليها وفي حران أيضاً إلا وعرضت عليهم هذا الطفل ، حتى الطبيب الشامي . والأرناؤوطي الذي معه أعطياه عدداً من الحقن وسقياه أدوية حمراء وخضراء ، لكنه لم يستفد منها . كانت تتحدث دون ان ترى خزنة في البداية أو تنتبه لوجودها ، أما حين رأتها فقد سلّمت عليها بأن ضربت على ركبتها وابتسمت ابتسامة مختصرة وقالت :

ـ . . وخزنة تدري بالقصة من أولها الى تاليها ، والله يكثر خيرها عملت كل ما قدرت عليه .

وشرحت خزنة لمفضي ان الطفل أصيب بعين شريرة . ومنذ ذلك الوقت لم يتكلم .

كان الطفل ينظر في الوجوه نظرة مرتاعة وكأنه على وشك الانتحاب او انه يريد

الهرب ، ومفضي الذي هز رأسه عدة مرات ، دلالة انه فهم الحالة ، قال بصوت خافت :

ـ إذا ما كان اليوم فباكر .

في ذلك اليوم لم يحصل شيء ، أما في اليوم التالي صباحاً ، وحين جاء أحد العمال المرضى ، وقرر مفضي ان الكي هو الدواء المناسب له ، فقد طلب ان يؤتى بالطفل أيضاً . وعلى خلاف المرات السابقة أوقد ناراً كبيرة ووضع أدوات الكي كلها ، فلما احمرت ، صارت جمراً ، جربها على خشب قاس ، ثم جربها في الماء ، وكان بطرف عينيه يتابع نظرات الطفل وردود افعاله ، حتى اذا قرّر أن يكوي العامل طلب منه أن يصرخ ، أن يظهر المه وتوجعه ، والعامل الذي خاف واستغرب كاد ان ينسحب ويهرب من بين يدي مفضي ، لكن حين أوضح له ذلك امتثل ، وما كاد المسمار الكبير يطّش على ساق الرجل ، عند الكاحل ، حتى دوّت صرخة الم . كانت صرخة حقيقية صادرة من القلب ، وكانت حادة قوية انتهت بأنين . وما أن فرغ مفضي من الرجل حتى التفت الى الطفل ، وضع ادوات الكي في النار الملتهبة ، ووضع ملقط النار ذاته وبعض قطع الحديد الأخرى ثم فجأة صرخ وعيناه تمتلئان بالشرر :

ـ امسكوه . . . . هاتوه .

وأمسك الطفل بقوة ، والطفل الذي أصيب برعب شديد أخذ يفرك مثل سمكة قوية بين يدي مفضي . كان يلبط ويدفع بيديه ، وحين وجد ان قبضة مفضي أقوى من أن يقاومها وأحس بالنار القوية تلفح وجهه فقد صرخ صرخة قوية . . . . عند ذاك رماه مفضي الى الفراش المجاور وقال وهو يبتعد عن النار :

ـ خلص . . خذيه ، وعسى ما يكون به خلاف .

لقد حصل هذا في ضحى اليوم السادس ؛ وابن نفاع الذي كان حائراً وأقرب الى الخوف العصبي ، لا يدري ماذا يفعل او كيف يواجه جوهر اذا انقضت المدة ومفضي الجدعان لم يغادر حران أو لم يذهب الى المحجر ، إنها تجربة قاسية لم يمر عليه مثلها في حياته ، ولم يتصور ان يأتي يوم يُجبر الناس على امور لا يطيقونها أو غير مقتنعين بها . ماذا يريد منه جوهر او غير جوهر ، وماذا يهمهم اذا كان مفضي هنا أو في أي مكان آخر ؟ والأمير أيدري ما يحصل للناس واذا عرف لماذا يسكت ؟ قال

ابن نفاع وهو يخرج من البيت لا يطيق ان يبقى فترة اطول لكي لا يختنق : « اذا ما ضاقت ما تنفرج » .

لا يدري احد ماذا فعل مفضي بين ضحى ذلك اليوم والظهر ، ولا يدري أحد أين ذهب او من رأى ، إذ ما كاد ابن نفاع يخرج ويبتعد قليلاً حتى خرج مفضي الجدعان ايضاً . قال لآمنة انه سيرجع قبل المساء ، ولم يقل شيئاً آخر . والصغيرة التي هزت رأسها وصمتت ظلت ترقبه عندما اخذ ينحدر نحو السوق والى أن غاب .

لماذا نزل مفضي الى السوق ؟ هل كان ينوي الذهاب الى المقهى او الى دار الامارة ، أو ربما يريد مغادرة حران ؟ وهل وصل الى السوق وتوقف او تحدث مع أحد ؟

إن الغموض الشديد يحيط بكل خطوة وبكل تصرف وبكل دقيقة منذ أن غاب عن ناظر الفتاة الصغيرة، وهو ينحدر من التل الغربي. لكن رغم هذا الغموض فإن كل انسان في حران ، حتى من كان بعيداً ، يؤكد أنه رأى مفضي أو سمع صوته أو أحس به يمر قريباً منه . ان ذلك شيء مؤكد الى اقصى حد . العمال في المحجر ، حين سئلوا في تلك الليلة ، أكدوا انهم رأوه . كان يصعد التل نحوهم ببطء شديد ، ولقد توقفوا عن العمل واشاروا اليه بأيديهم وهي ترفع الفؤوس ، بل ونادى عليه اثنان أو ثلاثة منهم .

ويؤكد ثلاثة من الصيادين ، كانوا عائدين من رحلة الليل الطويلة ، انهم رأوا مفضي في زورق ابيض . كان بعيداً في عرض البحر ، وكان وحيداً في الزورق . وحين اقترب منهم رفع المجداف وسلم وابتسم ثم استمر ، وحين نادوه التفت لكن لم يتوقف ! أما العمال في المعسكر ، أو أولئك الذين كانوا عند المصب ، وغيرهم الذين كانوا في موقع رقم أربعة ، كلهم رأوا مفضي رأي العين . مرّ عليهم ، توقف ، تحدث ثم ابتسم وتركهم بسرعة ، والذين استيقظوا ، ولم يكونوا قد اكتفوا نوماً بعد ، لم يغضبوا حين ايقظهم ، بل وفرحوا حين رأوه ، وقد سلّموا عليه وصافحوه ، ولما طلب اليهم ان يعودوا الى النوم وانه سيلقاهم مرة ثانية حين يستيقظون ، أكدوا له انهم لن يستطيعوا معاودة النوم ثانية !

وفي السوق ، في الشوارع الرئيسية والشوارع الصغيرة الضيقة ، أكد الكثيرون

ان مفضي مر من هناك ، توقف عند بعض الدكاكين . ابتسم وتحدث ، ومازح بعض الصبية . أما في المقهى فكل الذين كانوا قبل الظهر رأوا بتأكيد حازم مفضي حين مر . توقف فترة ليست طويلة مع أبي أسعد وتحدث معه . وقال كثيرون ان دحام مر في ذات الوقت فسلّم مفضي عليه ومازحه .

والنسوة في البيوت حتى البعيدة منها على التلال الغربية ، قلن انهن رأين مفضي الجدعان ، كان يمر مسرعاً ولم يتوقف ولم يتحدث الى واحدة منهن ، لكنه كان يبتسم ويشير بيده .

ومقر القيادة ، خلال نفس الفترة ، كان في حركة دائبة وقلق مُمضّ ، أما جوهر فلم يهدأ ، ظل يشتم ويصرخ الى ما قبل العصر بقليل ، وكذلك مساعده وأشخاص آخرون . وفي وقت متأخر ، أكد اثنان من الجنود لأصدقاء لهما أنهما شاهدا مفضي يمشي ببطء ، وانهما حينما التقيا به عند خزان المياه ابتسم لهما ، رغم أن واحداً منهما كان قد ضربه في المرة الأخيرة ، حين كان في السجن .

وابن نفاع الذي لم يقوَ على البقاء في البيت فخرج ، لم يستطع ان يتجول في السوق أو أن يجلس في المقهى ، ولما كان الوقت ما زال مبكراً فلم يذهب الى الجامع ، وحين قرر أن يعود الى البيت مرّ بقرب خزان المياه . ولا يُدرى ما اذا كان التعب هو الذي استوقفه قرب الخزان أم الأنين الذي سمعه ، لكن حين وقف وألقى نظرة الى الجهة الشمالية شاهد مفضي : كان وجهه نحو الأرض ، وانينه خافتاً ، ويده تحفر التراب . كان خيط رفيع من الدماء على الأرض . كان الدم ينزف من مكان قرب الخاصرة . لم يصدق أول الأمر . ظن نفسه حالماً أو أن نظره يخدعه ، لما اقترب اكثر عرف مفضي من ظهره ، من يده ، ثم من الثوب . وحين قلبه على ظهره كانت ابتسامة صغيرة تملأ وجهه .

كان مفضي وهو يُحمل يبذل جهداً كبيراً كي يكون خفيفاً ، بل ظل يحرك رجليه فترة ، أما حين أوصل الى البيت ، وقد حمله ابن نفاع وثلاثة آخرون ، وذهب اثنان لاستدعاء الدكتور صبحي ، فقد تطلع حواليه بنظرة واسعة ، وكأنه يريد أن يتأكد من المكان ، وبعد ذلك اغمض عينيه .

لم تستطع خزنة ان تعمل شيئاً . كانت يداها ترتجفان ، وكانت دموعها تتساقط

بغزارة ، والفتاة الصغيرة كانت تحتضن غزالها وتقف بعيداً عند الغرفة الواطئة . كانت تبكي دون أن تدري . أما ابن نفاع الذي صعد الى السطح ثلاث أو أربع مرات لكي يراقب الطريق وليعرف ما اذا كان الحكيم قد وصل أم لا ، فكان شديد الانفعال نزقاً ، وقد سمعه الكثيرون يشتم شتائم بذيئة لدرجة انهم لا يستطيعون ان يعيدوها دون أن يغضب ! وكانت صبحة العبد الله تخبز في ركن البيت حين جيء بمفضي ، وما كادت تعرف حتى هرولت تاركة العجين في التنور فاحترق .

رجع اللذان أرسلا لاستدعاء الطبيب . قالا : « الطبيب في غرفة العمليات » ، وبعد قليل أضاف احدهما : « محمد الأبري يقول : احضروا المريض الى المستشفى » لما سمع أبو عثمان ذلك سقطت دموعه دون ارادة ، أما خزنة فقالت : « إتركوه لينام براحة » . احد الرجال قال : « يجب ان نحمله الى المستشفى قبل فوات الوقت » الطفلة الصغيرة مسحت دموعها عدة مرات بظهر الغزال . صبحة العبد الله في لحظة معينة لم تستطع أن تقاوم فصرخت . كانت صرختها قوية أدت الى سقوط الفتاة الصغيرة بعد أن أجفل الغزال وهرب . اقترب الغزال كثيراً من مفضي وتشممه . دموع ابن نفاع تساقطت بغزارة اكثر وهو ينحني على مفضي . قال أحد الرجال « إذا لم نأخذه فوراً راح الى الأبد » . قالت خزنة « اتركوا الرجل ينام » .

عند الظهر قال الكثيرون في السوق وفي معسكر العمال ، وقال احد الصيادين أيضاً ، ان رجفة قوية أصابتهم . وقال اثنان من عمال المحجر ان الرجفة كانت من القوة الى درجة ان المهدّات التي كانت بأيديهم وقعت . أما أبو أسعد الحلواني فقد سقطت من بين يديه صينية مليئة باقداح الشاي وانكسرت الأقداح كلها . لقد حصل هذا عند الظهر تماماً . أما نعمة دخل الله فقد بكت وهي تسمع ابنها يقول لها انه جائع ويريد طعاماً ، بكت من الفرح ، لكن كان فرحاً حزيناً . أما كلب حمدان فقد كان نائماً عند الظهر وفجأة استيقظ واخذ يعوي بتلك الطريقة المقلوبة فصاح به حمدان : عوذة .. عوذة ، ولما لم يتوقف ضربه بحجر فأصاب رجله الأمامية اليسرى .

حين قرر الرجال أن يحملوا مفضي ويأخذوه الى المستشفى ، تنحى ابن نفاع قليلاً ، لكن لما وجدوه بارداً ترددوا . خزنة صرخت من بين دموعها طالبة من الرجال أن يتركوه نائماً لعل النوم يفيده . أما حين وصل سلمان الزامل واثنان

آخران ، وقد سمعوا لغطاً في السوق ، حين وصلوا ورأوا مفضي ، انحنى سلمان ووضع أذنه على صدره ، ثم أمسك بيده ، فلما وجده بارداً ارتجف فترك اليد تسقط ، ووقف دون أن يتكلم كلمة واحدة !

في وقت ما تقدم ابن نفاع ، تطلع الى مفضي فلما رأى عينيه لا تزالان تحملقان انحنى فوقه وأغمض العينين،وظل هكذا الى ان انهضه سلمان الزامل وقال بصوت غير واضح لأن الدموع خنقته :

ـ يسلم رأسك يا أبو عثمان ، وعظّم الله أجرك .

عصر اليوم ذاته شيع مفضي الجدعان . حران كلها خرجت لوداعه . حتى دار الامارة أرسلت واحداً من رجالها ممثلاً عن الأمير . وسار موكب الجنازة من دار ابن نفاع حتى المسجد ثم المقبرة ، وقد أكد كثيرون ان الجنازة وهي تجتاز شارع الراشدي ، وقرب عيادة الدكتور صبحي المحملجي ، وفي لحظة معينة اضطربت وكأن الميت استيقظ ، واكد الذين كانوا يحملون النعش ان الحركة كانت قوية جداً ومفاجئة ، حتى أن النعش كاد يقع من بين ايديهم ، وأكد هؤلاء وغيرهم أن ابن نفاع انفصل عن الناس قرب العيادة وبال . أما آخرون فينفون ان ابن نفاع بال ويقولون انه تقيأ .

ونامت حران تلك الليلة وقد أحست ان أياماً قاسية سوداء تنتظرها .

وفي تلك الليلة ذاتها مات الغزال الذي كان في بيت ابن نفاع ، والبنت الصغيرة حزنت حزناً شديداً ، وظلت تبكي حتى ان امها خافت عليها فضربتها لكي تسكت .

أما حزنة فقد زاد بكاؤ ها . وقال كثيرون انهم سمعوها تقول انها ستنتظر الى أن يعود الاثنان : عواد ومفضي . ولم تمض شهور قليلة حتى انطفأت عيناها تماماً ، لكن وُلد في داخلها نور أبيض بلون الحليب ، هكذا اكدت دون ان تشعر بأسف ، وظلت تدور في البيت كما كانت تفعل قبل عشرين سنة !

وابن نفاع واصل حياته ، لكن دخل في حالة من الصمت الخطر .

وظل أهل حران سنين وسنين يتذكرون مفضي الجدعان ويتذكرون هذا اليوم بالذات .

ظهر الخميس مات مفضي ، وعصر الخميس دفن . أما عندما هبط الظلام فقد هبط معه الحزن وملأ حران كلها ، كان حزناً قوياً مستبداً ، اقتحم البيوت ودخل دون انتظار . لم يترك بيتاً الا ودخل اليه ، ولم يترك قلباً الا وتغلغل فيه . كان ينتشر كما ينتشر الظلام ، ويمشي مسرعاً مضطرباً كما تمشي المياه في المنحدرات ، وكان يختلف عن اية مرة سابقة ويختلف عن اي حزن غيره . فجأة احس الناس انهم اكثر حزناً مما تصوروا ، ووجدوا ان عندهم من الاسباب الكثير الكثير . أما عندما اجتمعوا في بيت ابن نفاع ، وصلوا صلاة العشاء جماعة هناك ، ثم قاموا الى الاكل ، فقد وجدوا انهم لا يشتهون اكلاً او شراباً . كانت ايديهم تمتد ثقيلة رخوة الى الطعام ، وذاقوا مع حبات الرز طعم الدموع ، واحسوا الماء مرّاً . ورغم انهم توقفوا عن الاكل الا انهم ظلوا في اماكنهم وظلوا صامتين . ولا يعرف اي وقت مر ولماذا جاءت خزنة الحسن . لما رأت الرجال صامتين قالت بصوت خشن مضطرب :

ـ دم مفضي برقابكم ، برقبة كل واحد منكم .

تطلعت اليها العيون وارتدت الى الأكل الذي لم يؤ كل منه الا القليل . لم يجرؤ الرجال على أن يتطلع بعضهم الى بعض ، ولم يجسروا على الكلام . أما حين قال الدباسي :

ـ يخلف على منْ تكلّف والله يرحمك يا مفضي .

فقد تحرك الجميع ، قاموا قومة رجل واحد . وما ان رفع الاكل ودارت القهوة حتى بدأت احاديث جانبية . اخذ كل اثنين او ثلاثة يتحدثون : كيف قتل مفضي ، ابن وحد، ومن يحتمل ان يكون القاتل . كانت الاحاديث هامسة، قصيرة، خائفة ، ورغم ان القاتل لم يسم ، الا ان شبح جوهر كان يملأ المكان . صحيح انه لم يقتل بنفسه او مباشرة ، لكنه وحده القاتل المحتمل . تذكر الكثيرون صورة جوهر ، تذكروا كيف كان قبل سنتين او ثلاث سنوات ، وكيف هو الآن ، وتذكروا مفضي .

في الليل المتأخر ، بعد ان ذهب معظم الرجال ، بمن فيهم رجال دار الامارة ، واثنان من القيادة ، ولم يبق الا سلمان الزامل وفواز الهذال وعبده محمد واثنان من اقرباء ابن نفاع ، وابن نفاع نفسه ، زفر عبده محمد وقال بصوت عصبي :

ـ اذا ما اخذت تارك يا مفضي ما اكون عبده .

قال سلمان بصوت بطيء :

ـ القاتل ما هو واحد . . .

انتبه ابن نفاع الذي كان يغمض عينيه اغلب الوقت . تطلع الى ابن الزامل بعيون متسائلة ، تابع سلمان :

ـ نعم ، القاتل اكثر من واحد . . . ومفضي مات مرتين .

انشدّت اليه العيون مع حركة الاجساد التي تحفزت ، قال ابن نفاع :

ـ القاتل واحد . . وذاك هو ، اكبر من الجبل ، وكل واحد يعرفه .

ـ والله لو كان اكبر رأس ما يفلت من عبده .

هكذا قال عبده بعصبية . أما سلمان الزامل فقد تابع كأنه لم يسمع ما قاله الآخرون :

ـ اول مرة قتله جماعة ابو سنان الذهب ، والثانية قتله الارناؤ وطي . جوهر وجماعته خوضوا بدمه ، جروه عند الخزان وقالوا : خلص . واللي ما خلصوه هم جاء الارناؤ وطي وكمله ـ ابن الحرام الارناؤ وطي . . ما له شغل بحران الا يجرّ فلوس الناس ويلعب بخصيان ابو الريح . لما راحوا اليه الجماعة ، قال : « عندي عمليات ، عندي شغل » ، وكأن مفضي ما هو بني آدم ، كأنه كلب .

قال أحد اقرباء ابن نفاع :

ـ والله صحيح . لو جاء الطبيب ، لو اسعفه يمكن انكتبت له حياة ثانية

رد ابن نفاع بغضب :

ـ اتركوا هذي السوالف . ما قتل مفضي الا الاميركان ، هم اصل السبب واصل البلا .

ـ والله الحق ما قلته ، يا عمي ، يا ابو عثمان .

قال عبده محمد هذا بطريقة يائسة ، ثم أضاف بحدة وقد خرجت الكلمات من بين أسنانه :

ـ والله لو كنت وحدي ، ما احد معي ، ابن القحبة جوهر ما يفلت .

ـ من يوم ما جاءوا ، من يوم ما داسوا حران ، ونحن مثل بول البعير ، كل يوم لورا ، واشار ابن نفاع الى معسكر الاميركيين بسبابته ثم أضاف :

ـ قلت لكم ، ماتركت واحداً منكم الا وقلت له : الاميركان هم العلة ، هم اصل البلاء ، وهذا اللي شفناه ما هو بشيء للبلاوي اللي راح تنصبّ فوق رؤ وسنا . وبكره تقولون الله يرحمك يا ابو عثمان ، كل ما قلته صار .

هذا الحديث ، او ما يقاربه ، جرى في كل بيت ، وفي المعسكر . واذا كان الرجال قد تحدثوا بغضب ، وشتموا ، فان النساء أصغين وهن صامتات ثم انحدرت دموعهن . والصبية الذين بدوا خائفين اول الامر ما لبثوا ان نسوا الخوف، وقالوا اشياء كثيرة عن مفضي ، كيف كان يسابق الغزلان ويسبقها . وكيف كان يقضي اياماً في الفلاة دون اكل ، لا يخاف احداً ولا يهاب شيئاً . أما اذا شمر عن ساعديه لكي يقوم بالكيّ فكان يحصر اكبر الرجال واقواهم بين فخذيه بمفرده . وقد ذكر بعض الصبية ان مفضي اعاد الحياة لاشخاص كثيرين بعدما ماتوا . . وقبل الدفن . وقال هؤلاء ، ان مفضي يمكن ان يعود ، وان احداً لا يستطيع ان يقتله او يميته . وحين ذكرت تلك الامور التي حدثت في المقهى وفي المحجر ساعة الظهر تماماً ، الساعة التي مات فيها مفضي ، تذكر الصبية أموراً كثيرة حدثت ، فالأولاد الذين كانوا على الشاطىء شاهدوا غزالاً كبيراً يهوي في البحر . أما الذين عادوا من المدرسة الى التلال الغربية ، ورأوا بعض الرجال يتراكضون في بيت ابن نفاع او حوله . فقد توقفوا لحظة سمعوا صرخة قوية اعقبها خروج طيور بيضاء من نوافذ البيت ومن بابه . كانت طيوراً اكبر من اية طيور اخرى ، واكبر مما رأوا في اية مرة . أما العصافير التي كانت تقف على سور البيت فقد تهاوت جميعها في لحظة واحدة ، كلها الكلاب التي كانت تنبح بطريقة غريبة !

لم يبق احد في حران كلها الا وتذكر شيئاً عن مفضي تلك الليلة ، حتى الدكتور صبحي الذي عرف بموته عند العصر ، قال لمحمد عيد يوصيه لانه سيسافر في اليوم التالي :

ـ الطبيب كان في غرفة العمليات ، كانت العملية كبرى ، ومع ذلك قال لهم : احضروه فوراً . كان يمكن ان يذهب معهم ، لكن العملية . . . الرجل الذي كان بين يديه لا يحتمل. عند العصر لما انتهت العملية لبس ثيابه وحضر حقيبته ليذهب ، لكن . . .

وحين عقّب محمد عيد بمكر:

ـ لازم نتفق على المريض اللي عملنا له العملية يا حكيم . . .

ـ حط بالخرج .

رد الحكيم هكذا وهو يضحك بصوت عالٍ ، ثم أضاف :

ـ من راح يحاسبنا ؟ حط بالخرج وانس هذا الكلب ، انه لا يساوي ان يسمم الانسان دمه بقصة مثل هذه .

واذا نامت حران تلك الليلة ، فقد كان نوماً ثقيلاً ، متقطعاً ، مليئاً بالكوابيس ، واستغربت الامهات ان اولادهن استيقظوا ليلاً مرات عديدة ، الكبار منهم شعروا بالعطش وقد طلبوا ان يؤتى لهم بالماء ، خلافاً لليالي السابقة ، اذ كانوا يذهبون بانفسهم لجلب الماء اذا استيقظوا . أما الاصغر سناً فقد ظلوا في فراشهم لكنهم بكوا بكاء طويلاً موصولاً ، وكأنهم يشكون من الم او يخافون من شيء .

في اليوم التالي ، الجمعة . خَبَزَ عبده محمد اكثر من اي يوم آخر ، ووزع الخبز كله دون مقابل . كانت كلماته ، وهو يرفض الفلوس قصيرة حادة :

ـ الخبز اليوم على روح المرحوم .

لم يكن مستعداً أن يضيف اسم مفضي ، ولم يكن الآخرون بحاجة الى سؤاله . فقد حصل تواطؤ غامض بين الجميع ، وكأنهم بهذه الطريقة يعبرون عن عواطفهم ومواقفهم .

ومثلما فعل عبده محمد فعل ابو اسعد الحلواني ، دون ان يعرف الواحد بما فعله الآخر !

والرجال الذين لم يتعودوا الذهاب الى المقهى ، وجدوا ان الوقت لا يزال طويلاً ، وان ساعات لا تزال تفصلهم عن الصلاة ، فذهبوا . وقد فعل ذلك بعضهم مرة اخرى بين العصر والغروب ، فامتلأ المقهى في كل الاوقات . أما عندما حان وقت صلاة الظهر فقد قام الجميع قومة رجل واحد . لم يكونوا ليفعلوا ذلك من قبل ، لكن احساساً غامضاً ورغبة من نوع ما هما اللذان كانا يقودان خطوات الناس ويحددان لهما ما يجب ان يفعلوا . وبعض الذين تعودوا الاختفاء او التهرب ، اذا حان وقت الصلاة ، وجدوا انفسهم ينهضون قبل غيرهم ، بل وبلغ الحماس ببعضهم ان سأل الآخرين ما اذا كان من الواجب الذهاب الى المسجد فوراً او الانتظار بعض الوقت ، مع انهم كانوا يضيقون في وقت سابق بتلك الادعية التي تسبق أذان الجمعة .

واذا لم تكن من عادة أهل حران الذهاب الى المقابر ابداً ، فان خزنة وجدت نفسها تفعل ذلك دون ارادة . وما كادت تجلس بالقرب من القبر ، وقد عرفته دون ان تسأل احداً ، ربما من رطوبة التراب ، او من دليل آخر ، ما كادت تجلس حتى وجدت بالقرب منها امرأتين ايضاً . وجدت نعمة دخل الله ، وام عثمان ، صبحة ، زوجة ابن نفاع . لم تسأل اياً من المرأتين لماذا جاءت ، وهكذا لم تفعل اي منهما ، اذ لم تكن بحاجة لاي سؤال . خزنة التي اخذت تقرأ بطريقتها الخاصة قالت اشياء لا يمكن ان تكون من القرآن الكريم ، رغم ان اياً من المرأتين ليست متأكدة من ذلك . وصبحة التي قالت لزوجها في الليل المتأخر ان خزنة كانت تقرأ القرآن على قبر مفضي ، توقفت لحظات وتساءلت ما اذا كانت في القرآن آيات تشتم الملوك والامراء ، وانه لا يأتي منهم الا الخراب ، فاكد لها ابو عثمان ان آيات مثل هذه موجودة في القرآن الكريم ، لكن صبحة ظلت في شك ، لان القرآن لا يمكن ان يوجد فيه شتائم مثل تلك التي قالتها خزنة ، ولم تشأ صبحة ان تذكر هذه الشتائم ! وابو عثمان الذي استغرب اول الامر ان زوجته ذهبت الى المقابر لم يغضب ولم يثر كما كان يفعل في امور اقل من هذه بكثير .

ومثلما سهر الناس وتأخروا في الليلة السابقة ، فانهم وجدوا انفسهم اقل قدرة واقل رغبة في هذه الليلة على السهر ، فما لبثوا ان ناموا بعد العشاء بقليل . واذا كانوا قد شعروا ببعض الراحة وهم يضطجعون في فراشهم ، فقد ندموا وتأسفوا انهم

ذهبوا الى النوم مبكرين ، لان الكوابيس التي لاحقتهم وهبطت على صدورهم كما تهبط الحجارة ، كانت تستمر وتتلاحق ما استمروا في النوم . وقد ذكر بعض الرجال انهم اضطروا لترك فراشهم والليل كثيف ثقيل ، كأنه في اوله . وذكر غيرهم انهم ذهبوا الى المسجد فوجدوا كل شيء ساكناً هادئاً ، وحين جلسوا بانتظار الأذان وقيام الشيخ قضوا هناك ساعات طويلة ! وقد استغرب عبده محمد ان عدداً من أهل حران قد جاء اليه قبل الفجر ، وذكر شيئاً مماثلاً ابو اسعد الحلواني .

أما يوم السبت فقد كان يوماً غير عادي . فعند الظهر ، او قبل ذلك بقليل ، صدر عن دار الامارة بلاغ قصير : « بعد التحقيق الذي اجرته دار الامارة ، بخصوص مقتل البدوي المدعو مفضي الجدعان ، المهنة مُتسبِّب . تبين ان للمذكور أعداء كثيرين من خارج حران ، وبعد التدقيق والتمحيص لم تثبت التهمة على احد ، وقد أمر صاحب السمو الأمير بغلق القضية واعتبار القاتل مجهولاً » .

ويوم السبت ذاته ابلغت الشركة ثلاثة وعشرين عاملاً انها لم تعد بحاجة اليهم ، وطلبت منهم مراجعة « ادارة الافراد » لتصفية حقوقهم . وذكرت النشرة التي علقت في عدة اماكن انه في حال توافر فرص عمل جديدة في المستقبل سوف تعطى لهؤلاء الذين سيتركون العمل الافضلية في الاستخدام .

لقد قرأ ابن هذال النشرة بصوت عالٍ حين طلب اليه العمال ذلك . قرأها مرتين وفي مكانين مختلفين . أما في المرة الثالثة ، وقبل ان ينتهي ، فقد تقدم احد العمال ومزق النشرة ، رغم ان بعض العمال الذين ذكرت اسماؤهم لم يصدقوا . وقد رافقوا ابن هذال من مكان الى مكان ، وطلبوا اليه بالحاح ان يتأكد ، ولم يكتف بعضهم بذلك ، بل وطلب منه ان يشير الى كل اسم بأصبعه ، وان يكون اكثر تروياً اثناء قراءة الاسماء . لقد حصل هذا ما بين الضحى والظهيرة ، خلافاً للمرات السابقة ، حيث كانت النشرات تعلق منذ الصباح الباكر ، بل وكثيراً ما علقت قبل وصول دورية الصباح . هذه المرة عُلّقت قبل نهاية الاستراحة الاولى ، ورغم ان الصافرة اعلنت العاشرة والنصف ، وقت انتهاء الاستراحة ، فان الذين ذهبوا الى العمل كانوا أقلية . وقد تدخل عدد من مسؤولي ادارة الافراد ، اذ دفعوا العمال وهددوهم ، وقالوا ان الذين سيتخلفون عن الالتحاق بالعمل فوراً سيكون مصيرهم مصير الذين استغني عنهم ، لكن لم يستجب احد لهذا الطلب . وفي وقت لاحق

تدخل خمسة من رجال الامارة ، وقد تكلموا بصوت عالٍ ضد العمال دون تمييز ولم يتركوا طريقة الا وحاولوا اتباعها من اجل اقناعهم بالعودة الى العمل .

ولما وصلت الاخبار الى جوهر ، وكان مشغولاً باملاء بيان على احد مساعديه يحتم على كل راغب في العمل لدى الشركة مراجعة « القيادة » والحصول على موافقتها . وكان يراد تعليق هذا البيان في المسجد وفي كراج سفريات الصحراء وفي مقهى ابو اسعد الحلواني . لما وصلته الاخبار اصيب بخوف او ما يشبه صدمة المفاجأة ، لكن لم يترك هذا الشعور ان يسيطر عليه ، فما لبث ان ابتسم ابتسامة عريضة وقال لمساعده :

ـ إذا ضحكت بوجه البدوي ، إذا قلت للواحد منهم : «مرحبا يا وليد» ظن انك تخاف منه . اولاد حرام البدو ما يعطون وجه ، مثل المرا والولد ، ولازم تنكسر رؤوسهم .

ودون ان ينتظر امر باعداد سيارة مسلحة ، وان يستعد سبعة من العناصر لمرافقته ، وخلال فترة قصيرة قال لمساعده :

ـ الظاهر ان الجماعة لا يعرفون جوهر او ما شافوه .

وابتسم بثقة وهو يعدّل ثيابه ، ثم ضرب حافة النافذة بعصاه وقال :

ـ اذا كانوا رجالاً ، واذا كانت فيهم مرجلة خلنا نشوف .

وبكثير من الشراسة والغضب سأل عن العناصر ، مع انهم كانوا يقفون الى جانب السيارة المسلحة ، على اهبة الاستعداد ، واذ مرّ امامهم نظر الى كل واحد منهم نظرة قاسية مكتشفة . نظرة سريعة اقرب الى العداء ، فلما تأكد من كل شيء قال بحدة :

ـ اريدكم تعلموهم الموت الاحمر شلون يكون . كسروا عظامهم . العنوا والد والديهم ولا ترحموهم .

بدت الكلمات غامضة مثيرة للجنود . لم يكونوا يعرفون عن اي شيء يتحدث ، لكن احسوا ان مهمتهم كبيرة وخطيرة ، وانه يعتمد عليهم الى اقصى حد ، ويثق بهم كل الثقة ، لذلك حين قفزوا الى السيارتين ، حيث ركب ستة منهم في السيارة المسلحة ، وركب جوهر ومساعده في السيارة الاخرى ، وطلب من احد العناصر ، وكان اسود اللون كبير الحجم ، ان يركب معه ، كانوا مثل الذئاب الجائعة . كانوا يمتلئون حقداً ورغبة في ان يضربوا ، في ان يدمروا . أما عندما تحركت السيارتان فقد لوح هؤلاء الجنود للآخرين وشدّوا قبضاتهم دلالة انهم

يبدأون الآن .

اعطى جوهر لحركته صفة البراءة : جولة من الجولات التفقدية التي يقوم بها بين فترة واخرى . توجه اول الامر الى السوق . مرّ في شارع الحارثي ثم قصد الراشدية فمعسكر العمال . لم يتوقف في معسكر العمال ، لكن اعطى لسائقه امراً بتخفيض سرعة سيارته الى اقصى حد ، وحين مر بمجموعات ثلاث من العمال ، وكانت عائدة لتوها من معسكر الأميركان ، نظر إليهم باحتقار ممزوج بالحقد ، لكن لم يتوقف ولم يسأل ، وحين وصل الى معسكر الاميركان رأى تجمعاً عند بوابة العمال ، فمر بالقرب من البوابة ، لكنه لم يتوقف ايضاً . اتجه الى بوابة المعسكر الرئيسية ودخل . لم يكن بعد قد اتخذ قراراً او استقر على قرار . كان يريد اختيار الوقت المناسب والنقطة الضعيفة . لم يكن في عجلة من امره . ولم يكن مضطراً لامر . كان متأكداً انه سيسحق رؤوس هؤلاء الذين يريدون ان يخلقوا شغباً في المعسكر ، وكان متأكداً من قوته . انه يعرف هؤلاء البدو ، يعرف متى يأتيهم ومن اية نقطة . قال في نفسه : « الصوت العالي ما هو دائماً دليل قوة ، والرجل الذي يتقدم ليس دائماً اقوى الرجال او اشجعهم . بدو ، اولاد حرام ، وما هو سهل ابداً ان تحزر عليهم . يمكن الواحد منهم يكون بطول الشبر لكن اذا ضام الضيم ، اذا عنّت براسه يصير مثل الصل ، ويصير العن من ابليس ، والذهين . . الذهين هو اللي يعرف متى يضرب ومن يضرب !» . هكذا كان يقول في نفسه وهو يدخل بوابة المعسكر الرئيسية ، بعد ان القى نظرة على العمال المتجمعين عند البوابة الاخرى . أما حين قال له مساعده :

ـ ما قولك ، يا ابو سلطان ، اذا نزلوا الجماعة وسنّعوهم ؟

فقد رد وهو يبتسم ، بعد ان التفت اليه بطرف وجهه :

ـ لا تخف ، يأخذون حقهم وزود . . بس اذا ضربت فاوجع .

توقف قليلاً ثم اضاف :

ـ اريد الصَّل من بينهم ، اذا وصل يدي خليت عنتر بن شداد يتلمس رأسه ويقول : شفاعتك يا رسول الله . . . يا جد الحسنين .

قال الاميركيون ان الاجراء الذي اتخذ بصرف العمال اجراء روتيني تماماً ، وقد سبق ان اتخذت اجراءات مشابهة ، ولذلك لا يقتضي الامر موقفاً استثنائياً ، أما

عدم التحاق قسم من العمال باعمالهم فانه يعود الى الاضطراب الناشىء عن عدم معرفة القراءة والكتابة ، وبالتالي لا يعرف العمال من استغني عنه ومن لم يستغن عنه . واكد الاميركيون انه لمعالجة مثل هذه الحالة في المستقبل سوف يتم الاعلان عن الاسماء في وقت مبكر ، وسوف تتم قراءتها قبل ان تلصق في لوحات الاعلانات . أما العمال الذين صرفوا من الخدمة فعليهم مراجعة ادارة الافراد لتسوية اوضاعهم وصرف استحقاقاتهم .

في طريق العودة كان جوهر اكثر حيرة . هل يرجع الى القيادة دون ان يفعل شيئاً ؟ هل يقول للامير ان الاجراء الذي اتخذه الاميركيون بصرف العمال اجراء لا يعرف ماذا سموه او كيف وصفوه ، وانه مثل الاجراءات الاخرى ؟ وهؤلاء البدو الذين لم يكونوا يجدون كسرة خبز ولا يعرف من اين اتوا ، وقد اصبحوا الآن ، بعد ان عملوا في الشركة ، يلعبون بالفلوس ، وبعد ذلك اذا استراحوا ، اذا قالوا لهم استريحوا . . يعربدون ؟

مرّ قريباً من بوابة العمال . كان العمال لا يزالون هناك . اوقف سيارته على مسافة غير قصيرة ، وأشار بيده طالباً من بعض العمال ان يأتوا اليه . كانت الاشارة واضحة ، لكن تردد العمال وعدم استجابتهم كانا واضحين ايضاً . صاح بصوت قاسٍ :

ـ تعال ، يا ولد ، انت وانت . . .

تطلع بعض العمال الى انفسهم وحواليهم ، متسائلين ما اذا كان يقصدهم ام يقصد غيرهم ، تابع :

ـ انت ، تعال ، انت يا ولد .

تقدم سلمان الزاملي واثنان آخران . وتقدم من الجانب البعيد ، من نقطة الحراسة ، اثنان من رجال الامارة . سأل جوهر بغضب :

ـ ها . . ما عندكم شغل ؟ ليش واقفين بهذا المكان ؟

في هذه الاثناء تقدمت مجموعة كبيرة من العمال ، احاطت بالسيارة ، نزل عناصر السيارة المسلحة ودفعوا العمال . تطلع جوهر الى الوجوه بامعان ، رأى غضباً خطراً ، سأل بلهجة جديدة ماكرة :

ـ لا تخف يا وليدي ، تكلم ، سولف .

ـ طردوا العمال . . .

ـ طردوا العمال ؟

ـ قالوا لهم ما لكم شغل عندنا ، شوفوا لكم شغل في مكان ثانٍ .

ـ انت . . انت طردوك ؟

ـ لا . . انا ما طردوني ، لكن طردوا خوياي .

ـ وما عليك انت ؟

ـ خوياي يا ابن الحلال .

ـ انت لك لازم بنفسك ، ما لك لازم بغيرك .

ـ الله اكبر . . ما لي لازم بخوياي ؟

واختلطت الاصوات ببعضها ، ودفع الجنود العمال الذين تكاثروا وتقدموا من الموكب ، قال جوهر وهو يضحك :

ـ يا جماعة الخير حطوا عقولكم بروسكم وابعدوا عن السوالف اللي تضركم .

توقف لحظة ثم اضاف بلهجة ابوية :

ـ يلله . . . كل واحد منكم لشغله . . .

صرخ واحد من الخلف ولم يتبين جوهر شكله او وجهه :

ـ واللي طردوه من شغله ؟ اللي ما عنده شغل ؟

ـ الشغل واجد ، اكثر من التراب . . .

ـ طردونا دون حق ، دون سبب .

ـ لا ترفع صوتك يا بدوي ، واحمد ربك انك واجد ما تاكله . . .

وتغيرت لهجة جوهر الذي اخذ يرتجف :

ـ قلنا لكم حطوا عقولكم براسكم ، وخلصونا من السوالف الشينة ، واللي ما يفهم هذا الكلام ، عندنا طريقة ثانية نفهمه بها .

توقف مرة اخرى ، زفر بقوة وهو يتطلع في الوجوه التي تحيط بالسيارة ، ثم قال :

ـ من الخير للعنصر اللي يفهم ويتعلم ما بيننا وبينه خلاف ، واللي يعاند ويركب رأسه الله يستره منا !

قبل ان تغيب سيارة جوهر والسيارة المسلحة كان العمال قد كسروا بوابة المعسكر ومزقوا الاوراق وحطموا لوحة الاعلانات . كما جلبوا بعض البراميل الفارغة فسدوا

البوابة الرئيسية والبوابة الاخرى ، وملأوا هذه البراميل بالرمل . وجمعة الذي كان يحاول منعهم ، الذي احتج وصرخ واراد ان يستعمل كرباجه ، ربطوه في عارضة الباب الاسمنتية وتركوه بعد ان اخذوا الكرباج . أما رجال الامارة فقد ابتعدوا حالما ابتعدت سيارة جوهر ، وحين حطم العمال البوابة انسحبوا وهربوا دون ان يحس بهم احد .

عند الظهر كانت جموع العمال تتوجه من المعسكر الى حران ، لا يعرف من اقترح عليهم ذلك او لماذا اخذوا هذا الطريق . أما حين اقتربوا من حران فقد انضم اليهم اناس آخرون ، جميع الذين كانوا في الخيام قرب البحر ، الذين وصلوا من اسابيع وشهور طويلة ، واولئك الذين وصلوا قبل ايام . كما انضم اليهم ايضاً جمع كبير من اهل حران . أما الصبية الذين كانوا شديدي الفرح فقد تراكضوا في انحاء عديدة ، ووصل بعضهم الى حران العرب نفسها ، على التلال الغربية ، وقالوا ان العمال كلهم جاءوا الى حران ، فما لبث ان نزل أهل حران ، وشارك الجميع الناس الذين كانوا في الاسواق . وحين اقتربت الجموع من المقهى لم يبق احد الا وخرج ، فدوى تصفيق الذين يقفون وانضموا الى العمال . وخلال فترة قصيرة اصبح الجميع في المسجد .

نعيم شعيرة ، النصيّص ، الذي كان يترجم لهاملتون ، قال للأمير وهو يرتجف :

ـ المهم الآن ان لا يقترب المضربون من منشآت الشركة . . .

وهز الأمير رأسه دلالة انه فهم ، تابع نعيم وقد تغيرت لهجته :

ـ ونحن الذين اوعزنا لبعض العناصر ان يقنعوا العمال بالتوجه الى حران بدل العودة الى المعسكر وتحطيم المنشآت او اشعال الحرائق . . .

توقف هاملتون قليلاً وقد بدا عليه الهم ، ثم عاود مرة اخرى :

ـ لدينا قناعة ان المسألة تتعدى فصل ثلاثة وعشرين عاملاً . ان الشركة سبق لها ان طلبت من مجموعات ترك العمل ، ولم يحصل اي رد فعل ، ليس هذا فقط ، لقد اعادت الشركة استخدامهم ، او استخدام بعضهم مرة اخرى . أما هذه المرة فان تقديراتنا المبدئية تشير الى وجود اسباب وعوامل تحريض لم تكن موجودة في المرات السابقة ، وقد تكون هذه الاسباب والعوامل لا علاقة لها بالشركة .

كان الأمير يستمع بصمت، يهز رأسه، لكنه لم يكن يفهم بوضوح ما يقوله هاملتون. صحيح ان الترجمان ينقل اليه كلاماً عربياً، وقد سبق ان ترجم بين الاثنين مرات كثيرة، وكان ما يقوله مفهوماً، الا ان ما ينقله لا يبدو مفهوماً بالمقدار الكافي. سأل الأمير في لحظة صمت:

ـ قلت ان الجماعة هم اللي قالوا لهم روحوا حران؟

ـ لما بلغ الهياج درجة كبيرة، وحين حطم العمال البوابات والزجاج، واقترح بعضهم اشعال النار والوصول الى منشآت الشركة، بدأ رجالنا بتنفيذ خطة الطوارىء، وهذه الخطة سبق اقرارها في حال وقوع اية اضطرابات في الشركة لسبب او آخر، ولذلك اقترح رجالنا ان يتوجه العمال الى حران، بدل الذهاب الى المعسكر.

كان هذا الحديث يجري واصداء بعيدة تصل من حران. أما عندما استعمل الأمير منظاره المقرب فقد رأى منظراً عجباً: كان العمال في حالة من الهياج الكامل، العرق يتصبب من وجوههم، وقبضاتهم ترتفع في الهواء. وكان بعض العمال يركب على اكتاف آخرين والجميع يحركون ايديهم، وربما كانوا يشتمون او يصرخون، هكذا قدّر الأمير، لكنه لم يكن متأكداً.

كان من الممكن ان يستمر الأمير في مراقبة المجموع فترة اطول، لكن صوت هاملتون اعاده من جديد:

ـ ماذا تقول يا صاحب السمو.. هل يحتمل ان تكون هناك اسباب غير معروفة للشركة؟

ـ اسباب؟ أية أسباب؟

ـ الشركة تتساءل: هل كان لدى قصر الامارة معلومات سابقة او تقديرات تشير الى احتمال وقوع اضطرابات؟ وهل تعتقدون ان الاضراب نتيجة الاستغناء عن بعض العمال ام ان هناك اسباباً اخرى؟

كان الامير حائراً لا يعرف كيف يجيب عن هذا السؤال المعقد، هز كتفيه انه لا يعرف، وقال وهو يتطلع الى نقطة ابعد من الرجلين:

ـ من يدري؟ الله اعلم

قال هاملتون وهو يتطلع بتحديد الى عيني الامير:

ـ هل هناك علاقة بين هذه الاضطرابات ومتعب الهذال، وهل هي امتداد لاضطرابات السنة الماضية؟

ـ متعب الهذال؟ لا.. يا جماعة الخير، متعب صار اثر بعد عين!

ـ وهل للرجل الذي قتل قبل يومين علاقة بالاضطرابات؟

ـ ويش علاقة الشركة بمفضي الجدعان؟

ـ الشركة لا علاقة لها بهذا الرجل ابداً، كما ان الرجل لم يكن موظفاً في الشركة في يوم من الأيام.

ـ هذا البدوي صاحب طلايب، وكل يوم له مشكلة، ولا احد يعرف من قتله!

ـ وهل لمقتله علاقة بالعمال؟

ـ علاقة بالعمال؟

ـ نقصد الشركة هل مقتله اثار العمال؟ هل حرّضهم؟

ـ ما يندرى!

بعد ذلك اخذ الحديث مجرى آخر. طلب هاملتون من الامير تأمين عناصر حراسة للمنشآت، طلب تأمين عشرين عنصراً، وقال ان الشركة ستتولى اطعام هذه العناصر وتأمين السكن لها، وستكون مهمتها، بالتعاون مع مجموعة الطوارىء الاميركية الموجودة في المعسكر، حماية المنشآت ومنع الاقتراب منها. واقترح هاملتون على الامير ان لا يلجأ الى القوة في فضّ الاضراب، مؤكداً له ان هذا اليوم اذا مرّ دون صدام فان الجو سيبرد تدريجياً، وربما عادت الأمور الى حالتها الطبيعية. واقترح هاملتون اخيراً ان تُشكل غرفة عمليات لمواجهة الموقف، وغرفة العمليات يجب ان تكون من خمسة اشخاص: اثنين من الاميركيين واثنين من الامارة والخامس يمثل عن التجار واصحاب المصالح في حران. وهؤلاء يمكن ان يجتمعوا مرتين يومياً، ويمكن، اذا اقتضت الضرورة، ان يبقوا في حالة اجتماع دائم، خاصة في الفترة الاولى لمعالجة الموقف. وقال هاملتون اخيراً وهو يستعد لأن يغادر:

ـ لقد حدّدنا عناصرنا، يا صاحب السمو، وهم على اهبة الاستعداد في كل خطة، وسوف يقوم نعيم بزيارتكم بعد ساعتين من الآن ليتلقى توجيهاتكم بخصوص موعد اجتماع غرفة العمليات واية أمور اخرى!

والامير الذي اعجبته الفكرة ، بل أخذ بها تماماً ، قال لنفسه ان الاميركيين يفكرون بكل شيء ، وانهم مستعدون لكل شيء . أما عندما وقف هاملتون ، فقد سأل سؤالا اخيراً :

ـ نعتبر اننا اتفقنا على كل شيء يا صاحب السمو . . اليس كذلك ؟

رد الامير وهو يفكر تفكيراً مختلطاً مضطرباً :

ـ وكّل الله ، وانشاء الله ما يصير الا الخير !

* * * *

حين سأل الامير عن جوهر ولم يجده ، قيل له انه نزل الى السوق مع ثلاثة من العناصر ، قبل وصول العمال الى المسجد ، ومن المتوقع ان يعود بين لحظة واخرى ، لذلك قرّر الامير بالتشاور مع نائبه ، تأجيل البتّ في القضايا الى حين عودة جوهر ، وبعد ذلك انشغل بمراقبة السوق والجموع ، ولم ينس ان يتطلع عرضاً نحو البحر ونحو معسكر الاميركيين .

أما جوهر الذي نزل مبكراً الى السوق ، بعد ان وصلته المعلومات حول تحرك العمال وتوجههم الى حران ، فقد وجد نفسه مضطراً ، لئلا يلتقي بالجموع ، للتوجه الى مكاتب حسن رضائي .

كان في البداية شديد الثقة ، بادي الغضب ، كان يشتم ويعربد ، واكد ان عملاً مثل هذا لن يمر دون عقاب . عقاب شديد ، وتساءل بمرارة :

ـ آخ على من يعلمني . . اذا عرفت من هو الي وراء هذه الطوشة والله لا فرّق لحمه على تلال حران كلها .

أما محاولات حسن رضائي في ان يخفف من غضبه باعتبار ما يحصل الآن شيئاً طارئاً . حالة من حالات الغضب ، ولا بد ان تزول وتنتهي كما بدأت ، هذه المحاولات لم تجد ، بل واصبح الغضب خوفاً حين بدأت الجموع تقترب . بدأت الاصوات تصل اوضح واقوى ، وجوهر الذي تراءى له ان هذه الجموع يمكن ان تكتشف مكانه ، ويمكن ان تهجم عليه وتفتك به ، بدا شديد العصبية والخشونة في التعامل مع العناصر التي كانت ترافقه . سألهم اكثر من مرة عن مكان وقوف السيارة ، وما اذا رآهم احد اثناء وقوفهم ثم صعودهم الى مكاتب رضائي ، وحين

أطل من النافذة ورأى السيارة تقف مقابل المكاتب مباشرة ولا بد أن يكتشف ، تساءل بمكر :

ـ وين نحط السيارة ، يا جماعة الخير ، احسن ما يحرقها هالمجانين ؟

واخرجت احدى سيارات حسن رضائي من الكراج وادخلت سيارة جوهر ، لقد تم هذا بكثير من العجلة والارتباك ، وبدا هذا التصرف لجوهر في احدى اللحظات انه خطأ بالغ . فالجموع التي كانت تقترب ، لا بد ان تكون قد لاحظت هذه الحركة الرعناء ، ويمكن ان تُفسّر بشكل خاطىء ، قال حين دخل السائق :

ـ ابدا ما تصيرون اوادم ، ساعة الى حين ما تدخلون السيارة ؟

ولما ظل السائق صامتاً ، اضاف جوهر :

ـ ها . . احد شافكم ؟

ـ لا . . سيدي

ومع ان جوهر راقب كل شيء بنفسه ، الا انه لم يكن مطمئناً . كانت كل خطوة تقربه من الجموع ، او تقرّب الجموع منه تشعره بمزيد من الخوف . وحسن رضائي الذي أعداه الخوف ، فبدأ يتحرك في الغرفة كما لو انه حيوان حبيس ، قال في لحظة ضعف :

ـ الاحسن يا ابو سلطان ان ندخل الى الغرفة الثانية .

ودون ان ينتظر مناقشة او موافقة جوهر ، الذي وقف بلا تردد ، دخلا الغرفة الصغيرة .

كانت الغرفة اقرب الى المستودع ، حيث توضع فيها مجموعة من الحقائب وخزانة لحفظ الاوراق وقاصة حديدية ، كانت هذه الغرفة ببابها الحديدي وجدرانها القوية ، رغم صغرها ، توحي لحسن رضائي بالطمأنينة .

دخلا الغرفة واغلقا الباب من الداخل ، ومن الشباك الطويل الضيق ، والذي اشبه ما يكون بالشق في الجدار ، ومن وراء ستارة خشنة ، كان يأتيهما الصوت اول الأمر ، ثم بدأت طلائع الجموع . كان الخوف يزيد ويكبر مع كل خطوة ، وجوهر الذي حاول ان يبدو متماسكاً قوياً ما لبث ان شعر بقلبه يخفق وانفاسه تضيق ، قال باضطراب :

ـ لو سدينا الباب اسفل .

ردّ حسن رضائي وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
ـ كل الابواب اقفلت يا ابو سلطان .

حين كانت الجموع تمر تحت النافذة بدت الوجوه لجوهر متشابهة الى القدس حد ، او كأنها وجه واحد يتكرر مئات المرات ، وكان وقع الاقدام الثقيلة اشبه ما يكون بضربات أيدٍ ماهرة في عجين لين . أما الاصوات فكانت كثيفة منغمة وهي تردد وراء سلمان الزامل :

جوهر خبّر دولتك اللي بنوا الهيب سباع
والرجال تحمي حقوقها وما تصير للاميركان متاع
وهذي الديرة ديرتنا

بعد الغروب قال جوهر للامير ، وقد بدا [illegible] الاضطراب :
ـ مجانين ، يا ابو مسفر ، كل واحد منهم [illegible] مثل السلوقية ، وما تعرف ويش يريدون ، ولولا ان الله نجّانا ذبحونا .
ضحك الامير والتفت الى حسن رضائي الذي اوصل جوهر بسيارته ، وقال :
ـ بدوان وفورتهم قصيرة ، مثل المزنة تمضي وتمشي ، واذا [illegible] بعضهم .
رد جوهر وكان لا يزال خائفاً :
ـ اذا تركناهم يا طويل العمر اكلوا الاخضر واليابس .
ـ انت تعرف البدوان يا جوهر . .
ـ اعرفهم ، اولاد حرام ، يا طويل العمر ، واذا ما وجعهم [illegible] بصير .
ـ الاميركان يقولون اتركوهم . .
ـ ويش اللي يفهّم الاميركان ؟
وهز جوهر رأسه اسفاً ولوعة ثم [illegible] :
ـ حنا ادرى بجماعتنا يا ابو مسفر
ـ ما تقول يا ابو صادق ؟
هكذا سأل الامير موجهاً الخطاب [illegible] رضائي [illegible] الذي [illegible]
[illegible]

شيء ، واذا تُركوا لا يعرف الانسان ماذا يحصل .
قال الامير وهو يضحك :
ـ وكّلوا الله يا جماعة الخير . . بدوان وحنا نعرفهم زين ، يوم والثاني ، وبعدها كل شي ينتهي ، وكأنه ما كان .
ـ يا ابو مسفر ، يا طويل العمر ، ما هم بدوان وبس ، بدوان وحضر ، وحران كلها معهم وجماعتنا اللي بين العمال يقولون متعب الهذال ما هو بعيد عن هذه السالفة ، واذا تركناهم ما اظن تنتهي على خير .

هكذا رد جوهر ، وحين تدخل نائب الامير في هذا الحوار ، واقترح ان يترك الامر للغد ، ليعرف ما اذا كان سيأخذ نفس المجرى ونفس الحدة ام ينتهي كما بدأ ، وافق الجميع . أما حين وصل نعيم شعيرة ، للمرة الثانية ، في هذا المساء ، فقد أبلغ أن « الأمير في حالة اجتماع دائم مع المسؤولين » كما اقترح حسن رضائي أن ينقل للأميركيين ، ويمكن أن يأتي نعيم غداً في الحادية عشرة لابلاغه بالخطوات الضرورية والمناسبة .

بعد الغروب بقليل هدأت حران مرة اخرى . احست بالارتواء فارتخت ثم بدأت تستريح . أما الجموع التي ملأت الشوارع كلها فقد ذابت كما يذوب الملح في الماء ، اذ لم يبق بيت في السوق او على التلال الغربية الا وفتح ابوابه لاستضافة عدد من العمال ، ولم يبق احد من اهل حران الا ورجع ومعه اثنان او ثلاثة من « ضيوف الرحمن » كما اطلق على العمال ذلك اليوم . أما الذين اصروا على البقاء في المسجد او في المقهى ، وقرروا قضاء الليل هناك ، فقد حُمل اليهم الأكل والماء . ورغم ان الماء كان موفوراً ، وليست ثمة ضرورة لحمله من حران العرب او أماكن اخرى ، فقد اصرّ عدد من الفقراء على جلبه ، وكانوا يقدمونه دون طلب مع كلمات حزينة : « لروح مفضي الذي سقى حران كلها » .

ومثلما كانت الليلة التي مات فيها مفضي طويلة فقد كانت هذه الليلة طويلة ايضاً . احس الناس بالشقاء الذي يزحف نحوهم وبالخوف يطوقهم . كان احساساً غامضاً لكنه كثيف . وربما فكر كل واحد انه اذا كان مفضي قد مات الآن هكذا ، فان اياً منهم يمكن ان يموت مثله دون سبب ودون ان يعرف قاتله . وهؤلاء العمال الذين طردوا اليوم ولا يعرف ماذا سيفعلون او الى اين يذهبون ، فان كل

عامل معرض اي يوم لنفس المصير . أما ما قاله جوهر ان يحمدوا الله لأنهم ما زالوا احياء وما زالوا يأكلون ، فلا احد يعرف الى متى سيبقون احياء وما اذا سيجدون غداً ما يأكلونه ! صحيح ان الشركة تدفع الآن ، لكن ما يتلقونه بيد يدفعونه باليد الاخرى في اليوم التالي . اصبحت اسعار الحاجات ترتفع يوماً بعد يوم ، واصبح المال يتجمع في ايدٍ قليلة . أما الوعود التي قدمها ابن الراشد قبل سنين ، وهو يسوقهم من عجرة والاماكن الاخرى ، سواء بالبيوت التي سيجدونها في حران ، أو بالحياة التي سيحيونها ، فقد تلاشت قبل ان يغيب ابن الراشد . وما قالته « ادارة الافراد » من ان الشركة ستبني بيوتاً للعمال ، وسيكون بمقدور كل واحد منهم ان يأتي بعائلته ، وان يرجع الى بيته واولاده كل مساء ، ها قد مضت سنوات ، سنة وراء اخرى ، ولم يُشد بيت واحد ، ولم تزل البركسات الملعونة ، والتي تزيد حرارة وقذارة يوماً بعد آخر ، المكان الذي يحشرون فيه كل ليلة .

تذكر العمال ذلك وتذكروا أهلهم فشعروا بالحزن يسحقهم . وأهل حران الذين نظروا في وجوه هؤلاء ونظروا في وجوه بعضهم بعضاً ، ورأوها حزينة مهمومة ، قدروا أن وراء هذا الحزن أسباباً جعلتهم هكذا فحزنوا مرة أخرى ، ثم شعروا بالخوف أيضاً ، لكنهم مع ذلك تجرأوا وقالوا أشياء ما كانوا ليقولوها لو لم يستبد بهم هذا الحزن كله وهذا الغضب كله . لماذا يعيشون هم هكذا ويعيش الأميركيون بشكل آخر ؟ لماذا يحرّم عليهم الاقتراب من بيوت الأميركيين أو مجرد النظر إلى برك السباحة او الوقوف لحظات في ظل شجرة من الاشجار ؟ والاميركيون لماذا يصرخون طالبين اليهم ان يتحركوا ، ان يتركوا المكان فوراً ، ويطردونهم كما تطرد الكلاب ؟ حتى جمعة لا يتردد في ضرب اي واحد منهم بكرباجه اذا وجده في « الامكنة الممنوعة » . لقد زرعوا تلك الاشارات التي تمنع الوقوف او الاقتراب في معظم الامكنة . حتى البحر وضعوا فيه الاسلاك الشائكة التي تحرّم الاجتياز ابعد من مسافة معينة .

ولماذا يجبرهم الاميركيون على القيام باعمال لا يفكر اي واحد منهم القيام بها ؟ ومع انهم سكتوا ورضوا بكل شيء ، فان الاميركيين لا يرضون ولا يوافقون على مجرد استمرارهم في العمل .

. . . والأمير هل هو أمير لهم ، يدافع عنهم ، يحميهم أم أمير للأميركان؟ لقد كان أول وصوله الى حران انساناً آخر . كان لا يتردد في النزول الى السوق ، وكان الكثيرون

يشربون القهوة عنده . أما عندما بدأت تلك الآلات التي جلبها له حسن رضائي وغيره تشغله ، فقد غرق فيها وترك الامور كلها لجوهر . وجوهر اي انسان هو ؟ مع الاميركيين كأنه النعجة . يصمت ، يستمع بأدب ، يهز رأسه مع كل كلمة يقولونها له ، ومع نعيم شعيرة ، النصيّص ، يضحك ، يتحدث كما لو كانا صديقين او اخوين ، أما اذا التفت ورأى بعض العرب فلا يتردد ابداً في ان يشتمهم وأمام الاميركيين بشكل خاص ، بل وبلغ به الأمر ان استعمل عصاه عدة مرات دون سبب . ويتذكر العمال اموراً عجيبة : ففي احدى المرات ، اثناء جولة من جولاته ، وقف مع بعض العمال ، وأخذ يسألهم عن اسمائهم ومن اين جاءوا وكم مرّ عليهم من الوقت في الشركة ، كان في لحظة من لحظات صفائه ، وقد حصل هذا بعد ان لبس البذلة العسكرية بشهور قليلة ، واذ تجمع العمال حوله واخذوا يتحدثون ، مرّ احد الاميركيين ، وربما اراد شيئاً من جوهر او ربما كان مدفوعاً بفضوله ، اذ ما كاد يقترب ويراه جوهر حتى بدأ يشتم العمال ويضربهم بعصاه ، طالباً منهم الانصراف الى اعمالهم . . والا فسوف يسجنهم كلهم !

لقد استغرب العمال هذا التصرف ولم يجدوا له تفسيراً او سبباً . وفي مرة اخرى طلب من مجموعة من العمال ان يأتوا الى دار الامارة في يوم العطلة لكي يساعدوا في بناء السور ، وقد كان مرحاً وهادئاً اثناء الحديث معهم ، واكد ان العمل لن يحتاج الا نصف يوم ، والعمال الذين ابدوا استعدادهم للمجيء والقيام بالعمل ، ما لبثوا ان دهشوا حين وصل نعيم الى وسط تلك الحلقة فجأة ، واذ بجوهر يتغير تماماً . اخذ يصرخ ، وما لبث ان طلب من الجنود الذين يرافقونه القاء القبض على ثلاثة من العمال وسوقهم الى السجن مباشرة . وبعد ان قضوا في السجن اسبوعاً لم يخرجهم الا بعد ان تشفع لهم نعيم نفسه !

القصص التي تروى عن جوهر لا نهاية لها ، وتتزايد اسبوعاً بعد آخر ، واذا كان الناس مستعدين للنسيان والتسامح فانهم لا يستطيعون ذلك دون حدود . فما كاد خبر مقتل مفضي يصل الى الناس حتى احسوا باحقادهم كلها تطفو ، واحسوا انهم مظلومون اكثر مما ينبغي واكثر مما يحتملون . وحين وقف سلمان الزامل على سور الجامع وقال ان اهل حران والعمال ليسوا ضد احد ولا يريدون اكثر من شيئين : اعادة العمال الذين طردوا ، والتحقيق لمعرفة قاتل مفضي الجدعان ، حين قال

سلمان الزامل هذا الكلام صفق الناس وقالوا : الله اكبر . . الله اكبر . أما الاهازيج التي اخترعوها في التو واللحظة فكانت تركز على هذين المطلبين . كانت الاهزوجة تقول :

دمك يا مفضي ما يضيع حران كلها تطالب
وانت يا ابو التل الشمالي تسمع ولازم تجاوب
دمك يا مفضي ما يضيع

أما الاهزوجة الثانية فكانت كما يلي :

حجر حجر حنا اللي بنينا وشبر شبر حنا اللي مدينا
وبعد ما عمّرنا وبنينا ما تقولي يا شركة يا الله
وفي امان الله
وما لكم حقوق
حقوقنا قايمة ودايمة
وحنا اصحاب الحقوق
ونحصلها بدمنا وايدينا

ومثلما اختلطت الوجوه على جوهر فلم يستطع في تلك الغرفة الصغيرة ان يميز وجهاً من آخر ، فان ما قاله الناس كان مشوشاً متداخلاً في اذنيه ، وكأنه هدير رعد ، فلم يستطع ان يسمع وان يميز ، أما عندما جاءه بعض الرجال في الليل المتأخر ، وقالوا ان اهل حران كلهم كانوا في المظاهرة وانهم كانوا يهزجون ويطالبون بدم مفضي وعودة العمال الذين طردوا ، فقد بلغ جوهر درجة من الغضب ان شتم الذين جاءوا بالاخبار ووصفهم بالجبن وقال انه سينتقم منهم !

الامير الذي اعتبر تأجيل اتخاذ القرار الى الغد حلاً مناسباً ، سر لوجود حسن رضائي في تلك الليلة . ان هذا الرجل يوحي له بالطمأنينة وسعة العالم ، اذ بالاضافة الى الاكتشافات العلمية الكبرى التي أطلعه عليها ، فان اسفاره في العالم وتجاربه الكثيرة كانت زاداً لا ينضب . فما كاد الامير يلقي نظرة متأنية مدققة على حران بعد الغروب ، فوجدها هادئة مستقرة حتى فتح الراديو على اذاعة لندن ، وبعد ان استمع وحسن رضائي ونائبه الى الاخبار ، بدا في حالة من الثقة اقرب الى

النشوة ، اذ لديه هذه الليلة ما يقوله ويبحثه مع حسن رضائي .

عاد مرة اخرى الى ما حدث ، قال بتأكيد حازم ان الاميركان فكروا بكل شيء ، وابلغوه ان الامور ستنتهي كما بدأت ، وهو يتفق معهم تماماً .

قال هذا وابتسم ابتسامة كبيرة واثقة ، ثم طلب من حسن رضائي ان يقترب منه لكي يبلغه بسرٍّ لم يبح به لاحد ، فلما اقترب غمز لنائبه ان يقترب ايضاً ، فلما اصبحت رؤ وسهم متلاصقة همس :

- بعد كم يوم تصلنا آلة عجيبة . . واذا اشتغلت كل المشاكل تنحل وتنتهي !

بدا حسن رضائي مستغرباً حائراً ، اذ لم يفهم ما قاله الامير ، ولم يرد ان يظهر بانه لم يفهم ، وحين هز الامير رأسه دلالة الثقة ، وبدا له ان الاكتشاف الجديد الذي اطلعه عليه الاميركان قبل بضعة ايام اكبر واخطر من ان يفهمه حسن رضائي بهذه السهولة ، سرّ سروراً كبيراً لانه يعرف اكثر منه ، ودون انتظار نهض محاذراً خفيفاً ، ومن بين الوسائد التي كانت موضوعة في مكان قريب استخرج تلك الآلة العجيبة . حملها كما يحمل الاب ابنه الأول ، وبهدوء وضعها بين يدي حسن رضائي ، فلما ضحك حسن وقال :

- اي نعم . . اي نعم . . تلفون

فقد فوجىء الامير وبانت عليه الدهشة ، وبدأ يسأل حسن ما اذا كان قد رأى هذه الآلة واين ، وحين اكد له انه رآها في أماكن عديدة ، فقد ابدى الامير اعجابه ، وطلب منه ان يشرح له كل ما يتعلق بها : كيف تعمل ؟ وهل تعمل في الليل والنهار ؟ وهل تتعب او تستريح . . وهل يمكن للانسان ان يتصل من خلالها باشخاص غائبين حتى لو كانوا امواتاً ؟

وحسن رضائي الذي حاول ان يشرح ، قال اشياء كثيرة معقّدة ، لكن الامير فهم منها اهمية هذه الآلة وفائدتها ، وكيف يمكن ان تقرب المسافات وتساعد البشر ، فما كان منه الا ان افشى سره :

قال لي الصاحب رئيس المعسكر ، باسبوعين ، واقصى حد شهر ، يكون بين الامارة والمعسكر اتصال دائم ويمكن ان نتكلم بالليل والنهار عن طريق هذه الآلة

وبدأ الامير يجرب الآلة : هالو . . هالو ترانك ، هالو . . اجب ،هالو حوّل .لقد استعمل كل العبارات التي سمعها اثناء زيارته لمعسكر الاميركان قبل أسبوع ، وحين اكد له هاملتون ان الاجراءات قد اتخذت من اجل مد الخطوط بين المعسكر ودار الامارة كان شديد الانفعال مسروراً الى اقصى حد . كان يتمنى ان ينهض في احدى الليالي على صوت الجرس . ان الجرس لا يقل اهمية وغموضاً عن الآلة نفسها ، وان كان فيه شيء نصراني كما قال بنوع من الاسف ، لكن شغله كيف يدق وحده ، وهل يستطيع المسلمون ان يحوّلوه فيقول الله اكبر بدل هذا الصوت ؟

قضى الامير السهرة كلها يتحدث عن هذه الآلة العجيبة ، وتخيل اشياء لا حصر لها يمكن ان تتحقق من هذا الاكتشاف العظيم ؛ واكد لنائبه انه اذا وصل الى حران يمكن ان يساعد دار الامارة مساعدات لا حصر لها ، فما لا يستطيعه المنظار المقرب يمكن لهذا الاكتشاف ان يحققه :

ـ الصوت . . نعم الصوت يا ابو رشوان اهم شيء .ويش يقول الناس، ويش يفكرون ، لا كيف يظهرون . . هذا هو المهم .

واسترسل الامير ، وتذكر انه احب اكثر من امرأة من خلال الراديو . قال وهو يتمدد مستريحاً هادئاً مستقراً :

ـ والاذن تعشق قبل العين احيانا !

في نفس الوقت الذي انشغل الامير بالتلفون ، انشغل جوهر بأمور اخرى : كيف يستطيع ان يدمر الاضراب ؟ كيف يستطيع ان يقبض على الذين خلقوا هذه المشاكل ؟ واذ قيل له ان سلمان الزامل هو الذي وقف على سور الجامع وقال تلك الاشعار ، بدأ يحاول استعادة صورة ذلك الرجل . انه يتذكره ، يتذكره بكل تأكيد ، لكن صورته الآن تتداخل مع صور الكثيرين وتتلاشى بسرعة . قال للرجال الاربعة الذين استدعاهم :

ـ ها . . . ننتظر الى حين ما اولاد الحرام يشعلوها ؟ لا . حنا نشعلها ونلعن والد والديهم ! أحسن ما يجونا غَفَل ويقولون يصير وما يصير ، حنا ندّبي عليهم ، نمسكهم بحجورهم . وهذا ابن الزامل أريده ، لا تذبحوه ، قولوا له تعال معنا وكل شيء يصير ، واذا يدي قصبته خلص . .

والرجال الذين يستمعون لا يعرفون ماذا يجب ان يفعلوا او ما هو الشيء المطلوب منهم . يتطلعون الى وجه جوهر ، وبسرية يتبادلون فيما بينهم نظرات متسائلة ، أما حين قال :

ـ من الفجر ، قبل الاذان ، تكونون بالمسجد ، وقبل ما يتكلم احد . قبل ما يقول كلمة ، تقولون : الشركة ، ابو الشركة ، احرقوها ، العنوا ابو اللي سواها ، هي السبب ، وبعدها ما عليكم .

اعاد جوهر هذه التعليمات عدة مرات ، حتى اذا استوعبها الرجال قال لهم بحزم :

ـ الليلة ما تنامون ، اسهروا وما عليكم .

وانصرف الى تهيئة العناصر التي ستأخذ مواقع عند الاسلاك ، قريباً من البوابة الرئيسية ، ومن بوابة العمال . لقد اعدّ لذلك جميع مفارز البادية ، عدا حرس الامير .

كانت ليلة كبيرة لم ينم خلالها احد . وجوهر الذي طلب من مرافقه الاسود ان يوقظه قبل الفجر ، لم يستطع ان ينام لحظة واحدة . كان يتقلب في فراشه ، كان يتصور العمال واهل حران يتقدمون نحو المعسكر ، وتراءى له رجاله الذين ارسلهم في الليل يصطدمون مع المتظاهرين فتسيل الدماء . وتصور ايضاً كيف ان الاميركان والامير وكل اهل حران يتوجهون إليه ، يناشدونه ، يطلبون منه ان يضع حداً لهذا الذي يجري ، وهو بمقدار ما يعرف كل شيء ، بمقدار الثقة التي انطلق منها ، يريد ان يقبض على بعض الاشخاص ، ان يجعلهم امثولة .

ان الامر اكبر من ان يتركه يفلت من بين يديه . واذا كان قد وافق ان يبقى في تلك الغرفة الصغيرة ، وان يسمع الشتائم والتحديات ، ويرى هؤلاء الذين كان يضربهم ، يصرخ في وجوههم فيتفرقون ، قد اصبحوا هكذا الآن ، فانه لا يستطيع ان يحتمل او ان يتسامح . الاميركان لا يعرفون هؤلاء البدو قدر معرفته لهم . أما الامير فانه مشغول بأمور لا يعرف ما هي ، وكل ما يقوله مجرد كلمات لا معنى لها . لا يمكن ان يترك الامور تفلت من بين يديه . انه المعني بالامن ، وهو الوحيد القادر على ان يفعل شيئاً . اذا لم يفعل هو بالذات فلن يستطيع احد غيره . اذا استطاع ان ينجح في القبض على هؤلاء الذين كانوا وراء هذه الفوضى ، سوف يشكره

الجميع . حران ليست بحاجة الى مثل هؤلاء ولا يمكن ان يسمح بأكثر من ذلك . وهل بلغ بهم الأمر ان يطالبوا بدم مفضي ؟ اذ تركهم دون عقاب يمكن ، غداً او بعد غد ، ان يطالبوا بكل شيء . هؤلاء البدو اطمع من الذئاب ، لا لن يتركهم يفلتون ، انهم جبناء ، اذا ضرب الرؤوس سوف يصمت الآخرون ، يصبحون كالنعاج ، لا احد يتكلم، لا احد يفتح فمه .

العمال واهل حران ناموا نوما عميقاً . حتى اولئك الذين يحبون المرح ، ويلذ لهم ان يخلقوا المشاكل او المقالب في اللحظة الأخيرة ، لم يفعلوا الا القليل . نام العمال في البيوت وفي المسجد ، والذين رغبوا بالعودة الى المعسكر لم يصروا على ذلك ، لأن المسافة كانت كبيرة . وكان شيء من التحسب يسيطر على الجميع .

* * * *

سلمان الزامل الذي كان ضيف ابن نفاع ومعه ابن هذال واثنان آخران ، بدا قلقاً متحسباً وهم يشربون القهوة بعد العشاء ، عكس ما كان وضعه خلال النهار ، فالثقة التي كان يمتلىء بها وهو يهتف ، وهو يهزج ، وحين وقف على سور الجامع ، حلّ مكانها شك مشوب بالتساؤل : اين جوهر ؟ لماذا لم يعترض المتظاهرين ؟ واذا مرّ هذا اليوم هكذا فهل ستكون الأيام الاخرى مثله ؟ والشركة هل تستجيب وتعيد العمال الى اشغالهم ام تبقى بعيدة وراء الاسلاك لا تسمع ولا تجيب ؟

ان شكاً اقرب الى الحيرة سيطر عليه ، وكان بحاجة الى الآخرين ، ان يسمع منهم ،وان يسألهم ، اذ لا بد ان يمتحن قناعاته قبل ان يقدم على الخطوة التالية . قال ابن نفاع وقد قرأ الشكوك التي تساوره :

- اسمع ، يا وليدي ، اسمع وتفطن ، ترى اذا طاح جمل او عثر بدوي من المياسم الى جويريد ، ومن البحر الى مصر ، ترى وُلد الحرام وراه . .

سأل سلمان مازحاً ، وقد فهم انه يعني الاميركان :

- وجوهر يا ابو عثمان ؟
- من هذا الكلب ؟ اجير عندهم ، لقّام ، وما يسوى نواة .
- ومن اللي ذبح مفضي ؟
- سبحان الله . . انت تسألني يا ابن أخي ؟

- ما هو جوهر اللي ذبحه ؟
- اي نعم جوهر ، لكن من جوهر بلّياهم ؟
- وين صار ثارنا يا ابو عثمان ؟
- ثارنا عندهم وعند غيرهم .
- وما هو شورك لباكر وعقب باكر ؟
- القول اللي قلته بالمسجد اليوم : يرجع العمال ، ويقولون من ذبح مفضي.
- واذا ما سمعوا ؟
- يسمعون ،يا وليدي. نعم يسمعون ، الدق يذوب الصفا ، بس انتم كونوا جميع ، لا تتفرقوا ولا يدهي بعقولكم اولاد الحرام ، ترى الناس كلها معاكم .

يوم الأحد لم يكن يوماً عادياً في حران ، فالمسنون الذين تعودوا ان يكونوا وحدهم في المسجد أثناء صلاة الصبح ، وجدوا انفسهم قلة وسط الناس الذين امتلأ بهم المسجد هذا الفجر ، ووجدوا ان أعداداً كبيرة سبقتهم . أما الذين ناموا في المسجد فقد اكتفوا بساعات قليلة ثم قضوا ما تبقى من الليل في القصص والمزاح ، وصلى بعضهم أيضاً ؛ ولم يتردد عدد منهم في إخلاء أمكنتهم للذين جاءوا متأخرين بعض الشيء . وابن نفاع الذي أمَّ المصلين ، ـ لأن الامام كان مريضاً او ربما تظاهر بالمرض ، لم يتردد في أن يقول أشياء وأشياء قبل الصلاة وبعدها . ففي الحلقة التي كبرت وتكاثفت حوله قبل الصلاة ، قال ان هذه هي أيام حران ، كما كانت للعرب أيام في الجاهلية والاسلام ، واكد انه إذا كانت الصلاة فرضاً على المسلم ، فان مقاومة الظلم فرض ، وحماية المسلم لأخيه المسلم فرض ، والدفاع عن الأرض والحق فرض . وقال ان في الاتحاد قوة ، وانه لا تُغلب فئة متآخية متحابة ، أما اذا تفرق الناس واختلطت اهواؤهم ونواياهم ذهبت ريحهم . قال ابن نفاع هذا وقال أشياء اخرى ايضاً . أما حين اختار تلك الآيات بالذات ورددها بصوت مُنغَّم واضح النبرات اثناء الصلاة ، فقد استقرت في قلوب الناس وأثرت فيهم كثيراً ، حتى لكأنهم اصبحوا طينة اخرى وبشراً من نوع آخر .

قال كثيرون ، بعد انتهاء الصلاة ، انهم أحسوا بالملائكة تحوم فوق رؤوسهم . وقال آخرون ان نوراً ابيض حاداً قوياً كأنه البرق ملأ المسجد كله عندما قال ابن نفاع : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أما حين ذهب الرجال جماعات جماعات الى السوق او الى مقهى أبو أسعد الحلواني ، للتجول او الاستراحة قليلاً ، فقد اتفقوا أن يلتقوا مرة اخرى عند الضحى . . . وفي المسجد ايضاً .

وما عدا المخابز وبعض الدكاكين ظلت حران صامتة مغلقة . وباص عجرة الذي يغادر في السادسة كل يوم لم يجد راكباً واحداً ، حتى الذين دفعوا الأجرة قبل أيام ورتبوا أمورهم على أن يسافروا هذا اليوم بالذات لم يفعلوا . أما حين جاء بعض العمال في الضحى ، وهم في طريقهم الى المسجد ، وسألوا السائق الذي كان مشغولاً باصلاح الباص ، ما اذا كان سيغادر الى عجرة ذلك اليوم ، فقد رد دون ان يرفع رأسه :

ـ السيارة مكسورة وتحتاج يومين او ثلاثة أيام الى ان تتصلح !

وأبو اسعد الحلواني الذي قرر أن يشارك الآخرين في الاضراب ، وقال للعمال وهم يدخلون المقهى انه سيستقبلهم لكن لن يقدم لهم شيئاً ، ما لبث أن تراجع وقال بصوت فرح :

ـ صار لي خمس . . ست سنين اسقي اهل حران ، واليوم ، اذا اراد اهل حران ان يشربوا فهذه هي العدة : كل شيء موجود : الشاي ، السكر ، القهوة ، . . . المهم ان يشمر كم واحد منكم ، لان ابو اسعد اليوم مُسبت ، اي بالعربي : مضرب .

وبكثير من الصخب حلّ بعض العمال محل أبو أسعد ، لكن الأخطاء التي ارتكبوها ، والهرج الذي ملأ المقهى جعله يقطع الاضراب ويعود الى خدمة الزبائن !

❊ ❊ ❊ ❊

كل المحاولات التي جرت من أجل استدراج الناس الى العنف والصدام فشلت ، فقد ظل كل شيء في إطار المطالبة باعادة العمال والتحقيق في مقتل

مفضي . أما عندما جرت محاولة احراق سيارة من سيارات رضائي فقد قاومها الكثيرون ، وقالوا : « احراق سيارة يحرق حران كلها ،وجوهر ينتظر الشرارة لكي يبدأ الحريق الكبير ! » وحين اقترح بعض الناس التوجه الى الشركة واقتحام الأبواب وتكسير كل شيء رد سلمان الزامل ، وهو يتطلع في عيني ذلك البدوي الذي أخذ يصرخ ويطالب بالتوجه الى الشركة ، رد عليه :

ـ اسمع . . ذاك هو باب الشركة ، رح وحدك ، وقل لهم العمال بحران ينتظرونكم :

ولما صرخ البدوي مرة اخرى امسك به فواز الهذال من رقبته ، وقال بغضب :

ـ قلنا لك : ذاك باب الشركة ، وهالمرة نريد الشركة تجينا ، ولازم تجي .

ومثلما حصل في اليوم السابق ظلت الأمور في حران هكذا حتى العصر ، اذ انطلقت الجموع من المسجد ، فطافت الشوارع الرئيسية الثلاثة ثم عادت مرة اخرى ، والأهازيج التي نظمها الناس بالأمس أضيفت اليها بعض الكلمات او عدّلت بعض الشيء لتكون اوضح وأقوى . أما الدباسي الذي أصبح رسولاً بين أهل حران ودار الامارة ، فنقل عن الأمير قوله ان العمال الذين تركوا اعمالهم لا بد ان يرجعوا في وقت من الأوقات ، وانه يطلب من العمال انهاء الاضراب والعودة الى العمل ، أما ما يتعلق بمفضي فان مفضي قدمات وانتهى ، ولا أحد يعرف من قتله .

نقل الدباسي ما قاله الأمير أو ما سمعه من الآخرين بألم ومرارة ، وقد تأكد بعد زيارتين لدار الامارة ، الأولى عند الضحى والثانية ظهراً ، تأكد له ان استمراره بالوساطة لن يجدي ، ولا بد ان يغضب منه أحد الطرفين لو قام بمحاولة ثالثة ، ولذلك حين نقل للعمال ما قيل له في المرة الثانية أضاف بحزن كأنه يكلم نفسه :

ـ المرا والأمير والولد الصغير يظنون ان كل شيء يصير .

وحين نظر اليه العمال ولم يفهموا شيئاً مما قاله أو قصد اليه ، ابتسم بحزن وأضاف :

ـ أولها وتاليها الرأي رأيكم ، انتم اعرف ، وانا مثل ما تشوفون : العين بصيرة واليد قصيرة .

كان يريد ان يقول للعمال ان يصمدوا ، ان يثابروا ، لأن عينيه برقتا بغضب

حين صاح احد العمال : « ودم مفضي ـ يا ابو صالح ؟ » لكنه لم يستطع ، لان كلمة مثل هذه لو قالها لا بد ان تصل الى دار الامارة ، وبعدها سيطرد من حران ، ولن يأمن ولن يستطيع ان يواجه الامير . كان حائراً موزعاً ، اذ بمقدار ما كان يعتز بالعلاقة بالتل الشمالي ، وبالصداقة التي تربطه بالأمير ، بمقدار ما كان إحساسه ان مقتل مفضي ليس له ما يبرره ويجب الا يمر دون عقاب .

خيم الصمت . كان صمتاً ثقيلاً فظاً ، فالدباسي لم يكن عنده شيء يضيفه ، بل وأحس اكثر من ذلك بعدم جدوى الكلام . أما الناس الذين تفاءلوا وتوقعوا ، والذين انتظروا عودة الدباسي من دار الامارة ، فقد تأكدوا ان الوضع اصعب من ان ينتهي بسرعة ، أو كما يريدون ، ولذلك لم يجدوا ما يقولونه . ولما وقف الدباسي مستنداً الى عكازه يريد الانصراف . طلب من سلمان وفواز ان يقتربا منه ، فلما اقتربا وتحرك هو قليلاً كاد يسقط لاختلال توازنه ، لكنه اتكأ على سلمان وتلامس جسداهما تماماً فهمس :

ـ هذا اللي قدرت عليه ، يا وليدي ، مع الجماعة . .

وأشار باصبعه ثم اضاف بلهجة ود :

ـ واذا احتجتم اي شيء تعالوا . تسمعوني ؟ تعالوا لأبو صالح قبل ما تروحون لأحد وعسى ان الله يقدّرنا .

وأضاف ووجهه الى الأرض وبدا حزينا :

ـ الله يلعن الشيطان ويخزيه .

جاء نعيم قبل الحادية عشرة الى دار الامارة لكي يستفسر عن الاقتراح الذي تقدم به هاملتون بالأمس حول تكوين غرفة للعمليات . وحين ابلغ الأمير اضطرب قليلا ، وكأنه لم يتوقع مجيئه ، تمنى في تلك اللحظة لو أن التلفون ، هذه الآلة العجيبة ، يعمل بينه وبين المعسكر ، اذ لو كان موجوداً لأمكن الاتفاق على كل شيء ، يمكن ان يتحدث مطولاً مع هاملتون ، او مع حسن رضائي وجوهر والاخرين ، قبل أن يجيب عن أي سؤال او أي طلب . مرت هذه الرغبة في نفسه ، وحين ظل كاتبه ينظر اليه مستفسراً حول ما يجب ان ينقله الى نعيم . . . سأل :

ـ وجوهر . . وين جوهر ؟

ولما جاء جوهر قال له الأمير ، وقد تظاهر بالحزم :

ـ تروح انت والترجمان ، تأخذ معك نجم وأبو صادق وتروحون يمّ الجماعة . . .

وشوفوا اللي تقدروا عليه .

قال فيليب :

ـ الشركة لن تلبي مطالب العمال ، ولن تعيد تحت الضغط والتهديد الـذين تركوا الخدمة ، لأن سابقة من هذا النـوع تفقـد الشركة هيبتهـا ، وتشجـع العمال على المطالبـة باشياء اخـرى ، هذا اولا . وثـانياً ، ليس من رأي الشركة ، في هذه المرحلة ، اللجوء الى القوة ، لأن الأمور لم تصل الى حد يُلزم باستعمال القوة . يمكن ان نعطي وعداً بدراسـة الأمـر ، على أن يعـود العمال المضربـون فوراً الى العمل ، ويمكن ان نؤكد استعداد الشركة لاعطاء الذين تركوا الخدمة الأولوية في حال وجود شواغر . وثالثاً واخيراً ، ان إدارة الشركة تنوه ان الاضراب الذي حصل بالأمس له أسباب تتجاوز الاستغناء عن مجموعة من العمال . ونحن نتسـاءل ولا نجزم .

هكذا بدأ فيليب، أحد ممثلي الشركة في غرفة العمليات، ونعيم الذي ترجم ما قاله فيليب ، قرأ الترجمة من نص مكتوب ، ورغم ان جوهر تظاهر انه يصغي اصغاء تاماً ، إلا أن ذهنه شرد أكثر من مرة ، ولم يفهم بعض العبارات التي قرأها نعيم . تطلعت العيون الى جوهر وكأنها تطالبه ان يتكلم ، ان يقول شيئاً . اضطرب ، أحس انه محاصر ، ضرب الطاولة بعصاه بشكل مفاجيء بحدة :

ـ اذا ما كسّرنا رؤوسهم ، اذا ما ضعضعنا عظامهم يركبونا .

ضحك ارنولد لما ترجمت العبارات التي قالها جوهر ، بعد أن استفسر منه نعيم عن كلمة « ضعضعنا » ، فشعر جوهر بالثقة ، واستنتج ان الامـيركيين يتفقـون معه . تابع :

ـ جماعتنا وحنا نعرفهـم زين : أضرب الخشم تدمـع العـين ، نضربهـم ، ندق عظامهم ، وكل شيء يرجع مثل ما كان .

سأل فيليب :

ـ هل هناك علاقة بين مقتل البدوي والاضراب ؟

أصيب جوهـر بالذهـول بعدمـا تُرجـم سؤال فيليب . بدا شاحـب الوجـه ، عصبيا ، رد بحدة :

ـ هذه سالفة وهذه سالفة . . .

ولم يُفهم ما قصد اليه بعد ان ترجم كلامه . ظلت العيون تتابعه . اضاف :

ـ يا جماعة الخير . . . مفضي طلايبـه قتلتـه ، وهـو مات وراح ، والبـدوان اللي يشتغلون بالشركة سالفتهم غير سالفة .

ـ لماذا لم تحصل اضرابات قبل هذه المرة ؟ لماذا لم يضربوا قبل شهرين أو بعد ان انتهى مد الخط واستغني عن عدد كبير من العمال ؟

ـ اذا رنت الطاسة طلعت الف رقاصة . كانوا يريدون حجة وجاءت الحجة !

قال فيليب وهو يقرأ من ورقة :

ـ الظاهرة التي نواجهها اليوم تتطلب الدراسة والمعالجة على مستـويين : المستـوى الأول ، العاجـل ، انهـاء الاضراب ، دون ان ترضـخ الشركة ، ودون اعمال عنف . أما المستوى الثاني فدراسة وضع العمال بدقة لمعرفة الجوانب العميقة : هل هنالك تيارات سياسية ؟ هل ثمة تنظيمات ومحرضون ؟ وهل ثمة أسباب خارج مجال الشركة والعمل ؟

قال حسن رضائي :

ـ اي نعم . . . المسألة غير طبيعية . هذا شيء مؤكد . اي نعم المسألة غير طبيعية ، ويجب ان ننتبه كثيراً ونحتاط للمستقبل .

رد جوهر بغضب ولم يكن يتابع ما يقال :

ـ انتم لا تعرفون البدو ولا تعرفون خبثهم . الواحد منهم العن من إبليس .

هز حسن رضائي رأسه وعقّب :

ـ الحق معك ، خبثاء ، أي نعم ، خبثاء جداً ، الواحد منهم يضحك لك ويحفر تحت رجليك . واذا ظفر بك يذبحك وما يرفّ له جفن .

نقل جوهر عينيه بين رضائي والأميركيين . يريد أن يؤكد كل كلمة قالها حسن رضائي . عاد فيليب الى الحديث مجدداً :

ـ أنتم ادرى بهؤلاء الناس ، وما يهمنا الآن هو إنهاء الاضراب .

ـ اتركوا المسألة عليّ .

هكذا رد جوهر . قال فيليب :

ـ موافق ، على ان لا يُلجأ الى العنف ، على الأقل في هذه المرحلة .

وانتهى الاجتماع دون الاتفاق على شيء نهائي ، اذ اقترح رضائي ان يُراقب

الوضع خلال اليوم ، وان تجتمع اللجنة مرة اخرى مساءً ، أو في وقت يتفق عليه لاحقاً .

تأكد جوهر ان لا أحد يعرف معالجة القضية كما يعرف هو ، فالأميركان يتحدثون عن قضايا معقدة ، وليست لها صلة بما يحدث . يقولون نوافق ولا نوافق ، وهم لا يعرفون عن أي شيء يتكلمون . انهم لا يعرفون البدو أبداً ، يتصورونهم أناساً بسطاء ، مسالمين . . انهم لا يفهمون !

وقرر جوهر ان يتحرك بسرعة ، خاصة حين تبين له أن محاولات العناصر التي أرسلت صباحاً الى المسجد لم تجدِ ، وتأكد اكثر من ذلك ان العمال يريدون تجنب الاصطدام به .

الوقت بين العصر والغروب . الرجال في ظلال المسجد وظلال الدكاكين المجاورة ، بعد أن جالوا حران ، حتى نهاية شارع الحارثي ، للمرة الثانية ، يقيلون التماساً لبعض الراحة ، وانتظاراً لانكسار حدة الشمس قليلاً ، لكي يقوموا بالشوط الثالث والأخير لهذا اليوم ، ولكي يختموا يوماً ثانياً طويلاً وثقيلاً ، وكانوا ينتظرون ايضاً عودة الذين ذهبوا الى المعسكر لاحضار بعض الحاجات . في هذا الوقت بالذات سمعت أصوات الرصاص . كانت الأصوات بعيدة متقطعة ، وكانت تأتي من جهة المعسكر . قال سليمان الزامل .

ـ ابن الحرام . جوهر ، سوّاها .

رد ابن نفاع الذي كان يحدّث عدداً من الرجال .

ـ الله يستر . . .

خلال ذلك تراكض بعض العمال ليستطلعوا ما حصل ، وخيم نوع من الصمت القاسي المتوتر . أما حين بدت من بعيد مجموعة من العمال تركض نحو حران ، وسُمع صوت الرصاص مرة ثانية ، فقد اتضح الموقف كله : تأكد الجميع أن شيئاً خطيراً قد وقع .

وأهل حران الذين كانوا الى ذلك الوقت يضحكون ويمزحون ، وكانوا أقرب الى التسامح ، شعروا ان في داخلهم شيئاً يتغير . شعروا أن أمعاءهم تؤلمهم ، وأنهم غير قادرين على البقاء في نفس المكان . أما كلمات ابن نفاع وغيره من الذين كانوا يتحدثون فقد تلاشت أو لم تعد تسمع . وتلك القوة أو السيطرة التي يمتلكها بعض الناس في الأحوال العادية ما لبثت أن سقطت. خلال دقائق قليلة وصل ثلاثة من العمال . كانت وجوههم شديدة الصفرة وعيونهم زائغة ، وكانوا يلهثون . ومن الكلمات السريعة المتقطعة التي قالوها فهم الرجال ان اثنين من العمال قد جرحا أو ربما قتلا ، وأن آخرين حوصروا بين محطة الكهرباء والعنابر الأولى ، وهؤلاء المحاصرون يطلبون المساعدة والنجدة ، لأنهم اذا تركوا هناك فسوف يفتك بهم الجنود .

كان للكلمات وهي تتساقط في اذان الرجال وقع الطبول . كانت تضجّ وتتحرك كما لو انها الزوابع ، ومع ضجتها وحركتها يرتفع غضب الرجال ويحسون في أصداغهم نبضاً قوياً ، أما نظراتهم فقد توزعت بين الرجال الذين يلهثون أمامهم وبين أولئك المحاصرين هناك عند محطة الكهرباء وقرب العنابر .

قال احد الرجال وهو يتناول قضيباً حديدياً :

- اليوم يومكم يا نشامة .

وركض وركض وراءه الكثيرون . تناول كل واحد منهم ما وصلت اليه يداه : قضيباً حديدياً ، عصا ، قطعة من الحجارة أو جزءاً من لوح خشبي ، كانوا يتراكضون كما تتراكض الجمال ، ومع الركض انبثق فجأة غناء يعرفونه منذ أيام بعيدة ، ويأتي هكذا تلبية لحاجة يحسونها تطفو وترتفع على كل ما عداها من الأصوات والعواطف والأحاسيس .

كيف اجتمعت هذه الأمواج البشرية ومن أين جاءت ؟ كيف وصل أهل حران بهذه السرعة وكيف سبقت النسوة الرجال وهم يتجهون نحو المعسكر ؟

إن شيئاً أقرب الى السحر قد حصل في تلك الساعة . فابن الزامل الذي صرخ يريد أن يوقف الناس ، والذي شتم وامسك ببعض الرجال ، وجد أن صوته يضيع . أما الرجال الذين امسك بهم فقد نظروا اليه بطريقة معينة ، فتراخت يداه

ووقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل ، ثم وجد نفسه فجأة يركض مع الراكضين ، بل وسبق الكثيرين . وابن نفاع الذي امسك بعصاه واخذ يهزها في الهواء وجد أنه يغني مثل الآخرين ، ورغم أنه لا يستطيع أن يكون كالشباب ، إذ لا يقوى على الركض أو حتى مجرد السير السريع ، ما لبث أن انبثقت من داخله قوة خارقة ، وهو نفسه يستغرب كيف استطاع أن يصل الى المعسكر بهذه السرعة . حتى خزنة التي كانت في طريقها الى حران العرب ، حاملة معها رغيفاً من الخبز ، بعد أن قضت نهارها كله قرب المسجد ، وتجولت في السوق ، وكانت تردد كلمة واحدة كلما رأت مجموعة من الناس « الله يقويكم والله ينصركم » ما كادت خزنة تضع أقدامها على أول المنحدر ، وكان خزان الماء يبين أمامها كأنه صخرة كبيرة ، وتراءت لها غمامة سوداء تحيط به ، حتى سمعت أصوات الرصاص . التفتت للحظة صغيرة ثم تدحرجت وركضت عائدة نحو المسجد . قال الكثيرون انها كانت تهزج وتحدو ، وكانت الدموع تتساقط من عينيها . ولا يُعرف ما اذا كانت دموع فرح أم حزن ، لكن كل من رآها تركض هكذا تجاه المعسكر أصابته حالة من الهياج والنشوة ، ورغم أن كثيرين قد سبقوها إلى هناك الا أن غناءها كان شديد الوضوح ، وكان مؤثراً وقوياً .

كانت الجموع تتحرك كتلة واحدة ، وكانت أصواتها ترتفع حتى تصل الى أبعد الأمكنة ، بل وتعلو على أصوات الرصاص ، وعلى الصراخ الذي يأتي من الجهة الثانية . . .

أما كيف حصل الأمر منذ البداية ، فان جوهر الذي كان ذاهباً الى معسكر الأميركان ، وما كاد اثنان من الجنود يقولان له ان مجموعة من العمال قد وصلت الى المعسكر ، وأنهم سمحوا لهم بالدخول ، بعد أن قاموا بتفتيشهم ، ما كاد جوهر يسمع ذلك حتى صرخ مثل ذئب :

- وتركتموهم يدخلون . . يا أولاد الحرام ؟

ولما صمت الجنود وأرخوا رؤوسهم الى الأرض صرخ اكثر من قبل :

- والله لألعن اللي خلفوكم . والله لأكسّر روسكم قبل ما أكسر روسهم .

وهجم على أحد الجنود القريبين وضربه بعصاه وسأل :

- وين صاروا ؟ وين راحوا ؟

ولم يصل جوهر الى معسكر الأميركان . فقد أعطى أوامره باطلاق النار ، ولكي

لا يترك مجالا للتردد أو الانتظار أشهر مسدسه وبدأ إطلاق النار بنفسه، وخلال فترة قصيرة انهمر الرصاص، وملأ المكان. العمال الثلاثة الذين احتازوا الأسلاك الشائكة ووصلوا الى المسجد، نقلوا فقط المشاهد الأولى، أما عندما وصل أهل حران ومعهم جموع العمال، فقد خيم على المعسكر خلال الفترة الأولى صوت واحد ملأ الفضاء كله: الله اكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أين ذهب جوهر؟ ماذا يهيء؟ والعمال المحصورون أين هم الآن؟

قال خالد العبسي، في لحظة صمت، مخاطباً الجنود الذين كانوا وراء البراميل وبنادقهم موجهة الى الناس:

- اتركوا العمال واعطونا المجاريح.

رد أحد الجنود، وقد خرج صوته مضطرباً:

- اذا تقدمتم خطوة نطلق النار.
- البارود ما يخوّف يا ابن الحلال، البارود عطر الرجال، والأحسن اتركوا الجماعة واعطونا المجاريح.
- خطوة... خطوة واحدة ونطلق النار.

صرخ ابن نفاع وهو يتقدم

- اسمع يا ولد، اخزوا الشيطان واتركوا الناس اللي عندكم واعطونا المجاريح.

من مكان بعيد، بصوت شرس مكتوم، أقرب ما يكون الى صوت رجل في كهف، جاء الأمر:

- ارم.

أكد كثيرون أن صوت الرصاص امتزج امتزاجاً كلياً بزغاريد خزنة الحسن، وكأنها في عرس. وأكد هؤلاء وغيرهم أن أكثر الرجال التفتوا الى خزنة ولم يلتفتوا الى صوت الرصاص، لكن حين رأوا ابن نفاع يميل قليلاً على عصاه، ثم ينزلق ويسقط على الأرض فقد التفتوا، أصابهم الذهول للحظات، وحين رأوا عصا ابن نفاع ترتفع في الهواء، وكأنه يلعب بها، ثم سمعوا صوتاً يقول بحشرجة:

- ذبحني حدم الأميركان...

وبعد قليل أضف وهو يحاول الابتسام:

- لكن لا تخافوا.

حين رأى الناس وسمعوا ما قاله ابن نفاع ادركوا انه أصيب. كان يتحرك حركة ثقيلة، صعبة، وكان الألم واضحاً على وجهه، أما عندما ظهر خيط الدم تحت ظهره، وهو ينقلب، فقد سمعوا خزنة تحدو:

الموت يموت... وانت ما تموت
يا أبو عثمان
عز الرجال وفوق الروس
يا أبو عثمان
الموت يموت وأنت ما تموت... يا أبو عثمان

أي جنون يمكن أن يسيطر على البشر في لحظة مثل هذه وأية قوى يمكن أن تتفجر؟

كما تضرب الريح الشجر، أو كما تلطم الأمواج الصخر، ضربت ريح الغضب كل وجه وكل قلب، ولطمت ذلك التعقل الخائف الذي كان يسيطر قرب الجامع أو في السوق. أصبح الناس في لحظات ناراً أو كالرياح العاصفة. لم يعودوا خائفين من شيء أو يقيمون وزناً لشيء. وجوهر الذي استمر يصرخ: «إرم... إرم» لم يصدق عينيه أن الناس يهجمون كالسيل ويتقدمون كالجراد، ولم يصدق أن جنوده المسلحين يمكن ان يتراجعوا ثم يبدأون الفرار.

اهتزت العوارض الأسمنتية كما يهتز القصب الفارغ، واقتلعت كما تقتلع الأشجار الميتة، أما الأسلاك فقد دفنت خلال لحظات تحت الرمل، وتدفقت بعد ذلك امواج البشر. قال كثير من الناس انهم رأوا فواز الهذال وأخاه مقبل الذي وصل حران قبل أسابيع قليلة، قالوا انهم رأوهما يطيران فوق الرؤوس. كانا كالعصافير يطيران ويصرخان: «جيناك ولبيك يا يوبه» وإن فواز كان أول من وصل الى الجرحى. واكد الكثيرون انهم رأوه وحده يحمل إبراهيم الدوسري، رغم ان ابراهيم يفوقه وزناً. وكان أول، أو أحد اثنين، عرف بمكان الجرحى، وأين اختفى العمال الأربعة، وساعد في انقاذهم. أما جوهر الذي رأى الجموع تهجم وتقتحم، ورأى رجاله يتراجعون ثم يهربون، فلم ينتظر طويلاً لكي يهرب. اتجه الى معسكر الأميركان، لكن قبل أن يصل البوابة ادركه فواز الهذال، امسك به من رجله فسقط، ولولا انه استعمل اسنانه وعض يد فواز عضة قوية تركت علامة استمرت فترة طويلة من الزمن، لولا تلك العضة لما تركه فواز يفلت.

أما الذين وصلوا متأخرين بعض الوقت الى المعسكر فقد ذكروا انهم شاهدوا من بُعد رجلاً على ناقة بيضاء يطارد الجنود ويطلق النار عليهم ، وأنه اقتحم بوابة المعسكر الرئيسية ، وقد تساءل الكثيرون ما اذا كان الرجل متعب الهذال . أما أناس آخرون فقد أكدوا بتصميم لا ينفك يقوى ويزيد انهم شاهدوا طيفاً أقرب الى الانسان يطير فوقهم ويشبه تماماً مفضي الجدعان . واكد هؤلاء أن الجنود الذين اطلقوا النار كانوا في حالة من الفزع بلغت درجة الرعب والصراخ ، وإن اكثر الطلقات وجهت الى هذا الطيف ، الى مفضي الجدعان . وقد روى الكثيرون فيما بعد ان ملابس الرجل كانت مليئة بالثقوب التي احدثها الرصاص .

بعد إنقاذ العمال المحتجزين كان يمكن للناس أن يتابعوا هجومهم ، لكن خالد العيسى الذي وقف على سطح خزان الماء قال وهو يلهث :

ـ يكفي يا جماعة الخير . وهالحين اسعاف المجاريح .

بعد تردد لم يطل تحول الناس الى الجرحى ، والذين لم يشاهدوا مفضي الجدعان اثناء اقتحام المعسكر أو حين هرب الجنود ومعهم جوهر ، فقد شاهدوه اثناء نقل الجرحى بل وأحسوا به تماماً ، لأن الجرحى كانوا يودون أن يفلتوا ، كانوا يطيرون من بين الأيدي ، إذ أصبحوا بوزن الريش أو أخفّ من ذلك . وكانت هناك أيدٍ لا تحصى ولا ترى تساعد وتحمل مع الذين يحملون .

قال محمد عيد من وراء الباب ، عندما ذهب بعض الناس لاستدعاء الطبيب :

ـ الحكيم مسافر ، ولن يرجع قبل أسبوع .

أما الدباسي الذي أرسل ابنه صالح إلى معسكر الأميركان لكي يبحث معهم مكانيه استقبال الجرحى ، فقد تلقّى جواباً واضحاً :

ـ يمكن للشركة أن تقدم الاسعاف الأولي ، في المكان الذي يوجد فيه الجرحى ، وهذا لن يتم الا بموافقة الأمير خالد ، وبعد ذلك يمكن أن ينقل الجرحى الى عجرة . أو الى أي مكان آخر .

وصالح الدباسي الذي أكد لنعيم ولواحد من الأميركيين ، كان يراه لأول مرة ، أن حالة اثنين من الجرحى دقيقة ، وتتطلب علاجاً سريعاً ، تلقى اجابة واضحة ومختصرة :

ـ لا يمكن البت في مثل هذا الطلب قبل عودة المستر هاملتون أو نائبه ، والاثنان في رحلة بحرية منذ الصباح الباكر، ولا ينتظر عودتهما قبل منتصف الليل .

لم ينتظر الناس جواب الدكتور المحملجي أو محمد عيد الأبري ، لأنهم لم يفكروا بذلك . أما ذهاب صالح الدباسي الى المعسكر فقد اعتبره الكثيرون اهانة لا يمكن السكوت عليها .

فابن نفاع الذي اسعف في المسجد ، وقد ساعد خزنة في تنظيف الجرح الذي أصيب به في الفخذ اثنان من العمال ، ثم حُمل بعد ذلك الى بيته ، قال في الليل ، وكان الدباسي يزوره ، وقد حدثه بما حصل مع ابنه ، وأي جواب تلقى من الأميركيين :

ـ ما أظنك تقبلها لنا يا أبو صالح ، وإذا الله كتب لنا الموت نموت ببيوتنا وبين اهلنا ، أحسن ما نموت عندهم مثل الكلاب .

الجريحان اللذان سقطا في بداية المعركة ، رغم أن إصاباتهما لم تكن خطيرة أو قاتلة ، أتعبهما النزيف ، ولذلك لم تجرؤ خزنة على أن تمد اليهما يدها . قالت وهي تعض على شفتها فتدميها :

ـ وينك يا أبو الأيتام ، يا أخو الجهرا .

قال راجي الذي ربط كتف احد الجريحين ربطاً قوياً فأوقف النزيف :

ـ أنا آخذهم لعجرة ، خلال ساعة أو ساعتين نطبّ عجرة وهناك ندبرهم .

وضُمّد جرح الآخر . أما عندما ذهب سلمان الزامل للدباسي لكي يطلب منه سيارته من أجل نقل الجرحى الى عجرة ، فقد قال الدباسي وهو يزفر بحرقة :

ـ الله يلعن اليوم اللي انبنى فيه أول حجر بحران ، والله يلعن اليوم اللي جيت فيه ، لأنه ما جاء منها الا المصايب . . .

وأضاف بعد قليل بلهجة يائسة :

ـ حتى فلوسها سودا وما تنراد .

وخلال فترة قصيرة كانت السيارة على الطريق . لم تتوقف في الكيلو مائة وستين ولم تتوقف في المائة وعشرة . والغانم الذي وقف قريباً من الطريق وأشار بيده قبل أن تصل السيارة، بل وتصور ، للحظات ، أن راجي يمزح معه ، ولا بد أن يتوقف

ويرجع ، رغم تجاوزه المقهى وظل بنفس السرعة ، فقد قال بصوت عال واستغراب :

ـ ما أظنه يصير حرامي آخر أيامه .

توقف لحظة وهو يهز رأسه استغراباً وتابع :

ـ مثل ما الغايب عذره معه ، المسافر عذره معه .

وخلال اقل من ساعتين كانت السيارة تدخل عجرة . دخلت مع أذان العشاء ، وتوجهت رأساً الى المستشفى الوطني .

قال الاثنان اللذان رافقا راجي والجرحى :

ـ اكثر من مرة متنا . كانت السيارة تطير فوق الأرض ، كانت تسبح في الهواء ، لكن أبو يعقوب ، خيّال الشقرا ، وصّلنا .

انتهت خزنة من تضميد الجرحى الثلاثة ، وقد ساعدها الكثيرون ، حتى آمنة الصغيرة كانت تتحرك في المسجد كما لو انها عاشت فيه سنواتها كلها . كانت تقدم لخزنة ما تريده : الماء الساخن ، الخرق ، ولا أحد يعرف من أين جاءت بالأغطية الصوفية التي طلبتها خزنة .

بعد أن انتهى تضميد الجرحى ، قالت خزنة ، وقد بانت سنها الأمامية ، وهذا دليل الفرح :

ـ بعون الله وعون ذاك اللي تعرفونه انكتبت لكم حياة جديدة .

وقد فهم الجميع انها تعني مفضي . أما خلال الليل فقد تراءى لعدد لا يحصى من الناس مفضي ، كان ينتقل بين المسجد وحران العرب ، ولم يبق احد الا ولمح ثوبه المطرز بالرصاص ، وأكد ثلاثة ، أحدهم من العمال والآخران من حران ، كد الثلاثة انهم تلمسوا الثوب الذي اخترقه الرصاص ، ووجدوا أن أطراف الثوب محروقة ، ولما رآهم مفضي يتلمسون الثوب ، ويبدون استغرابهم ضحك قال انه يستحق ثوباً جديداً !

وقال راجي ، الذي نام مع العمال الجرحى في عنبر المستشفى ، بعد الكثير من الصخب والاختلاف ، حيث رُفض طلبه أول مرة ، وأودع الاثنان اللذان كانا

يرافقانه السجن ، الى حين انتهاء التحقيق ومعرفة كيف جرح الرجلان ومن المسؤول عن ذلك ، قال راجي انه رأى مفضي في تلك الليلة مرتين ، الأولى حين ثبت الغطاء على أحد الجريحين ، والمرة الثانية بعد الفجر حين جاء بالماء الى مريض في نهاية العنبر .

اما في الليل المتأخر فلم يبق أحد في حران الا ورأى مفضي . بدا أول الأمر متعبا ، ربما من عمل النهار الطويل ، لكن بعد ان شرب الشاي في بيت ابن نفاع ، وكان أبو عثمان ممددا في صدر الغرفة ، نهض بعزم وقوة ، فك الجرح وقرب الضوء كثيرا لكي يتأكد ، فلما اطمأن ربط الجرح مرة ثانية ، وقال ان خزنة فعلت احسن مما يفعل هو ، وبعد ذلك استأذن لكي يمر على الجرحى الآخرين الذي نُقلوا الى بعض البيوت . أما حين سئل عنهم وما اذا كان سيعود في اليوم التالي فقد هزّ رأسه وضحك ولم يجب . . ثم اختفى .

لما سمع الأمير خالد صوت الرصاص ، وكان يجرّب التلفون بعد العصر وقبل الغروب ، أصيب بشيء ما ، وهو يؤكد أن هذا الشيء ليس الخوف بأي حال من الأحوال ، لأنه عندما نظر في وجه نائبه الذي كان يداعب القط الأسود ، وكان يتفاءل به كثيراً ، اختلط صوت الرصاص بمواء القط ، ويؤكد الأمير انه في نفس اللحظة خرج بريق يشبه لمعان الشمس من عيون الاثنين ، وأعقب ذلك البريق دخان ازرق . هكذا شرح الحالة للطبيب الباكستاني الذي استدعي على عجل بين المغرب والعشاء لكي يفحصه .

أما نائب الأمير فقال لحسن رضائي والدباسي ، بعدما عرفا بمرض الأمير المفاجىء وجاءا لزيارته ، قال هامساً وهو يتلفت في كل لحظة :

ـ خلال اليومين الماضيين أبو مسفر ما يعجب . . .

قال هذه الكلمات وهو يهز رأسه حزناً ، وبدأ يتذكر من جديد :

ـ أول امس ما كان به خلاف . كان يسولف ويضحك ، وأنتم شفتوه . امس ، بعدما راح ابو صادق قال : « الوجع هنا وهنا » وأشار الى رقبته ومؤخرة الرأس . قلت له « تعبت يا أبو مسفر » قال : « ما أظنه تعب ، شيء يتلوى ، لا يطلع ولا ينزل ، مثل سيخ النار » قلت له : « توكّل الله . إذا نمت كل شيء يروح » ولازم

تستريح » قال : « ما أظن إني مصبّح » قلت « وكل الله يا رجل » وظليت معه الى أن نام .

اليوم ، من الصبح ، ما يعجب ، أبو صالح شافه . شفته يا أبو صالح . عيونه بالسما وكأنه ضايع ، وما أكل ولا شرب .

لما سمع الرصاص قال : « خلصت » وبلّش بالماخوذ « هالو . . علو . . اجب ، حول » وقال « الأميركان ما لهم أمان ، وما لهم صاحب » وأندار عليّ « الدخان ، الدخان يطلع من عيونك ومن خشمك يا أبو رشوان . دخان أسود ، دخان أزرق ، دخان بكل مكان » ضربته الحرارة . قلت لنفسي : السخونة تخلي البني آدم يهذي ، وبعثنا وجاء الحكيم الهندي ، ما قال له وين الوجع ، ظل يسولف عن الدخان . الدخان من هنا ، الدخان من هنا ، والطبيب يريد يفحصه وهو ما يوافق ، ولا يخليه يمد يده . قال الهندي : « أعطوه هذا الدواء . . إذا أخذ الدواء ينام ويستريح وبعدها يصير أحسن » لكن الله يهديه ما يريد ولا يوافق . بعث على مساعد الطبيب الشامي ، قال له تجي وتجيب معك السماعة . . . . وجاء ! » .

هكذا عرض نائب الأمير على الرجلين ما حصل ، وكانت من الغرفة المجاورة تصل اصوات متداخلة صاخبة ، وكان يمكن تمييز صوت الأمير من بين هذه الأصوات ، وهو يصدر اوامره أو حين يهذي : « ألو . . أجب . . . حول ! » أو وهو يصرخ : « فوق . . شوي فوق . . لا . . تحت ، يمين . . . بعد يمين » .

نظر حسن رضائي الى الدباسي متسائلاً ما اذا كان من المناسب او اللائق زيارة الأمير وهو في هذه الحالة ، أم يكتفيان بأن يبلغا نائبه أنهما يرجوان له الشفاء العاجل ويغادران . كان نائب الأمير بحاجة اليهما ، ويريد مساعدتهما في هذه اللحظات الصعبة ، كان يريدهما أن يبقيا الى جانبه ، ولكنه يتحسب أيضاً من ردة فعل الأمير اذا رآهما ، أو إذا عرف بوجودهما ولم يزوراه ولم يدخلا عليه .

قال الدباسي بصوت متعب وهو يدق الأرض بعصاه :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . . .

توقف قليلاً ثم تابع .

ـ إذا جاءت المصايب تجي غمر وزود ، تجي مثل السيل ، لا تبقي ولا تذر .

رد حسن رضائي :

ـ إذا مرت هذه الأيام على خير ، ورجعت صحة الأمير كل الأمور تهون .

قال الدباسي كأنه يكلم نفسه :

ـ ما أظنها يا أبو صادق .

ودب الصخب اكثر من قبل ، ومع الصخب الشتائم ، نظر نائب الأمير الى الرجلين بحيرة وتساؤل .

انفتح الباب فجأة وأطل الأمير . كان ثوبه مفتوحاً فيظهر صدره عارياً ، وكانت السماعة معلقة في رقبته وعيناه حمراوين والزبد على زوايتي الفم . حين رأى الرجلين جالسين وقد تقاربت رؤوسهم ، وكأنهم يتشاورون ، تقدم نحوهم بخطوات بطيئة حذرة ، كان ينظر اليهم وابتسامة صغيرة حاقدة تظهر على وجهه . قال وهو يقترب اكثر :

ـ الدنيا ما بها أمان . . .

نظر اليه الثلاثة بخوف مشوب بالشفقة . قال نائبه بارتباك :

ـ عساك أحسن . . يا أبو مسفر ؟

تابع الأمير دون أن يلتفت الى ما قاله نائبه :

ـ الأميركان بعثوا الهندي وقالوا له : إذبحه ، لا تخليه يصبّح . وها الحين انتم تقولون إذا الأميركان ما ذبحوه حنا نذبحه . ها ؟

قال الدباسي بيأس مرير :

ـ وكّل الله يا أبو مسفر ، قلوبنا معك ، ونريدك تتعافى اليوم قبل باكر .

ـ ما بي خلاف ، ومثل ما تشوف اقوى من الجمل .

واقترب خطوه اخرى ، فأصبح يقف فوق رأس نائبه تقريباً . تراجع نائبه مذعوراً . قال الأمير :

ـ انت مريض يا أبو رشوان ، قل لي الوجع وين مكانه ؟

وانحنى فوقه أكثر . امسك بالسماعة وتابع :

ـ ها . . وين الوجع ؟ لا تخف ، قل لي . . وين وما عليك . . . الباقي علي .

وبصعوبة أدخل الرجال الثلاثة الأمير الى الغرفة الأخرى ، الغرفة التي جاء منها . وجدوا في الزاوية محمد عيد . كان خائفاً يرتجف وقد اصفر وجهه أما في الزاوية الثانية فقد رأوا اثنين من رجال الأمير ، وما كاد الجميع يدخلون ، ويبدأ بعضهم في اقناع الأمير بأن يستريح ، بأن ينام ، حتى نظر الى محمد عيد ، قال له بلهجة حاقدة وبصوت بطيء :

ـ سافر . . . ها ؟ ومتى يرجع ؟

وبغمغمة غير واضحة حاول محمد عيد ان يجيب ، لكن الأمير لم ينتظر اجابته ، تابع وهو يضحك :

ـ ابن الحرام الخبل يتصور اني مخبول . . . وأسفّ الزعـوط اللي يعطيني . لا . . لا يحلم ، دفنته كله بالرمل وبلت فوقه !

قال حسن رضائي :

ـ يا أبو مسفر لو استرحت ساعة أو ساعتين .

التفت الأمير الى أحد رجاله وقال :

ـ تعال . . أنت .

تقدم الرجل خائفاً . قال الأمير وهو يشير الى محمد عيد :

ـ هذا مثل سيده وراعيه ما يقول الصحيح ، ولا يعرف شيء أبداً . أريدك أنت تعلمني ، تقول لي اللي تقوله هذي .

وانتزع السماعة من رقبته وثبتها في اذني الرجل الذي بدا مرعوباً مرتبكاً وهو ينقّل نظراته بين الرجال الحائرين والأمير .

تمدد الأمير على الفراش وطلب ، باشارة من يده ، الى الرجل ان يتقدم . أن يضع السماعة على الصدر قرب الرقبة ، والرجل الذي لا يعرف كيف يتصرف ، كيف يتحرك . كان في حالة يرثى لها ، وكان الرجال الآخرون حائرين لا يعرفون ما ينبغي ان يفعل .

بعد محاولات عديدة ، تخللها الرجاء والتوسل ، وتخللها نوع من الحزم ايضاً ،

وبعد ان تم اخراج محمد عيد والرجلين الآخرين ، امكن اقناع الأمير ان يستريح ، أن يتمدد في فراشه ، وربما وافق نتيجة التعب .

قبل أن ينتصف الليل كان الأمير يغط في نوم عميق ، وقد تمكن نائبه وحسن رضائي من سحب السماعة التي اصر على وضعها في أذنيه وعلى صدره ، وتركاها الى جانب الفراش . أما الدباسي فقد انسحب في وقت مبكر ، ومرّ على ابن نفاع قبل أن يذهب الى بيته .

يوم الخميس . بعد شروق الشمس بقليل ، ذكر الخارجون من المسجد انهم شاهدوا ست سيارات تابعة لدار الامارة ، وكانت ضمنها سيارة الأمير . توقفت السيارات قليلاً في شارع الراشدي ، مقابل مكاتب حسن رضائي ، ثم تحركت واخذت طريق عجرة . وقد اكد هؤلاء انهم شاهدوا الأمير في احدى السيارات . كان يضع في رقبته الساعة الطبية ويحمل بيده قطعة حديد سوداء لم يتبينوا ماهيتها أو لأي اغراض تستعمل ، وهي تشبه يد المهباش أو الملعقة الكبيرة ، وكان الأمير يقرّب من فمه هذه الحديدة ويصرخ ويشتم ، والى جانبه في السيارة كان حسن رضائي ، الذي حاول اكثر من مرة ان يمسك به وان يهدئه ! أما في السيارة الثانية فكان جوهر ممدداً داخلها ، وقد رفع رأسه لحظة اقتربوا من المقبرة ، وتأكد الكثيرون من ذلك ، لأن مرافقه الأسود كان يجلس الى جانب السائق وكان يتلفت نحو المقعد الخلفي بين لحظة واخرى ، أما السيارات التي وراءها فكان فيها الحرس والمرافقون وبعض افراد عائلة الأمير .

ذكر عبده محمد ان احدى سيارات الامارة جاءته قبل ثلاث ساعات من الموعد الذي تأتي به عادة ، وقد اضطر الجنديان المكلفان بجلب الخبز للانتظار وقتاً ليس قصيراً لكي يؤمن لهما ما طلباه ، وفهم من الحديث الذي دار بين الاثنين ان مجموعة

من دار الامارة تستعد للسفر ، لكن لم يعرف على وجه مؤكد هوية المسافرين أو عددهم .

وذكر المسافرون الذين وصلوا من عجرة في الصباح الباكر ، انهم التقوا بسيارات الامارة في الكيلو مائة وستين ، وقد توقفت سيارات الامارة للحظات قريباً من المقهى ، وربما كان مسافروها يريدون الاستراحة ، لكن في اللحظة الأخيرة عدلوا عن ذلك وواصلوا السفر ، واكثر ركاب الباص رأوا الأمير يضع الساعة الطبية في رقبته ، وقد رفع يده بمرح ليرد التحية ، وأكد الجميع إنهم رأوا في السيارة الثانية مرافق جوهر الأسود وحده .

أما خزنة التي كانت عند قبر مفضي منذ الفجر فقد روت عصر الخميس أنها رأت مناماً خلال غفوة قصيرة بجانب القبر . رأت مفضي أو احداً غيره ، إذ لم تستطع ان تميز الوجه بوضوح ، يدفعها عنه ويحاول الابتعاد والهرب ، وقد فزعت وبكت . أما عند العصر فقد قالت ان تفسير المنام هو : « خروج أولاد الحرام وهربهم » كما سمت الأمير وجوهر والجنود الذين اطلقوا النار .

ورغم ان يوم الخميس كان يوماً ثقيلاً قاسياً ، وقد امتلأ بالاشاعات ، خلافاً للأيام التي سبقته ، فان ابن نفاع قال للذين زاروه عند الضحى وذكروا له ما رآه المصلون وما ذكره ركاب باص عجرة ، قال دون ان ينظر للذين حوله :

- يجوز انهم سافروا ، لكن ما يندري يرجعون أو ما يرجعون . . .

وتغيرت نبرة صوته تماماً :

- شفنا قبلهم كثيرين راحوا ، بس اللي يجون ما هم دائماً أخْيَر ، ويمكن نترحم على اللي راحوا اليوم !

قال ابن عساف وهو لا يخفي فرحه :

- المهم خلصنا من هذي البلية يا أبو عثمان . كانت على صدرونا ، وقلت يموتونا قبل ما يموتون .
- البلية ، وأنت الصادق ، اللي على صدرنا ، ذيك . . وأنت تعرفها .
- جوهر وعم جوهر كانوا البلايا يا أبو عثمان .

هكذا رد ابن عساف ، وبعد قليل أضاف وهو يضحك :

- الله . . . يا طريق عجرة كم اخذ وكم ردّ .

تساءل سلمان الزامل :

ـ وطريق البحر ؟

تحرك ابن نفاع في فراشه وقال بعد ان تنحنح :

ـ الطريق ما هو طريق عجرة ، ولا طريق البحر ، الطريق يا جماعة الخير هو اللي يأخذ الجماعة كلهم وبعدها ما يردّون . . .

ولما صمت الرجال تابع كأنه يكلم نفسه :

ـ قلت لكم : الأميركان هم أصل العلة واصل البلية .

عند الظهر صدر عن ديوان الامارة البلاغ القصير التالي :

« . . غادر صاحب السمو الأمير خالد حران صباح هذا اليوم للعلاج ، وقد امر سموه قبل سفره بعودة جميع العمال الى الشركة ، وقد استجابت الشركة لهذا الأمر ، كما أمر سموه بتكليف لجنة للتحقيق وتحديد مسؤولية الحوادث الأخيرة .

« وديوان الامارة اذ يهيب بالجميع الى التعاون وبذل أقصى الجهد يأمل أن يسود التعقل والحكمة لمنفعة الوطن وخدمة المواطنين ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

قالت خزنة لابن نفاع وهي تربط جرحه من جديد :

ـ قولك ، يا أبو عثمان ، إن دم مفضي ما يروح .

رد وهو يضحك :

ـ دم مفضي ، يا خزنة ، راح ، راح . . . راح .

ـ راح !

ـ اسألي ، يا بنت الحلال ، هالحين دم من !

ـ سالفتنا طويلة يا أبو عثمان ؟

ـ طويلة . . . وقصيرة .

ـ وكل الله يا رجال . . . الدنيا صارت بخير .

ـ ما يندري .

وضحك بحزن وأضاف :

ـ تفاءلوا بالخير . . . . لكن لا أحد يعلم بالغيب .

انتهت

شتاء ١٩٨٣